

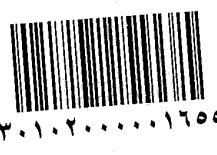
روضة الملاحظات بجمع من
السرف على رساله در فضيلة بعض الخصال النبوية

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القري
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الكتاب والسنة

روضة الملاحظات بجمع من
السرف على رساله در فضيلة بعض الخصال النبوية

دكتور
مستفيد المعطي الخفزي النبوي

در علمها من كتاب
محمد عبد العزيز شلوه
دكتور محمد عبد العزيز شلوه



الصواعق بين الجوار والطلباء

كما جاء

في سورة الاعراف

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في الكتاب والسنة

مقدمة من الطالب

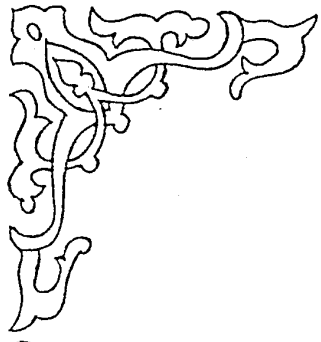
جواد محمد صالح أبو العبد

اشراف

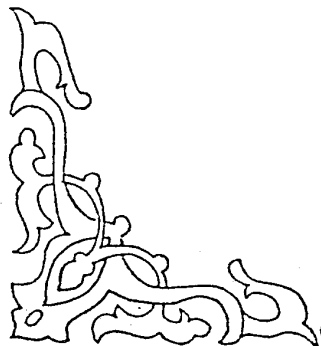
فضيلة الدكتور: محمد عبد المعطي الخفزي النبوي

١٤٠٩ هـ





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ *

❖ البقرة آية (٣١) ❖

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاهتداء

أَهْدَى ثَمَرَةَ جُهْدِي هَذَا إِلَى مَنْ أَرْضَعَانِي بِحَبِّ الشَّرَعِ

وَعَرَسَانِي فِي مَحَبَّةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ..

وَالِدَيَّ الْغَنِيِّينَ أَطَالَ اللَّهُ فِي عُمُرِهِمَا وَمَتَعَهُمَا بِالصِّحَّةِ

وَالْعَافِيَةِ، وَأَنَا لِنِي بِرِضَاهُمَا، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ ❁

" شـكـر و تـقـديـر "

الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافىء مزيده ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد حمد الله حق حمده ، والشناء عليه كما يحب ويرضى أتقدم بعظيم الشكر والتقدير لفضيلة الدكتور مسعد عبد المعطى الحفنى النبراوى الذى تولس الأشراف على هذه الرسالة ومنحنى من وقته وعلمه الكثير الكثير حيث كان اشرافه لايتقيد بساعات الاشراف الرسمية فحسب بل تعداها إلى أكثر من ذلك ، كما غمرنى طيلة مدة الاشراف على هذا البحث بنصائحه القيمة ، وارشاداته النافعة وتوجيهاته الصائبة ، فجزاه الله عنى خير الجزاء ، وأمد عمره وامتعه طيلة أيام حياته بالصحة والعافية .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى جميع المسئولين العاملين المخلصين فى جامعة الملك عبد العزيز وعلى رأسهم معالى مدير الجامعة الدكتور رضا محمد سعيد عبيد وسعادة عميد كلية الآداب الدكتور عبد الوهاب بغدادى الذين أتاحوا لى ولزملائى فرصة التحضير للدراسات العليا فى رحاب أقدس بقعة - مكة المكرمة - فى جامعة أم القرى وبذلوا لنا كل أسباب الراحة المادية والمعنوية .

كما أتقدم بالشكر الجزيل للقائمين على أمر جامعة أم القرى وعلى رأسهم معالى مدير الجامعة الدكتور راشد الراجح . وعميد كلية الدعوة وأصول الدين الدكتور على بن نفيح العليانى . الذين وفروا لنا الجو العلمى واستقطبوا لنا جهاذة العلماء والمفكرين .

فلهم ولكل من قدم لى يدا بيضاء لاتمام هذا البحث واستكمال جوانبه من المشايخ والزملاء والأهل والأصدقاء إلى كل أولئك أتقدم بخالص شكرى وعظيم تقديرى وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

المشرفة
١٤٣٩ هـ

" بسم الله الرحمن الرحيم "

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له القائل فى محكم التنزيل ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ (١) ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة ودعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وأزواجه أمهات المؤمنين وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين والتابعين لهم باحسان إلى يوم الدين وعنا معهم بعفوك وكرمك يا أرحم الراحمين .

أما بعد . فان أكرم ما تمتد إليه أعناق الهمم ، وأعظم ما تتنافس فيه الأمم العلم الذى حوى على جميع القيم ، والذى كان تبليغه لنا على السنة الأنبياء والرسل ذوى الفضل والكرم ، ألا وهى علوم الشريعة فهى العروة الوثقى التى من تمسك بها فان بدرك الحق القويم ، والجادة الواضحة التى من سلكها فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ومن أعظم علوم الشريعة علم التفسير فهو أعلاها شأنا ، وأقواها برهانا ، وأوثقها بنيانا ، وأوضحها تبيانا ، كيف لا ؟ وموضوعه الكتاب المجيد الذى هو عمدة الملة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة ، قال الامام الراغب الاصفهاني (٢) فى بيان شرف علم التفسير : (أشرف صناعة يتعاطاها الانسان تفسير القرآن وتأويله ، وذلك أن الصناعات إنما تشرف بأحد ثلاثة أشياء :

إما بشرف موضوعاتها ، وهى المعمول فيها ، نحو أن يقال : الصياغة أشرف من الدباغة .

وإما بشرف صورها ، نحو أن يقال : طبع السيوف أشرف من طبع النقود .

وإما بشرف أغراضها وكمالها - كصناعة الطب - التى غرضها إفادة الصحة فانها أشرف من الكناسة التى غرضها تنظيف المستراح .

(١) سورة الاسراء : آية (٨١) .

(٢) الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الاصفهاني (المتوفى سنة نيف وخمسمائة) المعروف بالراغب أديب ، من الحكماء العلماء سكن بغداد ومن أشهر مؤلفاته (مخاضات الأدباء) ط مجلدان ، (الاخلاق) ، (جامع التفسير) (المفردات فى غريب القرآن) وغيرها ، أ . ه . أنظر (بغية الوعاة للسيوطي (٢٩٧/٢) ، الاعلام للزركي (٢٥٥/٢) ، كشف الظنون لحاجي خليفة (٢٦/١) .

فاذا ثبت ذلك ، فصناعة التفسير قد حصل لها الشرف من الجهات الثلاث وهو أن موضوع التفسير كلام الله تعالى : الذى هو ينبوع كل حكمة ، ومعادن كل فضيلة . وصورة فعله : إظهار خفيات ما أودعه منزله من أسراره ليديروا آياته وليتذكر أولو الألباب وغرضه : التمسك بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والوصول إلى السعادة الحقيقية التى لا فناء لها ، ولهذا عظم الله محله بقوله : * ومن يوءت الحكمة فقد آوتى خيرا كثيرا * (١) ، قيل : هو تفسير القرآن (٢)

ونظرا لذلك فقد وقع اختيارى بفضل الله - ولله الحمد والمنة - على موضوع ((الصراع بين الحق والباطل كما جاء فى سورة الأعراف)) رسالة مقدمة إلى جامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين لنيل درجة الدكتوراة فى الكتاب والسنة .

وبالإضافة إلى ما سبق أن بينته عن أهمية علم التفسير، هناك العديد من الحوافز التى جعلتنى أختار هذا الموضوع :

أولا : شغفى الشديد منذ بداية دراستى الجامعية بالقرآن الكريم وما يتصل به ، ولاشك أن التفسير هو أشرف العلوم كما أسلفت ، لأنه يجلى معانى كتاب الله عز وجل الذى شغفت به منذ الصغر .

ثانيا : ان بحثى فى مرحلة الماجستير كان موضوعه (خصائص السور والآيات المدنية ومقاصدها) ، وهذا البحث من صميم علوم القرآن الكريم ، فأردت - بفضل الله وعونه - أن يكون بحثى فى رسالة الدكتوراه موضوعه متصلا بتفسير الكتاب العزيز ، ولأتمكن بهذه الدراسة من الاحاطة بهذين الأصلين العظيمين اللذين لا يستغنى أحدهما عن الآخر .

ثالثا : لقد تأملت فى سورة الأعراف وماذكرته عن آدم عليه السلام وتكريم الله له بأن أسجد له ملائكته ، وامتناع الشيطان عن السجود لآدم كما أمره الله عز وجل ، وتبجحه بقوله لربه : * أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين * (٣) ، وتوعده بنى آدم بما حكاه الله

(١) سورة البقرة : الآية (٢٦٩) .

(٢) انظر تفسير القاسمى (محاسن التأويل) تأليف محمد جمال الدين القاسمى (٣٤٩/١) ترقيم وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي/ ط. دار الفكر بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ .

(٣) الأعراف : الآية (١٢) .

عز وجل عنه بقوله : ﴿ قال فبمآ أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولآتجد أكثرهم شكرين (١) ، ووسوسته لآدم وحواء عليهما السلام بأكلهما من الشجرة ، وقد فعلا ذلك لحكمة أرادها الله عز وجل ، فكان اغواء الشيطان لآدم وبنيه من بعده وأكل آدم وحواء من الشجرة همأبدء الصراع بين الحق والباطل الذى هو موضوع رسالتى فاندفعت بهمة عالية وعزم أكيد مستعينا بعون الله وتوفيقه إلى دراسة سورة الأعراف التى ذكرت ذلك الصراع فى أوائل آياتها . ثم كررت ذكره متمثلا بدعوة الأنبياء (عليهم السلام) ، أقوامهم إلى الحق وتشبث أقوامهم - إلا من رحم الله - بالباطل ، فكان صراعا مريرا سطرته سورة الأعراف وانفردت به بشكل مميز . ولقد تعرضت سور أخرى مكية ومدنية لهذا الصراع ، إلا أن بعضها طويل له خصائص أخرى كسورة البقرة التى يقتضى تفسيرها ودراستها جهدا أكبر ، ووقتا أطول ، واتجاها آخر يخالف الاتجاه الذى من أجله جعلت سورة الأعراف موضع بحثى ، كما أن السور المكية التى ذكرت هذا الصراع وفصلت فيه لم تستوعب من القصص القرآنى ما استوعبت سورة الأعراف ، ولذا اخترتها موضوعا لبحثى ،

رابعا : ومن الحوافز التى جعلتنى أختار سورة الأعراف أنها اشتملت على قصص الأنبياء المصطفين والتى بلغت ثمانى قصص (وهى بالترتيب كما يلى) :
قصة آدم عليه السلام ، وقصة نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب ، موسى ، وخاتمهم نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، أملأ من خلال دراستى لهم الوقوف على أساليبهم الحكيمة فى دعوتهم لأقوامهم وتصديهم للباطل وصبرهم على ما يلاقونه من استهزاء ، وقذف ، وتعد وتهكم ، والقصص القرآنى أعظم بيان لذلك ، وسورة الأعراف باعتبارها قد اشتملت على أغلب القصص الذى تكرر ذكره فى القرآن الكريم خير بيان لذلك .

خامسا : لقد اشتمل قصص النبيين فى القرآن الكريم على دروس وعبر مهمة لكل داع ومصالح من المسلمين ، ليخرج الرحيق الذى يشفى النفوس من عللها ، وتكون له منهجا سويا يقتضى أشره لدعوة أهل زمانه للحق ، وينشلهم مما وقعوا فيه من الباطل ، ويوصلهم إلى معرفة خالقهم جل وعلا باخلاص العبادة

له عز وحل • وسورة الأعراف خير مثال لذلك •

سادسا: ومن الحوافز التي جعلتني أختار هذا الموضوع أننى تطلعت فى واقع عالمنا الاسلامى فوجدت أن المسلمين مغلوبون على أمرهم ، تغتصب حقوقهم وتهدر كرامتهم يقتلون ويشردون ، ولا يسمع لاستغاثتهم ، وقد تسلطت عليهم قوى البغى والعدوان ، وقد تداعت عليهم الأمم كتداعى الأكلة على قصعتها - كما أخبر الصادق الأمين - صلى الله عليه وآله وسلم (١) وليس أمام الأمة الاسلامية من حل للتخلص من ورطتها إلا برجوعها إلى كتاب ربها وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وامعان النظر فى قصص القرآن الكريم الذى يقص طبائع الكافرين وأخلاقهم المبنية على الشر والعدوان ، وتدبير المكائد للمؤمنين ليحملوهم على الكفر إن استطاعوا ، أو ليصرفوهم عن دينهم بعض الصرف إذا عجزوا عن تكفيرهم ، والله أسأل أن يحفظ على الأمة الاسلامية دينها ويحفظها من أعدائها .

كل تلك الأسباب جعلتني أختار هذا البحث ، وعلى الرغم من قلة زادى ، وقصر باعى ، فقد استعنت بالله تعالى فى كتابة هذا البحث وأرجوا من الله عونه توفيقه وأن يتقبل جهدى هذا ، وأن يجعله خالما لوجهه الكريم ، وأن يغفر لى ماكان فيه من تقصير ، ولست أدعى تميزا فى البحث ولا كمالا فيه فالكمال لله وحده ، وكيف يصدر الكمال من الانسان وهو يخطئ ويصيب ؟ فما كان فى بحثى هذا من خير وصواب فهو من الله وحده لاشريك له ، وماكان فيه من قصور فهو منى أعتذر إلى الله عنه والله حسبى ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين •

=ههه=

(١) أخرج أبو داود فى سننه عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها " الحديث ... سنن ابى داود (باب تداعى الأمم على الاسلام) (٤٢٦/٢) ورواه الامام أحمد فى مسنده بنحوه (٢٧٨/٥) •

(منهجى فى هذا البحث)

أولا : أستعنت بكتب التفسير المشهورة سيما الأمهات منها كتفسير الطبرى والتفسير الكبير للامام الرازى ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، وروح المعانى للألوسى ، والكشاف للزمخشري . وما من كتاب من كتب التفسير أخذت منه إلا نسبت إليه موضع مأخذى بالجزء والصحيفة .

ثانيا : أستعنت بكتب السنة فيما ذكرته فى البحث من الأحاديث النبوية الشريفة ، وقد اعتنيت بنسبة هذه الأحاديث الشريفة إلى الكتب التى أخذتها منها . فما أخذته من الصحيحين رددته إليهما بالجزء والصحيفة وكذلك ما أخذته من بقية الكتب الستة نسبته إلى جزئه وصحيفته ، وما أخذته من المسانيد بينت مكانه فى المسند الذى أخذته منه ، وقد راجعت الحكم على الأحاديث والآثار فى الكتب المعتمدة عند أهل الحديث .

ثالثا : اقتضى بحثى هذا الرجوع إلى كتب اللغة ، ككتاب (لسان العرب لابن منظور ، وتهذيب اللغة للأزهري ، وكتاب تاج العروس للزبيدي وكتاب المفردات فى غريب القرآن للأصفهاني) .

رابعا : رجعت إلى كتب السيرة النبوية والتاريخ فأخذت منها ما أحتجت إلى ذكره فى هذا البحث .

خامسا : ترجمت لبعض الأعلام الذين ذكرتهم فى هذا البحث وقد رجعت فى ذلك إلى المراجع الأصلية التى اعتنت بتراجم العلماء كما رجعت إلى مراجع حديثة ترجمت لبعض من ذكرتهم من الفلاسفة فى الفصول الأخيرة .

سادسا : ما نقلته نسا من المراجع وضعت بين قوسين وذكرت مرجعه فى هامش الرسالة ، وما نقلته بتصرف أو عبرت عنه بأسلوبى أشرت إلى ذلك فى الهامش بقولى (أنظر ص كذا) .

سابعا : اقتضى البحث منى فى معظم الفصول أن أقدم له تمهيدا رأيت من وجهة نظرى حاجة تلك الفصول إلى ذلك التمهيد . هذا وقد أسست بحثى على مقدمة وتمهيد واثنى عشر فصلا وخاتمة وقسمت الفصل إلى مباحث وقسمت المباحث (فى بعض الفصول) إلى مسائل ليسهل على القارئ التعرف على هذه المسائل

والوقوف على مكانها فى البحث ، وجعلت فى آخر الرسالة ثلاثة فهارس ، وهى فهرس
الاعلام ، وفهرس المراجع ، وفهرس الموضوعات ،

وقد كانت خطتى فى هذا البحث على النحو التالى :

أما المقدمة : فبينت فيها سبب اختيارى للموضوع . ثم تتوالى الفصول على النحو
التالى :

(الفصل الأول)

صراع ابليس مع آدم عليه السلام

المبحث الأول : مسائل مهمة لابد من توضيحها .
المبحث الثانى : الآيات التى يدور عليها الصراع فى قصة آدم عليه السلام

(الفصل الثانى)

الصراع بين نوح عليه السلام وقومه

مقدمة :

المبحث الأول : دعوة نوح عليه السلام لقومه .
المبحث الثانى : أسباب الصراع بين نوح عليه السلام وقومه .
المبحث الثالث : موقف نوح عليه السلام من الكافرين المعاندين .

(الفصل الثالث)

الصراع بين هود عليه السلام وبين قومه

مقدمة :

المبحث الأول : دعوة هود عليه السلام لقومه .
المبحث الثانى : أ - موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود عليه السلام .
ب - دفاع هود عليه السلام عن نفسه .
المبحث الثالث : موقف هود عليه السلام من الكافرين والمعاندين :
أولا : مجاهدة هود عليه السلام لقومه ورده لشياتهم .
ثانياً : مصير الكافرين المعاندين من قوم عاد .

(الفصل الرابع)

الصراع بين صالح عليه السلام وبين قومه

مقدمة :

- المبحث الأول : دعوة صالح عليه السلام لقومه .
- المبحث الثاني : موقف الكافرين المعاندين من دعوة صالح عليه السلام .
- المبحث الثالث : مصير الكافرين المعاندين من قوم صالح عليه السلام

(الفصل الخامس)

الصراع بين لوط عليه السلام وبين زوجته خاصة وقومه عاممة

مقدمة :

- المبحث الأول : دعوة لوط عليه السلام لقومه .
 - المبحث الثاني : موقف قوم لوط من دعوتهم .
 - المبحث الثالث : نجاة لوط وأهله ومصير الكافرين المعاندين .
- الابحاث الطبية التي كشفت عن ضرر فاحشة اللواط

(الفصل السادس)

الصراع بين شعيب عليه السلام وبين قومه

مقدمته :

- المبحث الأول : دعوة شعيب عليه السلام لقومه .
 - المبحث الثاني : موقف الكافرين من دعوة شعيب عليه السلام .
 - موقف شعيب عليه السلام من قومه .
 - موقف شعيب من اتهامه بالضعف .
- المبحث الثالث : عاقبة قوم شعيب .

(الفصل السابع)

القسم الأول - الصراع بين موسى عليه السلام وبين فرعون .

وفيه خمسة عشر مبحثاً .

القسم الثاني - الصراع بين موسى عليه السلام وبين اسرائيل .

وفيه ثمانية عشر مبحثاً .

{ الفصل الثامن - }

الصراع بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبين قومه

مقدمه :

المبحث الأول : دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لقومه .

المبحث الثانى : أسباب موقف الكافرين المعاندين وانكارهم لدعوة النبي صلى

الله عليه وسلم .

المبحث الثالث : موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الكافرين المعاندين

{ الفصل التاسع - }

وجه الشبه بين مواقف الكافرين والمعاندين وردهم

وانكارهم لدعوة الرسل عليهم السلام

المبحث الأول : دعوة الرسل عليهم السلام لأقوامهم .

وجه الشبه بين دعوة الرسل

المبحث الثانى : مواقف الكافرين المعاندين من دعوة الرسل عليهم السلام .

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين

المبحث الثالث : كفر كل امه ومعصيتها ونوع العقاب الذى عوقبت به .

{ الفصل العاشر - }

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

مقدمة : نشأة النظريات القديمة والحديثة

نظرة الفلاسفة فى العصر الحديث إلى الصراع

هيجل ، كارل ماركس ، داروين ، لامارك ،

{ الفصل الحادى عشر - }

موقف الاسلام من الصراع

ويتضمن

الرد على النظريات الحديثة

(الفصل الثانی عشر)

عاقبة الصراع بين الحق والباطل

المبحث الأول : النصر محتم من عند الله للمؤمنين

المبحث الثاني: تعدد وجوه النصر الالهى للمؤمنين .

(الخاتمة)

وفيها ذكرت النتائج التى توصلت اليها من البحث

====

مجلس
تعمیر
و
تعمیر
۱۴۰۹
م

ويشتمل على :-

أ- مفهوم الحق والباطل والصراع بينهما.

ب- بيان أن سورة الأعراف من السبع الطوال وهي مكية

ثم بيان المقاصد العامة لسورة الأعراف.

أولا : الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله عز وجل .

ثانيا : الآيات الزاجرة عن الشرك .

ثالثا : الآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لاريب فيه .

رابعا : الآيات الخاصة بصدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .

(أ) مفهوم الحق والباطل والصراع بينهما

الصراع : بفتح الصاد وسكون الراء من الثلاثي في الأصل هو (الطرح على الأرض للإنسان) تقول (صارعه فصرعه يصرعه صرعا وصرعا فهو مصروع وصريع) ... والمصارعة والصراع معالجة الرجل لصاحبه (٢) أيهما يصرع صاحبه .

ومن معاني الصراع : معالجة القرنين (٣) أيهما يصرع صاحبه . (٤)

ومن خلال ما سبق يتضح أن المادة من الثلاثي والرباعي تدور على معنيين :

المعنى الأول : الغلبة : سواء أكانت الغلبة بالحجة مثل الحجة بالقرآن الكريم والكتب السماوية والمعجزات النبوية ، أم كانت الغلبة بالانتصار بالقوة الذاتية والحروب . وهذا ما تحقق للأنبياء عليهم السلام وأتباعهم على أعداء الله فقد انتصروا عليهم غلبوهم بالحجة أولا ، ثم بالسيف والقوة ثانيا .

المعنى الثاني : الفنون المبتكرة : التي بها ينتصر أحد المتصارعين على صاحبه .

فمفهوم الصراع بين الحق والباطل إذن هو غلبة الحق على الباطل بالبراهين والحجج التي لاتدع مجالا لذي لب في ظهور الحق على الباطل، ومدافعتة له بالشرائع الإلهية (٥) التي أنزلها الحق عز وجل في كتبه على أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، أو ألهمهم إياها فيما يروى عنهم .

وسيمر بك أيها القارئ الكريم (بمشيئة الله) لذلك نماذج كثيرة

-
- (١) تهذيب اللغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهرى (٢٤/٢) ط الدار المصرية للتأليف والترجمة (د . ت) .
 - (٢) لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم ابن منظور الأفرقي المصري (١٩٧/٨-١٩٨) ط . دار صادر بيروت .
 - (٣) الند المناوىء .
 - (٤) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي (٤١١/٥-٤١٣) .
 - (٥) التي من جملتها مجاهدة أهل الباطل بالمال والنفس والنفيس لإعلاء كلمة الله .

فيما يعرضه القرآن الكريم في هذه السورة الكريمة من الحجج البالغة التي دمج بها الأنبياء الباطل وأصبحت قرآنا يتلى .

الحق : لقد ورد الحق بمعان كثيرة والذي يتلاءم مع البحث ويتناسب معه معان أربعة :

أ - الحق : هو الشيء الثابت المتحقق

ب - الحق : ضد الباطل

(١)

ج - الحق : بمعنى الصواب

(٢)

د - الحق : القرآن وما جاءت به السنة المطهرة .

إن كلمة الحق : إنما تولد من ميزان العقل السليم المتحرر عن كافة أنواع التبعات والأهواء والعصبية .

الباطل : هو نقيض الحق . وهو الذي لا يقره الشرع . وقد جاءت مادة الباطل في لغة العرب على معان مختلفة يدور أغلبها على مايلي :-

أ - بطل الشيء يبطل بطلاً ويطولا وبطلانا ذهب ضياعاً وخسراً^(٣) فكل ما لا يقره الشرع مما هو فاسد شرعاً وعقلاً وعادة فاع زاهب لا يعول عليه ولا ينبني عليه حكم شرعي .

ب - (الباطل) نقيض الحق أي الذي جاء على خلافه . وجمع الباطل أباطيل وبواطيل .

ج - (أبطل) أي جاء بالباطل واجتهد فيه .

د - والشيء باطل أي بين البطل والبطلان أي لاحق فيه البتة .

هـ - وتبطلوا بينهم : أي تداولوا الباطل واجتهدوا في نشره .

و - (التبطل) فعل البطالة (بفتح الباء) وهو اللهو والجهالة .

ز - وأبطلت الشيء جعلته باطلاً أي ذاهباً .

(٤)

ح - وأبطل فلان أي جاء بكذب وادعى باطلاً .

(١) لسان العرب (٥٠/١٠) .

(٢) تاج العروس (٣١٥/٦) .

(٣) انظر لسان العرب (٥٦/١١) .

(٤) لسان العرب (٥٦/١١) بتصرف .

إن كلمة الباطل : إنما تولد في غمار ما يمكن أن يعلق بالإنسان من شوائب الشهوات والأهواء والعصبيات والأغراض الشخصية المتنوعة والجامع لهذه المعاني كلها هو أن الباطل : عار عن الخير . وأن أهل الحق يجتهدون في إذهاب الباطل بما يظهرونه من أحقية الحق . وإبطال الباطل .

وهذا هو ما يهدف إليه عنوان رسالتي هذه (الصراع بين الحق والباطل كما جاء في سورة الأعراف) فكما أن للحق أهله المجتهدين في نصرته القاذفين فيه على الباطل بغية دمغه وطمسه كذلك للباطل أعوانه الذين يحاولون اعلاءه على الحق واغراء الناس به بشتى الوسائل المتاحة لهم - * كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا * (١)

ولولا أن الله يدافع بأهل الحق أهل الباطل ، وينصر أهل الحق على معاديه لفسدت الأرض بانتشار الشرور فيها والمفاسد التي هي من طبائع أهل الباطل .

قال تعالى : * ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالَمين * (٢)

ولذا يجب أن يبقى جند الحق على قوة قوية لاتضعف ولا تهين في مدافعة أهل الباطل يبذلون أنفسهم ونفيسهم في سبيل اعلاء كلمة الحق . ويتمثل ذلك بالإقناع بالحجة البليغة وبامتشاق الحسام إذا لم يكن سبيل لنصر الحق إلا بذلك مع العلم بأن أهل الباطل كانوا ولا يزالون متربصين بأهل الحق مهتبلين كل فرصة تتاح لهم لاسيما عندما يشعرون بضعف أهل الحق وإعراضهم عن التمسك به وعندما يحاكون (- أهل الحق -) أهل الباطل فيما عندهم من الشرور فالصراع الذى أمر المؤمنون بخوضه لنصرة الحق يتمثل فيما يلي: أولا : مجاهدتهم أنفسهم على الثبات على الحق وأن يظل الانتصار له قويا في نفوسهم لا يضعف .

ثانياً : في مجاهدة أعدائهم بالحجة والبرهان ، فان عجزت الوسائل الإقناعية وظل طغاة الباطل يمنعون المسلمين من دعوة الحق أمكن حينئذ اللجوء إلى القوة (السيف) لإزاحة الطغاة هؤلاء وتأمين تبليغ دعوة الناس ، وإقامة العدل . والأمن والسلام . وذلك لا يكون إلا بالجهاد في سبيل

(١) سورة الكهف : الآية (٥) . (٢) سورة البقرة : الآية (٢٥١) .

الله بالمال والنفس . وقد قصر الله عز وجل الإيمان والصدق على الملتزمين بهذا الجهاد .

قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصديقون ﴾^(١)

وهو المعبر عنه في القرآن الكريم بالتجارة الرباحة المنجية من العذاب الأليم ، والمحقة لمغفرة الله ورضوانه ، ودخول المؤمن جنات تجري من تحتها الأنهار مقيما فيها أبدا وذلك الدخول هو الفوز العظيم .

قال تعالى : ﴿ يآئها الذين آمنوا هل أدلكم على تجرّة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾^(٢)

وهو الجهاد الذي أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته أن عزهم فيه ، وانهم ان تركوه ضرب الله عليهم بالذل فلا يرفعه عنهم إلا بعودتهم إليه ، عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إذا تبايعتم بالعينة^(٣) وأخذتم أذناب البقر^(٤) ، ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا^(٥) لا ينزعه حتى ترجعوا إلي دينكم)^(٦) .

ويقابل هذا الصراع صراع أهل الكفر لأهل الحق من أجل باطلهم وانتصارهم له بكل وسيلة متاحة لهم ، بأموالهم وأنفسهم واستعباد الشعوب وتسخيرها في أغراضهم وأهوائهم ، وبذل كل طاقتهم لشيوع الفواحش والمحرمات فيها مستخدمين في ذلك وسائل ابتكروها لنشر ضلالهم استهوت أغلب البشر وصرفتهم عن الحق .

(١) سورة الحجرات : الآية (١٥) .

(٢) سورة الصف : الآية (١٠-١٢) .

(٣) أى إذا وجهتم هممكم للبيع والشراء . والمراد بالعينة المال الحاضر من النقد .

(٤) أى اتخذتم الماشية للحرث والري وتربية نتاجها وعكفتم على الأعمال التجارية .

(٥) أى ضعفا وامتهانا .

(٦) سنن ابى داود للحافظ ابوداود سليمان بن الأشعث بن اسحاق الأزدي السجستاني رحمه الله (٢ / ٢٦٤) ط . الأولى مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ١٣٧١هـ .

ومن أجل هذا الصراع بين الحق والباطل قامت حروب وحروب وأبيدت دول وظهرت أخرى والتاريخ يستبطن ذلك كله ويحتفظ به لمن أراد الرجوع إليه .

" غاية الصراع في الإسلام "

إن غاية الصراع في الإسلام هي هداية البشرية ودلاتها على سعادتها في الدنيا والآخرة ، وترغيبها في الخضوع لربها ، وأن تعبد به بما شرعه لها ، وأن تنبذ العداوات ويسيطر الحب والإخاء على قلوب الناس ، وغاية الصراع عند أعداء الحق هو تحطيم البشرية وإضلالها عن الحق وتجهيلها بربها عز وجل وتجهيلها بآخرتها دار القرار التي هي إليها صائرة وانشاء العداوات والأحقاد والفتن .

ولقد كان الكفار قديما يتبجحون بهذه الغاية ويعلنون عنها بلاحياء ، وكان هذا التبجح يلهب حماس أهل الحق دائما ، وكانت الحروب هي أهم وسيلة لتأكيد هذه الغاية .

ولكن أعداء الحق وجدوا أنفسهم أمام دين عظيم هو دين الإسلام الدين الخالد إلى آخر الدهر ، وقد جربوا في اضعافه واضعاف أهله وسائلهم التقليدية فأخفقت مرارا ، لكنهم لم يعتبروا بهذا الإخفاق .

فسلكوا وسائل جديدة يقدمونها على ما هو قديم عندهم لتكون تمهيدا لذلك على رأسها تزيين المحرمات وإغراء أنفسهم والمسلمين بها ما أمكن وصنعوا لذلك وسائل كثيرة لنشرها وبثها كأجهزة الإعلام من (التلفاز والفيديو والسينما والمسرح والمجلات) وغير ذلك مما انطلى علينا نحن المسلمين كثير منه وخفي علينا المقصود به وغاية أهل الباطل من ورائه .

وكما أسلفت ان كلمة الحق إنما تولد من ميزان العقل السليم المتحرر عن كافة أنواع التبعات والأهواء والعصبيات ، ومن ثم فان للحق وأهله سلاحا واحدا يعتمد عليه في مجال صراعه للباطل وهو اللجوء إلى حكم الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ولاشك أنهما لايتنافيان مع حكم العقل المجرد من التبعات والأهواء والعصبيات .

وان كلمة الباطل - وكما أسلفت - إنما تولد في غمار ما يمكن أن يعلق

بالإنسان من شوائب الشهوات والأهواء والعصبيات والأغراض الشخصية المتنوعة ،
ومن ثم فإن سلاح أهل الباطل هو ستر هذه الشوائب بقناع الحقيقة العقلية ،
ومن ثم فإنك تلاحظ ذلك عند تعرضي لمواقف الكافرين المعاندين من دعوة
أنبيائهم عليهم الصلاة والسلام لهم ، وكذلك عند تعرضي للنظريات الحديثية
حيث إنها تنطوي على مفاهيم غامضة وأساليب غير واضحة لاتصلح لأن تكون منهجا
لل بشرية أو دستوراً يكفل لها الأمن والسعادة والاستقرار .

(ب) بيان أن سورة الأعراف من السبع الطوال وهي مكية :

تعد سورة الأعراف أطول سورة مكية في القرآن الكريم . وهي السورة
السابعة في الترتيب المصحفي . وعدد آياتها مائتان وست آيات واستثني منها
آيات التالية فهن مدنيات من قوله تعالى ﴿ وسئلهم عن القرية التي كانت
حاضرة البحر ﴾ (١) إلى قوله تعالى ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ (٣)

وسورة الأعراف كغيرها من السور المكية التي قررت أصول الدعوة الإسلامية
من توحيد الله عز وجل ، وإقامة الأدلة على وحدانيته ، وإثبات النبوة والرسالة
لمن اصطفاهم الله من الناس للنبوة والرسالة . والتي اشتملت السورة على ذكر
بعضهم صلوات الله وسلامه عليهم ، وعلى تأكيد البعث والجزاء . (٤)

ويمكن أن نقسم مقاصد السورة إلى أربعة أقسام :

- أولا : الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله عز وجل .
- ثانيا : الآيات الزاجرة عن الشرك .
- ثالثا : الآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه وأنه ممكن عقلاً غير مستحيل
- رابعا : الآيات الخاصة بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) الأعراف : الآية : (١٦٣) .

(٢) الأعراف : الآية : (١٧١) .

(٣) انظر: البرهان للامام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي بتحقيق محمد
أبى الفضل ابراهيم (٢٠٠/١) ط. الثانية ، ١٣٩١ ، البابي الحلبي ، خصائص
السور والآيات المدنية ومقاصدها - رسالة ماجستير ١٤٠٣ هـ ، في جامعة أم القرى

عادل محمد صالح أبو العلا .

(٤) أنظر: مناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني (١٨٩/١-١٩٦) ، ط ٣ -
البابي الحلبي .

أولا : الآيات الخاصة بالحض على الإيمان بالله جل وعلا :

إن الدارس لهذه السورة الكريمة المكية ، يجد أنها كغيرها من السور المكية دعت إلى تثبيت الإيمان في النفوس ، وحضت على التمسك به لأنه طريق السعادة لذلك أمرنا تعالى في الآية الثالثة من هذه السورة ، أن نتبع ما أنزل من ربنا ، مجانبيين أن نتبع من دونه أولياءهم وسيلة الشيطان إلى الإغواء ويبين تعالى في هذه الآية أن تلك الحقيقة بشقيها تغيب عن كثير من الناس ، وأن أغلب البشر في ذهول عنها ، وأنهم لا يتذكرونها إلا تذكرا ليوصلهم إلى المطلوب

قال تعالى ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ (١) ولا شك أنه باتباع ما أنزل الله ، واجتناب ما نهى عنه ، تتحقق السعادة والطمأنينة مع ملاحظة أن تلك السعادة الدنيوية والأخروية تدرك بأعمال ميسورة ليس فيها مشقة ولا عنت ، وباستطاعة النفس تقبلها قال تعالى ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾ (٢) أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿ (٣)

فجزاء الإيمان الخلود في الجنة دار أهل الإيمان لا يدخلها غيرهم بحال من الأحوال - وهذا حسب مشيئته - وأن سلوك سبيل الشيطان لا يدخل أصحابه إلا النار .

ومن وسائل هذه السورة في الترغيب في الإيمان والحض عليه وأنه سبب اليسر والسعادة في هذه الدنيا وإنزال البركات على المؤمنين المتقين قوله تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ (٤)

فلو أنهم آمنوا بالله وبما أنزله على أنبيائه ﴿ واتقوا ﴾ أي ما حرم الله تعالى عليهم ﴿ لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ (الفتحنا) النون نون العظمة والآية الكريمة ربطت حصول ذلك بالإيمان والتقوى والمراد من الآية : أي ليسرنا عليها الخيرات من كل جانب . بركات

(١) الاعراف : آية (٣)

(٢) الوسع : ما يقدر الإنسان عليه في حال السعة والسهولة لافي حال الضيق والشدة

انظر تفسير الرازي (١٤ / ٧٩) .

(٣) الاعراف : آية (٤٢) .

(٤) الاعراف : آية (٩٦) .

السماء بالمطر ، وبركات الأرض بالمال والأولاد والنبات والشمار وكثرة المواشي والأنعام وخصوبة الأرض وحصول الأمن والسلامة .

ولا يغيب عن بالنا أن الانسان حريص بطبعه على الاستكثار من عرض الدنيا غير مبال بما يضره منه وبما ينفعه ، وقد بين الله في هذه الآية أن ما يفتح على الإنسان من بركات السماوات والأرض هو خير خالص لا تكدير فيه ولا مضرة فصدق الإيمان ولزوم التقوى ، يحققان للإنسان ما يبتغيه من كثرة الأشياء لديه ويجعلان تلك الأشياء مباركة نافعة .

أما اتساع الأرزاق لبعض الناس الذين لم يخالط الإيمان قلوبهم فانه فتنة في الدنيا واستدراج لهم عن الطاعة إلى المعصية بل الكفر في بعض الأحيان ، والمباغلة بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة .

قال الله تعالى في بيان حال من نسوا ماذكروا به في كتب الله وعلى السنة رسله * فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما آوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العلمين * (١) أي فلما غفلوا ولم يتعظوا ولم ينزجروا بما حل بهم من النقم وبما جاءتهم من البينات * فتحنا عليهم أبواب كل شيء * وذلك استدراجا لهم . فغمروا بالنعم وتضاعفت عليهم الخيرات بمختلف أشكالها * حتى إذا فرحوا بما آوتوا * من الخير والنعمة * أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون (٢) أي آيسون متحسرون .

ويتضح مما قدمته أن الإنسان في ظل الإيمان الصحيح مكفولة حاجته الجسمية والنفسية بوفرة وكثرة وأن الله سبحانه وتعالى سمى ما يوءتاه المؤمنين بركات فلا حدود لهذا الجمع وغير خاف أن البركة هي النماء والزيادة وأن الشيء المبارك هو النامي الزائد فما بالنا إذا كانت بركات ووفرة خيرات فتحها الله على أهل القرى لو آمنوا واتقوا ولكن أهل القرى لم يصغوا لدعوة ربهم بل أمعنوا في الكفر والتكذيب وكان متوقعا منهم بعد هذا الاغراء المادى الذى تهواه نفوسهم أن يدخلوا في الإيمان لكن الله نفى عنهم ذلك فقال

(١) الأنعام : آية (٤٤ - ٤٥) .

(٢) انظر: تفسير النسفي (١٢/٢) للإمام أبي البركات عبدالله بن أحمد النسفي

* ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون * وعقوبة التكذيب والكفر بالله الجذب والقحط . * ولكن كذبوا * يعني الرسل * فأخذناهم *
(١)
بالجدوبة والقحط . وقوله * بما كانوا يكسبون * من الكفر والمعصية .

ولقد اهتمت السورة الكريمة بدعوة أهل الأديان السماوية من اليهود والنصارى إلى اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل . فإن هم آمنوا حق الإيمان بهذين الكتابين فسيؤمنون جزما بهذا النبي العظيم صلوات الله وسلامه عليه وبالكتاب الذي جاء به .

قال تعالى * الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهئهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون *
(٢)

وقد رغبهم الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بما يحملهم على الإيمان بسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه لأنه عليه الصلاة والسلام كان يأمرهم بالمعروف ولم يكن أحد غيره صلى الله عليه وسلم وقت بعثته يأمر بذلك ، ويجاهد عليه باسم النبوة والرسالة ، وأنه هو الذي ينهاهم عن المنكر ويحضمهم على تركه . بينما اصطلح البشر وهم بعضه - اليهود والنصارى - على إلف المنكر الذي حرّمته سائر الأديان وعلى السعي فيه وأنه عليه الصلاة والسلام يحل لهم الطيبات التي لا يعرض عنها إلا مظموس الفطرة ويحرم عليهم الخبائث التي لا يقبل عليها إلا من تمكن منه الشيطان فسلم عقله وحقر لسه آدميته فرغبت نفسه في الخبائث .

وأنه عليه الصلاة والسلام هو الذي سيحط عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم والتي عاقبهم الله تعالى بها لما اكتسبوه من الإثم مثل قوله تعالى (فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا . وأخذهم الربوا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل

(١) انظر التفسير الكبير (١٤-١٨٥) للإمام أبي عبد الله محمد بن عمر بن حسين المعروف بفخر الدين الرازي . ط (٢) الناشر - دار الكتب العلمية - طهران .

(٢) الأعراف : آية (١٥٧)

(٣) * ويضع عنهم إصرهم * أي الأمور التي تشبثهم وتقيدهم عن الخيرات وعن الوصول إلى الثواب . انظر المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ٥٠٢ هـ - ص ١٩ توزيع دار الباز للنشر والتوزيع مكة . تحقيق محمد سيد كيلاني .

وأعدتنا للكافرين منهم عذاباً أليماً * (١)

وقوله تعالى في شأن النصارى * ومن الذين قالوا إنا نصرى أخذنا
ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم
القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون * (٢)

ولذلك بين الله سبحانه وتعالى في آية الأعراف أن من آمن بهذا النبي
الخاتم صلى الله عليه وسلم وعززه ونصره واتبع القرآن الذى أنزل معه هم
بأعيانهم لاغيرهم المصيبون للفلاح المحكوم لهم به الحقيقون بأن يسموا
مفلحين * فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه اتبعوا النور الذى أنزل معه
أولئك هم المفلحون * (٤)

وأختم هذا المبحث عن الآيات التي حفت على الإيمان بالله تعالى
بالآية الكريمة التي حفت على ذلك صراحة وهي قوله تعالى : * قل يأيها الناس
إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والارض لا إله إلا هو
يجي ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه
لعلكم تهتدون * (٥)

-
- (١) النساء : آية ١٦٠ - ١٦١ .
(٢) المائدة : آية (١٤) .
(٣) عزروه : أى وقروه وعظموه .
(٤) الأعراف : الآية (١٥٧) .
(٥) الأعراف : الآية (١٥٨) .



ثانيا : (الآيات الزاجرة عن الشرك) :

إن القارئ لهذه السورة الكريمة سيجد فيها آيات كثيرة تـذم
الشرك وتنفر منه وتتوعد معتقديه ، شأنها في ذلك شأن السور المكية .

وتجنبنا للإطالة اخترت من هذه السورة نصين * رأيت أنهما وافيان
بالغرض الذي لأجله سقتهما ويغنيان عن نصوصها الكثيرة في هذا الغرض :

النص الأول : قوله تعالى ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواهم عليكم أدعوتهم أم أنتم صلمتون . إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدي يبسطون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * (١) .

في هذا النص الكريم ينكر سبحانه وتعالى على عبدة الأصنام اشراكهم
أصنامهم في ألوهيته سبحانه وتعالى مبينا أن الإله الحقيقي الجدير بأن تخلص
له العبادة لابد أن يكون متصفا بصفات عليا استحق بها أن يكون إلهاً :

أولا : أن لا يكون هذا الإله مخلوقاً .

ثانيا : أن يكون قادراً على خلق الأشياء وإيجادها من العدم دون سبق مثال .

ثالثا : أن يستطيع الإله نصرته من ينتصر به بجلب الخير له وبدفع الضر عنه .

فكيف تخلع صفات الإلهية على تلك الأصنام المخلوقة العارية من تلك
الصفات العاجزة عن دفع الضر عن نفسها؟ عندما يقصدها قاصد بكسرها أو
بإهانتها ؟ فمعنى الآيتين الأوليين من هذا النص : أنكم أيها المشركون
للأصنام في الألوهية تسلكون سبيلا فاسداً غير صحيح لأنكم اشركتم مع الله عجزة
عن خلق شيء ما مهما تناهى في الصغر والبساطة ، وأن معبوداتكم مخلوقة
مربوبة لا وجود لها في ذاتها وأنها لاتستطيع لكم نصراً إذا انتصرتم بها
لأنها عاجزة عن نصرته نفسها فضلا عن غيرها وفاقد الشيء لا يعطيه .

* النص يشمل أكثر من آية .

(١) الأعراف من آية ١٩١ الي ١٩٥ .

قال تعالى : ﴿ أَيَشْرِكُونَ مَا لَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ . وَلَا يَسْتَعِينُونَ لَهُمْ
(١)
نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ .

ثم بين تعالى في الآية الثالثة من هذا النص الأول أن تلك الأصنام إن دعيت إلى خير وهدى لاتجيب ولاتستجيب لأنها فاقدة الاحساس بغيرها ولو كان فيها شعور لاتتبع من يدعوها إلى الهدى . لأن الهدى مرغوب محبوب لأهل العقول . فكونها لاتتبع ، دليل على انعدام الاحساس فيها بمن يدعوها إلى خيرها فكيف تتبع ؟ وان الأمر سواء بالنسبة لدعوتها من عدمها والمعنى وإن تدعوا أيها المشركون أصنامكم إلى هدى ما ، أو خير ما لا يتبعوكم لأنهم لا يسمعون دعاءكم . فدعواكم لهم وصمتكم عن ذلك سواء .

قال تعالى ﴿ وَأَنْتُمْ صَالِمُونَ ﴾ (٢) وان تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صالمتون ﴿

وفي الآية الرابعة من هذا النص يبين جل وعلا أن هذه الأصنام غاية ما يقال فيها أنها عباد أمثال عابديها وإن كان هذا الوصف أكبر منها . لأنها جمادات ولكن القرآن ينزل مع عابديها في الحوار ويفترض فيها العقل والادراك فهبها أنها عاقلة مدركة . فأى شيء فضلها عليهم فجعلها معبودة . وهم لها عبدة ؟ ثم عاد القرآن إلى بيان حقيقتها وأنها مع مخلوقيتها فالبون بينها وبين عابديها بعيد . فهي ان دعيت لاتجيب وان خوطبت لاتدرك ولذا أمرهم الله بأن يدعوها ويطلبوا منها نفعهم وخيرهم فلتستجيب لهم إن كان لها صفة النفع والإفادة . ليدعوها إن كانوا صادقين في دعوى ألوهيتها؟ ولتجيبهم إن كانت مستطبعة ؟

(٣)
قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ ﴾ أي فـي الإدراك والعقل على حد زعمهم ﴿ فادعوه ﴾ أي ادعوا هذه الأصنام إن كانت كما زعمتم ﴿ فليستجيبوا لكم ﴾ أي فلتستجب لكم أصنامكم أيها الداعون ﴿ إن كنتم صَادِقِينَ ﴾ فيما وصفتموها به وما خلعتموه عليها كذبا من صفات الألوهية .

-
- (١) سورة الأعراف : الآيتان (١٩١ ، ١٩٢) .
(٢) سورة الأعراف : الآية (١٩٣) .
(٣) سورة الأعراف : الآية (١٩٤) .

وفي الآية الخامسة : بينه الله عابدى الأصنام إلى أمور بديهيــــــــــــــــة
لاحتجاج إلى تنبيه لكن عابديها لما ألغوا عقولهم احتاجوا إلى هذا التنبيه .
هذه الأمور هي خلو أصنامهم من الأعضاء ذات القوى الموءثرة التي تعيــــــــن
المعبودين على المشى والبطش والسمع والبصر . أى على التوصل إلى جلب الخير
ودفع الشر ولم يلجأ القرآن إلى الأسلوب الخبرى في بيان تجريد الأصنام عن
هذه الأوصاف بل لجأ إلى أسلوب الإستفهام الإنكارى الذى هو بمعنى النفي
لغرضيــــــــن :

أولهما : تنبيه المخاطبين وإيقاظهمـــــــــــــــــم .

ثانيهما : نفي تلك الأوصاف عنهم بأبلغ وجوه النفي .

فحال الأصنام هذه هو الواقع المشاهد الذى لاخلاف عليه .

قال تعالى ﴿ لهم أرجل يمشون بها ﴾ * أى ليس لهم ذلك وانتم بــــــــــــه
موقنون وتأمل قوله تعالى ﴿ يمشون بها ﴾ * فكم من أرجل لاتمشي لأن الله لــــــــم
يجعل فيها قوة المشي وقوله ﴿ أم لهم أيدي يبطشون بها ﴾ * بمعنى أنهم أيــــــــد
يبطشون بها فهو تدرج من العضو الحامل لسائر الجسد إلى بقية الأعضاء الأخرى
المركبة فيه والمعنى : ليس لهم ذلك .

وقوله ﴿ أم لهم أعين يبصرون بها ﴾ أم لهم آذان يسمعون بها * ليس
لهم ذلك يقينا فكيف تتخذ آلهه؟؟ وكيف يعبيدها من فيه هذه الأعضاء بقواها
الموءثرة ؟ إن صح أن تخلق صفة الألوهية على مخلوق فالعابدون أولى بهــــــــــــا
لكنهم لم ينسبوا لأنفسهم لشعورهم بالعجز عن ادراك أرواحهم . وعجزهم عن
السيطرة عما حولهم . فاذا استشعروا في أنفسهم أنهم لا يصلحون آلهة . فأولى
بذلك تلك الاصنام المعبودة زورا وافكا . وكان المشركون يخوفون رســــــــول
الله صلى الله عليه وسلم من سطوة أصنامهم ، وانتصارها لأنفسها . ولهم منه
عليه الصلاة والسلام . فأمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول للمشركيــــــــن
أدعو شركاءكم ولا تتوانوا في دعوتها لتدفع عنها وعنكم ما تكرهون امعانا
في تعجزهم وتوبيخهم .

قال تعالى ﴿ قل ادعوا شركاءكم ﴾ * أى لتفعل ما زعمتم أنها قادرة

على فعله * ثم كيــــــــدون * أنتم وهي بشتى أنواع المكائد .

﴿ فلا تنظرون ﴾ * أى ولا تمهلوني إن كان لأصنامكم قدرة ما كــــــــــــــــما

ترعمون .

ثم بين بعدها صفات الإله الحق الذى يجب أن يعبد وحده بقولـــــــــــــــــه
* إن ولىّ الله الذى نزل الكتب وهو يتولى الصالحين * (١)

النص الثاني :
قوله تعالى * وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم
وأشهدهم علنًا أنفسهم أَلست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يــــــــــــــــوم
القيامة إنا كنا عن هذا غفلين . أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل
وكنا ذريةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون . وكذلك نغفل الأيــــــــــــــــات
ولعلمهم يرجعون * (٢)

في الآية الأولى من النص الثاني يذكر الله نبيه صلى الله عليه وسلم
بما هو معلوم عنده من الميثاق الأول الذى أخذه الله على ذرية آدم حين
أخرجهم من صلبه على هيئة الذر وجعل فيهم من العلم والادراك ما مكنهم من
الاقرار لله بالربوبية والوحدانية .

والمعنى واذكر يا محمد صلى الله عليك وسلم الوقت الذى أخرج فيه
ربك من صلب آدم بنيه وأخرج من كل ابن منهم ذريته إلى يوم القيامة وهو
معنى قوله تعالى * وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم * فســــــــــــــــل
نفسك به وهون عليها ما تلقاه من جود المشركين وانكارهم للوحدانية فانك
تخاطبهم بأمر معروف لكن بعدهم عن الله أنساهم ذلك . لتعلم أن العلة فيهم
وانك لم تقصر في البلاغ وقد أشهد الله ذرية آدم على أنفسهم حيث خاطبهم
بقوله * أَلست بربكم * فأجابوا بما هو صريح في نفي النفي فقالوا * بلى *
أى أنت ربنا خالقنا وموجدنا وكل نعمة فينا من فيض رحمتك شهدنا علــــــــــــــــى
أنفسنا بذلك وأقررنا لك بالربوبية والوحدانية . وأقوى الشهادات ما يقربه
المراء على نفسه ثم ذكرهم ربهم تبارك وتعالى بأنهم سيغفلون عن هذا الميثاق
وأن ذلك ليس عذرا لهم يوم القيامة . إذ هم المتسببون فيه فأقروا علــــــــــــــــى
أنفسهم مرة أخرى أن تلك الغفلة اذا حصلت لا يعذرون بها لما حصل لهم من
يقين بربوبية الله تعالى عند أخذ هذا الميثاق .

(١) سورة الأعراف : آية (١٩٦) .

(٢) سورة الأعراف : آية (١٧٢ - ١٧٤) .

وفي الآية الثانية من هذا النص : ذكرهم جل وعلا بعذر آخر سيتذرعون به وهو قولهم ﴿ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ فالتبعية عليهم لا علينا .

ثم ذكرهم بقول ثالث وهو أتوءأخذنا فتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ والمعطلون لآيات الله تعالى التي أوصلتنا إلى الشرك فأقروا بأن ذلك كله لا يصلح عذرا لهم لتمام اليقين الحاصل لهم عند أخذ الميثاق .

وفي الآية الثالثة : يبين الله تعالى وضوح هذا الميثاق وظهوره بحيث صار أصلا يشبهه به غيره ليتضح ﴿ كذلك نغفل الأيت ﴾ .

أي كذلك نغفل آياتنا كلها تفصيلا واضحا بليغا كوضوح هذا الميثاق فأصبر عليهم فلعلهم يرجعون بهذا التفصيل الواضح في آياتنا .

ولقد حاول بعض العلماء أن يحملوا هذه الآية على التمثيل لاستغرابهم وقوع هذا الأمر ومنهم المعتزلة . لكن لم ألتفت إلى هذا المسلك ولم أشتغل بالرد عليه .

ذلك لأنه ليس من صميم بحثي ولأن الله لا يعجزه شيء ومن هذا النص يتضح لنا أن الايمان بالله وحده هو فطرة الإنسان التي فطره الله عليها وأن الشرك هو خروج عن هذه الفطرة وليس لمنتحليه أي عذر يوم القيامة حين يقولوا ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾^(١)

(١) انظر: تفسير النسفي (٨٤/٢ - ٨٥) .
: ، ، الألو سي (٩٩/٩ - ١٠٩) .

ثالثا : الآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا ريب فيه :

إن الناظر في سورة الأعراف يجدها قد تعرضت لليوم الآخر ووجوب الإيمان به وما فيه من أحداث وتقريب وقوعه للأذهان بصور مختلفة وأساليب شتى الغرض منها كلها حصول اليقين للمؤمنين باليوم الآخر ومافيه ، وإقامة الحجة على الكافرين المكذبين حتى لا يبقى لهم عذر يوم يقوم الناس لرب العالمين .

فمن هذه الآيات قسمه تعالى على أنه سيأل الذين أرسل اليهم سؤال اهانة وتوبيخ . كما سيأل المرسلين سوءال اعزاز وتكريم ، قال تعالى
* فلنستألن الذين أرسل اليهم ولنستألن المرسلين * (٢) كما بين تعالى أنه لا يغيب عنه شيء من أحوال خلقه مع كثرتها وتعددتها كثرة يستحيل على آدميين بل والعقلاء قاطبة مهما أوتوا من أسباب العلم أن يقدروا على حضرها والاحاطة بشيء منها .

قال تعالى مقسما على اخبار خلقه يوم القيامة بكل ماكان منهم
* فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين * (٣)

ومما ذكرته هذه السورة تجسيد الأعمال ووزنها يوم القيامة وأنها إن كانت صالحة فستثقل موازين أصحابها ، وأنهم بحسن أعمالهم مدركوا الفلاح بفضلهم ورحمته لامحاله ، وانها ان كانت سيئة فستخف بها موازين أصحابها ، وأنهم لامحالة خاسرون الخسران المبين في جهنم خالدون ، لأنهم ظلموا وأمعنوا في الكفر بعد ما جاءتهم آيات الله التي تهديهم إلى سلامتهم لكنهم جعلوها سببا للتكذيب قال تعالى : * والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون * (٤)

ومنها اخبار الله تعالى لآدم وحواء وذريتهما وابليس بما قضاه الله في الأزل بأنهم في الارض يحيون وفيها يموتون ومنها يخرجون * قال فيها تحيون

(١) القسم في الآية محذوف ودليله لام القسم ونون التوكيد (لنسألن) وقد صرح بالقسم في سورة الحجر * فوريك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون *

الحجر الآية (٩١ - ٩٢) .

(٢) سورة الأعراف : الآية (٦) .

(٣) سورة الأعراف : الآية (٧) .

(٤) سورة الأعراف : الآية (٨) .

وفيها تموتون ومنها تخرجون * (١) أي للشواب والعقاب .

ومن هذه الآيات التي جاءت في السورة الكريمة موءدة لوقوع اليوم الآخر الحديث عن الظلمة عندما تأتيهم رسل الله يتوفونهم وهم يسألونهم (٢) في هذه اللحظة الحرجة لحظة الموت * أين ما كنتم تدعون من دون الله * فلا يملكون جواباً إلاّ الإلقاء التبعية على كبرائهم الذين أضلّوهم ثم تبرؤا منهم وندمهم في يوم لا ينفع الندم بقولهم * قالوا ضلوا عنا . وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * أي وشهدوا على أنفسهم بالكفر بعد ما يسر الله لهم أسباب زواله من بعث الرسل وانزال الكتب قال تعالى * فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بما ينزل الله أو وليك يناديهم نصيهم من الكتب * (٣) أي ما قدر الله لهم من أعمار وأرزاق فانهم يستوفونها لتقوم بها حجة الله عليهم مع أنهم أظلم الخلق ولثلاً يقولوا يوم القيامة لم نعط الفرصة لنفكر فيما هديتنا به وهذا هو الراجح في معنى هذه الجملة . (٤)

قوله * حتى إذا جاءتهم رسلنا * أي ملك الموت وأعوانه الموكلون لقبض ارواحهم * يتوفونهم قالوا * أي الرسل .

* أين ما كنتم تدعون من دون الله * قالوا * أي الكفار * ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * (٦)

وعندئذ قال الله لهم * ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم * وأدخلت النار لأن تدخلوها فأنتم مندرجون فيها لامحالة وناثلكم ما نالهم من العذاب لا من بني جنسكم فقط بل من الجن والانس .

(وهذا يشعر بأنه تعالى لا يدخل الكفار بأجمعهم في النار دفعة واحدة بل يدخل الفوج بعد الفوج . فيكون فيهم السابق والمسبوق ، ليصح هذا القول ويشاهد الداخل من الأمة في النار من سبقها أه) (٧)

- (١) سورة الأعراف : آية (٢٥) .
- (٢) سورة الأعراف : آية (٣٧) .
- (٣) سورة الأعراف : آية (٣٧) .
- (٤) انظر: تفسير النسفي (٢ / ٥٢) .
- (٥) انظر: تفسير النسفي (٢ : ٥٢) .
- (٦) سورة الأعراف : آية (٣٧) .
- (٧) تفسير الرازي : (١٤ / ٧٧) .

قال تعالى ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ (١) أي قرينتها في ملتها فيلعن أهل كل دين باطل بعضهم بعضا . فيلعن المشركون أقرانهم . وكذلك اليهود تلعن اليهود والنصارى تلعن النصارى وكذا القول في المجوس والصابئة وسائر أديان الضلالة . ويتبرأ بعضهم من بعض . (٢)

وقوله ﴿ حتى إذا داركوا فيها جميعا ﴾ أي توالى دخولهم النار فوجا بعد فوج وتلاحقوا حتى لم يبق منهم أحد ويئس الأولون والآخرون من الرحمة .

﴿ قالت آخر لهم لأولهم ربنا هو لآء أضلونا ﴾ وفي تفسير (آخراهم وأولاهم) قولان :

الأول : آخراهم يعني آخرهم دخولا في النار لأولاهم دخولا فيها .
والثاني : آخراهم منزلة وهي الأتباع والسفلة . لأولاهم منزلة وهم القادة والروءساء . والاضلال يقع من المتقدمين للمتأخرين على وجهين :

أحدهما : بالدعوة إلى الباطل وتزيينه في أعينهم . والسعي في اخفاء الدلائل المبطللة لتلك الأباطيل .

ثانيهما : بأن يكون المتأخرون معظمين لأولئك المتقدمين ، فيقلدونهم في تلك الأباطيل والاضاليل التي لفقوها ويتأسون بهم فيصير ذلك تشبيها باقدام أولئك المتقدمين على الاضلال . (٣)

أي أنهم كانوا من أسباب صيرورة الآخرين إلى هذا المصير السيء .
قوله ﴿ فئاتسهم عذابا ضعفا من النار ﴾ أي ضاعف العذاب عليهم مرات كثيرة . إذ الضعف كما يقول الأزهرى : أقله مثل الشيء وآخره لا حد له . (٤)

ولاشك أن الطالبين يقصدون الثاني ﴿ قال لكل ضعف ﴾ أي لكم ولهم العذاب المضاعف لما كان من أضلالهم لكم واتباعكم لهم من بعد ما جاءكم الهدى ﴿ ولكون لا تعلمون ﴾ لأن كلا منهم مشغول بسوء ما هو فيه عما يحدث لغيره ﴿ وقالوا أولهم لآخرهم ﴾ فلما سمعت أولاهم ما نسبته إليها آخراهم تبرأت من قولهم وقالت للآخرين ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ في ترك الكفر والرغبة عنه بل

(١) سورة الأعراف : آية (٣٨) .

(٢) انظر: تفسير الرازي (٧٣/١٤) .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) انظر: تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهرى (٤٨١/ ١) . (٥) سورة الأعراف : آية (٣٨)

كنا وأنتم في الاقبال عليه سواء . وهكذا أخذت كل فرقة تحيل عن نفسها وتتهم غيرها يلغهم جميعا الندم والأسف الذى لا يفتنيهم عما هم فيه شيئاً والذى يزيدهم في حسرتهم . ولذا بين الله للجميع أنهم ما كانوا في هذا الهوان وأنهم ذائقوا هذا العذاب الأليم الذى لا يفتك عنهم بتحسر ولا باتهام فريق لفريق . (١)

قال تعالى ﴿ وقالت أولئهم لأخرئهم فما كان لكم علينا من فضل ﴾
(٢) والخطاب يعود الى آخرهم ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾

ومن المناظرات العجيبة الشأن التى تناولتها هذه السورة ما يكون من تذكير المؤمنين للكافرين أن المؤمنين قد وجدوا ما وعدهم ربهم من الثواب العظيم والنعيم المقيم حقا لا ريب فيه . فهل وجد الكفار ما وعدوه من الجحيم والعذاب المقيم حقا ؟ فأجاب الكفار عن هذا التساؤل بنعم وليس المقصود من هذا السؤال اكتشاف ما خفي عن المؤمنين . وإنما هو سؤال تحزين وتبكييت فما أسوأ اعتراف المنهزم على نفسه بهزيمته واقتراره لما يعتبره عدوه بخيبة أمله .

(٣) فلما أقر الكفار على أنفسهم بسوء مآلهم . نادى مناد من الملائكة بين الفريقين بلعنة الله الدائمة للظالمين . قال ابن عباس : وذلك المؤمن من الملائكة هو صاحب الصور . (٤)

قال تعالى ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم ﴾
(٥) أن لعنة الله على الظالمين ﴿

وتأمل معي قوله ﴿ أصحاب الجنة ﴾ ﴿ أصحاب النار ﴾ فسترى أن هذا النداء حصل بعد استقرار كل فريق فيما أعد الله لهم من الجنة أو النار . وتأمل قول المؤمنين ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ﴾ فانهم يتحدثون عن

(١) كما قال تعالى في سورة (ص) ﴿ ان ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ سورة ص

الآية : ٦٤ .

(٢) سورة الأعراف : آية (٣٩) .

(٣) انظر: تفسير الألوسي (٨ - ١٢٣) .

(٤) تفسير الرازى (٨٥/٨٤) وانظر تفسير النيسابورى المسمى بغرائب القرآن ورغائب

الفرقان للحسن بن محمد النيسابورى، تحقيق ابراهيم عطوه عوض (١١٦/٦) ط الباطني

الجلبي الاولى سنة ١٣٨١ هـ .

(٥) الأعراف : آية (٤٤) .

موجود حقيقي يتنعمون فيه وبه ولذا أضافوا أنفسهم الى جناب الرب تبارك وتعالى تعبيراً عما هم فيه من مسرة واکرام والمراد بالظالمين على ما هو الراجح في هذه الآية هم الكافرون .

وقد وصف الله هؤلاء الظالمين بصفات ثلاثة :

أولاً : صدهم غيرهم عن سبيل الله ودينه وبذل غاية مجهودهم في ذلك وقطع أوقاتهم واعمالهم فيه واستعمالهم كل السبل والحيل من زجر وقهر . الخ .

ثانياً : انهم يبغون سبيل الله عوجاً وميلاً عن الحق الى باطلهم . فهم يتمنون قرآناً يمجدهم وأعمالهم ويقرهم على ما هم عليه من ضلال .

ثالثاً : أنهم بالدار الآخرة - التي تأكدت الأدلة على مجيئها وأنها لامحالة تعقب الدنيا والتي فيها الثواب والعقاب - كافرون ممعنون في الكفر يصرفون أنفسهم عن الايمان بها مهما سقت لهم من الأدلة على حصولها .

قال تعالى ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كفرون ﴾ (٢) وهذه الآية بيان لحالهم التي كانوا عليها في الدنيا وأنهم المتسببون في حلول لعنة الله عليهم .

وقد بين الله تعالى أن بين الفريقين من أهل الجنة والنار أو بين الجنة والنار حجاباً أي سوراً عظيماً يستحيل معه لعظمتها أن يتسرب من ریح الجنة وروحها شيء إلى أهل النار .

كما أنه لا يتسرب من عذاب النار ولهيبتها ودخانها شيء إلى أهل الجنة فيطمئن أهل الجنة بما هم فيه ويبيأس أهل النار أن ينالوا من هذه الرحمة شيئاً .

ثم جعل الله على أعلى هذا السور رجالاً هم خيار الخلق على ما

(١) انظر تفسير الرازي (١٤ - ٨٦) .

(٢) سورة الاعراف : آية (٤٥) .

(٣) وهو ما عبر عنه في سورة الحديد بقوله تعالى ﴿ فحضب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ الآية (١٣) سورة الحديد . انظر تفسير القرطبي (٢١١/٧) .

.....

== وأما قوله * وهم يطمعون * فالمراد بهذا الطمع . الطمع اليقيني —
ألا ترى أنه تعالى قال حكاية عن ابراهيم عليه السلام * والذي أطمع
أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين * وذلك الطمع كان طمع يقين فك—ذا
هنا .

وعلى القول الثاني (أنهم في الدرجة النازلة) أيضا في وجوه :

أ - أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا جرم ماكانوا من أهل الجنة
ولا من أهل النار فاوقفهم الله تعالى على هذه الأعراف لكونها
درجة متوسطة بين الجنة والنار ثم يدخلهم الله تعالى الجنة بفضل
ورحمته وهم آخر قوم يدخلون الجنة .
وهذا القول قول حذيفة وابن مسعود . واختاره الفراء .

ب - وخصه بعضهم فقالوا : هم قوم خرجوا الى الغزو بغير اذن أمهاتهم
فاستشهدوا فساوت معصيتهم طاعتهم فحبسوا بين الجنة والنار .
وهذا القول داخل في القول السابق لان هو ءلا ء تساوت معصيتهم مع
طاعتهم . فلا معنى لتخصيص هذا الوجه وقصر لفظ الآية عليه .

ج - وقيل أنهم مساكين الجنة .

د - وقيل إنهم هم الفساق من أهل الصلاة يعفو الله عنهم ويسكنهم
الأعراف .

وأما الذين فسروه بغير المكان وهو قول الحسن والزجاج :
فقد قالوا إن المعنى : وعلى معرفة أهل الجنة والنار رجال يميزون
البعض من البعض اما بالالهام أو بتعريف الملائكة .
قال الحسن والله لا أدري لعل بعضهم الآن معنا .
وعلى جميع التفاسير : فهم يعرفون أهل الجنة وأهل النار .
قيل يعرفون أهل الجنة بكون وجوههم ضاحكة مستبشرة مبيضة وأهل النار
بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ..

قال المحققون : إنهم كانوا يعرفون أهل الخير والايمان والملاة . وأهل
الشر والكفر والفساد وهم كانوا شهداء ء الله على أهل الايمان والطاعة وعلى
أهل الكفر والمعصية فهو تعالى يجلسهم على الأعراف ليكونوا مطلعين على
الكل يشهدون على كل أحد بما يليق به .

(١) وقال الفخر الرازي : (وتحقيق الكلام أن أصحاب الأعراف هم من أشرف أهل القيامة)

=== الجيم وفتح اللام بعدها زاي) مشهور بكنيته ثقة من كبار الثالثة مات سنة ست وقيل
تسع ومائة وقيل قبل ذلك . انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (١١/١٧١) ط
الاولى سنة ١٣٢٧هـ في الهند . دار صادر بيروت ١٩٦٨م وانظر تقريب التهذيب
للحافظ ابن حجر العسقلاني ته عبد الوهاب عبداللطيف ط م المكتبة العلمية بالمدينة . دار
المعرفة سنة ١٩٧٥ ، (٢/٣٤٠) .
بتصرفه واختصار من تفسير الرازي ١٤/٨٧-٨٨-٨٩-٩٠) وتفسير النيسابوري
(١) (غرائب القرآن (١٢٠/٨ - ١٢١))

وما قررته في الأعراف وأهلها هو ما رجحه بعض المفسرين (١) وارتاحت إليه نفسي والله أعلم بالصواب .

قال تعالى : ﴿ وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلم عليكم لم يدخلوها ﴾ أي لم يدخلها أهل الأعراف بعد ﴿ وهم يطوفون ﴾ (٢) أي يوقنون بدخولها ولكن الله عبر عن يقينهم بيطمعون إشارة إلى كمال عبوديتهم وكمال أدبهم وإن علت درجاتهم لا يأمنون مكر الله عز وجل . فهم في فضله طامعون .

وأن أهل الأعراف ليديمون النظر إلى أهل الجنة سرورا بما تقع عليه أبصارهم فاذا صرفت أبصارهم تلقاء جهة أهل النار أصابهم من الفزع والذهول ما جعلهم يضرعون إلى ربهم قائلين ﴿ ربنا ﴾ أي خالقنا ومالئنا ومفيض الرحمة علينا لا تتخلى عنا في هذا الموقف الصعب ، ولا تجعلنا بما بدر منا من تقصير مع القوم الظالمين . فانك إن فعلت فذاك عدلك . وهذا أيضا من كمال العبودية قال تعالى ﴿ وإذا صرفت أبصارهم ﴾ أي أبصار أهل الأعراف .

(٤)

﴿ تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾

ثم ذكر تعالى توبيخ أهل الأعراف لفريق من أهل النار وهم الكبراء والسادة الذين كانوا يستضعفون فقراء المؤمنين ويستهيئون بهم يعرفهم أهل الأعراف بسيماهم لأن الله يميز هؤلاء الكبراء بمزيد من القبح ليكونوا أعجوبة أهل الموقف فيصبون عليهم اللعنات قائلين لهم ما أغنى عنكم اجتماعكم على محاربة الدين واحتقار المؤمنين ، أو ما أغنى عنكم ما جمعتهم من الدنيا فانكم فارقتم ذلك كله . (٥)

وما أغنى عنكم استكباركم وتأبيكم على الاستجابة لرسول الله صلوات الله وسلامه عليهم قال تعالى ﴿ ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم

(١) منهم: الفخر الرازي (٩٠/١٤) قال رحمه الله وتحقيق الكلام أن أصحاب الأعراف هم أشرف أهل القيامة . أو .هـ. قال رحمه الله ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ من أفاضل المسلمين أو .هـ. وقد ذكر هذا القول في مقدمة بقية الأقوال، انظر تفسير النسفي (٥٤/٢) ومن أراد التوسع فليرجع إلى تفسير النيسابوري (غرائب القرآن) (١٢٠/٨) وتفسير القرطبي (٢١١/٧) الألوسي (١٢٤/١٢٣/٨) وتفسير أبي السعود (٢٣٠/٣)، فتح القدير للشوكاني (٢٠٨، ٢٠٧/٢) .

(٢) الأعراف آية : ٥٤٦ . (٣) انظر تفسير النيسابوري (غرائب القرآن) (١٢٠/٨) .

(٤) الأعراف آية : ٥٤٧ . (٥) انظر تفسير الرازي : (١٤ - ٩١) .

(١) قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون *

ثم ذكر أهل الأعراف هؤلاء المستكبرين ببعض أحوالهم في الدنيا فقد كانوا يحتقرون المؤمنين وضعافهم خاصة . ويمعنون في هذا الاحتقار مقسمين بأن هؤلاء الفقراء من المؤمنين لن تنالهم من الله رحمة ولن يكونوا من أهل الجنة فاذا بهؤلاء الفقراء اليوم في بحبوحة الجنة وفي رحمة الله . وإذا (الكبراء) في الهوان الدائم والعذاب المقيم فيذكرهم أهل الأعراف بمآلهم ومآل من كانوا يحتقرونهم قائلين لهم بأسلوب الاستفهام الإنكارى الذى يقصد به الامعان في توبيخهم وتحسيرهم فان من أهم اسباب عذابهم بعد الكفر احتقارهم لهؤلاء الضعفاء قال تعالى * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة)؟ ولما فرغ أهل الأعراف من المهمة التي جعلها الله لهم يوم القيامة قال لهم ربهم : ادخلوا الجنة فأنتم أحبائي وخلصائي ، لاخوف عليكم من مكروه يصيبكم ولا أنتم تحزنون في هذه الدار لأنها دار كرامة ورحمة . ويجوز أن يكون هذا القول (٢) من أهل الأعراف للمؤمنين الذين أقسم المستكبرون أن لاتنالهم رحمة بقصد تهزفتهم بما أكرمهم الله وما جازاهم على صبرهم وتحملهم ماتحملوا من سفاهة المستكبرين ويزيد أهل الأعراف بقولهم هذا للمستكبرين من أهل النار حسرة وحزنا قائلين لهم ما قصه الله : * ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون *

ولما فرغ القرآن من الحديث عن أهل الأعراف . ذكر استغاثة أهل النار بأهل الجنة طالبين منهم أن يفيضوا عليهم بعضا من الماء ليطفئوا به ما في أجوافهم من حرارة ولهيب . أو بعض الثمار والأرزاق الحسنة التي يخففون بها ما يلقون بها من طعام الزقوم . وأهل النار وهم يطلبون ذلك يعلمون أنهم لن ينالوه لكن اليأس أحيانا يطلب ما يعلم أنه لن يُمكن منه كالغريق يتعلق بالزبد . فيجيبهم أهل الجنة ان الله حرم ما طلبتم لأنكم كافرون . وقد أبعدتم أنفسكم بكفركم عما طلبتم فلا سبيل لكم اليه . وأنكم اتخذتم دين الله الذى أكرمكم به لهدايتكم لعبا وهزوا وسخريا . وهو السبيل إلى الجنة

(١) الأعراف : آية : ٤٨ .

(٢) انظر: تفسير الرازى (١٤ / ٩١ - ٩٢) .

(٣) سورة الأعراف : آية : ٤٩ .

وإلى نعيمها . وقد فقدتم السبيل ، فكيف تصلون إلي مبتغاكم ؟ كما أنكم نسيتم الآخرة بل كفرتم بها ، وغرتكم الحياة الدنيا فاطمأنتم إليها . وحتى تنقطع آمالهم فيما يطلبون ، يقول الله لهم قول إهانة وتحقير وهو العلي العظيم (فاليوم ننساكم) أى نهملكم ونتركم ولانجيبيكم إلى مطالبكم (كما نسيتم لقاء يومكم هذا) بامعانكم في الكفر وإشارة الشكوك في وقوع هذا اليوم مع واضح الحجج التى سيقى لكم لتخرجكم من الشبه التى سولها لكم الشيطان مع كونكم كنتم مصرين على تكذيب آيات الله وجدها ، قال تعالى * ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله * ، أى تكرموا علينا بشيء ما فلا نشترط عليكم ولا نلزمكم .

* قالوا إن الله حرمهما على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهواً (١)
ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسهم كما نسوا لقاء يومهم هذا (٢)
وما كانوا بغايتنا يجهلون * (٣)

وإذا كانت سورة الأعراف قد حدثتنا عن أحوال أهل النار وأحوال أهل الجنة ، وعن أهل الأعراف الذين لا ذكر لهم الا في هذه السورة ، فإنها لم تغفل الحديث عن إثبات البعث وإمكان وقوعه بقياسه على أمور مشاهدة محسوسة ، توجد ثم تعدم ثم توجد ثم تعدم ما بقيت هذه الدنيا .

قال تعالى * وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى يسوق إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك تُخرج الموتى لعلكم تذكرون * (٤)

إن المتأمل في هذه الآية الكريمة ، يجد أنها تبرهن على قدرة الله على البعث ، بدليل محسوس . فمن قدر على ارسال الرياح وحمل السحاب ، وانزال الماء ، وأخيرا اخراج النبات بشتى أنواعه ، وعلى اختلاف أشكاله ، في سهولة ويسر ، قادر على أن يعيد الحياة إلى الأجساد ، ويبعثهم من قبورهم ، وهو أمر لا ينفكره إلا من ينكر خروج الثمرات من الأرض بعد سقيها بالماء .

(١) أى استمتعا أنساهم التفكير في الآخرة فضلا عن الايمان بها .

(٢) أى هزلا وعبثا لذا لا يفرقون بين حلال وحرام .

(٣) الأعراف آية : (٥٠ - ٥١) .

(٤) الأعراف آية : (٥٧) .

ولقد أشار الفخر الرازي إلى مناسبة الآية لما قبلها ^(١) وتتلخص في

أمريـن :

أولا : أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية . وكمال العلم والقدرة من العالم العلوي وهو السموات والشمس والقمر والنجوم ، أتبعه بذكر الدلائل من بعض أحوال العالم السفلي . وأعلم أن أحوال هذا العالم محصورة في أمور أربعة: الآثار العلوية ، والمعادن ، والنباتات ، والحيوان . ومن جملة الآثار العلوية الرياح ، والسحاب والأمطار، ويترتب على نزول الأمطار بعض أحوال النبات وذلك هو المذكور في هذه الآية .

ثانيا : في تقرير النظم . أنه تعالى لما أقام الدلالة في الآية الأولى على وجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم . أقام الدلالة في هذه الآية على صحة القول بالحشر والنشر والبعث والقيامة ليحصل بمعرفة هاتين الآيتين كل ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ والمعاد .^(٢)

و تلغت الآية الكريمة أنظار منكرى البعث إلى امكانية البعث بدليل مادي محسوس مشاهد . فلما كان جل وعلا هو المحرك للرياح والمتصرف في أحوالها فمنها ما يرسلها للعذاب . ومنها ما يرسلها تبشر بالمطر والرحمة ولما كان في أغلب الأحوال أن الرياح تتقدم المطر أشار إلى ذلك بقوله * وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته * حتى اذا حملت تلك الرياح سحابا ثقيلًا لحمله كميات كبيرة من الماء * حتى إذا أقلت سحابا ثقالاً * أى بالماء .

قال تعالى * سقنّه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون * ^(٣) وبعد أن تتحمل تلك الرياح ذلك السحاب المشبع بالمياه يسوقه جل وعلا إلى بلد ميت قاحل لا حياة فيه

(١) قوله تعالى : * إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العلمين *

الآية : (٥٤) من سورة الاعراف .

(٢) تفسير الرازي (١٣٨/١٤) .

(٣) سورة الاعراف : آية : (٥٧) .

ولا نبات ولا زرع فأنزل الله من السحاب ماء١٤ عذبا منهمرا ، ومن رحمته جل وعلا جعله كذلك فلو كان أجاجا شديد الملوحة لما انتفع فيه وحصلت به المضرة ووقع به الهلاك . فأخرج الله جل وعلا شتى أنواع الثمرات بواسطة انزال المطر .

وكما أنه تعالى خلق النبات على اختلاف أشكاله من ذلك الماء الذي أنزله من السماء على تلك الأرض الميتة فأخرج الثمر والشجر ولم يكن لهما وجود من قبل فأى غرابة في أن يبعث الله الموتى من قبورهم بعد وجود سابق .

وان العقول لتقر : بأن إعادة المعدوم المسبوق بوجود ، أهون وأسهل لسبق صورته من المعدوم الذي لم يسبق بوجوده . ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى ﴿ وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ (١) وقـال تعالى ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (٢) ، وإنما سمي ذلك هين عليه باعتبار ما هو متأصل في فطر المخاطبين لا بالنظر الى قدرته تعالى . فهو جل وعلا قادر على احياء الموتى . ولا شك أن من قدر على احداث الجسم وخلق الرطوبة والطعم فيه . فهو أيضا قادر على احداث الحياة في بدن الميت فمن يقدر على انبات الثمار والأشجار ومختلف أنواع الأزهار في الربيع ثم تصير ميتة عارية في الشتاء ثم يعيد اليها نضارتها وأزهارها وثمارها فالقادر على احيائها بعد موتها قادر على احياء الأجساد بعد موتها . فيجب تذكر أنه لما لم يمتنع هذا المعنى في احدي الصورتين وجب أن لا يمتنع في الصورة الأخرى (٣) .

قال تعالى ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقنله ليلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ (٤) .

وكما اهتمت سورة الأعراف باثبات البعث وسهولة وقوعه فانا نراها وقد

-
- (١) الروم ، آية (٢٧) .
 - (٢) سورة يس ، آية (٨٢) .
 - (٣) انظر: تفسير الرازي (١٤ / ١٤٣) .
 - (٤) الأعراف ، آية (٥٧) .

شارفت على آخرها تذكر الحاف الكافرين والحاحهم في استدامة السؤال عن وقت وقوعها .

قال تعالى ﴿ يسئلونك عن الساعة أيان مرسؤها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لاتأتاكم إلا بغتة يسئلونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١) .

والسائلون هم اليهود أو قريش أو هما معا ، والغرض من تكرار هذا السؤال ، التوصل بذلك الى تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فانهم كانوا يستعجلون وقوع العذاب عليهم تارة ، ويستعجلون مجيء وقوع الساعة تارة أخرى .

قال تعالى ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين ءامنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾ (٢) .

وتد بين الله ما يسألون عنه ﴿ أيان مرسؤها ﴾ أي متى وقوعها ومجيئها وهم يعبرون عن المجيء بالارساء لأن الشيء اذا جاء ثبت . وكما يسأل بأيان عن المكان ، فانه يسأل بأيان عن الزمان .

وقد أمر الله حبيبه صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول قولا مطلقا ، يعم العلم به جميع الخلائق ، لا السائلين فقط ﴿ قل إنما علمها عند ربي ﴾ أي علم وقت وقوعها غيب ، اختص الله به فهو عنده وحده ، لم يطلع عليه ملكا ولا نبيا ، وهذان هما أكرم خلقه عليه فأولى أن لا يطلع على ذلك من دونهما ، وإنما قال الله : ﴿ إنما علمها عند ربي ﴾ لأن في اخفاء وقت وقوعها ، رحمة عظمى بالمكلفين ، وتربية عظيمة لهم . فانهم لو كوشفوا بوقت وقوعها ، لأعددهم همها عن كل عمل ديني أو دنيوي . وفي اخفاءها

(١) الأعراف ، آية (١٨٧) .

(٢) الشورى ، آية (١٨) .

تخفيف عليهم . لأن الأمر المطروح وإن كان صعباً فكثير ما يهون على المكلفين في زعمهم ، ولذا نهانا الله عن الاغترار في الحياة الدنيا ، بعد تذكيرنا بأن وعده بالساعة وما ورائها حق .

قال تعالى ﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَرَبُّكُمْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴿ وقال للكافرين ﴿ إنهم يرونه ﴿ أى العذاب أو يوم القيامة ﴿ بعيداً ﴿ أى مستحيلاً ﴿ ونزلته قريباً ﴿ أى كأننا لا محاله . (٢) (٣)

ثم أكد سبحانه انفراده بعلمها فقال ﴿ قل إنما علمها عند ربى لا يعلمها لوقتها إلا هو ﴿ أى لا يظهرها فهي في خفاء دائم حتى يحين أوانها ، فتفاجىء الناس وأحدهم يطلب ناقته وآخر يبيع ثوبه الى آخر ما صح في الحديث الصحيح قال تعالى ﴿ لا تأتاكم إلا بغتة ﴿ (٥)

أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه يبلغ به النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال (تقوم الساعة والرجل يطلب اللقحة (٦) فما يصل الإناء إلى فيه حتى تقوم ، والرجلان يتبايعان الثوب فمما يتبايعانه حتى تقوم ، والرجل يلط في حوضه فما يصدر حتى تقوم) . (٧) (٨)

ثم بين تعالى أنها ثقلت في السموات وفي الأرض أي ثقل أمرها على السموات والأرض وأهليهما فبمجيئها تنفطر السماء وتتشقق وتمسد الأرض وتلقي بكل ما في بطنها كما أن فيها عناء الملائكة والثقلين وكل شيء .

(١) سورة لقمان ، آية (٣٣) .

(٢) سورة المعارج ، آية (٧) .

(٣) تفسير النسفي (٤ / ٢٩٠) .

(٤، ٥) الأعراف ، آية (١٨٧) .

(٦) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن - انظر لسان العرب (٢ - ٥٨١) .

(٧) الرجل يلط في حوضه : بفتح الياء وكسر اللام وتخفيف الطاء . وفي بعض

النسخ وردت يليب وفي بعضها يلوط . ومعنى الجميع واحد وهو أن يطينه

ويصلحه - أنظر شرح النووي على صحيح مسلم (١٨ / ٩١) .

(٨) صحيح مسلم وبهامشه شرح النووي (١٨ / ٩١) وأخرجه كذلك البخاري

صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٦ / ٢٠٢) .

قال تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾^(١) ثم زاد الأمر تأكيداً فخطب جميع العقلاء فقال ﴿ لاتأتىكم إلا بغتة ﴾ أي فجأة دون تحسب منكم لوقوعها ودون أمارات يتعرفون على قرب وقوعها .

والأمارات التي جاءت في حديث جبريل ، هي للمؤمنين خاصة . أما الكفار فهم عن ذلك في عمى ، بل إن الكثير من المسلمين الآن في ذهول عن أماراتها مظهر منها وما لم يظهر بعد ، غير أنهم إذا حدثوا عنها لا ينكرونها .

ثم ذكرت الآية سؤالهم عنها مرة أخرى ، والسؤال في هذه المرة عن أهوالها ، وما يقع فيها وهو كسابقه لا يقصد به الوصول إلى الإيمان ، وإنما يقصد به الامعان في الانكار والكفران ، قال تعالى ﴿ يسئلونك كأنك حفي عنها ﴾ أي مهتم بأخبارها ، ومحاولة استكشاف وقوعها أو كأنك ملح في طلب ذلك ، وحاشاه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتجاوز في سؤاله لربه ممارس له .

فحفي على وزن فعيل مأخوذ من الحفاوة أو من الاحفاء بمعنى اللاحاح وهم يريدون أن يظفروا منه صلى الله عليه وآله وسلم بجواب يخالفه الواقع ، فيظعنون بذلك في نبوته صلى الله عليه وآله وسلم ، فرد الله الأمر السئ علمه بقوله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾ وذكر في هذا الجواب اسم الجلالة ليبين أن أمر الساعة عظيم ، ولا يصح السؤال عنها ، وعمما يقع إلا مع الاشفاق والوجل . فأمرها جد صعب وخطير وإن دلائل وقوعها لأوضح من أن تكذب ، وانها لكافية في دلالة من يريد أن يعرف عنها شيئاً ما ، لكن جهل الخلق بالله ، وضلالهم عن هدايته ، أعماهم عن وضوح هذه الحقيقة . ولذا قال ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فالسبب في استغراب من يستغرب وقوعها ، ووقوع ما فيها ، هو الجهل التام ، لا شيء آخر وراء ذلك ، والله أعلم .^(٢)

(١) القصص ، الآية (٨٨) .

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٥ / ٧٩ - ٨٢) .

رابعاً: الآيات الواردة في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم :

من المعلوم يقينا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان رجلاً أميناً لا يقرأ ولا يكتب لم يتعلم من أستاذ. ولم يطالع كتاباً. ولم ينقل إلينا أنه كان يجالس العلماء، ولم يغب عن مكة غيبة طويلة يمكن أن يقال إنه في تلك المدة تعلم العلوم الكثيرة، والمتأمل في سورة الأعراف، وهي من أطول السور المكية كما هو معلوم.

يخبر فيها صلى الله عليه وآله وسلم عن ربه جل وعلا بالعديد من قصص الأنبياء مع أقوامهم مع تباعد هذه الأزمان عن زمنه صلى الله عليه وآله وسلم. يخبر عنهم وعن أحوالهم مع أقوامهم، وهلاك أقوامهم لما عاندوا وكذبوا، دون أي تعارض لما ذكر في السور الأخرى، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على صدقه صلى الله عليه وآله وسلم فيما يخبر به عن ربه جل وعلا. والأمثلة على ذلك كثيرة.

قال تعالى: ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الله غيره إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قال الملائكة من قوم نوح إننا لنرى في ضلال مبين. قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين. أبلغكم رسالت ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون. أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون. فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عميناً (١). وأشبه ذلك من الأنبياء الذين ذكرتهم سورة الأعراف. وبدء الخلق وكيف امتنع إبليس عن السجود وحال آدم وزوجته في الجنة، وكيف أزلهما إبليس؟.. وهبوطهم إلى الأرض... الخ.

وما ذكرته التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى مما صدقه فيه علمائهم ولم يقدرُوا على تكذيب ما ذكر منها بل أذعنوا لذلك.

ومع هذا لم يحك عن واحد من اليهود والنصارى على شدة عداوتهم له

(١) سورة الأعراف، الآيات (٥٩ إلى ٦٤).

وحرصهم على تكذيبه أنهم خالفوه في أي نص جاء به وأخبر فيه عنهم — من
أحوالهم وانتقام الله منهم بأشد أنواع العذاب مع ما في تلك الآيات — من
فضح وتشنيع عليهم .

قال تعالى ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم
وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين
فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجلا من
السماء بما كانوا يظلمون ﴿ (١) أي فأرسلنا عليهم عذابا أليما لما فعلوه
من غير تأخير بسبب ظلمهم المستمر والارسال مشعر بالكثرة بخلاف الانزال .

وقال تعالى ﴿ وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ
يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبئون
لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴿ (٢) إلى قوله تعالى ﴿ فلما عتوا
عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خسئين ﴿ (٣)

والمراد من الآيات () وأسأل اليهود الذين كانوا بالمدينة عن هذه
الحادثة أعني عدوان آبائهم يوم السبت الذي اختاروه بأنفسهم يوما لعبادتهم
ففرضه الله عليهم وأنهم لما ظلموا فيه بالاصطياد ولم يمتنعوا عما نهوا
عنه أخذهم الله ومسخرهم قردة وخنازير . فانهم لما سئلوا عن تلك
الحادثة لم ينكروها واعترفوا بما ذكره القرآن الكريم . وهذا من أقوى
الأدلة على صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ بين زمانه وزمان هذه
الحادثة قرون متطاولة (٤) .

وقوله تعالى ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه
واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴿ (٥)

المراد بالجبل الطور ونتقه قلعه من مكانه ووضع فوق رؤوسهم كأنه
ظلة ، وسلك القرآن هنا أسلوب التشبيه لأن الجبل لم يكن ظلة حقيقية يظمان
اليها - والظلة كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب . (٦)

(١) الأعراف ، آية (١٦١ - ١٦٢) .

(٢) الأعراف ، آية (١٦٣) .

(٣) الأعراف ، آية (١٦٦) .

(٤) وسأعود إلى تفصيل هذه القصة باعتبارها جزءا من الصراع بين الحق
والباطل في مكانها المحدد لها من الرسالة . انظر ص (٤٣٧) من بحثنا هذا .

(٥) الأعراف ، آية (١٧١) .

(٦) انظر تفسير النسفي ، (٢ / ٨٤) .

وسبب ذلك أن بني اسرائيل في عهد نبيهم موسى عليه السلام لما أبوا أحكام التوراة لشدتها عليهم كما يزعمون . فعل الله بهم ذلك ليحملهم على أخذها والعمل بها حتى تتحقق لهم التقوى . وكما يروي المفسرون أنهم لما رأوا الجبل بهذه الهيئة سجدوا على حاجبهم الأيسر ، ليبصروا الجبل بعينهم اليمنى ، خشية أن يسقط عليهم . وقد سمع اليهود هذه القصة مرارا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم آيات تتلى في سور مختلفة بين نزول كل آية منها زمن ، فما استطاعوا انكارها ولا معارضتها ، وهذا دليل عظيم من أدلة صدقه عليه الصلاة والسلام فيما يخبر عن ربه عز وجل وذكر الله هذه الحادثة في البقرة مرتين ، وفي النساء مرة ، وفي الأعراف مرة تبكيها لليهود المعاصرين له صلى الله عليه وآله وسلم وبيانا بأنهم في الظلم والفسوق والتمرد على أحكام الله كآبائهم وأشد ..^(٢)

(١) انظر تفسير النسفي (٢ / ٨٤) ، تفسير الرارزي (١٥ / ٤٥) .

(٢) الآيات التي تناولت هذه الحادثة غير آية الأعراف

قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة ، آية (٦٣) .
وقال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة ، آية (٩٣) .
وقال تعالى ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمُ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ النساء ، آية (١٥٤) .

فالكلام قبل كل آية من هذه الآيات وبعدها مع بني إسرائيل لا يعوز القارئ أن يجد ذلك صريحا بلا كلفة .

الفصل الأوّل

صِرَاعِ إبْلِيسَ مَعَ آدَمَ وَحِوَاءِ

عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

الفصل الأول

" صراع ابليس مع آدم عليه السلام "

* مقدمة :

وفيها ذكر المواضع التي ذكرت فيها قصة آدم في القرآن الكريم والحكمة من تكرارها .

* المبحث الأول :-

مسائل مهمة لابد من توضيحها لبيان حقيقة الصراع بين ابليس و آدم أبي

البشر عليه السلام .

- المسألة الأولى :

أطوار خلق آدم عليه السلام .

- المسألة الثانية :

خلق حواء عليها السلام .

- المسألة الثالثة :

من هم الملائكة - حقيقتهم ، عصمتهم ، أصنافهم ، أوصافهم ،

وصف قدرتهم .

- المسألة الرابعة :

السجود لآدم وبيان حقيقة ذلك .

- المسألة الخامسة :

حقيقة ابليس هل كان من الملائكة أم من الجن ؟

- المسألة السادسة :

مسألة الكلام عن الجنة والاختلاف في المراد بها وفيها الرد

على المعتزلة ودحض شبههم .

- المسألة السابعة :

مسألة الكلام عن الشجرة واختلاف المفسرين في المراد بها .

* المبحث الثاني : الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم عليه

السلام .

(الصراع بين ابليس و آدم أبي البشر عليه السلام)

* مقدمة :

لقد أمر الله (جل و علا) عباده باتباع رسله عليهم السلام فيما يبلغونه عنه وسوف يسأل الكل عن عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . قال تعالى * فلنستئذن الذين أرسل اليهم ولنستئذن المرسلين * ونظير هذه الآية قوله تعالى * فوريك لنستئذنهم أجمعين . عما كانوا يعملون * فالحق سبحانه وتعالى سيحاسب عباده كل بعمله وذلك بعد وزن عمله * والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بعايتنا يظلمون * (١)

ثم بعد ذلك رغبهم في قبول دعوة الأنبياء وذلك بتذكيره بكثرة نعمه عليهم وكثرة النعم توجب الطاعة قال تعالى * ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معيش * * ولقد مكناكم في الأرض * أي جعلنا لكم فيها مكانا وقرارا ومكانكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها * وجعلنا لكم فيها معيش * والمراد من المعيش وجوه المنافع بمختلف أشكالها . (٢)

ثم أعقب ذلك بنعم أخرى ، وهي خلقنا وتصويرنا في أجمل خلقة ، يتمثل ذلك في آدم عليه السلام وسجود الملائكة له والانعام على الأب يجري مجرى الانعام على الابن . (٣)

ولقد ذكر الله جلا و علا قصة آدم عليه السلام وحسد ابليس له بامتناعه عن السجود لآدم وقسمه بعزة الله بين يدي الله بأنه سيحتك ذريته إلا قليلا (٤)

- (١) الأعراف ، آية (٦) .
(٢) الحجر ، آية (٩٢ - ٩٣) .
(٣) الأعراف ، آية (٨ - ٩) .
(٤) انظر: تفسير الرازي (١٤ / ٢٨) .
(٥) انظر: تفسير الرازي (١٤ / ٢٩) .
(٦) أشير بذلك إلى قوله تعالى * فأنظرنني إلى يوم يبعثون . قال فإنا من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين * الآيات من سورة ص آيات (٧٩ إلى ٨٣) ، وقوله تعالى * قال أراءيتك هذا الذي كرمت علي لئن آخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا * سورة الاسراء ، الآية (٦٢) والمراد بقوله * لأحتنكن * يجوز أن يكون من قولهم حنكت الدابة باللجام والرسن فيكون نحو قولك لألجمن فلاناً ولأرسنه . ويجوز أن يكون من قولهم أحتنك الجراد الأرض أي أستولى عليه بحنكه عليها فأكلها واستأصلها فيكون معناه لأستولين عليهم ، انظر المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ، ص (١٣٤) .

واغوائهم أجمعين إلا عباد الله منهم المخلصين ، ليفطن بنو آدم لعداوة ابليس لهم ، واجتهاده في تلك العداوة . حتى لا يسمعون له أو يطمئنوا لوعده فإنه لا يعد إلا بما لا ينفع . ولا يأمر إلا بالفحشاء . لذا نجد هذه القصة قد تكررت في القرآن الكريم سبع مرات لأسباب كثيرة أهمها في نظري ما ذكرته آنفا .

واليك هذه المواضع التي ذكرت تلك القصة فيها :

أولا : في سورة البقرة :

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (١) إلى قوله تعالى ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢)

والغرض من ذكر هذه القصة تقييح الكفر من الكافرين .

ثانيا : في سورة الأعراف :

من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٣) إلى قوله تعالى ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٤)

والغرض من ذكرها هنا حمل الناس على اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به عن ربه جل وعلا .

ثالثا : في سور الحجر :

من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ (٥) إلى قوله تعالى ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٦)

والغرض من ذكرها : بيان معصية ابليس واصراره على اغواء بني آدم إلا

المخلصين منهم .

- | | |
|-----|---------------------------|
| (١) | سورة البقرة ، آية (٢٠) |
| (٢) | سورة البقرة ، آية (٢٨) |
| (٣) | سورة الأعراف ، آية (١١) |
| (٤) | سورة الأعراف ، آية (٢٤) |
| (٥) | سورة الحجر ، آية (٢٦) |
| (٦) | سورة الحجر ، آية (٤٠) |

رابعاً : في سورة الاسراء :

من قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوْۤا اِلَّا اِبٰلِیْسَ ^(١) قَالَ ؕ اَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيْنًا ﴿ۙ اِلٰی قَوْلِهِ تَعَالٰی ﴿ۙ اِنْ عِبَادِيْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ وَّكَفٰی بِرَبِّكَ وَكِيْلًا ﴿ۙ ۰

والغرض من ذكرها تقبيح الكفر والتنديد بمشركي مكة .

خامساً : في سورة الكهف :

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوْۤا اِلَّا اِبٰلِیْسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ اَمْرِ رَبِّهِ اَفَتَتَّخِذُوْنَهُ وَاٰلِیٖٔهٖ مِنْ دُوْنِيْ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بَیِّنٌ لِّلظٰلِمِيْنَ بَدَلًا ﴿ۙ وَالْغُرٰضُ مِنْ ذِكْرِهَا : التَّخْوِيْفُ مِنَ الْحِسَابِ یَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَحَمَلُ الْكَافِرِيْنَ عَلٰی الْاِيْمَانِ بِالْآخِرَةِ ۰ وَتَخْوِيْفُهُمْ ۰ وَتَقْبِيْحُ اتِّخَاذِ اِبْلِیْسَ وَذُرِّيَّتِهِ اَوْلِيَآءٍ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ ۰

سادساً : في سورة طه :

من قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عٰهَدْنَا اِلٰی آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسٰی وَلَمْ نُجِدْ لَهٗ عَزْمًا ﴿ۙ اِلٰی قَوْلِهِ تَعَالٰی ﴿ۙ قَالَ اِهْبِطَا مِنْهَا جَمِيْعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَاِذَا يٰۤاٰتِيْنٰكُمْ مِنْ يَّهْدٰی فَمَنْ اَتٰبَعْ هٰدٰی فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقٰی ﴿ۙ ۰

والغرض من ذكرها : بيان ضعف الانسان ، وأنه لا يثبت على العهد في كثير من الأحيان ، وأن معصية آدم عليه السلام لم تكن عن عمد ، وإنما كانت عن نسيان .

سابعاً : في سورة ص (ص) :

من قوله تعالى ﴿ اِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيْ خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِيْنٍ ﴿ۙ اِلٰی قَوْلِهِ تَعَالٰی ﴿ۙ لَا مَلٰٓئِكَةَ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ اٰجْمَعِيْنَ ﴿ۙ ۰

- (١) سورة الاسراء ، آية (٦١) .
- (٢) سورة الاسراء ، آية (٦٥) .
- (٣) سورة الكهف ، آية (٥٠) .
- (٤) سورة طه ، آية (١١٥) .
- (٥) سورة طه ، آية (١٢٣) .
- (٦) سورة ص (ص) ، آية (٧١) .
- (٧) سورة ص (ص) ، آية (٨٥) .

والغرض من ذكرها بيان صفاقة ابليس، وإصراره على معصيته، واستخدامه القياس الفاسد الذي أدى به إلى الطرد، وهذا غرض مشترك لذكر هذه القصة في معظم المواضع .

ولقد أوجزت سورة النساء والأعراف والزمر والرحمن ... الكلام عن خلق آدم وحده تارة، وعن خلقه مع زوجته تارة أخرى، دون التعرض لشيء من التفاصيل المذكورة في المواضع السبعة التي أسلفناها لحكم وأسرار، تعرف عند التعرض لتفسير تلك السور، وسأتعرض لموضوع واحد من تلك المواضع التي ذكرت فيه القصة باجمال في حينه باعتبار أنه مذكور في سورة الأعراف التي تدور رسالتي حول الصراع فيها.

- المسألة الأولى: أطوار خلق آدم عليه السلام :

آدم :

آدم عليه السلام أبو البشر، اشتق اسمه من أدمة الأرض وأديمها، وهو وجهها، حيث قد خلق منها. (١)

ولقد مر آدم عليه السلام بأطوار شتى تناولها القرآن الكريم بالبيان

والتوضيح :

الطور الأول : خلقه من تراب :

قال تعالى * ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * ، قال تعالى * يكآيها الناس إن كنتم في ريب ممن البعث فإننا خلقناكم من تراب * ، وقال تعالى * ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ، وقال تعالى * والله خلقكم من تراب * وقال تعالى * هو الذي خلقكم من تراب * . (٢) (٣) (٤) (٥) (٦)

فالمفسرون مجمعون على أن المقصود بهذه الآيات هو خلق أبينا آدم عليه

السلام وجاءت السنة المطهرة موضحة لذلك .

- (١) انظر لسان العرب (١٢ / ١٢) .
- (٢) سورة آل عمران ، آية (٥٩) .
- (٣) سورة الحج ، آية (٥) .
- (٤) سورة الروم ، آية (٢٠) .
- (٥) سورة فاطر ، آية (١١) .
- (٦) سورة غافر ، آية (٦٧) .

أخرج الترمذي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول (ان الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود والسهل والحزن والخبيث والطيب) (١) .

الطور الثاني : مزج التراب بالماء حتى صار طينا . ثم انتخب آدم عليه السلام

من هذا الطين :

ل قوله تعالى * ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين * والسلافة : هي ما يستخرج من الشيء ويسل منه . ولذلك قيل انها الخلاصة . والمراد بها القطعة التي أخذت من الطين وخلق منها آدم عليه السلام . (٢)

وقال تعالى * الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين * والمراد بالانسان آدم عليه السلام . (٣)

الطور الثالث : خلقه من حمأ :

أي من طين منتن ظاهر الرائحة ، قال تعالى * ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون * . قال النسفي * ولقد خلقنا الانسان * أي آدم ، * من صلصال طين يابس غير مطبوخ * من حمأ * صفة لصلصال أي خلقه من صلصال كائن من حمأ أي طين أسود متغير * مسنون * مصور . (٤)

الطور الرابع : تصويره من الصلصال :

وهو الطين اليابس كما ذكرت ولا تفهم من ظاهر هذه الآية كان صلصالا قبل أن يكون طينا من حمأ مسنون بل معناها أن الصلصال هو نتيجة الحمأ المسنون .

قال النسفي (وفي الأول كان ترابا فعجن بالماء فصار طينا فمكث فصار

- (١) سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سوره (٢٠٤/٥) باب تفسير سورة البقرة .
- (٢) سورة المؤمنون ، آية (١٢) .
- (٣) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل للعلامة محمد بن أحمد بن جزي المكلبي (٤٩ / ٣) ، ط ٢ ، دار الكتاب العربي ، ١٣٩٣ .
- (٤) سورة السجدة ، آية (٧) .
- (٥) التسهيل لعلوم التنزيل (١٣٠/٣) وانظر أضواء البيان للشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٧٧٨ / ٥) ، طبعه عالم الكتب ، بيروت بدون تاريخ .
- (٦) سورة الحجر ، آية (٢٦) . (٧) تفسير النسفي (٢٧١ / ٢) .

(١)
حمأ فخلص فصار سلالمة • فصور ويبس فصار صلصلا فلا تناقض ٠١هـ

الطور الخامس: خلق الحياة فيه وذلك بنفخ الروح فيه :

وبهذا الطور أصبح انسانا يتلقى عن ربه ويشعر بما يشعر به من الصفات
الظاهرة والباطنة ، قال تعالى * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا
له سجدين * (٢)

فالسجود والتعليم لم يقعا له الا بعد تمام خلقه وادراكه •

- المسألة الثانية: خلق حواء عليها السلام :

إن القارئ لكتاب الله عز وجل • يجد نصوصا صريحة في أن حواء عليها
السلام خلقت من آدم عليه السلام ، قال تعالى * يآيها الناس اتقوا ربكم
الذي خلقكم من نفس واحدة * وهي آدم عليه السلام * وخلق منها زوجها *
وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر وهو نائم فاستيقظ فرآها
بجواره • فأنسبها وأنست به • (٤)

قال تعالى * هو الذي خلقكم من نفس واحدة * وهو آدم عليه السلام
* وجعل منها زوجها ليسكن اليها * وهي حواء عليها السلام • (٥)

ولقد اختلف في خلق حواء في قوله تعالى * وخلق منها زوجها *
ومرجع الخلاف هو اختلافهم في قوله * منها * هل من لابتداء الفايئة أو
للجنس هل خلقت حواء من جزء من أجزاء آدم أو من جنس المادة التي خلق منها
فالأرجح والذي عليه الأكثرون أنها خلقت من جزء من أجزاء آدم عليه السلام •

ويؤيده الأثر الذي أخرجه ابن أبي حاتم عن السدي قال : أخرج ابليس
من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي بها وحشا ليس له زوج يسكن اليها
فنام نومة فاستيقظ واذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه

-
- (١) تفسير النسفي (٢ / ٢٧٢) •
 - (٢) سورة الحجر ، آية (٢٩) •
 - (٣) سورة النساء ، آية (١) •
 - (٤) انظر تفسير الرازي ، (٩ / ١٦٠ - ١٦١) •
 - (٥) سورة الأعراف ، آية (١٨٩) •

فسألها ما أنت ؟ فقالت امرأة

قال: ولم خلقت ؟ قالت: لتسكن اليّ

قالت له الملائكة (ينظرون ما بلغ من علمه) ما اسمها يا آدم ؟ قال حواء (١)

قالوا: ولم حواء ؟ قال : إنها خلقت من شيء حي .

فالشاهد في الأثر قوله (وإذا عند رأسه امرأة خلقها الله عز وجل

من ضلعه) .

ويؤيده الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله

عنه . عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (من كان يؤمن بالله واليوم

الآخر فلا يؤذى جاره . واستوصوا بالنساء خيرا فانهن خلقن من ضلع . وإن

أعوج شيء في الضلع أعلاه . فإن ذهب تقييمه كسرته وإن تركته لم يزل

أعوج . فاستوصوا بالنساء خيرا) (٢)

قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله :

فقوله (خلقن من ضلع) بكسر الضاد المعجمة وفتح اللام وقد تسكن

كان فيه اشارة الى ما أخرجه ابن اسحاق في المبتدأ عن ابن عباس (ان

حواء خلقت من ضلع آدم الأقصر الأيسر وهو نائم) . فكأن

المعنى أن النساء خلقن من أصل خلق من شيء معوج . (٣)

والرأي الثاني : لأبي مسلم الأصفهاني من المعتزلة (أنكروا خلقها من

الضلع لأن الله قادر على خلقها من التراب . وقال : أي فائدة في خلقها

من ذلك؟ وزعم أن معنى * منها * أي من جنسها .

ويرد عليه : إن فائدة ذلك ليس سوى الحكمة التي خفيت عنا . لاظهار

أنه سبحانه قادر على أن يخلق حيا من حي لاعلى سبيل التوالد . كما أنه

قادر على أن يخلق حيا من جماد . ولو كانت القدرة على الخلق من التراب

مانعة عن الخلق من غيره لعدم الفائدة لخلق الجميع من التراب بلا واسطة

وأعجبني كلام القاضي قال: القول الأول أقوى لكي يصح قوله * خلقكم من

نفس واحدة * إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من

(١) انظر تفسير ابن كثير (١ / ٧٩) ، ط دار الفكر .

واسناده حسن . انظر تفسير ابن أبي حاتم تحقيق حمد بن أبي بكر

(١ / ٧١) .

(٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١١ / ١٦٢) .

(٣) فتح الباري (١١ / ١٦٢) .

(٤) القاضي : هو عبد الجبار بن احمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل القاضي أبو الحسن

(١) نفسين لامن نفس واحده . والله جل وعلا يقول ﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾

- المسألة الثالثة: من هم الملائكة ؟

أ - الملائكة :

جمع ملك ، أصله مألِك بتقديم الهمزة من الألوك وهي الرسالة ثم قلبت وقدمت اللام فقليل مَلَاك ، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقليل ملك فلما جمعه ردوها إليه فقالوا ملائكة وملائك .^(٢)

وهم : أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السموات .^(٣)

قال تعالى ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده ﴾ أي من سكان السموات وهم الملائكة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾ أي لا يعيون ولا يكلون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ أي أن تسبيحهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لاتتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر فتسبيحهم جار مجرى التنفس منا بل أسرع وهم كلهم سامعون مطيعون مشتغلون بعبادته سبحانه وتعالى ، رطاب الألسن بذكره وتعظيمه ، يتسابقون في ذلك منذ خلقهم ، لا يستكبرون عن عبادته آناء الليل والنهار ولا يسأمون ، لا يحصى أجناسهم ولا مدة أعمارهم ولا كيفية عبادتهم إلا الله تعالى .^(٤)^(٥)^(٦)

وهم من الكثرة ما لا يحيط بهم إلا الله فسبحانه من إله أحصى كل

شيء عدداً .

= الهمزاني الأسداباذي . شيخ المعتزلة ، وصاحب التصانيف منها (التفسير) عماش دهر أطويلاً وسار ذكره ، كان فقيهاً شافعي المذهب ، ولي قضاة الري وأعمالها ، ورحلت إليه الطلبة . مات في ذي القعدة سنة خمس عشرة وأربعمائة هـ . انظر طبقات المفسرين للسيوطي ص ٥٩ - ٦٠ وطبقات المفسرين للداودي (١ / ٢٦٢ ، ٢٦٣) .

(١) انظر تفسير الرازي (٩ / ١٦١) .

(٢) انظر لسان العرب (١٠ / ٤٨١ - ٤٨٢) ، انظر المعجم الوسيط مجمع اللغة العربية

تحت اشراف مجموعه من الباحثين (٢ / ٨١٠) ط ٢ دار المعارف ، بمصر سنة ١٣٩٣ هـ .

(٣) تفسير الرازي (٢ / ١٦٠) .

(٤) سورة الأنبياء : آية (١٩ - ٢٠) .

(٥) تفسير النسفي بتصرف (٣ / ٧٥) .

(٦) تفسير الرازي بتصرف (٢ / ١٦٢) .

أخرج الترمذي وابن ماجه والامام أحمد في مسنده عن أبي ذر رضي
الله عنه قال عليه الصلاة والسلام (أظت السماء وحق لها أن تشتط ما
فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد) الحديث .

ب - عصمة الملائكة :

ولقد اتفق الجمهور الأ عظم من علماء الدين على عصمة كل الملائكة
عن جميع الذنوب ما عدا الحشوية . وكلامهم مردود عليهم ، لأنهم تمسكوا
بأحاديث موضوعة واسرائيليات واهية في قصة هاروت وماروت .

كما حاولوا استنباط وقوع المعصية منهم من نصوص مثل قوله تعالى
* قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء * وغير ذلك من الآيات
والرد على متمسكهم الأول . ان استشهادهم بأحاديث موضوعة واسرائيليات
واهية لا يصلح الاستشهاد بها لاسيما في العقائد اذ الايمان بالملائكة وتعظيمهم
وتوقيرهم أحد أركان الايمان أما الرد على متمسكهم الثاني : فالأيسسة
لاتصلح دليلاً لما أرادوه . لان الملائكة عليهم السلام
سألوا متعجبين من حكمة اختيار آدم وبنيه لخلافة الأرض مع ما ظهر لهم
مما يتنافى في ظاهر الأمر مع الخلافة فكان السؤال عن الحكمة التي
لايهتدي اليها مهتد بعقل لا اعتراض ولا غيبة لبني آدم كما يقولون .

وللجمهور أدلتهم الواضحة فيما ذهبوا اليه من عصمة الملائكة عن
الذنوب منها قوله تعالى * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون * .

- (١) سنن الترمذي كتاب الزهد (٤ / ٥٥٦) .
- (٢) سنن ابن ماجه كتاب الزهد (٢ / ١٤٠٢) .
- (٣) مسند الامام أحمد (٥ / ١٧٣) .
- (٤) أظت السماء : الأظيط صوت الاقتاب ، وأظيط الابل أصواتها وحينها ، أي أن
كثرة الملائكة في السماء قد أثقلها حتى أظت ، وهذا كناية عن كثرة
الملائكة وأريد بذلك تقرير عظمة الله فقوله * أظت السماء * أي صوتت
انظر النهاية لابن الأثير بتصرف (١ / ٥٤) .
- (٥) الحشوية : فرقة من المعتزلة تمسكوا بظواهر القرآن ، وقعوا في التجسيم
وهم منسوبون الي الحشو أي رذال الناس . دائرة معارف القرن العشرين
محمد فريد وجدي (٣ / ٤٤٦) ط دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٩ .
- (٦) انظر الفصل في الملل والنحل للامام ابن حزم الظاهري الأندلسي (٤ /
٢٦ ، ٥٦) وبهامشه الملل والنحل للشهر ستاني .
- (٧) سورة البقرة ، آية (٣٠) .
- (٨) من اراد التوسع فليرجع الى التفسير الكبير للفخر الرازي (٢ / ١٦٦) .
- (٩) سورة النحل ، آية (٥٠) .

وقوله عز وجل * يسبحون الليل والنهار لا يفترون * وقوله
(١)
عز من قائل * بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون *
(٢)
فمنهم سجد لا يركعون ، وركوع لا ينتصبون ، ومسبحون لا يسأمون لا يغشاهم نوم العيون
ولا سهو العقول .

ج - أصنافهم :

ولقد بين لنا القرآن الكريم بعض أصنافهم :

الصف الأول : حملة العرش :

قال تعالى * ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية *
(٣)

الصف الثاني : الحافون حول العرش :

قال تعالى * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد
(٤)
ربهم * .

الصف الثالث : أكابر الملائكة :

أمثال جبريل وميكائيل عليهم السلام

قال تعالى * من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل
(٥)
فان الله عدو للكافرين * .

الصف الرابع : ملائكة الجنة :

قال تعالى * والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلم عليهم
(٦)
بما صبرتم فنعم عقبى الدار * .

الصف الخامس : ملائكة النار :

قال تعالى * عليها تسعة عشر * أى على نار جهنم * وما جعلنا
(٧)
أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا * الآية .

- (١) سورة الأنبياء ، آية (٢٠) .
(٢) سورة الأنبياء ، آية (٢٦ ، ٢٧) .
(٣) سورة الحاقة ، آية (١٧) .
(٤) سورة الزمر ، آية (٧٥) .
(٥) سورة البقرة ، آية (٩٨) .
(٦) سورة الرعد ، آية (٢٣ ، ٢٤) .
(٧) سورة المدثر ، آية (٣٠ - ٣١) .

الصف السادس : الحفظة الموكلون ببني آدم لحفظهم والكاتبون لأعمالهم :

قال تعالى * وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون
(١) ماتفعلون * . وقوله عز من قائله * إن كل نفس لما عليها حافظ *
(٢)

وأقتصر على هذه الأوصاف الستة مع العلم بأن أوصافهم لا يحصيها إلا
خالقهم جل وعلا واكتفيت بما ذكرته خشية الاطالة .

د - أوصافهم :

وهذه أيضا بعض أوصافهم اقتصر على ثلاثة منها :

أولا : أن الملائكة رسل الله - قال تعالى * جاعل الملائكة رسلا *
(٣)

ثانيا : قربهم من الله - قال تعالى * ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته
(٤) ولا يستحسرون * .

ثالثا : دوام التسبيح والتقديس - قال تعالى * يسبحون الليل والنهار
(٥) لا يفترون * .

هـ - وصف قدرتهم :

لقد وصف الله سبحانه وتعالى عرشه بالعظم ، ومع عظمته فحملته من
الملائكة يوم القيامة بنص القرآن ثمانية - قال تعالى * والملك على
(٦) أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية *
(٧)

ومما ورد في بيان عظيم قدرتهم وكبير هيئتهم ما أخرجه البخاري
في كتاب بدء الخلق عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه - صلى الله عليه
(٨) وسلم - رأى جبريل (ليلة أسري به) وله ستمائة جناح وهم معاهم
عليه من الشدة والعظم دائمو الخوف من الله عز وجل مشفقون من أن يغضب الله

(١) سورة الانفطار ، آيات (١٠ - ١١ - ١٢) .

(٢) سورة الطارق ، آية (٤) .

(٣) سورة فاطر ، آية (١) .

(٤) سورة الأنبياء ، آية (١٩) .

(٥) سورة الأنبياء ، آية (٢٠) .

(٦) أي نواحي السماء وجوانبها .

(٧) سورة الحاقة ، آية (١٧) .

(٨) انظر: صحيح البخاري على هامشه فتح الباري كتاب بدء الخلق (٧ / ١٢٤)
وكتاب التفسير (تفسير سورة النجم) (١٠ / ٢٣٣) ، وانظر
تفسير القاسمي سورة فاطر (١٤ / ٤٠) .

عليهم قال تعالى * يخافون ربهم من فوقهم * وقال تعالى * وهم
(١)
من خشيته مشفقون * (٢)

- المسألة الرابعة: السجود لآدم وبيان حقيقة ذلك :

قال تعالى * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا * هنا
(٣)
يتبادر إلى الأذهان سؤال وهو : هل كان السجود لآدم عليه السلام بوضع
الجبهة على الأرض كهيئة سجودنا في صلاتنا ؟

والجواب : اختلف المفسرون في المقصود من قوله تعالى * وإذ قلنا
للملائكة اسجدوا لآدم * على ثلاثة أقوال ، وذلك بعد اجماعهم على أن
السجود لم يكن عباده ، بل كان تحية . إذ السجود لغير الله بقصد التأليه
كفر لاشك فيه .

فأما إذا كان لغير التأليه ، فهو كبيرة من كبائر المعاصي، لا يجوز
فعلها بحال ويعلم من فعلها ان كان جاهلا ، ويعزر ان كان قاصدا .

فان ديننا الحنيف الذي أمر باشاعة التحية بين المسلمين ، قد حددها
بالسلام ، ثم الابتسام ، ولطف الكلام ، وهو يمقت المبالغة في كل شيء لأنها
افراط ولا خير في الافراط . واليك خلاصة الأقوال الثلاثة :

القول الأول :

أن السجود كان لله وآدم قبلتهم كالكعبة للمملي .

وقد ضعف هذا الرأي لمخالفته لظاهر النص إذ لو كان آدم قبلية
لقليل (اسجدوا الى آدم) . ولكن هذا التعليل ضعيف إذ يقال صليت لكذا -
والى كذا بمعنى استقبلته ومنه قوله تعالى * أقم الصلاة لدلوك الشمس *
(٤)
وعن ابن عباس قال دلوكها زوالها .
(٥)

-
- (١) سورة النحل ، آية (٥٠) .
 - (٢) سورة الأنبياء ، آية (٢٨) .
 - (٣) سورة البقرة ، آية (٢٤) .
 - (٤) سورة الاسراء ، آية (٧٨) .
 - (٥) انظر: تفسير ابن عباس ومروياته في التفسير من كتب السنة تأليف
د. عبدالعزيز الحميدي ، (٢ / ٥٥٨ - ٥٦١) ط مركز البحث
العلمي - كلية الشريعة - جامعة أم القرى .

القول الثاني :

أن السجود كان لآدم عليه السلام حقيقة بوضع الجبهة على الأرض بقصد
تعظيمه عليه السلام .

القول الثالث :

السجود في اللغة معناه الخضوع والانقياد .

ومعنى قوله تعالى ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ أي استبطحوا تعظيمه ، واستشعروا
فضله وشرفه عليكم . وبهذا التفسير لا يكون السجود حقيقيا .

والقول الأول ، والقول الثالث ضعيفان لمخالفتهما لظاهر النص
ولامكان حصول السجود على حقيقته دون منافاة . مادام الله قد امر به فهو
مفعول في الحقيقة امتثالا لأمر الله ، وتعظيم المسجود له يأتي تبعا ولقد
كان السجود بمعنى الخور مشروعا تحية في شرائع من كان قبلنا بدليل
قوله تعالى ﴿ وخرؤا له سجدا ﴾ أي خر أبناء يعقوب ليوست سجدا ، وقيل
خروا ومعهم أبواهم فهذا صريح في جواز السجود في شرعهم وإلا لمنعه يعقوب
ويوسف بحكم نبوتهما ، هذا على القول بأن الأسباط لم ينبؤا الى هذا
الحين ، وعلى القول بأنهم نبؤا قبل ذلك فالسجود حصل منهم وهم أنبياء
والتعبير عنه بالخور قاطع في أنه كان بوضع الجبهة على الأرض وما اخترته
هو ما رجحه غالب المفسرين والذين ضعفوه ومنهم الألوسي نسوا أنه أمر الله
وأن لله أن يأمر بما يشاء لامعقب لحكمه .

وقول الألوسي (ولا أراه حل في عصر من الأعصار) يصادم قوله تعالى
﴿ وخرؤا له سجدا ﴾ .

قال الألوسي : (حكمة هذا السجود إظهار الاعتراف بفضله عليه
السلام والاعتذار عما قالوا فيه مع الإشارة إلى أن حق الأستاذ على من علمه
حق عظيم) .

- (١) سورة يوسف ، آية (١٠٠) .
- (٢) انظر تفسير الطبري (١ / ٢٢٨ - ٢٢٩) .
- (٣) تفسير الألوسي (روح المعاني) (١ / ٢٢٨) .
- (٤) نفس المرجع السابق .
- (٥) سورة يوسف ، آية (١٠٠) .
- (٦) روح المعاني (١ / ٢٢٩) .

وهذا يبرِّح ما اخترته إذ لاتظهر هذه الحكمة إلا بحقيقة سجود الملائكة
لآدم . لأن الملائكة ساجدون راعون مسبحون الليل والنهار لايفترون قبل هذه
القصة وبعدها لله رب العالمين .

فجعل ماله اختصاصا لآدم في لحظة من اللحظات تكريما . أبلغ في ظهور
تعظيمه وتفضيله عليهم . فلم يكن السجود عباده بل كان تحية و لا يضر أن
تؤدي التحية بما تؤدي به العبادة مادام الله قد أمر بذلك، كما أن ترك
الحقيقة إلى المجاز بلا داع قوي مما يتحماه العلماء .

المسألة الخامسة: حقيقة ابليس أعادنا الله منه :

هل كان من الملائكة أم من الجن ؟

واختلف العلماء هل كان ابليس من الملائكة أم من غيرهم . أم من الجن
وسبب هذا الخلاف نظرهم إلى الاستثناء في قوله تعالى * واذا قلنا للملائكة
اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * (١)

فالاستثناء هنا تام مثبت ، وهذا يعني في الأغلب الأعم أن المستثنى يكون
من جنس المستثنى منه وقد ذهب إلى هذا كثير من الفقهاء . وقالوا: ان ابليس
من الملائكة جرى عليه حكم الله فأخرج عن طبيعته الملكية وتأبلس
وقال المتكلمون : انه لم يكن من الملائكة . فالاستثناء عندهم منقطع اذ
لا مانع عندهم من أن يكون الكلام تاما مثبتا والاستثناء فيه منقطع على
حد قول النحاة (قام القوم الاحمارا) .

وسأبدأ بذكر أدلة المتكلمين على ماذهبوا اليه ثم أثنى بأدلة

الفقهاء محاولا ترجيح ماظهر لي :

أدلة المتكلميين :

١ - قوله تعالى من سورة الكهف * واذا قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن * فكان هنا اخبار عن الماضي
(٢)

(١) سورة البقرة ، آية (٢٤) .

(٢) سورة الكهف ، آية (٥٠) .

لا عن الحاضر . وهذا صريح في بيان أصله . وإذا ثبت ذلك وجب

أن لا يكون من الملائكة .

٢ - وأيضا قالوا لا مانع انه جني خالط الملائكة طويلا فخطب بما

خطبوا به .

٣ - انه خص بالخطاب في قوله تعالى ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ

أمرتك ﴾ (١) . ولم يدخل في عموم خطاب الله للملائكة .

ب - ان ابليس له ذرية لصريح قوله تعالى في نفس الآية ﴿ أفنتخذونوه

وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾ (٢) .

فهذا نص في أن ابليس له ذرية والملائكة لا ذرية لهم . وإنما قلنا

لا ذرية لهم لانتفاء وصف الأنوثة عنهم بدليل قوله تعالى في بيان

بعض الافتراءات التي قالها المشركون بغير علم ﴿ وجعلوا الملائكة

الذين هم عبد الرحمن إنشا أشهدوا خلقهم ستكتب شهدتهم

ويسئلون ﴾ (٣) .

فهذا صريح في نفي الأنوثة عنهم حيث وبخهم الله على ذلك القول

وتوعدهم بشديد السؤال .

ج - إن الملائكة خلقوا معصومين ولذا بادروا إلى الامتثال أول ما أمروا

خلاف لما حصل من ابليس .

د - إن ابليس مخلوق من النار والملائكة خلقوا من النور يدل على خلقه

كذلك صريح قوله تعالى ﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته

من طين ﴾ (٤) والقائل هو ابليس .

ولقوله تعالى ﴿ والجآن خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ (٥)

فهو اذن من الجن لا من الملائكة ، والدليل على خلق الملائكة من

النور ، ماروي عن السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه

وسلم أنه قال (خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من مارج من نار

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢) .

(٢) سورة الكهف ، آية (٥٠) .

(٣) سورة الزخرف ، آية (١٩) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (١٢) .

(٥) سورة الحجر ، آية (٢٧) .

(١)
• وخلق آدم مما وصف لكم)

وقيل خلقوا من الروح أو الريح ، فعلى الرايين تغاير طبيعتهم طبيعة
ابليس أعادنا الله منه .

(٢)
هـ - سمي الله الملائكة رسلا في قوله تعالى * جاعل الملائكة رسلا *
والرسل يستحيل منهم وقوع المعصية لحصول العصمة فوجب أن لا يكون
ابليس منهم لوقوعه في المعصية .

أدلة من ذهب من الفقهاء الى أن ابليس من الملائكة :

أ - ان الله استثناه من الملائكة ، والاستثناء يفيد اخراج ما لولاه لدخل
أو لصح دخوله ، وذلك يوجب كونه من الملائكة .
ب - قالوا لو لم يكن ابليس من الملائكة لما كان قوله * وإذ قلنا
للملائكة اسجدوا لآدم * متناولا له ولولم يكن متناولا له لاستحالة
أن يكون تركه للسجود اباة واستكبارا ومعصية ، ولما استحق الذم
والعقاب .
وحيث حصلت هذه الأمور ، علمنا أن ذلك الخطاب يتناوله ، ولا يتناوله
ذلك الخطاب الا اذا كان من الملائكة .

ردود القائلين من الفقهاء بأن ابليس من الملائكة على المتكلمين القائلين بأن
ابليس من الجن :

الرد الأول :

على قول المتكلمين انه (كان من الجن) أي
بأصل خلقته وتكوينه :

قالوا : ان هذا الاستدلال ضعيف ، لأن مادة الجن والاجتنان والجنه
والجنه والجنون تدور على معنى الستر والخفاء ، ولما كانت الملائكة
مخفيين مستورين عن أعيننا لانراهم ولانقدر على مخالطتهم إلا بقوة إلهية

(١) صحيح مسلم بتحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (٤ / ٢٢٩٤) كتاب
الزهد والرقائق ، ط ٢ دار احياء التراث العربي . سنة ١٩٧٢ .
(٢) سورة قاطر آية : (١) .
(٣) انظر لسان العرب ، مادة جنن (١٣ / ٩٢) .

يمنحها الله رسله عليهم السلام ، ومن خصهم من خلقه ، وجب أن يطلق عليهم لفظ الجن باعتبار اللغة ، فثبت أن هذا الاستدلال بهذه الآية لا يوصل الى مقصود المستدلين بها .

كما يجوز أن يكون المعنى (كان من الجن) أي صار بتمرده عن السجود منهم بانقلابه من الخير الى الشر ، نظيره قوله تعالى ﴿ وكان من الكافرين ﴾ (١) أي صار لأنه لم يكن كافرا قبل امتناعه عن السجود ، وانما صار الى الكفر بالامتناع .

ودعوى المتكلمين بوجود الاستثناء المنقطع في القرآن في أكثر من آية لانكره ومع ذلك فهو لا يفيد المطلوب ، لأن المتكلمين قد عولوا على عمومات يمكن تخصيصها ، ومعلوم لو قلنا بأن الاستثناء منقطع ، للزمنا تقديم هذا القول على التخصيص ، مع أن تخصيص العام مقدم على جعل الاستثناء منقطعا لأن الأصل تناول العام لجميع أفرادها ، ومهمة التخصيص قصره على بعض أفرادها ، فالخارج بالتخصيص أصله من العام وهذه هي الحقيقة ولا يعدل عنها الا للضرورة ، ولذا كان المصير الى التخصيص أولى . وأيضا فمعنى الاستثناء الثني والصرف ، ولولا هذا الصرف لدخل الخارج بالاستثناء في جنسه - هذا هو الأصل ولا يعدل عنه كما قلت الا للضرورة .

أما قولهم كان جنيا - ضمن كثرة من الملائكة فخطب بما خوطبوا فمردود لأن افراد القرآن اياه بالحديث وتكرار ذلك في مواضع كثيرة يتنافى مع قولكم بأنه جني خوطب بما خوطبت به الملائكة لأن تكرار الحديث عنه يدل على أنه مقصود من أول الأمر بالخطاب ، لا أنه تابع لغيره، وانما يجوز اجراء حكم الكثير على القليل اذا كان ساقط العبرة ، أما اذا كان مقصودا بالخطاب فذلك ينفي كونه خارجا عن الملائكة .

الرد الثاني :

قالوا لو لم يكن ابليس من الملائكة لما كان قوله ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ متناولا له ولو لم يكن متناولا له لاستحال أن

(٢٠١) سورة البقرة ، آية (٣٤) .

يكون تركه للسجود اباة واستكبارا ومعصية ولما استحق الذم والعقاب
وحيث حصلت هذه الأمور علمنا أن الخطاب لا يتناول له إلا إذا كان من الملائكة
ولا يقال إنه ليس من الملائكة ، لكنه نشأ معهم ، وطالت مخالطته لهم فلا
مناص من تناول الخطاب له .

لا يقال ذلك لأن المخالطة لا توجب خطاب المخالط ، بدليل أن الخطابات
الخاصة بالذكر لا تتناول الأناث وبالعكس مع شدة المخالطة . فوجب أن يكون
من الملائكة لتناول الخطاب له ولا يقال أيضا إنه خص بالخطاب في قوله تعالى
﴿ قال مامنك ألا تسجد إذ أمرتك ﴾^(١) لا يقال ذلك لأن هذه الآية مبينة
لأمره بالسجود في آية البقرة^(٢) على أنه من الملائكة لا أنها خطاب مستقل
له بدليل قوله ﴿ إذ أمرتك ﴾ وهو لم يؤمر الا في آية البقرة وما على
شاكلتها .

كما أن ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية ذلك الوصف لذلك الحكم
فيكون قوله تعالى ﴿ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾^(٣)
دال على أن ذلك وقع منه بعد الأمر بالسجود للملائكة الذين استثنى منهم
ابليس . فكان هذا الأمر هو العلة في حصول تلك الأوصاف لا أمر آخر .

الرد الثالث :

أما قولهم بأن إبليس له ذرية والملائكة لأذرية لهم فوجب أن لا يكون
منهم . فمردود بأنه لما كان منهم قبل الخطاب لم تكن له ذرية فلما تأبلس
وخلع عنه ثوب الملائكية تغير بأوصافه الحادثة عنهم فكان له من الذرية
ماليس لهم .

الرد الرابع :

وأما قولهم بأن الملائكة معصومون وأنهم رسل فلا شك في ذلك ماداموا
باقين على ملائكتهم فالعصمة والرسالة بالنسبة لهم أو لغيرهم من الأنبياء

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢) .
(٢) آية البقرة هي ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا
إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ آية (٣٤) .
(٣) سورة البقرة ، آية (٣٤) .

ليستا بأمور ذاتية لا تقبل التبدل ، بل هما مكرمتان من الله عز وجل
أفاضهما بفضله على من يشاء ولا يستحيل عقلا رفعهما عن يشاء ويستأنس
لذلك بقول الله تعالى عن نبيه يونس عليه السلام * لولا أن تدركه
نعمة من ربه لنبذ بالعرآء وهو مذموم . فاجتنبه ربه فجعله من
الصلحين * فخرج ابليس عن ملائكته إلى إبليسته حجب عنه الفضل ورفع
عنه العصمة .

الرد الخامس :

وأما قولهم إن الملائكة خلقوا من نور وابليس مخلوق من النار :
فقد أجاب عنه الألوسي بقوله (وكونه مخلوقا من نار وهم مخلوقون من
نور غير ضار أيضا - ولا قاذح في ملكيته لأن النار والنور متحدتا المادة
بالجنس واختلافهما بالعوارض ، على أن ما في أثر السيدة عائشة رضي الله
عنها من خلق الملائكة من النور جار مجرى الغالب) (٢)

واستطرد الألوسي قائلا : (وأفهم كلام البعض أنه يحتمل أن ضربا
من الملائكة لا يخالف الشياطين بالذات - وإنما يخالفهم بالعوارض والصفات -
كالبررة والفسقة من الانس - والجن يشملهما - وكان ابليس من هذا الصنف
فعده ما شئت من ملك وجن وشيطان .

وبذلك يحمل الجمع بين الأقوال والله أعلم بحقيقة الحال (٣) ، وبعد
.. فقد عرضت لك أدلة الفريقين . وجمع الألوسي بين هذه الأقوال وقد
نسب القول بأنه من الملائكة إلى جمهور العلماء من الصحابة والتابعين . (٤)

-
- (١) سورة القلم : آية (٤٩ - ٥٠) .
(٢) تفسير الألوسي ، (١ / ٢٣٠) .
(٣) نفس المرجع السابق .
(٤) انظر تفسير الألوسي ، (١ / ٢٢٩) - انظر تفسير الرازي نقل
بتصرف . (٢ / ٢١٣ - ٢١٥)

المسألة السادسة: الكلام عن الجنة :

(١) قال تعالى ﴿ وقلنا يٰٓعٰدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾

اختلف العلماء في الجنة التي أسكنها آدم عليه الصلاة والسلام وأهبط منها هل هي جنة الخلد أو جنة أخرى في موضع عال من الأرض ؟ على أربعة أقوال :

القول الأول : (وهو قول المعتزلة) :

قالت المعتزلة : إنها كانت في الأرض خلقها الله لآدم امتحانا له وكانت بستانا في الأرض ، وأولوا الإهباط بمعنى الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى ﴿ اهبطوا مصراً ﴾^(٢) . واحتجوا لقولهم ذلك بأدلة :

١ - أن هذه الجنة لو كانت هي دار الثواب لكانت جنة الخلد . ولو كان آدم في جنة الخلد لما لحقه الغرور من إبليس بقوله ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾^(٣) . ولما صح قوله ﴿ ما نهكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾^(٤) فدل ذلك على أنها لم تكن جنة الخلد .

٢ - أن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لقوله تعالى ﴿ وما هم منها بمخرجيين ﴾^(٥) وقد أخرج آدم منها وقال في صفتها ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾^(٦) وقد لغا فيها إبليس وكذب - فدل ذلك على أنها لم تكن جنة الخلد .

٣ - أن إبليس لما امتنع عن السجود لعن وطرده ، فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل إلى جنة الخلد .

٤ - أن الجنة التي هي دار الثواب لا يغنى نعيمها ، لقوله تعالى ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾^(٧) وقال تعالى ﴿ عطاء غير مجدود ﴾^(٨) أي غير مقطوع فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم عليه السلام لما فنيت ، وذلك باخراجه منها ، لكنه أخرج منها وانقطعت تلك الراحة .

٥ - أنه لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتديء الخلق في جنة يخلدهم فيها ولا تكليف لأنه تعالى لا يعطي جزاء العاملين من ليس يعامل . ولأنه لا يهمل

- (١) سورة البقرة ، آية (٣٥) .
- (٢) سورة البقرة ، آية (٦١) .
- (٣) سورة طه ، آية (١٢٠) .
- (٤) سورة الأعراف ، آية (٢٠) .
- (٥) سورة الحجر ، آية (٤٨) .
- (٦) سورة الطور ، آية (٢٣) .
- (٧) سورة الرعد ، آية (٣٥) .
- (٨) سورة هود ، آية (١٠٨) .

عباده بل لا بد من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد.

٦ - أنه لانزاع في أن الله تعالى خلق آدم عليه الصلاة والسلام في الأرض ، ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله إلى السماء ولو كان ذلك لكان ذلك أولى بالذكر لأن نقله من الأرض إلى السماء من أعظم النعم . فدل ذلك على أنه لم يحصل وذلك يوجب أن المراد من الجنة التي قالها الله تعالى * أسكن أنت وزوجك الجنة *^(١) جنة أخرى غير جنة الخلد .

القول الثاني (وهو قول الجبائي) :

إن تلك الجنة كانت في السماء السابعة ، والدليل عليه قوله تعالى * قلنا أهبطوا منها *^(٢) ثم إن الأهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى ، والأهباط الثاني : كان من السماء إلى الأرض .

القول الثالث (وهو قول جمهور المفسرين) :

إن هذه الجنة هي دار الثواب والدليل عليه أن الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيدان العموم لأن سكنى جميع الجنان محال ، فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق ، والجنة المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب ، فوجب صرف اللفظ اليها .

القول الرابع :

إن الكل ممكن والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع .^(٣)

الرد على المعتزلة :

ذكرت المعتزلة ستة أدلة على قولهم بأن الجنة التي أسكنها الله آدم كانت في الأرض وسأشرع في الرد عليهم سائلا من المولى التوفيق والسداد :

- (١) سورة البقرة ، آية (٣٥) .
- (٢) سورة البقرة ، آية (٢٨) .
- (٣) انظر: تفسير الفخر الرازي (٣ / ٣ - ٤) .

أولا : الرد على الشبهة الأولى :

قالوا : لو كانت الجنة المشار اليها في الآية هي دار الثواب (دار الخلد) لما لحق آدم الغرور من ابليس بقوله * هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى * ولما صح قوله * مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخلدين * و جوابي على هذه الشبهة : أنه لا مانع من وقوع الوسوسة لآدم في دار الخلد ليترتب عليها ما أراد الله من اسكان آدم وذريته في الأرض ، ليتخلف عن الرجوع الى الجنة من لا يستحقها وهم الكفار الذين لم يجيبوا في عالم الذر حين خاطبهم ربهم بقوله * ألسنت بربكم قالوا بلى * وقد أشرت الى ذلك سابقا ^(١) ولا يترتب على قول ابليس لآدم * أو تكونا من الخلدين * أن لا تكون الجنة دار خلد لأن آدم لم ييك يعلم بخلوده فيها .

وأما قولكم يمتنع أن تكون الجنة هي دار الخلد ، لحصول الغرور لآدم فيها بقول ابليس فليس بمتنع - إذ يجوز أن تكون الجنة قد جعلت كذلك واختصت بهذه الأحكام التي هي عدم خروج من دخلها منها وغير ذلك مما هو لها بعد حصول الوسوسة لآدم وحواء عليهما السلام وخروجهما منها .

والخلاصة :

أن أوصاف الجنة وما اختصت به هي من بعد هذه القصة ولا مانع في ذلك .

ثانيا : الرد على الشبهة الثانية :

قالوا : إن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لصريح قوله تعالى * وما هم منها بمخرجين * وقد أخرج منها آدم وقال في حفتها * لا لغو فيها ولا تأثيم * وقد لغا فيها ابليس وكذب فدل على أنها لم تكن جنة الخلد .

والرد عليهم : أما قولكم إن من دخل هذه الجنة لا يخرج منها لصريح قوله تعالى * وما هم منها بمخرجين * فذلك بعد العودة اليها من

(١) سورة الأعراف ، آية (١٧٢) .

(٢) راجع ص ١٤ من رسالتنا هذه .

(٣) سورة الحجر ، آية (٤٨) .

دار الدنيا واجتياز المكافه التي حفت بها الجنة لصيانة الأمانة التي حملها الانسان .

أما قبل ذلك فقد يحدث الدخول والخروج ، وقد دخلها النبي صلى الله عليه وسلم يوم المعراج ثم خرج منها . لأن دخوله فيها لم يكن لأجل الاستمرار انما كان للتكريمة والتشريف فهذه عموم مخصوص .

وقس على ذلك قوله تعالى ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ (١) كذلك أيضا ، فان ذلك بعد العودة اليها من الدنيا على أن الوسوسة على ما هو الراجح لم تكن فيها بل كانت في الأرض . لأن هبوط ابليس من الجنة أو من الملاء الأعلى كان متقدما على هبوط آدم وحواء ، بدليل قوله تعالى ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج انك من الصاغرين ﴾ (٢) فكان ذلك جزاء له على امتناعه عن السجود واعتراضه على الله عز وجل في اختيار المفضول في زعمه وترك الفاضل في زعم نفسه .

ثالثا : قالوا : ان ابليس لما امتنع عن السجود لعن وطرده فما كان يقدر مع غضب الله أن يصل الى جنة الخلد :

الرد عليهم : أما قولكم ان ابليس بلعنه وطرده لا يقدر أن يصل الى الجنة فهو كذلك وأنا أقول به . وقد أجبت بأن الوسوسة كانت في الأرض ووصلت الى آدم حيث هو وليس في ذلك محال عقلي لأن الله سبحانه وتعالى أراد ذلك وقدره وما أراداه فهو كائن : قال الحسن : كان يوسوس من الأرض الى السماء ولى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله تعالى له . (٣)

اخرج الشيخان في صحيحهم عن طاوس قال سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة . فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومنى على أمر قدره الله علىّ قبل أن يخلقنسى بأربعين سنة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى . فحج آدم موسى (٤) واللفظ لمسلم .

- (١) سورة طه ، آية (١٢٠) .
- (٢) سورة الأعراف ، آية (١٣) .
- (٣) تفسير الرازي ، (١٤ / ٤٦) .
- (٤) صحيح البخاري ومعه فتح الباري كتاب القدر (٣٠٧/١٤ - ٣١١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢٠٠/١٦) .

رابعاً: قالوا ان الجنة التي هي دار الثواب لا يفنى نعيمها لقوله تعالى
* أكلها دائم وظلها * وقال تعالى * عطاء غير مجدوذ *
أي غير مقطوع . فهذه الجنة لو كانت هي التي دخلها آدم عليه السلام
لما فنيته وذلك باخراجه منها لكنه أخرج منها وانقطعت تلك الراحة .

والرد عليهم : فجوابي على هذه الشبهة أنكم وحدكم القائلون بفناء
الجنة ، أم أهل الحق فعندهم من الأدلة الصحيحة ما يمنع من القول بفناء
الجنة وقد قالوا (أهل الحق) إن قوله تعالى * كل شيء هالك الا وجهه *
عموم مخصوص بآيات وأحاديث أخرى دلت على بقاء أشياء لا يلحقها الفناء
كالعرش والكرسي والجنة والنار واللوح والقلم والأرواح وعجب الذنب وذكر
الأدلة على ذلك يطيل البحث فليرجع اليه من إرادته ، ولكنني أعجل لك ببعضها
اراحة لقلبك.

فأحد هذه الأدلة قوله تعالى * إذا السماء انفطرت * وقوله تعالى
* إذا السماء انشقت * ، وقوله تعالى * ويوم ينفخ في الصور ففزع من
في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين * ،
وقوله تعالى * ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من
شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون * .

فإنك إذا تمعنت في هذه الآيات وجدت الانفطار والانشقاق والفرع والصعق
كل ذلك مختص بالسموات وبمن فيها إلا من استثناهم الله عز وجل من الفرع
والصعق . فالآيات لم تتعرض للجنة ولا النار ولا للعرش ولا للكرسي الخ ،
مما يؤكد تخصيص العموم في قوله تعالى * كل شيء هالك إلا وجهه * .

خامساً : قالوا لا يجوز في حكمته تعالى أن يبتديء الخلق في جنة يخلدهم
فيها ولا تكليف الخ .

- (١) سورة القصص ، آية (٨٨) .
- (٢) انظر: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (٣ ، ص ٢٣٠) .
- (٣) سورة الانفطار ، آية (١) .
- (٤) سورة الانشقاق ، آية (١) .
- (٥) سورة النمل ، آية (٨٧) .
- (٦) سورة الزمر ، آية (٦٨) .
- (٧) سورة القصص ، آية (٨٨) .

الرد عليهم : وأما قولكم لا يجوز في حكمته أن يبتديء خلقا في الجنة لا يكلفهم فيها ، لحاجة المكلف الى وعد ووعيد وترغيب وترهيب فتحكم على الله سبحانه وتعالى وحجر عليه - وتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا وأما حاجة المكلفين الى الوعد والوعيد فذلك بعد خروجهم منها ليحملوا بذلك على الاجتهاد فيما به يعودون اليها . أما آدم فما كان بحاجة الى وعد ووعيد وان قولكم هذا ليتعارض مع صريح قوله تعالى * ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * ^(١) فعلى مذهبنا فانا نؤمن أن الجنة التي كان فيها آدم هي دار الخلد وأنها باقية وأنه وزوجه اختما بالتكليف فيها .

سادسا : قالوا : انه لا نزاع في أن الله خلق آدم في الأرض ولم يذكر في هذه القصة أنه نقله الى السماء الخ .

الرد عليهم : قولكم هذا فيه نزاع فالذى في القرآن هو ذكر خلقه دون التعرض لمكان الخلق بل لعل قوله تعالى * ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي * ^(٢) ، يستأنس به على أن خلقه لم يكن في الأرض بل كان في السماء الأعلى .

أخرج الطبري في تاريخه عن ابن عباس قال : ثم أمر - يعني السرب تبارك وتعالى - بتربة فرفعت فخلق الله آدم من طين لازب - واللازب اللزج الطيب من حمأ (مسنون) منثني ، قال وانما كان حمأ مسنونا بعد التراب ، قال : فخلق منه آدم بيده (٣) . هـ

ومما ينتصر به لرأي الجمهور أن الجنة في القرآن اذا أطلقست أو ذكرت على جهة الجزاء لا تنصرف إلا إلى دار الخلد .

كما أن قوله تعالى في شأن ابليس * قال اهبط منها * مشعرا بأن الهبوط كان من الجنة وقوله تعالى * وقلنا اهبطوا * دليل على أنهم كانوا في مكان أرفع فستنزلوا عنه إلى مكان أدنى . وقد أشار الى ذلك بقوله تعالى * ولكم في الأرض مستقر * ، فلو كانوا في الأرض ففي أي مكان منها؟

(١) سورة الأعراف : آية (١٩) .

(٢) سورة ص : آية (٧٥) .

(٣) تاريخ الطبري (١ / ٩٠) .

وعلى زعم المعتزلة أئمة القول بأن جنة آدم كانت في الأرض ما كان لقوله تعالى ﴿ ولکم فی الأرض مستقر ﴾ فائدة . إلا أن يراد أن الله سيختار لهم كوكبا آخر غير الأرض وهذا منفي بقوله تعالى ﴿ ولقد مكنکم فی الأرض ﴾ (١) ولو كانت الجنة أرضية لما كان لهذا العقاب تأثيره الشديد .

فانتقالك من مكان في الأرض الى مكان آخر فيها لا يترتب عليه عقوبة كبيرة وأما قوله ﴿ اهبطوا مصرا ﴾ فهو صريح في أمر بني اسرائيل لنزولهم مصرا وهي أخفض من أرض التيه ، تجري فيها الأنهار وتصلح لزراعة ما طلبوه ، فهو أيضا صريح في النزول من مكان عال الى ما هو أخفض منه .

فاستدلال المعتزله بهذه الآية على أن الهبوط كان من الأرض الى الأرض لا يصلح إلا أن يقال إن تلك الجنة كانت فوق قمة جبل أو ربوه . وهذا يحتاج الى نص وليس عندهم نص ظاهر في هذا الموضوع .

وصرف الألفاظ القرآنية عن ظاهرها وحقائقها الى شيء آخر لا يكون الا بقطعي مساو لها ، أو بخبر مشهور عن النبي صلى الله عليه وسلم ، لا بأمثال تلك الشبه التي ساقها المعتزلة .

كما أن قوله تعالى ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخفان عليهما من ورق الجنة ﴾ (٣) دليل على أنهما كانا في دار الخلد إذ ليس من المعهود ممن يعصي في الأرض أن تتبرأ منه ثيابه وتنفر منه فتتكشف عورته وهذا هو الذي حدث لأبويننا عليهما السلام حيث انكشفت عورتهما ولم يكن لهما بذلك عهد وفارقتهما ثيابهما مما اضطر إلى أن يخفيا عليهما من ورق الجنة ما يحاولان به أن يستر عورتهما . ولما كان للمنة في قوله تعالى ﴿ لبني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ﴾ (٤) معنى .

وان الله سبحانه وتعالى جعل لباس بني آدم منزلا من السماء مع أنه مصنوع في الأرض لأنه ينسج مما يتسبب عن الماء النازل من السماء وقد عرف

-
- (١) سورة الأعراف : آية (١٠) .
 - (٢) سورة البقرة : آية (٦١) .
 - (٣) سورة الأعراف : آية (٢٢) .
 - (٤) سورة الأعراف : آية (٢٦) .

بنو آدم لطلبه حاجتهم الى اللباس لسد حاجتهم الجسدية والدينية
وأعني بها ستر العورة .

كل ذلك يدل على أن الجنة التي أسكنها آدم وحواء عليهما السلام
كانت دار الخلد لا جنة أرضية كما يقول المعتزلة . ولا جنة في السماء
غير جنة الخلد كما يقول الجبائي .

ومما يقوي ما ذهب اليه أن معظم المفسرين قد قرروه في كتبهم وان
كان بعضهم قد آثر التوقف كالألوسي (١) والفخر (٢) إلا أن القرطبي قد أجمل
شبهة المخالفين ورد عليها واليك ما قاله في تفسيره : الجنة البستان . . .
ولا التفات لما ذهب اليه المعتزلة والقدرية من أنه لم يكن في جنة
الخلد ، وإنما كان في جنة بأرض عدن .

١ - واستدلوا على بدعتهم بأنها لو كانت جنة الخلد لما وصل اليها ابليس
فإن الله يقول * لا لغو فيها ولا تأثيم * وقال * لا يسمعون
فيها لغوا ولا كذابا * وقال * لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً
إلا قبيلاً سلاماً سلاماً * .

٢ - وانه لا يخرج منها أهلها لقوله * وما هم منها بمخرجين * .

٣ - وأيضاً فإن جنة الخلد هي دار القدس ، قدست عن الخطايا والمعاصي
تطهيراً لها . وقد لغا فيها ابليس وكذب وأخرج منها آدم وحواء
بمعصيتهما .

٤ - وقالوا كيف يجوز على آدم مع مكانه من الله وكمال عقله أن يطلب
شجرة الخلد وهو في دار الخلد والملك الذي لا يبلى ؟

والجواب

إن الله تعالى عرف الجنة بالألف واللام ، ومن قال (أسأل الله الجنة)
لم يفهم منه في تعارف الخلق إلا طلب جنة الخلد .

ولا يستحيل في العقل دخول ابليس الجنة لتغير آدم . وقد لقي موسى
آدم عليهما السلام فقال له موسى (أنت أشقيت ذريتك وأخرجتهم من الجنة)

(١) تفسير الألوسي (١ / ٢٢٣) .

(٢) تفسير الرازي (٣ / ٤) .

فأدخل الألف واللام ليدل على أنها جنة الخلد المعروفة فلم ينكر ذلك آدم .
ولو كانت غيرها لرد على موسى . فلما سكت آدم على ما قرره موسى صح
أن الدار التي أخرجهم الله عز وجل منها بخلاف الدار التي أخرجوا إليها .
وأما ما احتجوا به من الآي . فذلك انما جعله الله فيها بعد دخول
أهلها فيها يوم القيامة .

٢ - ولا يمتنع أن تكون دار الخلد لمن أراد الله تخليده فيها . وقد يخرج
منها من قضي عليه بالفناء وقد دخلها النبي صلى الله عليه
وسلم ليلة الاسراء ثم خرج منها وأخبر بما فيها وأنها هي جنة الخلد
حقا .

٣ - وأما قولهم : ان الجنة دار القدس . وقد طهرها الله تعالى من الخطايا
فجهل منهم . وذلك أن الله تعالى أمر بني اسرائيل أن يدخلوا الأرض
المقدسة وهي الشام .

وأجمع أهل الشرائع على أن الله تعالى قدسها وقد شوهدها فيها
المعاصي والكفر والكذب ولم يكن تقديسها مما يمنع فيها المعاصي ،
وكذلك دار القدس .

وقال أبو الحسن بن بطال^(١) : وقد حكى بعض المشايخ على أن أهل
السنة مجمعون على أن جنة الخلد هي التي أهبط منها آدم عليه
السلام . فلا معنى لقول من خالفهم .

٤ - وقولهم : كيف يجوز على آدم في كمال عقله أن يطلب شجرة الخلد وهو
في دار الخلد ، - فيعكس عليهم ويقال : كيف يجوز على آدم في كمال
عقله أن يطلب شجرة الخلد في دار الفناء ! هذا لا يجوز على من له
أدنى مسكة من عقل فكيف بآدم الذي هو أرجح الخلق عقلا^(٢) . هـ

وقد اعتبر شيخ الاسلام ابن تيميه القائلين بخلاف ما قرره من
المبتدعة الملحدين في الدين^(٣)

(١) أبو الحسن بن بطال وهو على بن خلف بن بطال البكري . القرطبي - ويعرف
بابن اللجام ، كان من المالكية ، وكان من أهل العلم والمعرفة ، عنى
بالحديث عناية تامة ، وشرح صحيح البخارى فى عدة أسفار ، توفى فى
صفر سنة تسع وأربعين وأربع مئة . أنظر سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٧/١٨)
(٢) بتصريف من تفسير القرطبي ، (١ / ٣٠٢ - ٣٠٣) .
(٣) انظر تفسير القاسمي (١ / ١١٢) .

وقد استوفى ابن قيم الجوزية رحمه الله في كتابه (حادي الأرواح) هذا الموضوع بأسهاب وتفصيل حسن ، فذكر رأي أهل السنة في باب مستقل ، كما ذكر رد أهل السنة على مخالفيهم في باب مستقل وهو وان ذكر أقوال المخالفين بلا تعليق عليها الا أنه كشيخه ابن تيمية يرى أن القول بأنها جنة أرضية . وبأنها غير موجودة الآن من الابتداء المذموم الذي يعتمد على العقلية مع اهمال النصوص وإذا كان للمخالفين من النصوص التي قد يفهم منها سلامة قولهم ، فافراده بابا للرد عليهم وذكر الصواب في المقصود بهذه النصوص يؤيد ما قررته وبالله التوفيق .^(١)

- المسألة السابعة: الكلام عن الشجرة :

وردت عدة أقوال عن السلف رضوان الله عليهم في بيان الشجرة التي نهى آدم من الاقتراب منها في قوله تعالى * ويلعادم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلام من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظلمين*^(٢)

وقد ذكر هذه الأقوال ابن كثير وغيره من المفسرين ، واليك هذه الأقوال:

١ - عن عكرمه عن ابن عباس قال الشجرة التي نهى عن الأكل من ثمرها آدم هي السنبلة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها السنبلة (الحنطة) الحبه منها ككلى البقر ألين من الزبد وأحلى من العسل ، وعن ابن عباس أنه كان يقول : الشجرة التي نهى عنها آدم البر قلت : والسنبلة والحنطة والبر بمعنى واحد .

٢ - وقال السدى عن حدثه عن ابن عباس أنها الكرم .

٣ - وقيل إنها النخلة .

٤ - وقال ابن جرير عن مجاهد : انها التينة .

وقد حسم الأمر ابن جرير الطبري وقال رحمه الله : الصواب في ذلك أن يقال (ان الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من

(١) انظر: حادي الأرواح ، من ص ١٩ الى ص ٣٤ .
(٢) سورة الأعراف ، آية (١٩) .

من أشجار الجنة دون سائر أشجارها. فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله جل ثناؤه به ولا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة فأنسى يأتي ذلك؟ وقد قيل كانت شجرة البر، وقيل كانت شجرة العنب، وقيل كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم، إذا علم لم ينفع العلم به عالمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله فيه.

(١)

وكذلك رجح الامام الرازي الإبهام في تفسيره، والألوسي رحمهم الله جميعا

(٢)

(٣)

قال ابن كثير: وهو الصواب.

(٤)

(١) تفسير الطبري (١/ ٢٣٣) .

(٢) تفسير الفخر الرازي، (٣ / ٥) .

(٣) تفسير الألوسي، (١ / ٢٣٤ - ٢٣٥) .

(٤) تفسير ابن كثير، (١ / ٧٩ - ٨٠) .

المبحث الثاني
الآيات التي يدور الصراع عليها
في
قصة آدم عليه السلام

- مقدمة .

- أولاً : تكريم الله لآدم وبنيه باسجاد الملائكة له .
ثانياً : امتناع ابليس عن السجود لآدم (عليه السلام) .
ثالثاً : توعده ابليس لبني آدم بالاغواء .
رابعاً : عجز ابليس عن اغواء عباد الله المخلصين .
خامساً : كيد الشيطان للإنسان - وفيه يتجلى الصراع بينهما -
سادساً : تكريم الله لآدم وزوجه باسكانهما الجنة ونهيهما عن الأكل من الشجرة .
سابعاً : بداية كيد الشيطان لآدم وزوجه عليهما السلام .
ثامناً : عتاب الله جل وعلا لآدم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة . وقبول
اعتذارهما عليهما السلام .
تاسعاً : استقرار آدم وزوجه بعد أن تاب الله عليهما .
عاشراً : دعوة القرآن بني آدم للاعتبار بما حدث بين أبيهم عليه السلام
وبين ابليس لعنه الله .
الحادي عشر : التعري ومفاسده ووسائل الشيطان اليه .
الثاني عشر : في التحذير من فتن ابليس ومكايده .
الثالث عشر : براءة آدم وزوجه عليهما السلام مما نسب إليهما من الشرك .

المبحث الثاني

أولا : الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم عليه السلام

* مقدمة :

(١) قال تعالى * وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة * ،
وقال تعالى * إن الله اصطفى آدم ونوحا و آل ابراهيم و آل عمران على
العالمين * ، قال القرطبي رحمه الله (المعنى بالخليفة هنا - في قول
ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل - آدم عليه السلام ، وهو خليفة الله
في امضاء أحكامه وأوامره ، لأنه أول رسول الى الأرض كما في حديث أبي ذر
قال قلت يا رسول الله أنبيا كان مرسلا ؟ قال نعم - الحديث (٣) .

ويقال : لمن كان رسولا ولم يكن في الأرض أحد؟

فيقال : كان رسولا الى ولده . وكانوا أربعين ولدا في عشرين بطنا في كل
بطن ذكر وأنثى وتوالدوا حتى كثروا كما قال تعالى * يتأبها الناس
اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا
كثيرا ونساء * (٤) . (٥)

وصح ابن حبان من حديث أبي أمامه (أن رجلا قال يا رسول الله
أنبي كان آدم؟ قال نعم - قال : فكم كان بينه وبين نوح؟ قال : عشرة
قرون) (٦) .

(٧) أما قوله تعالى * إن الله اصطفى آدم * أي أن الله اختار من الناس
لرسالته ونبوته آدم عليه السلام الخ . وهو أول الأنبياء المذكورين
في هذه السورة (سورة الأعراف) ، وسأشرع (بإذن الله) بدراسة الآيات
الكريمة التي جاءت موضحة للصراع منذ أن كان في الجنة الى أن استقر في
الأرض . والله أسأل التوفيق والسداد .

(١) سورة البقرة : آية (٣٠) .

(٢) سورة آل عمران : آية (٣٣) .

(٣) انظر البدر المنشور للسيوطي ، (١ / ١٢٦) ، وقد ورد بنحوه مع اختلاف

المتن ، انظر الفتح الرباني ، (٢٢ / ٣٧٢) .

(٤) سورة النساء : آية (١) .

(٥) تفسير القرطبي ، (١ / ٢٦٤) .

(٦) انظر فتح الباري ، (٧ / ١٨١) وانظر موارد الظمان على زوائد ابن حبان

للحافظ نور الدين الهيتمي حققه ونشره محمد عبد الرزاق حمزة (٥٠٩) دار

الكتب العلمية - لبنان وانظر البدر المنشور للسيوطي (١ / ١٢٦) .

(٧) سورة آل عمران ، آية (٣٣) .

تفسير الآيات التي يدور الصراع عليها في قصة آدم عليه السلام

أولا : تكريم الله لآدم وبنيه باسجاد الملائكة له :

والآن وبعد ما اسلفته من مسائل مهمة حول الصراع بين آدم وابليس في سورة الأعراف أعود فأفسر هذه الآيات مركزا على جوانب الصراع بين ابليس وآدم عليه السلام وبنيه من بعده محاولا اجمال السبل التي يتوصل بها ابليس إلى صرف بني آدم عن الحق إلى الباطل قال تعالى * ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين *

اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية على أقوال أخلقها عندي بالقبول قولان :

- القول الأول :

ولقد خلقنا أباكم آدم من تراب الأرض ، ثم ألبسناه تلك الصورة الفريدة التي تميز بها عن سائر المخلوقين ، والتي لا يتمنى آدمي أن يكون على غيرها أو أن تنتقص فيه هذه الصورة بنقص ما ولو كان يسيرا . والسبب في الجنوح إلى هذا التأويل أن سجود الملائكة لآدم متقدما على خلقنا في الزمان . فلا يجوز أن يرتب عليه (ثم) التي هي للترتيب والتراخي ، ولا غرابة أن يخاطبنا الله تعالى بما لأبينا ، لأن صورته عليه السلام تتكرر في خلقنا إلى أن تقوم الساعة ، فخلقنا هو إعادة لصورته عليه السلام ومخاطبة الأبناء بما للآباء في القرآن الكريم كثيرة وشائعة منها قوله تعالى * واذ نجيناكم من آل فرعون * فهو خطاب لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع أن النجاة وقعت لآبائهم اذ لولا نجاة الآباء ما كان للأبناء المخاطبين وجود .

ونظيره * واذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور * ، وقوله

* واذ قتلتم نفسا فادلأتم فيها * ، وغير ذلك والكلام في هذه

- (١) سورة الأعراف: آية (١١) .
- (٢) أنظر تفسير الرازي ، (١٢ / ٢٩ - ٣٠ ، ١٠١) .
- (٣) سورة البقرة : آية (٤٩) .
- (٤) سورة البقرة : آية (٦٣) .
- (٥) سورة البقرة : آية (٧٢) .

الخطابات وأمثالها وزان الكلام في قوله تعالى ﴿ و اذ نجيناكم من آل فرعون ﴾ فربنا جل وعلا يمتن علينا نحن الذرية بخلق أبينا آدم عليه السلام الذي هو أصلنا وتصويره في أحسن صورته . وسجود الملائكة له عليه السلام مع رفيع شأنهم عند ربهم ، فالمنة بذلك كله منة علينا لا سيما وأن خلقنا وتصويرنا على هيئة أبينا ماضيان فينا الى يوم القيامة .

- القول الثاني :

إن الله يربي نفس الإنسان على الطاعة والامتثال بالترهيب والترغيب وقد سلف في أول السورة ذكر الترهيب في قوله تعالى ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بآسنا بيّنا أوهم قائلون فما كان دعوتهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ (١) .

ثم جاء الترغيب في قوله ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معيشة قليلا ما تشكرون . ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ (٢) .

ونلاحظ هنا أن القرآن لايهتم بالترتيب الزمني في وقوع هذه الأحداث لأن الغرض هو التذكير بها لا بأزمانها . ولذا ذكر التمكين ، وما جعله فيها من معاش ، قبل الحديث عن خلقنا وتصويرنا ولأجل ذلك حسن عطف سجود الملائكة لأبينا آدم على هذه المنن بـ (ثم) لأن المقصود التذكير بها مجتمعة ومنفردة بغض النظر عن الترتيب الزمني ، ولذا فثم هنا لذكر الرتبة لا لذكر الترتيب .

فهو تشرق بنا من الفاضل إلى الأفضل . ولاشك في أن المنة بسجود الملائكة لأبينا آدم تكرمة له ولنا . لأن ما هو شرف للآباء هو شرف للأبناء . مع ملاحظة اننا كنا في صلبه حال السجود له ، فنالنا من شرف هذا السجود باعتبارنا كنا في صلبه عليه السلام .

ولقد أقسم تبارك وتعالى على خلقنا وتصويرنا مضرراً جواب القسم بقدر التحقيق مع أنك لو سألت أكفر الكافرين عن خلقه؟ لا يسعه الا أن يقول .

(١) سورة الأعراف : آية (٥٤)
(٢) سورة الأعراف : آية (١٠ ، ١١)

(الله) - أي خلقني -

فان قال بغير ذلك كالدهريين والشيوعيين قاتلهم الله فمكابرة ومعاندة مع انعقاد قلوبهم على خلاف ما تقول به ألسنتهم ، لأن أكثر بني آدم ضلوعن سبيل الله ، واجتالتهم الشياطين عن الدين الحنيف ، فكانوا بمنزلة من نسى أن الله هو الذي خلقه وصوره ، لذا جاء التعبير بأسلوب القسم ، وما في جوابه من قد ونون العظمة في * خلقناكم * و * صورناكم * و * قلنا * لهذا الملحظ الآنف الذكر .

والمعنى على ما أسلفنا في القول الثاني : ولقد خلقناكم نطفًا في أصلاب آبائكم ، ثم صورناكم في أرحام أمهاتكم ذكورا أو اناثا أو هما معا ، بقدرتنا ومشيئتنا ، لا يعلم بعلمنا فيكم علما ذاتيا أحد سوانا ، ثم شرفناكم وكرمناكم قبل أن تخلقوا ، بأن جعلنا أباكم مسجودا للملائكة فهل يليق بكم وهذا شأننا معكم أن تعبدوا غيرنا ؟ وأن تتخذوا الهيا - غيرنا أو تشركوا معنا في ألوهيتنا أصنامكم ومعبوداتكم الباطلة ؟ وهل يصح أن تنسوا هذه المنن ، فتتبعوا الشيطان الذي ناصبكم وآباءكم العداوة التي أفضت لكم في ذكرها ، لتتخذوا هذا الشيطان عدوا ؟ فاذا بأغلبكم على خلاف ذلك فما أعجب ذلك منكم !

وقد امتثل الملائكة أمر ربهم لهم بالسجود لآدم الا ابليس وقد مرت في الفصل الأول مسائل قدمت بها لتفسير هذه الآيات في بيان أقوال العلماء في كيفية هذا السجود والراجح منها .
(١)

وقد امتنع ابليس من السجود لآدم حسدا واستكبارا ، ويدل على ذلك التعبير بقوله تعالى * لم يكن من السجدين * في أي وقت من الأوقات محاولا اظهار الندم على ذلك . لاختياره جانب المعاندة والمكابرة على العبودية الحقنة لله تعالى . التي يدل عليها امتثال الأمر واجتناب النهي .

والمقطع به أن ابليس كان مأمورا بالسجود لآدم مع الملائكة بصريح قوله تعالى * قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك * .
(٢)

- (١) انظر: ص (٤٦) من بحثنا هذا
(٢) سورة الأعراف : آية (١١) .
(٣) سورة الأعراف : آية (١٢) . وفي سورة البقرة * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * آية (٣٤)

إلا أن المفسرين رحمهم الله اختلف نظرهم في الاستثناء في قوله
تعالى ﴿إلا إبليس﴾ هنا وفي البقرة .

فقال بعضهم : إنه متصل وأن إبليس كان من الملائكة ، والملائكة وان
كانوا معصومين عن المعصية فبعضة الله لهم يكونون معصومين ، وبدونها
لا يكونون معصومين إذ عصمتهم ليست أمرا ضروريا لا يتخلف ، بدليل تخلفها
في إبليس أعادنا الله منه .

وقال بعضهم : إنه منقطع وان إبليس كان معهم وليس منهم وقد أمر بما
أمروا بناء على أن العصمة ضرورية لأن فطرتهم خلقت تأبى المعصية ، فيستحيل
وقوعها منهم ، لأن ذلك يستلزم التناقض في خلقهم ، بمعنى أنهم خلقوا
معصومين غير معصومين وهذا محال بالنسبة لله تعالى ، وقد أفردت لهذا
الموضوع مسألة براسها ضمن هذا البحث كما أفردت في هذا البحث الكلام بايجاز عن
الملائكة .^(١)
^(٢)

كما تكلمت عن أطوار خلق آدم عليه السلام وأهميته . وأشهر المواضع
التي ذكرت قصته فيها من القرآن الكريم .^(٣)
^(٤)

ثانيا : امتناع إبليس عن السجود لآدم (عليه السلام) :

وقوله تعالى ﴿قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك﴾^(٥)
معناه : ما منعك عن ترك السجود لآدم وقت أمر الله لك به ، والسؤال هنا
عن الترك لا عن نفس السجود ، والاستفهام هنا انكاري توبيخي لأن الله
سبحانه وتعالى يعلم بواطن موانعه عن السجود قبل أن يخلقه ، لكن لما
كانت معصية الله في نفسها أمرا عظيما ، لاسيما وأن العاصي قد خوطب
بالطلب وكلم به ، استدعى ذكر هذا الاستفهام ، وليعلم آدم وبنوه خطر
إبليس عليهم فلا يستجيبوا له البتة ، ويناصبوه العداوة على الدوام ، وقد
بين إبليس سبب امتناعه عن السجود لآدم بما حكاه الله عنه ﴿قال أنا خير
منه﴾ أي أنا أعلى وهو أدون . ومن كان كذلك لا يصح له في حكم العقل أن

-
- (١) انظر: ص (٤٣) من بحثنا هذا .
 - (٢) انظر: ص (٤٢) من بحثنا هذا .
 - (٣) انظر: ص (٣٨) من بحثنا هذا .
 - (٤) انظر: ص (٣٦) من بحثنا هذا .
 - (٥) سورة الأعراف : آية (١٢) .

يسجد لمن هو أقل منه ثم أقام الدليل - في زعمه - على كونه خيراً من آدم بما قصه الله في قوله * خلقتني من نار وخلقته من طين * (١)

قال أبو السعود رحمه الله عند تفسير هذه الآية : (استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية التوبيخ ، كأنه قيل فماذا قال اللعين عند ذلك ؟ فقيل قال : * أنا خير منه * متجانفاً عن تطبيق جوابه على السؤال . بأن يقول من معني كذا ، مدعياً لنفسه بطريق الاستئناف شيئاً بين الاستلزام لمنعه من السجود على زعمه ، ومشعراً بأن من شأنه هذا لا يحسن أن يسجد لمن دونه ، فكيف يحسن أن يؤمر به ، كما ينبغي عنه ما في سورة الحجر من قوله * لم أكن لأسجد لبشر خلقتهم من صلل من حملاً مسنون * (٢) فهو أول من أسس بنيان التكبر واختراع القول بالحسن والقبح العقلين .

وقوله تعالى * خلقتني من نار وخلقته من طين * . تعليل لما ادعاه من فضله عليه ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وزل عنه ما من جهة الفاعل كما أنبأ عنه قوله تعالى * مامنك أن تسجد لما خلقت بيدئ * (٣) أي بغير واسطة على جهة الاعتناء به ، وما من جهة الصورة كما نبه عليه قوله * ونفخت فيه من روحي * (٤) وما من جهة الغاية ، وهو ملاك الأمر ، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له عليه السلام حين ظهر لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة وأنه له خواص ليست لغيره (٥) .

وقال القرطبي في تخطيئة إبليس في تفضيل النار على الطين التي هي أصله والتي بسببها زعم أنه خير من آدم عليه السلام ما نصه : * قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * (٦) فرأى أن النار أشرف من الطين ، لعلوها وصعودها وخفتها ، ولأنها جوهر مضيء .

-
- (١) سورة الأعراف ، آية (١٢) .
 - (٢) سورة الحجر ، آية (٣٣) .
 - (٣) أي غاب عنه .
 - (٤) سورة ص ، آية (٧٥) .
 - (٥) سورة الحجر ، آية (٢٩) ، سورة (ص) ، آية (٧٢) .
 - (٦) تفسير أبي السعود ، (٣ / ٢١٦) .
 - (٧) سورة الأعراف ، آية (١٢) .

قال ابن عباس والحسن وابن سيرين : أول من قاسى ابليس فأخطأ القياس
(١)
فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع ابليس .

قال ابن سيرين : وما عبدت الشمس والقمر الا بالمقاييس .
وقالت الحكماء : أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين وان
كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق . فان الطين أفضل من النار
من وجوه أحدها : أن من جوهر الطين الرزانة والسكون والوقار والأناسة
والحلم والحياء والصبر . وذلك هو الداعي لآدم عليه السلام بعد السعادة التي
سبقت له إلى التوبة والتواضع والتضرع ، فأورثه المغفرة والاجتباء
والهداية . ومن جوهر النار الخفة ، والنطيش ، والحدة ، والارتفاع ،
والاضطراب وذلك هو الداعي لابليس بعد الشقاوة التي سبقت له الى الاستكبار
والاصرار ، فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء . قاله القفال .

الثاني : أن النار سبب العذاب ، وهي عذاب الله لأعدائه ، وليس
(٢)
التراب سبباً للعذاب .

ولم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يبين لابليس خطاه في ما اعتقده بل رد الله
تعالى عليه رداً بليغاً بأن صرف الجواب عن قضية العناصر (النار، والطين) إلى
العلة الحقيقية في عدم سجوده وهي الكبر فقال ﴿ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾ . أما
قضية العناصر فبينة البطلان ، وما هي إلا استارتستر به ابليس ليبرر جريمته .
فمقالة ابليس هذه التي أجاب عنها ربه قد انحطت على عظام أولها: الكفر،
وثانيها: التكبر ، ثالثها: احتقار الغير ، ورابعها: ظن السوء بالله عز وجل
وتخطئه ، وأنه ليس بحكيم - تعالى الله عن ذلك - ، وغير ذلك من الجرائم
والأخلاق السيئة ، التي انتشرت في البشر الذين طاعوا ابليس فيما بعد ،
فجميع الانحرافات البشرية عن الحق والكفر فما دونه - انتظمها قول ابليس
اللعين ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ (٣) . وما كشف
الله لنا من هذه المحاوراة الا رحمة بنا ، وتنبيهها على خطورة هذا العدو ،
وتحذيراً من مطاوعته واتباع خطواته .

(١) انظر: تفسير الألوسي ، (٨ / ٨٩) .
(٢) نقل بتصرف من تفسير القرطبي ، (٧ / ١٧١) .
(٣) سورة الأعراف : آية (١٢) .

ثم بين تعالى شديد غضبه عليه وانزال نقمته به بقوله :

(١) * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج انك من الصّٰغرين *
والمعنى اهبط من السماء مطرودا مسخوطا عليك من جنابنا لا تنالك رحمتنا
أبدا . فان السماء مسكن ملائكتي الذين فطروا على تسبيحي وتحميدي و دوام
عبادتي ، الى الأرض التي جعلتها لك مستقرا زمتنا ما تمارس فيها غواياتك
وضلالك . ثم تعود الى جهنم دار سخطي وهواني لمن عصوني .

ويجوز أن يكون المعنى اهبط من الجنة الى الأرض فاني جعلتها دارا لمن
أطاعني وهذا يعني أن ابليس كان يسكن الجنة مع من شاء الله من الملائكة
وقد يقوى هذا المعنى بقوله تعالى * فأخرج انك من الصّٰغرين * وقوله
تعالى * فما يكون لك أن تتكبر فيها * (٢) أي ما يصح لك وما ينبغي لمثلك
أن يتكبر في السماء أو في الجنة . (٣) (٤)

وقوله تعالى * فأخرج * تأكيد بالأمر بالهبوط وبيان لحكم الله
الذي لا يرد وأنه لو كان خيرا من آدم كما زعم ما حكم عليه بذلك .

(٥) ومعنى * انك من الصّٰغرين * أي من المحقرين المهانين المبعدين
عن الرحمة الذين لاتليق بهم سكنى السماء أو الجنة .

وأعلم أن كلام الله تعالى لابليس لا يفيد شرفا ، ولا ينيله كرامة لأنه
تعالى كلمه بما كشف عن لؤم طبيعته ، وفساد عقيدته ، وسوء أخلاقه ، فكان
كلامه لابليس ككلامه لأهل النار على جهة التأنيب والتوبيخ ، بعكس كلامه
لموسى عليه السلام فانه عين التكريم ونهاية الرضى ، لأنه تعالى كلمه على
جهة الاكرام والتفضيل والاصطفاء ككلامه تعالى لأحبابه في الجنة .

ولو كان في ابليس خير ما تبجح بين يدي الله عز وجل بما قال ،
ولذا فمتابعته خطر عظيم ، لأن من يتبعه فكأنه متبجح معه أعادنا الله
بفضله ورحمته من تسلطه علينا ومن متابعتة .

-
- (١) سورة الأعراف ، آية (١٣) .
(٢) سورة الأعراف ، آية (١٣) .
(٣) سورة الأعراف ، آية (١٣) .
(٤) انظر تفسير الرازي ، (٣ / ١٦) ، وتفسير النسفي ، (٢ / ٤٦) ،
وانظر تفسير القاسمي ، (٧ / ٢٦) .
(٥) سورة الأعراف ، آية (١٣) .

ولما علم ابليس سقوطه وهوانه . قال مكرا وجهلا باحاطة الله بما في نفسه * قال انظرنني إلى يوم يبعثون * (١)

مراده لعنه الله أن يبقيه الله حيا الى يوم البعث لأنه علم أنه لاموت لحي بعث يوم القيامة فاذا أنظر الى يوم القيامة فقدنجا من الموت فيكتب بذلك مزية على بنى آدم لأن الله حكم على صالحهم وطالحهم بالموت بل وعلى سائر الخلائق إلا ما استثناه الله ، بدليل قوله تعالى * كل شيء هالك إلا وجهه * فيكون بقاؤه إلى البعث مزية على سائر الخلائق . (٢)

ولعله في زعمه بعد موت بنى آدم المسلط عليهم والذين بموتهم ينقطع مجال اغوائه يتوب إلى الله عز وجل فتدركه الرحمة ولذلك طلب الانتظار إلى النفخة الثانية .

وقوله تعالى * إلى يوم يبعثون * دليل على أنه كان يعلم أن بنى آدم يموتون ويبعثون ويسألون . والمعنى أخرني وأمهلني الى يوم تبعث الخلائق ، فأجاب الله بقوله * قال إنك من المنظرين * أي ليس الانتظار مختصاً بك . ولا هو اجابة لطلبك بل أنت واحد من المنظرين ، الذين أخرناهم في علمنا إلى الوقت المعلوم وهو وقت النفخة الأولى . فهو في هذا الانتظار تابع لغيره فأكد له تعالى تأخيره إلى الوقت الذي أراده لا إلى ما يرجوه .

وقد بين تبارك وتعالى في سورتي (الحجر ، ص) الوقت الذي أنظر اليه وهو وقت النفخة الأولى حيث قال * قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم * (٤) أي وقت النفخة الأولى التي يموت عندها كل حي من الخلائق .

ويرى بعض المفسرين أن معنى قوله تعالى * إلى يوم الوقت المعلوم * أي الى الوقت الذي أردناه . وأن اللعين لايعلم أجله وأنه مهدد بالموت في كل لحظة لأنه لو علم تحديد أجله ، لتاب إلى الله عند قربه فتخلص بالتوبة مما أحدث .

(١) سورة الأعراف: آية (١٤) .

(٢) وهي ثمانية أشياء نظمها السيوطي في قوله:

ثمانية حكم البقاء يعمها من الخلق والباقون في حيز العدم
هي العرش والكرسى وناروجنة وعجب وأرواح كذا اللوح والقلم
انظر تفسير الجمل (الفتوحات الالهيه) ، ج ٣ ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(٣) سورة القصص: آية (٣٥ - ٣٦) . (٤) سورة الحجر: آية (٣٥ - ٣٦) .

(٤) سورة (ص): آية (٨٠ - ٨١) .

والرأي الأول أرجح. لأن ابليس علم أنه من الصاغرين، وأن عليه اللعنة إلى يوم الدين، وهو اليوم الذي تنقطع عنده التكليف، ويكتب إلى أوانه على المسيء أساءته وعلى المحسن إحسانه، فلا ضرر من أن يوغل ابليس إلى النفخة الأولى وأن يعلم ذلك لأنه آيس من رحمة الله وأنه بمقتضى ذلك لا يلهم التوبة ولا تقبل منه لو فعلها.

ثالثاً: توعد ابليس لبني آدم بالاغواء:

(٢) وقوله تعالى ﴿ قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ استئناف أجيب به عن سؤال، فهم من سياق ما قبله تقديره. فماذا قال ابليس بعد أن علم خيبة أمله في الانظار إلى يوم الدين كما كان يتمنى؟
﴿ قال فيما أغويتني الخ الآيات ﴾ .

والفاء في قوله تعالى ﴿ فيما أغويتني ﴾ (فاء) لترتيب مقالته هذه على قوله تعالى ﴿ قال إنك من المنظرين ﴾ ، و (الباء) أما حرف قسم بتقدير أقسم باغوائك لي وقدرتك عليّ في هذا الاغواء الذي لا أملك دفعه عني، ﴿ لأقعدن لهم ﴾ . وقد أقسم صراحة بعزة الله في قوله تعالى ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ أي بقدرتك.

وأما سببية والتقدير . قال : فبسبب اغوائك لي لأقعدن لهم . وهذا منتهى العناد والتبجح بين يدي ملك الملوك الذي ذك الجبل من هيبتة لما تجلى عليه .

وقد أذن الله لإبليس ليقول ما يقول ، لبيان عظم فتنته ، ولنتأكد من عداوته فلا نهاده بحال من الأحوال ولئلا تكون لنا حجة على الله عز وجل بعد بيانه تعالى ووضوح قرآنه .

والإغواء هنا : هو الاضلال وذلك بقذفه في قلب ابليس اللعين . لعلمه تعالى بأنه ليس أهلاً لطاعته بدليل امتناعه لعنه الله عن تنفيذ أمره تعالى

- (١) انظر تفسير الرازي ، (١٤ / ٣٦) ، انظر تفسير الألوسي (١٨ / ٩١) ،
وتفسير أبي السعود ، (٣ / ٢١٧) .
(٢) سورة الأعراف ، آية (١٦) .
(٣) سورة الأعراف ، آية (١٥) .
(٤) انظر تفسير الرازي ، (١٣ / ٣٨) .
(٥) سورة (ص) ، آية (٨٢) .

بالسجود لآدم عليه السلام .

وهذه الآية صريحة في احتجاج أهل السنة على المعتزلة بأن الأفعال كلها مخلوقة لله تعالى بخلاف قولهم ان العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية ولا حجة للجبرية في هذه الآية .

لأن اغواء ابليس نشأ بسبب معصيته ، فهو لم يقل لربه أردت السجود فلم تطاوعني أعضائي لفعله . بل قال مستكبرا : * أنا خير منه خلقتني من نار (١) وخلقته من طين * .

فهذا صريح في أنه ترك ما أمر به قصدا واختيارا لا اجبارا فهو لم يغو بظلم - تعالى الله عن الظلم - * وما ريك بظلم للعبيد * (٢) وقوله تعالى * لأتعدن لهم صراطك المستقيم * جواب القسم بتقدير أن الباء للقسم . أو هو جواب قسم محذوف بتقدير (رب بسبب اغواؤك لي ، وحقك لأتعدن لهم صراطك المستقيم) وليس لابليس في هذا القسم شرف لأنه أقسم على فعل الشر . وشعر أنه شيء وأنه يستطيع أن يؤثر بنفسه في آدم وبنيه ولو استشعر قدرة الله تعالى عليه وعلى سائر الخلق لتضائل لعظمته ولعلم أنه أعجز من أن يحدث أثرا في مخلوق . لولا أن ما يحدثه في بني آدم هو مراد الله تعالى المبني على الحكمة التامة .

وقوله تعالى * لأتعدن لهم * مجاز ، أريد به صرف بني آدم عن الحق واجتهاده في ذلك بلا كلل ، وصور هذا بقعود القاعد في الطريق يترصد من يمر به ليوقع به ما يوقع . (٤)

* صراطك المستقيم * أي دينك القويم .

والمعنى : لأصدنهم عن دينك بتجهيلهم بشرعك ، أو بصرفهم عن معرفة دينك كل بحسب تأثيره عليه .

وقد وصف الله تعالى الصراط بالمستقيم على لسان عدوه ليعلم بنو آدم أن سبل ابليس وطرقه في ما يغويهم به لاخير فيها ، ولا استقامة لها ، بدليل

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢) .

(٢) سورة فصلت ، آية (٤٦) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٦) .

(٤) انظر تفسير أبي السعود ، (٣ / ٢١٩) .

أنه وصف صراط الله فقط بالمستقيم وصدق الله العظيم حيث يقول: *
وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمَ عَنْ
سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَرُكُوعًا بِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * (١)

رابعاً : عجز ابليس عن اغواء عباد الله المخلصين :

وقد ذكرت سورة الأعراف قعوده لآدم وبنيه كلهم بلا استثناء لجهله
بقدرته نفسه واستشعاره طغيانا وكبرا أنه يستطيع أن يفعل الاغواء بهم جميعا
لكن سورتي (الحجر) ، (ص) قد بينتا أن عباد الله المخلصين من
الأنبياء والمالحين لاسلطان له عليهم البتة وأنه أعجز وأذل من أن ينال
منهم * قال هذا صراط علي مستقيم . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان
إلا من اتبعك من الضاويين * (٢)

فقد بينت هذه الآية * أن عبادي * عجزه عن التسلط على عباد الله
الذين اصطفاهم لحضرتة .

وفي سورة (ص) استثنى ابليس بنفسه عباد الله المخلصين من
اغوائه بما حكاه الله عنه * قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم
المخلصين * (٣)

ولقد فتح الله تعالى أبواب رحمته لكل خلقه متى رجعوا إليه وعرفوا
خدعة ابليس لهم فقال في شأن الكافرين :

* قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف * (٤)
وقال لعامة المؤمنين * ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله
يجد الله غفوراً رحيماً * (٥)

وضاعف الحسنة لفاعلها عشر مرات ، أو سبع مائة ضعف ، أو أكثر من ذلك
بما لا ينتهي عند حد ولا عد ، قال تعالى * من جاء بالحسنة فله عشر
أمثالها * (٦)

- (١) سورة الأنعام : آية (١٥٣) .
- (٢) سورة الحجر : آية (٤١ - ٤٢) .
- (٣) سورة (ص) : آية (٨٢ - ٨٣) .
- (٤) سورة الأنفال : آية (٣٨) .
- (٥) سورة النساء : آية (١١٠) .
- (٦) سورة الأنعام : آية (١٦٠) .

وقوله تعالى * مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة
أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله
واسع عليم * ، وقال تعالى * من جاء بالحسنة فله خير منها * (٢)

ورغم قبح السيئة فإنه تعالى لم يضاعفها . ولم يكتبها على المؤمن فور عملها بل يمهل له لعله يتوب عنها ، فإذا لم يتب عنها فور فعلها ، وكتبت عليه ، فإن التوبة متى تحقق بها بددتها بل بدلت سيئاته حسنات دون أن يفعلها . لأن توبة العبد من الذنب حسنة قد فعلها العبد في نفسه فهي ماحية للسيئات ومستدعية لأن يعطى التائب مكانها حسنات . فبعد أن أشى ربنا تبارك وتعالى في سورة الفرقان على المؤمنين بأنهم لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله ، إلا بالحق ، ولا يزنون وبعد أن توعد من يأت هذه الموبقات بمضاعفة العذاب يوم القيامة ، وخلود الفاعلين ذلك فيه مهانين ، استثنى التائبين فقال تعالى * إلا من تاب وءامن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً * ، وقد دلت هذه الآية (٤) على أن إبليس لعنه الله إنما ضل على علم وأنه كان يعرف الحق من الباطل ولذا كان أمره عجيباً .

فقد يعذر من فعل الباطل إذا غلب على ظنه أنه حق . لكن كيف يعذر من عرف الحق تمام المعرفة ثم جافاه عمداً وقصداً إلى سلوك الباطل والاجتهاد فيه ؟ ولذا كان كفره عنادا فإنه لم يكن يجهل الحق بدليل قوله * لا تعسدن لهم صراطك المستقيم * .

(١) سورة البقرة ، آية (٢٦١) .

(٢) سورة النمل ، آية (٨٩) .

(٣) سورة الفرقان ، آية (٧٠ - ٧١) .

(٤) أي التي نحن بصدد تفسيرها وهي قوله * قال فيما أغويتني لأتعسدن لهم صراطك المستقيم *

خامسا : كيد الشيطان للانسان وفيه يتجلى الصراع بينهما :

وقوله تعالى * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شكركين * (١) . تفصيل وبيان للاغواء المجمل في قوله * لأغوينهم أجمعين * وفي قوله تعالى * لأقعدن لهم صراطك المستقيم * (٢) .

و (ثم) هنا خارجة عن معنييها المعروفين لها الترتيب ، والتراخي الى المبالغة ، التي تعني بذل غاية مجهوده في اغواء بني آدم واطلالهم ، وقوله تعالى : * لآتينهم من بين أيديهم * جواب قسم محذوف كقوله تعالى * لأقعدن لهم صراطك المستقيم * واتيانه الانسان من الجهات حقيقي يشعر المأتي من بني آدم بأثره . وان كان الحق سبحانه وتعالى قد حجبنا عن رؤيته حين يأتينا ، لأنك اذا رأيت عدوك ليل نهار يجاريك ويجتهد في ذلك ضعفت قواك عن مقاومته وحصل لك اليأس من مغالبتة ولذا قال الله تعالى : * إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم * (٤) ، وقد نظر المفسرون في اتيانه بني آدم من هذه الجهات الأربعة نظرا فاحصا دقيقا .

فبعضهم حمل مجيئه من هذه الجهات الأربعة على حقيقته وأنه لا يستطيع أن يأتي الانسان الا من هذه الجهات التي حددها . وبعضهم يرى أن المراد بهذه الجهات المذكورة في الآية الغلبة والتمكن وإتيائه - الانسان - من أي جهة شاء ، كما أنهم رضي الله عنهم فسروا كل جهة من هذه الجهات بتفسيرات لا يعارض بعضها بعضا - في نظري - ولا مانع من ايرادها كلها لأن النص يحتملها وأفضل ما اطلعت عليه ما كتبه الامام الفخر الرازي في تفسيره وسأنقله بشيء من التصرف قال رحمه الله : في ذكر هذه الجهات الأربع قولان:

- القول الأول :

ان كل واحد منها مختص بنوع من الآفة في الدين . والقائلون بهذا

القول ذكروا وجوها :

- (١) سورة الأعراف ؛ آية (١٧) .
- (٢) سورة (ص) ؛ آية (٨٢) .
- (٣) سورة الأعراف ؛ آية (١٦) .
- (٤) سورة الأعراف ؛ آية (٢٧) .
- (٥) انظر تفسير النسفي (٢ / ٤٧) ، وتفسير الألوسي (٨ / ٩٥) ، وتفسير أبي السعود ، (٣ / ٢١٩) .

أحدها :

* ثم لأتّينهم من بين أيديهم * يعني أشكّهم في صحة البعث والقيامة * ومن خلفهم * ألقى اليهم أن الدنيا قديمة أزلية .

وثانيها :

* ثم لأتّينهم من بين أيديهم * والمعنى أفترهم عن الرغبة في سعادات الآخرة * ومن خلفهم * يعني أقوى رغبتهم في لذات الدنيا وطيباتها وأحسنها في أعينهم وعلى هذين الوجهين ، فالمراد من قوله * بين أيديهم * الآخرة ، لأنهم يردون عليها ويصلون اليها فهي بين أيديهم وإذا كانت الآخرة بين أيديهم ، كانت الدنيا خلفهم ، لأنهم يخلفونها .

وثالثها :

وهو قول الحاكم والسدي * من بين أيديهم * يعني الدنيا * ومن خلفهم * يعني الآخرة .

وانما فرسنا * بين أيديهم * بالدنيا لأنها بين يدي الانسان يسعى فيها ويشاهدها . وأما الآخرة فهي تأتي بعد ذلك .

ورابعها :

* من بين أيديهم * في تكذيب الأنبياء والرسل الذين يكونون حاضرين * ومن خلفهم * في تكذيب من تقدم من الأنبياء والرسل .

وأما قوله تعالى : * وعن أيمنهم وعن شمائلهم * ففيه

وجوه :

أحدها :

* عن أيمنهم * في الكفر والبدعة * وعن شمائلهم * في أنواع

المعاصي .

ثانيها :

(عن أيمنهم * في الصرف عن الحق) وعن شمائلهم * في الترغيب

في الباطل .

ثالثها :

* عن أيمنهم * يعني أفرهم عن الحسنات * وعن شمائلهم * أقوى
دواعيهم في السيئات. وهذا القول الأخير يبين حاله (نعوذ بالله منه)
مع المؤمنين ثم استطرد الامام الفخر رحمه الله قائلا :

قال الأنباري : وقول من قال الأيمان كناية عن الحسنات . والشمائل
عن السيئات . قول حسن ، لأن العرب تقول : اجعلني في يمينك . ولا تجعلني
في شمالك . يريد اجعلني من المقدمين عندك ولا تجعلني من المؤخرين .
(١)

- القول الثاني :

أنه تعالى حكى عن الشيطان ذكر هذه الوجوه الأربعة ،
والغرض منه أنه يبالغ في القاء الوسوسة ولا يقصر في وجه من الوجوه الممكنة
البتة .

وتقدير الآية : (ثم لأتينهم من جميع الجهات الممكنة بجميع
(٢)
الاعتبارات الممكنة) .

وعلى القول الذي خص طرق الشيطان الى الانسان بهذه الجهات الأربعة ،
يرد سؤال ، لم لم تذكر الآية مع هذه الجهات الفوق والتحت ؟ فأجيب
عن ذلك بأن جهة الفوق هي جهة الدعاء ، وأن جهة التحت هي موضع السجود
وقد علم الشيطان أنه لا يتمكن من الانسان وهو يدعو ربه ولا منه وهو ساجد
له سبحانه وتعالى ولذا قال الله تعالى : * أدعوني أستجب لكم * وقوله
(٣)
تعالى * قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم * .
(٤)

وجاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه (أقرب ما يكون العبد من
ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء) .
(٥)

-
- (١) انظر الفخر الرازي ، (١٤ / ٤٠ ، ٤١) .
 - (٢) الفخر الرازي ، (١٤ / ٤٢) .
 - (٣) سورة غافر ، آية (٦٠) .
 - (٤) سورة الفرقان ، آية (٧٧) .
 - (٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، باب ما يقال في الركوع والسجود (٤ / ٢٠٠) .

ومن لطائف المفسرين التي ذكرها الفخر الفرق بين * من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيملنهم وعن شمائلهم * حيث ذكرت الآية الجهتين الأوليين بمن، والثانيتين بعن ، لأن ملائكة الحسنات والسيئات يجلسون عن يمين الانسان وشماله فعندما يأتي الشيطان للانسان من هاتين الجهتين لايلتصق به خوفا من الملائكة وانما يأتيه منها مع نوع من التباعد.

وقوله تعالى * ولا تجد أكثرهم شكريين * يحكي حقيقة أغلب بني آدم فانهم في ذهول عن الشكر، وقد عرف ايليس ذلك لأن الأمر جاء كما قال، اما لاطلاعه على بعض أحوال الانسان وهو بالملأ الأعلى ، فعرف ذلك فحكاه .

(١)
واما بطريق الظن والتخمين ، لعلمه أن من أسوأ نتائج الشهوات التي يحركها في الانسان ترك الشكر ، إذ فعل الشهوة كفران بنعمة الله عز وجل ، ولو عقل الإنسان نعم ربه عليه واستشعر حاجته إليه على الدوام ما كفر كافر ولا عصى عاص .

وهذا القول الكريم يدل بذكره هنا على أن أعلى العبادات شأنها وأوصلها الى الله عز وجل شكره تعالى على ما تفضل به وأنعم ، واستدامة ذلك شعورا في القلب ، ونطقا باللسان ، وفعلا بالجوارح ، وفقنا الله لحسن الشكر واستدامته .

وقوله تعالى : * قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم
(٢)
لأملأن جهنم منكم أجمعين * .

وازاء توعده ايليس بترصده لآدم وبنيه ، على طريق الحق وسبيل النجاة وصرههم عن الايمان بالله ، خاطبه جل وعلا زاجرا ومحقرا بقوله * اخرج منها مذءوما مدحورا * أي من الجنة أو من السماء * مذءوما * أي محقورا ومهين الشأن مهما بذلت في افساد بني آدم فاني أحببت كيدك عمن عبدني ، ورجع الي مهما كانت اساءته ، ومن معاني " الذأم " في اللغة الاحتقار أي أنت محقر بما هددت به بني آدم لاترفع به أبدا .

أو مذءوما أي مذموما بأبلغ الذم وأشدّه . فان أي كافر أو عاص مع قبح ما أتى به لا يذم بمثل ما تذم به في الدنيا .
(٣)

(١) انظر الفخر الرازي ، (٤٣ / ٤) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٨) .

(٣) انظر تفسير الرازي (٤٣/١٤ - ٤٤) ، تفسير الألوسي (٩٦/٨) ، تفسير...

* مدحورا * أي مبعدا محقرا . والقصد من تقييد خروجه في
هذه الآية بهذين الوصفين الإمعان في مذمته ، ونفي أن يكون له شأن بما
أبداه بين يدي الحق جل وعلا مما أسلفت ذكره في الآيات السابقة . ثم توعدده^(٢)
هو ومن تبعه بأن يملأ جهنم منه ومنهم أجمعين ، قادرا على ذلك سبحانه
وتعالى لا يحول بينه وبين ما أراد من النكال بابليس ومن تبعه حائل ليتبين
الفرق بين القدرتين قدرة الله سبحانه وتعالى التي لا يثبت أمامها شيء
ولا يقاومها مقاوم ، وبين قدرة اللعين على اغواء بني آدم التي مكنه الله
تعالى منها بحكمته وإرادته ، ولبيان أن هذا الاغواء منه لمن يغويهم ، شر
عليه وعليهم ، يقودهم إلى أوحم العواقب .

وقوله تعالى * لمن تبعك منهم * أي انقاد لك واستسلم بلا رجعة
استسلام التابع المنزوع الإرادة والعقل للمتبع . واللام فيه لام القسم ،^(٣)
والتقدير : وحققنا لمن تبعك من بني آدم . وقوله تعالى * لأملأن جهنم
منكم أجمعين * جواب هذا القسم والمعنى (لأملأن جهنم منك ومنهم
قادرا على ذلك لا يمتنعني منه شيء وأنت ومن معك أعجز من أن تدفعوا ذلك
الوعيد عنكم .

سادسا : تكريم الله لآدم وزوجه باسكانهما الجنة ونهيهما عن الأكل من الشجرة :

وقوله تعالى * و يلغادم اسكن أنت وزوجك الجنة *
خطاب منه تعالى لآدم وزوجه بسكنى أشرف دار ، خلقها الله لتكريم أحبائه ،
وهذه الآية في مقابل ما حصل لابليس من التحقير والتبعيد والطرده من رحمة
الله تعالى أبدا .

والجنة التي أمر بسكناها هي جنة الخلد على ما رجحته في المبحث
الذي أفردته لذلك .^(٤)

ثم نهاء سبحانه وتعالى عن الاقتراب من الشجرة والمراد بالشجرة المنهى

(١) نفس المراجع السابقة .
(٢) من قوله * قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لأتينهم
من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولأتجد أكثرهم
شكرين * الأعراف آية (١٧٤ / ١٦)
(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤ / ٤٤) .
(٤) انظر من (ص ٥٤ إلى ٦٣) من بحثنا هذا .

عنها ، اما شجرة بعينها ، أو أنها جنس لنوع واحد ، وقد نقلت أقوال العلماء
في المراد بها في مبحث خاص .^(١)

وقد رتب الحق سبحانه وتعالى وصف آدم وحواء بالظلم اذا هما أكلا
من هذه الشجرة ، فالنهي عن الاقتراب منها في الحقيقة نهى عن الأكل منها ،
وهو أبلغ مما لو قيل (لا تأكلا من هذه الشجرة) اذ النهي عن الاقتراب
يستلزم النهي عن الأكل ، وليس العكس كذلك والدليل على أن المقصود بالنهي
عن الاقتراب النهي عن الأكل أن اخراجهما من الجنة ، وظهور سواتهما لهما ،
قد ترتبا على نفس الأكل كما سيمر بنا ، وقد اختلف المفسرون في المراد
بهذا النهي ، كما اختلفوا في المراد بالأمر في هذه الآية .

قال قتادة : ان الأمر في هذه الآية أمر تكليف ، لا أمر اباحة أي أن
سكنى آدم وحواء الجنة واباحة أكلهما رغدا حيث شاءا منها ، ونهيهما
عن الاقتراب من الشجرة ، كان تكليفا من الله لهما بذلك ، لاتنعيمهما ، ولذا
لما أكلا من الشجرة بدت لهما سواتهما ، وأهبطا من الجنة .

وقال آخرون : إن الأمر هنا للإباحة . والنهي للتنزيه لا للتحريم
ومخالفة الأمر الذي هو للإباحة بفعل ما نهى عنه لا يعد ذنبا بل غاية ما
يقال فيه إنه ترك ما هو الأولى والذين قالوا ذلك بنوا قولهم على أن المعصية
لاتصدر من الأنبياء لاقبل نبوتهم ولا بعدها . وما ورد مما يفيد ظاهر ذلك
فمأول .

وأن معنى قوله تعالى ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ أي لأنفسكما باستبدال
الذي هو أدنى بالذي هو خير . كمن طلب للوزارة فعافها واشتغل بالحياكة كما
يقول الفخر وأصحاب هذا الرأي يقولون إن معنى قوله تعالى ﴿ وعصى
آدم ربه فغوى ﴾ أي فعل غير اللائق به ، وأن الله سمى فعله معصية
باعتبار أنه غفل عن عداوة الشيطان له ، وعمما توعد به وبنيه ، وكان
اللائق بآدم وحواء عليهما السلام أن لا يغفلا عن ذلك .

(١) انظر من ص (٦٣ / ٦٤) من بحثنا هذا .

(٢) بتصريف من الفخر الرازي ، (٣ / ٦) ، وانظر تفسير الألوسي (١٠١ / ٨) .

(٣) سورة طه ، آية (١٢١) .

وجزى الله ساداتنا العلماء خيرا لما قدموه لنا من فهم طيب لمثل هذه الآيات وان كنت أميل الى أن النهي وان كان حقيقة مشتركة بين القدرين التحريم والتنزيه كما يقوله بعض الأصوليين بالتحريم بدليل (١) تسميته معصية وتسميته ظلما في الآية . وبدليل ما ترتب عليه من الهبوط إلى الأرض . وبدليل قوله تعالى ﴿ ثم اجتلبه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ . ولقد قيل : ان حسنات الأبرار سيئات المقربين فالأولى أن يسمى خلاف الأولى من المقربين معصية . وسقوط الانسان في المعصية لا ينافي الاجتباء ولا الاختيار للنبوة ، بل ان من مقاصد قصة آدم عليه السلام في القرآن ألا توصل الزلات من بنيه إلى اليأس ، وأن كثرة المعاصي لا تحول بينهم وبين رحمة الله . ماداموا مؤمنين تائبين ، ومذهب أهل الحق أنهم لا يقطعون بعذاب غير التائبين من المؤمنين ، بل يفوضون أمرهم إلى الله عز وجل ، وعندني أن آدم عليه السلام لم يكن نبيا وقت الأكل من الشجرة فلا يقدح أكله في نبوته بدليل قوله تعالى ﴿ ثم اجتلبه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ (٤) وقوله تعالى ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ (٥)

وأكل آدم وحواء من الشجرة كان أمرا واقعا لامحاله ، لأن الله خلقه ليكون خليفة في الأرض ، لا يستقر في الجنة من أول الأمر ، بدليل قوله تعالى ﴿ اني جاعل في الأرض خليفة ﴾ . وحديث موسى الذي أسلفته فيما مضى وفيه (أتلومني على أمر قدره الله علي) فحج آدم موسى فغلبه ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) شرح المحلى على جمع الجوامع (بحاشية البناني) (٣٩٢/١) ط / مصطفى الحلبي

- (٢) سورة طه ، آية (١٢٢) .
(٣) سورة البقرة ، آية (٢٧) .
(٤) سورة طه ، آية (١٢٢) .
(٥) سورة آل عمران ، آية (٣٣) .
(٦) سورة البقرة ، آية (٣٠) .
(٧) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ، (١٦ / ٢٠٠) .

والخلاصة :

ان دفاع القائلين بأن الأمر للاباحة ، وأن النهي للتنزيه دفاع مشكور لهم ، لكن تأويل النصوص وصرفها عن حقائقها أمر ليس بالسهل كما مر بنا آنفاً .

سابعاً : بداية كيد الشيطان لآدم وزوجته عليهما السلام :

وقوله تعالى ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾^(١) الوسوسة هي الكلام الخفي المكرر وهذا معناه أن الشيطان نعوذ بالله منه ظل يلح عليهما بوسوسته ، ويردها في نفوسهما حتى وصل الى مقصده ، وهذا يدل على إباء آدم وحواء عليه في أول الأمر ، وأنهما لم ينصاعا لما ألقى في نفوسهما من أول الأمر ، فذكر ابليس بالوسوسة نوع من ذمه وبيان للسبيل الذي يسلكه لاغواء بني آدم وهو في نظري شبه مدح لآدم وحواء ومما يؤكد هذا الفهم قوله تعالى ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾^(٢) .

والشيطان وصف لابليس غلب عليه حتى صار علماً له وكل عاتٍ متمرده من الجن والانس والدواب شيطان ومعناه المبعد المطرود ، من قول العسرب (شطنت داره إذا بعدت) و الشاطن : البعيد عن الحق أو المعذب المنكل به من قولهم : شاط يشيط اذا هلك واحترق ، ولا يقال : كيف وسوس ابليس لآدم وحواء وقد أخرج ابليس من الجنة ؟ لأن الله أعطاه القدرة على وصول وسوسته الى آدم وبنيه مهما بعدوا عنه قال الحسن رضي الله عنه (كان يوسوس من الأرض الى السماء وإلى الجنة بالقوة الفوقية التي جعلها الله له)^(٤) وأما ما يذكر من قصة الحية ودخول ابليس فيها ودخولها الى الجنة حاملة له (..... الخ) فكلام مدحوض من الاسرائيليات التي أقحمت في كتب التفاسير والتي لا يصح أن تروى إلا لدحضها وبيان كذبها كما أشار إلى ذلك الفخر وابن كثير وغيرهما^(٥) .

وقوله تعالى ﴿ ليبيدي لهما ما وري عنهما من سوء تهما ﴾^(٦) معناه

(١) سورة الاعراف آية (٢٠) .

(٢) سورة الاعراف ، آية (٢١) .

(٣) انظر لسان العرب ، (١٣ / ٢٣٨) .

(٤) تفسير الرازي ، (١٤ / ٤٦) .

(٥) انظر الفخر الرازي ، (١٤ / ٤٦) .

وانظر تفسير ابن كثير ، (٢ / ٢٠٦) .

(٦) سورة الاعراف ؛ آية (٢٠) .

ليظهر لهما ما أخفى عنهما من عوراتهما التي لا يصح النظر اليها وهذا الكلام يحتمل الحقيقة ويحتمل المجاز.

فعلى كونه حقيقة فالمراد به تعريف بني آدم خطورة انكشاف العورات وأن التهاون في ذلك يؤدي بهم إلى السقوط في جميع المعاصي . فانكشاف العورة سبيل لإبليس يقود منه بني آدم إلى ما يرغب ويوقعه في المهالك والشرور.

وعلى المجاز فالمعنى بالسوات هنا ، سوات النفوس وانحرافها ، وأن متابعة أهوائها لا يوصل إلى خير أبداً ، ولذا لما مالت نفسي آدم وحواء إلى الأكل من الشجرة سقطت حرمتها ووقعها فيما حذرهما الله منه .

واللام اما للعاقبة واما للغرض في قوله * ليبيدي * فعلى كونها للعاقبة فمعناها أن إبليس لم يكن قصده انكشاف عورتها وانما كان قصده وقوعهما في المعصية .

وعلى كونها للغرض فانكشاف عوراتهما مقصود له من أول الأمر لما علمه من أحوال بني آدم مما سطر في اللوح المحفوظ . كعلم الملائكة المذكور في قوله تعالى * قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء * (٢)

فقد رأى في اللوح المحفوظ أنهما إذا أكلا من الشجرة فارقهما لباسهما ووقعها في حرج عظيم بروية سواتهما ، وهذا يدل على أن انكشاف العورة أمر قبيح مركوز في الفطرة قبحه .

والمراد بالسوء هنا الفرج . واذا كان الشرع بعد ذلك قد توسع في عورة الرجل والمرأة فما ذلك الا لحمايةهما .

وأنا أميل إلى كون اللام للغرض وإلى أن المراد بقوله تعالى * ليبيدي لهما ما وري عنهما من سوءاتهما * هو انكشاف العورة حقيقة لأن الأصل حمل اللفظ على حقيقته ، ما لم تأت قرينة قوية تحمل على صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز .

(١) انظر تفسير الرازي ، (١٤ / ٤٦) .
(٢) سورة البقرة : آية (٣٠) .
(٣) سورة الأعراف : آية (٢٠) .

قال الفخر عند تفسير هذه الآية (قال ابن عباس رضي الله عنهما
(١) كأنهما قد ألبسا ثوبا يستر عورتهم . فلما عصيا زال عنهما ذلك الثوب)

(٢) * وقال ما نهكما ربكما عن هذه الشجرة * أي ما منعكما ممن
قربانها والأكل منها الا لينفي عنكما الوصول الى درجة الملائكة وأن تلبسا
طبيعتهم . * أو تكونا من الخلددين * أي الماكثين وقتا طويلا ليلحقكما
موت أو الباقيين لاتموتون .

وهذه المخاطبة من ابليس ، تحتل المشافهة وتحتل الوسوسة ، فكما
يسمى التلغظ كلاما كذلك يسمى ما يقذف في الفؤاد كلاما ، وللمفسرين في
اغراء الشيطان لهما بأن يكونا ملكين كلام طويل تركت ذكره لطوله .
(٣)

والمعنى الذي استخلصته من قرأهاتي ، أن آدم وحواء عليهما السلام
كانا متواضعين تواضعا كبيرا ، على الرغم من سجود الملائكة لآدم ، شأن
المؤمن المجتهد في الطاعة ، فانه كلما قوي اجتهاده ، زادت خشيته ، ونظر
الى من دونه على أنه أفضل منه ، ولذا ظن آدم أن الملائكة أفضل منه ، وأنهم
على حال أراضى لله من حاله ، وهو يريد غاية القرب من ربه فاذا انضم
الى ذلك نسيانه أنه سيكون من الظالمين اذا أكل من الشجرة ، سهل على
ابليس أن يسهل عليه الأكل من الشجرة بهذا الاغراء ، بالاضافة الى علم
آدم بما عليه الملائكة من قوة وعظم في الخلق ، وهودونهما بلا شك .

وأما اغراؤه بالخلود بمعنييه السابقين ، فمرده الى أن الانسان بجبلته
يخاف الموت ويهربه مهما استعد له ، ولذا سلك الشيطان في اغرائه هذين
المسلكين ، ولا غرابة في ذلك لما قدمته من تعليل .

(٤) وقوله تعالى * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * معناه أنه حلف
لهما ، واجتهد في ذلك غاية اجتهاده ، وهذا هو المعنى الذي تحمل عليه
المفاعلة ، لأنه أكد دعوته لهما بالأكل وذلك بالاجتهاد في القسم ، ولعلمهم لنم
يصدقاه في أول الامر مما حمله على القسم .

(١) تفسير الرازي ، (١٤ / ٤٦) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٢٠) .

(٣) انظر تفسير الرازي ، (١٤ / ٤٦) ،

وانظر تفسير الألوسي ، (٨ / ٩٩) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٢١) .

وقد استغل ابليس تقدمه عليهما في الخلق جاعلا ذلك ذريعة الى العلم بما لم يعلم ، اجتهادا منه في تهوين نهيهما عن الأكل من الشجرة ، وقوله تعالى ﴿ فدلّٰهُمَا بغرور ﴿١﴾ أي فأطمعهما في ما لا يكون لهما بحال اذ يمتنع أن تتحول طبيعتهما الى طبيعة الملائكة ، وقد خلقهما الله على ما هما عليه . ولو أراد الله لهما ذلك لخلقهما ملكين من أول الأمر كما يمتنع أن يكونا من الخالدين ، لأنه لاخلود لحي أراد الله خلوده الا بعد موته وبعثه .

ولقد أغرى ابليس آدم وحواء بما منعه الله منه ، حين قال لربهم ﴿ قال أنظرنيّ إلى يوم يبعثون ﴿٢﴾ أي لا تمتني كما سبق تفسيره ولعل آدم وحواء ظنا أنه - أعادنا الله منه - لم يحصل له ذلك لمعصيته ونسيا - كما قلت - أن مخالفة النهي معصية ، فاذا لم توطنه معصيته الى ما طلب ، فمعصيتهما كذلك لاتوصلهما الى ما أغراهما به .

أو معناه : جراهما على الأكل من الشجرة بحيلة وغرور سهل عليهما ذلك ومؤدى المعنيين واحد ، اذ لم يحدث لهما شيء مما أغراهما به من أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين .

وقوله تعالى ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴿٤﴾ أي استطعماها ودخل منها في جوفهما بدت لهما عوراتهما فور ذوقهما منها بلا مهله ، وظهر أول ما سيبتلين به لمخالفتها ما نهاهما الله من فعله ، وهو الأكل من الشجرة .

وقد بين الله حقيقة ذوقهما الشجرة ، في سورة طه فقال : ﴿ فأكلا منها ﴿٥﴾ وهذا يدل على أنه لم يكن مجرد ذوق باللسان ، وانما كان أكلا حقيقيا ، والفاء تدل على وقوع الأكل من الشجرة عقب اغراء اللعين لهما بذلك ولعلمهما لو تريثا لتذكرا النهي فتجنبوا الوقوع فيه .

(١) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٤) .

(٣) انظر صفحته : (٧٤) من بحثنا هذا .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .

(٥) سورة طه ، آية (١٢١) .

والانسان في أحيان كثيرة يعجل في أموره ولا يتريث في فعله فتأتي العواقب على غير ما يحب ، ويندم حيث لا ينفع الندم .

وقوله تعالى ﴿ بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ (١) ومعنى طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة : أي شرعا وأخذا يضعان عليهما من ورق الجنة ليسترا بذلك ما انكشف من عورتها (٢) .

وانك لتستشعر من قوله ﴿ يخصفان ﴾ أن ورق الجنة ما كان يطاوعهما في تحقيق مرادهما من ستر العورة وهما يحاولان تثبيته بوضع بعضه على بعض . ومنه قيل لمن يرفع النعال خفافا لأنه يحاول تثبيته ما يرفع به بالخيط حتى لاتنفلت .

(١) طفقا : قال صاحب اللسان (طفق طفقا ، لزم . وطفق يفعل كذا يطفق طفقا أي جعل يفعل وأخذ وهو من أفعال المقاربة .) لسان العرب (١٠ / ٢٢٥) .

(٢) يخصفان : قال صاحب اللسان . خصف النعل يخصفها : ظاهر بعضها على بعض وخرزها ، لسان العرب (٩ / ٧١) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .

(٤) انظر تفسير الألوسي (٨ / ١٠١) .

ثامنا : عتاب الله جل وعلا لآدم وزوجته بعد أن أكلا من الشجرة
وقبول اعتذارهما عليهما السلام:

* وناد لهما ربهما * عقب أكلهما من الشجرة ، نداء عتاب وتوبيخ
مع لطف دل عليه قوله ^(١) * ربهما * فان من سخط الله عليه السخط كله ،
لايناديه ولا يعاتبه ، بل يشقيه ويطرده ، كما فعل بابليس حيث قال لسه
* أخرج منها * فلم يناده كما نادى آدم وحواء . ولم يقل له كيف تمتنع
عن أمري وقد خلقتك ؟ بل سأله عن سبب امتناعه ليظهر له عتوه واستكباره
حتى لاينخدع بنو آدم باغوائه واذلاله وقوله تعالى * ألم أنهكما عن
تلكما الشجرة * هو تفسير لقوله تعالى * وناد لهما * أو هو مقبول
قول محذوف والاستفهام هنا انكاري وفيه معنى التقرير . إذ المعنى قد نهيتكما
عن تلكما الشجرة . فكيف وقعتما في حياض الشيطان ، وأكلتما من هذه
الشجرة الخبيثة ؟ التي أشار الله اليها بكلمة * تلك * الدالة على البعد
وعلى أن من يقربها يصبه التعب والشقاء .

وعطف على هذا العتاب قوله لهما * إن الشيطان لكما عدو * أي ظاهر
العداوة لا يكف عن الاساءة اليكما وصرفكما عن سعادتكما * وأقل لكما إن
الشيطان لكما عدو مبین * أي بالغت في اخباركما بعداوته حتى لاتغفلا
عنها ، فقد ذكرت هذه الجملة مؤكدة بـ (إن) ، كما تكرر فيها (لكما)
مرتين مع ذكر صفة العداوة ، وكل ذلك يدل على أنها علما عداوته لهما
من ربهما علما لايدع لهما عذرا في مطاوعته وقد نبههما الى عداوته صراحة
في سورة طه بقوله * إن هذا عدو لك ولزوجك * .^(٥)

ولقد اعتذرا إلى ربهما بما علمهما إياه من كلمات تصلح عذرا لهما
بين يديه ، فسبحان الهادي الى ما يستجلب به رضاه . قال تعالى * فتلقن
آدم من ربه كلمات فتاب عليه * فقالها * إنه هو التواب الرحيم *
أي الواسع التوب العظيم الرحمة ، المختص بذلك وحده ، والذي لايحرم عبده
رحمته وتوبته متى اعتذر اليه وقد طوى في آية البقرة توبة حواء فسي

- (١) انظر تفسير الألوسي (٨ / ١٠١) .
- (٢) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .
- (٣) انظر تفسير الألوسي (٨ / ١٠١) .
- (٤) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .
- (٥) سورة طه ، آية (١١٧) .
- (٦) سورة البقرة ، آية (٢٧) .

توبة آدم ؛ لأن المرأة تابعة للرجل وهي كذلك في أغلب خطابات القرآن الكريم ولقد اختلف المفسرون في الكلمات التي قالها ، ولعل أقرب آراء المفسرين إلى الصحة ما فسرته آية الأعراف فــــى قوله تعالى ﴿ قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (١) فهذه الآية صريحة في أنهما اعتذرا إلى ربهما بهذه الكلمات كما أنها تفسير لابهايم في سورة البقرة ، وقد ذكرها الله جل وعلا مرة مبهمه وأخرى محددة لتعظم في نفوسنا ولعلنا نكف عن الاعتذار بها إلى ربنا عز وجل .

ومعنى ﴿ ظلمنا أنفسنا ﴾ أي آذيناها بفعل ما نهينا عنه ، وبإخراجهما من الجنة لشؤم المعصية. قال البقاعي : (أعربت الآية عن أنهما فزعا إلى الانتصاب بالاعتراف وسميا ذنبيهما - وان كان انما هو خلاف الأولى ، لأنه بطريق النسيان كما في سورة " طه " - (ظلما) - كما هي عادة الأكابر (٢) في استعظام الصغير منهم ، ولم يجادلا كما فعل ابليس ، وفي ذلك إشارة إلى أن المبادرة إلى الاقرار بالذنب من فعال الأشراف ، لكونه من معالي الأخلاق ، وأنه لا مثيل له في اقتضاء العفو وإزالة الكدر ، وأن الجدال من فعال الأردال ومن مساويء الأخلاق وموجبات الغضب المقتضي للطرد) (٤) .

ومعنى ﴿ وان لم تغفر لنا ﴾ أي هذه الزلة ، ﴿ وترحمنا ﴾ أي تدم رحمتك علينا بفضلك . ﴿ لنكونن من الخاسرين ﴾ أي الهالكين الذين آيستهم من رحمتك كابليس وجنوده .

وقد علمتنا هذه الآية حسن الاعتذار لربنا ، والامعان في ندائهم واستغفارهم بقول الداعين ﴿ ربنا ﴾ ، وبتقديم الداعين ذكر زلاتهم وهم مستشعرون الضعف والحاجة . وفعل ذلك لدى الكرام من الخلق ، كثيرا ما يؤدي إلى عفوهم ، فكيف بأكرم الأكرمين ورب العالمين .

-
- (١) انظر للأقوال في المراد من الكلمات ، تفسير الرازي (١٩/٣) .
 - (٢) سورة الأعراف ، آية (٢٣) .
 - (٣) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾ سورة طه ، آية (١١٥) .
 - (٤) تفسير البقاعي المسمى نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للامام المفسر برهان الدين أبي الحسن ابراهيم البقاعي المتوفي سنة ٨٨٥ هـ (٢٧٥/٢ - ٣٧٦) .

كما ينبغي للداعي أن يكثر من طلب المغفرة والرحمة معاً . فان الانسان
مهما اجتهد في طاعة الله فلن يقوم بشكر نعمة واحدة ، فلا ينال ما عند
الله الا برحمة الله .

أخرج البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبي
صلى الله عليه وآله وسلم قال : سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يدخل
أحدًا الجنة عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا
إلا أن يتعمدني الله بمغفرة ورحمة (١)

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة
على العمل (١٤ / ٧٩) ، ط البايي الحلبي .

تاسعا: استقرار آدم وزوجه في الأرض بعد أن تاب الله عليه :

قال تعالى ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ . الاعراف آية ٢٤

﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ أي قال ذلك لابليلس وآدم وحواء ، وهو دال على استمرار العداوة بين الشيطان وبني آدم ، وهي من ابليس لا تهدأ ولا يهادن فيها البتة .

أما هي من بني آدم فقد خفيت تلك العداوة على أغلبهم ، فضلوا عن سبيل الله ضللا مبينا . ومن تنبه اليها منهم فهم فيها على درجات .

منهم من لا سلطان للشيطان عليه البتة ، وهم يصرعونه ويخزونه بطاعتهم وعبادتهم وهم الأنبياء ومن يليهم في الرتبة كالمديقين وخواص المؤمنين ، ومنهم من يطيعه حيناً ، ويعصيه أحيانا ، ومنهم العكس .

وقوله ﴿ ولكم في الأرض مستقر ﴾ أي استقرار وحياة ومعاش وشؤون مختلفة ، تباشرونها أنتم وابليس على ظهر هذه الأرض .

وقوله تعالى ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ أي ولكم فيها تمتع وتلذذ بما أودع الله فيها من النعم وخبأ فيها من الثروات والأقوات التي أقدركم على استخراجها والتمتع بها ، وتمتع ابليس في هذه الدنيا وسرور قلبه باغواء بني آدم وصرف بعضهم عن الحق ما استطاع الى ذلك سبيلا وكل ذلك من الاستقرار والتمتع مغيا بأجل كل واحد منها الذي ينتهي بالموت ، والدنيا كلهـما (١) مغيات بأجلها الذي ينتهي بالنفخة الأولى التي يموت عندها كل حي من المخلوفين .

ولما كان الاستقرار والتمتع في الأرض قد ينسيان العاقبة . وقد يظن بعض الظانين أن لهما شأنا في حياتهم ، لذلك نبههم تبارك وتعالى إلى انهم يحيون فيها بقدرته وارادته ولو شاء خلاف ذلك لكان .

(١) غيا : أي جعل له غاية ونهاية . فهو مغيا ، انظر المعجم الوسيط (٦٦٩/٢) .

وأنهم يموتون فيها ليكون موت السابقين عبرة للاحقين ودليلا على انقضاء هذه الحياة ، وعلى أن هناك حياة أخرى أسمى منها لمن آمن واتبع الهدى ، وأشقى لمن كذب بآياته . وقد بين الله ذلك في سورة البقرة فقال تعقيبا على أكل آدم من الشجرة ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بعا يلتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١) .

كما بين لهم خروجهم حتما الى حسابهم وملاقاة ما قدموا ، لتتحسس مماثرهم تبعا لايمانهم أو كفرهم في الدنيا ، قال تعالى ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ (٢) والضمير يعود الى الأرض بقرينة قوله تعالى ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتنع إلى حين ﴾ (٣) وقد تكرر حديث القرآن عن هذا الهبوط في سورة البقرة والأعراف وطه لأسرار كثيرة أهمها (والله أعلم) أن يعلم الانسان خطورة الوقوع في المعصية ، وأنه لا يجني من ورائها إلا التدني والضعفة . وأن لا يغفل الانسان عن عداوة الشيطان في حياته الدنيا ، فلا يطيعه بحال ، ولا يطمئن اليه البتة ويجلي هذا المعنى عتاب الله لبني آدم يوم القيامة عن غفلتهم عن تلك العداوة مقيما حجة عليهم وقاطعا أذارهم قال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (٤) .

(١) سورة البقرة ، آية (٣٨ - ٣٩) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٢٥) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٢٤) .

(٤) سورة يس ، الآيات (٦٠ - ٦١ - ٦٢) .

عاشرا : دعوة القرآن بني آدم للاعتبار بما حدث بين أبيهم وابلis أعادنا الله منه :

وبعد أن فرع القرآن من قصة آدم وابلis في سورة الأعراف والصراع الذي وقع بينهما عقب بذكر نصيحتين لبني آدم كافة :

أولهما :

منتبه تعالى بانزال اللباس المادي عليهم والریش ، وهو كل مايتزينون به زائدا عن اللباس . قال ابن كثير (والریش والریش ما يتجمل به ظاهرا) . قال تعالى ﴿ يُبْنِيۙ اۡدَمۙ قَدۙ اُنۡزَلۡنَا عَلَیۡکُمۙ لِبَاسًا یَّسۡوَارِیۙ سَوَۤءًا تَکُمۙ وَرِیۡشًا وَّلِبَاسَ التَّقۡوٰیۙ ذٰلِکَ خَیۡرٌ ذٰلِکَ مِّنۡ ۭءَاۤیٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّہُمۙ یَذَکُرُوۡنَ ﴾ .

والثانية :

تحذيرهم من فتنة الشيطان أن يفعل بهم ما فعل بأبويهم فلا يردون الى الجنة بل يكون مصيرهم الى النار وبئس القرار .

قال تعالى ﴿ يُبْنِيۙ اۡدَمۙ لَا یَفۡتِنَنَّکُمۙ الشَّیۡطٰنُ کَمَاۤ اَخۡرَجَ اَبَیۡکُمۙ مِّنۡ الْجَنَّةِ یَنۡزِعُ عَنْہُمَا لِبَاسَہُمَا لِیُرِیَہَا سَوَۤءًا تَہۡمٰٓءُ ۙ اِنَّہٗ یَرٰکُمۙ وَجۡہُہٗ مِنْ حَیۡثُ لَا تَرَوۡنَہُمۙ اِنَّا جَعَلۡنَا الشَّیۡطٰنَ اُولِیۡۤاءَ لِلَّذِیۡنَ لَا یُؤۡمِنُوۡنَ ﴾ .

فقوله ﴿ یُبْنِیۙ اۡدَمۙ قَدۙ اُنۡزَلۡنَا عَلَیۡکُمۙ لِبَاسًا ﴾ خطاب للآدميين بهذه المنة من لدن أبيهم آدم إلى أن تقوم الساعة .

وقوله ﴿ قَدۙ اُنۡزَلۡنَا عَلَیۡکُمۙ لِبَاسًا یَّوَارِیۙ سَوَۤءًا تَکُمۙ ﴾ المراد بالسوات العورات ، والمعنى : أي قد خلقنا لكم ذلك ، بأن سهلنا لكم الأسباب التي تؤدي الى تمكينكم منه ، كنزول الماء من السماء فتنتب لكم ما تصنعون به ألبستكم ، أو تطعمون به أغنامكم ، التي تغزلون من صوفها فتلبسون والانزال هنا مجازي لا حقيقي .

(١) انظر تفسيلين كثير ، (٢ / ٢٠٧) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٢٦) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٢٧) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٢٦) .

ويرى الجبائي أن انزال اللباس على بني آدم من الجنة حقيقي ، وقد ناقشه الألوسي في قوله هذا قائلاً : (لم نقف في ذلك على خبر كسته الصحة لباساً) (١) .

والمعنى أن الله قد مكنكم مما تسترون به عوراتكم ، وأنه جنبكم ما أصاب أبويكم من الاضرار الى خصف الورق على عوراتهما حين انكشفت لهما أكلا من الشجرة .

كما قال تعالى ﴿ فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاً تهماً وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ (٢) .

فأنتم يا بني آدم قد كفيتم ذلك بما خلقه الله لكم من اللباس ، فاحذروا من التفريط في كشف عوراتكم ، ولا تطاوعوا الشيطان فيما يغريكم به من الوقوع في ذلك ، حتى وان زينه لكم بالقربى والطاعة ، كما فعله مع العرب في الجاهلية ، كانوا يطوفون بالبيت عراة ، بزعم أنهم لا يصح أن يطوفوا بالبيت في ثياب عصوا الله فيها . أو أنهم كانوا يفعلون ذلك تفاقوا لا بالتعري عن الذنوب .

وكما يفعله الكثيرات من أهل عصرنا تحت دعوى الجمال ، أو التخفف أثناء القيام بالألعاب الرياضية وغير ذلك مما أوقع الكثيرات من نساء المسلمين والكثيرين من شباب المسلمين في هذا الأمر تشبها بالكافرين ، ومما سهل ذلك على نفوس الرجال نزع الحياء من القلوب ، وموت الغيرة أو ضعفها في النفوس ، وكما مر بنا ذلك سابقاً ، ان الشيطان يجتهد في ذلك ، لأنه الباب الواسع ، الذي يقود للوقوع في أخطر المعاصي .

وقوله تعالى ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ قرأ نافع وابن عامر والكسائي ﴿ ولباس التقوى ﴾ بالنصب . والمعنى يكون على هذه القراءة يابني آدم قد أنزلنا عليكم اللباس الذي يوارى عوراتكم في أحوالكم العادية ، وألهمناكم وعلمناكم وأنزلنا عليكم لباس التقوى ، الذي تتقون به ربكم ،

(١) تفسير الألوسي ، (٨ / ١٠٣) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .

(٣) انظر ص ٨٦ / ٨٧ من بحثنا هذا .

فاللباس الثاني هو اللباس الأول كقول القائل (الصدق من أنواع البر. والصدق خير لك) فالصدق الثاني هو عين الصدق الأول، وقد كرره ليبطل به تعبد الجاهلية بالتعري كما أشرت إليه آنفاً أو أن اللباس الثاني يراد به ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر وغيرهما مما يتقي به في الحروب والمعنى : قد أنزلنا عليكم اللباس الذي يقيكم بأس عدوكم عند تحاربكم فهو خصوص بعد عموم جيء به لأجل هذا المعنى.

وانزال اللباس الذي تستر به العورات في أوقات السلم وما يلبس في أوقات الحرب ، من آيات الله ودلائله على رحمته بعباده * لعلمهم يذكرون * نعمته عليهم فيشكرون ولا يكفرون .

فقوله تعالى * ذلك من آيات الله * بعد قراءة النصب جملة مستأنفة جيء بها لتأكيد هذه المنة ولا مانع من ارادة ما ذكرت سابقا من قراءة الرفع التي هي قراءة العامة .

وقد حمل بعضهم * ولباس التقوى ذلك خير * على معان مجازية متقاربة قال الفخر : (قال قتاده والسدي وابن جريح : لباس التقوى : الايمان ، وقال ابن عباس : (لباس التقوى : العمل الصالح - وقيل : هو السمات الحسن وقيل : هو العفاف والتوحيد وقال معبد : هو الحياء . وقيل : هو ما يظهر على الانسان من السكينة والاخبات والعمل الصالح وسمى الله هذه الأشياء * لباس التقوى * لأنها توارى عورات الباطن كما يوارى اللباس عورات الظاهر فهي استعارة بالكناية .

فقوله تعالى * ولباس التقوى * على قراءة الرفع مبتدأ وخبره خير و * ذلك * صغته ، أو بدل عطف بيان للباس ، والغرض من ذلك مدح لباس التقوى ، ووصفه بالخيرية ، ترغيبا فيه وحثاً عليه ، وتبيناً لمسيس الحاجة اليه .

فكما ركز في طباعنا ستر الظاهر باللباس وتجنبيه المضار بترك العري فيجب أن نعلم أن بواطننا من أمس الحاجة الى كسوتها وتجنبيها العري، بل ان عري الباطن أفدح خطراً من عري الظاهر ، فقد يباح كشف العورة لضرورة مرض أو غيره ، كما سطره الفقهاء في كتب الفقه لكن أحدا لم يبح كشف

عورات الباطن من كفر ونفاق وأخلاق رديئة . وان اضطر المؤمن إلى شيء من ذلك فهو بلسانه ، ولا حقيقة له البتة في قلبه . وقد أحسن الامام الفخر اذ قال (ان المؤمن لا تبدو عورته وان كان عاريا من الشيا ب . والفاجر لا تزال عورته مكشوفة وان كان كاسيا) ^(١) * لعلمهم يذكرون * فيعرفون عظيم النعمة فيه .

ثانيا : النصيحة الثانية :

تحذيرهم من فتنة الشيطان أن يفعل بهم ما فعل بأبويهم فلا يردون الجنة بل يكون مصيرهم إلى النار ، قال تعالى * يٰٓبنيٓ آدم٦ لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما إنه يبرئكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ^(٢) *

فقوله تعالى * يٰٓبنيٓ آدم٦ * ندا٦ من الخالق جل وعلا لبني آدم ، وقد تكرر في هذه السورة بالذات أربع مرات ، ولم يرد بهذه الصورة في غيرها من سور القرآن ، وفيه تكريم للآدميين حيث خصهم بندا٦ دون سائر مخلوقاته وقوله تعالى * لا يفتننكم * أي لا يصرفنكم الشيطان عن الدين ، كما فتن أبويكم باخراجهما من الجنة .

قال أهل التأويل : هذا خطاب للذين يطوفون عراة من أهل الجاهلية والمعنى : لا يخذعنكم ولا يفلنكم بغروره ، فيزين لكم كشف عوراتكم ، كما أخرج أبويكم من الجنة بغروره ، وأضيف الاخراج ونزع اللباس إليه لأنه السبب . ^(٣)

ولقد لفت جل وعلا انظار عباده ، بتحذيرهم من فتنة الشيطان ومخادعته التي طالما فتن بها بني آدم ، لأنه ان قدر على القاء آدم في الزلة الموجبة لاجراجه من الجنة ، فلأن يقدر على ذلك في حق بني آدم فمن باب أولى ، لذلك حذر تعالى بني آدم ، بالاحتراز من وسوسته ، لأنه كان سببا في اخراج أبويهم من الجنة ، التي كانا يتمتعان بنعيمها .

(١) نقل بتصريف من تفسير الفخر الرازي (٥٢/١٤) . (٢) الاعراف آية : (٢٧)

(٣) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٣ / ١٨٤) .

وقوله تعالى ﴿ ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاً تهما ﴾ جملة
حالية من أبويكم ، أي أخرجهما من الجنة حال كونهما نازعا عنهما لباسهما ،
وأسند النزاع إلى الشيطان لأنه كان متسببا فيه ، قال الفخر ﴿ ينزع عنهما
لباسهما ﴾ اختلف في اللباس الذي نزع منهما فقال بعضهم : انه النور ،
وبعضهم : التقى ، وبعضهم : اللباس الذي هو ثياب الجنة ، وهذا القول
أقرب لأن اطلاق اللباس يقتضيه . والمقصود من هذا تأكيد التحذير لبني آدم ،
لأنه لما بلغ تأثير وسوسة الشيطان في حق آدم مع جلالة قدره الى هذا الحد ،
فكيف يكون حال آحاد الخلق؟^(١)

ثم أكد تحذيرهم من الشيطان وجنوده بجملة تعليلية فقال جل وعلا
﴿ إنه يرواكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ أي الشيطان وجنوده يرونكم
يابني آدم وأنتم لاترونهم ، فالجملة الكريمة تعليل للنهي السابق و هو قوله
﴿ لا يفتنكم ﴾ وتأكيد للتحذير لأن العدو إذا أتى من حيث لا يرى كان أشد
وأخوف ، ولذا قال مالك بن دينار : " ان عدوا يراك ولا تراه ، لشديد
المؤنة الا على من عصمه الله " .^(٢)

وقوله ﴿ من حيث لاترونهم ﴾ أي على صورهم الحقيقية التي خلقهم
الله عليها ، وهذا من رحمته جل وعلا بعباده ، لما هو مستقر في الأذهان من
قبح صورهم ، وقد شبه الله جل وعلا ثمار شجرة الزقوم ، التي تنبت في أصل
الجحيم بـرؤوس الشياطين ، لما علم من قبح صورهم وأشكالهم ﴿ إنها شجرة
تخرج في أصل الجحيم . طلعتها كأنه رؤى و س الشياطين ﴾ وتعليل عدم رؤيتهم^(٣)
يرجع الى لطافة أجسادهم أو عدم ألوانهم قال صاحب تفسير الجمل (فأجسادهم
مثل الهواء نعلمه ونتحققه ولا نراه ، وهذا وجه عدم رؤيتنا لهم . ووجه
رؤيتهم لنا كثافة أجسادنا . ووجه رؤية بعضهم بعضا ، أن الله تعالى قوى
شعاع أبصارهم جدا حتى يرى بعضهم بعضا ، ولو جعل فينا تلك القوة لرأيناهم
ولكن لم يجعلها لنا).^(٤)

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٥٣) .

(٢) انظر كتاب تفسير سورة الأعراف للدكتور أحمد الكومي . والدكتور

محمد سيد طنطاوي ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٣) سورة الصافات ، آية (٦٤ - ٦٥) .

(٤) انظر تفسير الجمل (٢ / ١٣٣) .

أما أن يروا على غير صورهم الحقيقية ، فهذا ثابت لا خلاف فيه ، منها ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت : والله لأرفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : انسي محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة ، قال : فخليت عنه ، فأصبحت فقال : النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال : فقلت : يا رسول الله شكوا حاجة شديدة ، وعيالا فرحمته فخليت سبيله ، قال : أما انه قد كذبتك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه سيعود . فرصدته فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعني فاني محتاج وعلى عيال لا أعود فرحمته فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك قلت يا رسول الله ، شكوا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله . قال : أما انه كذبتك وسيعود . فرصدته الثالثة فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات انك تزعم لاتعود ثم تعود . قال : دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت ما هن ؟ قال اذا أويت الى فراشك فأقرأ آية الكرسي ﴿ الله لا اله إلا هو الحي القيوم ﴾ حتى تختم الآية ، فانك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح ، فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال ما هي ؟ قلت : قال لي : اذا أويت الى فراشك فأقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختتم (الله لا اله إلا هو الحي القيوم) . وقال لي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح . وكانوا أحرص شيء على الخير ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أما انه قد صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب منذ ثلاثه ليال يا أبا هريرة ؟ قال : لا قال ذاك شيطان .^(١)

فهذه القصة فيها دلالة واضحة على رؤية الشيطان بغير صورته الحقيقية وان من أعظم الاذكار التي ينتصر به عليهم ويكتفى به أذاهم تلاوة آية الكرسي .

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري كتاب الوكالة (٥ / ٣٩٢ - ٣٩٥) .

قال السيوطي : (أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء ابليس في جند من الشياطين ومعه راية في صورة رجال من بني مدلج في صورة سراقبة بن مالك بن جعشم ، فقال الشيطان : * لا غالب لكم اليوم من الناس وانني جار لكم * وأقبل ابليس وكانت يده في يد رجل من المشركين ، فلما رأى جبريل انتزع يده ، وولى مدبرا هو وشيعته ، فقال الرجل : يا سراقبه انك جار لنا ؟ فقال * اني أرى ما لا ترون * وذلك حين رأى الملائكة * اني أخاف الله والله شديد العقاب *) (١)

فالأثر السابق عن ابن عباس في دلالة على تصور ابليس على غير صورته الحقيقية وقد قرر غالب المفسرين نزول الآية في هذا الشأن . (٢)

(وقد يتشكل في صورة حيوان جمل أو حمار أو بقرة ، أو كلب أو قط خاصة الكلاب السود ، ولذا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة وعلل ذلك بأن الكلب الأسود شيطان ، يقول ابن تيمية " الكلب الأسود شيطان الكلاب " والجن تتصور بصورته كثيرا ، وكذلك بصورة القط الأسود لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره ، وفيه قوة الحرارة ") (٤)

وقد يتشكل على صورة حية من حيات البيوت . وحدث أن قتل أحد الصحابة حية من حيات البيوت فكان في ذلك هلاكه .

أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي السائب أنه دخل على أبي سعيّد الخدري في بيته . قال فوجدته يصلي . فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته فسمعت تحريكا في عراجين من ناحية البيت . فالتفت فإذا حية فوشيت لأقتلها . فأشار إليّ : أن اجلس . فجلست . فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت : نعم قال : كان فيه فتى منا حديث عهد بعـرس ،

(١) سورة الأنفال ، آية (٤٨) .

(٢) الدرر المنثور (٧٧/١٠ - ٧٨) .

(٣) قال شيخ الاسلام ابن تيمية في الفتاوى . (كما روى أنه تصور في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة هل يقتلوا الرسول أو يحبسوه أو يخرجوه ؟ كما قال تبارك وتعالى * وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين * الفتاوى لابن تيمية (١٩ / ٤٥) .

(٤) انظر الفتاوى لابن تيمية (١٩ / ٥٢) .

قال فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنصاف النهار فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يوماً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خذ عليك سلاحك فاني أخشى عليك قريظه " فأخذ الرجل سلاحه . ثم رجع فإذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها الرمح ليضعنها به . وأصابته غيرة فقالت: أكف عليك رمحك . وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني . فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش . فأهوى إليها بالرمح فانتظمتها به . ثم خرج فركزه في الدار . فاضطربت عليه . فما يدرى أيهما كان أسرع موتا الحية أم الفتى؟ قال فجئنا إلى رسول صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له . وقلنا ادع الله يحييه لنا . فقال " استغفروا لصاحبكم " ثم قال " ان بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام . فان بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه . فانما هو شيطان ^(١) ."

وقوله تعالى : * إنا جعلنا الشياطين أولياءً للذين لا يؤمنون * وفي ختام الآية الكريمة بين تبارك وتعالى أن الشياطين لا تتسلط على المؤمنين بافساد عقائدهم وجرهم إلى الكفر، لأن الله حماهم بإيمانهم، وقد تتسلط على المؤمنين بنوع من الأذى في البدن ، كما أشرت إليه في حديث مسلم فأما الكافرون ، فان الله قد جعل الشياطين لهم أولياء ، عقوبة لهم على كفرهم ، فهم لم يكفروا لاستعجاب إيمانهم على الله عز وجل بل الله هو الذي صرفهم إلى ما اختاروه ، بتسليط الشياطين عليهم فهو حكم من الله لا ينقض ، ولذا أكد (بإنا وبنون العظمه) . وبكلمة (الجعل) التي تفيد الصيرورة وتوحي بلزوم ذلك واستمراره على الكافرين ، لأن ما جعله الله لا ينقض الا بالله عز وجل . وقوله تعالى * أولياء * جمع ولي وكل من ولي أمر واحد فهو وليه ، فالشياطين يلون أمر الكافرين ويتصرفون فيهم ، في معصية الله سبحانه وتعالى ، ويتصرفون فيهم كما يتصرف الولي في موليه . إذا أدركنا هذا وتحققنا منه فلنحذر من موالة الكافرين فكثير من المسلمين يفتنون بآراء الكافرين ، ويحاولون أن يفرضوها على أممهم . وهذا كله لعدم تدبرهم للقرآن وجهلهم به ، إذ لو علموا هذا الحكم الإلهي

(١) صحيح مسلم بترتيب وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٤ / ١٧٥٦) .

(٢) انظر الصفحة السابقة .

الجهجول على الكافرين ما اتخذوهم قدوة بحال من الأحوال في أمر من أمور الدنيا فضلا عن أمور الآخرة . قال تعالى * لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم ثقلة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير * (١)

قوله تعالى * لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين * يعني أن لكم في موالة المؤمنين مندوحة عن موالة الكافرين فلا تؤثروهم عليهم . * ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء * أي ومن يوال الكفرة فليس من ولاية الله في شيء لأن موالة الولي ، وموالة عدوه متنافيان .

* إلا أن تتقوا منهم ثقلة * . إلا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه ، أي : إلا أن يكون للكافر عليك سلطان فتخافه على نفسك ومالك ، فحينئذ يجوز لك اظهار الموالة واطمان المعاداة * ويحذركم الله نفسه * أي ذاته فلا تتعرضوا لسخطه بموالة أعدائه وهذا وعيد شديد . * وإلى الله المصير * أي مصيركم إليه ، والعذاب معد لديه ، وهو وعيد آخر . (٢)

ويقول جل وعلا * يآئها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا * (٣)

أي أتريدون أن تجعلوا لله عليكم حجة بينة في تعذيبكم واستمرار غضبه عليكم لاتخاذكم الكافرين أولياء من دون المؤمنين ؟ إن ذلك لا يرومه مؤمن وفي التحذير من موالة اليهود والنصارى خاصة يقول تعالى * يآئها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء * (٤) أي لا تتخذوهم أولياء تنصرونهم وتستنصرونهم وتؤاخونهم وتعاشرونهم معاشرة المؤمنين ، ثم علل النهي بقوله : * بعضهم أولياء بعض * وكلهم أعداء المؤمنين وفيه دليل على أن الكفر ملة واحدة * ومن يتولهم منكم فإنه منهم * ، أي ممن جملتهم ، وحكمه حكمهم ، وهذا تغليظ من الله وتشديد في وجوب مجانبة المخالف في الدين * إن الله لا يهدي القوم الظالمين * لا يرشد الذين ظلموا

(١) سورة آل عمران ، آية (٢٨) .

(٢) انظر تفسير النسفي (١٥٢/١ - ١٥٣) .

(٣) سورة النساء ، آية (١٤٣) .

(٤) سورة المائدة ، آية (٥١) .

(١)
أنفسهم بموالة الكفرة.

وهذا واقعنا المؤسف في هذه الأيام لا نلتفت إلى هذه الآيات البينات وكأنها لم تنزل ونلهث وراء الكافرين نظن أن العلاقة بهم تكسب عزاً أو تحقق مجداً. وما كان ذلك ليكون، فلو وقفنا على هذه الآيات والأحاديث المطهرة، الزاجرة عن ذلك، ولكن السائد في زماننا هذا هو الافتتان بأحوال الكافرين، والتأثر بكل ما عندهم، فهنا على الله وهنا على أنفسنا، وذهب ريحنا، وضاعت هيبتنا، وأصبح الكافرون منصورين علينا، برعبنا منهم لاستقرار الوهن في قلوبنا الذي فسره النبي صلى الله عليه وسلم بحسب الدنيا وكراهية الموت، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام بتداعيهم علينا كتداعي الأكله على قمعتها أخرج أبو داود في سننه عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قمعتها".

فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟

قال: "بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن"

قال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟

قال: "حب الدنيا وكراهية الموت".^(٢)

وقد أخبر الصادق الأمين، الذي لا ينطق عن الهوى، بأن أمته في آخر الزمان ستتبع مناهج الكفار، واليهود والنصارى بخاصة لا يحدون عن هذه المناهج قييد أنمله، أخرج الشيخان في صحيحهما عن ابرسعيد الخندري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم".

قلنا: يا رسول الله! اليهود والنصارى؟

قال: فمن؟^(٣)

(١) تفسير النسفي (١ / ٢٨٧)

(٢) سنن ابن داود باب تداعى الأمم على الاسلام (٢ / ٤٢٦) .
وفى مسند احمد بلفظ (يوشك ان تداعى عليكم الامم من كل افاق كما تداعى

الاكله على قمعتها . . . الحديث) (٥ / ٢٧٨) ط . دار صادر بيروت .

(٣) صحيح البخارى مع فتح البارى كتاب الاعتصام (١٧ / ٦٣ - ٦٤) .

صحيح مسلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى تحقيق وترتيب محمد فؤاد

عبد الباقي (٤ / ٢٠٥٤)

وأختم هذا الموضوع بوعد الحق سبحانه وتعالى ، الذي لا يخلف الميعاد ،
بنصر كل من يكون في حزبه جل وعلا ، وحزب رسوله والمؤمنين * ومن يتول
الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون *
(١)

الحادي عشر: التعري ومفاسده ووسائل الشيطان اليه :

من خلال تفكري وتأملي لقصة آدم عليه السلام في هذه السورة الكريمة ودراستى لآياتها البينة لفت انتباهي تكرر لفظ (السوءه) ثلاث مرات خلال أقل من عشرة أسطر وفي غضون (٦) آيات وذلك في قوله تعالى :

- (١) * فدلَّٰهُمَا بَغْرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءة^(١) تُهما *
(٢) * يٰٰبنيّٰٓءَ اٰدمِ قد انزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا^(٢) *
(٣) * يٰٰبنيّٰٓءَ اٰدمِ لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليرييهما سوءاتهما إنه يرئكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم^(٣) *

السوأة : قال ابن كثير : السوأة في الأصل الفرج . ثم نقل إلى كل مما يستحيا منه إذا ظهر ، من قول وفعل .^(٤)

ولا داعي للخوض في شرح الآيات الكريمة فقد سبق الكلام عنها بالتفصيل والذي أريد أن أنبه اليه . وألفت نظر القارئ الكريم نحوه هو حرص شريعتنا السمحة كل الحرص على ستر العورة .

لأنه مزلق من مزلق الشيطان ، بل يعد من أخطر مزلقه ، ولا يخفى ما في شرع اللباس من تمييز للانسان عن بقية الحيوان ، قال تعالى * ذلك من آيات الله *^(٥)

* ذلك * أي انزال اللباس .

* من آيات الله * أي الذي حاز صفات الكمال الدالة على فضله ورحمته لعباده .

ولذا أمر الشرع الحنيف بوجوب ستر العورة ، وحرم التكشف في جميع الأحوال ، الا ما دعت اليه الضرورة ، التي بينها الفقهاء في كتب الفقه ، كالاتحمام عريانا مع خلاف فيه . وكشف العورة عند قضاء الحاجة ، وكمعالجة

(١) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٢٦) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٢٧) .

(٤) لسان العرب (١/٩٨) . (٥) سورة الأعراف ، آية (٢٦) .

العلة الحاصلة في العورة ، إلى آخر ما ذكره .

وكما أمر الله جل وعلا بستر العوره فقد حرم رسول الله صلى عليه وسلم النظر الى العورات ، أخرج مسلم في صحيحه في باب تحريم النظر الى العورات عن أبي سعيد الخدري عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد ، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد)^(١) ، قال النووي (فيه تحريم نظر الرجل إلى عورة الرجل والمرأة إلى عورة المرأة وهذا لا خلاف فيه . وكذلك نظر الرجل إلى عورة المرأة والمرأة إلى عورة الرجل حرام بالاجماع)

والزوجان لكل واحد منهما النظر إلى عورة صاحبه جميعها ، إلا الفرج نفسه ففيه ثلاثة أوجه لأصحابنا الشافعية: أحدها أنه مكروه لكل واحد منها النظر إلى فرج صاحبه من غير حاجة ، وليس حراما .

والثاني : أنه حرام .

والثالث : أنه حرام على الرجل مكروه للمرأة والنظر إلى باطن فرجها أشد كراهية وتحريما .^(٢)

ولأجل الاحتياط في حفظ العورة من أن ترى كان صلوات الله وسلامه عليه إذا اغتسل استتر وإذا قضي حاجته استتر عن أعين الناس وفي السنة المطهرة أحاديث كثيرة تدل على ذلك أذكر منها :

أخرج البخاري بسنده عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : ذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة تستتره فقال من هذه ؟ فقلت أنا أم هانئ .^(٣)

وأخرج مسلم في صحيحه عن عبدالله بن جعفر قال : أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم خلفه . فأسر لي حديثا لا أحدث به أحدا ممن

(١) صحيح مسلم (حديث رقم ٣٣٨) ترتيب محمد فؤاد عبدالباقي(٢٦٦/١) .
(٢) انظر شرح النووي على مسلم (٣٠/٤) باب تحريم النظر الى العورات .
(٣) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٤٠٠/١) باب من اغتسل عريانا وحده في خلوة ومن تستر فالتستر أفضل .
(٤) صحيح مسلم تحقيق وترتيب محمد فؤاد عبدالباقي(٢٦٩/١)باب ما يستتر به لقضاء الحاجة .

الناس ، وكان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته ،
هدف أو حائش نخل (١) قال ابن أسماء في حديثه : يعني حائط نخل .

ولما كان ستر العورة عند قضاء الحاجة بالثياب أمراً غير ممكن فقد
أرشدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ما يصون عوراتنا عن أعين الجن
ونحن في الخلاء اخرج الترمذي (٢) وابن ماجه (٣) عن علي رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم واللفظ لابن ماجه : «ستر ما بين الجن وعورات بني
آدم إذا دخل الكنيف أن يقول : بسم الله» .
وكما أمر الشرع بالتستر عند قضاء الحاجة ، أمر بستر العورة عند الجماع ،
لئلا يبدو الانسان في هذه الحالة بهيئة ذكور الحيوانات عندما تنزوي على
اناثها ، أخرج ابن ماجه عن عتبة بن عبد السلمي قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : إذا أتى أحدكم أهله ، فليستتر ولا يتجرد تجرد
(٤) ، (٥)
العييرين .

ولا شك ان المحافظة على التستر والحياء من سمات التقوى وفي ذلك الخير
كل الخير . وكما قال تعالى * ولباس التقوى ذلك خير * (٦)

وان الشياطين وأعدائهم من الانس الجن ، يعملون جاهدين دعاة إلى
العري والفجور ، ومما لا يختلف فيه اثنان ، أن كل داعٍ للفجور والسفور
هو في الحقيقة جندي من جنود ابليس ، لأنه تلبس وتخلق بما كان عليه ابليس
الذي وصفه الله بقوله : * ينزع عنهما لباسهما ليرييهما سوءاً تهماً * (٧)
ومما هو معلوم أن أهم المبادئ التي تدعوا إليها الصهيونية العالمية
(كما أشير الى ذلك في بروتوكولات صهيون) الدعوة إلى العري والفجور بشتى
الطرق ، من خلال وسائل الاعلام العالمية المعروفة في زماننا الحاضر ، وهذا
ليس مستغرباً فقد ورثوا هذا من أجدادهم منذ القدم ، وعرف تهاونهم فسي
عوراتهم ، مما فتح عليهم أبواب الشر ، وسهل عليهم الوقوع فيه ، وتركوا

(١) هدف أو حائش نخل (الهدف : ما ارتفع من الأرض وحائش نخل : بستان نخل .
(٢) سنن الترمذي (٥٠٣/٢ - ٥٠٤) ط المكتبة الإسلامية .
(٣) سنن ابن ماجه (١٠٩/١) ط عيس البابي الحلبي دار احياء الكتب العربية
سنة ١٣٧٧ هـ .

(٤) العيرين : تشنيه عير وهو حمار الوحش .
(٥) سنن ابن ماجه (١ / ٦١٨ - ٦١٩) .
(٦) سورة الأعراف ، آية (٢٦) . (٧) سورة الأعراف ، آية (٢٧) .

لنساءهم الحبل على الغارب ، فكن أول فتنتهم كما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ان الدنيا حلوة خضرة وان الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فان أول فتنة بني اسرائيل كانت في النساء) (١) .

ويكفي أن نعلم أن الحياء والتستر والامعان في المحافظة على العورات وحمائتها من أن ترى من أخلاق الأنبياء والمالحين . (٢)

أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم كانت بنو اسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم الى بعض . وكان موسى يغتسل وحده . فقالوا : والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر ، فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ، ففر الحجر بثوبه . فجمع موسى في أثره يقول : ثوبي يا حجر ، ثوبي يا حجر حتى نظرت بنو اسرائيل إلى موسى فقالوا : والله ما بموسى من بأس ، وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربا فقال أبو هريرة . والله انه لندب بالحجر ستة أو سبعة ، ضربا بالحجر . (٣) (٤) (٥) (٦) (٧)

-
- (١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الرقاق (٥٥/١٧) .
 - (٢) سبق أن أشرت في حديثي عن (التعري ومفاسده) عن تحفظه وحرصه صلى الله عليه وسلم على ستر عورته وذكرت حديث أم هانئ - وحديث عبد الله بن جعفر فلا داعي لاعادته (انظر ص ١٠٨ من بحثنا هذا .
 - (٣) هذا هو الشاهد في الحديث .
 - (٤) آدر : قال الجوهرى الأدره نفخة في الخصية ، انظر فتح الباري (٤٠١/١) .
 - (٥) جمع موسى : أي جرى مسرعا .
 - (٦) ندب : أي أشر .
 - (٧) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (باب من اغتسل عريانا وحده ومن تستر فالتستر أفضل) (٤٠٠/١) .

الثاني عشر : في التحذير من فتن ابليس ومكائده :

لقد ميز الله جل وعلا الانسان عن سائر مخلوقاته بالعقل وهو بمثابة المؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب ، والى جانب ذلك ركب فيه الهوى والشهوة ، ليجتلب بذلك ما ينفعه ووضعه فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيـه .
وبعث جل وعلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين دعاء وهداة الى الحق فمن تبعهم فاز وسعد ، وخلق الشيطان محرّضا على الباطل ، ومحبا فيه ، فمن سلك سبيله ضل ضلّالا بعيدا ، والعياذ بالله لذلك حذرنا منه جل وعلا في أكثر من موضع في كتابه الكريم .

قال تعالى ﴿ ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾^(١) .

وقال تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾^(٢) .

ولذلك فقد اقتضى البحث ، أن أذكر بعض الوسائل الشيطانية التي هي من طباعه والتي يسعى ابليس وأعوانه جاهدين في اضلال بني آدم بها مستنبطاً تلك الوسائل من قصة آدم في القرآن عامة وفي سورة الأعراف موضوع بحثنا خاصة .

أ : الكبر والاغترار والاعجاب بالنفس :

اعلم أن الكبر أول معصية عمي الله تعالى بها قال تعالى ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾^(٣) .

وقال في سورة البقرة ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾^(٤) .

-
- (١) سورة البقرة ، آية (١٦٨) ، (١٦٩) .
 - (٢) سورة فاطر ، آية (٦) .
 - (٣) سورة الأعراف ، آية (١٢) .
 - (٤) سورة البقرة ، آية (٣٤) .

والكبر والعجب إذا ان مهلكان ، والمتكبر والمعجب سقيم مريض وهو
عند الله ممقوت بغيض .

والمتكبر والمعجب : أن يرى الشخص نفسه أكبر من غيره وان كان
أكبر في الواقع ، والاستكبار طلب ذلك بالتشبع .^(١)

وأعظم ذلك أن يتكبر على ربه ، بأن يمتنع من قبول الحق والادعان له
بالتوحيد والطاعة ، قال تعالى ﴿ انه لا يحب المتكبرين ﴾^(٢) .
وقال تعالى ﴿ ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾^(٣)
أي أدلاء .^(٤)

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما
قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (العز ازاره والكبرياء رداؤه
فمن يينازعني عذبتة) .^(٥)

قال الامام النووي في شرحه (هكذا هو في جميع النسخ فالضمير في
ازاره وردائه يعود الى الله تعالى للعلم به ، وفيه محذوف تقديره قال
الله تعالى ومعنى قوله (ومن يينازعني ذلك أعذبه) معنى يينازعني يتخلق
بذلك فيصير في معنى المشارك . وهذا وعيد كبير في الكبر مصرح بتحريمه
وأما تسميته إزاراً ورداءً ، فمجاز واستعارة حسنة ، كما تقول العرب فلان
شعاره الزهد و دشاره التقوى ، لا يريدون الثوب الذي هو شعار أو دشار بل
معناه صفته .

ومعنى الاستعارة هنا : أن الازار والرداء يلصقان بالانسان ويلزمانه
وهما جمال له فحرب ذلك مثلا لكون العز والكبرياء بالله تعالى أحق له وألزم
واقترانهما جلاله .^(٦)

والكبر والعجب من أسوأ الأخلاق وأرداها ، بدليل أن ابليس لما اغتر
بنفسه بعدم السجود لآدم ، لأنه في زعمه خير منه ، وقع في الهلاك وسخط الله

-
- (١) الألوسي ، (٢٣١/١) .
 - (٢) سورة النحل ، آية (٢٣) .
 - (٣) سورة غافر ، آية (٦٠) .
 - (٤) المفردات للراغب الأصفهاني ، ص ١٦٦ .
 - (٥) صحيح مسلم بشرح النووي (١٧٣/١٦) .
 - (٦) انظر شرح النووي على مسلم (١٦ / ١٧٣ - ١٧٤) .

عليه وكان سبب شقاوته واهباطه الى الأرض ، قال تعالى ﴿ فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصّٰغرين ﴾^(١) ، والشيطان حريص على ايقاع بني آدم فيما وقع فيه ، ولذلك جاءت العقوبة على التخلق بهذه الصفة الذميمة بحرمان صاحبها من دخول الجنة ، أخرج مسلم في صحيحه عن عبدالله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" ، قال رجل : ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، ونعله حسنة ، قال : "ان الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس"^(٢) وأخرج أيضا عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا يدخل النار أحد في قلبه حبة خردل من ايمان . ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء"^(٣)

والغرور : أن تغتر بسلامة فعلك وقولك.

والاغترار : اعجاب المغتر بعمله وقوله واعتقاده بأنه لا عمل أفضل من عمله . ولا قول أعلى من قوله و لا اعتقاد أصح من اعتقاده ، وعلى المؤمن العاقل أن يتجنب الغرور والاغترار معا فانهما داء مهلك ، ومسلك وعر من مسالك الشيطان ، يقود به الانسان إلى المهالك والشور ، عصمنا الله منه إنه سميع مجيب .

(١) سورة الأعراف ، آية (١٣) .

(٢) ، (٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الايمان باب تحريم الكبر (١٨٩/٢) .

(ب) : الحسد :

الحسد : هو تمنى زوال النعمة عن صاحبها سواء كانت النعمة دينيا أو دنيا وهو يؤدي الى محذور عظيم . وهو من الكبائر لأنه منازعة فـي الربوبية ، وعدم رضا بما قسمه الله لعبده من خرائنه بعلمه وحكمته .^(١)

قال بعض السلف : أول خطيئة كانت هي الحسد . حسد ابليس آدم عليه السلام على رتبته ، فأبى أن يسجد له فحمله الحسد على المعصية ، وهو الذي حمل ابن آدم على قتل أخيه حين حسده على قبول قربانه ، قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين . لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك اني أخاف الله رب العلمين ﴾^(٢) وهو من أوصاف اليهود والنصارى ، فالواجب على كل مسلم أن يتجنبه لئلا يكون موصوفا بأوصاف اليهود والنصارى ، أشار إلى ذلك تبارك وتعالى بقوله ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ﴾^(٣) .

وقال جل وعلا ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾^(٤) وابليس حريص على ايقاع الناس في الحسد . لأنه كان سببا من أسباب خروجه وطرده من الجنة ، وهو أخذ سبل الشيطان التي يوقع فيها العداوة بين الناس ، قال تعالى : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر ﴾^(٥) حسدا على ما تفضل الله به على آدم من كونه جعله مسجودا له من الملائكة .

(٦) وقد أمرنا بالاستعاذة من أهله فقال تعالى ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ ويستفاد من الآية أن الحسد ليس مقصورا على وقوعه من اثنين فصاعدا ، بل

(١) انظر سراج القلوب وعلاج الذنوب للشيخ ابن علي زين الدين على المغيرة

على هامش قوت القلوب لابن طالب المكي (١/١٦٦) .

(٢) سورة المائدة ، آية (٢٧ - ٢٨) .

(٣) سورة البقرة ، آية (١٠٩) .

(٤) سورة النساء ، آية (٨٩) .

(٥) سورة البقرة ، آية (٣٤) .

(٦) سورة الفلق ، آية (٥) .

(١) الحسد مذموم ومنهي عنه ولو وقع من جانب واحد.

وقد حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (إياكم والظن
فان الظن أكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا
ولا تباغضوا وكونوا عباد الله اخوانا)
(٢) (٣) (٤)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال
(إياكم والحسد . فان الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب)
أو قال (العشب) .
(٥)

وعن الزبير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
(دب اليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء هي الحالقة ، لا أقول تحلق
الشعر ولكن تحلق الدين) .
(٦)

وأخرج النسائي عن أبي هريرة في حديث طويل قال فيه - أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال (ولا يجتمعان في قلب عبد الايمان والحسد)
(٧)

-
- (١) انظر فتح الباري ، شرح صحيح البخاري (٩١/١٣) .
 - (٢) أي لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوها .
 - (٣) أي لا تتهاجروا فيهجر أحدكم أخاه مأخوذ من تولية الرجل الآخر دبره
إذا أعرض عنه حين رآه .
 - (٤) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٣ / ٩٢ - ٩٣ - ٩٤) .
 - (٥) سنن أبي داود (٥٧٤/٢) .
 - (٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل (١ / ١٦٧) .
 - (٧) سنن النسائي ، كتاب الجهاد ، باب فضل من عمل في سبيل الله
على قدمه (٦ / ١٣) .

ج : الكذب والخداع :

الكذب : هو الاخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه . ويأثم المخبر إذا علم بذلك . ثم إن علم الضرر فيه كان من الكبائر.

قال تعالى ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ (١)

(٢) الوسوسة كما أسلفت سابقا . الكلام الخفي المكرر ويفهم من هذا أن ابليس أعادنا الله منه ظل يلح عليهما بوسوسته حتى وصل الى مقصده ، ولجأ إلى خديعتهم بأن قال لهما : ما نهكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة الا كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المخلدين في الجنة .

﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ (٣) أي حلف بالله كذبا على ذلك حتى خدعتهما ، وقد يخدع المؤمن بالله . قال ابن عباس : غرهما باليمين وكان آدم يظن أنه لا يحلف أحد بالله كاذبا ، فغرهما بوسوسته وقسمه لهما ، قال تعالى في معرض الذم به ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بغيائه إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (٥) وهو مسلك خبيث وسبيل من سبيل الشيطان ، يضل به عباده ، وقد ترجم البخاري له بابا (باب قول الله تعالى ﴿ يتأبها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (٦) وما ينهى عن الكذب واستفتح الباب بالحديث الذي رواه عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقا ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا) (٧)

(١) سورة الأعراف ، آية (٢٠) .

(٢) انظر ص (٨٦) من بحثنا هذا .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٢١) .

(٤) تفسير القرطبي (٧ / ١٨٠) .

(٥) سورة الأنعام ، آية (٢١) .

(٦) سورة التوبة ، آية (١١٩) .

(٧) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٣ : ١٢١ - ١٢٢) .

والكذب خصلة من خصال المنافقين الذين كشف لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقتهم وبين صفاتهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان)^(١)

ولقد استغل ابليس هذا السلاح الخطير في تكذيب الأمم لرسولها وأنبيائها قال تعالى عن قوم هود وتكذيبهم لرسولهم : * إن هو إلا رجل افتريء على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين *^(٢)

وقال تعالى * ثم أرسلنا رسلاً تنبأوا بما جاءهم من أممهم رسولهم كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديثاً فبعداً لقوم لا يؤمنون *^(٣)

وسيمر بك خلال دراستنا للصراع بين الحق والباطن في قصص هذه السورة ، ما يجلي لك خطورة الكذب . ويبين أنه من أفك الأسلحة التي يستعملها الشيطان في اضلال بني آدم وتجهيلهم بالله عز وجل ، وحملهم على الكفر والباطل ، مع ظهور بطلانها وصرفهم عن الحق والايمان مع وضوح أدلتها .

(١) صحيح البخاري ، وعلى هامشه فتح الباري (١٣ / ١٢٢) .
(٢) سورة المؤمنون ، آية (٢٨) .
(٣) سورة المؤمنون ، آية (٤٤) .

(د) : الإغراء بالشهوات :

وهو من أنجح الوسائل وأضمنها لاغواء بني آدم . وقد نجح فعلا في اغواء آدم وزوجه في تزيين الأكل من الشجرة ، قال تعالى * فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوء^١ تهما وقال مانهكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * (١)

ف قوله * إلا أن تكونا ملكين * :

تحبيب ابليس الى آدم وحواء الأكل من الشجرة التي نهيا عن الأكل منها ، مغويا اياهما بأن الأكل منها ينقلهما من صفة البشرية الى الملائكية ، وكان آدم وحواء عليهما السلام بتواضعهما يعتقدان أن الملائكة أفضل منهم ، لاشتغالهم الدائم بالتسبيح والتحميد وعدم الحاجة الى الطعام والشراب اللذين يلهيانهما عن طاعة الله عز وجل . ونسي آدم أنه مسجود الملائكة فهو دليل على فضلهم على الملائكة . لكنهما أتيا من قبيل النسيان ، قال تعالى * ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما * (٢)

ف قوله * ولقد عهدنا إلى آدم * أي أوحينا اليه أن لا يأكل من الشجرة والمعنى وأقسم قسما لقد أمرنا أباهم آدم ، ووصيناه أن لا يقرب من الشجرة وقوله * من قبل * أي من قبل وجودهم ، فخالف إلى ما نهى عنه . (٣)

* فنسي * العهد أي النهي .

أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال (انما سمي الانسان لأنه عهد اليه فني) . (٤)

* ولم نجد له عزما * أي قصدا إلى الخلاف أو لم يكن آدم من أولى العزم (٥) ، وقوله * أو تكونا من الخالدين * أي أن يصيرا من الخالدين قال تعالى * فوسوس اليه الشيطان قال يآغا دم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * أي هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها لا يصيبك (٦)

(١) سورة الأعراف ، آية (٢٠) .

(٢) سورة طه ، آية (١١٥) .

(٣) انظر تفسير النسفي (٦٧/٣) .

(٤) انظر تفسير ابن كثير (١٦٧/٣) .

(٥) تفسير النسفي (٦٧/٣) .

(٦) سورة طه ، آية (١٢٠) .

الفناء أبدا وتوتى ملكا لايبلى ولا يفنى؟

وقد علم ابليس أن الشهوات تخرج من الجنة ، وتورد فاعلها النار،وقد حرم الله عليه الجنة بايثاره كبره ، واعتقاده أفضليته على آدم ، وجعل مصيره النار خالدا فيها أبدا ، فهو يسعى لاستنزال بني آدم عن النعمة بما استنزله به نفسه عنها ، ومعروف أن طريق الجنة محفوف بما تكره النفوس عمله الا على الخاشعين ، وطريق النار محفوف بما تحب النفوس عمله — من المحرمات والشهوات ، الا من حماه الله من المؤمنين .

أخرج الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبريل إلى الجنة فقال أنظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فقال : فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، قال فرجع إليه قال : فوعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكارة فقال : ارجع إليها . فأنظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها ، فاذا هي قد حفت بالمكارة ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد . قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . فإذا هي يركب بعضها بعضا . فرجع إليه . فقال : وعزتك لايسمع بها أحد فيدخلها فأمر بها فحفت بالشهوات فقال ارجع إليها . فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها) حديث (حسن صحيح) .^(١)

ولا شك أن ابليس هدفه في هذه الحياة هو اضلال بني آدم ، وقد أقسم بذلك بين يدي خالقه * قال فبعزتكم لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال فالحقُّ والحقُّ أقولُ . لاملأن جهنمَ منك و ممن تبعك منهم أجمعين * وقال^(٢) تعالى في سورة الحجر * قال رب بما آغويتني لأزينن لهم فـي الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين *^(٣)

فقوله لأزينن لهم أي المحرمات وأجعلها في عينهم من المشتبهات المرغوبات وهذا ما أشار اليه الحديث السابق بأن النار حفت بالشهوات .

(١) سنن الترمذي ، (٤ / ٦٩٣ - ٦٩٤) .

(٢) سورة (ص) ، آية (٨٢ - ٨٥) .

(٣) سورة الحجر ، آية (٣٩ - ٤٠) .

(هـ) : الغرور :

الغرور : (هو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ويميل اليه الطبع
(١)
عن شبهة وخدعه من الشيطان)

(٢)
قال تعالى ﴿ فدلّٰهما بغيرور ﴾

قال صاحب الفتوحات الإلهية (التدلّية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى
الأسفل. فدلاهما بغيرور : يعني خدعهما بغيرور يقال مازال فلان يدلي فلانا بغيرور
يعني مازال يخدعه ويكلمه بزخرف من القول الباطل

والغرور : إظهار النصح مع إبطان الغش .

ومعنى الآية : أن ابليس لعنه الله غر آدم باليمين الكاذبة ، وكان آدم
عليه الصلاة والسلام يظن أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا ، وابلis أول من
حلف بالله كاذبا ، فلما حلف ابليس ظن آدم أنه صادق فاغتر به (٣)
٥٠١٠ هـ .

وقال تعالى في بيان مسأل المغترين وما حل بهم من الحرمان والشقاء
﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما
رزقكم الله قالوا إنّ الله حرّمها على الكافرين . الذين اتخذوا
دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحيوة الدنيا فاليوم ننسّٰهم كما نسّٰوا
لقاء يومهم هذا وما كانوا بعائتنا يجحدون ﴾ (٤)

فابليس وأعوانه يسلكون هذا المسلك الدنيء وهو ايقاع الناس في الغرور
كما أوقع أبويهم آدم وحواء من قبل حتى يوملهم إلى الهلاك ، قال تعالى
﴿ وما يعدم الشيطان إلا غرورا ﴾ (٥) أعادنا الله منه إنه سميع مجيب .

-
- (١) إحياء علوم الدين لحجة الإسلام الامام الغزالي (٣ / ٣٦٨) .
 - (٢) سورة الأعراف ، آية (٢٢) .
 - (٣) تفسير الجمل ، (٢ / ١٣٠) .
 - (٤) سورة الأعراف ، آية (٥٠ - ٥١) .
 - (٥) سورة النساء ، آية (١٢٠) .

(و) : الجرأة على المعصية :

ومن مكائد الشيطان التي يكيد بها بني آدم ، حثهم وتجريئهم على ارتكاب المعاصي ، وتزيينها في أعينهم ، وتهوين أمر ارتكابها ، قال تعالى ﴿... ما نهكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾ (١) . وكان إبليس يعلم تماما عاقبة عصيان أمر الله ومخالفة أوامره ، لأنه وقع في ذلك ، عند مخالفته أمر الله وامتناعه عن السجود لآدم قال تعالى ﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ (٢) . فكان مآله الطرد واخراجه من الجنة ، قال تعالى ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾ (٣) وأراد أن يوقع آدم وزوجه في مثل ما وقع فيه من المعصية . وقد أخذ على نفسه العهد باغواء بني آدم ولاشك أن تجريئه على المعاصي سبيله الى اغوائهم و صرفهم عن صراط الله المستقيم .

قال تعالى ﴿ قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولآتجد أكثرهم شكركين﴾ (٤) .

وهذا المسلك الذي يسلكه الشيطان هو العنصر الأساسي في صراعه لبني آدم ، وذلك بحثهم على ارتكاب المخالفات المنهي عنها التي جاءت على لسان الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وله في وصوله إلى مبتغاه العديد من الوسائل .

أولا : إضعاف الخشية في القلوب .

ثانيا : تغليب الرجاء على الخوف . والتعلق بآيات الرحمة ونسيان آيات العذاب .

ثالثا : الحصول عن طريق المعصية على ما تحبه النفوس وتستريح إليه .
رابعا : تثقيبهم عن الطاعات .
(٥)

(١) سورة الأعراف ، آية (٢٠) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٢) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٣) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (١٧) .

(٥) وهذه الوسائل تحتاج إلى البسط تركته تجنباً للإطالة .

والفرق بين معصية آدم وبين معصية بنيه ، أن آدم عليه السلام عندما استجاب لتغريير الشيطان لم يدر بخلده أنه سيعصي الله تعالى لأن الشيطان قد أغواه بالأكل من الشجرة معللا له ذلك بما ذكرته أكثر من مرة ، وكان آدم يظن أنه لأحديقسم بالله كاذبا ، أما بنوه فقد كشف الله لهم بالشرائع السماوية وبالرسل عامة عليهم الصلاة والسلام أنه لا خير في المعصية البتة ، كما أنه تعالى جعل مصير العصاة الى النار وذكر ذلك كثيرا في كتبه المنزله ، فكان المتبادر إلى الذهن أن يعي بنو آدم هذا الدرس ، وأن يعلموا ما جرته المعصية على أبويهم وعليهم من هبوطهم إلى دار التكليف وتعرضهم لأسوأ المصير إن هم عصوا الله عز وجل ، ولكن قل من يعي هذا الدرس من الآدميين؟، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم.

(ز) : طول الأمل :

طول الأمل : وهو الحرص على بلوغ ما تشتهيهِ النفس وتميل إليه مهما كان نعتَه .

قال تعالى ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وري عنهما من سوء اتهما وقال ما نهلكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾^(١)

ولقد استطاع ابليس أن يزين لآدم عليه السلام الأكل من الشجرة ، تحت تأثير غريزتين ، تشتهيهُما النفس وتميل إليهما وهما متأصلتان في فطرة الانسان :

الغريزة الأولى :

غريزة (الملك أو التملك) ولقد استطاع ابليس أن يحرك تلك الغريزة وينبئها في نفس آدم لأول مره وهو يقول له ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾^(٢) .

وقد أكل آدم عليه السلام من الشجرة ، استجابة لداعي تلك القسوة الغريزية .

الغريزة الثانية :

غريزة (حب الخلود) وهي التي أشار إليها جل وعلا في قوله ﴿ ما نهلكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾^(٣) وقوله تعالى ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد ﴾^(٤) .

فابليس استغل هاتين الغريزتين حتى يصل إلى اغوائه لآدم وبنيه ، مستغلا في نفس الوقت دافع طول الأمل ، وهو مسلك طالما يستخدمه الشيطان ويلعب به بقلوب بني آدم حتى يوقعهم فيما لا تحمد عقباه .

-
- (١) سورة الأعراف ، آية (٢٠) .
 - (٢) سورة طه ، آية (١٢٠) .
 - (٣) سورة الأعراف ، آية (٢٠) .
 - (٤) سورة طه ، آية (١٢٠) .

ولهذه الوسيلة مسالك يسلكها الشيطان :

- ١ - نسيان الموت .
- ٢ - تزيين الشهوات وتحبيبها الى النفس .
- ٣ - اتخاذ الدنيا وسيلة لا غاية (١) .

والآمال ليست كلها في جانب الشر . فان هناك الآمال الطيبة التي يدعو ويحض عليها الاسلام ، والتي لو اختمرت في قلب الانسان لكانت سببا لرفعته . وهذه الآمال لا توجد إلا في قلة من قلوب الخلق .

(١) تركت الشرح خوفا الاطالة .

(ح) : الإيمان والكفر :

(١) الإيمان : لغة التصديق ، وشرعا : تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه ، وهو من أجل نعم الله على الإنسانية ، وسلبه من أعظم المصائب ، بل ليس تفوقها بليّة .

الكفر : وهو ضد الإيمان ، قال تعالى * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * (٢)

وسورة الأعراف تصور لنا مدى ما وصل إليه إبليس من الكفر ، قال تعالى * ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * فامتناعه عن السجود كفر بالله ، واعتراضه بقوله : * أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * كفر وجحود ، وتحديه أيضا بقوله * قال فيما أغويتني لأعدن لهم صراطك المستقيم * كفر صريح لأن اغواء الناس وصددهم عن الصراط المستقيم وتزيين الفواحش في أعينهم هو عين الكفر . والكفر جحود للخالق المنعم الرازق ، قال تعالى * ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن الله غني حميد * (٣)

ومن شأنه الغريب أنه يدعو الانسان للكفر ويحثه عليه ثم يتبرأ منه قال تعالى * كمثل الشيطان إذ قال للإنس أكفر فلما كفر قال إني بريء منكم إني أخاف الله رب العالمين * (٤)

والكفر عقابه الخلود في النار * فكان عقبتهما أنهما في النار خلدين فيها وذلك جزاء الظالمين * (٥) وقال تعالى * إن الذين كذبوا بعثلتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين * (٦)

- (١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١ / ٥١) .
- (٢) سورة البقرة ، آية (٣٤) .
- (٣) سورة لقمان ، آية (١٢) .
- (٤) سورة الحشر ، آية (١٦) .
- (٥) سورة الحشر ، آية (١٧) .
- (٦) سورة الأعراف ، آية (٤٠) .

ولقد استغل ابليس هذا الجانب الاعتقادي كسلاح هدد به الكثير من الأمم السابقة واللاحقة في تكذيبهم لأنبيائهم وكفرهم بما جاءوا به من عند الله

والإنسان ما دام في هذه الحياة فهو في صراع مع الشيطان الذي يزيّن له الكفر بثتى المغريات ، وقد اجتهد ابليس في ايقاع أكثر بني آدم في الكفر كما هو مشاهد ، وحكاه الله سبحانه وتعالى في أكثر من آية حيث يقول ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ (١) .

ويخاطب جل وعلا حبيبه صلى الله عليه وسلم مسلماً ومخففاً عن قلبه شدة الهم والغم ، لاصرار أغلب الناس على الكفر ، مع ظهور بطلانه ، واعراضهم عن الايمان مع لوائح أدلته ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (٢) . وللشيطان في ايقاع الناس في الكفر وسائل تختلف باختلاف الكافرين ، فوسائله مع اليهود والنصارى والمنافقين ، غير وسائله مع المجوس والصابئة والمشركين وما انبثق عن أولادهم من نحل وملل بعضها يحتفظ باسمه القديم والبعض الآخر يتسمى بأسماء حديثة ، ليعمى على الناس أمره كالشيوعية وما ينجرا إليها ، ولست بصدد تفصيل ذلك كله .

لأن الكلام عنه موضوع برأسه ، وانما أردت أن أبين أن أهم وسيلة للصراع بين الحق والباطل يسلكها الشيطان تطبيقاً لما توعد به بنى آدم ، هو قوله بين يدي ربه ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم ففى الأرض ولاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (٣) .

بل إنه لعنه الله ليحاول سلوك هذا المسلك مع المؤمن في أحرج ظروفه ، وأحلك أوقاته ، في ساعة الموت التي يرى فيها الانسان أيا كان مؤمناً أو كافراً - ما لا عهد له به .

(١) سورة الأنعام ، آية (١١٦) .

(٢) سورة يوسف (عليه السلام) آية (١٠٣) .

(٣) سورة الحجر ، آية (٣٩ - ٤٠) .

الثالث عشر : (براءة آدم عليه السلام من الشرك) :

* هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما
تغشاه حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلماً أثقلت دعوا الله ربهما لئن
آتيتنا صلحاً لنكونن من الشكرين فلماً آتاهما صلحاً جعل
له شركاء فيمَا آتاهما فتعالى الله عما يشركون^(١)

وفي ختام السورة الكريمة عاودت الآيات الحديث عن آدم عليه السلام وهو
في نفس الأمر ، تقريع لأهل الشرك لجزهم عن شركهم ، و تنزيه لآدم عليه
السلام مما نسب إليه .

فقوله تعالى * هو الذي خلقكم من نفس واحدة * هي نفس آدم عليه
السلام وقوله * وجعل منها زوجها * أي حواء^(٢) خلقها الله من ضلع آدم
الأيسر من غير أذى * ليسكن إليها * أي ليظمن ويميل لأن الجنس الى الجنس
أميل خصوصاً اذا كان بعضاً منه . كما يسكن الانسان الى ولده ويحبه محبة
نفسه لكونه بضعة منه . وذكر * ليسكن * بعد ما أنث في قوله
* وجعل منها زوجها * ذهاباً الى معني النفس ليبين أن المراد بها آدم
* فلما تغشاه * أي جامعها * حملت حملاً خفيفاً * خف عليها حمله ولم
تلق منه ما يلقي الحبالى من حملهن من الكرب والأذى ، ولم تستثقله كما
يستثقلونه * فمرت به * أي استمرت به فقامت وقعدت ، ولم يعجزها
حملها عن قضاء أغراضها .

* فلماً أثقلت * أي أثقلها حملها بأن كبر الجنين في بطنها ،
ووجدت له حركة وحياة ، فحينئذ خشي آدم وحواء أن يولد غير سوي بنقص
بعض أعضائه ، أو أن يولد على شكل غير الآدمي من الحيوانات ، ولذا
توجهتا الى ربهما داعين قائلين ما قصه القرآن :

* دعوا الله ربهما * دعا آدم وحواء ربهما ، ومالك أمرهما
الذي هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه ، فقالا :
* لئن آتيتنا صلحاً * أي لئن وهبت لنا ولداً سويًا قد صلح بدنه

(١) سورة الأعراف ، آية (١٨٩ - ١٩٠) .

(٢) قد أفردت الكلام عن حواء عليها السلام بمبحث خاص ضمن البحوث التي قدمتها
انظر ص ٤٠ .

أو ولدا ذكرا لأن الذكورة من الصلاح.

* لنكون من الشكرين * لك ، والضمير في آتيتنا ولنكونن لهما
ولكل من يتناسل من ذريتهما .

* فلما آتاهما صلحا * أعطاهما ما طلباه من الولد المالح
السوي * جعلاه شركاء * أي آدم وحواء وأولادهما من بعدهما * فيما
آتاهما * أي فيما آتى أولادهما ، * فتعلى الله عما يشركون *
أي فتنزه الله وتقديس وتعالى عما أشركه أولادهما به بعدهما .

ومعنى اشراكهم فيما آتاهما الله : تسميتهم أولادهما بعبد العزى
(١)
وعبد مناف وعبد شمس ، ونحو ذلك مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم .
إن الناظر في ظاهر قوله تعالى * فلما آتاهما صلحا جعلاه شركاء
فيما آتاهما * يظن أن ذلك من فعل آدم وحواء وأنهما خالفا ما وعدا به
في قوله تعالى على لسانهما * لئن آتيتنا صلحا لنكونن من الشكرين *
وقد مال إلى هذا الظاهر كثير من السلف لأنه مروى عن ابن عباس رضي
الله عنهما ، وقد روى مرة مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ومرة
موقوفاً على ابن عباس وسمرة بن جندب كما (سيأتي) وهذه الآية مشكلة
عند المفسرين ، جالت فيها عقولهم وأقلامهم وقوى فيها دفاعهم لأن نسبة
الشرك لآدم وحواء أمر مستبعد . ولذا ضعف بعض المفسرين كابن كثير هذا
الرأي ولم يمل إليه ، وقدر مضافاً حل به هذا الاشكال .

فقوله تعالى * فلما آتاهما صلحا * أي آتى أولادهما .
وقوله تعالى * جعلاه شركاء * أي جعل أولادهما لله شركاء فيما
آتاهما . وان ما ذهب إليه هو تأويل الامام الحسن البصري رحمه الله وهو
أحد رواه الحديث الذي وعدت بذكره .

(٢)
وإذا قال الراوي بخلاف روايته فالعبرة بقوله لا بروايته وتكون
روايته هذه من باب العلم الذي يريد أن يلقي عن نفسه عهده أي لأنه تلقاه
وان لم يقتنع به .

(١) باختصار وبتصرف من تفسير النسفي (٢ / ٨٩ - ٩٠) .
(٢) انظر تيسير التحرير على كتاب التحرير لأمير بادشاه (٣ / ٧١ - ٧٤) ،
ارشاد القحول للشوكاني ، ص ٥٦ - ٥٧ .

وقال ابن كثير ما ملخصه : لعل هذه المرويات التي تجعل الكلام على ظاهره ، من مرويات أهل الكتاب الكاذبة التي لا يصح الأخذ بها أو أنها من النوع المتوقف فيه ، الذي لا يقطع بصدقه ولا بكذبه .^(١) غير أن ابن كثير رحمه الله راوي هذا الحديث . روى هذا الحديث عن الامام أحمد كما سترى وذكر أن الترمذي رواه وقال حسن غريب . كما ذكر أن الحاكم قال في هذا الحديث هو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ثم ان ابن كثير رحمه الله لم يقطع بضعف هذا الحديث بل ضعفه عنده احتمالي وبهذا الظاهر أخذ تلاميذ ابن عباس كعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير ومن بعدهم ابن أبي حاتم في تفسيره . واليك الأحاديث كما ذكرها ابن كثير، قال الامام أحمد في مسنده حدثنا عبد الصمد حدثنا عمر بن ابراهيم حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لما حملت حواء طاف بها ابليس وكان لا يعيـش لها ولد فقال : سميه عبد الحرث فانه يعيـش فسموه عبد الحرث فعاش وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره " وهكذا رواه بنحوه ابن جرير الطبري عن محمد بن بشير بن دار عن عبد الصمد بن عبد الوارث به^(٢) ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبد الصمد به وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه الا من حديث عمر بن ابراهيم ، ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه ، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الصمد مرفوعا ثم قال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي ، ورواه الامام أبو محمد ابن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي عن هلال بن فياض عن عمر بن ابراهيم به مرفوعا^(٣)^(٤) ^(٥) ^(٦) ^(٧)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿ فلما آتاهما صلحا جعلنا له شركاء فيما آتاهما ﴾ .

قال الله : ﴿ هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها ﴾ آدم حملت ، آتاهما ابليس فقال : إني صاحبكما

- (١) تفسير ابن كثير (٢ / ٢٧٤) .
 - (٢) مسند الامام أحمد بن حنبل ، (٥ / ١١) .
 - (٣) تفسير الطبري ، (٩ / ١٤٦) .
 - (٤) سنن الترمذي ، (٥ / ٢٦٧) .
 - (٥) المستدرک للحاكم (٢ / ٥٤٥) .
 - (٦) تفسير ابن أبي حاتم بتحقيق الشيخ حمد بن أبي بكر ، (٢ : ٧٢٤) .
 - (٧) تفسير ابن كثير ، (٢ / ٢٧٤) .
- (*) بندار : في الأصل من في يده القانون وهو في الأصل ديوان الخراج وإنما قيل ببندار لأنه كان بنداراً في الحديث .

الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعنني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقّه ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما . سمياه عبدالحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتا . ثم حملت يعني الثانية فأتاهما أيضا فقال : أنا صاحبكما الذي فعلت ما فعلت لتفعلن أو لأفعلن ولأفعلن يخوفهما فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتا ، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضا فذكر لهما ، فأدركهما حب الولد فسمياه عبدالحارث فذلك قوله ﴿ جعل له شركاء فيما آتاهما ﴾^(٢) والذي يهمننا الآن تأويل هذه الآية على فرض أن الضمائر لآدم وحواء بما يتلائم مع مكانتهما .

وقد تولى الفخر الرازي في تفسيره الجواب عن ذلك ، وإن كان لا يميل إليه بل يميل كغالب المفسرين الذين ينظرون في المأثور فلا يأخذونه على إطلاقه بل يجيزون منه ما لا يتصادم مع معلوم من الدين بالضرورة ، وما لا يؤدي إلى خدش عصمة نبي ، وما يدرء وقوع الشبهة ممن يستبعد منه وقوعها .

قال الفخر الرازي : ان نسلم أن هذه الآية وردت في شرح قصة آدم عليه السلام وعلى هذا التقدير ففي دفع هذا الإشكال وجوه :

أولا : أن المشركين كانوا يقولون ان آدم عليه السلام كان يعبد الأصنام ، ويرجع في طلب الخير ودفع الشر إليها ، فذكر تعالى قصة آدم وحواء عليهما السلام وحكى عنهما أنهما قالا ﴿ لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين ﴾ أي ذكرا أنه تعالى لو آتاهما ولدا سويا صالحا لاشتغلوا بشكر تلك النعمة ، ثم قال ﴿ فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء ﴾ فقوله : ﴿ جعل له شركاء ﴾ ورد بمعننى الاستفهام على سبيل الإنكار والتعبيد ، والتقدير : فلما آتاهما صالحا أجعل له شركاء فيما آتاهما ؟

ثم قال ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ أي تعالى الله عن شرك هؤلاء المشركين الذين يقولون بالشرك وينسبونه الى آدم عليه السلام

(١) (الأيل) بفتح الهمزة وكسر الياء مشددة : ذكر الأوعال والوعل : تيس الجبل

(٢) انظر كتاب (تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف لابن أبي حاتم) رسالة ماجستير مقدمة من الطالب الشيخ / حمد بن أحمد بن أبي بكر وقد حكم على سند الحديث بالصححة ، وقال وهو صحيح الإسناد أنظر (٢ / ٧٣٥) وذلك بعد دراسته لرجال الاسناد .

ونظيره أن ينعم رجل إلى رجل بوجوه كثيرة من الانعام . ثم يقال لذلك المنعم : ان ذلك المنعم عليه يقصد ذمك وايصال الشر اليك ، فيقول ذلك المنعم : فعلت في حق فلان كذا وأحسننت اليه بكذا وكذا وأحسننت اليه بكذا وكذا ، ثم انه يقابلني بالشر والاساءة والبغي ؟ على التباعد فكذاك هنا .

ثانيا : في الجواب أن نقول : إن هذه القصة من أولها إلى آخرها في حـق آدم وحواء ولا اشكال في شيء من ألفاظها إلى قوله * فلما آتاهما صلحا جعلنا له شركاء فيما آتاهما * فنقول التقدير : فلما آتاهما ولدا صالحا سويا ، جعلنا له شركاء أي جعل أولادهما له شركاء على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه . وكذا فيما آتاهما . أي فيما أتى أولادهما ونظيره قوله * واسأل القرية * أي واسأل أهل القرية .

فان قيل : فعلى هذا التأويل ما الفائدة في التثنية في قوله * جعلنا له شركاء * قلنا : لأن أولادهم قسمان ذكر وأنثى فقله * جعلنا * المراد منه الذكر والأنثى مرة عبر عنهما بلفظ التثنية لكونهما صنفين ونوعين ، ومرة عبر عنهما بلفظ الجمع وهو قوله تعالى * فتعالى الله عما يشركون * .

ثالثا : في الجواب سلمنا أن الضمير في قوله * جعلنا له شركاء فيما آتاهما * عائد إلى آدم وحواء عليهما السلام إلا أنه قيل : إنه تعالى لما آتاهما الولد الصالح عزمنا على أن يجعلنا وقفا على خدمة الله وطاعته وعبوديته على الاطلاق ثم بدا لهما في ذلك ، فتارة كانوا ينتفصون به في مصالح الدنيا ومنافعها ، وتارة كانوا يأمرونه بخدمة الله وطاعته . وهذا العمل وان كان منهما قربة وطاعة ، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فلهذا قال تعالى * فتعالى الله عما يشركون * والمراد من هذه الآية ما نقل عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال فيما يرويه عن ربه جل وعلا : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيرى تركته وشركه " وعلى هذا التقدير : فالاشكال زائل .

(١) صحيح مسلم باب من اشرك في عمله غير الله (٤ / ٢٢٨٩) تصحيح وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .

رابعاً: في التأويل أن نقول: سلمنا صحة تلك القصة المذكورة إلا أننا نقول: انهم سموا بعبد الحرث لأجل أنهم اعتقدوا أنه إنما سلم من الآفة والمرض بسبب دعاء ذلك الشخص المسمى بالحرث وقد يسمى المنتعم عليه عبداً للمنتعم يقال في المثل: أنا عبد من تعلمت منه حرفاً. ورأيت بعض الأفاضل كتب على عنوان كتابه عبد وده فلان فأدم وحواء عليهما السلام سميا ذلك الولد بعبد الحرث تنبيهاً على أنه إنما سلم من الآفات ببركة دعائه، وهذا لا يقدر في كونه عبد الله من جهة أنه مملوكه ومخلوقه (١).

وأضيف أن آدم وحواء على فرض صحة أو قبول الحديث الذي تحمل الآية بمقتضاه عليهما. لم يعلما أن الناصح لهما هو إبليس لعنه الله ومما يقوى ذلك عندي استبعاد مطاوعة آدم وحواء لإبليس فيما يشير به عليهما بعدمما تسبب في إخراجهما من الجنة وإيقاعهما في المعصية واهباطهما إلى الأرض حيث التكليف الشاق. وغلبة الشهوات والأهواء على بنيهما من بعدهما. أضف إلى ذلك معاناتهما في كسب حاجاتهما المعيشية بكد ومشقة ولعلهما تصورا أن الناصح لهما ملك كريم.

كما أنهما لم يدر بخلدهما أن الله سيعاتبهما على تسمية ولدهما بعبد الحرث، ولو مر بقلوبهما هذا الخاطر ما أقدموا على تلك التسمية بحال وإنما أراد الله ذلك ليعلم الإنسان ضعفه باستمرار، وليشدد الحراسة على نفسه من عدوه المبين إبليس اللعين.

فانه كثيراً ما يلبس ثوب الناصح المجتهد في النصيحة، ليقود الإنسان بذلك إلى مزالق خفية. ولا يفتن لضررها وخطرها إلا بعد الوقوع فيها.

وبهذا نبريء السلف الصالح من رواية ما لا يصح ونبريء أئمة التفسير الذين قالوا بهذا الرأي من الزلل أو القول بما يخذش عصمة آدم عليه السلام فضلاً عما يخذش عصمة سائر الأنبياء. ولا يبعد عندي أن تكون هذه الحادثة قد وقعت قبل نبوة آدم عليه السلام.

وقد قص القرآن وقوع بعض الزلات من بعض الأنبياء قبل النبوة كقوله

(١) تفسير الرازي، (١٥ / ٨٨).

تعالى في قتل موسى للمصري الذي اقتتل مع أحد بني اسرائيل * ولما بلغ أشده واستوى^{١٦} اتينته حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقتل عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم * .^(١)

فلا يبعد أن يكون عمل آدم وحواء قد حصل قبل النبوة من قبيل ما حصل من موسى عليه السلام كما ذكر في هاتين الآيتين السالفتين ولا أريد أن أخوض في موضوع عصمة الأنبياء قبل النبوة وما فيه من آراء لأن ذلك يبعدني عن موضوعي الذي أعالجه .

كما أني لا أنكر تأويل الجمهور لهاتين الآيتين وما يشاكلهما، وإنما استأنست بما ذكر فيها للدفاع عما وقع من آدم وحواء عند من روى الحديث السابق وحملوا عليه قوله تعالى * فلما اتتهما صلحا جعل له شركاء فيما اتتهما * .

وإن كان يعجبني تأويل الفخر لهاتين الآيتين . وصرف الضمائر فيها عن آدم وحواء ، وهو مسلك أغلب المفسرين الذين لا يعولون كثيرا على المأثور كالبيضاوي والنسفي و الزمخشري وأبي السعود والأبوسي . والقفال والجمـل وكثيرين ممن شرفهم الله تعالى بتفسير كتابه ، ومحاولة الكشف عن أسرارهِ وحمل الآيات المشككة فيه على ما هو اللائق بتفسيره .

ودفع ما يوهمه ظاهرها ، بالنصوص القوية التي تحمل على العدول عن هذا الظاهر كمحاولتهم رضي الله عنهم في هاتين الآيتين من خبر آدم عليه السلام ، واليك ما ذكره الفخر أيضا نقلا عن القفال تأييدا لما يعجبني ولما أر تضيئه من غير انكار للحديث السالف لأنه قد روي مرفوعا ولأن الحاكم حكم بصحته ولأن الترمذي حسنه ولا يعني ما يعجبني رفض ما يقابله قال القفال : انه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم وقولهم بالشرك وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول : هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها انسانا يساويه في الانسانية ، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل . دعا

الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا لنكونن من الشاكرين
لآلائك ونعمائك ، فلما آتاهما الله ولدا صالحا سويا جعل الزوج والزوجة
لله شركاء فيما آتاهما . لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد الى الطبايع
كما هو قول الطبايعيين ، وتارة الى الكواكب كما هو قول المنجمين ،
وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام ^(١) .
• بالله اعلم .

(١) انظر الفخر الرازي (١٥ / ٨٦) .

الفصل الثاني

الصِّراع بين نوح عليه السلام وقومه

الفصل الثاني

الصراع بين نوح عليه السلام - وبين قومه

- المبحث الأول : دعوة نوح عليه السلام لقومه .
- المبحث الثاني : أسباب موقف الكافرين المعاندين لدعوة نوح .
- المبحث الثالث : موقف نوح عليه السلام من الكافرين والمعاندين :
- أولا : دفاع نوح عليه السلام عن نفسه .
- ثانيا : مصير الكافرين المعاندين .

* مقدمة :

مر علينا في الفصل الأول من هذا البحث صراع آدم وزوجته مع ابليس إلى أن اهبطا إلى الأرض ، حيث نبه جل وعلا عباده محذرا لهم من عداوة ابليس ، ووقفه حجر عثرة في كل طريق يؤملهم إلى خالقهم عز وجل .

قال تعالى على لسان ابليس * قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شكركين * ، وقال تعالى * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو * . . . إلى آخر تلك الآيات الموضحة لعداوة ابليس لبني آدم ، والتي صورتها تلك التجربة التي مر بها آدم وزوجه ، وعلى ضوءها نعرف حاجة الانسان رغم تميزه بالعقل والادراك إلى رسالة الله التي نوهت عنها السورة نفسها في قوله تعالى * يلبني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * . (٣)

وستعرض السورة الكريمة لذكر قصص جملة من الرسل وهم (نوح ، هود ، صالح ، لوط ، شعيب ، موسى ، وختمت السورة بالحديث عن خاتم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وفي ذكر تلك القصص من الفوائد العظيمة ما أشار إليها الرازي رحمه الله بقوله :

أولا : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبيانات ليس من خواص قوم محمد عليه الصلاة والسلام ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية اصرارهم على الجهل والعناد ، يفيد تسليية الرسول عليه السلام وتخفيف ذلك على قلبه .

ثانيا : انه تعالى يحكي في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى الكفر واللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة ، وذلك يقوي قلوب

(١) سورة الأعراف ، آية (١٦ ، ١٧) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٢٤) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٣٥) .

المحققين ويكسر قلوب المبطلين .

ثالثاً: التنبيه على أنه تعالى وان كان يمهل هؤلاء المبطلين ولكنه لا يهملهم

بل ينتقم على أكمل الوجوه .

رابعاً: بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام . لأنه

عليه السلام كان أمياً وما طالع كتاباً ولا تلمذ أستاذاً ، فاذن ذكر

هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دل ذلك على أنه إنما

عرفها بالوحي من الله وذلك يدل على صحة نبوته (١) (٢) .

✽ والخلاصة :

ان الله أرسل الرسل إلى الأمم ، فكان منهم المعارض المنكر لهم ومنهم

المؤمن المطيع (وهذا الموقف المتنوع هو قانون الحياة البشرية في

صراع الانسان مع الشيطان وفي عداوة الشيطان للانسان .

فعلى عهد كل رسول أرسل برسالة الله كان المؤمن والكافر ، وكان

المهتدي والضال ، وكان المتقي والمصلح ، والمستكبر والمتبع لغواية الشيطان (٣)

وكل ذلك تحت تأثير ضغط الشهوات محاولاً أن يرضي حقه وأن ينفذ وعيده وأن

يمضي ببني آدم من حطام هذه الشهوات إلى جهنم .

ولكن دعوة الأنبياء التي من الله بها على عباده ، بيعتهم على مر

الدهور ، تلوح بالنور ، وتحذر من لفحات الشرور ، ونزعات الشيطان

الغرور ، في صراع عجيب تنبئنا به سورة الأعراف منذ فجر تاريخ البشرية إلى

أن تختم بذكر خاتم الأنبياء والرسل أجمعين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

(١) قال تعالى ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى

ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾

سورة يوسف ، الآية (١١١) .

(٢) تفسير الرازي (١٤ / ١٤٦) .

(٣) انظر: التفسير الموضوعي للقرآن الكريم (تفسير سورة الأعراف)

للدكتور محمد البهي ، ص ٤٤ ، الناشر مكتبة وهبه ، القاهرة ، ط الثانية ١٤٠٠هـ .

المبحث الاول

(١)
دعوة نوح عليه السلام لقومه
مع شرح موجز للآيات

لقد مكث الناس يعبدون الله الواحد القهار بعد موت آدم عليه السلام طوال عشرة قرون كما جاء بذلك الخبر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . قال : وكذلك في قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) ، قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وقد أقره الذهبي على تصحيحه .
(٢)

وبعد تلك القرون الصالحة ، وتباعد الأزمان ، لجأ الناس إلى عبادة الأصنام واتخاذها آلهة تعبد من دون الله ، وكان سبب ذلك ما أشار إليه حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عند تفسير قوله تعالى ﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ (٣) قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن أنصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تعبد . حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبادت وقد أوجزت سورة الأعراف قصة نوح عليه السلام مع قومه التي تناولتها سور أخرى بنوع من التفصيل والتي أفرد القرآن لها سورة خاصة باسم (سورة نوح عليه السلام) .

قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهِ إنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (٥)

- (١) نسبه : هو نوح بن لامك بن متوشلخ بن خنوخ - وهو ادريس عليه السلام - بن يرد بن مهلا بييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر عليه السلام . انظر البداية والنهاية لابن كثير (١٠٠/١) ط ٢ مكتبة المعارف بيروت .
- (٢) المستدرک للحاكم (٢ / ٥٤٦) .
- (٣) سورة نوح ، آية (٢٣) .
- (٤) صحيح البخاري على هامشه فتح الباري (٢٩٥/١٠) جزء ٤ من حديث طويل في باب (ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق) كتاب التفسير (سورة نوح) .
- (٥) سورة الأعراف ، آية (٥٩) .

أقسم تعالى على أنه أرسل نوحا رسولا إلى قومه ، لأن مشركي مكة لما أنكروا نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا بذلك منكرين لرسالة نوح وما بعده من الرسل سلام الله عليهم أجمعين ، فاقتضى الأسلوب أن يصدر الكلام عن ارسال نوح إلى قومه بأسلوب القسم لأجل ذلك، وذكر هنا جنابه تعالى بنون العظمة ، ليبين أن هذا الارسال منه تعالى ليس ناشئا عن اضطرار أو حاجة إلى الخلق تعالى عن ذلك وتعاضم . بل سببه رحمته بخلقه وعنايته بهم ، ولاخراجهم من الظلمات التي أوقعهم فيها الشيطان بغوايته كما توعدهم عندما امتنع عن السجود لأبيهم آدم عليه السلام - إلى نوره وهدايته .

ومعنى * أرسلنا * أي بعثنا نوحا إلى قومه بدين وشريعة ذات تكاليف يبلغها لقومه ، كما قال تعالى على لسانه * أبلغكم رسالت ربي * (١) ونص تعالى على ارساله لقومه لأنهم أعرف بأحواله وأخلاقه وتميزه بينهم بالصدق والطهارة ، مما يحملهم على اجابته إلى ما دعاهم إليه وتصديقه فيمما جاءهم به ، ومع ذلك عاندوا وكذبوا وفعلوا غير المرجو منهم، وإن من سنن الله تعالى أن يبعث كل رسول من قومه غالبا . فان لم يكن منهم فلا بد وأن يتكلم بلسانهم . وسيمر بك في هذه السورة قوله تعالى * وإلى عاد أخاهم هودا * ، وقوله عز وجل * وإلى ثمود أخاهم صالحا * ، قوله تعالى * وإلى مدين أخاهم شعيبا * ، وإنما قلت : غالبا، لأن موسى وهارون عليهما السلام ليسا من قوم فرعون . ومع ذلك فقد ربي موسى في مصر ، ولم يفارقهم إلى مدين إلا بعد علمه التام بأحوالهم فكانه بذلك منهم . كما أن رسالته لم تكن لفرعون وقومه خاصة . بل كانت أيضا لقوم موسى (بني اسرائيل) واحتزازا أيضا من ارسال شعيب عليه السلام الى أصحاب الأيكة ، فانه تعالى قال * كذب أصحاب لئيكه المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * بينما (٥) قال * وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يلقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره * (٦)

-
- (١) سورة الأعراف ، آية (٦٢) .
 - (٢) سورة الأعراف ، آية (٦٥) .
 - (٣) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .
 - (٤) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .
 - (٥) سورة الشعراء ، آية (١٧٦ - ١٧٧) .
 - (٦) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .

ولذا فهم كثير من المفسرين ، أن أصحاب الأيكة قوم آخرون غير أهل
مدين مجاورون لهم . ولا يطعن فيما قررته . لأن ارسال نبي إلى قوم (ما)
يصيرهم قوما له باعتبار أنهم مجال لدعوته وان لم يكن منهم نسيا .
والفت نظرالقارى الكريم بأننى سوف أوضح أوجه دعوة نوح - عليه السلام لقومه
عنديبان لموقف نوح - عليه السلام - من قومه لجسن مناسبتها هناك فــــ
المبحث الثالث من هذا الفصل .

ومعلوم انه كثيرا ما يستعمل القرآن الكريم كلمة (الملا) فى قصصه مع الانبياء
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وما جرى لهم مع أقوامهم ، فمن هم الملا؟

الملا: هم أشرف القوم ووجوههم ورؤسأؤهم ومقدموهم الذين يرجع
إلى قولهم ، فهم إذاً البارزون في المجتمع وأصحاب النفوذ فيه الذين
يعتبرهم الناس أشرافا وسادة . وإليهم تسند قيادة المجتمع والزعامة والرئاسة
فيه ويلاحظ أن الوصف الغالب على الملا من كل قوم معاداتهم للدعوة إلى الله
تعالى ، فقد تصدوا لدعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليه أجمعين ، وقادوا
حملة الكذب والافتراء والتضليل ضد أنبياء الله تعالى ، قال تعالى
﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كفرون
وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾ (٣)

فالملا: هم هؤلاء المترفون ، أولوا القوة والحشمة والثروة والترف
والرئاسة وقادة الناس في الشر . وقد أنكروا ما جاءت به الأنبياء من عند
الله عز وجل وغرتهم كثرة أموالهم وأولادهم وأتباعهم . وما وصلوا إليه من
الرئاسة الخ .

وسأستعرض بايجاز موقف الملا من الرسل عليهم أفضل الصلاة وأتم التسليم
حسب ما جاءت به الآيات الكريمة في سورة الأعراف .

(٤)
فيقول ملاقوم نوح ﴿ قال الملا من قومه إنا لنرعىك في ضلل مبين ﴾

-
- (١) انظر إلى الخلاف في أصحاب الأيكة في الرسالة التي بعنوان (نبي الله
شعيب على ضوء الكتاب والسنة) اعداد الطالب (الصادق المنا محمد) اشرف
فضيلة الدكتور مسعد عبدالمعطي الحفني النبراوي (رسالة ماجستير)
١٤٠٣ - ١٤٠٤ هـ) ص ٨٧ - ٩٧ ، جامعة أم القرى .
(٢) انظر لسان العرب (١ / ١٥٩) ، انظر أيضا القرطبي (٢٣٤ / ٣) ،
ابن كثير ، (٢٢٣ / ٢) .
(٣) سورة سبأ ، آية (٣٤ - ٣٥) . (٤) سورة الأعراف ، آية (٦٠) .

ويقول الملامن قوم عاد لنبيهم هود عليه السلام * قال الملائ الذين
كفروا من قومه انا لنر بك في سفاهة وانا لنظنك من الكاذبين * (١)

وقال ملا شمود لنبيهم صالح عليه السلام * قال الملائ الذين استكبروا
من قومه للذين استضعفوا لمن امن منهم اتعلمون ان صلحا مرسل من ربه
قالوا انا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا انا بالذي امنتم به
كفرون * (٢)

وقول ملا شعيب له عليه السلام * قال الملائ الذين استكبروا من قومه
لنخرجك يا شعيب والذين امنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال
أو لو كنا كارهين * (٣)

وقول الملائ من قوم فرعون لفرعون في شأن موسى وقومه لما غلبهم
* وقال الملائ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك
والهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وانا فوقهم قهرون * (٤)

وقول الملائ من قريش (في سورة ص) حين عجبت من ارسال النبي
صلى الله عليه وسلم بالتوحيد والهدى * وانطلق الملائ منهم أن امشوا
واصبروا على الهتك إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة
الأخرة إن هذا إلا اختلاق نزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من
ذكرى بل لما يذوقوا عذاب * (٥)

وقد كرر القرآن ذكر الملائ في سور كثيرة ليبين بذلك أن الملائ
في كل أمة هم سبب شقاوتها وحجب النور والهداية عنها .

و أن عامة الناس لو ظلوا وطبعهم وما فطروا عليه لآمنوا بالرسول أول
ما جاؤهم ، وما كان هذا التكذيب والعناد للذين ووجه بهما الرسول
جميعا صلوات الله وسلامه عليهم من أقوامهم ، فلا غرابة إذن أن يقول الملائ

-
- (١) سورة الأعراف ، آية (٦٦) .
 - (٢) سورة الأعراف ، آية (٧٥ - ٧٦) .
 - (٣) سورة الأعراف ، آية (٨٨) .
 - (٤) سورة الأعراف ، آية (١٢٧) .
 - (٥) سورة (ص) ، آية (٦ - ٧ - ٨) .

من قوم نوح عليه السلام بأسلوب مؤكد بأن و اللام ﴿إنا لنرُك في ضلّ مبيّن ﴾ أي غارق فيه . وهذا أمر بين . وإنا لنعتقدك كذلك ، فكيف يتسنى وأنت بهذا الوصف أن نقبل منك ما تدعونا إليه ؟ ، والغرض من هذه الآية التوصل إلى نفي رسالته عليه السلام . والتي لو اعترفوا له بها لكانوا في نظر أنفسهم معاندين مكابرين . فالأمم كلها من عهد نوح عليه السلام إلى عهد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لا تنكر أن يأتيها من الله رسول وإنما استبعدوا أن يكون الرسول بشرا منهم وأن يختص من بينهم بذلك وقوله تعالى ﴿ إنا لنرُك في ضلّ مبيّن ﴾ هو اجمال لأسباب المصراع بين نوح وقومه وعدم اصغائهم له وقبولهم لما جاء به .

المبحث الثاني

أسباب الصراع بين نوح وقومه

تنبيه وتمهيد :

ان الآيات الكريمة التي بين يدي من سورة الأعراف والتي تذكر قصة نوح عليه السلام لم تذكر كل أسباب الصراع التي اعتمد عليها قومه في انكار رسالته والتكذيب بشبوته بل عرضت هذه السورة (الأعراف) لسبب واحد من هذه الأسباب وهو بشرية نوح عليه السلام ، التي لا تؤهله للرسالة في نظرهم ، لتساويهم واياهم فيها ، وقد تعرضت لهذا السبب في قوله تعالى ﴿ أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ (١) الآية ، و سأستوفي تفسيرها عند تناولها بالبحث . . لأجل ذلك استوفيت أسباب الصراع بين نوح وقومه من سورتي (هود ، والمؤمنون) لأن القرآن يفسر بعضه بعضا ، ولأن ما يجمله في مكان يبسطه في مكان آخر ، وهو في الاجمال والبسط في أعلى درجات الفصاحة ، بحيث يأسرك اجماله وتفصيله وذلك سرٌ من اعجازه كما هو مبسوط في مباحث الاعجاز .

لقد بينت سورة هود والمؤمنون أسباب هذا الصراع بوضوح وجلاء ، قال تعالى ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نرسلك إلا بشرا مثلنا وما نرسلك اتبعك إلا الذين هم آرادنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا ﴾ (٣) .
٦ ابآئنا الأولين إن هو إلا رجل به جنّة فتربصوا به حتى حين ﴿ .

ففي هاتين الآيتين: بنوا صراعهم معه وتكذيبهم له على أمور خمسة :

- (١) سورة الأعراف ، آية (٦٣) .
- (٢) سورة هود ، آية (٢٧) .
- (٣) سورة المؤمنون ، آية (٢٤ - ٢٥) .

أولا : " كونه بشرا مثلهم " :

فلماذا فاتهم ما أتاه ؟ وهذا جهل منهم وضلال بين. لأن الواقع المحسوس يقول بالتفاوت بين البشر في القوى العقلية والقوى البدنية وفي الأخلاق . فالتساوي في البشرية لا يعني أن ما يصلح له انسان يصلح له آخر ، ولهذا جاء هذا الأساس الأول مؤكدا بـ(ما) و(إلا) * ما نراك إلا بشرا * امعانا منهم في تكذيب نبيهم نوح عليه السلام في دعوى الرسالة .

ثانيا : كبر الملاء (استعلاؤهم) :

أ - قال تعالى * وما نرسلك إلا الذين هم أراذلنا * :

فلقد علل الملائم قوم نوح امتناعهم عن اتباع نوح عليه السلام بسبب متابعة ضعفائهم له الذين سموهم الأراذل أي:الضعفاء الجهلاء الذين لا عقل لهم ولا علم ولا شرف ولا رئاسة ولا مال ، وقد أكدوا ذلك أيضا (بما) و(إلا) امعانا في اظهار صوابهم وخطأ المتبعين لنوح عليه السلام * وما نرسلك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادئ الرأي * أي لأول وهله بلا تفكير ولا روية من بدا يبدو بمعنى ظهر ، أو من بدأ الشيء بمعنى أنه فعله أول ما طلب منه بلا تعقل .^(١)

ب - قوله * وما نرى لكم علينا من فضل * :

يريدون نوحا ومن اتبعه ، وجيء بمن في سياق النفي بقصد نفي أي فضل لنوح ومتبعيه على أولئك المكذبين المستكبرين ، وهذا وقع منهم بسبب الغشاوة التي طمست قلوبهم وأعمت بصائرهم عن الحق ، ونتيجة للكبر الذي جعلهم يقلبون الحقائق ويأنفون عن الحق بحجة أن الأراذل اتبعوه ، وفاتهم أن الحق في نفسه يبقى حقا . سواء اتبعه الضعفاء والفقراء أو القادة والرؤساء ، وان أتباع الحق في الحقيقة هم الأشراف ولو كانوا فقراء ، وان الأراذل في الحقيقة هم المعاندون المخالفون للحق وان كانوا في أعين الناس من الأشراف .

(١) انظر: لسان العرب (٢٧/١) .

ثالثاً: (تكذيب نبيهم نوح وأتباعه من المؤمنين):

ولقد توصلوا بالأساسين السابقين إلى الأساس الثالث في صراعهم وصددهم عن دعوة نبيهم نوح عليه السلام وهو قوله تعالى ﴿ بل نزنكم كذابين ﴾^(١) أي وهذا يكفيننا في ترك متابعتكم ، يعنون نوحاً وقومه .

وفي آية المؤمنون نرى الملائكة يذكرون الأساس الأول في آية هود إلا أنهم لما استشعروا ضعفهم بذكر هذا السبب ، لأن البشر - كما قلت سلفاً هم في الواقع متفاوتون في القوى الحسية والمعنوية فأضافوا أن نوحاً عليه السلام افتعل ذلك بقصد الرئاسة والسيطرة ﴿ فقال الملو الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾^(٢) والفرق بين (ما) هنا ، و (ما) في آية هود ، أن الملائكة في آية (هود) كانوا يخاطبون نوحاً بذلك ، لعلمهم يستطيعون صرفه عما جاءهم به ، فيريحون أنفسهم وقومهم ، أما في آية (المؤمنون) فإن الملائكة يتوجهون بذلك إلى قومهم مباشرة لما وجدوا أن بعضهم قد اتبعوه عليه الصلاة والسلام ، فدخل الملائكة إلى قومهم من أمر يثير الغضب الذي يطفى على العقل مما يحجب ادراك الحق وحجته ، وهو اتهام نوح عليه السلام بأنه ما جاء لهدايتهم كما يزعم بل قصد بما يدعيه التفضل عليهم والتميز بينهم .

رابعاً: (الملائكة في نظرهم أولى بالرسالة) :

ثم زادت آية المؤمنون أمراً رابعاً من أسباب الصراع وهو قوله تعالى: ﴿ ولو شاء الله لآنزل ملائكة ﴾^(١) فان الملائكة في نظرهم هم أولى بالرسالة من البشر ، وهذا جهل منهم . لأن الملائكة لو جاؤوهم على صورهم الحقيقية ما أطاقوا رؤيتهم فضلاً عن أن يسمعوهم ، والأقرب أن يأتيهم رسول منهم مزود بقوى روحية وبدنية ، تؤهله لتلقي الوحي من ربه مباشرة بالمكالمة من وراء حجاب ، أو بالالهام الذي يقذفه الله في قلبه ، أو بتلقيه عن الملك الذي يأتيه عن ربه ، وهو في نفس الوقت مطاق لقومه حين يبلغهم عن ربه ما أرسل به ، فلا تتبدد قواهم عند رؤيته .

(١) سورة هود ، آية (٢٧) .

(٢) سورة المؤمنون ، آية (٢٤) .

فأما إذا بعث الله اليهم الملائكة . فاما أن يكونوا بشرا مثلهم حتى يسهل الأخذ عنهم ، وحينئذ يشبه الأمر على المرسل اليهم ، فلا يصدقون أن رسولهم الذي أرسل اليهم ملك من الملائكة لأنه في صورة بشرية ، وأما أن يرسلوا إليهم على حقائقهم (أي الملائكة) وحينئذ لا يأتونهم الا بالعذاب الأليم . ولقد تذرعت الأمم قاطبة بهذه الذريعة لابطال دعوة الرسل فنرى قريشا ، وبينهم وبين قوم نوح قرون وقرون يعارضون خاتم الرسل بنفس المعارضة ويحتجون لابطال دعوته بنفس الحجة ، وقد تولى الله ذكرها والرد عليها في سورة الأنعام والاسراء ، قال تعالى * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون * (٢)

قال القرطبي رحمه الله : قوله تعالى * وقالوا لولا أنزل عليه ملك * و (لولا) بمعنى هلا * ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر * قال ابن عباس لو رأوا الملك على صورته لماتوا إذ لا يطيقون رؤيته قال الحسن وقتاده : لأهلكوا بعذاب الاستئصال ، لأن الله أجرى سنته بأن من طلب آية فظهرت له فلم يؤمن أهلكه الله في الحال . * ثم لا ينظرون * أي لا يمهلون ولا يؤخرون .

وقوله تعالى * ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا * أي لا يستطيعون أن يرو الملك في صورته إلا بعد التجسم بالأجسام الكثيفة ، لأن كل جنس يأنس بجنسه ، وينفر من غير جنسه ، فلو جعل الله تعالى الرسول إلى البشر ملكا لنفروا من مقاربتة ولما أنسوا به ، ولداخلهم من الرعب من كلامه والانتقاء له ما يكفهم عن كلامه ، ويمنعهم عن سؤاله ، فلا تعم المصلحة ، ولو نقله عن صورة الملائكة إلى مثل صورته ليأنسوا به وليسكنوا اليه لقالوا : لست ملكا وإنما أنت بشر فلا تؤمن بك وعادوا إلى مثل حالهم . وكانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة البشر فأتوا ابراهيم ولوطا عليهما السلام في صورة آدميين ، وأتى جبريل عليه السلام النبي (عليه الصلاة والسلام) في صورة دحية الكلبي ، أي لو نزل ملك لرأوه في صورة رجل كما جرت عادة الأنبياء ، ولو نزل على عادته لم يروه ، فاذا جعلناه رجلا التبس عليهم فكانوا

(١) * ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر * أي لقضي أمر هلاكهم .

(٢) سورة الأنعام ، آية (٨ - ٩) .

يقولون : هذا ساحر مثلك وقوله * و للبسنا عليهم * اللبس الخـطـط
يقال : لبست عليه الأمر ألبسه لبسا أي خلطته ، أي لو أنزل ملكا في
صورة رجل لوجدوا سبيلا الى اللبس كما يفعلون . وقال * لبسنا * بالاضافة
إلى نفسه على جهة الخلق ، وقال * ما يلبسون * فأضاف إليهم على جهة
(١)
الاكتساب .

وقال تعالى في سورة الاسراء * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم
الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان في الأرض ملكة
يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا * (٢)

قال ابن كثير رحمه الله : * وما منع الناس * أي أكثرهم
* أن يؤمنوا * ويتابعوا الرسل الا استعجابهم من بعثة البشر رسلا ، كما
قال تعالى : * أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس
وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم * وقال تعالى * ذلك بأنه
(٣)
كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدونا * الآية . (٤)

(٥)
وقال فرعون وملأه * أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عبدون *
وكذلك قالت الأمم لرسولهم * ان أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما
كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين * والآيات في هذا كثيرة . (٦)

ثم قال تعالى منبها على لطفه ورحمته بعباده انه يبعث اليهم الرسول
من جنسهم ليفقهوا عنه ويفهموا منه لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته ولو بعث
الى البشر رسولا من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه
ولهذا قال ههنا * قل لو كان في الأرض ملكة يمشون مطمئنين * أي
كما أنتم فيها ، * لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا * أي من جنسهم
(٧)
ولما كنتم أنتم بشرا بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفًا ورحمة .

(١) انظر تفسير القرطبي (٦ / ٣٩٣ - ٣٩٤) .

(٢) سورة الاسراء ، آية (٩٤ - ٩٥) .

(٣) سورة يونس ، آية (٢) .

(٤) سورة التغابن ، آية (٦) .

(٥) سورة المؤمنون ، آية (٤٧) .

(٦) سورة ابراهيم ، آية (١٠) .

(٧) انظر تفسير ابن كثير (٣ / ٦٤ - ٦٥) .

خامساً: (دعواهم أن ما جاءهم به نوح عليه السلام لم يسمعوا به في آبائهم

الأولين) :

ولو كان ما جاءهم به معروفا في أسلافهم لتناقلوه . قال تعالى :
* ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين *^(١) وهذا القول اما أن يكون قد
صدر عنهم في أول الدعوة ، فالمراد بآبائهم الأولين أي : الذين مضوا قبلهم
على عبادة الأصنام ، أو أنهم كانوا يعلمون أن آبائهم الأولين بين آدم ونوح
كان أكثرهم موحدا ، لكنهم جحدوا ذلك تكذيبا وعنادا فقد روي عن ابن عباس
رضي الله عنهما (أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام)^(٢)
وأما أن يكون هذا الكلام قد قيل قرب هلاك قوم نوح ، والخلفاءم الذين
قالوا ذلك ولا غرابة فيه فقد لبث نوح في قومه يدعوهم إلى الله تعالى ألف
سنة إلا خمسين عاما ، بل قد يقوى هذا الرأي بما بعده من الآيات * قال رب
انصرني بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا
جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من
سبق عليه القول منهم ولا تخبطني في الذين ظلموا إنهم مغرقون *^(٣)

(١) سورة المؤمنون ، آية (٢٤) .

(٢) المستدرک للحاکم (٢ / ٥٤٦) .

(٣) سورة المؤمنون ، آية (٢٦ - ٢٧) ،

انظر تفسير أبي السعود ، (٥ / ١٣٠ - ١٣١) .

المبحث الثالث

(موقف نوح عليه السلام من الكافرين)

أولاً: دفاع نوح عليه السلام عن نفسه

ثانياً: مصير الكافرين المعاندين

أولاً: دفاع نوح عليه السلام عن نفسه:

دافع نوح عن نفسه بنفي ما وصفوه به من الضلال المبين ، بما قصه الله تعالى في قوله * قال يقوم ليس بي ضلّلة ولكني رسول من رب العالمين * (١) ولألوسي رحمه الله في تفسير هذه الآية كلام نفيس أنقله لك بشيء من التصرف.

* قال يقوم * ناداهم باضافتهم إليه استمالة لهم نحو الحق . * ليس بي ضلّلة * نفي للضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه . فان التواء للمرة ، لأن مقام المبالغة في الجواب لقولهم الأحق يقتضي ذلك ، والوحدة الاستفادة منه باعتبار أقل ما ينطلق فيرجع حاصل المعنى ليس بي أقل قليل من الضلال فضلا عن الضلال المبين

وانما بالغ عليه السلام في النفي لمبالغتهم في الاثبات حيث جعلوه - وحاشاه - مستقرا في الضلال الواضح كونه ضلالا .

وقوله سبحانه وتعالى * ولكني رسول من رب العالمين * استدراك على ما قبله رافع لما يتوهم منه وذلك - على ما قيل - أن القوم لما أثبتوا له الضلال أرادوا به ترك دين الآباء ودعوى الرسالة فحين نفى الضلال توهم منه أنه على دين آباءه وترك دعوى الرسالة فوق الاخبار بأنه رسول وثابت على الصراط المستقيم استدراكا لذلك . وقيل : هو استدراك مما قبله باعتبار ما يستلزمه من كونه في اقص مراتب الهداية ، فان رسالته من رب العالمين مستلزما له لا محالة كأنه قيل : ليس بي شيء من الضلالة لكني في الغايصة (٢) القصوى من الهداية ١٠هـ .

والمتمأمل في هذه الآية الكريمة * ولكني رسول من رب العالمين - أبلغكم رسالتك ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون * يجد أنها

(١) سورة الأعراف ، آية (٦١) .

(٢) تفسير الألوسي (٨ / ١٥٠ ، ١٥١) .

أتت بعد أن نفى سيدنا نوح عليه السلام عن نفسه أي شكل من أشكال الضلال وقد وصف نفسه خلالها بأربع صفات كريمة :

أولها : (أنه صاحب رسالة) :

قال تعالى: ﴿ولكني رسول من رب العالمين﴾ * أي رسول مرسل نكم من رب العالمين لهدايتكم وانقاذكم مما أنتم فيه من الضلال والبعد عن الحق ، وتخليصكم من الشرك والكفر ، لكنكم باصراركم على اتهامي بالضللال كذبا وزورا تحيلون النعمة إلى نقمة ، والرحمة إلى شقوة ، اذ لو سلمتم بكوني رسولا من رب العالمين لزال عنكم العجب من أمري واتهامي بما ليس في . وتابعتموني على ما فيه سلامتكم وسعادتكم في دنياكم وفي آخرتكم .

والتنوين في قوله تعالى ﴿ رسول ﴾ مشعر بفخامته وما أوتي من عقل وحكمة ، والمعنى : ولكني رسول عظيم وأي رسول ، ويدل على ذلك قوة حوارهم مع قومه في قوله تعالى ﴿ قال يقوم أريتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ و﴿ اتبني رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وأنتم لها كرهون ﴾ (١) وقوله تعالى على لسان قومه لما ضاقوا بقوة حجته ﴿ قالوا يلنوح قد جدلتنا فأكثر جدلنا لنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ﴾ (٢) ومرادهم أن ينزل الله بهم من العذاب ، وهم غير جادين في طلب العذاب ، ولكنهم تصوروا أن العذاب لا يأتيهم ، لا سيما وقد طال مكثهم بينهم نبيا ورسولا كما قال الله تعالى ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ (٣) فعدم مجيء العذاب مع طول هذه المدة سبب في اعتقادهم أنهم لا ينزل بهم ، ولذا تركوا الرد على الحجة بالحجة ولجأوا بقصد التعجيز والامعان في التكذيب ولذا رد عليهم بما قصه الله تعالى ﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴾ (٤) وما أنتم بمعجزين *

وقوله تعالى ﴿ من رب العالمين ﴾ فيه تنبيه على رحمته تعالى بهم وإيقاظ للخوف من الله تعالى في قلوبهم ، حتى لا يتجرأوا على رسوله نوح عليه السلام . فإنهم إذا علموا أنه رسول من رب العالمين الذي خلق

- (١) سورة هود ، آية (٢٨) .
- (٢) سورة هود ، آية (٣٢) .
- (٣) سورة العنكبوت، آية (١٤) .
- (٤) سورة هود، آية (٣٣) .

العالمين وتولى تدبيرهم وايصال النعم اليهم كان ذلك علاجاً لقسوة قلوبهم من ناحية ، وازالة لجرأتهم على رسولهم من ناحية أخرى وتقريباً لانتقام الله منهم اذا أقاموا على هذا التكذيب بخلاف ما اعتقدوه من بعد العذاب عنهم .

ثانياً : (أنه مبلغ عن الله ما فيه هدايتهم) :

قال تعالى ﴿ أبلغكم رسالت ربي ﴾ أي أبلغكم ما أوحاه الله الي من الأوامر والنواهي والمواعظ والزواجر والبشائر والنذائر والعبادات والمعاملات . وقيل أي أبلغكم رسالته ورسالات الأنبياء قبله من صحف جده ادريس ، فهذه نكته جمع (الرسالات) وإلا فرسالة كل نبي واحده ، وهي مصدر . والأصل أن لا يجمع ، فجمع لما ذكر ، قال الألوسي : وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبي واحدة ، رعاية لاختلاف أوقاتها أو تنوع معاني ما أرسل - عليه السلام - به من العبادات والمعاملات أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كادريس عليه السلام .^(٢)

ثالثاً : (أنه ناصح يتحرى ما فيه صلاحهم وخيرهم) :

قوله تعالى ﴿ وأنصح لكم ﴾ مأخوذ من النصح أي وأقصد صلاحكم باخلاص ، وذلك بتبليغكم جميع تكاليف الله وأتحرى ما فيه صلاحكم وخيركم . فأرشدكم إليه وآخذكم نحوه ، وفعل نصح يتعدى إلى مفعوله بنفسه تارة وتارة أخرى باللام إذا كان المقصود تخصيص الناصح المنصوح بالنصيحة ، و أن الناصح قصد بنصيحته شخصاً أو قوماً معينين ، ولذلك تعدى ﴿ وأنصح لكم ﴾ باللام لبيان أن نوحاً عليه السلام قصر نفسه على نصيحة قومه وعلى الاجتهاد لهم بما فيه صلاحهم ولذا قال : وأنصح لكم ، ولم يقل وأنصحكم ، وعبر عن نصيحتهم لهم بالفعل المضارع ليدل على عظيم صبره مع قومه ، وأنهم كلما جدوا عناداً جدد لهم نصحا ، واجتهد في ذلك غاية الاجتهاد ، ولذلك لم يطلب من الله هلاكهم إلا بعد أن أعلمه الله تعالى أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن .

(١) وهذا على الرأي القائل بأن ادريس جد لنوح عليه الصلاة والسلام وقد خالف في ذلك ابن العربي . انظر المسألة في تفسير القرطبي

(٧ / ٢٣٢) .

(٢) تفسير الألوسي (٨ / ١٥٢) .

قال تعالى * وَأَوْحِي إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ
(١)
فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ *

وقد بين القرآن الكريم أوجه نصح نوح عليه السلام لقومه وسألخصها

فيما يلي :

أ - بين لهم أنهم إذا آمنوا بالله وعبدوه حق عبادته ، و اتقوه حق تقاته ،
غفر لهم ذنوبهم ، وأطال أعمارهم في هذه الدنيا وكانو يحبون ذلك حبا
جما ، وأن أجل الله الذي قدره لهم-إذا لم يؤمنوا - إذا جاء هم لا يؤخر
عنهم إلا بالإيمان بالله.

قال تعالى : * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم
(٢)
ويؤخركم إلى أجل مسمى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

ويلاحظ من أسلوب دعوته عليه السلام استعماله لأسلوب الترغيب ، ثم
يتبعه بالترهيب لئلا تبقى ناحية إلا أقام بها عليهم الحجة ، فبعد أن رغبتهم
في الإيمان بالله تعالى وأنه سبب في غفران ذنوبهم وسبب في أمنهم وبذلك
تطول آجالهم ، نبههم إلى ما يحل بهم من الندامة والأسف حيث لا ينفع الأسف
لو لم يؤمنوا به * إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

ب - تنوع الوسائل والأحوال التي اتخذها في دعوة قومه فكان لا يفتر عن
دعوتهم آتاء الليل وأطراف النهار ، فلم يزدتهم هذا إلا تماديا في التكذيب
والكفر وبعدا عن مواجهته . فكان كلما دعاهم * جعلوا أصابعهم في
أذانهم * أي سدوا مسامعهم لئلا يسمعوا كلامه * واستغشوا ثيابهم *
أي أنهم غطوا أنفسهم بثيابهم لئلا يشاهدوه، أو يشاهدتهم فيمنعهم ويأمرهم
بالمعروف وينهاهم عن المنكر * وأصروا واستكبروا استكبارا * (٣) أي تمادوا
في اصرارهم على الكفر ، وتعظموا عن اجابته ، وذكر المصدر دليل على فرط
استكبارهم . وقد نوع نوح عليه السلام طرق دعوته فدعاهم سرا فيما بينه
وبينهم . فلما لم يقبلوا شنى بالمجاهرة في محافلهم وأماكن تجمعاتهم، فلما
لم يستجيبوا ثلث بالجمع بين الاسرار والاعلان و (ثم) تدل على تباعد

(١) سورة هود ، آية (٣٦) .

(٢) سورة نوح ، آية (٤٣) .

(٣) ، ، ، (٧) .

(١) الأحوال لأن الجهار أغلظ من الأسرار والجمع بين الأمرين أغلظ من أفرادهما
قال تعالى * قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدتهم دعاءيّ إلاّ فرارا
وإنّي كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصليهم فيّ إذانهم واستغثوا
ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثمّ إنّي دعوتهم جهارا . ثمّ إنّي أعلنت
لهم وأسرت لهم إسرارا * ثمّ رجع ثانيا إلى أسلوب ترغيبهم بما هم
حريصون عليه مفرطون في حبه وهو كثرة الأموال والأولاد فدلهم على السبب الذي
يوصلهم إلى محبوبهم والذي لا يمكن أن يصلوا إلى مبتغاهم بغيره فقال تعالى
على لسان نوح عليه السلام * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * (٢) ، أي
استغفروه من الشرك والكفر ولا تظنوا أن ذنوبكم ومعاصيكم مهما كثرت تعظم
على عفوه * إنه كان غفارا * ثمّ رتب على هذا السبب نتيجة مما يحبون
ويهوون * يرسل السماء عليكم مدرارا * أي تدر عليكم بالخير الوفير والرزق
الكثير والمراد بالسماء المطر ، * ويمدكم بأموال * أي كثيرة فسوق
ما تحبون وتطلبون ، و * وبنين * أي كثيرين ، * ويجعل لكم جنات
ويجعل لكم أنهارا * جارية لسقيا مزارعكم وبساتينكم فلا تكونوا مرهوين
بنزول المطر أينزل أولا؟ بل تجدون الماء الوفير لسقيا زروعكم وبساتينكم
كلما أردتم .

ج - لفت أنظارهم إلى النظر في أنفسهم ، وإلى النظر في عجائب صنع الله
فلقد ذكروهم عليه الصلاة والسلام بأطوار خلقهم التي مروا بها . وهم لا يعلمون
عن أنفسهم في هذه الأطوار شيئا ، ان الله الذي خلقهم في هذه الأطوار هو
الحقيق بأن يعبد وأن يعظم لا اله سواه . * مالكم لا ترجون لله وقارا وقد
خلقكم أطوارا * (٦) ثمّ لم يفته عليه الصلاة والسلام أن يذكرهم بما حولهم
من الأكوان العلوية والسفلية وأنها مخلوقة لله وحده، وأن أحدا لم يمدع
خلقها ، كما أنها لم تخلق بنفسها يقينا .

فقال تعالى منكرا عليهم تعاميمهم عن ذلك مبينا أنه لا خالق له——

-
- (١) انظر: تفسير النسفي (٤ / ٢٩٥) .
 - (٢) سورة نوح ، الآيات من (٥) إلى (٩) .
 - (٣) سورة نوح ، آية (١٠) .
 - (٤) سورة نوح ، آية (١١) .
 - (٥) سورة نوح ، آية (١٢) .
 - (٦) سورة نوح ، آية (١٣ - ١٤) .

(١) الأكوان سواه جل وعلا * ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا * بعضها على بعض ليست السفلى أساسا للعليا ، بل بين كل واحدة وأخرى من المسافات الشاسعة ما لا يعلمه أحد ، ومع ذلك لم تسقط سماء على سماء ولا السموات على الأرض .

(٢) * وجعل القمر فيهن نورا * أي في بعضهن وهي السماء الأولى . ولا مانع أن يكون في كل سماء أقمار وكواكب وشموس . فسبحان من أحاط بكل شيء علما .

(٢) * وجعل الشمس سراجا * أي مضيئة عظيمة الضياء ، بحيث لا يبقى مع ظهورها أي ظلام ، ولا يثبت مع ضوءها ضوء يصنع الانسان ، مما مهتد لكم ولغيركم سبيل السعي في هذه الأرض نهارا بلا كلفه وليلا إذا أردتم عندما يظهر القمر .

ثم بين لهم أن ربهم الذي يدعوهم إلى عبادته هو الذي خلقهم من الأرض خلقا عظيما إذ البون بين التراب وبين خلقه أبيهم آدم وبين الأغذية التي يأكلونها وبين النطفة المتولدة عن تلك الأغذية التي هي أصلهم وأساسهم بعيد غاية البعد فالذي نقلهم من هذه الأحوال إلى هذا الجمال جدير وحقيق بأن يفرد بالعبادة قال تعالى * والله أنبتكم من الأرض نباتا * وذكر اسم المصدر لتؤكد هذه الحقيقة كل التأكيد . ثم لم يفته عليه السلام أن ينبههم إلى مفارقتهم هذه الدنيا التي أحبوها واجتهدوا في امتلاكها أنهم سيموتون ويعودون إلى باطن الأرض ترابا كحالهم قبل أن يخلقوا في النشأة الأولى ، وأنه تعالى مخرجهم للحساب من هذه الأرض إخراجا مؤكدا لا يبقى أحدا في بطنها ولا ينسى منهم أحداً ولا من غيرهم إذ القلة والكثرة في قدرة الله سواء * ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا * .

ثم لم يفته عليه الصلاة والسلام أن يبين لهم تذليل الله لهم هذه الأرض وجعلها كالسباط يتقلبون عليها يبتغون رزق الله تعالى بلا مشقة، وكان

-
- (١) سورة نوح ، آية (١٥) .
 - (٢) سورة نوح ، آية (١٦) .
 - (٣) سورة نوح ، آية (١٧) .
 - (٤) سورة نوح ، آية (١٨) .

بوسعه تعالى أن يجعلها على غير هذه الهيئة فيعجزوا عن الضرب فيها
وأخذ حاجتهم منها * والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا *
أي طرقا واسعة يملون منها إلى ما يريدون . ومع هذا الاجتهاد في النصح
ومع العمر الطويل الذي قضاه بينهم - وقد ذكرته قبل ذلك - ^(١) - امعنوا في
العصيان والاصرار على الكفر والطغيان .

وهناك وسائل أخرى وحجج قيمه بسطها نوح عليه السلام لقومه تركتها
تجنباً للاطالة واكتفيت بما ذكرته لأبين به سر التعبير بالمضارع في قوله
تعالى * وأنصح لكم * . وانه لصراع مبرير بين الحق والباطل الحق يبسطه
نوح عليه السلام ويجتهد غاية الاجتهاد في بسطه لقومه ، والباطل يتشبث به
قوم نوح عليه السلام غاية التشبث مع ظهور بطلانه ، وستظهر نتيجة هذا الصراع
قريباً باذن الله .

رابعاً : انه خص من بينهم باحاطته بعلوم غيبية لا يعلمونها (قال تعالى
* وأعلم من الله ما لا تعلمون *) أي ^(٢) أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم عن
اخلاص . وأعلم في الوقت نفسه من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا عن طريق
الوحي أشياء لا علم لكم بها لأن الله قد خصني بها ، فحق عليكم أن تتبعوني
لأن الله وكل إلي إصلاحكم وأرسلني لما فيه خيركم في دنياكم وآخرتكم .

أو المعنى (وأعلم من قدرة الله الباهرة . وشدة بطشه على أعدائه
ما لا تعلمونه . فانا أحذركم عن علم . وأنذركم عن بينه . فاتقوا الله
وأطيعوني) ^(٣) وبعد أن وصف نفسه بتلك الصفات الأربع وبين لهم حقيقته
ومهمته التي بعث من أجلها ندد عليهم انكارهم أن يخصه الله بالرسالة من
بينهم .

قول تعالى * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم
ولتتقوا ولعلكم ترحمون * ^(٤)

-
- (١) قال تعالى * فليث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً * سورة العنكبوت آية (١٤) ،
انظر ص (١٥١) من بحثنا هذا .
(٢) سورة الاعراف ، آية (٦٢) .
(٣) الخازن (٢ / ١٠٧) انظر تفسير الرازي (١٤ / ١٥) .
(٤) سورة الاعراف ، آية (٦٣) .

وهذه الآية الكريمة ذكرت أحد أهم أسباب الصراع بين نوح عليه السلام وقومه ، قال تعالى ﴿ أو عجبتم ﴾ الهمة للإنكار والواو للعطف والمعطوف عليه محذوف كأنه قيل أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ؟ أي عجبتم أن جاءكم ذكر و العجب : إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده .^(١)

﴿ أن جاءكم ذكر ﴾ والذكر هو الوحي الذي جاءهم به لهدايتهم ولانقاذهم من الضلال إلى الهدى ﴿ على رجل ﴾ المقصود به نوح عليه السلام أي على يد رجل منكم فهو مبني على مضاف محذوف كقوله ﴿ ربنا ، واتننا ما وعدتنا على رسلك ﴾ أي على ألسنتهم وما أخبروا به مما أوحيتهم إليهم .^(٢)

﴿ منكم ﴾ تعرفونه حق المعرفة ، تعرفون نسبه وخلقه وتفهمون نطقه وتدركون طهارته وصدقه وأمانته .

﴿ لينذركم ﴾ من العذاب ان لم تؤمنوا وليحذركم من عاقبة الكفر والمعاصي . ﴿ ولتتقوا ﴾ ولتحصل منكم التقوى وهي الخشية بسبب الانذار . ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ أي ترحمون بالتقوى إن وجدت منكم . وهذا الترتيب في غاية الحسن فإن المقصود من الانذار التقوى عن كل ما لا ينبغي ، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة^(٤) وهذا هو القصد من بعثه الرسل التقوى والفوز بالرحمة . والواو في قوله ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ عطف على العلة الثانية ، مترتبة عليها أي ولتتعلق بكم الرحمة بسبب تقواكم ، وفائدة حرف الترجي التنبيه على عزة الطلب وأن التقوى غير موجبة للرحمة بل هي منوطة بفضل الله وأن المتقي ينبغي أن لا يعتمد على تقواه ولا يأمن من عذاب الله عز وجل .^(٥)

(١) لسان العرب (١ / ٥٨٠) : انظر أسباب الصراع بين نوح عليه السلام

وقومه وهي في الحقيقة تعتبر الوجوه التي من أجلها تعجب قوم نوح

من إرسال نبيهم إليهم . انظر (ص ١٤٤ إلى ١٤٩) من بحثنا هذا .

(٢) سورة آل عمران / آية (١٩٤) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٦٣)

(٤) انظر الفخر ، (١٤ / ١٥٢) .

(٥) تفسير أبي السعود (٣ / ٢٣٦) .

ثانيا : مصير الكافرين المعاندين (من قوم نوح) :-

قال تعالى ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بغايلتنا إنهم كانوا قوما عمين ﴾ (١)

﴿ فكذبوه ﴾ أي استمروا على تكذيبه وعناده مع طول مكثه بينهم، وأنهم كانوا يفتعلون التكذيب ويجهدون في محاولة جمع ما يكذبونه به لسقوطهم أمام حجة القوية، وأنهم ليعلمون من أنفسهم أنهم يكذبون على أنفسهم بتكذيبه وأنه صادق أمين . ولكن عنادهم حملهم على هذا التكذيب . حتى ان نوحا عليه السلام كان يستغيث ربه بنصرته عليهم ، لما يعانيه من مرارة تكذيبهم له . قال تعالى ﴿ قال رب انصرني بما كذبون ﴾ (٢) أي أبدلني بتكذيبهم اي سلة النصر عليهم، وقد طوت سورة الأعراف ما عوقبوا به من العذاب ومقدمات ذلك . ونجاة نوح عليه السلام ومن آمن معه وكيف كانت ؟ ونجدها مفصلة في سورة هود والمؤمنون والقمر وسأكتفي بالقاء الضوء على بعض آيات تلك السور التي صورة نجاة نوح عليه السلام ومن آمن معه واللد ولى التوفيق والملهم للصواب .

فقوله تعالى في سورة الأعراف ﴿ فأنجيناه والذين معه في الفلك ﴾ هو بيان لآكرام الله تعالى له ولمن آمن من قومه وكانوا قلة كما قال تعالى ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ (٣) . وتقديم ذكر الانجاء على الاغراق للمسارعة إلى الإخبار به والايذان بسبق الرحمة التي هي مقتضى الذات الإلهية ، وقوله تعالى ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بغايلتنا ﴾ هو بيان لما عوقب به قوم نوح من العذاب مع ذكر السبب الذي استحقوا به هذا العذاب وهو التكذيب بآيات الله تعالى واستمرار تعاميمهم عن الحق مع ظهوره .

قال تعالى ﴿ إنهم كانوا قوما عمين ﴾ أي عمي القلوب غيبر مستبصرين ، قال ابن عباس (عميت قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد) (٥) ، وإن المقام ليستدعي أن أتناول عاقبة هذا الصراع بين نوح

- (١) سورة الأعراف ، آية (٦٤) .
- (٢) سورة المؤمنون ، آية (٢٦) .
- (٣) سورة هود ، آية (٤٠) .
- (٤) تفسير أبي السعود (٢٣٧/٣) .
- (٥) تفسير أبي السعود (٢٣٧/ ٣) .

وقومه وكيف انتقم الله تعالى من قوم نوح عليه السلام ؟ وفي نفس الوقت أحاط المؤمن بحفظه وعنايته وانجاهم في أحلك الظروف وأسوأ الأحوال .

قال تعالى ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴾^(١) والمقصود من هذه الآية تخفيف الأمر على نوح عليه السلام وراحته من دعوته قومه ، وإخباره بأن ما أوحى الله عليه من نصرتهم قد آن أوانه ، فلا تحزن بما يفعلونه معك ، فإني أمدهم قصير وعقابهم عاجل . ثم بين له ما يعمل استعداداً لنجاته ومن آمن معه عند حلول العذاب بقومه . قال تعالى ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ﴾^(٢) أي بتوفيقنا وحرصنا لما تصنع من أن يناله قومك باتلاف وبمرأى منّا ووحينا ﴾ أي بما نوحيه إليك من كيفية صنعها والهيئة التي تبني عليها ولعلمه تعالى بشفقة نوح على قومه مع ما لقيه منهم من صنوف الأذى والتكذيب المستمر ، نهاه سبحانه عن أن يخاطبه في قومه الظالمين بشفاعة واستعطاف لأن أمر اهلاكهم مبرم وواقع لا محالة ، لا تدرؤه شفاعة نوح عليه السلام قال تعالى ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾^(٣) ويصنع نوح الفلك وهي السفينة العظيمة في أوقات متطاولة . روى أنه صنعها من خشب الساج في سنتين وكلمها مر عليه جماعة من قومه وهو يصنع فلكه هزواً به لأنه كان يصنعها في بركة بعيدة عن الماء مع من آمن به وهم قله^(٤) .

﴿ ويصنع الفلك وكلمها مر عليه ملائمة قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون ﴾^(٥) أي إن تسخروا منا الآن لتصوركم عجزنا عن نقلها إلى الماء فانا نسخر منكم لا محالة ، عند حلول العذاب عليكم ، كما تسخرون منا عند الصنع ريثما تفجر الأرض كلها عيوناً وينهمر ماء السماء ملتقياً بماء الأرض .

(١) سورة هود ، آية (٣٦) .

(٢) تفسير الجمل ، (٢ / ٣٩٤) ، وانظر تفسير النسفي (١٨٧ / ٢) .

(٣) سورة هود ، آية (٣٧) .

(٤) انظر تفسير الجمل ، (٢ / ٣٩٦) ، وانظر تفسير النسفي (٢ / ١٨٧) .

(٥) سورة هود ، آية (٣٨) .

ثم أخبرهم يقرب حلول عذاب الله عليهم ونصرة الله له ولمن آمن معه
* فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه * أي يهينه ويشقيه نحن أم أنتم؟
والمراد به عذابهم في الدنيا . * ويحل عليه عذاب مقيم * أي دائم لا ينفك^(١)
والمراد به عذاب الآخرة أي أن الله تعالى بسخطه عليكم قد انتقم منكم^(٢)
بأهلاككم في الدنيا ودوام عذابكم في الآخرة .

وقوله تعالى * حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من
كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا
قليل * بيان لاستمرار صنع نوح للسفينة إلى وقت حلول عذابهم وقولــــه
* أمرنا * مشعر بالتفخيم تنبيها لهول وشدة الموقف ، وقوله * وفار التنور *
فعن ابن عباس : التنور وجه الأرض . أي صارت الأرض عيونا تفور حتى فار الماء
من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء وهذا قول جمهور السلف
وعلماء الخلف وبهذا يجمع بين القولين الواردين في المراد بقولــــه^(٣)
* وفار التنور * كما قال تعالى * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر .
وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملنــــه على ذات ألواح
ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر *^(٤)
^(٥)

ويفهم من الآية أيضا * وفار التنور * أي اشتد الأمر كما يقال :
حمي الوطيس ، وقيل : فار تنور الخبز بالماء مع وجود النار فيه فلم
ينطفئ بالماء وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ليستعد لركوب السفينة^(٦)
ولما فار التنور أمر الله جل وعلا نبيه نوحا عليه السلام أن يحمل فــــي
السفينة ثلاثة أنواع :

الأول :

أشار إليه بقوله * قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين * الزوج
يطلق على الزوجة وحدها وعلى الزوج وحده . والمراد هنا من كل فرديــــن
متزاوجين اثنين . فالزوج ماله مشاكل من نوعه (اثنين) كل منهما زوج

- (١) سورة هود ، آية (٣٩) .
- (٢) انظر تفسير ابن كثير ، (٢ / ٤٤٥) .
- (٣) سورة هود ، آية (٤٠) .
- (٤) تفسير ابن كثير ، (٢ / ٤٤٥) .
- (٥) سورة القمر ، آية (١١ - ١٤) .
- (٦) انظر تفسير الجمل ، (٣٩٧/٢) ، وانظر تفسير أبي السعود (٢٠٨/٢) .

لآخر من الحيوانات وقدم ذلك على أهله وسائر المؤمنين لأنه يحتاج بسبب
الجهد لتخليصه من الهلاك. أما الانسان العاقل فهو يدخل إلى الفلك باختياره.
أو لأنها تحمل مباشرة البشر وهم إنما يدخلونها بعد حملهم إليها.^(١)

ثانيا :

النوع الثاني أشار إليه بقوله * وأهلك * عطف على زوجين أو علس
اثنين والمراد به أبناؤه ونساؤهم.

وقوله * إلا من سبق عليه القول *، بأنه من المغرقين بسبب كفرهم^(٢)
وظلمهم كما قال تعالى * ولا تخطبني في الذين ظلموا * والمراد بهم ابنه^(٣)
وامراته وكانا كافرين.^(٤)

ثالثا :

النوع الثالث أشار إليه بقوله * ومن آمن * أي من قومك والاتيان
بصيغة الافراد في آمن للدلالة على قلتهم كما قال تعالى * وما آمن معه
إلا قليل * وهذا على الرغم من طول المدد التي دعاهم فيها واستعمال شتى
الوسائل ومختلف الطرق .

وقال تعالى * وقال اركبوا فيها بسم الله مجرئها ومرسلها *
القائل هو نوح عليه السلام والركوب : هو العلو على ظهر الشيء ومنه ركوب
الدابة وركوب السفينة وكل شيء علا شيئا فقد ركبته .

وقوله * فيها * أي في باطنها و لاتعلو على ظهرها لثلاثا ترعوها بما
ترونه من هول الطوفان * بسم الله * متعلق بركبوا حال من اركبوا - أي
فأمرهم بأن يركبوا مسمين الله أو قائلين بسم الله .

(١) انظر تفسير أبي السعود ، (٢ / ٢٠٨) .

(٢) سورة هود ، آية (٤٠) .

(٣) سورة هود ، آية (٣٧) .

(٤) كما أشار الى ذلك قوله * ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأت نوح
وامرأت لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين
فخانتهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا
النار مع الداخلين * سورة التحريم ، آية (١٠) .

* مجربتها ومرسئها * أي بسم الله وقت اجرائها ووقت ارسائها ،
فلا تستعجلوا سيرها ولا رسوها ، بل كونوا مفوضين مسلمين شاغلين أنفسكم
بحمد الله تعالى أن هداكم للإيمان الذي به نجيتم من هذا العذاب . ولذلك
أمر الله نوحا عليه السلام أن يشغل نفسه بحمده تعالى أن نجاه من القوم
الظالمين ولا شك أن من معه فعلوا مثل فعله ، ولكنه تعالى خص نوحا باستمرار
الحمد من بين قومه لبيان أن ذلك منه عامل من عوامل سلامة السفينة بمن
فيها قال تعالى في سورة المؤمنون * فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك
(١)
فقل الحمد لله الذي نجنا من القوم الظالمين * .

وقوله * إن ربي لغفور رحيم * أي غفور للذنوب والخطايا * رحيم *
بعباده المؤمنين ولذلك أنعم عليكم بانقاذكم من الغرق والهلاك ، وفيه دلالة
على أن نجاتهم ليست بسبب استحقاقهم لها بل بمحض فضل الله وغفرانه ورحمته
وقوله * وهي تجري بهم في موج كالجبال * هذه الآية تصور لنا مدى الفزع
والهول والعذاب الذي حل بقوم نوح والذي هو نهاية كل صراع باطل والضمير
في * هي * يعود على السفينة * تجري * من الجري وهو السير بسرعة
* في موج كالجبال * في ضخامة وعلو الجبال . وجريها كذلك من المعجزات
العظيمة التي أكرم الله بها نوحا عليه السلام لأنك إذا عرفت أن ماء السماء
قد التقى بماء الأرض وأن كل مكان من الأرض صار عينا تتفجر بالماء ، علمت
أن السفينة بهذا الحال لا يمكن أن تتمكن من الجري ، بل هي في علو وانخفاض
في هذه الحالة . علو بما يدفعها من أسفلها من قوة الماء النابع من
الأرض وفي انخفاض أو انكفاء بما يصب من ماء السماء . لكن الله سبحانه
وتعالى أمسك الماء من فوقها وجعلها تجري في أي اتجاه يريد الله تعالى
إكراما لنوح وقومه . وموانسة لقلوبهم وأشعارهم بعناية الله تعالى بهم
بجعل ما ليس ممكنا في هذه الأحوال ممكنا حتى لا يأخذهم الروع والفزع من
شدة ما يشاهدون . ولكي تتصور هذه الشدة ، يقول الله تعالى * ففتحنا
أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد
(٢)
قدر . وحملنّه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر *
المنهمر . قال ابن قتيبه : هو الكثير السريع الانصباب .

(١) سورة المؤمنون ، آية (٢٨) .

(٢) سورة القمر ، آية (١١ - ١٤) .

قال المفسرون : جاءهم الماء من فوقهم أربعين يوماً . وفجرت الأرض من تحتهم عيوناً أربعين يوماً كما قيل^(١) . ومعنى * على أمر قد قدر * أي التقضى الماء ان على الكيفية التي قدرها الله سبحانه وتعالى أو على أمر مقدر في اللوح المحفوظ ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان وتأمل قوله تعالى * تجري بأعيننا * أي محفوظة بحفظنا سائرة بقدرتنا إذ لا يتسنى لها في العادة . مع ما يحيط بها - كما ذكرت سابقاً - أن تحفظ في جريها لولا عناية الله تعالى .

وقوله تعالى في هود * وهي تجري بهم في موج كالجبال *^(٢) في ضخامة وعلو الجبال والجريان للسفينة والأمواج العالية التي اعتلت رؤوس الجبال إنما تحدث بسبب شدة الرياح العاصفة الشديدة ، التي زادت الموقف هولاً وصعوبة ، مع كثافة الأمطار الساقطة لتصور لنا مدى ما صب على قوم نوح من العذاب الأوجع كما يجلى لنا نهاية كل كافر معاند وأن أهل الباطل وإن كثر عددهم مهما تشبثوا به واجتمعوا عليه مخذولون ذاهبون معه . وان أهل الحق وان قلوباً منصورون مؤيدون بقوة الله تعالى فالباطل وان طال أمده زاهق ، والحق مهما عورض وحجبت أنواره فهو مزهر ثابت كما قال تعالى * وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً *^(٣) فلا يجدي استمساك بباطل مع حكم الله عليه بالزهوق . وهو الاضمحلال وعدم الثبوت . ولا يضر الحق قللة أهله لأن الله جاء به وأراد شباته ودوامه . وهكذا لم يفد قوم نوح مغالبتهم له ألف سنة إلا خمسين عاماً . وكان مصيرهم إلى الهلاك والعذاب الشديد . كما قال تعالى * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذها أليم شديد *^(٤)

(١) انظر زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٨ / ٩٢) .

(٢) سورة هود ، آية (٤٢) .

(٣) سورة الاسراء ، آية (٨١) .

(٤) سورة هود ، آية (١٠٢) .

الفصل الثالث

الصِّراع بين هود عليه السلام وقومه

الفصل الثالث

الصراع بين هود عليه السلام وبين قومه

المبحث الأول : دعوة هود عليه السلام لقومه .

- وفيه شرح عام للأساليب التي اتخذها في دعوة قومه

إلى الله تعالى .

المبحث الثاني : أولاً : موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود عليه السلام

ثانياً : دفاع هود عليه السلام عن نفسه .

المبحث الثالث : موقف هود - عليه السلام - من الكافرين والمعاندين .

أولاً : مجاهدة هود عليه السلام لقومه وردة لشبهاتهم .

ثانياً : مصير الكافرين المعاندين .

المبحث الأول

(١)

دعوة هود عليه السلام لقومه

مع

شرح موجز للآيات

* مقدمة :

ينبغي قبل الشروع في دعوة هود لقومه وعنادهم له وإصرارهم عليه —
مجانبة الحق واغترارهم بباطلهم وما أوتوا من قوة تفردوا بها أن
أقدم لذلك بقوله تعالى * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركنا عليك
وعلى أمم ممن معك وأمم ستمتعهم ثم ليمسهم منا عذاب أليم * (٢)

فان هذه الآية الكريمة قد صورت أحوال البشرية إلى آخر الدهر، وان
طوفان نوح عليه السلام الذي لا ينكر وقوعه أحد من بني آدم من بعد نوح
عليه السلام لم يمنع الشاردين عن طريق الله أن يتركوا شرودهم، لأن النسيان
صفة الانسان وأكثر الناس ينسون ما يصلحهم ويسعون فيما يضرهم. وكان
المتوقع بعد طوفان نوح عليه السلام ألا يكفر كافر بالرحمـن لأن هذا الحدث
كما قلت معلوم للعالم والجاهل على السواء، وحتى أسفار العهد القديم
الزائفة لم تغفل ذكر طوفان نوح عليه السلام مع أن اليهود عليهم اللعنة
حاولوا أن يظمسوا كل حق ما استطاعوا وأن يظهروا كل باطل ما وسعهم السبيل
إلى ذلك، بل سائر أساطير الأمم القديمة لاتخلوا من ذكر الطوفان، ولكن
الانسان الذي لم يتسلح بقوة الايمان عند ما تمسه العافية وتكثر لديه النعمة
يتمرد على ربه جل وعلا وينسى نعمته، وأجل ما مثل على ذلك: صراع عاد مع
نبيهم هود عليه السلام. لأن عاداً هم خلقاء قوم نوح في الأرض. وهم وإن كانت
مساكنهم الأحقاف فلا يمنع من انتشارهم في غيرها من الأرض التي عاش فيها
قوم نوح عليه السلام. وهم بيقين أدري بالطوفان وعنقوانه، وانه لم يترك

- (١) هود: هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام، من قبيلة
يقال لهم عاد كانوا عربا يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل وكانت باليمن
من عمان وحضر موت بأرض مظلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم
مغيث. وكانوا كثيرا ما يسكنون الخيام ذات الأعمدة الضخام كما قال
تعالى * ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد * انظر البداية والنهاية
لابن كثير، (١ / ١٢٠).
- (٢) سورة هود، آية (٤٨).
- (٣) قد انكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان ... وهؤلاء من
زنادقة المجوس عباد النيران واتباع الشيطان، انظر البداية والنهاية (١١٨/١).

شيئا على ظهر الأرض إلا أتى عليه إلا موضع الكعبة كما روي ذلك على بعض
السلف (١) .

ومع ذلك امعنوا في كفرهم وضلالهم وغرورهم واستكبارهم كما استراه إن شاء
الله في مباحث هذا الفصل .

نعود إلى قوله تعالى ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ أي بسلامة
وأمان كائنين من ذاتنا لك فلا روع ولا خوف عليك بعد ذلك .

(٢)
أو أن الله حياه بالسلام عند عودته إلى الأرض بسفينته مؤانسة لقلبه
وتمام رضاه عنه ، كما قال تعالى ﴿ سَلِّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعُلَمِينَ ﴾ (٣) .

وقوله تعالى ﴿ وَبَرَكَاتٍ ﴾ أي خيرات نامية في نسلك وما يقوم به
معاشك ومعاشهم من أنواع الأرزاق .

وقوله تعالى ﴿ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴾ أي ناشئة منك ومنتمية إليك
فهو أبو البشرية الثاني . وهو الذي جعل الله ذريته هم الباقين . وإليهم
ينتمي جميع الأمم . وفي هذه الآية بشاراة عظيمة لأمة سيدنا محمد صلى الله
عليه وآله وسلم إذ هي خير تلك الأمم . والمراد بهم الأمم المؤمنة .

وقوله تعالى ﴿ وَأُمَمٍ سَمْتَعْتَهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ المراد به
الأمم الكافرة إلى أن تقوم الساعة . والمعنى : ممن معك الذين أنجيناهم
في السفينة أمم ستكفر بنا ولم تتعظ بما حصل لمن كذبك ، ستمتعهم بنعمنا
في الدنيا التي تظفيهم وتنسيهم ذكرنا لأننا سخطنا عليهم ، ثم ينالهم منا
عذاب أليم موجه في الدنيا باهلاكهم بأنواع من الهلكة كما أهلكنا قومك ،
وبعذابنا الشديد الدائم في الآخرة الذي ينسون به ما متعناهم به في الدنيا
ومن هؤلاء الممتعين في الدنيا الهالكين بالكفر والتكذيب عاد قوم هود
عليه السلام . وسأشرع بعون الله وتوفيقه في بيان الآيات الكريمة الخاصة
في ايضاح دعوته لقومه والأساليب التي اتخذها في دعوة قومه والله أسأل
التوفيق والسداد .

(١) أشار إلى ذلك الحديث الطويل الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس قال (وكان
البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله .
صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٢١١/٧) وانظر أخبار مكة المشرفة
لابي الوليد محمد بن عبد الله الأزرق في تحقيق رشدك الصالح ملحق (٥٠/١))

مطابع دار الثقافة بمكة .

(٢) انظر تفسير النسفي (١٩٢/٢)

(٣) سورة الصافات ، آية (٧٩) .

— تنبيهه : (*)

قال تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يلقى قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ (١) هذه الآية بينت أول ما دعا هود عليه السلام قومه إليه وهو عبادة الله عز وجل وهي أول ما يدعو أي نبي قومه إليه . كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطلغوت ﴾ (٢)

ولقد أمعن قوم عاد في كفرهم وضلالهم وجبروتهم وظلمهم فمن الله جل وعلا عليهم بأن بعث فيهم رسولا من أنفسهم لينقذهم من أحوال الشرك والضلال وهو بمثابة الناصح الأمين الحريص على إنقاذهم من الهلاك . الراغب في نجاتهم وفلاحهم .

قال تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا ﴾ الجملة معطوفة على سابق والتقدير (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا) . وقوله تعالى ﴿ أخاهم ﴾ أي من جنسهم ومن قبيلتهم يعرفون نسبه وخلقه وهذا من سنن الله في خلقه أن يبعث في كل أمة رسولا منهم يعرف كل منهما حال الآخر ﴿ قال يلقى قوم اعبدوا الله ﴾ (٣) وحده لا شريك له فهو المستحق للعبادة دون سواه وناداهم (يا قوم) : يتوحد إليهم ويذكرهم بالأواصر التي تجمعهم لعل ذلك يستشير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم وثقتهم به .

﴿ مالكم من إله غيره ﴾ استئناف بياني لتعليل العبادة . المأمورين بها والمعنى أي : خصوه بالعبادة ولا تشركوا به ، إذ ليس لكم معبود سواه ﴿ أفلا تتقون ﴾ !! استفهام انكاري : ينكر عليهم نبيهم عليه السلام عدم

(*) أنبه القارئ الكريم إلى أنني سأقدم أحيانا تفسير بعض الآيات مخالفا بذلك ترتيبها في المصحف جمعا لأطراف المبحث الواحد . ووضع آيات كل مبحث تحته لتعم الفائدة . فإذا وجدتني قد تجاوزت آية إلى ما بعدها ثم عدت إليها فهو شيء مقصود .

(١) سورة الأعراف ، آية (٦٥) .

(٢) سورة النحل ، آية (٣٦) .

(٣) يلاحظ أنه في قصة هود ، قال : ﴿ قال يلقى قوم ﴾ ولم يقل ﴿ فقال ﴾ كما في قصة نوح . والجواب أنه هو على تقدير سؤال سائل قال : فمما قال لهم هو ؟ فقليل : قال يا قوم اعبدوا الله .

اعتبارهم بما حل من العذاب الأليم لأسلافهم من قوم نوح ، واصرارهم على عبادة الأصنام واتخاذها آلهة تعبد من دون الله .

وانما لم يخوفهم بحلول العذاب العظيم عليهم من أول الأمر . للفـرق^(١) بينهم وبين قوم نوح . فان قوم نوح لم يسمعوا بأمة قبلهم كذبت فعذبت أما هؤلاء فهم بنص القرآن خلفاء من بعد قوم نوح ، وأمر الطوفان لا يخفى عليهم ، لكنهم لتجبرهم وفرط غفلتهم وتماديهم في الطغيان والعصيان نسوا ما حصل لأسلافهم فكان المناسب أن يوعظوا بما يرفع عنهم هذه الغفلة بتقوى الله عز وجل ولذا أنكروا عليهم نبيهم تعاميهم وتركهم مالو لزموه^(٢) لآمنوا به . ولخافوا أن يحل عليهم عقاب أليم كما حل بقوم نوح عليه السلام .

وقد بين القرآن الكريم وسائل هود عليه السلام في دعوته قومه إلى توحيد الله وعبادته ولقد بذل كل ما في وسعه في دعوة قومه واستعمل شتى الأساليب لينقذهم من غفلتهم ولكن القوم لخبثهم وتماديهم في الكفر قابلوا ذلك بالعناد والسخرية منه والاستهزاء والاعجاب بما أعطاهم الله من قوة في الأجسام حتى أهلكهم الله وجعلهم آية لمن بعدهم ، وإليك وسائل هود في دعوته لقومه :

أ - الترغيب :

وتراه واضحا في قوله تعالى من سورة الأعراف * وإلى عاد أخاهم هودا قال يلقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره *^(٣) وقد تكرر هذا النص بعينه في سورة هود * وإلى عاد أخاهم هودا قال يلقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره *^(٤) ويتجلى أسلوب الترغيب واضحا في قوله * أخاهم هودا * وفي قوله * قال يلقوم * فان ذلك يعني اهتمامه بهم وحرصه عليهم لما استقر في الفطرة من حرص الانسان على قبيلته وفئته التي ينتمي إليها .

- (١) كما قال تعالى مخاطبا لقوم نوح على لسان نبيهم نوح عليه السلام * لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يلقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * سورة الأعراف آية (٥٩) .
- (٢) أي تقوى الله والخوف منه وأخذهم العبرة ممن سبقهم .
- (٣) سورة الأعراف ، آية (٦٥) .
- (٤) سورة هود ، آية (٥٠) .

ب - الترهيب :

وانك لترى ذلك واضحا في سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿ أفلا تتقون ﴾؟
فهو كما قلت سابقا استفهام انكاري وتراه واضحا أيضا في هود ﴿ إن أنتم
إلا مفترون ﴾ وهو أسلوب قصر ، يدل على غاية التعنيف والتوبيخ . ففي
هذا الأسلوب قصر لهم على بعض صفاتهم الذميمة التي ذكرهم القرآن بها ،
والمعنى ما أنتم باتخاذكم الأصنام شركاء لله عز وجل ، وزعمكم أن الله
أمركم بعبادتها كذبا وبهتاناً ﴿ إلا مفترون ﴾ أي مخلقون على الله تعالى
ما لم يأمر به ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ج - ازالة ما عسى أن يتوهموه به من أن هودا عليه السلام قد سلك هذا
المسلك وادعى تلك الدعوى ليصنع لنفسه جاها عند قومه ، وليتوصل بذلك
إلى نيل ما يشاء من أموالهم فبين عليه الصلاة والسلام بأسلوب القصر أنه
لا يسألهم على نصيحته اياهم اجرا وإنما يبتغي أجره من ربه الذي فطره على
امحاض النصح لهم ابتغاء وجهه تعالى ، والتقرب اليه بما يعمله من الصالحات
قال تعالى في سورة هود : ﴿ يلقوم لآ أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على
الذي فطرني أفلا تعقلون ﴾ (١) وقد جاء بالموصول في قوله ﴿ على الذي ﴾
ولم يقل (على الله) للتفخيم .

قال أبو السعود رحمه الله : (وايراد الموصول للتفخيم وجعل الصلة
فعل الفطرة لكونه أقدم النعم المستوجبة للشكر الذي لا يتأتى إلا بالجريان
على موجب أمره الغالب ، معرضا عن المطالب الدنيوية التي من جملتها الأجر) .
(٢)

ولذلك عقب بقوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ !! للتعجب من أمرهم وهم
يتصورون ويظنون انما أراد بدعوته اياهم حصوله على الثروة ونسوا أنه رسول
من عند الله جل وعلا وهو عز وجل المتكفل برزق عباده المذنبين فضلا عن
الطائعين وناهيك بالأنبياء والمرسلين ، ولو كان لهم عقول راحجة لأدركوا
خطأهم فيما يظنون به .

(٤) ١ نظر ص ١٦٨ من بحثنا هذا .

(١) سورة هود ، آية (٥١) .

(٢) تفسير أبي السعود (٤ / ٢١٦) بتصرف .

د - حِثْمٌ عَلَى الْاسْتِغْفَارِ وَعَدَمُ الْاِغْتِرَارِ بِقُوَّتِهِمْ :

ومن وسائل دعوته عليه السلام تنبيه قومه إلى قبح ذنوبهم وقولهم عن ربهم ما لا يليق به تعالى وعن نبيهم ما هو بريء منه . فعاد إلى أسلوب الترغيب فقال * ويقوم استغفروا ربكم * أي أطلبوا مغفرته لما سلف من قبح ذنوبكم فإنه سميع قريب ممن أناب إليه * ثم توبوا إليه * باقلاعكم عما كنتم عليه بعد تحصيلكم الايمان بالله ، وينبئكم الذي تصح به توبتكم ، ثم بين لهم ما يترتب على التوبة والاستغفار * يرسل السماء عليكم مدراراً * أي يأتيكم بالمطر الكثير ، وكانوا أهل زرع وجنات ، فاذا آمنوا به واستغفروه وتابوا إليه أمن لهم الماء الذي هو الأساس في حياة زروعهم وجناتهم ، وقيل : ان الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين فوعدهم نبيهم إن هم آمنوا وتابوا من ذنوبهم أن يرسل عليهم المطر . وقوله * ويزدكم قوة * إلى قوتكم * أي قوة منضمة إلى قوتكم وكانوا أقوياء أشداء ، مغتريين بقوتهم حتى قالوا ما قصه الله عنهم * فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة * .^(١)^(٢)^(٣)

هـ - تذكيرهم بنعم الله عليه :

ومن وسائل دعوته عليه السلام لقومه حضه اياهم على تذكر ما خصهم الله تعالى به من نعم امتازوا بها على غيرهم وقد أشارت سورة الأعراف الى بعض تلك النعم .

قال تعالى * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح * أي واذكروا وقت جعله تعالى إياكم خلفاء * من بعد قوم نوح * أي في مساكنهم ، أو في الأرض بأن جعلكم أمة قوية كثيرة العدد ، لا ينال منكم نائل ولا يتمكن منكم طالب ، فحقكم أن تذكروا فضل الله عليكم بهذا التمكين .

قال الألوسي رحمه الله : (إذ) منصوب على المفعولية لقوله * اذكروا * أي اذكروا هذا الوقت المشتمل على النعم الجسام وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للمبالغة

(١) انظر تفسير أبي السعود (٤ / ٢١٧) .

(٢) سورة هود ، آية (٥٢) .

(٣) سورة فصلت ، آية (١٥) .

في ايجاب ذكره . ولأنه اذا استحضر الوقت كان هو حاضرا بتفاصيله وهو معطوف على مقدر كأنه قيل : لا تعجبوا وتدبروا في أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح . ثم ذكرهم بنعمة أخرى .

وقوله تعالى ﴿ و زادكم في الخلق بسطة ﴾ أي آتاكم هبات عظيمة في أجسادكم ، وقوى بنيانكم بحيث قدرتم على ما عجز عنه غيركم .

والمعنى : زادكم بسطة في الجسم على غيركم ، فكيف تكفرون به — مع ما خصكم به من هذه النعم الظاهرة؟

ولما نبههم هو بذكر ما خصوا به أمرهم بذكر آلائه بعامة لينالوا بذلك الفلاح في الدنيا والآخرة . وليس المقصود الذكر فقط بل المقصود ذكر يودي إلى الايمان بالله عز وجل وأن يعملوا صالحا يرضاه فان الفلاح منوط بالايمان والعمل ، قال تعالى ﴿ فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ (٢) أمرهم عليه السلام أن يذكروا نعم الله الكثيرة عليهم غير هاتين النعمتين . وأن فلاحهم لن يكون الا بهذا التذكر الذي يصلهم إلى ربهم ، والذي يحملهم على اجلاله وتوقيره ، وتصديق نبيه هود عليه السلام فيما جاءهم به من عنده ، لكنهم كانوا قوما معاندين مستكبرين مغترين بقوتهم وما أوتوا من وفرة النعم لذا لم يجد أسلوب التذكر بالنعم سبيلا إلى عقولهم بل وقفوا من نبههم موقف عناد واستهزاء .

(١) بتصريف - تفسير الألوسي ، (٨ / ١٥٦) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٦٩) .

المبحث الثاني

أولا : موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود عليه السلام

من المعروف وكما أسلفت سابقا ، أن لكل رسالة سماوية أعداء يحاولون أن يقفوا في مواجهة أهل الحق ، فيناصبهم العداوة ، ويحاولوا بشتى الطرق التنقيص من قدرهم ومكانتهم ، يعتمدون في ذلك على نظرة من حولهم إليهم وثقتهم لما ميزوا به من الثراء والنفوذ والوجاهة التي حظوا بها بين قومهم ، وهؤلاء هم (الملأ) الذين أشار إليهم القرآن الكريم في أكثر قصص الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومنهم ملأ عاد الذين قص الله موقفهم من نبيهم ووصفهم له بما هو بريء منه ، قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنرؤك في سفاهة وإننا لنظنك من الكاذبين ﴾ (٢)

والناظر إلى الآية الكريمة يلاحظ اتهام قوم هود لنبيهم عليه الصلاة والسلام بتهمتين الأولى : أنه متمكن في خفة عقل ، راسخ فيها ، وهو المراد من قولهم في سفاهة .

الثانية : أنه من الكاذبين ، أي : فيما ادعاه من الرسالة .

وهناك تهمة ثالثة في الآيات التي تليها وهي استبعاد أن يكون الرسول المرسل إليهم بشرا مثلهم . والأولى في نظرهم أن يكون ملكا ، وأرادوا بذلك الطعن في رسالته ، تلك هي خلاصة التهم التي بنوا بها صراعهم مع نبيهم وأصروا على تكذيبه بعد أن عميت أبصارهم وقلوبهم عن معرفة الحق والاهتداء إلى الصواب ، والتي أشارت إليها سورة الأعراف .

قال تعالى ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ (٤) خص تعالى الملأ بالذين كفروا لأن بعضهم على ما قيل قد آمن بهود عليه السلام فجاء بهذا

(١) انظر ص (١٤١) من بحثنا هذا في مبحث (الملأ) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٦٦) .

(٣) قوله تعالى ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ سورة الأعراف ، آية (٦٩) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٦٦) .

الوصف لتمييز من آمن من الملائم من كفر ، ويجوز أن يراد بوصفهم بالكفر
(١)
ذم الملائم من عاد مطلقاً لا أن أحداً من وجهاء القوم قد آمن بيهود عليه السلام
وسوغ الرأي الأول أن نوحاً عليه السلام قد سبق هوداً عليه السلام . وعلم قوم
هود بأمر نوح وقومه متأكد ، فصح أن يوصفوا بالذين كفروا لأجل هذا العلم ،
لأنه كان كافياً في إيمانهم بنبيهم هود ونوح عليهما السلام ، لكنهم لفرط
عنادهم ، كفروا بجميع الرسل السابقين واللاحقين ، قال تعالى ﴿ إذ جاءتهم
الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا
لأنزل ملائكةً فإنا بما أرسلتم به كفرون ﴾ (٢)

وقوله تعالى ﴿ إنا لنبرئك في سفاهة ﴾ أي في خفة حلم وسخافة عقل
(٣)
وقد أكدوا قولهم هذا بثلاثة مؤكداً وهي " (انا) و (اللام) - ثم جعلوا
السفاهة ظرفاً على طريق المجاز " أرادوا أنه متمكن فيها غير منقك.

وقوله تعالى ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ أي في ادعاء الرسالة .
(٤)
وقد أكدوا ظنهم ، كما أكدوا اتهامهم له بالسفه مبالغة منهم في الاساءة
اليه ، ولقد اختلف المفسرون في تفسير هذا الظن :

فقال بعضهم : المراد منه القطع والجزم وله شواهد كثيرة من القرآن
مثل قوله تعالى ﴿ الذين يظنون أنهم ملقوا ربهم ﴾ (٥)

وقال آخرون : المراد به الشك ، قال الحسن : (كان تكذيبهم إياه
على الظن لا على اليقين ، فكفروا به ظانين لا متيقنين ، وهذا يدل على أن
حصول الشك والتجويز في أصول الدين يوجب الكفر) قلت : وأرجح أن الظن هنا
(٦)
بمعنى التردد لا بمعنى اليقين . وهذا يدلنا على مبلغ تأشير حجة نبيهم
فيهم عليه السلام ، مما جعلهم متحيرين مضطربين في شأنه لا قاطعين جازمين .

أما تهمتهم الثالثة : هي تعجبهم من ارسال الله لهم بشراً مثلهم ،

-
- (١) انظر تفسير أبي السعود (٢ / ٢٣٨) .
 - (٢) سورة فصلت ، آية (١٤) .
 - (٣) انظر لسان العرب ، (١٣ / ٤٩٧) .
 - (٤) سورة الأعراف ، آية (٦٦) .
 - (٥) سورة البقرة ، آية (٤٦) .
 - (٦) انظر تفسير الرازي ، (١٤ / ١٥٦) .

قال تعالى : ﴿ أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم —
ليندرکم ﴾ ، فهذه الآية الكريمة سبق أن تكلمنا عنها بالتفصيل عند تعجب
قوم نوح من بعثته ، وكأنهم يزعمون أن الأولى أن يبعث الله لهم ملكا
لأنه أشد مهابة وأكمل طهارة ويستبعد منه الكذب والباطل والبهتان
وقصدهم في ذلك الطعن في رسالة نبيهم هود عليه السلام .
(١)

(١) انظر (١٤٥ - ١٤٨) من بحثنا هذا

ثانيا : دفاع هود عليه السلام عن نفسه

دافع هود عليه السلام عن نفسه وأوضح لقومه ما نسبوه اليه من التهم الباطلة وما ألصقوه به من افتراءاتهم وسفاهاتهم الكاذبة واليك بيان ذلك :

أما تهمتهم الأولى (كما أسلفت) وكما حكى القرآن عنها بقوله
* قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة * تلك هي
فريتهم الأولى ولقد دافع عن نفسه بحلم وسعة بال وصبر . وأوضح
لهم موقفه بالنسبة لهم ، ومكانته التي ميزه الله بها . فقال لهم :
* قال يقوم * خاطبهم مستعظفا لهم ومستميلا لقلوبهم وأفعدتهم
* ليس بي سفاهة * أي شيء منها فضلا عن تمكني فيها كما زعمتم ، وقد
نفى عليه السلام (السفاهة) وهي كما أسلفت . (خفة العقل وانعدام
الحلم) عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه فان التاء للمرة والمعنى ليس
بي آية سفاهة فضلا عن وصفكم لي بانغماسي فيها . ولم أطل في توضيح ذلك
اكتفاء بما ذكرته في قوله تعالى * قال يقوم ليس بي ضلالة * ، إذ ما قيل
(١)
هناك ينطبق على ما هنا .

قال الكشاف : وفي اجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال
والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والأعضاء ، وتترك
المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفهم أدب
حسن ، وخلق عظيم ، وحكاية الله عز وجل ذلك ، تعليم لعباده كيف يخاطبون
السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ويسلبون أذيالهم على ما يكون منهم .
(٢)

قلت : وفي اجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة
بما أجابوهم ، درس عظيم للدعاة إلى الله كي يتحلوا بالحكمة والموعظة
الحسنة وحسن الخلق ، والتلطف في اسداء النصيحة وعدم مقابلة الاساءة بمثلها
متذكرين قوله عز من قائل * وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا
(٣)
وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلما * .

(١) انظر ص ١٥٠ من بحثنا هذا .

(٢) تفسير الكشاف ، للزمخشري ، (٢ / ٨٧) .

(٣) سورة الفرقان ، آية (٦٣) .

أما تهمتهم الثانية فقد رموه بالكذب قال تعالى ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ ويرده قوله تعالى ﴿ ولكني رسول من رب العالمين ﴾ .

قال الألوسي : والرسالة من قبله تعالى تقتضي الاتصاف بغاية الرشـد والصدق ^(١) وقد نفى عن نفسه تهمة السفاهة دون تهمة الكذب لأن ما في حيز الاستدراك كفيل بازالة تلك التهمة ، اذ يستحيل أن يكون رسولا من رب العالمين وهو متصف بالكذب ، فان أول أركان النبوة الصدق التام كما قرره علماء الكلام في مبحث النبوات ^(٢) . ويجوز أن يكون الكذب نوعا من السفاهة فيكون نفيها نفيه .

وأمر آخر وهو أنهم كانوا مترددين في كذبه كما رجحته آنفا فحينئذ لا مساغ لنفيه عن نفسه ، وإنك لتلمح ما قررته إذا أمعنت النظر في التهمتين فالأولى قولهم ﴿ إنا لنرئك في سفاهة ﴾ أي نعتقدك كذلك ولا نشك فيه بينما الثانية ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ .

ثم بين هود عليه السلام مهمته فيهم والتي خصه الله بها فقال ﴿ أبلغكم رسالت ربي ﴾ أي أوامره ونواهيـه وهي متعددة بحيث يصلح أن تكون كل واحدة منها رسالة ولذا جمعه بالالف والتاء ، وعبر بالفعل المضارع ليؤذن بتجدد تبليغه لهم وإيقاظهم آنا بعد آن ، وأنهم مهما صدوا ، فلن يكف عن تبليغهم رسالة ربهم ، حتى يحكم الله بينه وبينهم ، وأضاف نفسه إلى الجناح السامي ، انباء بعلو شأنه عند ربه .

وأنه لم يأتهم بما آتاهم به من عند نفسه ، ولأنهم كانوا كافرين ممعنين في الكفر غير مدركين لآثار الربوبية وقوله تعالى ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ بيان منه عليه السلام أنه ناصح لهم . وأنه أمين فيهم وذو ثقة ، وأنهم كانوا يقرون له بالأمانة ورجاحة العقل قبل الرسالة . فكيف يتهمونه بالسفاهة والكذب وقد جاءهم بالحق من ربهم ؟ وقد عبر بالجملة الاسمية هنا ^(٣) لافادة الثبوت والاستمرار ولبيان أنه عليه السلام مقيم على نصحه أمين

(١) تفسير الألوسي ، (٨ / ١٥٦) .
(٢) انظر (النبوات) لشيخ الاسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٢ م . والنبوة والأنبياء للشيخ محمد على الصابوني ص (٤٠) ط الثانية سنة ١٤٠٠ هـ .
(٣) انظر تفسير أبي السعود (٣ / ٢٣٨) .

عليهم لاتفارقة هاتان الصفتان مهما تسافهوا عليه .

وقد تلخص دفاعه عن نفسه في نفي ما وصفوه به ، وأنه رسول مــــن
رب العالمين الذي يقيم الحجة على عباده بارسال الرسل ، الذين ينقذهم بهم
من الظلمات إلى النور ، وأنه مبلغهم رسالة ربهم ، وأنه لهم ناصح أمين ،
أما تهمتهم الثالثة له : بتعجبهم من كون أن الله يبعث رسولا من بيــــن
أيديهم وأنه الأولى في نظرهم أن يكون ملكا ، فقد وضحت هذه المسألة فــــي
(١)
قصة نوح عليه السلام بما يغني عن إعادتها هنا .

(١) انظر ص ١٤٦ - ١٤٨ من بحثنا هذا .

المبحث الثالث

موقف هود عليه السلام من الكافرين والمعانديين

أولاً: مجاهدة هود عليه السلام لقومه

كان المتوقع من قوم عاد أن يستجيبوا لنبيهم هود عليه السلام بعد أن حاجهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكنهم لسوء تفكيرهم وانطماس بصيرتهم أخذتهم العزة بالاثم ، وغرتهم تلك النعم التي حباهم الله بها ، فلم يقابلوا الدعوة بالاجابة ، والنعمة بالشكر والانتابة بل جحدوا واستكبروا ، وأمعنوا في ضلالهم وعتوهم ، بل وصل بهم الأمر إلى تحديهم لنبيهم عليه السلام .

ولقد مكث عليه السلام يدعوهم صابراً محتسباً متحملاً كل أذى ، وهم مصرون على تكذيبه وعناده ، إلى حد أنهم طلبوا أن يأتيهم بالعذاب الذي توعدهم به * فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * (١)

وألخص عنادهم ذلك واستكبارهم ومجاهدته لهم بما يلي :

(أ) : استكبارهم عن دعوة نبيهم في تخصيص العبادة لله عز وجل :

قال تعالى * قالوا أجهت لنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا * (٢)

لقد دعا هود عليه السلام قومه إلى توحيد الله بالأدلة القاطعة ، وذلك بأن بين لهم أن نعم الله عليهم كثيرة عظيمة ، وصریح العقل يدل على أنه ليس للأصنام شيء من النعم على الخلق لأنها جمادات ، والجماد لا قدرة له على شيء أصلاً ، ومعلوم أن العبادة نهاية التعظيم ، ونهاية التعظيم لاتليق إلا بمن يصدر عنه نهاية الانعام ، وذلك يدل على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله وأن لا يشركوا معه شيئاً من الأصنام . ثم إن هوداً عليه السلام لما ذكر لهم هذه الحجة اليقينية لم يكن من القوم جواب عن هذه الحجة التي ذكرها

(١) ، (٢) سورة الأعراف ، آية (٧٠) .

(١)
الا التمسك بطريقة التقليد فقالوا : ﴿ اجئتنا لنعبد الله وحده ونؤخر
ما كان يعبد آباؤنا ﴾ وقد قالوا ذلك على سبيل الإنكار والاستهزاء .

اجئتنا يا هود لأجل أن نعبد الله وحده ونترك ما كان يعبد آباؤنا من
الأوثان والأصنام ؟ إِنَّ هذا لن يكون منا أبداً .

(ب) : طلبهم العذاب :

(٢)
قال تعالى ﴿ فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصدقين ﴾ وهذا مثله
في الأمم كثير كما قال تعالى ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴾ إن كنت من
الصدقين ﴿ وقول قريش ﴾ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من
عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴿ وإنما قال
قوم عاد لنبيهم ما قالوا من استعجالهم العذاب ، لأنهم كانوا يعتقدون كونه
كاذباً بدليل أنهم قالوا ﴿ وإنما لنظنك من الكاذبين ﴾ فلما اعتقدوا كونه
كاذباً قالوا له ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ وقصدهم بذلك ، أنه إذا لم يأتيهم
بذلك العذاب ظهر للقوم كونه كاذباً . وحاشاه عن ذلك عليه السلام ، وقولهم
هذا تحدّ سافر لنبيهم هود ودعوته ، ولكن هوداً أجابهم وحسم الموقف رداً
على سفاهتهم ولاستعجالهم العذاب بما قصه الله على لسانه ﴿ قال قد وقع
عليكم من ربكم ﴾ أي حق عليكم ووجب . . . أو المراد : قد نزل عليكم فقد
جعل المتوقع الذي لا بد من نزوله بمنزلة الواقع .
(٥)

﴿ رجس ﴾ ليس المراد بالرجس هنا العذاب . فلو حملنا الرجس عليه
لزم التكرار بل المراد منه الزيادة في الكفر . فعندما أصر القوم على
التقليد وعدم الانقياد للدليل زادهم الله كفراً وضلالاً . ثم خصهم الله بمزيد
من الغضب وهو قوله ﴿ وغضب ﴾ والمراد به هنا هو العذاب الأليم الذي
هو نهاية كل كفر جاحد والتنوين في قوله ﴿ رجس وغضب ﴾ .

-
- (١) انظر تفسير الرازي ، (١٤ / ١٥٩) .
(٢) سورة الأعراف ، آية (٧٠) .
(٣) سورة الشعراء ، آية (١٨٧) .
(٤) سورة الأنفال ، آية (٣٢) .
(٥) انظر تفسير أبي السعود ، (٣ / ٢٢٩) .
(٦) انظر تفسير الرازي ، (١٤ / ١٥٩ - ١٦٠) .

(١)
للتفخيم والتهويل .

وقوله تعالى ﴿ اتجدلونني في أسماء سميتوها أنتم وءابؤكم ﴾ أي
أتخاصمونني والاستفهام انكاري ﴿ في أسماء سميتوها ﴾ أي في أشياء ماهي
الا أسماء ليس تحتها مسميات لأنكم تسمونها آلهة ، ومعنى الإلهية فيها
معدوم محال وجوده ، إذ المستحق للعبادة والذي لا ينبغي أن تصرف لأحد سواه
إنما هو الله . أما هذه الأصنام التي زعمتم أنها آلهة فهي لا تملك
لنفسها نفعا ولا ضرا . وكانت لهم أصنام يعبدونها وهي (صداء ، وصمود ،
والهباء) ، وقوله تعالى ﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ أي ما نزل
الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم في ألوهيتها ، وإنما هي أصنام
باطلة قلدتكم آباءكم في عبادتها بدون علم ولا حجة ولا بينة .

ثم هددهم بالمصير المحتم عليهم فقال ﴿ فانتظروا إني معكم من
المنتظرين ﴾ أي انتظروا العذاب الذي استعجلتموه وطلبتموه حين قلتم
﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ وهل تستطيع ألهتكم رد هذا العذاب عنكم ؟ كلا
﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أي منتظر لما يحل بكم من العذاب
الآليم . واكمالا للفائدة أستكمل مجاهدة هود عليه السلام لقومه من سورة هود .

(ج) : طلبهم البينة والمعجزة الدالة على صدقه :

قال تعالى ﴿ قالوا يلهود ما جئتنا ببينة ﴾ أي ماجئتنا بحجة
وبرهان قاطع على ما تدعيه . وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا التي عبدها
آبؤنا من قبل بمجرد دعوى منك لم تقم عليها بينة ولا برهان قاطع ، وقد
جاءهم هود عليه السلام بالأمر الواضح الذي لا يحتاج في التدليل عليه إلى
خارق من خوارق العادات ، لأنه دعاهم إلى عبادة الله وحده ونبت الأصنام التي
لا تنفع ولا تضر ، وهذه الدعوى لا تحتاج إلى الاستدلال عليها بمعجزة حسية لأنها
الفطرة السليمة ومنطق العقل السليم ، وكان يكفيهم ما حل بقوم نوح في
بيان عاقبة أهل الكفر العاكفين على عبادة الأصنام ، فغرق قوم نوح بالطوفان

(١) انظر تفسير أبي السعود ، (٣ / ٢٣٩) .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ، (٣ / ٢٤٠) ، و تفسير النسفي ، (٢ / ٦٠) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧١) .

(٤) سورة هود ، آية (٥٢) .

كما قررته في أول البحث كاف في بيان سوء الكفر وخسران أهله . لكنهم لفرط عنادهم قد غفلوا عن ذلك أو تعاملوا عنه . وكانوا يطلبون المعجزة الحسية عنادا واستكبارا فلم يجيبهم الله لما طلبوا ، لبيان تعاليه عن هوى أهل الأهواء واقتراحهم من الآيات ما يشاءون ، فمهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام انذار الكافرين بنقمة الله تعالى ان هم أقاموا على كفرهم في الدنيا والآخرة .

وتبشير المؤمنين الموحدين بالكرامة والحياة الطيبة في الأولى والآخرة وانك لتجد هذا المعنى الذي أقرره واضحا في الرد على اقتراح قريش على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالآيات الحسية * ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد * (١)

وقوله تعالى * ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب * (٢)

وقوله تعالى * وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الأيئت عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون * (٣) وقوله تعالى * وما نرسل بالآيئت إلا تخويفا * ، ومن سننه تعالى (أنه إذا خرقت قوم عادة فأصروا على الكفر أهلكتهم الله بالعذاب) ولهذه القاعدة استثناء لا أدخل فيه تجنبا للاطالة . ولذلك لم يأت الله عادا بما اقترحوا وإنما خص الله هودا عليه السلام بمعجزة حسية بينه لم يلتفتوا إليها لأنها لم تكن من نوع ما يطلبون . وهي مذكورة في قوله تعالى * من دونه فكيدوننى جميعا ثم لاتنظرون * أي أجمعوا قوتكم غير مستعينين بالله عز وجل (٥) ولا تمهلونني في كيدكم فانكم لم تبلغوا مني شيئا .

(١) سورة الرعد ، آية (٧) .

(٢) سورة الرعد ، آية (٢٧) .

(٣) سورة الأنعام ، آية (١٠٩ - ١١٠) .

(٤) سورة الاسراء ، آية (٥٩) .

(٥) سورة هود ، آية (٥٥) .

قال صاحب الكشاف : من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد
أمة عطاشا إلى اراقة دمه يرمونه عن قوس واحد . وذلك لثقتة بريه ، وأنه
(١)
يعصمه منهم فلا تنشب فيه مخالبتهم .

فبالرغم من تجبر عاد في الأرض وتميزهم بالقوة الجسمية والمادية
فان أحدا منهم لم يستطع أن ينال من هود عليه السلام شيئا ومضى الأمر
كما أخبر حتى جاءهم عذاب الله وهم في غيهم سادرون .

(د) : قذفه بالجنون :

قال تعالى ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ قال
صاحب الكشاف في تفسير هذه الآية : ﴿ اعتراك ﴾^(٢) مفعول (نقول) ، والمعنى
ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . أي خبلك ومسك بجنون لسبك
اياها ، وصدك عنها وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء
الجزاء ، فمن ثم تتكلم بكلام المجانين ، وتهذي بهذيان المبرسمين ، وصدور
هذا الاتهام ، منهم يدل على أنهم قوم جفاة غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت ،
ولا يلتفتون إلى النصح ولا تليين شكيمتهم للرشد^(٣) .

وهنا لم يبق لهود إلا التحدي ومجاهدتهم بالوعيد والانذار الأخير
للمكذبين ، مستعينا بالله وحده ، معتمدا عليه . قائلًا لهم ﴿ قال إنني
أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون ﴾^(٤) .

وللزمخشري كلام نفيس أثبتته بنصه لعظيم فائدته ولبلاغته : " أكدبراًته
من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة
الله وشهادة العباد . فيقول الرجل : الله شهيد على أني لا أفعل كذا ، ويقول
لقومه كونوا شهداء على أني لا أفعله ، فان قلت : هلا قيل : إنني أشهد الله
وأشهدكم ؟ قلت لأن اشهاد الله على البراءة من الشرك اشهاد صحيح ثابت في
معنى تثبيت التوحيد وشدة معاقده . وأما اشهادهم فما هو إلا تهـاـون
بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف

(١) تفسير الكشاف ، للزمخشري ، (٢ / ٢٧٦) .

(٢) قال صاحب اللسان عرا - وعراني الأمر يعروني عروا ، اعتراني :
غشيني وأصابني .

(٣) الكشاف للزمخشري ، (٢ / ٢٧٦) .

(٤) سورة هود ، آية (٥٤) .

ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة ، كما يقول الرجل لمن يبس الشرى بينه وبينه : أشهد على أني لا أحبك . تهكما به واستهانة بحالسه * مما تشركون من دونه * من اشراككم آلهة من دونه ، أو مما تشركون من آلهة من دونه ، أي : أنتم تجعلونها شركاء له ولم يجعلها هو شركاء ، ولم ينزل بذلك سلطانا * فكيدوني جميعا ثم لاتنظرون * أعجل ماتفعلون من غير انتظار ، فاني لا أبالي بكم وبكيدكم ولا أخاف معرفتكم وان تعاونتم علي وأنتم الأقوياء الشداد . فكيف تفرني آلهتكم وما هي إلا جماد لا تضر ولا تنفع ؟ وكيف تنتقم مني إذا نلت منها ، وصدت عن عبادتها بأن تخيلني وتذهب بعقلي ؟ * إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو ^(١) اخذ بناصيتها * ومهما أنكرتم وكذبتم فهذه الحقيقة قائمة . حقيقة ربوبية الله لي ولكم ، فالله الواحد هو ربي وربكم عليه توكلتي وهو ثقتي وحافظي ، * ما من دابة إلا هو اخذ بناصيتها * صورة محسوسة للقهر والقدرة ، تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض ، بما فيها الناس .

الناصية : أعلى الجبهة فهو القهر والغلبة والهيمنة ، في صورة حسية تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدتهم . وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم . ^(٣)

* إن ربي على صراط مستقيم * يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه لا يفوته ظالم ولا يضيع عنده معتم به .
* فان تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم * فان قلت : الإبلاغ كان قبل التولي فكيف وقع جزاء للشرط ؟ قلت : معناه : فان تتولوا لم أعاتب على تفريط في الإبلاغ وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به اليكم قد بلغكم فأبيتم ، إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول .

* ويستخلف * كلام مستأنف ، يريد : ويهلككم الله ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم * ولا تضرونه * بتوليتكم * شيئا *

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ، (٢ / ٢٧٦) .

(٢) سورة هود ، آية (٥٦) .

(٣) انظر (في ظلال القرآن) للسيد قطب ، (١٢ / ٥٨٢) .

(١) من ضرر قط ، لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع ، وإنما تضررون أنفسكم .

(٢) * إن ربي علن كل شيء حفيظ * يحفظ دينه وأولياءه . ولا تخفى عليه أعمالكم وما تكنه صدوركم . وكان ذلك آخر مجاهدته وجداله معهم . وقد أقام عليهم الحجة وحق عليهم الوعيد والجزاء الشديد .

(١) انظر الكشاف للزمخشري ، (٢ / ٢٧٧) .

(٢) سورة هود ، آية (٥٧) .

ثانيا : مصير الكافرين المعاندين

(من قوم عاد)

لقد أجملت سورة الأعراف ما وقع على عاد من العذاب ، ولم تبين كيفيته بل أخبرت عن تحقق وقوعه عليهم ونزوله بهم لا محالة كما قال تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس (١) وغضب * وقد توعدهم هود عليه السلام في سورة الأعراف بما حكاه الله في قوله تعالى * فانتظروا إني معكم من المنتظرين * أي انتظروا عذابكم (٢) الواقع لامحالة ، والذي لا تملكون دفعه بحال * إني معكم من المنتظرين * لهذا العذاب الذي يخزيكم به الله وينجيني ومن معي من المؤمنين برحمة منه ويقطع دابر الكافرين .

وقد ذكر عذاب عاد في القرآن بأساليب متعددة ، يعينني منها آيات سورة الحاقة التي صورت لنا كيف كان هذا العذاب . قال تعالى * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية . * (٣)

وإليك تفسيراً موجزاً للآيات .

فقوله تعالى * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * ومثلها قوله تعالى * فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات * أي مشثومات عليهم (٤) قوله * فأهلكوا بريح * أي : الدبور . لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

-
- (١) انظر تفسير الآية ص (١٨٠) من بحثنا هذا .
 - (٢) سورة الأعراف ، آية (٧١) .
 - (٣) سورة الحاقة ، آيات من (٦ - ٨) .
 - (٤) سورة فصلت ، آية (١٦) ، انظر النسفي (٩١ / ٤) .

(١) نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور (٢)

وفي معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان :

أحدهما : أن الريح ^(٣) الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يسمع لهبوبها صوت شديد ، وعلى هذا فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة .

ومنه قوله تعالى ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ ^(٤) أي في صيحة وممن

هذا المعنى : صرير الباب والقلم ، أي : صوتهما .

الوجه الثاني : أن الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرق ومنه على

أصح التفسيرين قوله تعالى ﴿ كمثل ريح فيها صر ٠٠٠٠ ﴾ ^(٥) الآية ، أي فيها

برد شديد محرق . ومنه قول حاتم الطائي :

(١) قوله نصرت بالصبا : بفتح المهملة بعدها موحده مقصورة يقال لها :

القبول بفتح القاف لأنها تقابل الكعبة إذ مهبها من مشرق الشمس ونصرته صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب . وكان المشركين زهاء اثني عشر ألف مقاتل حاصروا المدينة فأرسل الله اليهم ريح الصبا ، باردة في ليلة شاتية . فسفت التراب في وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت خيامهم فانهزموا من غير قتال ، ولكنها لم تهلك أحدا ولم تستأصلهم لما علم الله من رأفة نبيه صلى الله عليه وسلم بقومه رجاء أن يسلموا .

وضدها الدبور وهي التي أهلكت عاد . ومن لطيف المناسبة كون القبول نصرت أهل الاقبال . وكون الدبور أهلكت أهل الادببار وهي الريح العقيم . وسميت العقيم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم بتصرف من فتح الباري (٣ / ١٧٤) .

(٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٣ / ١٧٤) .

(٣) تنبيهه :

هناك فرق بين الريح والرياح : فالريح لا تكون إلا للعذاب كما قال تعالى ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ وقول السيدة عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال (اللهم اني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به) .

وأما الرياح : فهي للرحمة وخير العباد ، كما قال تعالى

﴿ وأرسلنا الريح لواقح ﴾ . فتنبه . الجرائيم : (٢٤)

(٤) سورة الذاريات ، آية (٢٩) .

(٥) سورة آل عمران ، آية (١١٧) .

(١)
أوقند فان الليل ليل قر والريح ياواقد ربح صر
عل يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفا فانت حر

فقوله : (ربح صر) أي باردة شديدة البرد.

والأظهر أن كلا القولين صحيح . وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين
(٢)
فهي ربح عاصفة شديدة الهبوب باردة شديدة البرد ٥٠١٠هـ.

قلت : والذي أرجحه هو الوجه الثاني . وهي كونها ريحا باردة فاما
شدة هبوبها وعصفها وقوتها فمصرح به في قوله تعالى ﴿ عاتية ﴾ وقولـه
﴿ عاتية ﴾ أي شديدة العصف فما استطاعوا ردها والخلص منها بحيلة من
استتار بيناء ، أو لياذ بجبل ، أو اختفاء في حفرة ، فانها كانت تنزعهم
من مكانهم وتهلكهم ، وذلك لشدة عتوها ، وأصل العتو تجاوز الحد ، ووصفها
بالعتو مناسب لحالهم ، وما كانوا عليه من الفظاظة والغلظة والعتو
والاستكبار.

﴿ سخرها عليهم ﴾ أي سلطها عليهم عز وجل بقدرته وأدامها عليهم .
﴿ سع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ أي متتابعة ، الليلة تلو الليلة
ليس بينهم فاصل ، حتى أتت عليهم واستأصلتهم .

ومعنى ﴿ حسوما ﴾ قيل حاسما أثرهم ، وقيل حاسما خبرهم ، وقيل
(٣)
قاطعاً لعمرهم ، وكل ذلك داخل في عمومه .

﴿ فترى القوم ﴾ أي إن كنت حاضرا حينئذ فالخطاب فيه فرضي ﴿ فيها ﴾
أي في الأيام والليالي .

(صرعن) أي هلكى جمع صريع . وهذه هي عاقبة ونهاية الصراع لا بد
في النهاية أن ينتصر الحق على الباطل .

(١) القر : البرد عامة ، (٨٢ / ٥) لسان العرب .

(٢) أضواء البيان للشنقيطي (٧ / ١٢١ - ١٢٢) ط الثانية ١٤٠٠هـ على
نفقة الشيخ محمد بن لادن .

(٣) انظر المفردات في غريب القرآن للأصبهاني - (انظر ص ١١٨)
والحسم : إزالة أثر الشيء ، يقال قطعه فحسمه أي أزال مادته وبه
سمي السيف حساما . وحسم الداء إزالة أثره بالكي . انظر
مفردات القرآن للأصبهاني (١١٨) .

* كأنهم أعجاز نخل خاوية * أصولها . ولقد شبههم بأعجاز النخل إشارة إلى عظم أجسامهم ، قال ابن حجر : وفي التفسير أن الريح كانت تحمل الرجل فترفعه في الهواء ثم تلقيه فتشدخ رأسه فيبقى جثة بلا رأس ، فذلك قوله * كأنهم أعجاز نخل خاوية * وأعجاز النخل التي لا رؤوس لها .

هذا وقد عقد البخاري في كتاب بدء الخلق بابا أشار إليه بقوله : (باب قول الله تعالى : * وإلى عاد أخاهم هودا * وقوله * إذ أنذر قومه بالأحقاف * إلى قوله : * كذلك نجزي القوم الظالمين *) .

عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم . وقول الله عز وجل * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر - شديدة - عاتية - * قال ابن عيينة : عتت على الخزان (١) الخ . (٢)

وتكميلا للفائدة أنقل للقاري الكريم ما كتبه علماء التفسير والتاريخ في بسط قصة عاد لمكان العظة والاعتبار والا فجلي أن ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك وما سكت عن بيانه من تلك القصص فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع والجزم به اللهم إلا لزيادة الاتعاض ، وتقوية العبرة ولذا صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال (حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج *) . وقصتهم على ما ذكره السدي ومحمد بن أسحاق ونقلها الألوسي وغيره : أن عاداً قوم كانوا بالأحقاف وهي رمال بين عمان وحضرموت وكانوا قد فشوا في الأرض كلها وقهروا أهلها وكانت لهم أصنام يعبدونها وهي صداة وصمود والهباء . فبعث الله تعالى إليهم هودا . عليه السلام نبيا وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم حسبا فأمرهم بالتوحيد والكف عن الظلم فكذبوه وازدادوا عتوا وتجبرا وقالوا : من أشد منا قوة فامسك الله عنهم المطر ثلاث

-
- (١) قال ابن حجر أما تفسير ابن عيينة فرويانه في تفسيره رواية سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عنه عن غير واحد في قوله * عاتية * قال : عنتت على الخزان وما خرج منها إلا مقدار الخاتم . ويؤيده ما أخرجه ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر والطبراني من حديث ابن عباس رفعه : " ما فتح الله على عاد من الريح إلا موضع الخاتم فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض فرآهم الحاضرة فقالوا : هذا عارض ممطرنا فألقتهم عليهم فهلكوا جميعا " انظر فتح الباري (٧ / ١٨٦) .
- (٢) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (٧ / ١٨٦) .
- (٣) صحيح البخاري مع شرح فتح الباري (٧ / ٣٠٩) .

ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك وكان الناس إذ ذاك إذا نزل بهم بلاء طلبوا رفعه من الله تعالى عند بيته الحرام مسلمهم ومشرکہم ، وأهل مكة يومئذ العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدهم معاوية بن بكر وكانت أمه كهلة من عاد فجهزت عاد إلى الحرم من أمائلهم سبعين رجلا منهم: قبيل بن عنز . ولقيم بن هزال . ولقمان بن عاد الأصغر . ومرثد بن سعد الذي كان يكتنم اسلامه ، وجلهمة خال معاوية بن بكر فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية وكان خارجا من الحرم فانزلهم وأكرمهم إذ كانوا أخواله وأصهاره فأقاموا عنده شهرا يشربون الخمر وتغنيهم قينتان لمعاوية اسم احدهما وردة والأخرى جرادة ، ويقال لهما الجرادتان على التغليب فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللهو عما قدموا له شق ذلك عليه وقال هلك أصهاري وأخوالي وهؤلاء على ما هم عليه وكان يستحي أن يكلمهم خشية أن يظنوا به ثقل مقامهم عنده فشكا ذلك لقينتيه فقالتا . قل شعرا نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك أن يحركهم فقال :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم	لعل الله يسقينا غماما
فتسقى أرض عاد إن عادا	قد أمسوا ما يبينون الكلاما
من العطاش الشديد فليس نرجو	به الشيخ الكبير والغلما
وقد كانت نساؤهم بخيـر	فقد أمست نساؤهم عياما
وان الوحش تأتيتهم جهارا	ولا تخشى لعادي سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم	نهاركم وليكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم	ولا لقوا التحية والسلاما

فلما غنتا بذلك قال بعضهم لبعض يا قوم إنما بعثكم قومكم يتغوثن بكم من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم فقال مرثد بن سعد والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أظعتم نبيكم وأنبتم إلى ربكم سقيتم فآظهر اسلامه عند ذلك وقال :

عصت عاد رسولهم فأمسوا	عطاشا ما تبلهم السماء
لهم صنم يقال له صمود	يقابله صداء والهباء
فبصرنا الرسول سبيل رشـد	فأبصرنا الهدى وخلا العماء
وإن إله هود هو الهـي	على الله التوكل والرجاء

فقالوا لمعاوية : احبس عنا مرثدا فلا يقدمن معنا مكة فإنه قد اتبع دين

هود . وترك ديننا ثم دخلوا مكة يستسقون فخرج مرشد من منزل معاوية حتى أدركهم قبل أن يدعوا بشيء مما خرجوا له فلما انتهى إليهم قام يدعو الله تعالى ويقول . اللهم سؤلي وحدي فلا تدخلني في شيء مما يدعوك به وقد عاد وكان قيل رأس الوفد فدعا وقال : اللهم اسق عادا ما كنت تسقيهم وقال القوم . اللهم أعط قبلا ما سألك واجعل سؤلنا مع سؤلله فأنشأ الله تعالى سحائب ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم نادى مناد من السماء يا قبيلى اختر لنفسك ولقومك من هذه السحائب ماشئت. قيل: وكذلك يفعل الله تعالى بمن دعاه إذ ذاك فقال قيل . اخترت السوداء فانها أكثرهن ماء فناداه مناد . اخترت رمادا رمدا لا تبقي من آل عاد أحدا . وساق الله تعالى تلك السحابة بما فيها من النعمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد يقال له المغيث فلما رأوها استبشروا وقالوا : هذا عارض ممطرنا فجاؤتهم منها ريح عقيم ، وأول من رأى ذلك امرأة منهم يقال لها مهدر ولما رأتها صعقت فلما أفاقت قالوا : ما رأيت قالت : رأيت ريحا فيها كשב النار أمامها رجال يقودونها فسخرها الله تعالى عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فلم تدع منهم أحدا إلا أهلكته واعتزل هود عليه السلام ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا ما تلين به الجلود وتلتذ الأنفس ، ثم إنه عليه السلام أتى هو ومن معه مكة فعبدوا الله تعالى فيها إلى أن ماتوا وقبره عليه السلام قيل هناك في البقعة التي بين الركن والمقام وزمزم ، وفيها - كما أخرج ابن عساكر عن عبد الرحمن بن سابط - قبور تسعة وسبعين نبيا منهم أيضا نوح . وشعيب . وصالح واسماعيل عليهم السلام ، وأخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وغيرهما عن على كرم الله تعالى وجهه أن قبره عليه السلام بحضرموت فسي كثيب أحمر عند رأسه سدرة ، وأخرج ابن عساكر عن ابن أبي العاتكة قال : قبله مسجد دمشق قبر هود عليه السلام ، وعمر كما أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أربعمائة واثننتين وسبعين سنة والله تعالى أعلم .^(١)

(١) تفسير الألوسى (٨ / ١٦٠ - ١٦١) .

قلت : وهذه القصة التي ذكرها ابن اسحاق ونقلها الألوسى فى تفسيره لم يرد فيها حديثا صحيحا يسلم بصحته وإنما هى قصة لا كرها المؤرخون ونقلها بعض المفسرين ولا يخفى ما فيها والله أعلم .

الفصل الرابع

الصراع بين صالح عليه السلام
وبين قومه

الفصل الرابع

الصراع بين صالح - عليه السلام - وبين قومه

- المبحث الأول : دعوة صالح عليه السلام لقومه .
وفيه شرح للأساليب التي اتخذها في دعوة قومه إلى
الله تعالى .
- المبحث الثاني : موقف الكافرين المعاندين من دعوة صالح عليه السلام
المبحث الثالث : مصير الكافرين المعاندين والمكذابين من قوم صالح
عليه السلام .

المبحث الأول

دعوة صالح عليه السلام لقومه

مقدمة :

(١)
(نبذة عن ثمود)

من المعروف قطعا أن الله جل وعلا لم يخلق الخلق هكذا عبثا - تعالى الله وتقدس عن ذلك ، وإنما الحكمة في ذلك أنه خلقهم لعبادته (جل وعلا) واطهار ربوبيته فيهم كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٢)

ومن رحمته جل وعلا بعباده أنهم كلما حادوا عن الصراط المستقيم وكفروا به وأشركوا معه غيره في عبادته أرسل إليهم رسولا من أنفسهم يدعوهم إلى عبادة الله جل وعلا وطاعته فيما أمر واجتناب كل ما نهى عنه وزجر . كما قال تعالى ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (٣) وكان الله عزيزا حكيما ﴿ .

وقد مر علينا في الفصل السابق قصة عاد مع نبيهم هود عليه السلام ، وكيف أنهم كذبوا نبيهم عليه السلام ، وأصروا على عبادة الأصنام والأوثان من دون الله ، وأنهم لم يعتبروا بما حل بقوم نوح عليه السلام وقد كانوا خلفاء لهم ، وكيف كان مصير المكذابين إلى الهلاك والعذاب الأليم .

ولما أهلك الله عادا أعقبهم بثمود ، وقوم ثمود هم من نسل الصالحين من قوم عاد كما أن عادا هم من نسل الصالحين من قوم نوح . ولكن البشريتنا طول العهد والزمن ينسون ما حل بمن قبلهم من العذاب فيستولى عليهم الشيطان ، ويكذبوا رسل الرحمن ، ويغيروا شرع خالق الأكوان ، وكان الأجدر بثمود أن يعتبروا بما حل بالأمم الماضية التي سبقتهم مثل قوم نوح وعاد ، ولكنهم كانوا كفرة عتاة جبارين (الأمزجهم الله) فلم يشأ الله أن يهلكهم ، إلا

(١) ثمود قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود أخي جديس وهما أبناء عاهر بن أرم بن سام بن نوح وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك ١ هـ . البداية والنهاية (١ / ١٣٠) ، وفي سبائك الذهب (ثمود) قال إنه في الأصل اسم لأبي القبيلة . ثم نقل وجعل اسما لها ١ هـ . بتصرف ص ١٤ ط المكتبة التجارية الكبرى بمصر (٢) سورة الذاريات ، آية (٥٦) . (٣) سورة النساء ، آية (١٦٥) .

(١) بعد أن تقوم حجته عليهم باظهار الحق لهم ، ولذلك بعث فيهم نبيهم (صالحا)
عليه السلام ، وسنعرف خبرهم من خلال آيات سورة الأعراف التي هي موضوع
بحثنا (الصراع بين الحق والباطل) كما سيفطرني البحث الى تناول القصة
في سورتى هود والشعراء ، باعتبار أن القرآن جعل من دواعي اعجازه تفريق
مشاهد القصة في أكثر من سورة من سوره ، ليبرهن بذلك على أنه كلام القوي
القدير وأنه يستحيل أن يكون لأحد في القرآن صنعة وعمل ، فعلى سبيل
المثال لقد أجملت سورة الأعراف هذه القصة بعض الاجمال ، فلم تذكر من
رد قوم صالح عليه إلا ما قاله الملائكة المستكبرون للمستضعفين الذين
آمنوا به عليه السلام كما سيمر بك من أجل ذلك أجدني مضطرا لتناول القصة
في أكثر من سورة ، لأن ذلك أبين للصراع وأدل عليه ، مركزا بالطبع على
تفسير وتحليل آيات سورة الأعراف ، ومستشهدا فقط (بتفسير وتعليق
موجز) - بما ذكر في غيرها -

(١) هو صالح بن عبيد بن أسيف بن ماشخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر
بن إرم بن سام بن نوح ١٠هـ . فتح الباري (٧ / ١٨٨) .

(المبحث الأول)

(دعوة صالح عليه السلام لقومه)

هذه القصة الثالثة تصور مشهدا من مشاهد الصراع بين الحق والباطل قال تعالى : * وإلى ثمود آخاهم صلحا ^(١) * وأرسلنا إلى ثمود آخاهم صلحا ، فقوله * آخاهم * منصوب بهذا الفعل المحذوف ، والجملة معطوفة على قوله تعالى * لقد أرسلنا نوحا . وإلى عاد آخاهم هود * وقوله تعالى * آخاهم صلحا * بيان لعلاقته بهم وحرصه عليهم وأنه كان من أشرفهم نسبا ، وأنه كان معروفا فيهم بالأخلاق والفضل ، وأنه كان مرجوا لسيادتهم لو لم يخرج عن دينهم وما ورثوه عن آبائهم ، أو أنه كان مقصدا لكل ذي حاجة منهم مستشارا مؤتمنا في اظهار جليات ما خفي عليهم أو اضطرب رأيهم فيه .

يدل على ذلك قوله تعالى * قالوا يصلح قدكنتنا فينا مرجوا قبل هذا ^(٢) * أي قبل هذا الذي جئتنا به فخالفتنا فيه ولم نعهده من آبائنا وأسلافنا ، ولذلك حسن أن تخبرنا سورة الأعراف بدعوة قومه مباشرة إلى عبادة الله وحده بعد هذا التعريف الموجز قال تعالى * قال يلقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ^(٣) * دعاهم عليه الصلاة والسلام مناديا لهم بقوله * يلقوم * استمالة لهم وتوددا يذكرهم بالأوصار التي تجمعهم لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم وثقتهم به .

ولقد دعاهم - كما دعا - بذلك الرسل أجمعون - إلى عبادة الله وحده لا شريك له الواحد القهار . كما قال تعالى * وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحيّ إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ^(٤) * ، والملاحظ في دعوة نوح وهود وصالح عليهم السلام أنهم قالوا جميعا لأممهم أول ما قالوا * اعبدوا الله * ولم يتبعوا ذلك بذكر أسمائه سبحانه وتعالى كلها أو بعضها ، دليلا على أنهم كانوا يعرفون الله سبحانه وتعالى ، وأنه وحده المستحق للألوهية ، وأن ذلك هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وأن كفر هذه

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .

(٢) سورة هود ، آية (٦٢) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .

(٤) سورة الأنبياء ، آية (٢٥) .

الأمم وغيرها كان ضلالا عن الفطرة ، فالعلم به سبحانه وتعالى مستقر في الروح
غير أن الحجب الناشئة عن سوء الأعمال جعلت هذا العلم ينزوي .

وقوله ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ استئناف مسوق لتعليل العبادة
المذكورة أو الأمر بها أي مالكم من إله غيره مطلقا يستحق أن يعبد، أو
إني أمرتكم بعبادة الله ، لأنه الإله الحق الذي لا إله سواه ، ولذا
جاء " بمن " هنا لبيان بطلان عبادة غير الله بالكلية . لأن حرف الجر
الزائد في سياق النفي يفيد الاستغراق . والمعنى : ليس لكم من إله
سواه سبحانه وتعالى فتأليهمكم أصنامكم خروج بكم عن الفطرة السليمة ،
وتسفيه لعقولكم ، ووصف ما لا يعقل ولا يسمع ولا يبصر بما لا يستحق ، وذا من
البدهييات التي لا يصح أن يختلف عليها قط .

كما أنه عليه السلام علم أن هذه الحجة العقلية لاتنقذهم من ضلالهم
وحدها فزادهم تذكيرا بأنعم الله عليهم التي لم يفضلها عليهم غيره وهم
لايشكون في ذلك أدنى شك ولا يستطيعون أن ينسوها لأحد غير الله سبحانه
وتعالى ، وأن السبب في ضلالهم هو النسيان والغفلة ، ولذا قال لهم ما حكاه
الله في سورة الأعراف ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ وقد
علمتم ما حل بهم من العذاب ، لما امر وأعلى تكذيب نبيهم هود عليه السلام ،
وأنه ما كان لكم وجود ، لولا أنكم نسل الصالحين الذين آمنوا بهود عليه
السلام .

ثم إن صالحا (عليه السلام) لما علم أن هذه النعمة التاريخية قد
لا توصلهم إلى المطلوب ، زادهم تذكيرا بما مكنهم الله من فعله يوما بأهم
به من الأرض ، يتخذون من سهولها قصورا ، أي : يبنون فيها قصورا لسكناهم
في الصيف حيث يطيب الهواء في هذه السهول مما يخفف عليهم حرارة الصيف ،
وانهم ينحتون في الجبال بيوتا بما أقدرهم عليه وأعطاهم إياه من الوسائل
وكانوا ينحتون هذه البيوت في الجبال ليسكنوا بها أيام الشتاء (١) . وتأميلا
في الدنيا فقد رزقوا فيها طول العمر مما سهل عليهم نسيان الموت والظن
بالخلود في الدنيا . كما ان نحت البيوت في الجبال لايجوزهم إلى تجديدها
من حين لآخر .

(١) انظر: تفسير أبي السعود ، (٣ / ٢٤٣) .

قال تعالى ﴿ وبوأكم في الأرض ﴾ أي : أنزلكم فيها وأسكنكم وكانت
أرضهم بين الحجاز والشام . وهي المسماة بالحجر في سورة الحجر في قوله
تعالى ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وءاتيناهم آياتنا فكانوا
عنها معرضين ﴾ .^(١)^(٢)

وقوله تعالى ﴿ تتخذون من سهولها قصورا ﴾ أي تبنون في سهولها
قصورا أو تتخذون من هذه السهول لبنات تلك القصور ﴿ وتنحتون الجبال
بيوتا ﴾ أي تجعلون منها بيوتا صالحة لسكناكم واستقراركم (كما
أشرت إلى ذلك آنفا) ، ولم يرد صالح عليه السلام أن يعدد لهم كل ما أوتوا
من نعمة فذلك لا يقدر عليه أحد، ولا يحيط به إلا الواحد الأحد .

ولذا قال ما حكاه الله ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ والآلاء جمع إلى -
وألو - وإلى قاله الواحدي . وقال ابن عباس (آلاء الله) أي نعم
الله عليكم .^(٣)^(٤)

والمعنى اذكروا نعم الله الكثيرة عليكم النادة عن الحصر . فكيف
تكفرون بالرحمن بعد هذه الدلائل ؟ وقد أشارت سورة الشعراء إلى بعض
ما حبوا به من النعم العظيمة ، قال تعالى ﴿ أتتركون في ما هلهنا
أمين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال
بيوتا فرهين ﴾ (٥) (٦) ، كما نبههم إلى نعمة انشاءهم من الأرض ، فإن
آباهم آدم الذين هم من نسله ، خلقه الله من التراب وأن أجسامهن القوية
تستمد قوتها مما أنبته الله لهم من الزروع والحبوب والفواكه قال تعالى
في سورة هود ﴿ هو أنشأكم من الأرض . واستعمركم فيها ﴾ أي أسكنكم
وأنزلكم فهو تكرر لقوله تعالى ﴿ وبوأكم في الأرض ﴾ والتكرار لمتبليدي

-
- (١) قال ابن حجر العسقلاني في فتح الباري : وكانت منازلهم (قوم
ثمود) بالحجر وهو بين تبوك والحجاز ، وقوله تعالى ﴿ هذه
أنعام وحرت حجر - أي حرام (قوله كل ممنوع فهو حجر ومنه حجرا
محجورا) أي حراما محرما . (٧ / ١٨٨) .
- (٢) سورة الحجر ، آية (٨٠ ، ٨١) .
- (٣) تفسير الرازي ، (١٤ / ١٥٨) .
- (٤) نفس المرجع السابق .
- (٥) فرهين : حاذقين أو أشرين بطرين من غير حاجة لسكنائها .
انظر: تفسير النسفي (٣ / ١٩٢) بتصرف .
- (٦) سورة الشعراء ، آية (١٤٦ - ١٤٩) .

الأحاسيس . أو جعلكم فيها أطول عمرا من غيركم ، وهذه نعمة عظمى فالبشر من قديم الزمن يتمنون طول العمر ويدعوا بعضهم لبعض به ، والدعاء من المؤمنين بطول العمر وصلاح العمل شرع ودين .

وقد ذكرت سورة هود أنه دعاهم إلى استغفار الله تعالى بما اقترفوا والتوبة النصوح من كل ما هم عليهم من سوء فقال تعالى ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾^(١) وما أحسن التعبير " بالفاء " و " بثم " وما أبدعه . وكذلك باسميه الكريمين " القريب المجيب " .

أما حسن التعبير (بالفاء) فهو راجع إلى حفزهم على الاسراع بالتخلص مما هم فيه عقيب قوله تعالى ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ فإنه هذا صنعه بهم ، حقيق بأن يذوبوا أسفا على كل لحظة مرت عليهم وهم كافرون به ، وانه لحقيق بأن يستغفروه قبل أن تحل نقمته عليهم ، فانه الغني عن العالمين والكل في غاية الافتقار إليه .

وأما حسن التعبير (بثم) فهو لبيان أن توبتهم لا تكون الا بالمجاهدة الشديدة ، المؤسسة على الايمان ، وأنهم لن يصلوا إليها إلا بذلك .

وأما حسن التعبير باسميه الجليلين (القريب والمجيب) فهو لتعطيفهم نحو ربهم وأشعارهم بقرب رحمته منهم ومن كافة العالمين ، وأنه يجيب من لجأ اليه ، متى أناب إليه ورجع قبل أن يعاين العذاب ، وأنه لا يجعل ماضي الكافرين وعصيانهم حاجبا عن رحمته مع أنهم به - (الماضي) - حقيقون بالألأ يرحموا . - قال أبو السعود رحمه الله : وقد روعي في النظم الكريم نكتة ، حيث قدم ذكر العلة الباعثة المتقدمة على الأمر بالاستغفار والتوبة . وآخر عنه ذكر الغائبة المتأخرة عنهما في الوجود أعني الاجابة وأعود إلى سورة الأعراف لاستكمال أسس دعوة صالح عليه السلام فانه عليه السلام زجرهم عما هم عليه من فساد وعتو في الأرض ، يفعلون ما يحلو لهم دون تذكر للمحاسبة والمعاقبة من الله لهم على عتوهم وفسادهم فقال تعالى عسى لسانه عليه السلام ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ والعثو هو الفساد في

(١) سورة هود ، آية (٦١) .

(٢) تفسير أبي السعود ، (٤ / ٢٢١) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٤) .

(٤) قال ابن منظور : ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ من عثي يعثي عثوا

وهو أشد الفساد بتصرف / انظر لسان العرب (١٥ / ٢٨ - ٢٩) .

الأرض ، لكنه جاء مؤكداً بالحال لبيان ما كانت عليه شؤم من شدة الفساد في الأرض ، ومجيء هذا النهي بعد تذكيرهم بأنعم الله عليهم له موقعه فهو بمثابة العقاب لمن لم يثمر فيه الاحسان ، وهو منهج قويم للدعاة يتعلمون منه ألا يشتموا إلا بعد المبادأة بالدعوة والتذكير بالأمر الجميل (بالحكمة والموعظة الحسنة) وألا يفضحوا أخلاق المدعوين إلا بعد أن يتأكدوا بأن الرفق لم يثمر ولم يجد معهم ولا يوصل إلى زوال الأخلاق السيئة منهم .

كما نهى عامتهم عن طاعة المسرفين منهم على أنفسهم ، والذي يفسدون في الأرض ولا يكون منهم صلاح البتة ، وذلك بعد أن دعاهم إلى تقوى الله وطاعته عليه السلام فيما دعاهم إليه . وقد ساق إليهم من الترغيب والترهيب ما يحملهم على تلك الطاعة قال تعالى في سورة الشعراء * فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون * (١)

قال النسفي : * الذين يفسدون في الأرض * بالظلم والكفر ، ولا يصلحون * بالايامن والعدل . والمعنى أن فسادهم مصمت ليس معه شيء من الصلاح ، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح . (٢)

(١) سورة الشعراء ، آيات (١٥٠ - ١٥١ - ١٥٢) .

(٢) أي دائم .

(٣) تفسير النسفي ، (٣ / ١٩٢) .

المبحث الثاني

موقف ثمود من دعوة نبيهم صالح عليه السلام

مما سبق بيانه عن دعوة صالح عليه السلام لقومه ، يتضح لنا أنه عليه السلام دعا قومه إلى إخلاص العبادة لله جلا وعلا ، واجتهد في نصحهم ، وذكرهم بآيات الله ونعمه عليهم ، وأقام لهم الأدلة القاطعة على صدقه وأمانته .

ولكن قومه استحبوا العمى على الهدى . وأبدوا غاية الجحود والعناد والكفر وأمروا على تكذيبه وعداوته . ومما يلي نتعرف على موقفهم من دعوة نبيهم عليه السلام .

أولا : استنكروا دعوته إلى عبادة الله وحده وكذبوا رسالته :

لقد استحوذ عليهم الشيطان وزين لهم الكفر بالله وحببه إلى نفوسهم وأعمى أبصارهم عن الاهتداء إلى الحق ، وأصم آذانهم فأنكروا على نبيهم نهيهم لهم عن عبادة ما كان آباؤهم يعبدونه من الأصنام ، وما استحلوه من الذنوب والآثام ، فقالوا له على سبيل الإنكار : ﴿ قالوا يٰصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾ وقد سبق أن تعرضت لمصدر هذه الآية في أول هذا المبحث ويهمني الكلام عن قوله تعالى ﴿ اتنهلنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ﴾ (١) إنه التقليد الذميمة للباطل القديم ، الذي كان عليه الآباء والأجداد ، دون تبصر للحق ودون تمييز !

فالاستفهام فيها إنكاري بمعنى النفي ، أي : لا يصح لك يا صالح أن تتعرض لهذه القضية المألوفة لنا الموروثة عن آباءنا ، فان التعرض لها يصرفنا عن قبول دعوتك . لأن قلوبنا مستقرة على ما نحن عليه لو كان آباؤنا على باطل فيها لجاءتهم الرسل تنهاهم عن ذلك كما نهيتنا ، والقوم في هذا مغالطون لأنهم خلفاء عاد ، وقد بعث الله إليهم نبيهم هودا عليه السلام بهذه الدعوة التي هي دعوة صالح عليه السلام .

(١) سورة هود ، آية (٦٢) .

وقوله تعالى ﴿ واننا لنفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ (١)

﴿ واننا لنفي شك ﴾ قد عمنا ولفنا وحيرنا وأربنا في أمرك بدعوتك إيانا إلى التوحيد ، وترك عبادة الأوثان وغير ذلك من الاستغفار والتوبة وهذا دليل على تأثير دعوة نبيهم فيهم . وهز عقائدهم الباطلة في نفوسهم . ولا يعني أنهم أكدوا شكهم فيما دعاهم إليه " إن " و " اللام " وكونهم في هذا الشك جميعا ، لأن عقائدهم لو لم تهتز في نفوسهم لقالوا : واننا لنفي يقين من بطلان ما تدعوننا إليه ، وهكذا الباطل مهما تشبث به أصحابه ، وحاولوا اظهاره ، فان نفوسهم لا تطمئن اليه . وقوله ﴿ مريب ﴾ أي موقع في الريبة ، من أرابه أوقعه في الريبة ، أي قلق النفس ، وانتفاء الطمأنينة .

وقد بينت سورة الأعراف بطلان دعواهم ، والاجماع على التشكك والارتياب في دعوته ، حيث يقول تعالى ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صلحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كفرور ﴾ (٢)

ونأخذ من هذه الآية جملة حقائق :

أولها : أن الملأ المستكبرين في كل أمة هم سبب شقاها .

ثانيها : أن ملأثمود قد راعهم إيمان بعض المستضعفين بصالح عليه السلام مع أن هؤلاء المستضعفين خاضعون لهم . وما كانوا ملأ إلا بهم ، وقد يقوى هؤلاء المستضعفون بنبيهم صالح عليه السلام ، فيسلبون هؤلاء الملأ قوتهم .

ثالثها : محاولة ثني المستضعفين عن إيمانهم بما قصه الله عنهم على محاولة أن صلحا مرسل من ربه ﴿ ؟ إفاستفهام هناليس على حقيقته ، بل هو للتعجب من إيمان هؤلاء المستضعفين وانكاره عليهم ، وقد أرادوا بقولهم هذا : محاربة دعوة صالح عليه السلام ، والفت في عضد المستضعفين .

رابعها : ان الإيمان يزيل ضعف النفوس ، ويجعل المستكبرين المتجبرين غاية في الهوان في نظر المؤمنين ، ولذا لم يرهيبهم المؤمنون ولم

(١) سورة هود ، آية (٦٢) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٧٥ - ٧٦) .

يخافوهم على أنفسهم ، مع كونهم مستضعفين كما حكته الآية ، بل قالوا مؤكداً إيمانهم بنبيهم ب (ان) التي هي لتوكيد الخير * إنا بما أرسل به مؤمنون * وغرضهم من ذلك : أن يقنطوا الملاً من الطمع في كفرهم بعد أن هداهم الله للإيمان حيث عمموا الإيمان بكل ما أرسل به صالح عليه السلام مما يستغربه الملاً كدعوتهم للتوحيد ، ومما قد يسلمون به كدعوته إلى مكارم الأخلاق فإن مكارم الأخلاق تجذب الإنسان إليها ، وإن كانت عقيدته منحرفة ، ولذا جاء قوله تعالى * إنا بما أرسل به مؤمنون * ماضياً مبنياً لما لم يسم فاعله ليرجم عن قصد هؤلاء المستضعفين ولذلك قال الله تعالى * للذين استضعفوا لمن آمن منهم * ، ولو قال تعالى - قال الملاً الذين استكبروا من قومه لمن آمن منهم - لفاتة هذه المعاني ولظن أن بعض الملاً قد آمن بصالح عليه السلام .

ولما يئس الملاً من توهين إيمان المستضعفين ، واجهوهم بالإعلان عن كفرهم بما جاء به صالح عليه السلام وبما آمنوا به ، وقد وصف الله جل وعلا ملاً صالح عليه السلام بالكبر مرتين في هاتين الآيتين ، لبيان أن سبب اعراض من أعرض عن دعوة صالح عليه السلام هو الاستكبار ، لا عدم وضوح دعوته ، أو مجيئه بما هو مستغرب في نفسه ، وهذا الكبر الذي وصف به ملاً صالح عليه السلام هو داء سائر الأمم المكذبة ، وإنك لتجده منصوصاً عليه في أغلب الأحيان ، وفي بعضها تستشعره من حال بعض المستكبرين ، الذين لم يوصفوا به صراحة لأنهم قد وصفوا بأوصاف أخرى تستدعي وتدلل عليه كالكفر والتكذيب بيوم الدين ، وغير ذلك من الأوصاف .

وقد اسلفت الكلام عن الكبر بايجاز في قصة آدم عليه السلام في

(١)

بيان الوسائل التي استخدمها الشيطان في اغواء بني آدم واضلالهم .

ومن لطيف ما علق به الفخر الرازي على تفسير هذه الآية * قال الملاً الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا * قال : إن وصف أولئك الكفار

(١) انظر ص ١١١ - ١١٣ من بحثنا هذا .

بكونهم مستكبرين فعل استوجبوا به الذم . ووصف أولئك المؤمنين بكونهم مستضعفين معناه : أن غيرهم يستضعفهم ويستحقرهم . وهذا ليس فعلا صادرا عنهم بل عن غيرهم . فهو لا يكون صفه ذم في حقهم . بل الذم عائد إلى الذين يستحقرونهم ويستضعفونهم .^(١)

وأشار أبو السعود إلى فائدة عظيمة في تأويل الآية . فقال رحمه الله وقوله * أتعلمون أن ضلحاً مرسل من ربه *؟! وإنما قالوا ذلك بطريق الاستهزاء بهم * قالوا إنما أرسل به مؤمنون * عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا : نعم ، أو نعلم أنه مرسل منه تعالى ، مسارعة إلى تحقيق الحق وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر ، الذي ينبىء عنه الجملة الاسمية . وتنبئها على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغي أن يسأل عنه . وإنما الحقيقي بالسؤال عنه هو الإيمان به .

وقوله * قال الذين استكبروا * أعيد الموصول مع صلته مع كفاية الضمير ايذانا بأنهم قد قالوا ما قالوه بطريق العتو والاستكبار .

وقوله * إنما بالذي آمنتم به كفرون * وإنما لم يقولوا إنما بما أرسل به كفرون إظهاراً لمخالفتهم إياهم ورداً لمقالتهم .^(٢)

(١) بتصرف من تفسير الفخر الرازي ، (١٤ / ١٦٥) .

(٢) انظر تفسير أبي السعود ، (٣ / ٢٤٣) .

ثانيا : استنكروا بشريته واتهموه بالكذب والكبر :

استبعدت ثمود أن يبعث الله اليها رسولا من أنفسهم ، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الأمم ، مثل قوم عاد ونوح ، وقد تناولت هذه الشبهة عند حديثي عن قوم نوح وما ذكر هناك ينطبق على ما هنا .^(١)

وإليك بيان قولهم كما حكاه القرآن على لسانهم بعد أن كذبوا بالأنبياء * فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إننا إذا لفي ضلال وسعر *^(٢)

قولهم * أبشرا * انكار لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية وطلبوا أن يكون من الملائكة لأن الملائكة في نظرهم أشد مهابة وأكمل طهارة الخ .

وقولهم * منا * مادام منا فلم خص من بيننا بالرسالة ولذلك قالوا أبشرا منا ، وقولهم * واحدا * انكار لأن تتبع الأمة رجلا واحدا . أو المراد انكار أن تتبع الأمة شخصا واحدا من أوسطهم وليس من أشرفهم وأفضلهم يدل عليه قولهم : * ألقى الذكر عليه من بيننا * أي أنزل عليه الوحي من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة ، * بل هو كذاب أشر *^(٣) أي : بطر متكبر ، حمله بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك .^(٤)

(١) انظر ص ١٥٢ - ١٥٦ من بحثنا هذا . . .
(٢) سورة القمر ، آية (٢٤) .
(٣) سورة القمر ، آية (٢٥) .
(٤) انظر تفسير النسفي ، (٤ / ٢٠٤) .

ثالثاً : كذبوا بالبعث وأنكروا وقوعه :

لقد امتن الله على ثمود بالنعمة الوفيرة فكانوا في رغد من العيش
أمدتهم خالقهم بالقوة وبطول العمر ، فضلاً عما حبوا به من الزروع والثمار ،
(١)
وفجر لهم العيون والأنهار ، فكان اللائق بهم أن يزدادوا إيماناً بالله
وشكراً لما أفاض عليهم لكنهم كفروا وجدوا تلك النعمة ، وأعماهم حب الدنيا
عن الإيمان باليوم الآخر فأنكروا وقوعه ، واطمأنوا إلى دنياهم واستأنسوا
بها وقد أنكر عليهم نبيهم صالح عليه السلام ذلك وقال ما قصه القرآن
على لسانه :

(٢)
* أتتركون في ما ههنا آمنين في جنات وغيون ونخل طلعتها هضيم *
أي أنه عليه السلام أنكر عليهم أن يتركوا خالددين في نعيم لايزالون
عنه ، لأن ركونهم إلى ما حباهم الله به من النعمة زين لهم حب دنياهم ،
أضف إلى ذلك ما دأبوا عليه من طول العمر ، كما قال تعالى في معرض
تذكيرهم بالنعمة التي من الله بها عليهم * و بواكم في الأرض * وذلك
بأن أطال أعمارهم ، كل ذلك جعلهم ينسون الآخرة . ومع تطاول الأزمان كذبوا
بالبعث وأنكروا وقوعه .

وقوله * آمنين * من العذاب والزوال والموت ، تتمتعون في جنات
وغيون * ونخل طلعتها هضيم * الطلع هو ما يخرج من النخل كمنهل السيف .
(٣)
* هضيم * لين نضيج والمعنى : أهدكم بالنخيل الذي قد أرطب ثمره .

ثم حثهم على تقوى الله ، واجتناب محارمه ، وتذكر الموت الذي لامفر
منه لأنه سيجازى كل منهم بعمله . * فاتقوا الله وأطيعون * أي أطيعون
فيما جئتمكم به ، فان في طاعتكم لي سعادتكم في دنياكم وآخرتكم .

(١) قال الألوسي نقلاً عن ابن اسحاق عند ذكر قصة ثمود (ان عاداً لما هلكوا
عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض وعمرها حتى جعل أحدهم بيني
المسكن من المدر فينهدم والرجل حي . فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال
بيوتا وكانوا في سعة من معاشهم . الخ . (تفسير الألوسي (١٦٦/٨) .
(٢) سورة الشعراء ، آيات (١٤٦ - ١٤٧ - ١٤٨) .
(٣) انظر تفسير النسفي (٣ / ١٩٢) .

رابعاً : رموه بالسحر :

عندما يعجز المكذبون للرسول عن مواجهتهم ، ويشعرون أنهم قد غلبوا وهزموا وقد ألقموا الحجة ، ليس هناك مخرج لهم إلا أن يتهموا نبيهم بالسحر ، وبعضهم يتهمونهم بالجنون والعتة .

فلقد حاج صالح عليه السلام قومه بالحجة والبرهان القاطع على صدق رسالته ^(١) ، فما كان لهم سبيل للخروج من مأزقهم الذي أوقعهم فيه ، إلا اتهامه بالسحر ، كما قصه القرآن الكريم على لسانهم * قالوا إنما أنت من المسحرين * ^(٢)

والمسحر : الذي سحر كثيراً حتى غلب على عقله ^(٣) فلا يستطيع تمييز الحسن من القبيح والخير من الشر والصالح من الطالح ، وقصدهم بذلك الطعن في رسالته .

(١) إتيانهم بالمعجزة وهي الناقة العشراء أكبر برهان قاطع على صدق رسالته .

(٢) سورة الشعراء ، آية (١٥٣) .

(٣) انظر تفسير النسفي (٣ / ١٩٢) .

خامسا : طلبهم المعجزة الحسية :

قال تعالى في بيان انكارهم دعوتهم ، وتعنتهم معه بطلب الخوارق الحسية ، والعجائب الخارجة عن المألوف ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾^(١) أي بآية حسية خارجة عن نطاق العادة ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ في دعوى النبوة والرسالة ، وقد أعطاهم الله تعالى معجزة الناقة ، وجعلها فتنة عظيمة لهم ، حيث كانت سببا في هلاكهم واستئصالهم لعدوانهم عليها .

ومن سنن الله تعالى في الأمم المكذبة أنهم إذا اقترحوا آية فأعطوها ثم لم يؤمنوا حل بهم عذاب الله تعالى ، ولذلك لم تجب قریش في ما اقترحت على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، لأن الله لم يرد اهلاك هذه الأمة ، ومعاملتها بما عومل به الأولون .

قال تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . ﴾^(٢) وءاتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴿ والمراد بالآيات في هذه الآية الخوارق الحسية وقد توزع الحديث عن ناقة صالح في السور التي تناولت هذه القصة ففي سورة الأعراف التي هي موضوع بحثي يقول تعالى ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم ﴾^(٣) أي معجزة حسية واضحة مستغربة غير مألوفة وقد فسر الله تعالى هذه البينة بقوله ﴿ هذه ناقة الله لكم آية ﴾ أي جعلها الله معجزة خاصة بكم ، ودليل صدقي في أن الله أرسلني اليكم . وقد أضاف الله الناقة اليه ليستقر في قلب ثمود خطر العدوان عليها ، فانها ناقة خلاق القوى والأقدار الذي يحمي ماله وينزل النعمة بالمعتدي عليه ، وليمهد بذلك الى بيان أحوال هذه الناقة التي قد لا يطبقونها ولا يصبرون عليها ، وقد بينت سورة الأعراف بعض ما لهذه الناقة من الصفات والخصال ، قال تعالى ﴿ فذروها تأكل في أرض الله ﴾ والمعنى كل أرضكم كلاً مباح لها ، لاتمنع من ارتياد ما تشاؤه منها ، ولذا قال

(١) سورة الشعراء ، آية (١٥٤) .

(٢) سورة الاسراء ، آية (٥٩) .
أخرج الواحدي بسنده عن ابن عباس قال : سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم : أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعون . فقبل له : ان شئت تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم ، وان شئت أن تؤتيهم الذي سألوا فان كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم ، قال : لا ، بل أستأني بهم فأنزل الله ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾^(١٠٠٠) الآية . انظر أسباب النزول للواحدي بتحقيق السيد أحمد مقرر ص (٢٩٥، ٢٩٦) ، ص (٢٧٧ - ٢٧٨) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .

فذروها تآكل في أرض الله . وفي الآية اشارة للمالك الحقيقي للكون كله ، المتصرف فيما يشاء وكيف يشاء وله الحكمة البالغة لامعقب لحكمه فثمود عباد الله يأكلون في أرض الله ، والناقة خلق الله تآكل في أرض الله ، واذا كان من مشيئة الخالق عز وجل توزيع ملكية أرضهم بينهم ، فقد شاء أن تكون كل هذه الأرض مباحة لتلك الناقة فتقسيمها بينها وبينهم بارادته ، واباحتها للناقة بإرادته ، * ولا تمسوها بسوء * فإنكم إن فعلتم هذا أخذكم عذاب أليم ، ونكر السوء مبالغة في النهي .

* ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * وقد بين هذا النص حلول (١) العذاب عليهم ، عقب مسها بسوء ، بلا تراخي ، وان هذا العذاب عام شامل ، لا يقتصر على من مسها ، وأن هذا العذاب بالغ الهول والشدة ، ويلاحظ أنه جل وعلا نهاهم عن أن يمسوها بسوء ، تنبيها بالأدنى على الأعلى ، لأنه إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء اكراما لها ، فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى ، فالجملة وعيد شديد لمن يمسها بسوء (٢) وإذا كانت سورة الأعراف قد بينت أن الأرض كلها لها مرتع * فذروها تآكل في أرض الله * فقد بينت (الشعراء) أن ماء ثمود مقسم بينهم وبينها ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم معلوم ، فلا يشربون في يومهم ولا تشرب في يومهم ، قال تعالى * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * (٣)

وأشار إلى ذلك جل وعلا في سورة القمر فقال تعالى * إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * (٤)

قال القرطبي : قوله تعالى * إنا مرسلوا الناقة * أي مخرجوها من الهضبة التي سألوها . فروي أن صالحا طلى ركعتين ودعا ، فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها ، فخرجت ناقة عشراء (وبراء) * فتنة لهم * أي اختباراً وهو مفعول له . * فارتقبهم * أي أنتظر ما يصنعون

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .

(٢) انظر تفسير سورة الأعراف لفضيلة الدكتور أحمد السيد الكومي ، والدكتور محمد سيد طنطاوي ص ١١٩ .

(٣) سورة الشعراء ، آية (١٥٥) .

(٤) سورة القمر ، آية (٢٧ - ٢٨) .

* واصطبر * أي اصبر على آذاهم . * ونبئهم * : أي أخبرهم * أن الماء
قسمة بينهم * أي بين آل ثمود وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم كما قال
تعالى : * لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * .

قال ابن عباس : كان يوم شربهم لاتشرب الناقة شيئاً من الماء وتسقيهم
لبنا ، وكانوا في نعيم وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كله فلم تبق لهم
شيئاً . وإنما قال " بينهم " لأن العرب إذا أخبروا عن بني آدم مع البهائم
غلبوا بني آدم .

وروى أبو الزبير عن جابر قال : (لما نزلنا الحجر في مغزى رسول
الله صلى الله عليه وسلم تبوك . قال : (أيها الناس لا تسألوا في هذه
الآيات . هؤلاء قوم صالح سألوها نبيهم أن يبعث الله لهم ناقة ، فبعث الله
عز وجل إليهم الناقة ، فكانت ترد من ذلك الفج فتشرب ماءهم يوم وردها .
ويحلبون منها مثل الذي كانوا يشربون يوم غبها)^(١) وهو معنى قوله تعالى
* ونبئهم أن الماء قسمة بينهم * .

* كل شرب محتضر * الشرب - بالكسر - الحظ من الماء وفي المثل
(آخرها أقلها شرباً) وأمله في سقى الابل ، لأن آخرها يرد وقد نزل الحوض ،
ومعنى * محتضر * أي يحضره من هو له ، فالناقة تحضر الماء يوم وردها ،
وتغيب عنهم يوم وردهم ، قاله مقاتل ، وقال مجاهد . ان ثمود يحضرون الماء
يوم غبها فيشربون ، ويحضرون اللبن يوم وردها فيحتلبون)^(٢) .

ومن الملاحظ في الآثار التي أوردتها القرطبي من خلال علاقة ثمود بالناقة
أن الناقة وهي عجمي قد التزمت بأمر ربها فلم تشرب الماء في يومهم . على
حين أنهم مع مالهم من العقل والتميز الحاصل بتكريم بني آدم ، وتفضيلهم
على كثير ممن خلق ، لم يمتثلوا أوامر الله بشأن هذه الناقة ، فكانوا من
الهالكين .

وتكميلاً للفائدة ، أنقل للقارئ الكريم ما رواه علماء التفسير
والتاريخ في بسط قصة ثمود ، لمكان العظة والاعتبار ، وإلا ، فجلي أن ما

(١) انظر المستدرک للحاکم ذکر نحوه (٢ / ٥٦٧) ،
وانظر الفتح الرباني شرح مسند الإمام أحمد ، (٢٠ / ٤٤) .
(٢) انظر تفسير القرطبي ، (١٧ / ١٤٠ - ١٤١) .

ما أجمله التنزيل الكريم لا غاية وراءه في ذلك وما سكت عن بيانه من تلك القصص فلا حاجة إلى السعي وراءه لفقد القطع والجزم به ، اللهم إلا لزيادة الاعتاظ ، وتقوية العبرة فانه لم يرد حديثا صحيحا يسلم بصحته ويعول عليه وإنما هي قصة ذكرها المؤرخون ونقلها بعض المفسرين ولا يخفى ما فيها والله أعلم.

وقصة ثمود على ما ذكر ابن اسحاق وغيره أن عادا لما هلكوا عمرت ثمود بعدها واستخلفوا في الأرض وعمرها حتى جعل أحدهم يبني المسكن من المدر فينهدم والرجل حي فلما رأوا ذلك اتخذوا من الجبال بيوتا وكانوا في سعة من معاشهم ، فعتوا في الأرض وعبدوا غير الله تعالى ، فبعث الله تعالى اليهم صالحا ، وكانوا قوما عربا وكان صالح عليه السلام من أوسطهم نسبا ، وبعث اليهم وهو شاب فدعاهم إلى الله تعالى حتى شمت وكبر ، ولم يتبعه منهم الا قليل مستضعفون ، فلما ألح عليهم بالدعاء والتخويف ، سأله أن يريهم آية تصدق ما يقول فقال لهم : آية آية تريدون ؟ فقالوا : تخرج غدا معنا إلى عيدنا ، وكان لهم عيد يخرجون فيه بأصنامهم ، فتدعوا الهك وتدعوا آلهتنا فان استجيب لك اتبعناك ، وان استجيب لنا اتبعنا فقال لهم صالح : نعم ، فخرجوا وخرج معهم ، فدعوا أوثانهم وسألوها أن لا يستجاب لصالح في شيء مما يدعوه به ، ثم قال جندع بن عمرو بن حراش وهو يومئذ سيد ثمود : يا صالح أخرج لنا من هذه الصخرة لصخرة منفردة ناحية الحجر ، يقال لها الكاشية - ناقة مخترجة أي تشاكل البخت ، أو مخرجة على خلقة الجمال ، جوفاء وبراء^(١) ، فان فعلت صدقنا وآمنا بك ، فأخذ عليهم صالح مواثيقهم ، لئن فعلت لتصدقني ولتؤمنن بي ، قالوا : نعم فولى ركعتين ودعا ربهم ، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج بولدها ، فانصدعت عن ناقة^(٢) عشر^(٣) جوفاء وبراء^(٤) كما وصفوا ، لا يعلم ما بين جنببيها الا الله تعالى عظما ، وهم ينظرون ثم نتجت ولدا مثلها في العظم ، فأمن به جندع ورهط من قومه وأراد أشرافهم أن يؤمنوا به ، فمنعم ذؤاب بن عمرو بن لبيد و الحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعر كاهنهم ، فلما خرجت الناقة قال لهم : هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، فمكثت الناقة ومعا سقيها في أرضهم ترعى الشجر وتشرب الماء ، وكانت ترده غبا فاذا كان يومها وضعت رأسها في بئر في الحجر يقال له الآن بئر الناقة فما ترفع رأسها حتى تشرب كل ما فيها ثم ترفع

(١) جوفاء عظيمة الجوف أي البطن .

(٢) وبراء : الوبر صوف الابل - ناقة وبراء أي: كثيرة الصوف .

(٣) عشر : لفقها وهي الناقة التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر .

(٤) سقيها : السقبة ولد الناقة - وقيل الذئب من ولد الناقة .

(٥) غبا : بالكسر في سقى الإبل يوم ويوم .

رأسها وتنفج لهم فيحلبون ما شاءوا من اللبن فيشربون ويدخرون، ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لا تقدر تصدر من حيث ترد لضيقه عنها حتى اذا كان الغد يومهم فيشربون ماشاءوا ويدخرون ما شاءوا ليوم الناقة ، ولم يزالوا في سعة وزغد ، وكانت الناقة تصيف إذا كان الحر بظهر الوادي ، فتهرب منها مواشيهم وتهبط إلى بطن الوادي ، في حره وجدبه وتشتو في بطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره في برد وجذب ، فاضر ذلك بمواشيهم للأمسر الذي يريده الله تعالى بهم والبلاء والاختبار فكبر ذلك عليهم فعتوا عن أمر ربهم ، فأجمعوا على عقرها ، وكانت امرأتان من ثمود يقال لأحدهما عنيزة بنت غنم بن مجاز وتكني بأم غنم ، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو ، وكانت عجوزا مسنة ذات بنات حسان ، وذات مال من ابل . وبقر وغنم ، ويقال للأخرى صدوق بنت المختار وكانت جميلة غنية ذات مواش كثيرة ، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام وكانتا يحبان عقر الناقة لما أضرت من مواشيهما ، فدعت صدوق رجلا يقال له الحباب لعقر الناقة ، وعرضت عليه نفسها ان هو فعل فأبى فدعت ابن عم لها يقال له مصدع ابن مهرج وجعلت له نفسها ان هو فعل ، فأجابها الى ذلك ، ودعت عنيزة أم غنم قدار بن سالف وكان رجلا أحمر أزرق قصيرا يزعمون انه لزنبة ، ولم يكن لسالف لكنه ولد على فراشه ، فقالت : أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة وكان عزيزا منيعا في قومه ، فرضى وانطلق هو ومصدع فاستغويا غواة ثمود فاتبعهم سبعة فكانوا تسعة رهط ، فانطلقوا ورددوا الناقة حتى صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرى ، فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها ، وخرجت أم غنم فأمرت احدى بناتها وكانت من أحسن الناس وجها فسفرت عن وجهها ليراها قدار ، ثم حثته على عقرها فشدد على الناقة بالسيف ، فكشف عن عرقوبها ، فخرت ورغت رغاء واحدة فتحدرسقبتها من الجبل ، ثم طعن قدار في لبتتها فنحرها ، فخرج أهل البلدة فاقتسموا لحمها فلما رأى سقبيها ذلك ، انطلق هاربا حتى أتى جبلا منيعا يقال له قارة ، فرغا ثلاثا وكان صالح عليه السلام قال لهم : أدركوا الفصيل عسى أن يدفع عنكم العذاب فخرجوا في طلبه فرأوه على الجبل ، وراموه فلم ينالوه ، وانفجت الصخرة بعد رغاءه فدخلها ، فقال لهم صالح : لكل رغوة أجل يـوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب .

(١) رغت رغاء : الرغاء صوت ذوات الخف .

(٢) لبتتها : بوزن الحبة أي المنحصر .

وعن ابن اسحاق أنه تبع السقب من التسعة أربعة وفيهم مصدع فرماه بسهم فأصاب قلبه ثم جر برجله فأنزله وألقوا لحمه مع لحم أمه وقال لهم صالح: انتهكتم حرمة الله تعالى ، فابشروا بعذابه ونقمته ، فكانوا يهزأون به ويقولون متى هو وما آيته ؟ فقال : تصحون غدا وكان يوم الخميس ووجوهكم مصفرة ، وبعد غد ووجوهكم محمرة ، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة ، ثم يصبحكم العذاب، فهم أولئك الرهط بقتله فأتوه ليلا فدفعتهم الملائكة بالحجارة فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح ، فوجدوهم قد رضخوا بالحجارة فقالوا لصالح . أنت قتلتهم ثم هموا به فمنع عنه عشيرته ، ثم لما رأوا العلامات طلبوه ليقتلوه ، فهرب ولحق بحي من ثمود يقال لهم : بنو غنم ، فنزل على سيدهم واسمه نفيل ويكنى بأبي هذب ، فطلبوه منه فقال . ليس لكم إليه سبيل ، فتركوه وشغلهم ما نزل بهم ، ثم خرج عليه السلام ومن معه إلى الشام ، فنزل رملة فلسطين ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع فأتتهم صيحة من السماء ، فتقطعت قلوبهم وهلكوا جميعا إلا جارية مقعدة ، يقال لها ذريعة بنت سلف وكانت كافرة شديدة العداوة لصالح عليه السلام ، فاطلق الله تعالى رجليها بعد أن عاينت العذاب ، فخرجت مسرعة حتى أتت وادي القرى ، فأخبرتهم الخير ، ثم استسقت ماء فسقيت فلما شربت ماتت ، وكان رجل منهم يقال له : أبو رغال وهو أبو ثقيف في حرم الله تعالى فمنعه الحرم من عذاب الله تعالى ، فلما خرج أصابه ما أصابهم ، فدفن ومعه غصن من ذهب . وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبره ، فأخبر بخبره ، فابتدره الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأسيا فهم ، فحفروا عنه ، واستخرجوا ذلك الغصن . وروي أنه عليه السلام خرج في (مائة وعشرين من المسلمين) وهو يبكي ، فالتفت فرأى الدخان ساطعا ، فعلم أنهم قد هلكوا .

المبحث الثالث

مصير الكافرين المكذبيين
(انتقام الله من ثمود)

لقد جرت سنة الله في خلقه أن يبعث إلى كل أمة رسولا ، يدعوهم إلى
اخلاص العبادة له ، وإلى ما فيه نجاتهم وسعادتهم ، فإذا ما أصروا على
كفرهم وضلالهم ، ولا سيما بعد طلبهم المعجزة - فإن الله جل وعلا - ينتقم
منهم شر انتقام ، لتكذيبهم وتعنتهم أولا ، ثم لاستخفافهم بما طلبوه من
البيينة . قال تعالى ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ﴾ (١)

لم يبال قوم ثمود بما حذرهم الله به من أمر الناقة ، وعدم مسها
بسوء فضلا عن عقرها، والعقبر هو بمعنى القتل ، قال الأزهرى : أصل العقير
عند العرب قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل في النحر لأن ناجر البعير يعقره ،
ثم ينحره . (٢)

﴿ فعقروا الناقة ﴾ وقد بينت سورة القمر أن الذي عقرها واحد منهم
هو على ما روي (قدار بن سالف) . قال تعالى ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى
فَعَقِرْ ﴾ ، أي : فتعاطى الأمر العظيم الذي لا يجترأ على فعله أحد ، واسناد
الفعل إلى الكل ﴿ فعقروا ﴾ مع أن المباشر البعض مجاز ، لملايسة الكل
لذلك ، لأنهم كانوا جميعا راضين به ، راغبين فيه ، وقد تسببوا فيسه
بالنداء والتحريض ، فكانوا في الجرم كالمباشر له سواء بسواء ، ولذا
أسندته سورة الأعراف إليهم جميعا (آل) في الناقة للعهد ، أي فعقروا
الناقة العظيمة التي نصبها الله تعالى آية لهم على قدرته ، ووجوب الايمان
به ، ونبذ الشركاء والأنداد ، ولم يفرضها الله عليهم بل هم الذين ألحوا
في طلبها ، وكانت آية عظيمة من آيات الله بحق ، فهي لم تكن نتاجا لناقة
أخرى كسائر النوق ، بل أنشقت عنها الصخرة ، فخرجت ناقة قوية لم تمر
بأطوار كل مولود متدرجة من الصغر إلى الكبر ، كما أنها ولدت فصيلها

(١) سورة الأعراف ، آية (٧٧) .

(٢) انظر تفسير الألوسي ، (٨ / ١٦٥) ، انظر ترتيب اللغة للأزهري (١ / ٢١٥) .

(٣) سورة القمر ، آية (٢٩) .

دون أن ينزو عليها فحل - كما قيل - أضف إلى ذلك ، أنها كانت تعطيهم لبنا ، بقدر ما شربته من الماء في يومها . فهي لامحالة آية عظيمة ، ومع ذلك ، أقدم أشقاهم على هذا الفعل العظيم ، قال تعالى ﴿ كذبت ثمود بطفولها إذ انبعث أشقها ﴾ (١) أي اجترء على عقر الناقة ، فتعاطى (قدار بن سالف) الأمر العظيم ، واجترء عليه ، وهو عقر الناقة ، أو تعاطى السيف فعقر به الناقة ، فالمفعول به مسكوت عنه لتهويل الأمر وتفظيحه .

﴿ وعتوا عن أمر ربهم ﴾ أي استكبروا عن امتثال أمره ، مع أن طاعته واجبة عليهم ، لأنه قادر على معاقبة من خالف أمره ، لأنه إله لا يعجزه شيء ، والملك كله خلقه ، وفي قبضته ، وقد استقر في قلوب الناس أن من كان بهذه المثابة ، لا يجترء أحد على مخالفة أمره ، فإذا انضم إلى ذلك أنه ربهم ، أي : المدبر لشئونهم ، والمتولى تربيتهم ، والمصلح لأعوجاجهم ، والناقل لهم من الطفولة العاجزة ، واليفوعة الضعيفة ، إلى الشباب والقوة ، والمطعم لهم من خيره في الأرض ، ومن مائه من السماء ، فكيف يستكبرون عن أمره وهو بهذه المثابة ؟ وقد ألف وعرف ، أنك أسير من يغمرك بأحسانه من الخلق ، فكيف بأحسان الخالق ؟ فالإضافة في قوله : ﴿ ربهم ﴾ تدل على كل ما ذكرت ، وتسوق إليه .

﴿ وقالوا يصلح ﴾ مخاطبين له عليه السلام بطريق التعجيب والإفحام ، ﴿ اثتنا بما تعدنا ﴾ من العذاب ، وأطلق للعلم به ، والأمر هنا للإعجاب ، لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى له ذلك ، وعبر بقوله ﴿ تعدنا ﴾ أي أكثرت من ذكره على مسمعنا فلو كان حقا كما تزعم لوقع .

ولقد غرهم حلم الله عليهم ، فبدلا من أن يشكروه على الإمهال ، فيثوبوا ويثوبوا ، اتخذوا الإمهال سبيلا للتكذيب ، ولذا قالوا لنبيهم ﴿ إن كنت من المرسلين ﴾ مستخدمين كلمة ﴿ إن ﴾ التي غالبا للشك في وقوع مابعدهما . والمعنى (لست من المرسلين وإنما لنشك كثيرا في رسالتك ، ولذا نستعجلك في نزول ما توعدتنا به ، لأننا نعلم أنه لا يكون) . ولقد كان

(١) سورة الشمس ، آية (١١ - ١٢) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٧٧) .

صراعا مريرا بين الحق والباطل ، فان الإنسان إذا قسا قلبه ، وعميت بصيرته سدت منافذه إلى الحق فغدا اليقين عنده باطلا ، أو شيئا مشكوكا فيه ، ولقد عانى الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - من أمهم أشد المعاناة ، ولقوا من العنت ما يزول معه كل حلم ، ويطيثر له كل عقل ، ولقد تحملوا من صنوف البلاء من أمهم ما لا يطيقه غيرهم ، فالله يعلم حيث يجعل رسالته ، وصدق الله إذ يقول : * الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس * (١) ولا تعجب إذا سمعت ربك يقول لسيدهم وامامهم * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم * (٢) لصبه على أعدائه ، وما تحمله في سبيل الدعوة من الأذى ، والمعنى (لم تركن إليهم لأننا ثبتناك ، وإن حصل الركون منك فلن تستمر فيه ، ولن يكون إلا شيئا قليلا ، وإنا فطرناك على أكمل الصفات ، وجعلناك جعلا خاصا ، فمثلك - بدون التشبث - لا يكون منه ركون ، إلا شيئا قليلا ، فكيف وقد ثبتناك ومكنا لك بما قضيناه في علمنا الأزلي ، من نصرك ودحر أعدائك؟ ، وسيمر بك من هذا الصراع في المستقبل من قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة ، ما يجعلك تعتصر شفقة لما لقيه الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - من عنت وضيق وغم ، للعتو عن الحق ، والمكابرة فيه مع ظهوره .

ولذلك لم يمهلهم الله بعد قولهم : * اثتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * بل عجل لهم ما استبطأوه من العذاب ، ولذا قال تعالى : * فأخذتهم الرجفة * أي استولت عليهم ، وملكتهم ولم تدع منهم أحدا ، وهي نهاية عذابهم ، والمراد بالرجفة الزلزلة الشديدة ونتيجة لذلك ، قال تعالى معقبا * فأصبحوا في دارهم جاثمين * (٤) .

وقال جل وعلا في (سورة هود) * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * وتلاحظ تعدد التعبير القرآني في وصف العذاب الذي حل بقوم صالح ، وبعض المفسرين يرى أن الرجفة والصيحة

(١) سورة الحج ، آية (٧٥) .

(٢) سورة الاسراء ، آية (٧٤) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٧) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٧٨) .

(٥) سورة هود ، آية (٦٧) .

(٦) جاء في الأعراف بوصفه بالرجفة ، وفي هود والعنكبوت بالصيحة ، وفي الذاريات بالمعاقبة ، وفي الحاقة بالطاغية .

(١)
شيء واحد ، وأنهم لما زلزلوا ، كان لزلزلة الأرض بهم صوت قوي شديد ،
بحيث لو سمعه غيرهم لخلع به قلبه ، فما بالك بهم .

وبعضهم يرى أن جبريل عليه السلام صاح بهم صيحة شديدة أخرست ألسنتهم
وأصمت آذانهم ، ثم رجفت بهم الأرض ، وطفى عليهم العذاب وهم ينظرون ، فلا
يملكون خلاصا مما هم فيه ، لأن عقولهم التي يهتدون بها قد ذهبت ، وألسنتهم
التي ينذر بها بعضهم بعضا بظنورة ما دهمهم قد خرست ولعلك تلمح هذه المعاني
في قوله تعالى في سورة الذاريات ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين .
فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيام
وما كانوا منتصرين ﴾ (٢)

وأنا أرجح أن تكون الصيحة عذابا غير الرجفة وغير الصاعقة ، فالصيحة
في هود صوت جبريل عليه السلام ، والرجفة في الأعراف صوت زلزلة الأرض بهم ،
والصاعقة في الذاريات مجموع ما حصل لهم من الأمرين ، أو أنها نار سقطت
عليهم من السماء مع اضطراب الأرض بهم ، والطاغية في سورة الحاقة معناها:
الطامة العظيمة ، والعذاب الشديد ، والداهية التي لم يجدوا لهم منها
مخلصا ، لأن الطغيان مجاوزة الحد ، فلا غرابة بعد ذلك من تسمية عذاب ثمود
رجفة مرة ، وصيحة وصاعقة وطاغية مرة أخرى ، لأن ما حل بهم قابل لأن
يسمى بتلك الأسماء على رأي من يراه شيئا واحدا ، أو أنها أنواع مستقلة من
العذاب كما رجحته سابقا ، وأن كل تلك الأنواع قد حلت بهم ، ولا تناقض فيه
فالتعبير بهذه الأنواع سائغ ومقبول . ولا يؤدي إلى الطعن في القرآن بدعوى
التناقض والاضطراب في تسمية الشيء الواحد بعدة أسماء كما يزعم الملاحدة
(٣)

(٤)
﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي : ساقطين على وجوههم ، هامدين

لايتحركون ، وهذا دليل على شمول العذاب لهم ، إلا ما كان من أمر الجارية - على ما قيل -
التي أخبرت عنهم ، كما سلف في قصتهم ، وقد هلكت هي الأخرى .

(١) انظر: تفسير النسفي (٢ / ٦٢) .

(٢) سورة الذاريات ، آيات (٤٣ - ٤٥) .

(٣) انظر: تفسير الرازي (١٤ / ١٦٥ - ١٦٦) .

وتفسير الألوسي ، (٨ / ١٦٥) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٧٨) .

والفاء تشير إلى سرعة أخذ العذاب لهم ، وأن الله لم يجعل لهم مهلة
يراجعون أنفسهم فيها * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه
(١)
اليم شديد * .

وقوله تعالى * فتولى عنهم * أي صالح - عليه السلام - بعد أن
أعلمه الله بهلكتهم ، وقال مويخا ومؤنبا لهم ومظهرا بلوغه في دعوتهم
المدى الممكن .

* وقال يُقوم لقد أبلغتكم رسالة ربي * واجتهدت في هذا
الابلاغ أيما اجتهاد ، وقابلتم ذلك مني بالصدود والعدا ، ولا تقل كيف
خاطبهم بذلك ، وهم موتى هالكون ؟ والجواب ، أنه قال لهم ذلك : في أول
المهلة التي أعطوها ، أو أنه قال لهم ذلك بعد ما ماتوا فعلا ، ولاغرابة
فيه ، فأهل القبور يسمعون وإن كانوا لا يجيبون * ونصحت لكم * أي محضت
(٢)
النصيحة خالصة لكم ، واجتهدت فيما يصلحكم ، ولكن لا تحبون الناصحين ، أي
تكرههم قلوبكم ، مع حرصهم عليكم ومن هذا الباب كان هلاكهم .

وقوله تعالى * ولكن لا تحبون الناصحين * أي لا تحبون الأنبياء ،
فنصح كل نبي سبق لأمة هو نصح للأمة اللاحقة ، وهذا لا يعني عموم رسالاتهم ،
ويجوز أن يكون المعنى * ولكن لا تحبون الناصحين * من المؤمنين الذين
آمنوا بصالح - عليه السلام - فانهم كانوا يشاركونه في نصح الضالين من قومه ،
والله أعلم .

(١) سورة هود آية (١٠٢) .

(٢) كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين بعد قتلهم يوم بدر (يافلان بن فلان

يافلان بن فلان، أيسركم أنكم أظعتم الله ورسوله ؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم
ربكم حقا؟ قال فقال عمر : يا رسول الله ، ماتكلم من أجساد لأرواح لها ، فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول
منهم) نظر فتح البنارى شرح صحيح البخارى (٣٠٤/٨) .

وانظر السيرة النبوية لابن هشام فقد ورد القصة مع اختلاف يسير (٢/٢٩٢) ط

دار احياء التراث العربى بيروت .

الفصل الخامس

الصِّرَاحُ بَيْنَ لَوْطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وَبَيْنَ زَوْجَتِهِ خَاصَّةً

وَقَوْمِهِ عَامَّةً

الفصل الخامس

الصراع بين لوط عليه السلام - وبين زوجته خاصة وقومه عامسة

- ✦ مقدمة : التعريف بلوط صلى الله عليه وآله وسلم .
- المبحث الأول : الصراع بين لوط وبين زوجته وقومه .
وفيه شرح للأساليب التي اتخذها لوط عليه السلام في
دعوته قومه مع بيان نوع المعصية التي كانوا
عليها مع ذكر أضرارها على المجتمع .
- المبحث الثاني : أسباب موقف الكافرين المعاندين لدعوة لوط عليه السلام .
- المبحث الثالث : مصير الكافرين المعاندين المصيرين على الفاحشة .

مقدمة :

" لوط عليه الصلاة والسلام "

القصة الرابعة من قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، التي تجسد الصراع بين الحق والباطل في سورة الأعراف ، قصة لوط عليه السلام ، وقد أجملتها سورة الأعراف في خمس آيات ، بين الله فيها دعوة لوط عليه الصلاة والسلام لقومه ، بترك الفاحشة التي عرفوا بها بين سائر البشر ، وموقفهم من هذه الدعوة ، ونهايتهم لما أمعنوا في تكذيبه والتبرم بدعوته .

قال تعالى : * ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفلحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين *

وينبغي قبل أن أشعر في تفسير هذه الآيات وتحليلها ، أن أذكر نبذة مختصرة حول نسب لوط عليه السلام ، وعلاقته بقومه ، لحاجة البحث إلى ذلك ، وإليك بيان ذلك .

✦ التعريف بلوط عليه السلام :

اختلف العلماء والنسابون في نسب لوط عليه السلام ، وفي صلة القرابة التي بينه وبين أبي الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

قال الحاكم في مستدركه : قد اتفقت الروايات في أنه من بيت ابراهيم صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلفوا ، أهو من ولده أو من ولد أخيه .^(١)

وجمهور العلماء والنسابين ذهبوا إلى أنه ابن أخي ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويؤيد ذلك ما أخرجه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ولوط النبي صلى الله عليه وسلم كان ابن أخي ابراهيم الخليل عليه السلام ، قال الذهبي معقبا : (صحيح)^(٢) ، وعليه فلوط هو ابن هاران بن تارح وهو (آزر) .^(٤)

ولقد تأثر لوط عليه الصلاة والسلام بعمه ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهما ، ولمس في عمه قدوة حسنة ، وإيمانا راسخا ، فصدق في جميع ما جاء به ، والى ذلك أشارت الآية الكريمة : ﴿ فآمن له لوط ﴾^(٥) أي: صدق لوط ابراهيم في جميع ما جاء به عن ربه ، ولازم لوط عمه ابراهيم عليهما الصلاة والسلام متحملا معه مشاق الدعوة ، حيث كان المجتمع (بلاد الرافدين العراق حاليا) متعصبا للوثنية ، مصرا عليها ، حتى أذن الله لهما بالهجرة من العراق (أرض بابل) إلى الأرض المباركة ، قال تعالى ﴿ ونجيناه لوطا إلى الأرض التي بركنا فيها للعالمين ﴾^(٦) ولما هاجر ابراهيم

(١) المستدرک للحاکم (٢ / ٥٦٠) .
(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١ / ١٧٦) ،
// البدء والتاريخ للبلخي ، (٣ / ٥٦) ،
// روح المعاني للأوسمي ، (٨ / ١٦٨) ،
// فتح القدير للشوكاني ، (٢ / ٢٢٢ ، ٤ / ١٩٩) ،
// أخبار الدول وآثار الأول للقرماني (ص ٣٠) ،
// لوط صلى الله عليه وسلم وقومه على ضوء الكتاب والسنة رسالة ماجستير للزميل ناصر النصار ، (ص ٢٢ - ٣٥) .

(٣) المستدرک للحاکم (٢ / ٥٦١) .
(٤) انظر: تاريخ الطبري (١ / ٢٩٢) .
(٥) سورة العنكبوت ، آية (٢٦) .
(٦) سورة الأنبياء ، آية (٧١) .

ولوط الى أرض الشام ، هياً الله جل وعلا لوطا عليه الصلاة والسلام للنبوّة ، وأرسله إلى قومه في ناحية الأردن ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى على لسانه ﴿ وقال إنني مهاجر إلى ربي ﴾ (*) أي قال ذلك لعمه عليه السلام ، ولما تخوف عمه عليه من أهل الناحية التي يبغى الهجرة اليها ، لما كانوا عليه من سوء الخلق ، وأنه وحده لا يستطيع مقاومتهم ، والثبات لهم ، قال لعمه ما حكاه الله ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ أي : الغالب الذي ينصر من اعتز به وإن كان وحيدا ﴿ الحكيم ﴾ فيما هيأني له وبعثني إليه ، واستقر لوط عليه السلام في الأرض المباركة (فلسطين - في قرية سدوم) وكانست (سدوم) أعظم وأجمل قرى قوم لوط ، التي اختلف في ضبطها اختلافا كثيرا ، ليس هناك مجال لبسطه ، والذي عليه المفسرون والمؤرخون هو ما جاءت به الرواية التي أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره بسند حسن ، من طريق محمد بن كعب القرظي أن المؤتفكات : قرى لوط كن خمسا (صيغه ، وصفه ، وعمره ، دوما ، وسدوم وهي القرية العظيمة) . وكان موقع بلاد قوم لوط كما تشير المراجع والكشوف الجغرافية بين الحجاز والشام ، وعلى وجه التقريب ما يعرف بالبحر الميت ، والذي كان يسمى فيما سبق ببحيرة زغر أو البحيرة الممتنة .^(٤)

وأشار القاسمي في تفسيره ، نقلا عن صاحب كتاب " مرشد الطالبين "

أن بحر لوط هو بحر سدوم ، ويدعى أيضا بالبحر الميت ، وهو بركة مألحة في فلسطين طولها خمسون ميلا وعرضها اثنا عشر ميلا وهي أوطأ من بحر السروم بنحو (١٢٥٠) قدما وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعموره وأدمه^(٥) وصبوييم ١٠٠ هـ .

(*) سورة العنكبوت ، آية (٢٦) .

(١) تفسير ابن كثير ، (٢ / ٤٥٥) .

تفسير ابن جرير ، (١٥ / ٤٤٢) .

(٢) انظر: أخبار الدول وآثار الأول (ص ٣١) للقرماني .

(٣) انظر تفسير ابن أبي حاتم - سورة هود - رقم الأثر (٥٧٥ - ص ٣٢٥) .

(٤) لوط صلى الله عليه وسلم وقومه على ضوء الكتاب والسنة رسالة مقدمة

من الزميل ناصر أحمد نصار لنيل درجة الماجستير ، ص ١٥١ .

(٥) تفسير القاسمي (٧ / ٢٠٢) .

ولقد أشارت كتب التاريخ أن بلاد قوم لوط كانت من أبداع بلاد الله وصفا
(١)
وجمالا ، مليعة بالخيرات ، غنية بالمياه ، كثيرة الأشجار والحبوب والثمار .
وكان جديراً بأهلها أن يشكروا الله جل وعلا ، ويخلصوا له العبادة ، لما
حباهم الله به من النعم الكثيرة لاسيما وقد بعث اليهم نبيهم لوط عليه
السلام ، ناصحا لهم ومنقذا لهم من الكفر والجهل الذي خيم عليهم ، ولا بد
قبل أن أتطرق لدعوة لوط عليه السلام لقومه أن أشير باختصار إلى صلة لوط
عليه السلام بقومه .

(١) انظرا آثار البلاد للقزويني ، ص ٢٠٢ ، و أخبار البلاد للقرماني ، ص ٤٥٥ .
وجاء في تقويم البلدان : أن بحيرة زغر جنوبي (مدينة أريحا) على
بعد شوط فرس . وتعرف هذه البحيرة بالبحيرة الممتنة وليس فيها
حيوان ولا سمك ولا غيره وعلى القرب من البحيرة الممتنة كانت ديار
قوم لوط وهي ديار تسمى بالأرض المقلوبة وليس بها زرع ولا حشيش وهي
بقعة سوداء فرش بها حجر كلها متقاربة في الكبر ويروى أنها من الحجار
المسمومة التي رمي بها قوم لوط . انظر تقويم البلدان لعما الدين اسماعيل

صلة لوط عليه الصلاة والسلام بقومه :

إن الدارس لدعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يلاحظ أن غالب الأنبياء كان مبعثهم في وسط ذويهم وعشيرتهم ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في بحثنا عند دراستنا لنوح - وهود وصالح عليهم الصلاة والسلام ... الخ .

أما لوط عليه الصلاة والسلام فلم يكن يربطه بقومه أي نسب ، ولقد هاجر صلى الله عليه وسلم مع عمه من بلاد بابل بالعراق - كما سبق أن أشرت إلى ذلك - إلى بلاد الشام ، حيث بعثه الله فيها نبيا لهؤلاء القوم .

لذلك نلاحظ اختلاف السياق القرآني في قصة لوط عما سبقها من قصص الأنبياء الذين سبقوه ، والتي أشارت إليهم سورة الأعراف .

- (١) قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ﴾
(٢) الآية . وقال تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾
(٣) وقال تعالى ﴿ وإلى ثمود أخاهم صلحا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ وقال
(٤) تعالى ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفلحة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾

ولم تذكر أخوة لوط لقومه اللهم إلا في سورة الشعراء ، و (ق) ، أما في الشعراء فقال تعالى ﴿ إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ﴾
(٥)

وللبقاعي كلام نفيس في بيان معنى الأخوة المرادة من الآية :

قال رحمه الله : (أخوهم) في السكنى في البلد لا في النسب ، لأنه ابن أخي إبراهيم عليهما الصلاة والسلام ، وهما من بلاد المشرق من بابل . وكأنه عبر بالأخوة لاختياره لمجاورتهم ، ومناسبتهم بمصاهرتهم ، وإقامته بينهم فـ في مدينتهم مدة مديدة ، وسنين عديدة ، وإتيانه بالأولاد من نساءهم ...
(٦)

أما في سورة (ق) قال تعالى ﴿ وعاد وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ . وقد فسر البيضاوي الأخوة بقوله (سماهم إخوانه لأنهم كانوا أصهاره) .
(٧)
(٨)

- (١) سورة الأعراف ، آية (٥٩) .
(٢) سورة الأعراف ، آية (٦٥) .
(٣) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .
(٤) سورة الأعراف ، آية (٨٠) .
(٥) سورة الشعراء ، آية (١٦١) .
(٦) نظم الدرر للبقاعي ، (١٤ / ٨٠) .
(٧) سورة (ق) ، آية (١٣ ، ١٤) .
(٨) تفسير البيضاوي ، (ص ٦٨٧) .

المبحث الأول

"دعوة لوط عليه السلام لقومه"

وأشعر الآن في دعوة لوط صلى الله عليه وسلم لقومه ، وموقفهم منه وعاقبتهم ، فأقول وبالله التوفيق :

قال تعالى ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفلحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾^(١)

وقبل الشروع في تفسير هاتين الآيتين ، أقول للقارىء الكريم : ان قوم لوط كانوا كفارا بالله ورسله ، ولقد دعاهم لوط عليه السلام كسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبله ومن بعده إلى توحيد الله تعالى ، والايمان به لأن توحيد الله يقود الانسان إلى تطبيق سننه وشرعه ، ويزجره عن ارتكاب الفواحش والرذائل ، ولكن القرآن لم يصرح بذلك لأنه معلوم معروف ، لكنه ركز على ذكر فاحشتهم التي انفردوا بها من بين سائر العالمين ، لتفشيها واستحكامها فيهم ، فنَبَذَهَا وتقبيحها والانكار بها عليهم ، أهم في الذكر من دعوته اياهم لعبادة الله وحده . فلم يكن قوم لوط عليه السلام كما قد يظن موحدين عصاة بل الواقع أنهم كانوا كافرين . كما قال تعالى :

﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾^(٢)

فهاتان الآيتان مصرحتان بكفر قوم لوط ، و أنه لم يكن فيهم بيت مؤمن إلا بيت لوط عليه السلام ، ولذلك دارت قصته في القرآن الكريم على تقبيح تلك الفاحشة التي شاعت فيهم ، وانفردوا بها ، ولم تعرف إلا لهم ، ولم تورث في بعض الناس إلا من بعدهم ، فهذا هو السبب في انفرد هذه القصة بهذا الأسلوب عما قبلها وما بعدها في سورة الأعراف ، بل وفي سائر القرآن الكريم كما ذكرت .

(١) سورة الأعراف ، آيات (٨٠ - ٨١) .

(٢) سورة الذاريات ، آيات (٣٥ - ٣٦) .

ف قوله تعالى ﴿ ولوطا ﴾ منصوب بفعل محذوف تقديره وأذكر أي بامحمد صلى الله عليك وسلم ، الوقت الذي قال فيه لوط لقومه ما قال ، وتسل به عما تلقاه من بلاء قومك ومعاندتهم وانكارهم ، فان لوطا عليه السلام كان يتصدى وحده لقوم ذوي هلع واندفاع فيما يأتون من فاحشهم التبيي لم يخالجهم أي شك في استحسانها ، مما جعلهم يتهكمون بلوط وآله المؤمنين الذين يتبرؤون من تلك الفاحشة ، بما حكاه الله عنهم أكثر من مرة ، ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ (١) وذكر الوقت متضمن لما يقع فيه من أحداث ، وقول الله تعالى ﴿ إذ قال لقومه ﴾ أي بلا خوف منهم متوكلا على ربه معترا به .

ولم يمنعه أن قومه لم يكن فيهم عاقل من أن يقول لهم ما قال ، فان من سبقه من الرسل ومن لحقوه لا يعدمون أن يجدوا في أقوامهم عاقلا أو عقلاء . يصفون لدعوتهم ، ويستجيبون لهم الا لوطا عليه الصلاة والسلام ، فانه لم يجد في قومه عاقلا قط ، ولا مستجيبا سوى أولاده عليه السلام . وحتى امرأته التي الشأن فيها أن تتعصب لزوجها ، فان لم تعنه لاتنقلب عليه ، قد خانتها وقوله تعالى ﴿ أتأتون الفاحشة ﴾ جيء به بأسلوب الاستفهام ، لشديد انكاره عليهم وتوبيخهم على اتيانه ما يستنكره كل ذي طبع سليم ، ومعنى ﴿ أتأتون ﴾ أي : تفعلون ذلك ، وتستعلنون به في نواديكم ، وتفتخرون بفعله ، والمراد بالفاحشة اتيانهم الذكور بدل الاناث ، كما قال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ أتأتون الذكران من العلمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العلمين ﴾ أي بهذه الفاحشة القبيحة التي سلف ذكرها ﴿ من أحد ﴾ أي : من أصناف المخلوقات التي لا تعقل ، فضلا عن الأناس

(١) سورة الاعراف ، آية (٨٢) .

(*) ومرادي بقوله (خانتها) أي: بافشاء سره فكانت تدل قومها على الضيف قال تعالى ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امراة نوح وامراة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صلحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الذليلين ﴾ سورة التحريم ، آية (١٠) .
انظر تفسير الألوسي (١٦٢/٢٨) ، النسفي (٢٧٢ / ٤) .
(٢) سورة الشعراء، آية (١٦٥ - ١٦٦) . (٣) سورة الاعراف ، آية (٨٠) .

(٤) ذكر القرطبي في تفسيره نقلا عن محمد بن سيرين : ليس شيء من الدواب يعمل عمل قوم لوط إلا الخنزير والحمار (٢٤٥ / ٧) ، وأشار إلى ذلك الجاحظ في كتاب الحيوان وخلصته ليس من البهائم من يعمل عمل قوم لوط إلا الحمارة وان فعل ذلك فغايتها الشهوة فقط . ليس يخطر بباله أن ذلك الماء يخلق منه شيء ثم ذكر قول ابن سيرين الأنف الذكر .
انظر بتصرف من الحيوان للجاحظ (١ / ١١٠) .

العقلاء ، والمعنى : ما رأيتم من الحيوانات ذكرا ينزو على ذكر ويتـرك
أنشاه ، مع كثرة أصناف الحيوانات وتنوعها ، وما سمعتم بأحد من الناس
غيركم يعملها ، فما لكم لا تقلعون عنها بعد هذا التقييح ؟ وما لكم
تخالفونني وتنازعونني فيما لا يقبل النزاع ؟ وقد قرر المفسرون في * من *^(١)
الأولى : بأنها زبيدة في سياق النفي ، ليفيد العموم والاستغراق ، وفي
الثانية بأنها للتبعيض .

والمعنى : أن تلك الفاحشة لم تصدر من بعض العالمين منذ خلقوا فضلا
عن جميعهم الا ما كان منكم ، والمراد بالعالمين بنو آدم ، فكيف لاتنـزجرون
عنها ؟

قال أبو السعود : والجملة مستأنفة ، مسوقة لتأكيد النكير ، وتشديد
التوبيخ والتقريع ، فان مباشرة القبح قبيح ، واختراعه أقبح ، فأنكر تعالى
عليهم أولا اتيان الفاحشة ثم وبخهم بأنهم أول من عملها ، ثم استأنف
بيان تلك الفاحشة تأكيدا للانكار السابق ، وتشديدا للتوبيخ بقوله سبحانه^(٢)
* انكم لتأتون الرجال شهوة * أي رغبة مفرطة في هذا الاتيان كأنه أمر
سليم لا يلام عليه ، قال الألوسي : شهوة مفعول له ، أو مصدر في موقع
الحال ، وفي التقييد بها وصفهم بالبهيمة الصرفة ، وتنبيه على أن العاقل
ينبغي أن يكون الداعي له الى المباشرة طلب الولد ، ويقاء النوع ، لا قضاء^(٣)
الشهوة .

و (آل) في الرجال يمكن أن تكون عوضا عن مضاف إليه ، بمعنى انكم
يأتي بعضكم بعضا ، تاركين نساءكم اللاتي أعدهن الله لقضاء الوطر، واستنابت
الولد ، أو أنكم عازفون عن النساء بالكلية الى هذه الفاحشة التي
تأتونها . ويجوز أن تكون (آل) جنسية ، والمعنى : انكم تأتون جنس
الرجال منكم ومن غيركم اذا أمكنكم ذلك ، وفي ايراد لفظ (الرجال) دون

-
- (١) انظر: تفسير الرازي ، (١٤ / ١٦٨) .
انظر: تفسير القرطبي ، (٧ / ٢٤٥) .
انظر: تفسير الألوسي ، (٨ / ١٦٩) .
انظر: تفسير أبي السعود ، (٣ / ٢٤٥) .
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٣ / ٢٤٥) .
(٣) تفسير: الألوسي (١٤ / ١٧٠) .

(١)
الغلمان والمردان ونحوهما مبالغة في التوبيخ . قال الحسن : كانوا ينجحون
(٢)
الرجال في أدبارهم و كانوا لا ينجحون إلا الغرباء .

وقد صرح القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى في سورة هود * ولما جاءت
رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه
بيهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يلقوم هؤلاء بناتي هن
أظهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد . قالوا
(٣)
لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * .

وإنما سيء بهم لوط وضاق بهم ذرعا ، لأنهم ملائكة جاءوه في صورة بشر
حسان وضاء الوجوه ، ولوط عليه الصلاة والسلام يعلم ما سيكون من قومه عندما
يعلمون بمجيئهم ، ولذلك لما قال لقومه * قال لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى
ركن شديد . قالوا يلوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك * (٤) الآيات
وسأعود إلى هذه الآيات مرة أخرى عند كلامي عن عذابهم .

ولما لم يصغوا لدعوته عليه السلام بعد هذا الأسلوب القوي أضرب عنهم
فقال ما قصه الله * بل أنتم قوم مسرفون * (٥) أي متجاوزون الحد
فاعلمون ما لا يقركم عليه أحد ، كما وصفهم بالعدوان والجهل في الشعراء
والنمل * بل أنتم قوم عادون * (٦) بل أنتم قوم تجهلون * (٧) وقوم
اجتمع فيهم الاسراف والعدوان والجهل لا يرجى منهم أن يستجيبوا لله ولرسوله
لوط عليه الصلاة والسلام .

هذا ولم يكتف قوم لوط بما استحدثوه من اتيان الذكور ، بل كانوا
يتخبطون في كل ما استهوته نفوسهم من أنواع الفساد والمنكر ، وقد جمع الله
سبحانه - ما هم عليه من المعاصي في قوله تعالى * أينكم لتأتون الرجال ،
(٨)
وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديك المنكر * .

(١) انظر: الألوسي ، (٨ / ١٧٠) .

(٢) انظر: الفخر الرازي (١٤ / ١٦٨) .

(٣) سورة هود ، الآيات (٧٧ - ٧٩) .

(٤) سورة هود ، آية (٨١) .

(٥) سورة الأعراف ، آية (٨١) .

(٦) سورة الشعراء ، آية (١٦٦) .

(٧) سورة النمل ، آية (٥٥) .

(٨) سورة العنكبوت ، آية (٢٩) .

ف قوله تعالى ﴿ أَيْنُكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ أي تفعلون اللواط، وعبر
سبحانه هنا بلفظ ﴿ الرجال ﴾ كما سبق أن ذكرت دون الذكران زيادة
في بيان مدى قبحهم وفسادهم وإلى ذلك أشار الألويسي في تفسيره (وإيراد
المفعول بعنوان الرجوليه دون الذكورية لتربيته التقبيح)^(١)

وقوله ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ ورد في تفسيره عدة معان:

- (٢) أحدها : كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم .
- (٣) ثانيها : كانوا يأخذون الناس من الطرق لفعل الفاحشة بهم .
- (٤) ثالثها : كانوا يقطعون سبيل النسل باتيانهم ما ليس بحرث .
- (٥) رابعها : كانوا يقطعون الطريق بقبح الأحداث .

(٦) قال القرطبي (ولعل الجميع كان فيهم)

أما قوله ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ النادي والندی والمنتدى:

(٧) مجلس القوم ومتحدثهم .

(٨) والمنكر : ما تنكره العقول والشرائع والمروءات .

أخرج الترمذي وحسنه والحاكم وصححه وأحمد في مسنده عن أم هانئ
بنت أبي طالب رضي الله عنهما قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن قوله سبحانه ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال : كانوا يجلسون بالطريق
فيحذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم . وقد ذكر المفسرون أقوالا أخرى مثل
أنهم كانوا يأتون بعضهم بعضا في الملاء وكانوا يتضارطون ويتضاحكون وكانوا
يناطحون بين الكباش ويناقرون بين الديوك ولا مانع أنهم كانوا يفعلون كل
(١٢)

تلك المنكرات .

- (١) تفسير الألويسي ، (١٩ / ٢١٦) .
- (٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣ / ٤١١) .
- (٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣ / ٤١١) ، والقرطبي (١٣ / ٣٤١) ،
الكشاف للزمخشري (٣ / ٢٠٤) .
- (٤) انظر المراجع السابقة .
- (٥) انظر: تفسير أبي حيان (٧ / ١٥٠) تاريخ الأنبياء للنجار (ص ١١٢)
انظر: تفسير الألويسي (٢٠ / ١٥٣) .
- (٦) انظر: تفسير القرطبي (١٣ / ٣٤١) .
- (٧) تفسير الشوكاني (٤ / ٢٠١) .
- (٨) انظر تفسير أبي حيان (٧ / ١٥٠) .
- (٩) سنن الترمذي في تفسير سورة العنكبوت حديث رقم (٣١٨٩) .
- (١٠) المستدرک للحاكم (٢ / ٤٠٩) . وصححه ووافقه الذهبي .
- (١١) مسند الإمام أحمد (٦ / ٣٤١ و ٤٢٤) .
- (١٢) تفسير ابن كثير (٣ / ٤١١) .

المبحث الثاني

موقف قوم لوط من دعوتهم
عليه السلام

اعلم أن موقف قوم لوط من دعوتهم لهم إلى الفضيلة والخير كموقف سائر الكفار والمعاندين ، هو الابعاء والاستكبار والامعان في معارضة دعوة نبيهم عليه الصلاة والسلام غير أن القرآن الكريم لم يصفهم بالتكذيب والاستكبار كما وصف قوم نوح بقوله ﴿فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك واغرقنا الذين كذبوا بكائتنا إنهم كانوا قوماً عَمِينَ﴾ (١)

(٢) وكما وصف قوم صالح بقوله تعالى ﴿قال الملاء الذين استكبروا من قومهم﴾ الآية ٠٠ إلى آخر ما ذكر من سائر اوصاف الامم الكافرة .

بل ذكر لهم جوابا عجيبا ، كرره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم ثلاث مرات ، مرة في سورة الأعراف ، ومرة في سورة النمل ، ومرة في سورة العنكبوت ، لتستدل بهذا التكرار على سوء ما كانوا عليه ، وما شاع فيهم من خلق ذميم ، ينفر كل كافر وكل مكذب إلا من كان على شاكلتهم بعد أن صدر ذلك منهم وكانوا هم أساسه .

قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ (٣) والمعنى : وما كان جواب قومه الذي أجمعوا عليه ، واتفقوا على مواجهته به ، إلا هذا القول السيء والتهديد السخيف ، الصادر من قوم بلغوا في الحقارة والخسة منتهاها ، ولذا قدم خبركان هنا على اسمها لأن كلمة ﴿ جواب ﴾ قرئت بالنصب . واسمها جملة ﴿ إلا أن قالوا ﴾ أخرجوهم من قريبتكم ﴿ ، وقد ذكر جوابهم أولا عاما ثم حدده تعالى وبينه ، لتستقبله أتم استقبال فلا يكون هناك ثم اعتذار عنهم ، ولا أي قبول لخلقهم الذي كانوا عليه .

(١) سورة الأعراف ، آية (٦٤) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٧٥) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٨٢) .

وقال في سورة الأعراف ﴿ وما كان جواب قومه ﴾ بالواو . وفي سورة النمل (١) والعنكبوت (بالفاء) (٢) لملحظ لطيف قد استنتجته بفضل الله ، وهو أنه ذكر (بالواو) في الأعراف لبيان أنهم ما كانوا يجدون قولاً يخففون به حنقهم على لوط عليه السلام إلا هذا الجواب ، وهذا دليل امعانهم في تلك الرذيلة ، فناسب لأجل هذا الفهم أن يذكر بالواو التي هي للاستئناف .

أما في النمل والعنكبوت ، فالمقصود من ذكر الفاء فيهما أنهما كلما دعاهم نبيهم لوط عليه الصلاة والسلام إلى الاقلاع عن تلك الرذيلة ، أسرعوا في الرد عليه بهذا الجواب وتواصى بعضهم بعضاً لاجراجه وآله من قريتهم لئلا يفسد عليهم ما هم فيه فكان ذكر الفاء فيهما أنسب .

وقد ذكر الألوسي رحمه الله وغيره لذلك تعليقات ، تقوم كلها على الناحية اللفظية لا المعنوية ، كقول الألوسي مثلاً : ذكر ﴿ وما كان جواب قومه ﴾ في الأعراف بالواو لأن تلك الجملة مسبوقة بجملة اسمية هي قوله تعالى ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أما في النمل والعنكبوت فالآية مسبوقة بفعالين . والفاء أدخل في عطف الأفعال بعضها على بعض من الواو . قال الألوسي : وإنما جيء بالواو في ﴿ وما كان ﴾ إلخ... دون الفاء كما في النمل والعنكبوت لوقوع الاسم قبل هنا والفعل هناك ، والتعقيب بالفعل بعد الفعل حسن دون التعقيب به بعد الاسم . وفيه تأمل ١٠هـ . (٣)

ومع احترامي وتقديري له ، فلا أرى ما رأى ، لأن الواو والفاء تذكران بحسب المعنى المقصود لا بحسب الصنعة اللفظية ، ولعله قول لبعض النحويين لا أعرفه ، وهو رحمه الله أردفه بقوله (وفيه تأمل) هذا من دقته وسعة فهمه ، وقوله تعالى ﴿ أخرجوهم من قريبتكم ﴾ معناه : تواصوا به وأجمعوا على فعله واحذروا أن يكون فيكم من يرى غير هذا الرأي .

وضمير الغيبة هنا يرجع إلى لوط ومن آمن به (من أهله) وقد قصد لوط بذلك تحقيرهم وتهوين شأنهم ، وأرادوا باجراجه ، مصادرة أمواله وطرده من مجتمعهم ، وقوله تعالى ﴿ من قريبتكم ﴾ أي من بلدكم التي نشأت فيها

(١) سورة النمل ، آية (٥٦) .

(٢) سورة العنكبوت ، آية (٧٩) .

(٣) الألوسي (٨ / ١٧١) .

وورثتموها عن آباءكم ، وفي اضافة قريتهم إليهم إشارة إلى أن لوطا وافد عليهم ، ليس بأصيل فيهم ، وليس له قبيل منهم يحميه ويدفع عنه .

وما كنا نعرف هذا التسفيه وذلك الإنكار علينا إلا بعد أن جاءنا وأسكناه بيننا فعلام نبقي عليه بيننا وحاله كما عرفتم وقوله تعالى — * إنهم أناس يتطهرون *^(١) أي يتنزهون عن تلك الفاحشة وغيرها مما نراه حسنا ، ويرونه قبحا وسوءا ، وهم لا يقصدون الثناء عليهم ولا مدحهم ، بل قصدهم التهكم والاستهانة والاستهزاء ، شأنهم شأن قوم وعظهم واعظ وهم ضائقون بكلامه فقالوا له : وعظك يعجبنا ، تهكما به ، وهذا أسلوب شائع في العربية . وهو على كل حال يدل على سفاهة قوم لوط . فما ظنك بمن يتهكم بالخير ، ويريدك على تركه إلى الشر بعامه ، بل به تلك الفاحشة التي شاعت فيهم خاصة .

وقد تتساءل لماذا قال الله تعالى في الأعراف * أخرجوهم من قريبتكم *^(٢) وفي النمل * أخرجوا آل لوط من قريبتكم * ؟

وقد أجاب المفسرون عن ذلك : بأن بعضهم قال * أخرجوهم * وبعضهم قال * أخرجوا آل لوط * فحكى الله القولين في موضعين مختلفين من كتابه ، ايذانا بسخطه على كل من قال ذلك وللمفسرين تأويلات خلاف ذلك .^(٣)

وعندي أن الله جل وعلا راعى أحوالهم النفسية عندما صدر منهم هذا القول ، فكانوا إذا ذكروا آل لوط بالتحقير قال * أخرجوهم * ، وإذا ذكروهم بالغيب وشدة الحنق قالوا * أخرجوا آل لوط *

كقولك لمن تزدرية انه لا يستحق كذا ، فاذا اشتد غضبك عليه قلت ان فلانا حقيق بالقتل ، فمبعث التسمية شدة الغضب . وليس قولهم * أخرجوهم من قريبتكم انهم أناس يتطهرون * بالقول الوحيد الذي صدر عنهم في الرد على دعوة لوط عليه الصلاة والسلام ، بل قد حكى الله عنهم في العنكبوت أنهم لما أنكر عليهم لوط ما أنكر ، تحدوه بأن يأتيتهم بما توعدهم من العذاب إن لم

(١) سورة الأعراف ، آية (٨٢) .

(٢) سورة النمل ، آية (٥٦) .

(٣) انظر: الألوسي (٨ / ١٧١) .

يقلعوا عن تلك الفاحشة ، قال تعالى ﴿ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ. قال رب انصربي على القوم المفسدين ﴾ . وقد سبق تفسير أول هذه الآيات بما يعني عن عاداتها ، أما قولهم : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فصریح بأن نفوسهم الأمانة بالسوء حدثتهم بأن لوطا ليس صادقا ، ولن يحل بهم عذاب ، أو تنزل بهم قارعة ، ولن تتغير أحوالهم ، وسوف تستمر لهم الأيام كما يريدون .

ودعاء نبيهم عليهم بقوله : ﴿ رب انصربي على القوم المفسدين ﴾ كان بعد علمه أنه لا خير فيهم وأنهم لا يؤمنون .

وقد ركز القرآن الكريم على ذكر قوم لوط بالفاحشة ، مع أنهم جمعوا إليها الكفر كما ذكرت في أول هذه القصة ، لبيان أن عذاب الاستئصال في الدنيا لا يقع فقط بسبب الكفر ، بل يقع أيضا بسبب الانهماك في المعاصي ، واقتراف الذنوب ، ليتحامي العقلاء أهل الإيمان المعاصي ، وليستفطعوهما ولا يسمحوا بانتشارها وشيوعها ، وأن يجتهدوا في الضرب على أيدي فاعليها ولقد نوهت سورة الشعراء بموقف أضيفه إلى ما ذكرته سابقا . وهو أنهم نهوه عن التحدث معهم في شأن تلك الفاحشة ، وأنه إن لم يكف عن ذلك فيكون مصيره الإخراج والطرده من بينهم ، وقد بين لهم عليه السلام أنه لعملهم من المبغضين وسيظل ينكره عليهم مادام حيا ، وما داموا مقيمين على هذا السوء ﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . قال إني لعملكم من القالين ﴾ (٣) أي من المبغضين غاية البغض كأنه يقلبي الفؤاد والكبد لشدته . (٤)

ولما كان الأنبياء عليهم السلام في أتم أحوال العبودية لله تعالى ، وأنهم ما أهلوا للنبوّة إلا بفضل الله ، وأنه لا مانع من أن يسلبوا ما أعطوا وما به شرفوا ، إذ الفضل منه واليه ، تضرع لوط لربه أن ينجيه الله وأهله مما يعمله قومه من الفاحشة ﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾ فهذا القول (٥)

(١) سورة العنكبوت ، الآيات (٢٩ ، ٣٠) .

(٢) انظر كتاب منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله لمحمد سرور بن نايف زين العابدين (١٦٥) .

(٣) انظر ص (٢٣٥) من بحثنا هذا .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات (١٦٧ ، ١٦٨) .

(٥) تفسير أبي السعود (٦ / ٢٦١) .

(٥) سورة الشعراء ، آية (١٦٩) .

منه من باب اظهار العبودية والتذلل لله تعالى ، لا أنه يمكن أن يقع
منه ذلك ، لأنه من المستحيل عليه ما دام نبيا معصوما .

المبحث الثالث

نجاة لوط وأهله ومصير الكافرين المعاندين

قال تعالى في ختام الآيات التي في سياق قصة لوط في سورة الأعراف ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾^(١)

وقوله ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ أي برحمتنا وقدرتنا ، وهذا اللفظ يحتمل نجاته وأهله من أذى قومه . ويحتمل نجاته وأهله من العذاب الذي نزل بقومهم والرأي الثاني وإن كان أقرب إلى ما تقدمه هاتان الآيتان إلا أن المعنى الأول أيضا قوي ، لاسيما إذا عرفت أن لوطا كان يجاهد فيهم وحده ، ولم تكن له فيهم عصبية ولم يؤمن معه أحد منهم كما قررته في أول القصة .

والمراد (بأهله) بناته عليه السلام .

وقوله تعالى ﴿ إِلا امْرَأَتَهُ ﴾ استثناء متمم لما قبله ، والمعنى : إلا امرأتك كانت في علم الله من الغابرين ، أي : الباقين مع هؤلاء المهلكين أو الغابرين أي هالكة مع الهالكين ، لأن غير تأتي بمعنى : بقي ، وبمعنى : ذهب - فهو من الأضداد ، وقوله تعالى ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْراً ﴾ أي كثيرا شديدا مخالفا لما عهد من مطر السماء ، لأنه كان حجارة من سجيل مطبوخ لا بنار البشر بل بنار خلق القوى والقدر مخصوصاً بهم معدا لهم من عند الله تعالى كما بينته سورة هود و الذاريات^(٢) ^(٣) ^(٤) .

وقوله تعالى ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ خطاب لكل من يتأتى منه الخطاب ويوصف بالفهم ، والغرض من هذا الفهم الاتعاظ بما وقع لقوم لوط والانزجار عن فاحشتهم ، والمقصود أن عذابهم كان شديدا فظيحا مميّزا من بين ما عذب به المكذبون من قبلهم ومن بعدهم ، وهذا هو الأقرب لسياق

(١) سورة الأعراف ، آية (٨٣ - ٨٤) .

(٢) انظر: تفسير الألوسي ، (٨ / ١٧١) .

(٣)، (٤) قال تعالى في سورة هود ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وماهي من الظالمين ببعيد ﴾ الآيات (٨٢-٨٣)، وقال تعالى في سورة الذاريات ﴿ قالوا إنّنا أرسلنا إلى قوم مجرمين، لنرسل عليهم حجارة من طين، مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ الآيات (٢٢ - ٢٣ - ٢٤) .

الآية ، ويجوز أن يكون قوله تعالى : * فانظر كيف كان عقبة المجرمين * تعقيبا على ما مضى في سورة الأعراف من قصص نوح ، وعاد ، وشمود ، وقوم لوط .

وعلى التفسير الأول : يكون تسمية قوم لوط بالمجرمين ، موافقا لما كانوا عليه من سوء ، لأنهم أخذوا من الاجرام أزدله وأخسه ، فكانوا جديريين بهذه التسمية ، وقد بينت سورة الأعراف نجاته وأهله ، وهلاك امرأته ونوعا مما عذب به قوم لوط ، سالكة في ذلك مسلك الاجمال محيلة على ما فصل من أمر هذا العذاب ومقدماته في سور أخرى كهود والحجر والعنكبوت والذاريات والقمر ، عدا ذكر المؤتفكات في التوبة والنجم والحاقة .

وقد اخترت آيات سورة هود لنقف على ذكر هذا العذاب بالتفصيل ومقدماته التي سبقتة .

قال تعالى * ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال ياقوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخرجونني في ضيقي أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد . قالوا يسلطوط إنا رسل ربك لن يملوا إليك فأسر بأهلك بقطع من السيل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبتها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد * (١)

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة إلى نبيه لوط عليه الصلاة والسلام وقد جاؤه في صورة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله للوط ولقومه إذ مجيئهم على هذه الصورة جعل لوطا لا يعرفهم ، فكان منه ما حكاه الله عنه وعن قومه في هذه الآيات ليعرف مدى ما عليه قومه من سوء الأخلاق وذميم الفعال ، وكيف أنه دافع عن ضيوفه مع هذا الموقف الحرج ، ولله الحكمة والحجة البالغة ، فلما رأى لوط قومه وقد جاؤه يحث بعضهم بعضا مسرعين ، ساءه مجيئهم وضاق نفسه بسببهم لأنه خاف على ضيوفه منهم ، وقد خفي عليه حقيقتهم ، أخرج الطبري بسنده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه أنه قال " لما جاءت الرسل لوطا أتوه وهو في أرضه يعمل فيها ، وقد قيل لهم ، والله أعلم : لا تهلكوهم

حتى يشهد لوط قال : فأتوه فقالوا : إنا متضيفوك الليلة ، فانطلق بهم، فلما مضى ساعة التفت فقال : أما تعلمون ما يعمل أهل هذه القرية ، والله ما أعلم على ظهر الأرض أناسا أخبث منهم ، قال : فمضى معهم ، ثم قال الثانية مثل ما قال ، فانطلق بهم فلما بصرت بهم عجزوا سوء امرأته ، انطلقت فأنذرتهم".^(١)

وفي رواية أخرى للسدي وقالت لهم : إن في بيت لوط رجالا مارأيت مثل وجوههم قط ، فجاءه قومه يهرعون إليه . وقوله * وقال هذا يوم عصيب * أي شديد ، وقوله * وجاءه قومه يهرعون إليه * أي يسرعون كأنهم يدفعون دفعا مما بهم من طلب الفاحشة .

* ومن قبل كانوا يعملون السيئات * ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ، حتى مروا عليها ، وانعدم عندهم استقباحهم فلذلك جاءوا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء^(٤) ، وقوله * قال يلقوم هؤلاء بناتني * فتزوجهن أراد أن يقي أضيافه بيناته وذلك غاية الكرم ، وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزا في ذلك الوقت .

وقوله تعالى * هن أطهر لكم * قال القرطبي : أي : أزوجكموهن فهو أطهر لكم مما تريدون ، أي أحل ، والتطهر التنزه عما لا يحل ، وقال ابن عباس : كان رؤسائهم خطبوا بناته فلم يجبهن ، وأزاد ذلك اليوم أن يفدي أضيافه بيناته ، وليس ألف (أطهر) للتفضيل حتى يتوهم أن في نكاح (الرجال) طهارة ، بل هو كقولك الله أكبر وأعلى وأجل ولم يكابر الله

(١) تفسير القرطبي (١٣ / ٨١) .

(٢) تفسير القرطبي (١٣ / ٨٢) .

(٣) يهرعون : يقال : أهرع الرجل : خف وأرعد من سرعة أو خوف أو حرص أو غضب ، وفي التنزيل * وجاءه قومه يهرعون إليه * أي يستحثون إليه

كأنهم يحث بعضهم بعضا . انظر لسان العرب : يتصرف (٨ / ٣٦٩) .

(٤) يتصرف تفسير النسفي (٢ / ١٩٨ - ١٩٩) .

- تعالى - أحد حتى يكون الله - تعالى - أكبر منه . (١)

* فاتقوا الله * أي : اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بالإيمان به وترك الفواحش ، * ولا تخزوني في ضيفي * أي : لا تهينوني وتفضحوني في حق ضيوفي ، فانه إذا أخزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل وذلك من عراقة الكرم ، وأصالة المروءة .

* أليس منكم رجل رشيد * أي رجل واحد يهتدي إلى طريق الحق ،
(٢)
وفعل الجميل ، والكف عن السوء .

والآيات الكريمة السابقة واللاحقة تصور لنا مدى تشبث أهل الباطل بباطلهم ، واستحسانهم له في نفوسهم ، واصرارهم عليه ، وذلك يتمثل في قوم لوط وكيف أنهم أمعنوا في باطلهم أو بالغوا في فحشهم .

وفي نفس الوقت يبرز موقف أهل الحق ، واستنكارهم بساطل أهل الباطل .
* أليس منكم رجل رشيد * يتبع الحق ويهتدي إليه ، ويرعوى عن الباطل القبيح ، لكنها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، لذلك أجابوه بمحض ما ترمي إليه أهواهم وشهواتهم .

* قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق * حاجة ، لأن نكاح الاناث أمر خارج عن مذهبنا ، فمذهبنا اتيان الذكور .

قال الشوكاني : أي : مالنا فيهن من شهوة ولاحاجة ، لأن من احتاج الى شيء كأنه حصل له فيه نوع حق .
(٣)

وقوله * وإنك لتعلم ما نريد * اشارة خبيثة منهم ، وأنهم يعنون اتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة .

* قال لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد * أي : لما أصروا على مرادهم تمنى أن يكون له قوة تدفع الخزي عن ضيوفه ، أو أن يكون له حصن من عشيرة تنصره عليهم .

-
- (١) انظر: تفسير القرطبي (٩ / ٧٦) .
(٢) تفسير النسفي (٢ / ١٩٩) .
(٣) فتح القدير للشوكاني (٢ / ٥١٤) .

قال الفخر الرازي رحمه الله : قوله عليه الصلاة والسلام * لو أن لي بكم قوة أو أويّ إلى ركن شديد * يدل على أنه كان في غاية القلق والحزن ، بسبب إقدام أولئك الأوباش على ما يوجب الفضيحة في حق أضيافه .

فلما رأت الملائكة تلك الحالة بشروه بأنواع من البشارات :

- أحدها : أنهم رسل الله .
- ثانيها : أن الكفار لا يصلون إلى ما هموا به .
- ثالثها : أنه تعالى يهلكهم .
- رابعها : أنه تعالى ينجيهم من ذلك العذاب .
- خامسها : أن ركنك شديد وأن ناصرك هو الله ، فحصلت له هذه البشارات .^(١)

وقال النسفي رحمه الله : جواب (لو) محذوف أي لفعلت بكم ولم صنعت والمعنى : لو قويت عليكم بنفسي أو أويت إلى قوي أستند إليه وأتمنع به فيحميني منكم ، فشبّه القوي العزيز بالركن من الجبل في شدته ومنعته .

روي أنه أغلق بابه حين جاءوا وجعل يرادهم ما حكى الله عنه ويجادلهم فتسورا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما لقي لوط من الكرب قالوا يا لوط .^(٢)
إن ركنك لشديد ، أخرج البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد) أي : إلى الله سبحانه وتعالى .^(٣)

ومراد النبي صلى الله عليه وسلم أن لوطا عليه السلام كان يطلب ركنًا شديدًا من البشر ليسعتهن به على مقاتلتهم على حد قوله صلى الله عليه وسلم (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده) و الا فلوط عليه السلام كان آويا إلى ربه جل وعلا على الدوام ، موقنا بنصرته له في الوقت الذي أراد الله جل جلاله .

(١) الفخر الرازي (١٨ / ٣٥) .

(٢) تفسير النسفي (٢ / ١٩٩) ، انظر تفسير القرطبي (٧٨/٩) ، الكشاف (٢٨٤/٢) ، انظر تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف لابن أبي حاتم الرازي دراسة وتحقيق الزميل الشيخ / أحمد بن أبي بكر رسالة ماجستير جامعة أم القرى (٢٥٣/١) .

(٣) صحيح البخاري بشرح فتح الباري (٧ / ٢٢٦) .

(٤) صحيح مسلم بترقيمه محمد فؤاد عبد الباقي (٦٩/١) حديث رقم (٧٨) كتاب الايمان .

ولما كان ربنا جل شأنه حلِيمًا لا يعجل ويستحيل عليه أن يستخفه كفر كافر ، أو فجور فاجر ، وأن قوم لوط قد يعتدون على الرسل الذين لم يعرفهم لوط في أول الأمر . وقد يكون من قدر الله أن يؤخر عنهم العقاب ، مع استفظاع ما أصروا عليه ، من أجل ما قدمته ، قال لوط ما قصه الله * أو اويء إلى ركن شديد *

وقوله * إنا رسل ربك * فافتح الباب ودعنا وإياهم فدخلوا فاستأذن جبريل عليه السلام ربه في عقوبتهم فأذن له ، فضرب بجناحه وجوههم ، فطمس أعينهم ، فأعماهم كما قال تعالى : * ولقد رأودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر * فصاروا لا يعرفون الطريق ، فخرجوا وهم يقولون : النجاء - النجاء فان في بيت لوط سحرة .^(١)

وقوله * لن يصلوا إليك * أي لن يمسوك بما تكره .

وقوله * فأسر بأهلك * أي : فأخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل والمراد بأهلك : قيل أنصاره وأتباعه الذين قبلوا دينه - وقال ابن عباس : ابنتاه .^(٢)

والسرى : السير في الليل . وقوله تعالى * بقطع من السيل * أي في وقت معلوم من الليل وقد بينه قوله تعالى * إلا لوط نجيناهم بسحر * والسحر هو الثلث الأخير من الليل فيما يبدو لي والله أعلم ، و من الواجب علينا أيها القاريء الكريم أن نعرف أهمية الوقت الذي اختاره الله لنجاة نبيه لوط عليه السلام وأهله ، حتى يأتي هذا الوقت ونحن في تضرع وابتهاج إلى الله تعالى ، لنصون أنفسنا باحياء هذا الوقت من كل مكروه يصيبنا ، فالقرآن ليس كتاب تاريخ بقدر ما هو كتاب علم وهداية وعبرة * لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب * وما نكب المسلمون بما نرى وما مضى مما سطرته كتب التاريخ إلا لقللة أهل السحر فيهم وانشغال أغلبهم في هذا الوقت العظيم بالغفلة الشديدة ، والنوم العميق . فاذا أضفت ما يفعله

- (١) سورة القمر ، آية (٣٧) .
- (٢) انظر تفسير النسفي (٢ / ١٩٩) ، انظر تفسير القرطبي (٧٨ / ٩) ، الكشاف (٢ / ٢٨٤) ، تفسير سورة الأعراف لابن أبي حاتم (١ / ٣٥٣) .
- (٣) انظر تفسير الرازي (١٤ / ١٧١) .
- (٤) سورة القمر ، آية (٣٤) .
- (٥) سورة يسوسف ، آية (١١١) .

البعض من سهر في هذا الوقت مع اللهو والطرب ، كانت النكبة أكبر والبليّة أعم ، نسأل الله السلامة .

ثم قال تعالى * ولا يلتفت منكم أحد * نهي عن الالتفات هو ومن معه .
ورجح الرازي أن المراد أنه كان لهم في البلدة أموال وأمتعه ، فأمرُوا أن يخرجوا أو يتركوا تلك الأشياء ولا يلتفتوا إليها البتة ، وكأن المراد منه قطع تعلق القلب عن تلك الأشياء ، وقد يراد النهي عن التخلّف وعدم التباطيء (١)
في الخروج .

وقوله * إلا امرأتك * بالنصب وعليه فالاستثناء متصل . بتأويل: أن الله جل وعلا أمر لوطا أن يسري بأهله سوى زوجته فإنه نهى أن يسري بها ، وأمر بتخليفها مع قومها ، فإنها هالكة مع الهالكين .

وعلى القراءة بالرفع * إلا امرأتك * فيكون الاستثناء منقطعا .
ويكون المعنى : أن لوطا عليه السلام قد أخرجها معه ، وأنه نهى ومن معه ممن أسرى معه أن يلتفت سوى زوجته ، وأنها التفتت . لذلك أدركها حجر فقتلها ، وقوله * إنه مصيبتها ما أصابهم * من العذاب والهلاك . (٢)

قال ابن كثير رحمه الله : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تماثلهم عليه ، وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا لما أمر لوط عليه السلام ليسري بأهله ، أمران لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول انها اتبعتهم ، فلما جاء العذاب التفتت هي فأصابها ما أصابهم ، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ، ولا أعلمها لوط ، بل بقيت معهم ، ولهذا قال الله تعالى في سورة الأعراف * إلا امرأته كانت من الغابرين * أي الباقيين في الهلاك . (٣) (٤)

روي أن لوطا عليه السلام سأل الملائكة عن موعد هلاكهم فقالوا لــــه * إن موعدهم الصبح * فقال أريد أسرع من ذلك فقالوا * أليس الصبح يقرب * وإنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون

(١) بتصرف من تفسير الرازي (١٨ / ٣٦) .

(٢) انظر تفسير الرازي (١٨ / ٣٦) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٨٣) .

(٤) تفسير ابن كثير (٢ / ٢٣١) .

(١)
حلول العذاب حينئذ أفزع...

وقوله تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا سافلها وأمطرنا عليها
حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ ﴿٨٤-٨٣﴾

هاتان الآيتان تصوران عاقبة الصراع ، وعاقبة الكفر، وأن الباطل مهما
طال أمده فنهائيته وخيمة ، وفي النهاية لابد وأن ينتصر الحق وتعلو كلمته ،
لقد أمر قوم لوط على فاحشتهم وتمادوا في منكرهم ، واستكبروا عن امتثال
أوامر الله ، واجتناب نواهيهِ ، وعتوا عتوا كبيرا .

قال تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ أي : عذابنا أو الأمر به ﴿ جعلنا
عليها سافلها ﴾ جازيناهم بالعذاب الذي يناسب شناعة جرمهم وفحشهم، فانهم
لما خالفوا الفطرة الالهية وقلبوا الأوضاع فأتوا الرجال شهوة من دون
النساء ، أهلكهم الله بالعقوبة التي قلبت عليهم قريتهم ، ومزقتهم شرمزق
فجعل أعلاها أسفلها . وذلك بأن قلعها جبريل عليه السلام بجناحه من أسفلها
ثم رفعها الى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة ، ثم
قلبها عليهم ، كما ذكر ذلك المفسرون رحمهم الله تعالى ، واتبعوا الحجارة
من فوقهم وذلك قوله ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ أو ذلك
لمن كان منهم خارج القرية .

قال الألوسي رحمه الله : ظاهر الآية أنه أمطر عليهم كلهم . وجاء في
بعض الآثار أنه خسف بالمقيمين منهم ، وأمطرت الحجارة على مسافريهم
وشذاذهم حتى إن تاجرا كان في الحرم فوقف له حجر أربعين يوما حتى قضى
تجارته وخرج من الحرم ، فوقع عليه . (٣)

وقوله ﴿ من سجيل ﴾ اختلف في معنى (السجيل) فقيل : الطين
المتحجر بطبخ وغيره ، وقيل : هو الشديد الصلب من الحجارة ، وقيل غير ذلك . (٤)

-
- (١) انظر تفسير أبي السعود (٢٣٠/٤) ، انظر تفسير النسفي (٢٠٠/٢) .
(٢) انظر تفسير ابن كثير (٤٥٥ / ٢) ، تفسير القرطبي (٨١ / ٩) ،
تفسير الرازي (٣٨ / ١٨) .
(٣) تفسير روح المعاني للألوسي (١٧٢ / ٨) .
(٤) انظر تفسير القرطبي (٨٢٠ / ٧) ، الرازي (٣٨ / ١٨) ،
أبو السعود (٢٣٠ / ٤) .

(١)

وقوله ﴿ منضود ﴾ نعت لسجيل أي متتابع ، أو مجموع معد للعذاب والمعنى : أمطرنا عليهم حجارة شديدة غاية في الصلابة والقوة تهلكهم ، ولا تتفتت بل تبقى عبرة للمعتبرين وذكرى للمتذكرين

وقوله ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ وما هي أي الحجارة التي أهلك بها قوم لوط ببعيدة من الظالمين ، وهم قريش الذين أمعنوا في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فالله قادر على أن يعاقب بتلك الحجارة ، لأنها لم تستنفذ قوتها بصبها على قوم لوط ، أو يأتي بأمثالها ، وهو تهديد للمشركين . أو الضمير راجع إلى ديار قوم لوط . أي ليست هذه الديار ببعيدة عنك ولم يؤمن بك يا محمد صلى الله عليك وسلم ، فهي بين الشام والمدينة ، فكان الأجر بقومك أن يعتبروا بما حل بالأقوام السابقة من العذاب والهلاك ، عندما كذبوا رسلهم ، ولم يؤمنوا بك وبما جئت به .

فالقصة بلا ريب صراع مريب بين الحق والباطل ، وقد تبين لنا مآل من تنكبوا عن جادة الحق ، وأصروا على فحشهم وباطلهم ، وكيف أن الله نصر الحق وحزبه وأخذل الباطل وأهله ، وقد كشفت الأبحاث الطبية الحديثة في عصرنا هذا عن الأمراض الخطيرة المعدية للمصابين بالشذوذ الجنسي ، فكان انتقام الله لهم ودفنهم في باطن الأرض هم وممتلكاتهم ، أفضل حل لتخلص البشرية من شرهم وخطرهم ، ولكن بقي أن يعتبر من هم مصابون بمثل داءهم في زماننا هذا ، وينسلخوا عن جرمهم ، فقد ختم الله قصة لوط في سورة الأعراف بنعت قوم لوط بأنهم مجرمون . قال تعالى ﴿ فانظر كيف كان عقبة المجرمين ﴾ (٢) وأي اجرام أكبر وأشنع من تلك الفاحشة ، ويكفي في فحشها أنها مواطن القذارة .

(١) تفسير النسفي (٢ / ٢٠٠) . قال في الصحاح : يقال نضدت المتاع :

إذا جعلت بعضه على بعض . فهو منضود ونضيد . انظر الصحاح للجوهري

(نضد / ٢ / ٥٤٤) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٤) .

الأبحاث الطبية الحديثة
كشفت عن أضرار فاحشة اللواط

لقد كشف العلم الحديث خطورة تلك الفاحشة وأضرارها ، لا على الفاعل والمفعول فقط بل على المجتمع بعامه . ومن أحسن ما طالعت في هذا الموضوع كتاب (الأمراض الجنسية) للدكتور / محمد على البار وألخص لك بعضا من الأضرار والأمراض التي تنجم من تلك الفاحشة منها: أنه يسبب ارتخاء عضلات المستقيم ، ويمزقه ويفقد الشخص القدرة على السيطرة على المواد البرازية ، وعدم استطاعته الإمساك عليها .

ولا يخفى أن الأمراض التي تنتشر بالزنا - والعياذ بالله - يمكن أن تنتشر بطريق اللواط ، وتصيب أصحابه وتفتك بهم فتكا ذريعا ، مثل مرض (الايدز) ، وهو مرض فقدان المناعة المكتسبة الذي يعتبر الآن هو الشاغل الأول لوزارة الصحة في الولايات المتحدة الأمريكية . بل العالم أجمع والذي حتى يومنا هذا - لا يوجد له أي علاج ، وقد تعدى انتشاره إلى أوروبا وأستراليا وكندا وغيرها - ومن الأمراض الجنسية الفتاكة التي تنتشر نتيجة هذه الفاحشة (مرض الهربس)^(٢) وينتشر هذا المرض في الدول الاباحية بصورة مرعبة وتبلغ اصابة (الشاذين جنسيا) بهذا المرض عدة أضعاف ما هي عليه عند الزناة وحتى الآن لا يوجد له علاج يقطع شأفته نهائيا .

وهذا المرض غالبا ما يكون مصحوبا بأمراض الزنا واللواط الأخرى مثل - (السيلان) - و (الكلاميديا) وهو التهاب مجرى البول من غير سيلان ، والزهري ، بالإضافة الى الكثير من الأمراض والأورام والسرطانات الخبيثة أضف الى ذلك ما يسببه اللواط من الأمراض النفسية والاكتئاب والأمراض العصبية ومن العجيب رغم ما يعرفه العالم أجمع عن ما ينجم من تلك الفاحشة من أمراض فتاكة لازلنا نسمع في المجتمعات الغربية الاباحية الدعوة إلى الحرية الجنسية

-
- (١) انظر كتاب الأمراض الجنسية للدكتور محمد على البار ، ص ١٣١ نقلا عن مجلة التايم الأمريكية في ٤ / يولييه سنة ١٩٨٣ .
- (٢) (الهربس) مرض هنطري جلدي . وترجم باسم القوباء المنطقية ويصيب الجنب على هيئة بثور كما يصيب الفم والشفة - انظر الأمراض الجنسية ص ٢٣١ .
- (٣) تشير الدراسات الحديثة أن سرطان الكبد منتشر بصورة خاصة في المجتمعات الغربية لدى الشاذين جنسيا - انظر المرجع السابق ص ٤٧ - ٤٨ .

واقامة النوادي الخاصة باللواط.

ولقد أوضحت آخر الاحصائيات الأمريكية أن عدد الشاذين جنسيا في الولايات المتحدة وصل إلى ١٢ مليون شاذ وشاذة.^(١)

(١) من مجلة (المجلة) العدد (٣٦٠) ، ٣١ ديسمبر ١٩٨٧م.

الفصل السادس

الصراع بين شعيب عليه السلام وقومه

الفصل السادس

المصراع بين شعيب (عليه السلام) وقومه

- مقدمة : نبذة عن نبي الله شعيب (عليه السلام) .
- المبحث الأول : دعوة شعيب عليه السلام لقومه .
- المبحث الثاني : موقف قومه من شعيب ودعوته .
- المبحث الثالث : عاقبة قوم شعيب .

نبذة عن نبي الله شعيب عليه السلام

اسمه ونسبه :

اختلف المؤرخون والنسابة في نسب نبي الله شعيب عليه السلام اختلافًا كثيرًا والذي عليه الأكثر هو : شعيب بن ميكييل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم الخليل عليه السلام .^(١)

ولقد أرسل (عليه السلام) الى أهل مدين ، وهم قوم عرب من بني مدين بن ابراهيم الخليل ويربطه بهم نسب والى ذلك أشار تعالى —
* وإلى مدين أخاهم شعيبا * قال صاحب نهاية الأرب في فنون الأدب :^(٢)
أن مدين بن ابراهيم عاش عمرا طويلا ، وكان قد تزوج من العمالقة . فولدت له أربعة بنين . ونسلوا فكثر عددهم في حياته ، فلما رأى كثرة عقبه جمعهم وأشار عليهم أن يبنيوا مدينة ويحصنوها من العمالقة ، ففعلوا ذلك وجعلوا أبوابها من الحديد وسموها (مدين) باسم أبيهم ، وجعلوها محال

- (١) انظر (نبي الله شعيب عليه السلام) صادق المنى رسالة مقدمه لتيلدرجة المناجستير من جامعة أم القرى بمكة المكرمة .
- (٢) شعيب وقومه من العرب وقد أخرج الطبراني عن ابن عباس قال الأنبياء من بني اسرائيل إلا عشرة / نوح ، وهود ، ولوط ، وصالح ، وشعيب ، و ابراهيم واسماعيل وأسحق وعيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم) .
- انظر مجمع الزوائد للهيثمى (٢١٠/٨) دار الكتاب العربي ، بيروت ، قال فيه الهيثمي رواه الطبراني موقوفا ورجاله ثقات .
- (٣) سورة الأعراف ، آية (٨٥)
- (٤) العمالقة : يرجع أصلهم من قبائل العرب البائدة . وقد كان لهم ملوك ودول حيث امتد ملكهم الى الشام ومصر ويذكر المؤرخون أن هذه القبائل كانت تسكن قديما في آسيا الصغرى ثم هاجروا الى جزيرة العرب . حيث سكنوا شمال الحجاز مما يلى جزيرة سيناء . وقد فتحوا مصر مدة الفراعنة وأسسوا فيها أسرة ملكية .
- انظر دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي
- ٦ / ٢٣٢ ، ط ٣ ، دار المعرفة ، بيروت .

قبائلهم . فرغب العمالقة في مجاورتهم وعندئذ امتلأت المدينة بهم وبأهلها حتى ضاقت ، فخرج العمالقة من مدين ونزلوا الأيكة وهي غيضة عن يمينها (١) فبنوا هناك الدور لأنفسهم .

موقع مدين :

قال صاحب معجم البلدان : (مدين) على بحر القلزم ^(٢) محاذية تبوك على نحو ست مراحل ، وهي أكبر من تبوك . ^(٣)

وتسمى حديثا مدينة " العقبة " الميناء المعروف بالأردن . ^(٤) قال القزويني "مدين" : مدينة قوم شعيب عليه السلام بناها مدين بن ابراهيم الخليل جد شعيب ، وهي تجارة تبوك بين المدينة والشام . ^(٥) وتقع بالقرب من بحيرة لوط ، وهذا يفسر لنا معنى قوله تعالى على لسان نبيه شعيب * وما قوم لوط منكم ببعيد * ^(٦) وقد فسروا القرب المعنى بالقرب المكاني والزماني .

شهرته عليه السلام :

ولقد اشتهر شعيب عليه السلام بفصاحته وبلاغته وقوة حجته وحسن مراجعته لقومه .

قال الفيروز آبادي : (ولم يكن من الأنبياء بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أفصح ولا أبلغ من شعيب عليه السلام ، قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قصته وما كان منه ومن قومه ، وتأمل في ألفاظ تذكيره لقومه فقال (رحم الله أخي شعيب ذاك خطيب الأنبياء كان يحسن مراجعة قومه) ^(٧) .

- (١) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري (١٣ / ١٦٧) .
- (٢) البحر الأحمر حاليا .
- (٣) معجم البلدان لياقوت الحموي ، ٧٧/٥ دار صادر .
- (٤) انظر مراد الاطلاع (٤ / ١٢٤٦) .
- (٥) انظر آثار البلدان وأخبار العباد لذكريا القزويني ص ٢٦١ ، دار بيروت .
- (٦) سورة هود ، آية (٨٩) .
- (٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي، تحقيق الأستاذ عبدالعليم الطحاوي (٥٧/ ٦) المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
والحديث الذي ذكره الفيروز آبادي ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١ / ١٨٥ ، وأخرجه الحاكم في المستدرک بلفظ (وكان رسول الله إذا ذكره قال ذاك خطيب الأنبياء لمراجعته قومه) المستدرک (٥٦٨/٢) ، وأورده الألوסי نقلا عن ابن عساكر عن ابن عباس بنفس اللفظ السابق (١٧٥/ ٨) .

المبحث الأول

دعوة شعيب عليه السلام لقومه

هذه القصة السادسة في هذه السورة الكريمة ، والتي تصور مشهداً جديداً وصراعاً مغايراً للصراعات السابقة ، فرغم أنها تتفق مع سالفاتها من الصراعات في قضية التوحيد والحق عليه وترسيخ العقيدة . إلا أنها عالجت نمطاً جديداً وخلقاً وضيعاً ، وطفياً مادياً استفحل في قلوب الملامن أهل مدين ومن تخلقوا بأخلاقهم ، وقد ساعد على تفشيهِ بينهم بسبب ما تتمتع به مدين من موقع جغرافي استراتيجي ، فهي كما أسلفت مركزاً تجارياً هاماً يربط بين الحجاز والشام ، وتمر عليها القوافل التجارية من مختلف الأقطار ، مما أكسب أهل مدين معرفة واسعة بأصول التجارة ، ومهارة فائقة في البيع والشراء فأصبحوا في ثراء عظيم ونعم لاتحصى .

ولقد ظفى عليهم حب المال وأصبحوا لاهم لهم إلا في جمعه ، كما قال تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِتْفَانٌ ﴾ (١) لا يعنيه من أي الوجوه أتى الربح ، فهم يرون أنفسهم أنهم أحرار في أموالهم ، يفعلون فيها ما بدا لهم ، وإن ظلموا غيرهم فليس لديهم أي بأس أو حرج عندما ينقصون الكيل والميزان إذا هم باعوا لغيرهم . وأن يطففوه إن هم اشتروا لأنفسهم

ومن هذا المنطلق كانت دعوة شعيب عليه السلام لذلك المجتمع الذي طغت عليه المادية ، وذلك باعادة التوازن في البيع والشراء والعدل في الكيل والميزان ، وعدم بخس الآخرين حقهم حتى تسود روح المحبة والاخاء بين أفرادها ، ويتلاشى طغيان المادة التي تسبب اشتعال نار الحقد والكراهية في نفوس بعض الأفراد ضد بعض .

(٢)

قال تعالى ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره (أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً) وهذا المحذوف معطوف على المقدر في نظائره فيما مضى من قوله تعالى

(١) سورة اقرأ ، آية (٦ ، ٧) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .

* وإلى عاد آخاهم هودا * (١) ، * وإلى ثمود آخاهم صالحا * (٢) فالتقدير وأرسلنا هودا إلى عاد ، وأرسلنا صالحا إلى ثمود ، وأرسلنا شعيبا إلى مدين .

وتتلخص دعوة شعيب لقومه بما يلي :
وشعيب عليه السلام من أبناء مدين كما أسلفت فالأخوة نسبية . (٣)

١ - أمرهم باخلاص العبادة لله تعالى وحده .

ولقد دعا شعيب قومه الى عبادة الله وحده ، ونبذ ما هم عليه من الشرك وعبادة الأصنام * قال يلقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره * ناداهم عليه السلام بـ * يلقوم * تذكير لهم بأواصر الأخوة والنسب ، وأنه عليه السلام حريص على هدايتهم وانقاذهم من الهلاك الذي يترتب بهم ، لذلك كان أول نداء وجهه اليهم (شأنه في ذلك شأن الأنبياء الذين سبق ذكرهم) - هو حثهم على عبادة الله وحده . فليس هناك إله يستحق العبادة سواه ، ولم يحتج عليه السلام إلى اثبات وحدانيته جل وعلا بأدلة حسية أو غيرها . لأن أهل مدين هم من أحفاد ابراهيم الخليل عليه السلام - كما سبق أن أسلفت - ولم يكن أمر التوحيد بالغريب عليهم . لكن لتطاول الأزمان بين دعوة شعيب ودعوة ابراهيم عليهما السلام اجتالتهما الشياطين وأنسوهم ذكر الله . وحادوا عما كان عليه آباؤهم واتبعوا أهواءهم وزين لهم الشيطان الشرك والكفر بالله فعكفوا على عبادة الأصنام والأوثان واتخذوها آلهة تعبد من دون الله .

وقوله تعالى * مالكم من إله غيره * معناه : أن شيئا مما ألهموه لم تأمركم بذلك ولم تدعكم إلى تأليها ، لأنها جمادات لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنكم شيئا ولا تحس بتوجهاتكم إليها ، ومن العجيب أن الأمم الكافرة قد عكفت على عبادة الجمادات التي لا تشعر بعبادتها ، ولم يعرف تأليه البشر إلا على لسان اليهود والنصارى ، وهم لم يتجرؤا على جعل من ألوهة من البشر آلهة مستقلين ، بل جعلوهم أبناء لله الواحد .

-
- (١) سورة الأعراف ، آية (٦٥) .
 - (٢) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .
 - (٣) انظر ص ٢٤٩ من بحثنا هذا .

قال تعالى ﴿ وقال اليهود عزيز ابن الله وقالت النصرى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضلهون قول الذين كفروا من قبل قلّتلهم الله أنّى يؤفكون . اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾^(١) .

وهذا كله متأخر عن عصر شعيب ، ولعل الكافرين الذين شابههم اليهود والنصارى هم المصريون القدماء الذين انطلت عليهم فريضة فرعون حيث قال لهم ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ومما يقوى ذلك أن اليهود كانوا يعيشون في مصر في ذلك الوقت وقد اقتبسوا عن المصريين الكثير من أحوالهم ، فاذا قال شعيب لقومه ﴿ مالكم من إله غيره ﴾ فقد نبه قومه أنهم هم الذين افتعلوا تأليه معبوداتهم لا - أنها - أمرتهم بذلك ، ولأن أحداً لم يتجرأ على دعوى ألوهية هذا الكون وتدبيره وحفظه . وغاية ما ادعاه فرعون أنه قال لقومه ﴿ أنا ربكم ﴾ ولم يقل لهم أنا رب الخلائق ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم ﴾ أي دلالة وحجة واضحة ، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني ، والمقصود من هذا القول الكريم حملهم على التوحيد ونبذ الشركاء .

ولقد اختلف العلماء رحمهم الله في بينة شعيب عليه السلام أي معجزة حسية كناقاة صالح عليه السلام ؟ أم هي معجزة قولية ؟ أم هي مجموع الأمرين ؟ وسبب هذا الخلاف أن القرآن الكريم لم يقص علينا معجزة حسية لشعيب كناقاة صالح ، وعصا موسى عليهما السلام ، وقد ثبت في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خطيب الأنبياء بسبب قوة حجته وافحامه قومه عليه السلام مما اضطرهم أن يقولوا له ﴿ قالوا يلعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإننا لنرريك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾^(٢) .

قال الألوسي : جعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ وأنواع العلوم والمعارف من قبيل التخليط والهديان الذي لا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه ، مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خطيب الأنبياء)^(٣) .

- (١) سورة التوبة ، آية (٣٠ ، ٣١) .
- (٢) سورة هود ، آية (٩١) .
- (٣) بتصرف من تفسير الألوسي (١٢ / ١٢٣) .

لما قدمته قال بعضهم : كانت له (عليه السلام) معجزة حسية ، ولا يضر عدم ذكرها بل يكفي أن نعلم أنه أوتي بينة من ربه .

وقال فريق آخر بل بينته حجة لما أسلفته من سبب هذا القول وقد لخص الألوسي رحمه الله الخلاف فقال :

* قد جاءتكم بينة من ربكم * أي معجزة عظيمة ظاهرة من مالكم أموركم ، ولم تذكر معجزته عليه السلام في القرآن العظيم كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم السلام فيه .

والقول بأنه لم يكن له عليه السلام معجزة غلط ، لأن الفاء في قوله سبحانه * فأوفوا الكيل والميزان * لترتيب الأمر على مجيء البينة ، واحتمال كونها عاطفة على * اعبدوا * بعيد ، وإن كانت عبادة الله تعالى موجبة للاجتناب عن المناهي التي معظمها بعد الكفر البخس ، فكأنه قيل : قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي ، أوجبت عليكم الايمان بها ، والأخذ بما أمرتكم به فأوفوا الخ ... ، ولو ادعى مدع النبوة بغير معجزة لم تقبل منه لأنها دعوى أمر غير ظاهر ، وفيه الزام للغير ومثل ذلك لا يقبل من غير بينة ، ومن الناس من زعم أن البينة نفس شعيب ، ومنهم من زعم أن المراد بالبينة الموعظة ، وأنها نفس * فأوفوا * الخ ... وليس بشيء كما لا يخفى . (١) هـ .

٢ - أمرهم بايفاء الكيل والميزان :

قال تعالى * فأوفوا الكيل والميزان * : الفاء تفيد الترتيب ، وهذا يؤكد وجود المعجزة ، فان عطف هذا الأمر بالفاء لا يصح إلا إذا كان مبنيا على ما هو سببه ، وهو البينة على صدقه ووجوب طاعته ، ولو كان معطوفا على قوله * اعبدوا الله * لعطف بالواو . (٢)

قال الفخر : في بيان الحكمة من ابتداء شعيب عليه السلام بتحذير قومه من البخس والتطفيف في الكيل : أعلم أن عادة الأنبياء عليهم السلام

(١) تفسير الألوسي ، (٨ / ١٧٦) .

(٢) انظر تفسير المنار ، (٨ / ٥٢٥) .

إذا رأوا أقوامهم مقبلين على نوع من أنواع المفساد اقبالا أكثر من اقبالهم على سائر أنواع المفساد ، بدأوا بمنعهم عن ذلك النوع ، وكان قوم شعيب مشغوفين بالبخس والتطيف ، فلهذا السبب بدأ بذكر هذه الواقعة فقَالَ ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ (١) * وأهل مدين - كما أسلفت - بحكم موقع مدينتهم على ممر القوافل التجارية بين الحجاز والشام أهل تجارة وبيع وشراء وقد أنعم الله عليهم بالنعم والرخاء في العيش كما أشارت الى ذلك سورة هود ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرُكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ (٢) * أي في ثروة واسعة ورغد في العيش يغنيكم عن التططيف وأكل أموال الناس بالباطل .

وكان اللائق بهم أن يعرفوا ويؤدوا حق شكر هذه النعم ، لا أن يقابلوها بالكفر والجحود والعميان لأن المال الحرام لبركة فيه ، وسرعان ما يزول عن صاحبه بدون أن يشعر ، بينما المال الذي يكسبه الانسان عن طريق الحلال المشروع فان الله يبارك فيه ، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة في سورة هود ﴿ بَقِيَّتِ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَيْرِ مَا جَمَعْتُمْ مِنْهُ ﴾ (٣) * أي ما أبقاه الله لكم ، وأنعم به عليكم من الحلال ، خير مما تجمعونه من الحرام ، الذي يذهب هباء ، فضلا عن أنه يكون وبالا على صاحبه . والمراد بالكيل في الآية : آلة الكيل وهو المكيال .

وأمر شعيب قومه بإيفاء الكيل والميزان يحتمل أن آلاتهم التي كانوا يكيلون بها ويزنون سليمة ، وأن النقص كان في المكيل والموزون .

ويحتمل أن آلاتهم كانت على خلاف ما تعورف عليه ، فكانوا يرتكبون الجريمةين نقص المكيل والموزون ونقص آلاتهما ، فلفظ الكيل في الآية يحتمل هذين المعنيين ، اذ قد يكون الكيل بمعنى المكيل . أو هو اسم للآلة التي يكال بها ، وقد شاع فيهما الأمران قال تعالى ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ (٤) * فحملهما على الآلة في هذه الآية واضح ظاهر .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٤ / ١٧٣) .

(٢) سورة هود ، آية (٨٤)

(٣) سورة هود ، آية (٨٦) .

(٤) سورة هود ، آية (٨٤) .

٣ - نهاهم عن بئس الناس حقوئهم :

ولما أمرهم بايفاء الكيل والميزان ، نهاهم عما يؤدي إلى نقص الحقوق
بعامة فقال ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أي لا تبخسوا الناس أشياءهم
بكافة أوجه البخس والنقص ، فيدخل فيه المنع من الغصب والسرقة وأخذ الرشوة
وقطع الطريق وانتزاع الأموال بطريق الحيل .^(١)

٤ - نهاهم عن الافساد في الأرض :

ثم نهاهم عن الفساد في الأرض بعامة ، بعد أن أصلحها الأنبياء عليهم
السلام بالشرائع الالهية ، فيدخل فيه كل فساد وكل ظلم وهذا النهي من قبيل
ذكر العام بعد الخاص الذي ينتظم الخاص المذكور ، وما لم يذكر من أنواع
الفساد والجور ، فيدخل فيه النهي عن الزنا والقتل وقطع الطريق وظلم الضعيف
وغير ذلك من المناهي التي جاءت بها الشرائع ، على اختلافها في الفروع
والأصول ، قال تعالى ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن
كنتم مؤمنين ﴾^(٢)

وخلاصة القول : أن المباشرة الحرة للمال من غير قيود ، ومن غير عدل
تنتهي حتما إلى الفساد في المجتمع ، بسبب فساد المترفين عن طريق الربح
غير المحدود بل وغير المشروع ، الربح الحرام الذي يسبب الشقاء والظلم
للآخرين .

﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ إشارة إلى ما مضى من نبذ عبادة
الأصنام وأمرهم بايفاء الكيل والميزان ، والنهي عن البخس والفساد في
الأرض وقد جاء بلفظ الجمع في الإشارة ﴿ ذلكم ﴾ لأنه أراد عموم ما ذكره
لهم ، وجمع في الخطاب ليعلمهم أن هذه الخيرية حاصلة لكل واحد منهم على
حده ، أي : هي حاصلة للأفراد وللجماعة . وهذه نكتة الجمع في الخطاب .

﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي : موقنين مصدقين لي فيما جئتمكم به
فانكم حينئذ تدركون قبح ما أنتم عليه ، وان صلاحكم في توحيد ربكم
والالتزام بما أمرتكم به ، وترك ما نهيتكم عنه .

(١) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ، (١٤ / ١٧٤) .

(٢) الاعراف ، آية (٨٥) .

وهذا بيان إلهي عظيم ، هدينا به إلى أن القبح لا يعرف ولا يدرك قبحه إلا بالإيمان بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره ومما يؤكد لك هذه الحقيقة أن ما نستقبحه في البيئة الإسلامية ونتحماه كل التحامي ، نجد الكفار ينكبون عليه ، وبينهم من فعله ، ويسنون القوانين الحامية لمن يفعله ، والفرق بيننا وبينهم هو الإيمان بالله عز وجل ويستحيل على العقل أن يدرك قبح الأشياء وحده بدليل أنك ترى أكبر المفكرين والفلاسفة من غير المؤمنين - يأتون من قبائح الأفعال ، والكفر بالله عز وجل ما يجعل المؤمن في حيرة ودهشة من صدور ذلك عن هذا المفكر المشهود له بقوة العقل ، لكن إذا تذكرنا قوله تعالى لقوم شعيب * ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين * فلا حيرة ولا غرابة .

ه - نهامهم عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق لاجل أن يمينعوا الناس عن قبوله :

ثم انه عليه السلام أخذ بينها من رذائل أخرى استحسوها ، وتعاقبوا ، وهي أنهم تشبهوا بابل في توعده لبني آدم ، وأخذ العهد على نفسه باغوائهم * لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ، وذلك أنهم كانوا يتربصون بالطرق كل من أراد الذهاب إلى شعيب فيمنعونه بشتى الأساليب .

قال تعالى * ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به * (١) أي ولا تقعدوا بكل طريق يسلكه الناس ، تحولون بين شعيب ومن آمن به ، أو من كان يقصده من الغرباء والمسافرين ، وقصد هم بذلك عزل شعيب عن كل من يريد الاتصال به ، حتى لا تجد لمواعظه مكانة في قلوب الناس فيتأثرون به ، ويؤمنون بما جاءهم به * توعدون * من التوعد بمعنى التهديد والتخويف ، أي انهم يهددون ويخوفون كل من أراد الإيمان بشعيب بأنواع الأذى

* وتصدون عن سبيل الله من آمن به * أي : وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به * وتبغونها عوجا * أي تبغون طريق الله عوجا تقركم على ما أنتم عليه من سوء أو تأتون بالشبه التي تلبس على المؤمنين فتحيرهم ، أو تصرفهم عن الدين بعد أن آمنوا به ، لأنه صار عندهم معوجا بما ألقينموه من الشبه ، كما أنكم بعملكم هذا تصرفون من يميل إلى دين الله ويحاول الاهتداء ، وهذه قبائح لا ينبغي أن تقيموا عليها ، لأن الله

توعد من يتصف بها بالهلاك في الدنيا . وسوء المصير في العقبى ، ومهما حاولتم أن يكون دين الله عوجاً فلن تصلوا .

(١) والخلاصة أنه نهاهم عن القعود على صراط الله حال كونهم موعديين وصاديين عن سبيل الله وحالة كونهم طامعين في أن تكون طريق الله عوجاً ، تبيح لهم ما هم عليه .

٦ - ذكرهم بنعم الله عليهم * واذكروا إذ كنتم قليلاً فكشركم * :

وقد غاير نبي الله شعيب عليه السلام في أسلوب دعوته ، فترك تذكيرهم بما هم عليه من فساد ، وذكرهم بما أفاض الله عليهم من نعمة ، واختار من بينها نعمة لا يشكون فيها ، ولا يجحدون وقوعها ، وهي أنهم كانوا قليلين فيما مضى ، يطمع فيهم الطامعون ، وينال منهم من يشاء من نيل فلا يمتنعون عليه ، ثم نقلهم الله من هذا الحال ، فجعلهم أمة عظيمة مرهوبة الجانب ، لها على غيرها من السيادة والسلطان بما أوتيت من وفرة المال الذي من شأنه أن يخضع لهم الناس .

(٢) فقال تعالى * واذكروا إذ كنتم قليلاً فكشركم * أي قليلاً في عددكم فأصبحتم كثرة كاثرة ، وفي هذا الأسلوب منهج قويم للدعاة بالألا يكثروا من ذكر المثالب بل يخلطوا دعوتهم ببيان الخطأ والصواب ، فان النفس إذا سبت بأسلوب واحد سئمت وعميت عن الحق مهما كان واضحاً ، ولذلك نجد القرآن الكريم إذا توعد يردف بالوعد ، وإذا وعد يردف بالتوعد ، لأن النفس البشرية لاتصلح ولا تقام عليها الحجة إلا بهذا الأسلوب .

٧ - ثم حذرهم من الافساد :

وأنه سوف يكون مصيرهم مصير من سبقهم من الأمم السابقة قال تعالى * وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين * (٤) أي تذكروا كيف كان مآل المفسدين وما أصابهم من الخزي والتكال ، وليكن ذلك حافزاً على طاعة الله والابتعاد عن معاصيه وما نهيتكم عنه وحذرتكم منه ، وإلى ذلك أشارت آية هود

(١) من التوعد : بمعنى التهديد والتخويف .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٦) .

(٣) العيسوب .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٨٦) .

* وَيَقَوْمٍ لَا يَجْرَمُكُمْ شِقَاقِيَّ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ
(١)
أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * .

" تعقيب "

وقوله تعالى ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾^(١)

لقد أشمرت دعوة شعيب عليه السلام ثمارها ، ودخلت طائفة من قومه في دين الله ، ويقدر ما أفادتنا هذه الآية الكريمة من إيمان طائفة من قومه فقد أفادتنا أيضا حرصه عليه السلام على إيمان قومه عن بكرة أبيهم ، لأنه عليه السلام بذل لقومه من الحجة ، ووضوح البينة ، ما لم يبق عذرا لمعتذر أو سببا لكفر كافر منهم .

وقوله تعالى ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا ﴾ يحتمل معنيين :

المعنى الأول :

أنه وعيد للمكذابين من قومه المصريين على معاندته كقوله تعالى : ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾^(٢) أي : تربصوا هلاككم وخذلانكم ، وإنا معكم متربصون وقوع ذلك لكم . فقوله ﴿ فاصبروا ﴾ خرج من معنى الأمر بالصبر ، إلى تهديد المكذابين وقوله ﴿ حتى يحكم الله بيننا ﴾ غاية لهذا الأمر ، أي : فحينئذ تعلمون المبطل منا من المحق ، وهذا هو المعنى الأقوى في نظري ، وله في القرآن نظائر كثيرة لا أطيل بذكرها ، وقوله تعالى ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾^(٣) أي : هو العدل الذي لا يجور في حكمه ، لذا فلن يعاقب إلا من هو أهل للعقاب ، ولن ينصر إلا من هو أهل للنصرة .

المعنى الثاني :

أنه أمر بالصبر للطائفة المؤمنة على ما يلقون من عنت الكافرين والمكذابين وقوله تعالى : ﴿ حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ تبشير لهم بالنصر ، وأن معاناتهم من المكذابين لن تدوم ، والله أعلم بالصواب .

(١) سورة الأعراف ، آية (٨٧) .

(٢) سورة التوبة ، آية (٥٢) .

(٣) مثل قوله تعالى ﴿ فانظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ سورة يونس

آية (١٠٢) .

المبحث الثاني

موقف الكافرين من دعوة شعيب عليه السلام

إن الدارس للآيات الكريمة الواردة في سورة الأعراف حول موقف الكافرين من دعوة شعيب ، يجد أنها لا تتعدى الثلاث آيات التالية :

وهي قوله تعالى ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كرهين . قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجاننا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ (١)

والمتمعن في الآيات السابقة مع الآيات الأخرى من كتاب الله مثل سورة الشعراء وسورة هود اللتين ، تحدثتا عن موقف الكافرين من دعوة شعيب يجد أن الآيات الواردة في سورة الأعراف جاءت لبيان خاتمة الموقف الذي سلكه قوم شعيب مع نبيهم شعيب عليه السلام ، ولما كان القرآن الكريم بأسلوبه المعجز ، الذي أعجز بلغاء العرب وفصحاءهم ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، يعتبر في الواقع وحدة متكاملة مترابطة ، فهو يفسر بعضه بعضا ، فما يجمله في مكان ، يبسطه في موضع آخر ، وهو في الاجمال والبسط ، في أعلى درجات الفصاحة ، بحيث يأسرك اجماله وتفصيله ، وذلك سر من اعجازه لذلك أحب أن أوضح للقارئ الكريم أنني سوف أذكر موقف الكافرين من دعوة شعيب من خلال بعض الآيات في سورة الشعراء أولا ثم سورة هود ثانيا . اللتين فصلتا الموقف ، ثم أعرج في النهاية على ذكر ما توصل إليه الملأ من قوم شعيب ، حين أصروا على تعنتهم ، وأبوا اتباع الحق ، واستهوا الباطل ، وقرروا طرد شعيب ومن آمن معه من قريتهم ، إن لم يقلع عن دعوتهم إلى التوحيد ، وترك ما ألفوه من أكل أموال الناس بالباطل ، وهذا ما أفصحت عنه آيات سورة الأعراف .

(١) سورة الأعراف ، الآيات (٨٨ - ٨٩ - ٩٠)

وغرضي من هذا بيان الصراع الذي واجهه شعيب عليه السلام من قومه ، وكيف أنه بذل كل ما في وسعه من طاقة لهدايتهم متحملاً المهانة والاستهزاء والتهديد والوعيد من قومه ، ثم نتعرف بمشيئة الله في الفصل الذي يليه نتيجة تلك المكابرة ، وما حل بهم من العذاب الأليم .

لقد كان نبي الله شعيب حريصاً كل الحرص على هداية قومه وانتشالهم من الكفر والفساد والظلم الذي خيم عليهم واستقر في نفوسهم ، ويتلخص موقف قوم شعيب من نبيهم عليه السلام فيما يلي :

١ - اتهموه بالسحر والكذب :

ولقد قابل قوم شعيب عليه السلام دعوته بالاستنكار والتكذيب فضلاً عن السخرية والتهكم ، لقد فاجأتهم دعوته وهزت مشاعرهم ، وأقلقت نفوسهم ، ولم يجدوا ما يردوناً عليه به ، إلا أن يطعنوا في دعوته ، وينسبوه إلى السحر ، ويصفوه بأنه من الكاذبين ، قال تعالى ﴿ قالوا إنما أنت من المسحورين . وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ (١) فقد اتهموه بأنه مسحور قد أفسد السحر عقله وتفكيره ، فأصبح يتفوه بما لا يعرف مما جعله بينهاهم عن ترك عقائد عزيزة في نفوسهم ، راسخة في قلوبهم ، توارثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وقد جاءوا بلفظ " الواو " في قولهم ﴿ وما أنت ﴾ للدلالة على أنه جامع بين وصفين منافيين للرسالة مبالغاً في تكذيبه . ثم اتهموه بالكذب ﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ (٢) أي : في دعواك .

٢ - تهكموا عليه واستهزءوا بدعوته :

ثم كرر القوم استهزاءهم بنبيهم مستكبرين عن قبول دعوته ، ساخريين منه ، متهكمين عليه ، قائلين له : كيف تؤثر عليك صلاتك يا شعيب فتأمرك بأن تحملنا على ترك ما درجنا عليه ، وألفناه من تقاليد ، وما نشأنا عليه من عبادات ورثناها عن آبائنا ؟

(١) سورة الشعراء ، آية (١٨٥ - ١٨٦) .

(٢) انظر أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي (١٠٩/٤)

ط مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع - بيروت .

وكيف تطالبنا أن نتصرف في أموالنا بما تراه وتعتقده مع أنه يؤثر
على تجارتنا ومصالحنا ويقيد حرياتنا . وكان شعيب عليه السلام كثير الصلاة
فلذلك خصوها بالذكر * قالوا يشعيب أصلو تك تأمرك أن نترك ما يعبد
أبائنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لانت الحليم الرشيد * (١)
تهكموا به ، وقصدوا وصفه بـ ضد ذلك - وقيل إنهم عللوا انكار ما سمعوه
منه واستيعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد ، المانعين عن المبادرة إلى
(٢)
أمثال ذلك .

أما آيات سورة الأعراف التي بينت موقف الكافرين من دعوة شعيب فسوف
أتحفك بشرحها في مبحث (موقف شعيب عليه السلام من اتهام قومه لسه
(٣)
بالضعف)

(١) سورة هود ، آية (٨٧) .

(٢) انظر تفسير البيضاوي (٤ / ١١٨) .

(٣) انظر ص ٢٦٧ من بحثنا هذا .

موقف شعيب - عليه السلام - من قومه

ثم بينت الآيات الثلاث التالية موقف شعيب عليه السلام من هذا الاستهزاء والتهكم :

ورغم تهكمهم واستهزائهم بنبيهم ، واصرارهم على باطلهم ، لم تبيد منه عليه السلام أي جفوة أو قسوة بل تطف في جدالهم ، وآثر استمالتهم باللين ، واجتذابهم بالرفق ، وذكرهم بما بينه وبينهم من صلة ، فكان يناديهم : (ياقوم) ليشعرهم بأواصر القرابة والنسب ، وبأنه منهم وأنهم منه قائلًا لهم :

* قال يا قوم أريتتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب * .^(١)

والمعنى : يا قومي الذين أحب لهم ما أحبه لنفسي من الخير والسعادة والنفع والصلاح ، إننى مرسل إليكم ببينة وحجة واضحة من ربي الذي خلقني وخلقكم ، وما جئتكم به إنما هو وحي من الله لا رأي مني وقد أنعم الله عليّ بالرزق الطيب الحلال . ولست أقول لكم وأمركم بشيء وأخالفه إليه من ورائكم ، خفية عنكم مؤثرا نفسي عليكم . بل أنا مستمسك به قبلكم . لأنه لو كان صوابا لأثرته ولم أعرض عنه فضلا عن أن أنهى عنه ، وما أريد إلا أن أصلحكم بأمري لكم بالمعروف ونهيني لكم عن المنكر ، وليس لي فيما أقول هوى أو منفعة ذاتية تعود بالخير عليّ ، فلو وجدت الصلاح فيما أنتم عليه لمانهيتكم عنه ، وما توفيقي لأصابة الحق والصواب إلا بهدايته ومعونته جلا وعلا ، عليه توكلت وإليه أنيب ، فهو المعين لي في أداء الرسالة التي شرفني بإبلاغها .

وبعد هذا الأسلوب الهادئ الذي ينطوي على ترغيبهم في عمل الخير ، واتباع الحق ، يتدرج شعيب عليه السلام إلى أسلوب الترهيب ، حتى يبصرهم عواقب المخالفة والزيغ عن الحق والهدى ، إلى الباطل والضلال ، وكل ذلك حرصا منه على هدايتهم ، قائلًا لهم ما حكاه الله على لسانه :

(١) سورة هود ، آية (٨٨) .

* ويلقوم لايجرمنكم شقائي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صلح وما قوم لوط منكم ببعيد * (١)

أي لاتحملنكم عداوتكم لي على الإصرار على ما رضيتموه لأنفسكم من الفساد والمنكر ، وعلى التمادي في الكفر والباطل ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق ، وقوم هود من الريح ، وقوم صالح من الرجفة والنقمة والسخط والعذاب .

* وما قوم لوط منكم ببعيد * زماناً أو مكاناً ، فان لم تعتبروا بمن قبلكم فاعتبروا بمن هم ليسوا ببعيد عنكم ، فقد علمتم أنهم هلكوا بالأمس بسبب استكبارهم على نبيهم وموقفهم العدائي من دعوته ، وقد قال المفسرون بأن هذه الآية لها أكثر من دلالة :

ف قيل : ان معناها أنهم ليسوا ببعيد عنهم في الزمان . إذ كان شعيب عليه السلام أقرب الأنبياء الذين جاءوا بعد لوط ، وكان البلاء الذي أصاب قوم لوط لا تزال ترويه الأجيال التي سبقتهم .

وقيل أن معنى البعد المقهود هو البعد المكاني ، فلقد كانت أرض مدين قريبة من أرض " سدوم " قرية قوم لوط .

وقيل : ان معنى البعد المراد : أنهم ليسوا ببعيد منهم في الصفات أي : أن ما يفعلونه من الموبقات والمنكرات ، يتشابه في كثير من نواحيه مع ما كان يرتكبه قوم لوط ، إذ كانوا مثلهم يقطعون الطريق ويؤذون الرفيق ويأتون القبائح من الأفعال جهارا نهارا .

قال ابن كثير رحمه الله : والجمع بين هذه الأقوال ممكن ، فانهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانا ولا مكانا ولا صفات . (٢)

ثم دفع شعيباً عليه السلام اشفاقه عليهم ، إلى أن يطلب منهم أن يتجهوا إلى الله تعالى بطلب المغفرة ، والتوبة مما هم فيه من الشرك والضلال ، وأكل أموال الناس بالباطل ، فإن الله رحيم بعباده ، فهو الغفور السودود وسعت رحمته كل شيء .

(١) سورة هود ، آية (٨٩) .

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ، تحقيق عبدالغفور عطار (٢٩٥/١) .

(١)

قال تعالى ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾ .

٣ - اتهامه بالضعف في منطقته فلم يفهموا دعوته وتهديده برجمه بالحجارة :

كان اللائق بقوم شعيب بعد ذلك النصح الذي يتسم بالاشفاق والحرص الشديد على هدايتهم ، كان اللائق بهم أن ينصاعوا لما يأمرهم به ، ويدعوا كل مافيه سخط الله عليهم ، لكنهم أخذتهم العزة بالاثم ، ولم يجدوا سبيلا إلى مواجهته ومجادلته غير الشتم والتهديد ، لاسيما وأنهم أحسوا أنه قد غلبهم بالحجة ، وقهرهم بالبيان ، وعزهم بالخطاب ، فادعوا أنهم لم يفهموا قوله لهم .

ومن العجيب أن يتضح الحق أمامهم بما أدلى به شعيب من الحجج والبيانات ثم يآبون إلا الجحود والانكار ، واتهموا نبيهم بالضعف في منطقته ، والقصور في بيانه ، وأنه لا قوة له تنصره ، ثم هددوه بأنهم كانوا سيرجمونه بالحجارة ليقضوا على دعوته ، لولا خوفهم من رهطه وخاصته ﴿ قالوا يا شعيب مانفقه كثيرا مما تقول وإنا لنرىك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾ .^(٢)

أي إنك لست محترما ، أو صاحب شأن وكلمة بيننا حتى نمتنع عن قتلك .

(١) سورة هود ، آية (٩٠) .

(٢) قال الألوسي رحمه الله في تفسير قوله ﴿ وإنا لنرىك ﴾ أي فيما بيننا ﴿ ضعيفا ﴾ لا قوة لك ولا قدرة على شيء من الضر والنفع والايقاع والدفع وروي عن ابن عباس وابن جبير وسفيان الثوري وأبي صالح تفسير (الضعيف) بالأعمى وهي لغة أهل اليمن . وذلك كما يطلقون عليه ضريرا وهو من باب الكناية على ما نص عليه البعض ، واطلاق البصير عليه كما هو شائع من باب الاستعارة تمليجا .

وضعف هذا التفسير بأن التقييد بقولهم : ﴿ فينا ﴾ يصير لغوا لأن من كان أعمى يكون أعمى فيهم وفي غيرهم واردة لازمه وهي الضعف بين من ينصره ويعاديه ولا يخفى تكلفه .

ومن هنا قال الامام : جوز بعض أصحابنا العمى على الأنبياء عليهم السلام لكن لا يحسن الحمل عليه هنا وأنت تعلم أن المصحح عند أهل السنة أن الأنبياء عليهم السلام ليس فيهم أعمى ، وما حكاه الله تعالى عن يعقوب عليه السلام كان أمرا عارضا وذهاب . هـ تفسير الألوسي (١٢ / ١٢٣) .

(٣) سورة هود ، آية (٩١) .

موقف شعيب من اتهامه بالضعف

ولكن شعيبا عليه السلام لم تهن عزيمته أمام تهديدهم ، بل واصـل
مدافعة باطلهم ، مبينا لهم أن رهطه ليسوا بأعز من الله ولا أشد قوة منه ،
والرهط : هو الجماعة قال الراغب : هم ما دون العشرة .^(١) وقال الزمخشري :
الرهط : من الثلاثة إلى العشرة . وقيل إلى السبعة ، وقال موجها إياهم^(٢)
إلى أن الحق يجب أن يسمو على كل شيء وأن الخوف يجب أن يكون من الله
وليس من المخلوقين .

هكذا كانت ثقة شعيب بربه ، وأنه على يقين من أن الحق سيعلو ويظهر ،
ويدحض الباطل وأهله ، وفي هذا درس للدعاة الى الله ، وأن عليهم أن
يتحملوا المشاق والشدائد في سبيل نصره الحق واحقاقه ، وقد أيقن شعيب عليه
السلام بقدرة الله التي لا تعلق عليها قدره ، وبعظمته التي فاقت كل عظمة ،
وتوكل على الله حق التوكل ، قائلًا لهم ما حكاه الله على لسانه ﴿ قال
يلقونم أرهطن أعز عليكم من الله واتخذتموه ورآكم ظهريا إن ربي بما
تعلمون محيط . ويلقونم اعملوا على مكانتكم إنني علمل سوف تعلمون من
يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إنني معكم رقيب ﴾^(٣) .

أي انه تحداهم أن يعملوا ما بدأ لهم ، وما هو في مقدورهم عليه لعرقلة
مسيرة دعوته ، وهو من جانبه سيسعى جاهدا لرفعة شأن دعوته ما استطاع الى
ذلك سبيلا ، وهددهم بأنهم سيعرفون في النهاية أي الفريقين كان على الحق ،
ومن الذي سينتقم الله منه ، ودعاهم الى ترقب هذه النتيجة وانتظارها ، وماهي
من الظالمين ببعيد .

وأعود بالقارئ الكريم إلى آيات سورة الأعراف :

واذا هذا التهديد . وهذه الحجج التي تفصح عن حسن مراجعته لقوميه ،
واستخدامه لحسن منطقته ، وبعد نظره وحكمته في دعوته لقومه ، ونصحه لهم ،
وتحذيره لهم من عاقبة المخالفة - مع ذلك كله - لم تثمر جهوده معهم لاسيما

(١) المفردات للراغب الاصفهاني ، ص ٢٠٤ .

(٢) الكشاف للزمخشري ، (٢ / ٢٨٩) .

(٣) سورة هود ، آية (٩٢ - ٩٣) .

المملأ أصحاب الأموال والشروات - بل ازدادوا له عداوة وكرهية وقد ضاقوا به ذرعاً ، لاسيما و أنه تطرق إلى أعز وأنفس ما تصبوا إليه نفوسهم ، ألا وهو جمع المال ، لأنه استحكم على قلوبهم ، حتى صاروا عبيدا له ، كما جاء في الحديث : (تعس عبد الدينار)^(١) . كل ذلك جعل المملأ أصحاب الأموال والنفوذ وهم الحجب الكثيفة في كل أمة - تجابه دعوة الرسل - وتوجه التحذير لشعيب ومن آمن معه بالنفي والطرده من البلاد كلية ، حتى تهناً نفوسهم ، ويمارسوا باطلهم كيف شاءوا إن لم يترك دعوته إلى التوحيد ، وتدخله في التضييق عليهم في معاملاتهم المالية ، ولم يكتفوا بهذا الحد ، بل طالبوه بالعودة إلى عقيدة مجتمعه ، والتخلق بأخلاقهم ، وممارسته لما ألفوه من الظلم والفسق والفساد .

* قال المملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين *^(٢)

فأجابهم عليه السلام بقوله :

* قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفلتحين *^(٣)

والمتمأمل في جواب شعيب عليه السلام - على ما قاله المستكبرون من قومه ، يلمس فيه أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان ، مع توخي المنطق الذي لا يقبل الجدل ، ويتلخص في أمرين :

أولا : ان الايمان بأي مبدأ لا بد وأن يكون مع الاقتناع التام ، لأن الدخول في العقائد اختياري محض ، فاستبعد هو ومن آمن معه ما يتمنونه لهم ، * قال أو لو كنا كارهين * أي تجبروننا على العودة إلى ملتكم حتى ولو كنا كارهين لها لاعتقادنا أنها باطلة وقبيحة ومنافية للعقول السليمة ، لا . لن نعود إليها مهما كانت الظروف ، فالهمزة لانكار الوقوع ونفيه .

(١) صحيح البخاري وعلى هامشه فتح الباري (١٤ / ٢٩ - ٣٠) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٨) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٨٩) .

ثانياً: انه قابل تهديدهم ووعيدهم بالرفض التام والكرهية المتناهية ، واعتبر أن رجوعه عن عقيدة التوحيد خيانة للرسالة ، وبهتان على الله جل جلاله الذي لا تخفى عليه خافية ، * قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجاننا الله منها * (١)

لأن الذي يذوق حلاوة الايمان من اتباع الرسل ، يستحيل أن يرجع إلى الكفر ، والأمثلة على ذلك لا تحصى ، والتاريخ سطر لنا الكثير من البطولات والتضحيات ، فهؤلاء آل ياسر ، وهذا سيدنا بلال الحبشي ، عذبوا وقاسوا ألوان العذاب ، لكنهم أبوا أن يرجعوا عن دين الله ، وهؤلاء كما أسلفت هم من اتباع الرسل فكيف يكون الأمر مع الرسول نفسه .

ولقد طلب المشركون من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفس هذا الطلب ، وهو الرجوع عن دين الله ، وهم على كامل الاستعداد أن يجعلوه سيذا عليهم ، ويغدقون عليه ماشاء من الأموال ، ويزوجونه من أحب من النساء ، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم رفض كل تلك الاغراءات ، وقال قولته التي دوت في مشارق الأرض ومغاربها وطرها التاريخ " ياعم . والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته " (٢)

وقد بلغ صلى الله عليه وآله وسلم غاية الافصاح عن استحالة تركه الدعوة ، حتى يظهرها الله سبحانه أو يموت دون ذلك .

ونعود الى الآيات من سورة الأعراف :

ثم ان شعيباً عليه السلام كرر رفضه مؤكداً ذلك بأبلغ وجه * وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً * (٣)

أي أنه يستحيل علينا وتأبى ذلك نفوسنا أن نعود إلى ما كنا عليه من الباطل وظلم الناس وأكل أموالهم سحتاً في حال من الأحوال ، إلا في حال أن

(١) سورة الأعراف ، آية (٨٩) .

(٢) السيرة الحلبية (انسان العيون في سيرة الامين المأمون) تأليف علي بن ابراهيم الحلبي ١ / ٤٦٢ ، دار الباز للنشر والتوزيع ١٤٠٠ هـ .

(٣) سورة الأعراف ، آية (٨٩) .

يشاء الله جل جلاله ، فهو المتصرف في جميع الأحوال وله الحكمة البالغة، فهو القادر على ذلك ، لأننا نحن على يقين كامل بأن ملتكم باطلة وعن حلية الحق عاطلة ، وملتنا هي الحق ، ولانستطيع أن نحول عن ذلك ولا نغيره وانما الذي بيده التغيير هو الله مقلب القلوب ، الذي أحاط علمه كل شيء.

والآية الكريمة تترجم عن المستوى الكبير، والخلق العظيم الذي عليه الأنبياء من الأدب مع خالقهم جل وعلا ، فشعب عليه السلام مع ثقته المطلقة في أنه لن يعود وأتباعه إلى ملة الكفر أبداً - ومع ذلك - هو يرجح الأمر إلى الحق جل وعلا تأديبا معه ، فلا يجزم بمشيئته هو ، بل يفوض الأمر لله ، فقد يكون في علمه سبحانه ما يخفى على البشر مما تقتضيه حكمته وإرادته، ونظير هذه الآية قوله تعالى على لسان ابراهيم الخليل عليه السلام * ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون * (١)

وبعد ذلك التهديد والتخويف الذي وجهه قوم شعيب لنبيهم ومن معه من المؤمنين ، فما كان من شعيب إلا أن يتوجه إلى الله بالاعتماد والدعاء قائلا: * على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين * وفي ذلك اظهار لعبوديته وفقره وعجزه ، وأنه جل وعلا باعانتهم عليهم ستضمحل أمامه كل قوى العدوان ، وستكون النهاية النصر لأهل الحق ، ينحدر أهل الباطل مع باطلهم ، وفي الآية إشارة إلى أنه أعرض عن مجادلتهم ، بعد أن تبين له عنادهم وسفاهم واصرارهم على غيهم وعتيهم.

* وأنت خير الفاتحين * أي الحاكمين لخلو حكمك عن الجور والحيف ، ثم تخور عزائم أهل الكفر بعد أن يئسوا من التأشير في شعيب وأتباعه ، وينتهون إلى تحذير الناس من السير على نهجه ، مؤكدين لهم أن من اتبعوا شعيباً ستلحق بهم الخسارة في شرفهم وفي أموالهم وثرواتهم ، * وقال الملأ الذين كفروا من قومهم لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون * أي مغبونون لاستبدالكم الضلالة بالهدى ، ولفوت ما يحمل لكم بالبخر والتطفيف . (٥)

(١) سورة الأنعام ، آية (٨٠) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (٨٩) .

(٣) انظر تفسير الألوسي (٩ / ٥) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٩٠) .

(٥) انظر تفسير النسفي (٦٥/٢) .

المبحث الثالث

عاقبة قوم شعيب

وبعد تلك المجادلات والمحاورات التي تمت بين شعيب عليه السلام وقومه ، جاءت الخاتمة التي تؤكد فيها خسران أهل الباطل واضمحلهم . وهذه هي نهاية كل من انحاز عن منهل أهل الحق واتبع هواه ، قال تعالى ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ (١) أي استولت عليهم وباغتتهم وشدتهم شدا فلم تبق منهم أحدا والرجفة هي الزجرة الشديدة والصوت القوي الناتج عن الزلزلة الشديدة ، ولذا حرص القرآن الكريم على بيان تسلط الرجفة عليهم وحدهم فقال ﴿ فأخذتهم الرجفة ﴾ وهذا من أقوى الأدلة على قدرة الله سبحانه وتعالى أن تكون جماعتان متجاورتان في قرية فيصيب احدهما مالم يلحق الأخرى ، وهو دليل على علمه تعالى بكل شيء ، وأن ما لا يمكن في قدرة البشر ، ممكن في قدرته تعالى .

وقوله تعالى ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي خامدين هامدين موتى ليس فيهم حركة ولا اقتدار على شيء .

قال النسفي : ﴿ جاثمين ﴾ ميتين قعودا يقال الناس جثم أي قعود لآحراك بهم ولا يتكلمون . (٢)

ومعنى قوله ﴿ فأصبحوا ﴾ أي : فصاروا و " الفاء " تدل على حصول حالهم هذا بعد أخذ الرجفة لهم مباشرة .

ثم قال تعالى ﴿ الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي الذين أصروا على تكذيبه وأمعنوا في ذلك امعانا حجبهم عن الحق بادوا ، وكأنهم لم يخلقوا في ديارهم هذه . وكان لم تكن لهم بها قوة ومجتمع .

والكلام في ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ يدور على التشبيه ويبين مدى ما حل عليهم من العذاب الأليم . أي شبهت حالهم بحال الذين لم يوجدوا أصلا

(١) سورة الأعراف ، آية (٩١) .

(٢) تفسير النسفي (٢ / ٦٢) .

ثم قال ﴿ الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين ﴾ (١) أي : كانوا هم بأعينهم الخاسرين لدنياهم التي ظلوا يحرسونها ومن أجلها كذبوا بالحق لما جاءهم . وفيه بيان سلامة المؤمنين ونيلهم لصلاح الدنيا والآخرة .

وكرر قوله تعالى ﴿ الذين كذبوا شعيبا ﴾ امعانا في العظة وتنبيهها لعتات قريش الذين يعاندون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاسيما وان قوم شعيب عرب مثلهم . ونظير ذلك قوله تعالى في قصة لوط ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ (٢) .

ثم أثنى تعالى على نبيه شعيب بتولييه عن قومه بعد علمه بأنهم لستم يؤمنوا ، وذكر آخر قوله لهم لبيان أنه عليه السلام ظل ينصحهم إلى آخر لحظة ، وأنه لم يصرفه علمه بعدم ايمانهم باختيار النصح الذي يؤثر فيهم لو بقيت فيهم بقية من حق ، وأنه لم ييأس ولم يحزن على كفرهم لأنه لم يقصر في نصيحتهم .

قال تعالى ﴿ فتولى عنهم ﴾ أي قبل حلول الهلاك . وهذا هو الراجح عندي ليعلموا بهذا التولي أن العذاب واقع عليهم لامحالة . وليحمل بتولييه عنهم المؤمنين على كثرة التضرع لربهم ومزيد حمده أن نجاهم مما سيحل بهؤلاء الهالكين .

وبعض المفسرين يقول : تولى عنهم بعد موتهم ، ولا أرى فيه فائدة كبيرة إلا أن يقال إنه لعل ينصحهم إلى آخر لحظة في حياتهم .

﴿ وقال يقوم لقد أبلغتكم رسالت ربي ﴾ وهذه الجملة العظيمة بمثابة الدفاع عن دعوته لهم والتذكير الأخير لو ينفعهم ، وأنه عليه السلام لم يكن مصلحا اجتماعيا استهوته رئاستهم فأراد أن يظهر فيهم بما لستم يألفوه ، بل هو مبلغ عن ربه رسالاته التي جاء بها هو ومن قبله من الرسل .

وتأمل قوله تعالى ﴿ رسالت ربي ﴾ فلم يقل ربيكم لأنهم بمجافاتهم قد جحدوا آثار الربوبية فيهم ، فلم يؤمنوا بربهم ، فكان اللائق أن يضيف نفسه إلى الله تعالى تشريفا له عليه السلام واعترافا بآثار ربوبية الله تعالى عليه .

(١) سورة الأعراف ، آية (٩٢) .

(٢) سورة هود ، آية (٨٣) .

* ونصحت لكم * أي : كثيرا وسلكت في نصحي كل مسلك أراه يوصلكم إلى الاهتداء ، فالآن ألقى عن كاهلي عبأكم مشهدا ربي على بلوغ جهدي في استنقاذكم ، لذا لا أجد في نفسي أسى على مصيركم هذا .

* فكيف أسى على قوم كافرين * وأنا رسول الله إليكم ، وقد كذبتموني ، انكم بكفركم بربكم لم تستبقوا مودة تستدعي الأسف على مصيركم . وللامام الفخر في تفسيره كلام نفيس في تفسير قوله تعالى : * فأخذتهم الرجفة * قال : [وهي الزلزلة الشديدة المهلكة فإذا انضاف إليها الجزاء الشديد المخوف على ما ذكره الله تعالى من قصة الظلمة ، كان الهلاك أعظم ، لأنه أحاط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

* فأصبحوا في دارهم * أي في مساكنهم .

* جاثمين * أي خامدين ساكنين بلا حياة .

ثم قال تعالى * الذين كذبوا شعيبا * كأن لم يغنوا فيها وفيه بحثان :

البحث الأول :

في قوله * كأن لم يغنوا فيها * قولان الأول : يقال غنى القوم في دارهم إذا طال مقامهم فيها ، والثاني : المنازل التي كان بها أهلوها واحدها مغنى قال الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة .: في ظل ملك ثابت الأوتاد .

أراد أقاموا فيها . وعلى هذا الوجه كان قوله * كأن لم يغنوا فيها * كأن لم يقيموا بها ولم ينزلوا فيها . (والقول الثاني) قال الزجاج : كأن لم يغنوا فيها ، كأن لم يعيشوا فيها مستغنين . يقال : غنى الرجل يغنى إذا استغنى وهو من الغنى الذي هو ضد الفقر .

وإذا عرفت هذا فنقول : على التفسيرين ، شبه الله حال هؤلاء المكذبين

بحال من لم يكن قط في تلك الديار . قال الشاعر :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا .: أنيس ولم يسمر بمكه سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا .: صروف الليالي والجدود العواثر

البحث الثاني :

قوله * الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغبوا فيها * الذين يدل على أن ذلك العذاب كان مختما بأولئك المكذبين ، وذلك يدل على أشياء : أحدها : أن ذلك العذاب إنما حدث بتخليق فاعل مختار ، وليس ذلك أثر الكواكب والطبيعة ، والا لحصل في أتباع شعيب كما حصل في حق الكفار .

الثاني : يدل على أن ذلك الفاعل المختار . عالم بجميع الجزئيات ، حتى يمكنه التمييز بين المطيع والعاصي .

الثالث : يدل على المعجزة العظيمة في حق شعيب ، لأن العذاب النازل من السماء لما وقع على قوم دون قوم مع كونهم مجتمعين في بلدة واحدة ، كان ذلك من أعظم المعجزات ثم قال تعالى * الذين كذبوا شعيبا كانوا هـم الخـسرين * وإنما كرر قوله * الذين كذبوا شعيبا * لتعظيم المذلة لهم ، وتفضيح ما يستحقون من الجزاء على جهلهم . والعرب تكرر مثل هذا في التفخيم والتعظيم ، فيقول الرجل لغيره : أخوك الذي ظلمنا ، أخوك الذي أخذ أموالنا ،

وأيا إن القوم لما قالوا * لمن اتبعتم شعيبا إنكم إذ الخـسرون * بين تعالى ان الذين لم يتبعوه وخالفوه هم الخاسرون^(١) فقال * الذين كذبوا شعيبا هم الخـسرين * .

قلت : وهي نهاية كل من ضل عن طريق الهدى ، وسلك سبيل الشيطان ، نسأل الله العافية والهداية .

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي (١٤/١٨١ ١٨٢) بتصرف .

الفصل السابع

القسم الاول :

الصِّرَاعُ بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ فِرْعَوْنَ

القسم الثاني

الصِّرَاعُ بَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ إِسْرَائِيلَ

الفصل السابع

القسم الاول : الصراع بين موسى عليه السلام وبين فرعون .

وفيه مباحث : -

- مقدمة موجزة عن صراع موسى عليه السلام في سورة الأعراف .
- المبحث الاول - دعوة موسى عليه السلام لفرعون وملئه .
- الثاني - ظهور بينة موسى عليه السلام لفرعون وقومه .
- الثالث - موقف فرعون وملئه من دعوة موسى .
- الرابع - شعور السحرة بأهميتهم في هذا الوقت العصيب على فرعون .
- الخامس - موقف السحرة من موسى عليه السلام .
- السادس - موقف موسى عليه السلام من السحرة .
- السابع - موقف السحرة من معجزة موسى عليه السلام .
- الثامن - موقف فرعون من سحرته (تهديد فرعون للسحرة وتوعد هم) .
- التاسع - موقف الملأ من موسى وقومه .
- العاشر - وصية موسى لقومه .
- الحادي عشر - تضجر بني اسرائيل من وصية موسى عليه السلام لهم .
- الثاني عشر - معاقبة الله لفرعون وقومه قبل اغراقهم .
- الثالث عشر - نبذهم العهد الذي عاهدوا موسى عليه واغراقهم في اليم .
- الرابع عشر - عاقبة الصراع ونهاية فرعون وقومه .
- الخامس عشر - منة الله تعالى على بني اسرائيل بتمكينهم من أرض آبائهم وأرض مصر على ما قيل .

(مقدمة موجزة)

هذه هي القصة السابعة التي تحدثت عنها سورة الأعراف ، والمتمعن في
السورة الكريمة وما حوته من القصص ، يجد أنها اختصت (بوجه عام)
بالحديث عن مصارع المكذبين ، ونهاية امعانهم في تكذيبهم لأنبيائهم عليهم
أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وكيف أن الحق أزهد الباطل فكانت كلمته هي
العليا . وكلمة الباطل هي السفلى ، وقصة موسى (عليه السلام) كسابقتهما^(١)
من القصص التي مرت علينا في هذه السورة الكريمة ، جاءت لترسيخ معنى
الألوهية الحققة ، وتحرير الناس من العبودية الزائفة ، فنلاحظ أنها
افتتحت في أول آية بالهدف الذي سيقت من أجله وهو التمعن والتفكر في
مآل المفسدين من الكفرة الملحدين ، ولم تذكر هذه السورة قصة موسى
عليه السلام من بدايتها كما ذكرتها سورة القصص بل ابتدأت بإرسال موسى
عليه السلام إلى فرعون ، ودعوته إلى توحيد الله تبارك وتعالى كما سيتضح
لك من الآية التالية قال تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بأياتنا
إلى فرعون وملا يه فظلموا بها فانظر كيف كان عقبة المفسدين ﴾^(٢)

(١) هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم
عليهم السلام . وهو من أولي العزم من الرسل . انظر البداية والنهاية
لابن كثير (١ / ٢٣٧) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٠٣) .

(المبحث الاول)

دعوة موسى عليه السلام لفرعون وملئه

عاش الفراعنة في مصر يحكمون القبط وبني اسرائيل ، معلنين أنفسهم
أربابا من دون الله ، منكرين أن يكون لهذا الكون اله ، وأجبروا الناس
على تأليههم من دون الله ، وانقاد لهم ووزراؤهم ، وأعوانهم على الظلم
والاستبداد ، واستعملوا بني اسرائيل في أشق الأعمال وأرذلها ، فضلا عن القتل
والتعذيب الذي أوشك أن يبيدهم .

وتخليصا مما كان عليه بنو اسرائيل أرسل الله نبيه موسى عليه السلام
إلى فرعون . قال تعالى : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا التي
فرعون وملأه فظلموا بها فانظر كيف كان عقبة المفسدين ﴾ (١) .

ف قوله ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ أي من بعد الأنبياء الذين
قصنا عليك يا محمد (صلوات الله وسلامه عليك) قصصهم وهم آدم ونوح وهود
وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام (بآياتنا) أي بالمعجزات الدالة على
صدقه فيما اتهم به . ﴿ إلى فرعون ﴾ فرعون لقب لملوك مصر القدماء
كلقب قيصر لملوك الروم ولقب كسرى لملوك الفرس . ﴿ وملأه ﴾ وهم
أشراف قومه والوجهاء أصحاب النفوذ ، وليست رسالة موسى مختصة بفرعون
وملئه بل هي لهما ولكافة المصريين ، فإنها إذا كانت لخاصتهم فهي لعامتهم
من باب أولى ، وإنما نص القرآن على فرعون وملئه ، لأنهم هم العقبة الكأداء
في سبيل دعوة موسى عليه السلام ، فإذا تغلب عليهم ، سهل عليه أن يوصل
دعوته إلى سائر المصريين . كل ذلك على تفسير الملاء . بأشراف قوم فرعون
وخواصهم . ولا مانع أن يراد بالملاء كل المصريين لأنهم يمالئون فرعون على
ضلاله وادعائه الألوهية ، وبطلان ذلك منه لا يخفى على من له أدنى عقل .

﴿ فظلموا بها ﴾ الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه والمعنى
﴿ فظلموا بها ﴾ أي بسببها حيث جعلوا ما هو سبيل للهداية سبيلا للغواية
والضلالة . لأن الآيات جاءتهم لتساعدهم على الإيمان بالله عز وجل وتمديق
موسى عليه السلام في دعواه ﴿ فانظر كيف كان عقبة المفسدين ﴾ أي أنظر
أيها الرسول الكريم كيف كانت نهايتهم ، حيث أغرق فرعون وملؤه . وموسى

(١) سورة الأعراف ، آية (١٠٣) .

(٢) فرعون موسى واسمه (الوليد بن مصعب) انظر النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة ، لجمال الدين ابى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكي (١/٥٨)

وقومه ينظرون إليهم .

ونلاحظ أن هذه الآية سارعت بالتنبيه في كيفية عقاب فرعون وملئه — وتسميتهم بالمفسدين ، كأن هذا الاسم فيهم حقيقة ، وفي غيرهم مجاز . ليعلم السامع لهذه القصة من أول الأمر ، أن فرعون وقومه مع ما رأوا من الآيات الكفيلة بصرفهم عن باطلهم ، لم ينتفعوا بما أوتوا ، وصدق فيهم قوله تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ (١) .

ثم بدأ موسى عليه السلام في بيان حقيقته لفرعون . فقال تعالى — ﴿ وقال موسى لفرعون إني رسولٌ من رب العالمين ﴾ (٢) أي انني مرسل لكم لكي أدعوكم إلى من يستحق العبادة وحده وهو الله رب العالمين الذي له في كل عالم من العوالم تربية ظاهرة ورعاية مستمرة فهو الحقيق بأن يكون رباً وهو الحقيق بأن يكون إلهاً وهذه الآية تعريض لفرعون الذي قال لقومه كما في آية أخرى ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ (٣) . وإنما سلك موسى عليه السلام معه مسلك التعريض من أول الأمر ، لأنه الأمثل في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى ولعل فرعون يتنبه بقول موسى ﴿ إني رسول من رب العالمين ﴾ الذي هو واحد منهم ، فينظر في حال نفسه ، ويصغي بقلبه إلى دعوة موسى عليه السلام . وقد استشعر موسى عليه السلام أن فرعون بحاجة إلى معرفة بعض أوصاف الكليم ، حتى يفكر فيما يلقي عليه ، وحتى لا يتسرع بالاباء والمعاندة كشأن السابقين عليه ، فقال ما حكاه الله عنه : ﴿ حقيق عليّ أن لا أقول على الله إلا الحق ﴾ (٤) .

قال النسفي في تفسير الآية : (أي أنا حقيق على قول الحق . أي واجب عليه قول الحق أن أكون قائله والقائم به . وعلى قراءة نافع ﴿ حقيق عليّ ﴾ أي واجب على ترك القول علي الله إلا الحق أي الصدق ، وعلى هذه القراءة تقف على ﴿ العالمين ﴾ وعلى القراءة الأولى يجوز الوصل على جعل ﴿ حقيق ﴾ وصف الرسول .

-
- (١) سورة البقرة ، آية (٧) .
 - (٢) سورة الأعراف ، آية (١٠٤) .
 - (٣) سورة النازعات ، آية (٢٤) .
 - (٤) سورة الأعراف ، آية (١٠٥) .

وعلى قراءة أْبَيِّ تكون * على * بمعنى الباء أي إنني رسول خليق بأن لا أقول . أو يعلق * على * بمعنى الفعل في الرسول أي اني رسول حقيق جدير بالرسالة أرسلت على أن لا أقول على الله إلا الحق .
(١)

ثم وصف نفسه لفرعون بوصف ثان هو قوله تعالى : * قد جئتكم ببينة من ربكم * أي بمعجزة تدل على صدقي في أنني رسول من رب العالمين ربكم لا نكم بعض العالمين فلا تجعلوا ربوبيته ورحمته سببا في كفركم وعنادكم ولأجل ذلك أضاف اسمه تعالى إليهم . ولم يقل قد جئتكم ببينة من ربي لأنهم هم المقصودون بهذا الارسال ، ولم يسم لهم هذه البينة ولم يحددها لأن من حصافة الحصيف أن لا يكشف عما معه حتى يرغب السامع اليه في كشفه وفي طلبه ، حتى يكون له وقع في نفس السامع . فما ظنك بعقل موسى الكليم الذي قال الله له * و اصطنعتك لنفسي * بما مضى مهد موسى عليه السلام لما سيطلبه من فرعون وهو قوله * فارسل معي بني إسرائيل * أي خلهم واتركهم لي ، لأصلح افسادك لهم ، ولأردهم إلى توحيد الله الحق فانهم أبناء الأنبياء ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام .

وكان فرعون قد فتن بني اسرائيل فتنة عظيمة ، أثرت على عقائدهم وعلى نفسياتهم ، فهانوا هوانا عظيما ، وأصبحوا في مصر كالسجناء ، لا يملكون الفكاك من قبضة فرعون وقد استخدمهم في أسوأ الأعمال وأحقرها وأشقها كالزراعة وقطع الطوب والخدمة في البيوت وقد أدى خوفه من كثرتهم وتعاضمهم إلى تذييع أبنائهم واستحياء نساءهم ليبقى الرجال في الخدمة في الحقول ، والنساء للخدمة في البيوت و لا يكثر نسلهم حتى يأمن سطوتهم عليه في وقت من الأوقات قال تعالى * وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * ، وقد تكرر ذلك المطلب في سورة طه . وفي سورة الشعراء ، مما يدل على أنه أول طلب طلبه موسى عليه السلام من فرعون .

قال تعالى * فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئتكم بغاية من ربك والسلام على من اتبع الهدى *
(٤)

- (١) بتصريف من تفسير النسفي (٢ / ٦٨) .
- (٢) سورة طه ، آية (٤١) .
- (٣) سورة البقرة ، آية (٤٩) .
- (٤) سورة طه ، آية (٤٧) .

وقال تعالى ﴿ فاتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العلمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ (١) ، وهنا أمر جدير بالبحث وهو : أن القصة السابق في هذه السورة بين لنا أن أول مطلب كان الرسول يتوجه به إلى قومه هو دعوتهم إلى التوحيد .

قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (٢)

وقال تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿ وإلى ثمود أخاهم صلحا قال يا قوم اعبدوا الله ﴾ (٤) الآية ،

وقال تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (٥) الآية .

وقد لاحظت مخالفة هذا المنهج في قصة : لوط وموسى عليهما السلام ، وقد بينت سببه في قصة لوط عليه السلام ، وها أنا أبين سببه في قصة موسى عليه السلام . وهو باختصار : أن الظلم قرين الشرك ، قال تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ (٦) وان من يظلم ويتمرس على الظلم كفرعون يصعب عليه قبول أي حق ، فكان المناسب تجريده من ظلمه أولاً لبني اسرائيل ، فاذا سلم بذلك أمكن مخاطبته في الوجدانية .

على أن موسى عليه السلام قد بدأ دعوته إليه بقوله ﴿ اني رسول من رب العلمين ﴾ (٧) .

فهو نوع اشتراك في المناهج السابقة في قصة نوح وهود وشمود ، ولقد

-
- (١) سورة الشعراء ، آية (١٦ ، ١٧) .
 - (٢) سورة الأعراف ، آية (٥٩) .
 - (٣) سورة الأعراف ، آية (٦٥) .
 - (٤) سورة الأعراف ، آية (٧٣) .
 - (٥) سورة الأعراف ، آية (٨٥) .
 - (٦) سورة لقمان ، آية (١٣) .
 - (٧) سورة الأعراف ، آية (١٠٤) .

ضاق فرعون بهذا المطلب ولكنه لم يشأ أن يظهر ضيقه بالرفض والاباء على سنن الملوك في كبرياتهم ، ولاطمئنانه من داخله أن موسى عليه السلام ليس برسول .

فقال ما قصه الله عنه ﴿ قال إن كنت جئت بعآية فأت بها ﴾ عملاً وظهرت كما ذكرتها قولاً ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ (١) في دعواك انك رسول من رب العالمين ، وهنا شرطان جوابهما واحد ، وقع الجواب بينهما ، وهو أسلوب عربي مألوف ، ونوع من الایجاز طريف ، إذ لولا هذا الایجاز لكان التركيب هكذا (إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فأت بها) ، ولما كان الاتيان بها هو المقصود وهو الدليل على أنه جاء بها وأنه صادق سلك القرآن هذا المسلك اللطيف .

وقد اختصرت سورة الأعراف ما بسط في القصة قبل المجيء بالآيات كما هو في سورة الشعراء . وهو مسلك عظيم دقيق ودليل عظيم من أدلة الإعجاز وددت لو كان بحشي متمحضا لقصة موسى عليه السلام حتى لا أترك من لطائفها شيئا ، لكن طول البحث فرض علي الاختصار .

(١) سورة الأعراف ، آية (١٠٦) .
(٢) انظر الآيات من قوله تعالى ﴿ فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بني إسرائيل . قال ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ آية (١٧ ، ١٨) إلى قوله ﴿ قال فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ آية (٢١) من سورة الشعراء .
(٣) متمحض : المحض من كل شيء الخالص - قال الأزهري : كل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه فهو محض ، انظر لسان العرب (٧ / ٢٢٧) .

(المبحث الثاني)

ظهور بينة موسى (عليه السلام) المرثية لفرعون وقومه

قال تعالى ﴿ فآلقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبينٌ ﴾ (١) لم يترث موسى عليه السلام في اظهار بعض معجزاته التي أيده الله بها وهي انقلاب عصاه الجامدة التي هي على مرأى العين كسائر العصي ثعباناً مبيناً ، وحية تسعى كما جاء في سورة طه . ونلاحظ أن القرآن الكريم عطف قوله تعالى ﴿ فآلقى عصاه ﴾ بـ (الفاء) لبيان قلة المهلة بين الطلب وحصول المعجزة كما استخدم القرآن (إذا الفجائية) والضمير (هي) لبيان تأثير ذلك على فرعون وملئه وأنهم أصيبوا بالدهش عندما رأوا العصا التي كانت في يد موسى عليه السلام هي بعينها ثعباناً مبيناً والثعبان : الحية الضخم الذكر ، وهو أعظم الحيات . (مبين) أي حية حقيقية لا لبس فيها ثم شنى بمعجزته الثانية ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ ، أي ونزع يده من جيبه فإذا هي بيضاء لامعة ، ذات نور متوهج ، مع بقائها يدا آدمية يجرى الدم في عروقها أمام جميع الناظرين الحاضرين والقادمين عليهم ، فكلما جاءت فئة من أهل مصر رأت ذلك دون أن تصاب يد موسى عليه السلام بأذى ، لأن النور لا يكون إلا من حرارة شديدة تنعكس على زجاج أو نحوه ، وتلك الحرارة نتاج شيء محترق . أما موسى عليه السلام فيده كما هي .

قال القرطبي : ﴿ ونزع يده ﴾ أي أخرجها وأظهرها . قيل من جيبه أو من جناحه كما في التنزيل ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاءً من غير سوء ﴾ (٣) أي من غير برص . وكان موسى أسمر شديد السمرة ، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول .

(٤) قال ابن عباس : كان ليده نور ساطع يضيء ما بين السماء والأرض .

-
- (١) سورة الأعراف ، آية (١٠٧) .
(٢) قال تعالى ﴿ قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآ رب أخرى . قال ألقها يلموسى . فآلقها فإذا هي حية تسعى ﴾ سورة طه ، آية (١٨ ، ١٩ ، ٢٠) .
(٣) سورة النمل ، آية (١٢) .
(٤) تفسير القرطبي (٧ / ٢٥٧) .

(المبحث الثالث)

(موقف فرعون و ملئه من دعوة موسى عليه السلام)

لقد أيد الله نبيه موسى عليه السلام بحجج كثيرة ، منها ما حكته لنا الآيتان السابقتان وهما :

أولا : قلب العصا شعبانا ضخما يبعث الرعب في قلوب الكافرين .
ثانيا: اخراج يده السمراء من جيبه ، بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس
* من غير سوء * (أي من غير برص أو أذى أو تشويه) .

ومعلوم أن الله جل وعلا أيد كل نبي بمعجزة تفوق أضعاف أضعاف ما كان مشتهرا به قومه الذين أرسل اليهم . . .

ولقد كان السحر غالبا في ذلك الزمان وله علومه الخاصة ، وفنونه المختلفة ، ولا شك أن مراتب السحرة كانت متفاوتة متفاوتة ، فمنهم المبتدئ ومنهم الماهر ومنهم العالم ومنهم المتمكن والمتمرس .

فعندما شاهد الملا ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات العظيمة التي أذهلتهم . زعموا أن موسى عليه السلام قد بلغ النهاية في علم السحر ، ووصفوه بما حكاه الله عنهم : * قال الملا من قوم فرعون إن هذا لسحر عليم * (١) وقد أتى بذلك السحر رغبة في الملك والرياسة ، وقد يتساءل القارىء الكريم ان اطلاق هذا الوصف على موسى عليه السلام كان في سورة الشعراء من قبل فرعون وليس من قبل الملا .

(٢) قال تعالى * قال للملا ع حوله إن هذا لسحر عليم * فكيف الجمع بينهما ؟

فالجواب عن ذلك من وجهين :

الأول : أنه لا يمتنع أنه قد قاله فرعون أولا ثم قاله الملا . فحكى الله قول فرعون في الشعراء وقول الملا في الأعراف .
الثاني : أو أنه لعل فرعون قاله ابتداء فتلقاه الملا منه فقالوا لغيرهم ، أو قالوه لسائر الناس عن طريق التبليغ ، فان الملوك إذا رأوا

(١) سورة الأعراف ، آية (١٠٩) .

(٢) سورة الشعراء ، آية (٣٤) .

(١)
رأيا قالوه للخاصه . . . وهم يذكرونه للعامه .

والمراد بالملأ من قوم فرعون خاصته وبطانته المقربة اليه الذين يستشيرهم في النوازل . وقد مر بك أكثر من مرة أن الملافي كل أمة هم كبارؤها ومترفوها وأصحاب النفوذ وكانوا هم سبب نكبتها .

وقوله الملأ لفرعون * إن هذا لسحر عليم * ملق ونفاق وتهويين لشأن موسى عليه السلام ، ولعل فرعون بعد ما رأى معجزة موسى ملكه الدهش فأخذ يفكر فيما يصنع فأجابه الملأ بهذا الجواب .

ويمكن كما قررت سابقا أنه هو الذي بدأ بهذا القول ، ثم أخذ الملامن قومه يرددونه تقريبا إليه بذلك واطهارا لاقتناعهم بقوله .

وقولهم * إن هذا لسحر عليم * أي ماهر متمرس في هذه الصنعة ، لا يبطل سحره إلا من هو أقوى منه ، فكان ذلك منهم توطئة لجمع أقوى السحرة من جهات مختلفة من نواحي مصر ، ليحصل لهم الغلب على موسى عليه السلام ، وإذا ضعف أحدهم عن مقارعة موسى عليه السلام تقوى باخوانه .

وقوله تعالى * يريد أن يخرجكم من أرضكم * أي مصر . والمعنى يريد أن يسلبكم ملككم * فماذا تأمرون * أيها الملأ؟ وبماذا تشيرون علي لتلافي هذا الأمر الجلل؟ فأجابه الملايما قصه الله عنهم * قالوا أرجه وأخاه * .

قال صاحب الكشاف : أي آخرهما وأصدرهما عنك حتى ترى رأيك فيهما
(٢)
وتدبر أمرهما .

* وأرسل في المدائن * جمع مدينة ، أي : أرسل في مدائن مصر رجلا يحشرون إليك ويجمعون مافيها من السحرة ، فيأتوك بكل * سحر عليم * أي ماهر حاذق في أصول السحر . . قال تعالى * قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حشرين . يأتوك بكل سحر عليم *
(٣)

(١) تفسير الرازي بتصريف (١٤ / ١٩٦ - ١٩٧) .

(٢) الكشاف للزمخشري (٢ / ١٠٢) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١١١ - ١١٢) .

(المبحث الرابع)

شعور السحرة بأهميتهم لدى فرعون في هذا الوقت العصيب

وما أن بلغ الخبر إلى آذان السحرة بطلب فرعون في حضورهم حتى بادروا بالامتثال مسرعين ملبيين قال تعالى ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴿ بعد أن أرسل اليهم الحاشرين ﴿ قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغلبين ﴿ استئناف منوط بسؤال نشأ من حكاية مجيء السحرة . كأنه قيل فماذا قالوا له عند مجيئهم اياه ؟

ف قيل : قالوا مدلين بما عندهم ، واثقين بغلبتهم ، وكانوا يثقون بأنفسهم ثقة لا يحدها حد ، والدافع لهذه الثقة المفرطة عدة أمور :

- ١ - أنهم كانوا من أمهر السحرة الذين بلغوا النهاية في علم السحر .
- ٢ - أنهم كانوا كثرة . والنفس بطبعها تستأنس عند حصول الكثرة وفي نفس الوقت كانوا يواجهون شخصا واحدا ليس مشهورا أو معروفا بالسحر .
- ٣ - أنهم كانوا يظنون أن ما قام به موسى سحر ، وقد غفلوا عن أنه معجزة .

وقد دفعتهم ثقتهم و يقينهم الكامل بتفوقهم أن ساوموا فرعون على تعيين مكافأة وأجر اذا انتصروا على موسى . والتكثير في قوله ﴿ أجرا ﴿ للتعظيم . ﴿ قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغلبين ﴿^(١)

فأجابهم فرعون إجابة المتشوق لمعرفة النتيجة المتعجل لوقوعه ﴿ قال نعم ﴿ . وقوله ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴿ عطف على محذوف سد مسد حرف الايجاب ، كأنه قال إن لكم لأجراً جزيلا إذا انتصرتم عليه ، فضلا عن ذلك فأنتم تكونون من الظافرين بقربي أي من رجال حاشيتي ، مبالغة في ترغيبهم وتشجيعهم على الاجادة والالتقان لعملهم .

وقد غاب عن السحرة حقيقة الأمر فظنوا أن الموقف موقف احتراف ومهارة ، وهو في الواقع موقف اعجاز ورسالة .

(١) سورة الأعراف ، آية (١١٣) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١١٤) .

(المبحث الخامس)

موقف السحرة من موسى عليه السلام

اتفق فرعون مع نبي الله عليه السلام على موعد يجتمع فيه وسحرته ليعلم موسى بما يشاهده من عمل سحرته أن ما أتاه به سحر لا معجزة كما يقول وقد بين الله ذلك بقوله ﴿ قال أجيئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يـمـوسى . فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ (١)

والمتمأمل في الآيات السابقة يلاحظ أن فرعون اشترط شرطين ، وأن موسى عليه السلام اشترط شرطين . وقد رضي فرعون بشرطي موسى عليه السلام اطمئناناً إلى نصرته عليه بسحرته .

فأما شرطا فرعون قوله تعالى ﴿ فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى ﴾ .

- الشرط الأول :

أن يحدد موسى عليه السلام - زماناً ملائماً يجتمع فيه الناس ليشاهدوا بأنفسهم كذبه وافتراءه - عليه السلام وحاشاه - وهذا الشرط يشعر أن فرعون كان متيقناً تماماً من انتصار السحرة وغلبتهم على موسى فهو لا يبالي أيما كان زمن الاجتماع فالنهاية بالنسبة له واضحة كوضوح الشمس في أن أمهر السحرة سيتفوقون في النهاية وبالتأكيد على موسى الفرد الذي لا يملك إلا عماته الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة .

- الشرط الثاني :

(٢) أن يحدد موسى عليه السلام ﴿ مكاناً سوى ﴾ أي هو في المنصف بين قصر فرعون والمكان الذي يقيم فيه موسى . حيث لا يرهق الطرفان في الوصول إليه ، وقد أراد فرعون بهذا الشرط أن يفهم موسى بأن هزيمته المتيقن منها - لو حصلت لا لكونه موجوداً في ساحة قصر فرعون - وكما

(١) سورة طه ، آيات من (٥٧ - ٥٩) .

(٢) انظر تفسير الكشاف (٢ / ٥٤٢) ،

انظر تفسير النسفي (٣ / ٥٦ - ٥٧) .

يقال-الأرض تضرب مع أصحابها - فالزمان والمكان أنت ياموسى الذي حددتهما ، ولا دخل لهما في هزيمتك ، وأن انتصارنا وغلبيتنا عليك لكونك خارجا عن طاعتنا ومكذب لربوبيتنا ومفتريا علينا .

وقد رضى موسى عليه السلام منه ذلك . فقال ما قصه الله تعالى لموعدكم يوم الزينة * - وهذا هو شرط موسى الأول - أي مكان الاجتماع هو المكان الذي تجتمعون فيه يوم عيدكم ، وقد لزم من تحديد الزمان تحديد المكان لأنهم يحتفلون بعيدهم في وقت مخصوص في مكان مخصوص ، وقد قلب موسى بشرطه الأول على فرعون مقعده ، فإن مكان يوم الزينة هو مكان لهم ولا يضر موسى عليه السلام أن يلقي فرعون في أي مكان ، وقد أراد عليه السلام بهذا الاختيار للزمان والمكان أن تصل معجزته إلى آذان كثير من المصريين ، لأنهم يجتمعون في يوم زينتهم حتى يكاد أن لا يتخلف منهم أحد ، فاذا ما شاهدوا معجزة موسى عليه السلام كانت نكبة فرعون أشد وتزعزت هيئته ومكانته في نفوسهم وظهر بطلان ادعائه للربوبية ، إذ لو كان له من الأمر شيء ما أصابته هذه الهزيمة على يد موسى عليه السلام ولتنبه إليها قبل وقوعها فأحتاط لنفسه من هذا الشرط .

وكان الشرط الثاني لموسى عليه السلام قوله تعالى * وأن يحشر الناس ضحى * حتى لا يداخل الناس ريبة في معجزة موسى عليه السلام . إذ وضوح الرؤيا في هذا الوقت لا يناع فيه أحد .

قال الزمخشري : (وإنما وعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله وظهور دينه وكبت الكافر ، وزهوق الباطل على رؤوس الأشهاد في المجمع الغاص ، لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق ويكل حد المبطلين وأشياهم ، ويكثر المحدث بذلك الأمر العلم في كل بدو وحضر ويشيع في جميع أهل الدير والمدن) . آهـ . (١)

وهكذا تحدد مكان وزمان الحفل العظيم ، وحضر فرعون ورجاله وسحرتسه واحتشد الناس والكل مشدود لمعرفة من يظفر من الفريقين .

ولم يأل موسى عليه السلام جهدا في اسداء النصيحة للسحرة ، وتنبيههم إلى ما يفعلونه من السحر لا يمكن أن يجابه ما معه من البينة

(١) انظر الكشاف للزمخشري ، (٢ / ٥٤٢) .

قال تعالى : * قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا
فيسحبتكم بعذاب وقد خاب من افتري ^(١) *

والمعنى : أيها السحرة لا تفلوا بسحركم ، فتصرفوا الناس عن حجة الله
وبينته التي أرسلني الله بها إليكم وإلى فرعون ، فانكم إن بقيتم على ذلك
ولم تصغوا لنصيحي ولم تؤمنوا بالله ربكم ، وبقيتم تفترون على الله الكذب
بعدهما وضح الحق لكم ، فستهلكون هلاكاً مؤكداً بعذاب شديد من الله ، لا يمكنكم
دفعه لأن مصير من افتري على الله الكذب الخيبة والخسران في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى * فتتزعجوا أمرهم بينهم أي أنهم تشاجروا فيما بينهم ،
واختلفوا في حقيقة موسى عليه السلام فقائل يقول انه ساحر مثلهم . وآخر
يقول انه نبي * وأسروا النجوى * أي أنهم تشاوروا في السر ، حتى
لا يبلغ ذلك فرعون ، ولا سيما أنه قد أغراهم بالمال والجاه والقرب منه لكنهم
خلصوا إلى رميه بالسحر قائلين ما حكاه الله عنهم : * قالوا إن
هذان لساحران * أي موسى وهرون (عليهما السلام) .

^(٢)
* يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى *
أي الفضلى ، والمعنى : أن السحرة قالوا فيما بينهم تعلمون أن هذا
الرجل وأخاه - يعنون موسى وهرون - ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر
يريدان في هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ، ويستوليا على الناس ، وتتبعهما
العامّة ويقاتلا فرعون وجنوده ، فينصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم .

* ويذهبا بطريقتكم المثلى * أي يستبدا بهذه الطريقة وهي السحر ،
فانهم كانوا معظمين بسببها لهم أموال وأرزاق عليها .

يقولون : إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض ، وتفردا بذلك
وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم .
^(٣)

* فأجمعوا كيدكم * أي كونوا مجتمعين على كيده ولا تختلفوا

(١) سورة طه ، آية (٦١) .

(٢) سورة طه ، آية (٦٣) .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٣ / ١٥٧) .

* ثم اثنوا صفا * أي مصطفين . لأنه أهيب في صدور المجتمعين ———
ويبعث الرعب في قلب الخصم .

(١)

* وقد أفلح اليوم من استعلى * أي قد فاز من غلب .

وقد طوت سورة الأعراف هذه المشاهد ، لأن المنهج القرآني يقوم على عدم
حشد مشاهد القصة في موضوع واحد ، امعانا في التحدي ، و اظهار الإعجاز ،
إلا ما كان من قصة يوسف عليه السلام فإن القرآن لم يفرق مشاهدتها . لأن الغرض
الأول من مجيئها مؤانسة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وضرب المثل له ،
بصبر من سبقوه ، وجلدهم في تحمل البلاء ، فكان الإعجاز فيها توالى مشاهدتها
وفصولها في سورة واحدة .

وأعود إلى سورة الأعراف لاستكمال القصة منها باعتبار أنها موضوع بحثي
الأصلي .

(٢)

* قالوا يلموسن إماً أن تلقى وإماً أن نكون نحن الملقين *
قالوا * أي السحرة * يلموسن إماً أن تلقى * أي عصاك التي تزعم
أنها آية * وإماً أن نكون نحن الملقين * والمتأمل في قولهم هذا .
يلاحظ عليه أنهم يخاطبونه بلغة الواثق من نفسه والتمكن المتيقن من نصرته
المتحدي لخصمه وكأنهم يقولون له في كلتا الحالتين لنحن على ثقة من
الفوز والظفر فاستسلم لنا ولا تكبد نفسك مشقة المنازلة .

* واما * شرطية ، وجواب الشرط محذوف تقديره إما أن تلقى أولاً
فلا يكون لك اعتراض بعد ذلك ، وإما أن نلقى نحن أولاً فلا يكون لنا اعتراض
عليك اذا غلبتنا ومع تحديهم له إلا أن الآية * وإما أن نكون نحن
الملقين * يفهم منها رغبتهم في أن يكون ابتداء اللقاء من جانبهم ،
لأنهم ذكروا الضمير المتصل وأكدوه بالضمير المنفصل وجعلوا الخبر معرفة
لا نكرة .
(٣)

* قال ألقوا * أي افعلوا ما أمكنكم من السحر ، فإنه لن ينفعكم في
هذا الموقف وان الله سيبطله ، لأنه تعالى لا يصلح عمل المفسدين ، ولا يضري

(١) سورة طه ، آية (٦٤) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١١٥) .

(٣) انظر تفسير الرازي (١٤ / ٢٠٢) .

أن تبدؤا قبلي بالقاء ما معكم ، وكان موسى عليه السلام واثقا من نصره ربه له كل الوثوق .

وقوله تعالى : ﴿ فلما ألقوا سحرًا أعين الناس ﴾ يدل على أنهم ألقوا ما معهم من سحر فور اخبار موسى عليه السلام بقوله ﴿ ألقوا ﴾ .

(١)

وقوله تعالى ﴿ سحرًا أعين الناس ﴾ يدل على تأثير سحرهم في الحاضرين وأن السحرة أتوا بفنون من السحر كثيرة ومتوالية جعلت الأبصار تكل من متابعة ما جاءوا به ، وقد خيل إليها أشياء نتيجة مهارتهم وكلها ليست بحقيقية إلى حد أن موسى عليه السلام وهو من هو في قوة الخواس — لأن الله اصطنعه لنفسه — قد خيل إليه أن حبال السحرة وعصيم كانت تسعى قال تعالى في سورة طه ﴿ قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ فلا غرابة أن تضعف أبصار الحاضرين فترى الأشياء

(١) اختلفت المذاهب في حقيقة السحر وقد فصل القول الامام القرطبي في تفسيره وإليك ما قاله رحمه الله : فذهب أهل السنة إلى أن السحر ثابت وله حقيقة . وذهب عامة المعتزلة وأبو أسحق الاسترابادي من أصحاب الشافعي إلى أن السحر لاحقيقة له . وإنما هو تمويه وإيهام لكون الشيء على غير ما هو به . وأنه ضرب من الخفة والشعوذة . كما قال تعالى ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ ولم يقل تسعى على الحقيقة . ولكن قال ﴿ يخيل إليه ﴾ وقالوا أيضا ﴿ سحرًا أعين الناس ﴾ . قلت : قال الرازي نقلًا عن القاضي (لو كان السحر حقا لكانوا قد سحروا قلوبهم لا أعينهم . فثبت أن المراد أنهم تخيلوا أحوالا عجيبة مع أن الأمر في الحقيقة ما كان على وفق ما تخيلوه . أ.هـ . (تفسير الرازي ١٤/٢٠٢) وأعود مرة أخرى إلى تكلمة كلام القرطبي :

قال القرطبي : وهذا لاحجة فيه لأننا لا ننكر أن يكون التخييل وغيره من جملة السحر . ولكن ثبت وراء ذلك أمور جوزها العقل وورد بها السمع . فمن ذلك ما جاء في الآية من ذكر السحر وتعليمه ولو لم يكن له حقيقة لم يمكن تعليمه ولا أخبر تعالى أنهم يعلمونه الناس . فدل على أن له حقيقة قلت : وأراد رحمه الله بالآية قوله تعالى في سورة البقرة (آية ١٠٢) قوله تعالى ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ . ثم قال القرطبي رحمه الله : وقوله تعالى في قصة سحرة فرعون ﴿ وجاءوا بسحر عظيم ﴾ وسورة الفلق . مع اتفاق المفسرين على أن سبب نزولها ما كان من سحر لبيد بن الأعصم وهو مما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت (سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودي من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم . . . الحديث) وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما حل السحر (أن الله شفاني) صحيح البخاري على هامشه فتح الباري (١٢ / ٣٣٧) والشفاء إنما يكون برفع العلة وزوال المرض . فدل على أن له حقا وحقيقة . فهو مقطوع به بإخبار الله تعالى ورسوله على وجوده ووقوعه وعلى هذا أهل الحل والعقد الذي ينعقد بهم الاجماع .هـ . انظر تفسير القرطبي (٤٦/٢) وانظر فتح الباري (١٢/٢٣٣) .

على غير حقيقتها .

قال النسفي رحمه الله عند تفسير قوله ﴿ قال بل ألقوا ﴾^(١) أنتم أولا
ليبرزوا ما معهم من مكاييد السحر ، ويظهر الله سلطانه ويقذف بالحق على
الباطل فيدمغه ويسلط المعجزة على السحر فتمحقه فيصير آية نيرة للناظرين
وعبرة بينة للمعتبرين.^(٢)

وقال الفخر نقلا عن الواحدي رحمهما الله في معنى قوله تعالى
﴿ سحرّوا أعين الناس ﴾ : المراد سحروا أعين الناس أي قلبوها عن صحة
ادراكها بسبب تلك التمويهات .^(٣)

قلت : ومراد الواحدي بهذا القول : أن السحر حقيقة موجودة لاثمويه
ولا تخيل وليس أنه لحقيقة له كما يقول به المعتزلة .

﴿ واسترهبوهم ﴾ أي أنهم بعثوا الرهبة في قلوب العامة ، لما
رأوه من حركات تلك الحبال والعصي ، قال الفخر : واسترهبوهم أي أخافوهم
أو ﴿ استرهبوهم ﴾ أي طلبوا واستدعوا رهبة الناس ، حتى رهبهم الناس ،
وكانوا على ما قيل بعثوا جماعة ينادون عند القاء ذلك : أيها الناس .
احذروا .^(٤)

﴿ وجاءوا بسحر عظيم ﴾ أي عندهم لأنه كان كثيرا وليس بعظيم على
الحقيقة .

(١) سورة طه ، آية (٦٦) .

(٢) تفسير النسفي (٣ / ٥٨) .

(٣) تفسير الرازي (١٤ / ٢٠٣) .

(٤) نقل بتصريف من تفسير الرازي (١٤ / ٢٠٣) .

(٥) سورة الأعراف ، آية (١١٦) .

(المبحث السادس)

(موقف موسى عليه السلام من السحرة)

قال تعالى ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون (٢) فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صغرين ﴾ (٣)

قوله ﴿ وأوحينا إلى موسى ﴾ أي كلمناه وناجيناه وكان ربه يكلمه بلا وأسطة كما هو معروف معلوم ، أو ألهمناه أن يلقي عصاه ، وأيا ما كان فإن موسى عليه السلام لم يلق عصاه بهواه متكلاً عليها . وإنما انتظر أمر الله له بما يفعله في هذا الوقت فقد يؤتية معجزة أخرى تدحض هذا الباطل .

وهكذا سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يصدرن في شيء من الأشياء قل أو كثر إلا بالهام الله أو وحيه ، وحتى ما صدر منهم مما كان لهم فيه اجتهاد فإنه لا يخرج عن إلهام في رأي ، وهو من باب ترك ما هو صواب إلى ما هو أصوب ، وذلك تعليماً لرسله عليهم الصلاة والسلام أن ما هو مستور في علم الله فوق اجتهادهم .

وقوله تعالى ﴿ أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ ﴿ أن ألق عصاك ﴾ أمر منه تعالى لنبيه . والمعنى أن ألق عصاك التي عهدتها تنقلب حية تسعى وثنعباناً مبيناً لا يثبت أمامه شيء ، فألقاها عليه السلام بأمر ربه فإذا هي تأخذ بسرعة خاطفة ما أفكه السحرة من الباطل الذي ضلوا به أهل مصر أزمنة طويلة ، والذي كان يعتمد عليه فرعون في بعض سياسة المصريين . بدليل أنه لجأ إلى السحرة عندما ظن أن معجزة موسى عليه السلام من قبيل السحر ، وقد أراد الله بذلك إبطال السحر وأنه مهما تفنن فيه لا يضر أحداً إلا باذن الله ، وأن السحر محكوم بقدرته جل وعلا فلا يصح أن

- (١) اللقف : التناول بسرعة يقال لقف الشيء يلقيه لقفاً ولقفاناً أخذه بسرعة .
 - (٢) الأفك : في اللغة قلب الشيء عن وجهه . ومنه قيل للكذب أفك لأنه مقلوب عن وجهه . تفسير الرازي (٢٠٤ / ١٤) .
 - (٣) سورة الأعراف ، آيات من (١١٧ - ١١٩) .
 - (٤) ويؤيده قوله تعالى في سورة طه ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ آيات (٦٨ - ٦٩) .
- وقول الله لنبيه إنما يكون عن طريق الوحي .

يعول عليه أحد انما المعول على الله سبحانه وتعالى .

و * إذا * في هذه الآية فجائية والمعنى أن الحضور أخذتهم تلك المفاجأة فأصابتهم بالدهش والغلب .

قال الفخر الرازي رحمه الله : قال المفسرون : لما ألقى موسى العصا صارت حية عظيمة حتى سدت الأفق ثم فتحت فكها فكان ما بين فكها ثمانين ذراعا وابتلعت ما ألقوا من حبالهم وعصيهم ، فلما أخذها موسى صارت عصا كما كانت من غير تفاوت في الحجم والمقدار أصلا . وأعلم أن هذا مما يدل على وجود الإله القادر المختار ، وعلى المعجزة العظيمة لموسى عليه السلام وذلك لأن ذلك الثعبان العظيم لما ابتلعت تلك الحبال والعصي مع كثرتها ثم صارت عصا كما كانت ، فهذا يدل على أنه تعالى أعدم أجسام تلك الحبال والعصي . أو على أنه تعالى فرق بين تلك الأجزاء وجعلها ذرات غير محسوسة وأذهبها في الهواء بحيث لا يحس بذهابها وتفرقتها وعلى كلا التقديرين ، فلا يقدر على هذه الحالة أحد إلا الله سبحانه وتعالى .
(١)

* فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون * والتمتعن في الآيات السابقة يرى بوضوح كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه الزائف لفترة من الوقت . ويستولى على أفئدتهم ومضة من الزمن ، حتى ليخيل لضعاف القلوب أنه غالب وحق . . . ولكن ما أن يواجه الحق الثابت الذي لا يتزعزع حتى يضمحل ويزول . وإذا بأتباع الباطل يصيبهم الذعر والذل وهم يـرون صروحهم تتهاوى وآمالهم تتداعى أمام نور الحق المبين ، وإذا بتحديدهم الصريح وتطاولهم الأحقق يتحول إلى استسلام مهين وذل مشين . قال تعالى * فغلبوا هنالك * أي غلبوا في ذلك المكان والزمان اللذين حددا . من قبل في قوله تعالى * فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * (٣) وقد سبق تفسيرها .
(٤)

والمعنى والله أعلم : أن القوم بهتوا ، ولم تستطع أقدامهم أن تـبرح بهم ذلك المكان من شدة ما أصابهم ، وأنهم لم يستطيعوا مبارحته إلا بعد .

(١) تفسير الرازي (١٤ / ٢٠٤) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١١٨) .

(٣) سورة طه ، آية (٥٨) .

(٤) انظر ص ٢٨٧ من بحثنا هذا .

مضي وقت التقطوا فيه أنفاسهم وقد انقلبوا إلى بيوتهم وأهليهم بعد ذلك
* وانقلبوا صاغرين * أدلة لا يملكون ما يدفعون به حجة موسى عليه
السلام إلى حد أنهم سئموا أن يكلم بعضهم بعضا وأنهم حسبوا لمسألة
نساءهم ومن لم يحضر هذا المشهد من ذويهم حسابا شديدا.

(المبحث السابع)

(موقف السحرة بعد بطلان سحرهم من معجزة موسى عليه السلام)

قال تعالى ﴿ وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ . قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
(١)
رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾

بعد أن رأى السحرة بينة موسى عليه السلام وقد التهمت بسرعة مذهلة ما جاؤا به من السحر ، ثم تحول شعبان موسى عليه السلام إلى عما كانت من قبل . أيقنت السحرة أن هذا الأمر خارج عن نطاق السحر ، وهو أمر إلهي لا طاقة للبشر عليه ، وتيقنوا أن الذي أمامهم ليس بساحر بل هو نبي صادق من عند الله .

قال الرازي رحمه الله : هذه الآية من أعظم الدلائل على فضيلة العلم وذلك لأن أولئك الأقوام كانوا عالمين بحقيقة السحر واقفين على منتهاه . فلما كانوا كذلك ووجدوا معجزة موسى عليه السلام خارجة عن حد السحر، علموا أنه من المعجزات الإلهية ، لا من جنس التمويهات البشرية ولو أنهم ما كانوا كاملين في علم السحر لما قدروا على ذلك الاستدلال . لأنهم كانوا يقولون : لعله أكمل منا في علم السحر ، فقدّر على ما عجزنا عنه ، فثبت أنهم كانوا كاملين في علم السحر ، فلأجل كمالهم في ذلك العلم انتقلوا من الكفر إلى الإيمان . فاذا كان حال علم السحر كذلك فما ظنك بكمال حال الإنسان في علم التوحيد؟
(٢)

قال تعالى ﴿ وَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ ﴾ وفي الآية دليل على أن فعل العبد من خلق الله تعالى ، وتدل الآية أيضاً على أن السحرة سجدوا فور رؤية معجزة موسى عليه السلام وأنهم اندفعوا ملقين أنفسهم للسجود لرب العالمين ، فأعضاؤهم لم تكن مهينة في تلك اللحظة لشئ سوى السجود . وأن هذا الشعور وتلك الرغبة العارمة تساوى فيها السحرة جميعهم فلم يتوقف منهم أحد ف (أل) في السحرة للاستغراق .

قال النسفي (خروا سجدا كأنما ألقاهم ملق لشدة خروهم . أو لـم يتمالكوا مما رأوا ، فكأنهم ألقوا ، فكانوا أول النهار كفارا سحرة وفي
(٣)
آخره شهداء بررة) .

(١) سورة الأعراف ، آيات (١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢) .

(٢) تفسير الرازي (١٤ / ٢٠٥ - ٢٠٦) .

(٣) تفسير النسفي (٢ / ٧٠) .

وقوله * قالوا ءامنّا بربّ العلمين * أي آمنّا بمالك أمر العالمين
ومدبر شؤونهم والمتصرف فيهم .

(١)
* ربّ موسى وهارون * يدل من الجملة التي قبلها . والغرض منها
نفي توهم من يتوهم أنّ ربّ العالمين قد يطلق على غير الله تعالى كما قال
فرعون * أنا ربكم الأعلى * (٢)

والظاهر عندي أنّهم لما ألقوا ساجدين قالوا بحيث يسمع فرعون
* قالوا ءامنّا بربّ العلمين ربّ موسى وهارون * إمعاناً في كشف
الحقيقة التي بدت لهم ، وإعلاناً عن مخالفتهم له في عقيدته مخالفة لم تبق
فيهم من تقدير لتلك العقيدة الضالة .

وان فرعون هددهم بما سأذكره على سجودهم وعلى مقاتلتهم في سجودهم ،
إذ لولا تلك المقالة لظن بعض الظن أنّ السجود كان لفرعون ، لمحاولة نصرته
ببعض النصرة وتخفيف نكبته لكن السحرة أرادوا بمقاتلتهم هذه أن يعلم كل من
يراهم أنّهم سجدوا للواحد الأحد ، وأن ظهور الحق دفعهم إلى أن يأتوا بما
هو أدل على خلوص التوحيد وهو السجود المشفوع بقولهم في سجودهم : * ءامنّا
بربّ العلمين ربّ موسى وهارون * .

وإنما نحوت هذا المنحى لأنّ السجود في الأمم السابقة كان شيئاً مألوفاً
من الرعية لملوكها ، ولأجل نفي ذلك أردف السحرة سجودهم بمقاتلتهم هذه وإنما
قالوا : * ربّ موسى وهارون * اتياناً منهم بركني الشهادة التي لا تكون
إلا بهما وهي توحيد الله تعالى ، والإيمان بالرسول الذي جاءهم بهذا التوحيد
كما أنّهم أرادوا أن ينسبوا الفضل لمن كان سبباً في خلاصهم من الكفر إلى
الإيمان .

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢١ ، ١٢٢) .

(٢) سورة النازعات ، آية (٢٤) .

(المبحث الثامن)

(تهديد فرعون للسحرة وتوعده لهم) —————

قال تعالى : ﴿ قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءأذن لكم إن هذا لمكر
مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون . لأقطعن أيديكم
وأرجلكم من خلف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ (١) .

وبعد أن رأى فرعون أن أعلم الناس بالسحر قد أقروا بنبوة موسى عليه
السلام أمام ذلك الجمع العظيم ، لأنهم أدركوا أن ما جاء به موسى عليه
السلام ليس من قبيل السحر ، وتحولوا من تحديدهم السافر إلى التسليم المطلق
أمام نداء الحق الذي لا يجحده إلا مكابرومتعالٍ .

ولقد خشي فرعون أن يستولى الايمان على قلوب العامة كما استولى على
قلوب السحرة ، لاسيما وقد اتضح ذلك على صفحات وجوههم كما أخبر بذلك قوله
تعالى ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صُغرين ﴾ (٢) أي أدلاء مبهوتين ، فأخذ
فرعون ينكر عليهم موبخا ومقرعا لهم فعلهم الشنيع الذي ارتكبهوه وهو
ايمانهم برب موسى وهرون قائلًا لهم آمنتم به قبل أن آمركم بذلك؟ فهو
من غروره واستعلائه ظن أن الايمان بالحق بعد ما تبين يحتاج الى سبب
موافقة واستئذان . فالضمير في ﴿ به ﴾ يحتمل العود الى الله عز وجل
ولم يصرح فرعون باسمه تعالى تحاميا لجريان ذكر الله تعالى على لسانه ،
مما ينبه العامة الى التشكك في ألوهية فرعون ، خصوصا بعد مانابه من كرب
على يد موسى (عليه السلام) بايمان السحرة ، الذين كان يعتبرهم ملجأه
وحصنه لابطال معجزة موسى عليه السلام .

ويجوز أن يراد بالضمير موسى عليه السلام . وقد قصد بذلك تحقيره وأنه
أقل من أن يؤثر فيهم هذا التأثير .

قوله تعالى ﴿ قبل أن ءأذن لكم ﴾ يريد به فرعون أن الخروج على
كلمته والانتحال بنحلة لا يقرها ، أمر يستدعي عقوبة فاعليه ، لأنهم أرادوا
بذلك سلبه ملكه ، واخراج أهل المدينة منها ، باستتباعهم اياهم فيكون
لهم الغلب بميل الكفة إليهم ، وأنه لا يقر لأهل المدينة بتلك التبعية

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢٣ - ١٢٤) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١١٩) .

للسحرة ، وسيؤاخذهم على ذلك أشد المؤاخذة بالمحاربة والانتقام ، مما يؤدي إلى اخراج أهل المدينة منها والمدينة التي يتحدث عنها هي عاصمة ملكه وقصبتها وحاضرتة . ولعلها (منف - أو منفيس أو طيبة) فهذه الأسماء كانت لأشهر مدينة في ذلك العهد كما قيل والله أعلم .

وما كان فرعون ليأذن لهم في الايمان ، ولو مالت نفسه إلى ذلك لمما أنكره . ولكنه أراد أن يبين للسحرة أنه لا يزال صاحب السلطان وإليه المرجع حتى فيما يدينون به ويعتقدونه . لذلك نراه في الحال قد ألقى إلى آسماع الحاضرين شبهتين لتصيرا حائلا بين إيمان القوم وبما جاء به موسى عليه السلام .

فالشبهة الأولى بقوله * إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة * أي فعلكم هذا أيها السحرة ما هو إلا حيلة احتلتموها أنتم وموسى وتواطأتم عليها . وغرضه من هذا : التنقيص من قوة الحجة والتأثير الذي أحدثته المعجزة .

الشبهة الثانية قوله * لتخرجوا منها أهلها * أي : إن غرضكم من تواطئكم ذلك هو اخراج أهلها الأصليين (الأقباط) منها واسكان بني اسرائيل مكانهم ، ومعلوم أن مفارقة الأهل والبلد والوطن من أمعب وأشق الأمور على النفس ، فكانت هذه الشبهة من أقوى العوامل المؤثرة في النفوس ، وغرضه من هذا اعلان العداوة على موسى والسحرة ، ثم اتبع هذا الاتهام الباطل بالوعيد الشديد قائلًا لهم :

* فسوف تعلمون * وعيد مجمل موجه للسحرة الذين وصفهم بذلك التدبير والكيد . * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف * أي من كل شق طرفا .
* ثم لأصلبنكم أجمعين * تنكيلا وتفظيعا .

وقد أراد بقوله * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف * ثم لأصلبنكم أجمعين * أن يبين قدرته عليهم وأن يخيفهم بالتأثير على قوتهم الذاتية لأن الذي قطعت يده ورجله من خلاف لا يحسن مشيا ولا يحسن امساكا بشيء مما يجعله لا يستقل بعمل ، ومما يستذله لغيره دائما فيكون عالة عليه . ومن وصل إلى هذا الحد لا يعتد برأيه ولا يعول على تأثيره . وكان فرعون من أوائل من سن تعذيب المؤمنين على إيمانهم ، ومن أوائل من وضع لبنات فنون تعذيب المؤمنين في كل عصر لانتصارهم لدينهم ولمخالطة بشاشة الإيمان

قلوبهم وقوله ﴿ ثم لأصلبكنم أجمعين ﴾ أي لن أبالي بأن لبعضكم قوة بل كلكم معشر السحرة في التنكيل سواء ، ولن أقبل شفاعة شافع فيكم ، وإنما هددهم بالتقطيع والصلب ليعتبر غيرهم بهم ، وليرجعوا بما هددوا به عن التوحيد وقد حكى القرآن تأبيهم على فرعون واستخفافهم بما هددهم بأكثر من أسلوب ، لنعرف بذلك قوة إيمانهم ورسوخه في قلوبهم ، ولنتعلم مغالبة الصعاب والاستعلاء عليها بقوة الايمان .

قال تعالى في سورة طه ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من بينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحيلوة الدنيا إننا ءامنا بربنا ليغفر لنا خطيئنا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ (١) .

والمعنى : أن السحرة قالوا لفرعون لما توعدهم بما توعدهم به ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من بينات ﴾ أي لن نختارك فنتبعك ونكذب ما جاءنا به موسى من الحجج والأدلة القاطعة على حقيقة ما دعانا إليه وقوله ﴿ والذى فطرنا ﴾ عطف على ﴿ ما جاءنا ﴾ أي لن نختارك على الذى جاءنا ولا على الذى خلقنا . أو قسم وجوابه ﴿ لن نؤثرك ﴾ مقدم على القسم والتقدير : والذى فطرنا لن نؤثرك على ما جاءنا به موسى فاقض ما أنت قاض . ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أي اصنع ما أنت صانع من القتل والصلب .

﴿ إنما تقضي هذه الحيلوة الدنيا ﴾ أي إنما تحكم فينا مدة حياتنا ثم لا سلطان لك بعد ذلك ﴿ إننا ءامنا بربنا ﴾ أي إننا آمننا وأقررنا بتوحيد ربنا ، وصدقنا وعده ووعيده وأن ما جاء به موسى حق ﴿ ليغفر لنا خطيئنا ﴾ أي ليعفو عن ذنوبنا .

﴿ وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ أي ما أكرهتنا على تعلمه والعمل به . روى أنهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه . فقالوا : ما هذا بسحر . الساحر إذا نام بطل سحره فكرهوا معارضته خوفاً الفضيحة ، فأكرههم فرعون على الاتيان بالسحر . وضر فرعون جهله به ، ونفعهم

(١)
علمهم بالسحر فكيف يعلم الشرع؟

وقال تعالى في سورة الشعراء ﴿ قالوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون .
إننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطيئنا أن كنا أول المؤمنين ﴾ (٢)

قال النسفي : أي ان السحرة لما توعدهم فرعون بما توعدهم به قبالوا ﴿ لا ضير ﴾
أي لا ضرر علينا في ذلك بل لنا أعظم النفع ، لما يحصل لنا في الصبر عليه
لوجه الله من تكفير الخطايا ، أو لا ضير علينا فيما تتوعدنا به أنه لا بد
لنا من الانقلاب إلى ربنا بسبب من أسباب الموت ، والقتل أهون أسبابه
وأرجاها ، أو لا ضير علينا في قتلك إنك إن قتلتنا انقلبنا إلى ربنا انقلاب
من يطمع في مغفرته ويرجوا رحمته لما رزقنا من سبق إلى الإيمان . (٣)

وأعود إلى مقاله القرآن عنهم في سورة الأعراف .
﴿ وما تنقم منا إلا أن ءامننا بما عهدنا لما ءآتتنا ﴾ (٤)

أي وما تكره منا وتعيب علينا إلا الإيمان بآيات الله ، الذي هو من
أعظم المناقب وأفضل المحاسن ، مما يجعلك لو كنت عاقلاً أن تمدحنا به لا أن
تنقم منا ، فكيف نترك صوابنا إلى جهلك وطفيانك؟

وقوله تعالى ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ فلما
تبين لهم اصراره على تنفيذ ما توعدهم به ، استعانوا على هذا البلاء
العظيم بربهم ، يتضرعون إليه ويسألونه أن يفرغ على ذواتهم وقلوبهم صبراً
عظيماً ، لا يبالون معه بما يفعله بهم فرعون ، ورجوا ربهم في ضراعة أن يثبتهم
على الاسلام الذي هداهم إليه ، وأن يتوفاهم عليه ، لأن سعادة المسلم
لا تستيقن إلا إذا خرجت روحه على الإيمان .

فقوله تعالى ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ هو نداء واستنجد ، وهو
مقول قول محذوف تقديره قالوا : يا ربنا ومالك أمرنا وشئوننا أفرغ علينا
صبراً عظيماً يدافع هذا البلاء عنا وتوفنا برحمتك مسلمين .

-
- (١) انظر تفسير النسفي (٣ / ٦٠) .
(٢) سورة الشعراء ، آية (٥٠ - ٥١) .
(٣) تفسير النسفي بتصرف (٣ / ١٨٤) .
(٤) ، (٥) سورة الأعراف ، آية (١٢٦) .

وهذا الدعاء الذي قصه الله علينا ، تعليم لكل مسلم أن يستنجد بربه وقت الشدة ، فلا مغيث له إلا هو ، وأن يكون همه الأكبر الخروج من هذه الدنيا على الإيمان ، وأن أي مصيبة مهما جلت فهي دون مصيبة التوفي على الكفر والعياذ بالله تبارك وتعالى ، وأن المؤمن لا يليق به أن ينسى الآخرة في غمرة صعوبة الأحداث وخطورتها ، وأن يجعل رجاء الوفاة على الإيمان نصب عينيه ، وموضع سؤاله ربه ، وتضرعه إليه دائما ، ولذا لم يسأل السحرة في هذا الموطن سوى هذين الأمرين .

ولقد اختلف المفسرون هل أوقع فرعون بالسحرة ما هدد به أولا ؟
والذي أميل إليه أنه أوقع بهم ما هدد به أو بعضه لهذا الدعاء . والله أعلم .

(المبحث التاسع)

موقف الملائم موسى عليه السلام وقومه
واجابة فرعون لملائه

قال تعالى : * وقال الملا من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وءالهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنما فوقهم قهرون * (١)

* وقال الملا من قوم فرعون * الجملة معطوفة على ما سبقها من قوله
(٢)
* قال الملا من قوم فرعون إن هذا لسحر عليم * .

والملا : هم أصحاب النفوذ والسلطة والزعامة والوجاهة ، والملافي كل أمة هم سبب شقائها وهلاكها بعذاب الاستئصال المتنوع في الدنيا . كما بينه القرآن الكريم من خلال قصص الماضين وقد ألمحت إلى ذلك مرارا وقد كان شأنهم مع فرعون شأن الجبان الذي يلتمس فرمة يظهر فيها بمظهر الشجاعة الكاذبة والغيرة المفتعلة .

وقوله تعالى * وقال الملا من قوم فرعون * لا يدل على إيمان بنبي اسرائيل واستقامة حالهم ، وامتناعهم من تأييد فرعون ونصرته ، وإنما يدل على مهانتهم وأنهم لم يكونوا ذوي وزن عند فرعون . وسيتضح ذلك فيما سيأتي من أحوالهم ما يؤكد هذا الفهم ، وكان فرعون لا يستشير إلا قومه وهم المصريون الحقيقيون لا بنوا اسرائيل الدخلاء .

وقوله * أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وءالهتك * القصد منه تهيج فرعون على موسى وقومه ، ومحاولة حمله على مغالبة خوفه وروعه ، ولذا ذكر القرآن الكريم قولهم هذا بأسلوب الاستفهام الذي لا يقصد حقيقته بل القصد منه الاشارة - كما ذكرت - وقد استخدم الملافي اشارتهم لفرعون سببين قويين في نظرهم كل واحد منهما كفيل بأن يحمل فرعون على التصدي لموسى وقومه فكيف باجتماعهما؟

أولهما : افساد موسى وقومه في أرض مصر على حد زعمهم ، وذلك أن

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢٧) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٠٩) .

معجزة موسى عليه السلام هزت قلوب المصريين وزعزت علاقتهم بفرعون ، وحملت الكثيرين منهم على التفكير في الإيمان بموسى عليه السلام . وذلك ينقض ويهز ملك فرعون وهذا هو أقوى السببين . ولا غرابة في عرف أهل الباطل أن يسموا الحق والإيمان فسادا ، و ضلالهم وكفرهم فلاحا ورباحا .

ولقد كان لموسى (عليه السلام) في بعض المصريين تأثيره الظاهر قبل أن يرسله الله إلى فرعون وقبل أن يشهد المصريون معجزته . ويؤكد هذا الفهم قوله تعالى : ﴿ وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يلموسى إن الملائكة يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ﴾ (١) .

قال النسفي رحمه الله : إن هذا الرجل كان ابن عم فرعون وهو مؤمن من آل فرعون الذي قص الله علينا خبره في سورة غافر فما بالك بعد مشاهدتهم معجزته عليه الصلاة والسلام .

والسبب الثاني : هو قولهم ﴿ ويذكر وءالتهك ﴾ فان مما يشق على أصحاب الجاه والسلطان انحراف الناس عنهم إلى غيرهم ، وهو تهيج آخر ، أرادوا به اشارة فرعون على موسى وقومه ، ويحسن بي أن أتعرض لقضية تتعلق بقوله تعالى ﴿ ويذكر وءالتهك ﴾ فان ذلك يعني أن فرعون لم يكن إلها بل كان يعبد آلهة . وهذا يتعارض مع قوله تعالى ﴿ وقال فرعون يأتئها الملائكة ما علمت لكم من إله غيري ﴾ (٣) .

والواقع لا تعارض بين آية الأعراف وآية القصص ، لأن آلهة فرعون التي ذكرتها سورة الأعراف قد نصبها فرعون لتأكيد ألوهيته هو . وهي بمثابة التهيئة لمن يدخل عليه فلا يلقى بداخل عليه أن يدخل من أول الأمر ، بل عليه أن يمر على تلك الآلهة التي صنعها خميما لنفسه لتتهيء الداخلين عليه لملاقاته . وقد فهمت ذلك من الاضافة في قوله تعالى ﴿ وءالتهك ﴾ أي المخصصة بك ، والتي تهيء بها رعيتك لقبول ألوهيتك ، لأنها كانت آلهة جامدة لاتسمع ولاتبصر فاذا سلم لها من مر عليها بالألوهية ، كان تسليمه بألوهية فرعون ألزم ، لأنه يسمع ويبصر ويتكلم ويعطي ويمنع باعتباره بشرا ،

(١) سورة القصص ، آية (٢٠) .

(٢) قال تعالى ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا

أن يقول ربي الله ﴾ . الآية ، سورة غافر ، آية (٢٨) . انظر تفسير النسفي (٣/٢٣٠)

(٣) سورة القصص ، آية (٣٨) .

زوده. الله تعالى بما يمكنه من ذلك ، ولم أجد هذا المعنى في كتب التفسير ولكن الله هداني اليه فله الحمد والمنة .

ومما يقوي فهمي هذا قوله تعالى على لسان فرعون * فحشر فنادى. فقال أنا ربكم الأعلى^(١) * والمعنى والله أعلم : أنه يقول إن فوق تلك الآلهة التي جعلتها تمهيدا لتعريفكم بألوهيتي بل وفوق رب موسى الذي يزعم أنه أرسله إليكم . (تعالى الله عما يقول علوا كبيرا) .

وقد اختلف المفسرون في آلهة فرعون فمن قائل أنها الكواكب ، ومن قائل أنها أصنام صغيرة ، أمرهم بعبادتها ، ومن قائل أنه كان يعبد البقر ، وقد شاعت عبادة البقر عند المصريين في بعض الأزمنة .^(٢)

من كل ما أسلفت ذكره في هذا الموضوع يتضح لك ان شاء الله - زوال هذا التعارض بين آية الأعراف وآية القصص . فقوله تعالى في آية القصص * ما علمت لكم من إله غيري * لا يقصد فيها نفي الآلهة الموطئة له ، بل يقصد صرف قومه عن توحيد الله تعالى ، وعن اتباع موسى عليه السلام فانهم إذا آمنوا بالله تعالى نبذوا ولا شك فرعون وألوهيته وآلهته .

ولقد عرف فرعون ما يدور في نفوس الملائ فأجابهم إجابة المخذول الذي يجتهد في كتمان خذلانه * قال سنقتل أبناءهم *^(٣) أي سنستمر على ذلك كما كنا ولن نكف عنه والضمير يعود لبني اسرائيل .

* ونستحي نساءهم * في المهانة والخدمة فلا تقوم لبني اسرائيل قائمة ، ولن ينفعهم موسى بما جاءهم به على حد زعمه ، لأن القوة في كل عصر أساسها الأول وفرقة البنين وكثرة الرجال والأموال قال تعالى في شأن بني اسرائيل لما رد عليهم القوة على من استعبدوهم وجاسوا خلال ديارهم * ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا *^(٤) أي عددا مما كنتم . وهو تمييز ، جمع نفر وهو من ينفر مع الرجل

(١) سورة النازعات ، آية (٢٣ - ٢٤) .

(٢) انظر تفسير الرازي (١٤ / ٢١١) ، تفسير أبي السعود (٢ / ٢٦٢) ،

تفسير النسفي (٢ / ٧٠) ، تفسير ابن كثير (٢ / ٢٣٩) ، تفسير القاسمي (٧ / ٢٣٤) .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٢٧) .

(٤) سورة الاسراء ، آية (٦) .

(١)
من قومه .

وقوله تعالى ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾ هو مزيد طمأنة ملء المستغرب لامتناعه عن معاقبة موسى وقومه ، ومراد فرعون بقوله هذا أن يئبه ملأه أنه لا يزال هو الملك ، وأن الرثاسة لا تزال بيده ، وبنوا اسرائيل لا يزالون تحت قبضته ولا يمكنهم الخروج من مصر في نظره بأي حال من الأحوال . وكأنه يقول لملئه ، لماذا ارتعتم هذا الارتياح والأمر كما ذكرته لكم؟؟

وتلاحظ أن فرعون استخدم نون العظمة في ﴿ نقتل ﴾ ، ﴿ ونستحي ﴾ و﴿ وإنا ﴾ بقصد اظهار قوته لملئه وأن يستل هذا الاستغراب من نفوسهم .

والمتمعن في كلام الملا من قوم فرعون يجده لا يختلف اطلاقاً عن منطق كافة دعاة الباطل في كل العهود ، فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله تعالى ، وتخليص الناس من براثن العبودية الزائفة افساد في الأرض ، لأنهم على يقين من أن هذه الدعوة ستدك حصونهم ، وتكشف عوراتهم ، وتحرر الناس من ظلمهم ، وجبروتهم ، وتحرمهم مما هم فيه من النعيم على حساب الآخرين .

أما ما قاله فرعون فهو منطق الطغاة المتجبرين فقد لجأ إلى قوته المادية ونفوذه الواسع ، ليبدد به دعوة الحق ، وليظل ينعم في شهواته ويستبد بظلمه وقهره على الضعفاء البائسين .

(المبحث العاشر)

(وصية موسى عليه السلام لقومه بالاستعانة بالله)

والصبر على البلاء

—

قال تعالى ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ (١).

وبعد تهديد فرعون وملئه لقوم موسى ، وقد بلغ موسى وقومه ذلك التهديد الذي أفزعهم وهز مشاعرهم وأقضى مضاجعهم ، حينئذ طلب موسى عليه السلام من قومه أو يلوذوا بالصبر وألا يجزعوا من وعيد فرعون لهم ، وأفهمهم بأن الأرض ليست ملكا لفرعون وملئه ، بل هي لله الواحد القهار ، يورثها لمن يشاء من عباده ، وأنه جل وعلا وعد بأن تكون العاقبة لمن خافه وآمن به .

وفي الآية إشارة إلى أن البلاد ومن عليها ستكون في النهاية لهم ، وهي بمثابة البشارة التي تزيد في عزيمة المؤمنين المعقودة على الصبر واحتساب البلاء النازل بهم لوجه الله تعالى .

قال الرازي رحمه الله : قوله ﴿ استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ فهنا أمرهم بشيئين وبشرهم بشيئين : أما اللذان أمر موسى عليه السلام بهما :

فالأول : الاستعانة بالله .

والثاني : الصبر على بلاء الله .

وإنما أمرهم أولا بالاستعانة وذلك لأن من عرف أنه لا مدبر في العالم إلا الله انشرح صدره بنور معرفة الله تعالى ، وحينئذ يسهل عليه أنواع البلاء ، ولأنه يرى عند نزول البلاء أنه إنما حصل بقضاء الله تعالى وتقديره واستعداده بمشاهدة قضاء الله خفف عليه أنواع البلاء .

وأما اللذان بشرهما : فالأول قوله ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ﴾ وهذا اطمان من موسى عليه السلام لقومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد اهلاكه ، وذلك معنى الإرث : وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف .

والثاني : قوله * والعاقبة للمتقين * فقيل المراد : أمر الآخرة فقط . وقيل أمر الدنيا فقط وهو الفتح والظفر والنصر على الأعداء وقيل المراد مجموع الأمرين .

وقوله * للمتقين * إشارة إلى أن كل من اتقى الله تعالى وخافه فالله يعينه في الدنيا والآخرة .^(١)

وقد دل موسى عليه السلام قومه على قانون الله الذي ما تمسكت به أمة إلا هديت . وما قصرت وما تخلت عنه أمة إلا قهرت وخذلت ، وهذا القانون يقوم (أولاً) على الاستعانة بالله القوي العزيز الذي يقهر ولا يقهر والذي يذل ولا يذل والذي يجير ولا يجار عليه . وقد استقر في فطر البشر أنهم إذا لجأوا إلى قوي منهم يثقون بقوته اطمأن قلوبهم ، وتعززت شوكتهم ، فكيف بمن استعان بالله تعالى ولجأ إليه ؟ فموسى عليه السلام بين لقومه أن مرد قوتهم في ثقتهم بربهم ومدق إيمانهم به ، وفي طلب المعونة منه وحده .

والمادة الثانية لهذا القانون : (الصبر) وما عالج فرد أو أمة مشكلته بالصبر إلا حلت . وبنى أفضل العواقب ، وإنما أمرهم عليه السلام بالصبر لأن أقدار الله تعالى لا يؤثر فيها استعجال مستعجل ، وأن نقمته تنزل بعدوه بحسب مشيئته ، وفي الوقت الذي يريد هو ، لا في ما يريد القلقون .

لأن البلاء هو الذي يمحس المؤمنين ويظهر صلابة معدنهم وقوة إيمانهم ، قال تعالى ﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ . وقال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾ . وقال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجةً والله خير بما تعملون﴾ .^(٢)^(٣)^(٤)

ومادته الثالثة : أن الكون كله لله . والأمر كله لله . والأرض جزء

-
- (١) تفسير الرازي (١٤ / ٢١٢) .
 - (٢) سورة آل عمران ، آية (١٤١) .
 - (٣) سورة آل عمران ، آية (١٤٢) .
 - (٤) سورة التوبة ، آية (١٦) .

من الكون فهي لله يورثها ويعطيها من يشاء من عباده. كافرين أو مؤمنين، فلا تياسوا من أن تنالوها. بل هي واملة إليكم ما استعنتم به وصبرتم على بلائه ، والدنيا كلها لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، فليس التعزز بملكها وليس الخير كل الخير التوسع فيها بالظلم والبغي ، كلا بل إن العاقبة الحميدة. في الدنيا والآخرة إنما هي للمتقين.

المادة الرابعة : لهذا القانون الإلهي * أن * العاقبة للمتقين * فعلى بني اسرائيل أن يدركوا أن سلامتهم في تقوى الله لا في الاعتزاز بالانتساب إلى الأنبياء وهم على غير منهجهم ، فالمتقون لله أيا كان نسبهم هم أهلهم وأولياؤه وأما المبغضون عنده فهم من فارقوا التقوى وإن كانوا من سلالة الأنبياء قال تعالى في شأن ابراهيم عليه السلام * قال إنني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين * (١)

(تضرر بنى اسرائيل من وصية موسى عليه السلام لهم)

قال تعالى ﴿ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا . قال
عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾^(١)

والمتمأمل في جواب قوم موسى لنبيهم يدل على سوء أدبهم ، وسفاهتهم مع نبيهم وبلادة عقولهم ، حيث إنه عليه السلام بشرهم إذا صبروا بالظفر على أعدائهم لكنهم قالوا : ﴿ أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ أي أنهم قالوا له رداً على نصيحته لهم بالإستعانة بالله وبالصبر على البلاء : لقد لا قينا يا موسى من فرعون صنوف العذاب وذلك قبل بعثتك بالرسالة ، فقد قتل أبناءنا ، واستحيا نساءنا وأنزل بنا ألوان الظلم والاضطهاد ، وها نحن بعد بعثتك ومجيئك إلينا لم تتغير أحوالنا ، فقد عاد فرعون إلى ظلمه وسفكه للدماء واذلنا وقد قصدوا بقولهم هذا أنهم لم يستفيدوا بايمانهم به وبرسالته شيئاً ، فقد استبطئوا وعده لهم بالنصر ، فأجابهم عليه السلام إجابة الحلیم ، فهدأ ثورتهم وطمأن روعتهم ، ورجا من ربه أن يهلك عدوهم ويستخلفهم في الأرض بعدهم .

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾ أن يجعلكم خلفاء فيها من بعد أهلها (قوم فرعون) والمراد بالأرض : أرض مصر ، وهذا تحريض منه عليه السلام لهم على العزم على الشكر والمداومة عليه عند حلول النعم وزوال النقم .

﴿ فينظر كيف تعملون ﴾^(٢) أي يرى ذلك بوقوع ذلك منكم ، من منكم أحسن وأدى شكر النعم ؟؟ ومن منكم كفر بالله ونعمه ؟؟ فيجازي كلا بحسب عمله قال الرازي رحمه الله : وأعلم أن النظر قد يراد به النظر الذي يفيد العلم وهو على الله محال ، وقد يراد به تقلب الحدقة نحو المرئى التماساً للرؤية وهو أيضا على الله محال ، وقد يراد بالانتظار وهو أيضا على الله محال وقد يراد به الرؤية ويجب حمل اللفظ ههنا عليه .

قال الزجاج : أي يرى ذلك بوقوع ذلك منكم . لأن الله تعالى لا يجازيهم على ما يعلمه منهم وإنما يجازيهم على ما يقع منهم .^(٣)

(١)، (٢) سورة الأعراف ، آية (١٢٩)

(٣) تفسير الرازي (١٤ / ٢١٣) .

(معاقبة الله لفرعون وقومه قبل اغراقهم)

قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾^(١)

مر علينا في الآية الكريمة السابقة أن موسى عليه السلام قال لقومه ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾^(٢) وفي هذه الآية التي نحن بصدد دراستها وتفسيرها ، يخبرنا جل وعلا عما حل بفرعون وقومه من صنوف المحن والبلاء استجابة لرجاء نبيه عليه السلام لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، وكان هذا أول انذار لهم .

قال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾ أي بالجدب والقحط والجوع عاما بعد عام امتحانا لهم وتنبيها لهم ، حتى يرجعوا عن غيهم وظلمهم ، قال ابن عباس رضي الله عنه : أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيتهم أما نقص الثمرات فكان لأهل أمصارهم .^(٣)

﴿ لعلهم يذكرون ﴾ أي لعلهم يثوبون إلى رشدهم فيتعظوا ، ويعلمون ضعفهم أمام خالقهم ، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي . لأن الشدائد في العادة تنبه الغافل من غفلته ، وترقق القلوب ، وتزجر النفوس عن غيها وتحثها على الضراعة إلى الله والتزام شرعه كما قال تعالى ﴿ وإذا مسه الشرف ذو دعاء عريض ﴾^(٤) أي كثير أي : أقبل على الدوام يدعو ربه وأخذ في الابتهال والتضرع .^(٥)

لكن ذلك لم يحدث لقوم فرعون بل ازدادوا تمردا وكفرا ، قال تعالى ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ﴾^(٦) أي : أنهم إذا أنعم الله عليهم بالخصب والقطر والرخاء نسبوا ذلك إلى أنفسهم ، وأنهم أهل لهذا الخير الذي حل بهم ، وأن ما جاءهم بكدهم واجتهادهم ناسين المسبب الحقيقي لذلك غافلين عن شكره على نعمائه .

(١) سورة الأعراف ، آية (١٣٠) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٢٩) .

(٣) الكشاف ، (٢ / ١٠٥) .

(٤) سورة فصلت ، آية (٥١) .

(٥) انظر تفسير النسفي (٤ / ٩٨) .

* وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه * وإذا حلت بهم حالة من القحط والجذب والجوائح النازلة من السماء التي تصيب الأموال والثمار بسبب ظلمهم ، نسبوا ذلك إلى موسى ومن معه من المؤمنين من باب التشاؤم ، وقالوا : لولا موسى ومن معه لما أصابنا القحط والجذب ، وهذا من شؤمهم ولولاهم ما أصابنا ما أصابنا .

قال النسفي : وإنما دخل * إذا * في الحسنة وعرفت الحسنة ، (وإن) في السيئة ونكرت السيئة لأن جنس الحسنة وقوعه كالكاثر لكثرتة ، وأما السيئة فلاتقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها .^(١)

والتطير : أصله التفاؤل بالطير . ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم قال تعالى * وإن تصبهم سيئة يطيروا * أي يتشاءموا به * ألا إنما طَّيَّرَهُمْ عند الله * أي شؤمهم وما قد أعد الله لهم بسوء أعمالهم . أهـ . * ألا إنما طَّيَّرَهُمْ * استعناف مسوق للرد على أباطيلهم والمراد به شؤمهم (كما أسلفت) .

* عند الله * أي في حكمه ومشيبته ، وصدر بلفظ * ألا * الذي يفيد التنبيه لبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر أي : إنما سبب خيرهم وشهرهم هو الحكيم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية ، فيجازيهم بحسب أعمالهم إن خيرا فخييرا . وإن شرا فشرا . وليس لموسى ومن معه أي تدخل في ذلك .

* ولكن أكثرهم لا يعلمون * ان ما لحقهم من القحط والجذب إنما هو في الحقيقة من عند الله تعالى ، بسبب ذنوبهم وظلمهم ، لا من عند موسى وقومه ، وكان أخذهم بالسنين والنقص من ثمراتهم كالانذار لهم ، وكان الأجر بهم أن يتعظوا ويؤمنوا بموسى وما جاء به .^(٣)

ورغم قسوة ما لقوه من هذه السنين وما عانوه من نقص ثمراتهم إلا أن ذلك إذا قيس بما سيمتحنون به بعد من العذاب قبل هلاكهم يعتبر رحمة ونعمة ، وكان المتوقع من فرعون وقومه أن يذكروا بما نزل بهم ، فيؤمنوا بموسى

(١) تفسير النسفي (٢ / ٧١ - ٧٢) .

(٢) انظر المفردات للأصمعي ص ٣٠٩ / ٣١٠ .

(٣) سورة الأعراف ، آية (١٣٠) .

عليه السلام لتسلم لهم دنياهم وأخراهم ، لكن ذلك لم يحدث ، وقد أنبأ عن عدم حدوثه قوله تعالى ﴿ لعلمهم يذكرون ﴾^(١) "لعل" موضوعة لرجاء الأمر المحبوب ، وفرق بين أن ترجو شيئا لم يتأهل له من ترجوه منه ، وبين من تأهل لفعله ، وواضح لنا من خلال قصة موسى وفرعون تعنت فرعون وقومــــه واستكبارهم عن الحق مع ظهوره واستبانته ، ولذا لم يذعنوا لموسى عليه السلام ، ولم يؤمنوا به بعد حلول السنين بهم بل قالوا ما حكاه الله عنهم ﴿ وقالوا مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾^(٢) والمراد : مهما جئتنا من آية جديدة هي في غاية العظم والكبر والقهر فاننا لن نخضع لها ، ولن نؤمن بك ولا بما جئت به البتة .

والآية الكريمة تصور لنا مبلغ عنادهم ورفضهم للحق ، وقد أسلمهم عنادهم هذا إلى أن سلط الله عليهم أنواعا من العذاب . لم يعرف في الأمم السابقة ولا اللاحقة . فالحق جل وعلا يمهل ولا يهمل .

قال تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ايات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾^(٤) .

قوله ﴿ فأرسلنا عليهم ﴾ أي بقدرتنا وقهرنا وغلبتنا عليهم عقوبته لجرائمهم وتكذيبهم ﴿ الطوفان ﴾ قال الألوسي : (أي ما طاف بهم وغشي أماكنهم وحروثهم من مطر أو سيل فهو اسم جنس من الطواف)^(٥)

فقد أمطروا أياما متوالية بليا ليهن ، وفاض عليهم النيل فعمت المياه جميع أراضيهم ، فأتلفت عليهم مساكنهم ومزارعهم وتجاراتهم ، والمعجز في هذه الآية والآيات التالية أنها تلحق الضرر والأذى بالاقباط فقط دون الاسرائيليين ، ومما يقوى ذلك ويؤكدده قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم ﴾ أي : لا على سواهم ممن خالطهم ، وتأمل في قوم غمر الماء مساكنهم وما فيها من الفرش والأثاث ومزارعهم وما فيها من الزروع والثمار والأنعام ومتاجرهم وما فيها البضائع والأموال كيف يكون حالهم؟

(١) سورة الأعراف ، آية (١٣٠) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٣٢) .

(٣) وهو الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وهو ما سنفصل فيه قريبا .

(٤) سورة الأعراف ، آية (١٣٢) .

(٥) تفسير الألوسي (٩ / ٣٣) .

فلما اشتد عليهم الأمر لجأوا الى موسى عليه السلام يتضرعون اليه ، وقالوا له لئن دعوت لنا ربك لنؤمنن لك ، فلما دعا موسى عليه السلام الله عز وجل وكشف الله عنهم ما حل بهم ، عادوا الى كفرهم وضلالهم ، لذلك عاقبهم الله جل وعلا بتسليط الجراد عليهم .

* والجراد * معطوف على الطوفان بتقدير وأرسلنا عليهم الجراد ، وهي الحشرة المعروفة . والجراد جمع جرادة وهو مما يستوي فيه المذكور والمؤنث فان أردت الفصل نعت ، فتقول : رأيت جرادة ذكرا ، وجرادة أنثى كمنلة وحمامة وكان ارسال الجراد عليهم بمثابة الانذار الثاني لهم ، لعلهم يرجعون عن تكذيبهم وكان نقمة كبيرة حلت عليهم ، لأن الله بعد أن كشف عنهم البلاء السابق وهو الطوفان سول لهم الشيطان أن ذلك الطوفان هو نعمة هم أهل لها ، فقد ارتوت بساتينهم ومزارعهم وقفارهم ، ونبت العشب في براريهم لرعي مواشيهم وفرحوا بذلك ، فأرسل الله عليهم الجراد فأكل زروعهم وثمارهم إلا الشيء اليسير الذي استطاعوا أن يحصدوه قبل فسادهم ، فقالوا قد بقي لنا ما يكفيننا فلن نؤمن لك ولن نرسل معك بني اسرائيل . وكان اللائق بهم أن يرتدعوا ويؤمنوا بنبيهم * والقمل * واحدها قملٌ وهي عند أهل اللغة ضرب من القردان إلا أنها أصغر منها . وقال أبو عبيدة : القمل عند العرب هي الحمنان . قال الأثرم الراوي عنه : والحمنان يعني بالمهملة ضرب من القردان وهذا هو الابتلاء الثالث لقوم فرعون . وقد انتشر في بيوتهم وفرشهم فأقضى مضاجعهم فلم يمكنهم من الغمض والقرار ، وانظر إلى شدة هذا الابتلاء وعظيم هذه الآفة فلو أن قملة واحدة تسلطت على انسان وعجز عن قتلها لأفرعته ولأقلقته ولمنعه من النوم والراحة والهدوء فما بالك بعدد لا حصر له ، ولا يعلمه إلا الله ، والمعجز في هذه الآفة - كما سبق أن أسلفت - أن القمل يتسلط على الأقباط فقط دون الاسرائيليين وممن

(١) انظر تفسير القرطبي (٧ / ٢٦٩ - ٢٧٠) ، تفسير الفتوحات الالهية

المسمى بالجمل ص (٢ / ١٨٣) .

(٢) تفسير القرطبي (٧ / ٢٧٠) وقد روي عن سعيد بن جبير كان الى جنبهم

كثيب أعفر فضربه موسى عليه السلام بعصاه فصار قملا . فأخذت في أبشارهم

وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجبهم . ولزم جلودهم كأنه الجدرى فصاحوا

ومرخوا . انظر تفسير الرازي (١٤ / ٢١٨) .

وتفسير الطبري (٩ / ٣٩) .

(٣) انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري (٧ / ٢٤١) .

آمن من الأقباط .

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله نقلا عن ابن عباس رضى الله عنهم — أن المراد بالقمل (السوس) الذي يخرج من الحنطة فقد انتشر في بيوتهم وأطعمتهم ومن خصائصه أنه يطير مما يعجزهم عن مدافعته ومقاومته . وكانوا قد جمعوا بعض الأقوات ليغالبا بها الجراد وخنوها في مخازنهم فلما استجاب الله دعاء نبيه موسى ورفع عنهم الجراد سول لهم الشيطان أن ينكتوا عهدهم فسلط الله عليهم ما أتلف هذه الأقوات لعلهم ينزجرون ، ولا مانع من أن الله قد جمع عليهم الأمرين (القمل والسوس) .

قال النحاس : وليس هذا بناقض لما قاله أهل التفسير . لأنه يجوز أن تكون هذه الأشياء كلها أرسلت عليهم وهي أنها كلها تجتمع في أنها تؤذيهم .

وقوله تعالى ﴿ والضفادع ﴾ جمع ضفدع وهي الحيوان المعروف الذي يعيش في الماء . فقد روي أنها ملأت فرشهم وأوعيتهم وطعامهم وشرابهم . وتأمل ما في هذه الآية من العذاب حيث أن المعروف من هذه الحشرة بشاعة منظرها وكراهة رائحتها ولزاجة ملمسها فضلا عن ذلك كله ، نقيقتها المزعج المتواصل ، فكيف يكون الحال عند كثرتها واختلاطها بطعامهم وشرابهم وبين فرشهم؟ حتى أنه كان إذا تكلم أحدهم وثبت في أفواههم فمنعته الكلام .

وقوله تعالى ﴿ والدم ﴾ فأرسل الله عليهم الدم فسال النبي عليهم دما عبيطا وكان المؤمنون منهم وبنو اسرائيل يغترفون منه الماء والقبطي الدم وتأمل ما في هذه الآية من العذاب فحقا أن كل آية أعظم من التي قبلها ، فالدم الذي هو شريان الحياة وعمادها ولا يستطيع أن يستغني عنه أحد البتة ، أصبح دما عبيطا نتنا مليئا بالأوبئة ، وإن الناظر إلى الدم فقط تشمئز نفسه فكيف يكون حالهم وقد أصبح شرابهم ومغسلهم .

(١) البداية والنهاية (١ / ٢٦٥) .

(٢) تفسير القرطبي (٧ / ٢٧٠) .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٢٤١) .

تفسير الطبري (٣٤/٩ - ٣٦) . انظر تفسير القرطبي (٧ / ٢٧٠ - ٢٧١) .

(٤) الدم العبيط : أي الدم الطري . لسان العرب (٧ / ٣٤٧) .

(٥) انظر تفسير ابن كثير (٢ / ٢٤١) .

تفسير الطبري (٣٤/٩ - ٣٦) . انظر تفسير القرطبي (٧ / ٢٧٠ - ٢٧١) .

(١)
وقيل المراد بالدم هنا الرعاف الذي سال من أنوفهم وهدد حياتهم إذ أن
كثرة الرعاف يؤدي بصاحبه إلى الهلاك والله أعلم .

والغريب أنهم في كل آية يطلبون من موسى أن يسأل ربه أن يكشف عنهم
العذاب فإذا ما كشف الله عنهم ما حل بهم ، رجعوا إلى ما كانوا عليه من
التكذيب والكفر ، والمتمعن في الآيات السابقة وعظيها والتعبير بقوله
﴿ فأرسلنا ﴾ أي وجهنا اليهم ، ويقصد منه الدفع بالعقوبة في قسوة -
والتنصيص بقوله : ﴿ عليهم ﴾ أي لا على غيرهم ممن خالطهم (كما أسلفت)
(الطوفان - والجراد - والقمل والضفادع - والدم) وهي كما عبر عنها
القرآن بآيات مفصلات أي واضحات لا يشك عاقل في كونها آيات الهية ، ومع
ذلك لم يؤمنوا بل في كل مرة ينكثون وعودهم لنبيهم ، فالمتمعن في ذلك
يستنتج ما يلي :

أولا : تفريط أهل الباطل واستكبارهم عن قبول الحق مع وضوح حجة وعنادهم
واصرارهم على الكفر .

ثانيا : حرص نبيهم عليه السلام على إيمانهم واجتهاده في الدعاء لهم مع
تكرر نقضهم لعهودهم .

ثالثا : صبر نبيهم عليه السلام عليهم وترفقه بهم ، ومع ذلك لم يجد ذلك
معهم ، وفي ذلك تسلية للرسول صلى الله عليه وآله وسلم مما
يلاقيه من قومه ، من اصرارهم على الكفر وامعانهم فيه ، وأيضا
فيه توجيه للدعاة إلى الله بأن لا يقنطوا ولا يسأموا من مواقف
من يدعونهم ، وإن تكرر تكذيبهم ورفضهم للحق وتحمل ما قد يصادفهم
من مشاق ومتاعب .

رابعا : ان الله عز وجل تدرج بهم في الآيات التي ابتلاهم بها لعلهم يثوبون
إلى رشدهم ومع ذلك لم ينتبهوا من غفلتهم ويؤيد فهمي هذا قوله
تعالى ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم
بالعذاب لعلهم يرجعون . وقالوا يئسنا الساعى لنا ربك
بما عهد عندك إننا لمهتدون . فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم
(٢)
ينكثون ﴾

(١) انظر البداية والنهاية (١ / ٢٦٦) - الكشاف (٢ / ١٠٨) .

(٢) سورة الزخرف ، آيات (٤٨ - ٤٩ - ٥٠) .

خامسا: ان هذه الآيات لم يعرف أن الله عاقب بها أحدا قبل فرعون ولابعدہ،
مما يدل على تناسبها بعناد واصرار الذين عوقبوا بها على ما هم
عليه من كفر واستكبار.

وقوله تعالى ﴿ ءايلت مفصلت ﴾ قيل أي آيات مبيينات ظاهرات لايشكل
على عاقل من أنها من عند الله.

وقيل: ﴿مفصلت﴾ أي بين كل آية والآية الأخرى فترة من الزمن يمتحن
فيه أحوالهم ويروى أنه كان بين كل آية ثمانية أيام - وقيل أربعون
(١)
وقيل شهر.

وقوله ﴿ فاستكبروا ﴾ أي : ترفعوا عن الإيمان بالله تعالى وأصروا
على كفرهم وضلالهم . ﴿ وكانوا قوما مجرمين ﴾ أي : مصرين على الجرم
والذنب فانهم لم يبالوا بما جاءهم من الآيات الواضحات الظاهرات وماسبقها
(٢)
من المعجزات الباهرات .

(١) انظر تفسير القرطبي (٧ / ٢٧١) .
(٢) انظر تفسير الرازي (١٤ / ٢١٨) .

(نبذهم العهد الذي عاهدوا به نبيهم)

قال تعالى ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يلموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشفنا عنهم الرجز إلى آجل هم ببلغوه إذا هم ينكثون ﴾^(١)

قوله ﴿ ولما وقع عليهم ﴾ أي ولما حل بهم ونزل عليهم . ﴿ الرجز ﴾ قال أهل اللغة الرجز : بكسر الراء العذاب .

وقال أبو اسحق : ومعنى الرجز في القرآن هو العذاب المقلقل لشدة ، وله قلقلة شديدة متتابعة .^(٢)

قال تعالى ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾^(٣)

وقال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية : قال الضحاك عن ابن عباس كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب .^(٤)

وقد فسر سعيد بن جبیر (الرجز) بالطاعون .^(٥)

ويؤيد قوله هذا الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الطاعون آية الرجز ابتلى الله عز وجل به ناسا من عباده فإذا سمعتم به فلا تدخلوا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تفروا منه .^(٦)

(١) سورة الأعراف ، آية (١٣٤ - ١٣٥) .

(٢) لسان العرب (٥ / ٣٥٢) .

(٣) سورة البقرة ، آية (٥٩) .

(٤) تفسير ابن كثير (١ / ٩٨) .

(٥) الطاعون : قروح تخرج من الجسد فتكون في المَرَاقِّ أو الآباط أو الأيدي أو الأصابع وسائر البدن . ويكون معه ورم وألم شديد . وتخرج تلك القروح مع لهيب ويسود ما حوله أو يخضر أو يحمر حمرة بنفسجية كدره ويحصل معه خفقان للقلب مع الرغبة في القيء أو .

انظر شرح صحيح مسلم للإمام النووي (١٤ / ٢٠٤) .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي (١٤ / ٢٠٥) .

وفي رواية أيضا لمسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه (ان هـذا الطاعون رجز سلط على من كان قبلكم ، أو على بني اسرائيل ، فاذا كان بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه ، واذا كان بأرض فلا تدخلوها)^(١)

وقد روى سعيد بن جبير رضي الله عنه تفسير الرجز بالطاعون عن ابن عباس حبر الأمة رضي الله عنه ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : (لما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك^(٢) لكن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل) والرجز: الطاعون.

فعليه فالمفسرون اختلفوا في تفسير هذه الآية والأكثر ان المراد بالرجز هنا في هذه الآية هو تلك الآيات التي عذبوا بها - والتي سبق توضيحها - والتي كانوا في كل مرة يعاهدون فيها نبيهم عليه السلام ان كشف الله عنهم ذلك العذاب يؤمنوا به ، ويرسلوا معه بني اسرائيل ، فلما دعا نبيهم عليه السلام ربه بكشف العذاب عنهم عادوا مرة أخرى ، ونكثوا وعدهم ، وكفروا بالله وقوله تعالى * قالوا لموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك * (ما) مصدرية ، والمعنى : بعهدده عندك وهو النبوة ، وسميت النبوة عهدا لأن لها حقوقا وقد عهد الله سبحانه وتعالى اكرام الأنبياء عليهم السلام بها .^(٣) وعهدوا إليه تحمل أعبائها .

* لكن كشفت عنا الرجز * المراد اما تلك الآيات السابقة التي عذبوا بها ، واما آخرها وهو الدم ، واما الطاعون الذي سلط عليهم كما روي عن ابن عباس * لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل * فقد ذهبوا إلى نبيهم عليه السلام يعاهدونه العهد المؤكد قائلين له : لكن كشفت عنا هذا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل ، وقد عاهدوه على الأمرين الذين دعاهم موسى - عليه السلام - إليهما وكانوا يأبونهما كل الإياب .

الأمر الأول : إيمانهم واستسلامهم له عليه الصلاة والسلام ، وانصياعهم لكل ما يأمرهم به ربهم سبحانه وتعالى .

-
- (١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٤ / ٢٠٥) .
(٢) تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف من تفسير القرآن العظيم (٤٥٨ / ٢)
دراسة وتحقيق الزميل حمد بن أحمد بن أبي بكر .
(٣) انظر تفسير الألوسي (٩ / ٣٦) .

الأمر الثاني : هو ارسال بني اسرائيل معه إلى الأرض المقدسة التي نزحوا منها إلى مصر أصلاً مع جددهم يعقوب أبي الأسباط (١) عليه وعليهم السلام. (٢)

وكان الله قد أمر موسى عليه السلام باخراج بني اسرائيل من مصر حتى يمكن تقويمهم وعودتهم الى الدين الصحيح الى توحيد الله عز وجل ، والى لزوم الأوامر التي ستأتيهم من ربهم في التوراة ، لأنهم بخلطتهم للمصريين قد اكتسبوا جل عاداتهم ان لم تك كلها ، فضلا عن الذل الذي لحقهم على يد فرعون واستخدمهم في أشق الأعمال مثل ضرب اللّسّين، ونحت الطوب ، ونقل التراب والحجارة وحمل الماء ، وفي أمور الزراعة والفلاحة (٣) وهم سلالة الأنبياء الكرام، ابراهيم واسحق ويعقوب والاسباط من بعدهم ويوسف عليه السلام فمهمتهم الحقيقية إذن هي نشر التوحيد ، وهداية الخلق إلى الله عز وجل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، لا الإشتغال بالبناء والفلاحة وما شابهها مما كان يستخدمهم فيه فرعون ، ولذلك قال فرعون وقومه لموسى عليه السلام تلك المقالة التي ذكرتها هذه الآية والتي أسلفت بيانها . * ولنرسلن معك بني إسرائيل * .

ولقد دعا موسى عليه السلام ربه بدليل قوله تعالى * فلما كشفنا عنهم الرجز * فما كان فرعون وقومه ليكشف عنهم العذاب بمجرد ما قطعوه على أنفسهم من العهد ، لأنه عهد مشروط بكشف العذاب ، والإيمان المشروط لا وزن له ولو كانوا راغبين في الإيمان حقا للجأوا إلى موسى عليه السلام مؤمنين بلا شرط حتى إذا ما ماتوا على هذا الإيمان نفعهم عند الله سبحانه وتعالى ، ودل على رغبتهم الحقيقية فيه ، فكشف العذاب اذن كان لدعاء موسى عليه السلام ، وألفت النظر إلى معنيين جليين في هذه الآية :

أولهما : قوله تعالى * ولما وقع عليهم الرجز * فمعنى ذلك أن الذي ألجأهم إلى موسى عليه السلام هو تمكن العذاب منهم ولولا ذلك ما أمغوا إليه ، لاسيما وقد قالوا له عليه السلام ما حكاه الله عنهم قبل ذلك :

(٤) * وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين *

(١) الأسباط : هم أبناء يعقوب الاثنى عشر يوسف واخوته عليهم السلام والموضوع فيه خلاف وبنو اسرائيل الذين كانوا في عهد موسى هم أحفاد يعقوب

المسمى في القرآن تارة بـيعقوب وتارة باسرائيل أي عبد الله .

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير (٣٢٠/١) ، (٣٦١/١) .

(٣) انظر تفسير الألوسي (٢٠/٩) ، تفسير الرازي (١٤/١٩٢) .

(٤) سورة الأعراف ، آية (١٣٢) .

المتوالية التي ابتلاهم الله بها ، ورغم وعودهم المؤكدة بأن يؤمنوا بموسى عليه السلام ، وارسال بني اسرائيل معه إلا أنهم عاودوا النكث كما أسلفت فعندئذ لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأوحى الله جل وعلا إلى نبيه عليه السلام أن يخرج ببني اسرائيل ليلا دون أن يعلم أحد من الأقباط بذلك، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ، وهذا هو ما يفهم من سياق القرآن الكريم عند قوله :
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مَتَّبِعُونَ ﴾ (١)

ورغم أن السرى معناه المشي ليلا إلا أن الله تعالى نص على الليل كما في قوله تعالى ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مَتَّبِعُونَ ﴾ (٢) لئلا ينازع فيه بنو اسرائيل متذرعين بالخوف والجهل بالمسالك ، فبنو اسرائيل وإن كانوا من سلالة الأنبياء إلا أنك سترى لهم عما قريب من العناد والكفر بعد ما رأوا الآيات البيّنات ما هو قبيح بشأنهم ، وقد علل القرآن ذلك الاختيار بقوله ﴿ إِنَّكُمْ مَتَّبِعُونَ ﴾ أي من عدوكم فرعون وجنده ، والليل من أعظم الحواجز التي يمكن أن يضل به العدو عن مقصده ولا يزال القتال الليلي في الحروب الحديثة مع تقدم الوسائل الحربية غاية في الصعوبة ، ولا شك في أن الله تعالى قد رسم لنبيه موسى عليه السلام كيفية مسراه والجهة التي يقصدها ، والقرآن الكريم لم يتعرض للجهة المقصودة رأسا لأنها تفاصيل تخرج عن غرض القصة في القرآن من ناحية ، إذ أن معرفة الجهة وتفصيل السير إليها ليس بالأهمية التي تستدعي أن ينزل بها وحي ، فضلا عن أنك ستعرفها من خلال مشاهد مستمر بك ، وهذا من اعجاز القرآن المعجز.

فهو كثيرا ما يستغني بالاشارة عن كثرة العبارة ، وبالكلمة عن القصة ، فعندما بلغ فرعون خبر خروجهم غاظه ذلك ، وظن أنهم خرجوا ليجمعوا شملهم ويستكملوا قوتهم ليعودوا الى مهاجمته ، واشتد غضبه على بني اسرائيل، وأمر في الحال بأن ينادي في مدائن مصر المشهورة .

﴿ قَالَ تَعَالَىٰ ﴾ فأرسل فرعون في المدائن حشّرين ﴿ وَقَدْ ضَاقَ فِرْعَوْنُ ﴾ (٤) صدرا بموسى وبني اسرائيل ، ورغب في التخلص منهم بقتلهم والقضاء عليهم ،

- (١) سورة الشعراء ، آية (٥٢) .
- (٢) سورة الدخان ، آية (٢٣) .
- (٣) انظر تاريخ الأنبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية . د/محمد الطيب النجار رئيس جامعة الأزهر ، ص ٢٠٨ ، ط مكتبة المعارف ، الرياض .
- (٤) سورة الشعراء آية (٥٣) .

لئلا يتعرض في ظنه إلى نوع من أنواع العذاب الذي سلط عليهم فيما مضى، فإن ذلك العذاب ما كان يأتيهم إلا بمخالفتهم موسى عليه السلام ، وكلمة * حاشرين * توحى لك باكره فرعون المحشورين على مشاركته فيما يريد فعله ، (١) لأن معجزات موسى عليه السلام والنقم التي عوقب بها المصريون بسبب مخالفتهم له قد هزت قلوبهم جميعا ، وقلقت مكانة فرعون عندهم ، فأراد بهذا الفعل أن يبرهن على أنه هو المطاع طاعة مطلقة ، وأن أحدا من المصريين (باستثناء السحرة ومن آمن منهم) لم يشك في سلطانه ، ولم يتأثر بما حدث ، ثم قال فرعون لجنوده المحشورين ما قاله الله تعالى : * إن هؤلاء * يعني بني اسرائيل ، * لشر ذمة * أي جماعة قليلة ثم بالغ في هذا التفصيل ، * قليلون * ومراده بهذا القول أن ينزل من صدور جنوده الاستعثار بخطر القوم والتخوف من أن يصيبهم منهم أو بسببهم مكروه .

قال النسفي * ان هؤلاء لشرذمة قليلون * : والشرذمة : الطائفة القليلة وذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلا بالوصف ، ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذي هو للقلة ، أو أراد بالقلة الذلة ، لا قلة العدد أي أنهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا تتوقع غلبتهم . (٣)

* وانهم لنا لغائظون * لما يأتينا بسببهم مما قد يوحي بعجزنا أمامهم ، وهذا أسلوب تحريض قصد به اغثار صدور جنوده على بني اسرائيل ومحاولة تجنيبهم التفكير في ما يمكن أن يلحقهم من عذاب الهي بدعوة موسى عليه السلام عليهم وكأن فرعون يقول لقومه ليس خروجكم بهذه الكثافة وحشركم من كل مدينة لخوف من قوة بني اسرائيل بل لأننا قوم * حذرون * أي يقظون مجددون حذرنا باستمرار ، لا نسمح أن نؤخذ على غرة ، وفي ذلك من الكبر والغرور ما لا يخفى * وإنا لجميع حذرون * . (٥)

وقد ذكر الله لنا نحن المخاطبين من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم مقدمة نهايتهم وهي اخراج فرعون وجنده من بلدة ذات جنات وعيون ، وأنهار

(١) انظر تفسير النسفي (٣ / ١٨٤)

(٢) سورة الشعراء ، آية (٥٤) .

(٣) تفسير النسفي (٣ / ١٨٤ - ١٨٥) .

(٤) سورة الشعراء ، آية (٥٥) .

(٥) سورة الشعراء ، آية (٥٦) .

جارية وكنوز وأموال كثيرة ، لاحصر لها ، ومقام كريم ، وعيش رغيد بهيج ،
ليعلمنا تعالى بذلك أن زوال النعم سببه الكفر وعدم الشكر ، وأن فرعون
وجنده ما كان لهم أن يخرجوا مما هم فيه من نعمة لمعركة ليسوا مضطرين
إليها إلا بتدبير من الله تعالى ، مما يدل على أن الحذر مع الكفر والمعاصي
وشدة الاحتياط لا ينفعان فاعلهما شيئا .

(١)

قال تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾
.. وقال تعالى في سورة الدخان ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ
كَرِيمٍ . وَتَعَمَّرُوا فِيهَا فُلْكَهَيْنِ ، كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ، آخِرِينَ ﴾ (٢) وقوله
تعالى ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٣) أي ملكناها لهم تمليك
الإرث ، (٤) والإيراث لا يكون إلا بعد زوال المالك الأصلي ، وهو فرعون وقومه ،
أي بعد غرقهم وعليه فالواو لمطلق الجمع ، فلا تقتضي تعقيباً .

ولقد اختلف المفسرون في زمن هذا الإيراث . فقد نقل الألوسي عن الواحدي
أن الله تعالى رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه فأعطاهم
جميع ما كان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن .

وقد عقب عليه الألوسي بقوله: وما ذكر عن الواحدي من أن الله تعالى
رد بني إسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه ظاهره وقوع ذلك من غير
تداول مدة ، ثم قال الألوسي (وأظهر منه في هذا ما روى عن الحسن قال :
لما عبروا البحر رجعوا وورثوا ديارهم وأموالهم ، ورأيت في بعض الكتب أنهم
رجعوا مع موسى عليه السلام وبقوا معه في مصر عشر سنين . وقيل إنه رجع
بعضهم بعد اغراق فرعون وهم الذين أورثوا أموال القبط وذهب الباقون إلى
أرض الشام ، وقيل : أنهم بعد أن جاوزوا البحر ذهبوا إلى الشام ولم يدخلوا
مصر في حياة موسى عليه السلام وملكوها زمن سليمان عليه السلام . والمذكور في
التوراه التي بأيدي اليهود اليوم صريح في أنهم بعد أن جاوزوا البحر
توجهوا إلى أرض الشام . (٦)

(١) سورة الشعراء ، آية (٥٧ - ٥٨) .

(٢) سورة الدخان ، من الآية (٢٥ - ٢٨) .

(٣) سورة الشعراء ، آية (٥٩) .

(٤) ، (٥) تفسير الألوسي (١٩ / ٨٣) .

(٦) تفسير الألوسي (١٩ / ٨٣ - ٨٤) .

قلت : وهناك وجه آخر في تفسير هذه الآية * كذلك وأورثناها بنبي
إسرائيل * وهو أن الضمير في قوله * وأورثناها * لا يعود على
الجنات والعيون والكنوز التي في الآية بل أورثهم جنات وعيون وكنوز ومقام
كريم عوضا عنها حلت محل تلك الكنوز . ففي الأرض التي بارك الله فيها
(الأرض المقدسة جنات وعيون وكنوز ومقام كريم بل ربما فاقت
(١)
ما في مصر .

قال سيد قطب رحمه الله (ولا يعرف أن بني اسرائيل عادوا إلى مصر
بعد خروجهم إلى الأرض المقدسة . وورثوا ملك مصر وكنوز فرعون ومقامه لذلك
يقول المفسرون : انهم ورثوا مثل ما كان لفرعون وملئه . فهي وراثه لنوع
ماكانوا فيه من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) (٢)

قلت : المسألة خلافية بين أهل التفسير وسأعود لتوضيح هذا الخلاف
وأرجح ما أميل إليه عند تفسير قوله تعالى * وأورثنا القوم الذين
كانوا يستضعفون مشرق الأرض ومغربها * . الآية . (٣)

وهذا في القرآن له نظائر مثل قوله تعالى : * ولقد خلقنا الانسان
من سُلالة من طين * (وهو آدم عليه السلام) * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * (٤)
فالضمير في * جعلناه * لا يعود على آدم عليه السلام بل يعود على جنس
الإنسان باستثناء آدم عليه السلام .

ونعود إلى تكملة تفسير آيات سورة الشعراء ، وبيان نهاية فرعون
وجنوده . ولما علم فرعون بخروج بني اسرائيل ، أتبعهم بجنوده قاصدا أثرهم
لئلا يفوتوه ، وقد نص الله على وقت لحوقهم وهو وقت الاشراق - كما هو وارد
في أحد الأقوال في معنى مشرقين - لبيان أن هذا الوقت لا تملح فيه المعاصي
وإنما المطلوب فيه التسبيح للواحد الأحد الذي يولج الليل في النهار ويولج
النهار في الليل ، لكن فرعون وقومه من أهل الطغيان ، لا من أهل الاعتبار
فهم لا يفتنون لهذا المعنى وكيف وقد كذبوا نبيهم عليه الصلاة والسلام .

(١) انظر تفسير سورة الأعراف ، د / محمد البهي .

(٢) في ظلال القرآن لمسيد قطب (٦ / ٢١٢) .

(٣) سورة الأعراف (١٣٧) ، انظر ص (٣٢٢ - ٣٣٦) من بحثنا هذا .

(٤) سورة المؤمنون آية (١٢ - ١٣) .

قال تعالى : ﴿ فَاتَّبِعُوهُمْ مَشْرِقِينَ ﴾ (١) أي فلاحق فرعون وجنوده ببني اسرائيل وقت اشراق الشمس فقوله ﴿ فَاتَّبِعُوهُمْ ﴾ أي لحقوهم يقال تبعت القوم فاتبعهم أي تلوتهم فلاحقتهم كأن المعنى فجعلتهم تابعين لى بعدما كنت تابعا لهم مبالغة فى اللحق .

وقال أبو عبيدة : هو من أشرق توجه نحو الشروق كأنجد توجه نحو نجد وأعرق توجه نحو العراق والجمهور على الأول (٢) ﴿ فلما تراء الجمعان ﴾ أي تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما صاحبه والجمعان هما القبط بنو اسرائيل .

﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ (٣) أي بفرعون وجنوده وواقعون في قبضتهم اذ هم من خلفنا والبحر من أمامنا فكيف النجاه ؟ وهذا من بني اسرائيل يدل على ضعف يقينهم ، وتزعزع ايمانهم ، وانهم لم يكونوا راغبين في الخروج مع موسى عليه السلام . إذ غاية ما يصيبهم لو وقعوا في قبضة فرعون الموت والهلاك ، وقد أنزله بأبنائهم مرارا . فأى طعم للحياة بعد تقتيل الأبناء أمام الأعين . وأي ضرر عليهم في الموت لو ماتوا - (في مواجهة فرعون وجنده) - إنهم حينئذ شهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، فأى الحياتين أولى عند فرعون الجبار أم عند العزيز الغفار؟ .

وقد استوحيت ذلك كله من قوله تعالى ﴿ قال أصحاب موسى ﴾ فالإضافة في نظري تعنى أن ما قالوه بعد ما عاينوا من نقم الله المنصبة على المصريين سابقا ما كان يصح أن يعذر عنهم . فان الله الذي أرسل على القبط الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطاعون - (على قول من فسر الرجز بالطاعون) - لهو قادر على انجائهم رغم عدم تصوره لهم بالسبيل العادية ، ولذا رد عليهم موسى عليه السلام ردا فيه شدة وحدة وردع وزجر ﴿ قال كلاً ﴾ أي ارتدعوا عن ذلك القول ولا تعيدوه .

﴿ إن معي ربي سيهدين ﴾ (٤) ولم يقل معي ومعكم لأنهم بقولهم السالف لم يكونوا أهلا للمعية . (٥)

(١) سورة الشعراء ، آية (٦٠) .

(٢) تفسير الألوسي (٨٤/١٩) ، انظر تفسير الرازي (٢٤ / ١٣٨) ، انظر ابن كثير (٣٣٦/٣) ، وانظر تفسير النسفي (١٨٥ / ٣) .

(٣) سورة الشعراء ، آية (٦١) .

(٤) سورة الشعراء ، آية (٦٢) .

(٥) انظر تفسير الألوسي (١٩ / ٨٥) .

وقوله * سيهدين * أي حالا وعاجلا إلى نجاتي ونجاتكم تبعا لي مع أنكم لا تستحقونها. وقوله * فأوحينا إلى موسى * أي في هذه اللحظة الحرجة.

* أن أضرب بعصاك البحر * * أن * مفسرة إن جعل الوحي بمعنى القول . أو مخففة من الثقيلة إن جعل الوحي بمعنى الإلهام . والمراد بقوله * البحر * أي بحر القلزم المعروف حاليا (بالبحر الأحمر) ولعله (خليج السويس) ف ضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر * فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * فانفلق البحر طرقا يابسة جامدة أرضا طبيعية كأنها كذلك من ملايين السنين . والبحر على جانبي هذه الطرق ليطمئن بنو إسرائيل على اجتيازه بأمان ، ولئلا يخالفوا نبيهم عندما يأمرهم باجتيازه وحتى لا يزاحم بعضهم بعضا في الاجتياز فانها ولا شك لحظة رهيبه ، قال الراغب الأصفهاني (الفرق يقارب الفلق لكن الفلق يقال اعتبارا بالانشقاق. والفرق يقال اعتبارا بالانفصال) (٣)

وقال صاحب لسان العرب (والفرق من الشيء اذا انفلق منه ومنه قوله تعالى * فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * أراد فانفلق البحر فصار كالجبال العظام ، وصاروا في قراره) . وقوله * كالطود العظيم * أي كالجبل البالغ الشموخ في عنان السماء فكان كل فرق كالطود العظيم . وإنما فعل الله ذلك ليستوثق بني إسرائيل من هذه الطرق فلا يخافون من الاجتياز فهم أحرص على حياة ، وليغري فرعون وجنوده بملاحقتهم والاطمئنان إلى الظفر بهم حتى يهلكوا عن آخرهم عندما يعود البحر إلى سيرته الأولى وينجو بنو إسرائيل.

ولذا قال تعالى * وَأَزَلَفْنَا لَمَّ الْأَخْرَيْنِ * أي قربنا فرعون وجنوده إلى البحر المحول ليحيط بهم عن آخرهم * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * من بني إسرائيل ، ومن خرج معه من المؤمنين المصريين ، وقد طمأن الله قلب نبيه موسى عليه السلام بما قصه في سورة (طه) * لا تَخْلُفُ دَرَكًا ولا تَخْشَى * أي

(١) انظر تفسير الألوسي (٨٥/١٩) - انظر في ظلال القرآن (٢١١/٦) .

(٢) سورة الشعراء ، آية (٦٣) .

(٣) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣٧٧ .

(٤) لسان العرب (١٠ / ٣٠٠) .

(٥) سورة الشعراء ، آية (٦٤) .

(٦) سورة الشعراء ، آية (٦٥) .

(٧) سورة طه ، آية (٧٧) .

لا تخاف أن يدركك عدوك ولا تخشى أن ينالك الغرق. وانظر إلى هذه المعجزة العظيمة التي كانت كفيلة برد فرعون وجنده عن طغيانهم ومع ذلك لم يستفيدوا منها لأن طرق الحق إلى بصائرهم قد طمست.

هذا وقد أراد موسى عليه السلام بعد مروره قومه أن يضرب البحر بعصاه ليعود كما كان فأمره تعالى أن يتركه ساكناً على هيئته قال تعالى ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ أي ساكناً على هيئته لا تغييره عن هذه الصفة ﴿ إنهم جنود مغرقون ﴾ قال الحافظ ابن كثير رحمه الله بعد تفسيره لقوله تعالى ﴿ واترك البحر رهواً ﴾ إنهم جنود مغرقون ﴿ فلما تركه على هيئته وحالته (١) وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاین ما عاین هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم ، فأحجم ولم يتقدم ، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنده تجلداً وعاملهم معاملة العدا ، وحملته النفس الكافرة ، والسجية الفاجرة ، على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين من يدي الخارجين على طاعتي وبلدي !

وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيئات ويقدم تارة ويحجم تارة. (٢)

ثم انه عزم على اللحوق بموسى وقومه فنزلوا البحر ليلحقوا بهم حتى اذا تم نزولهم جاء أمر الله فانطبق البحر عليهم وداهمت أمواجه العالية وحق عليهم الغرق ، وكانوا من الهالكين ، وحينئذ صاح فرعون يلمس النجاة من شدة الهول الذي أحاط به كما حكاها الله سبحانه . ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال ءامنن أن لا إله إلا الذي ءامنن به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ (٣)

وقوله الذي حكاها الله عنه يحتمل أنه أراد به أن ينجو من الغرق كما تعود من قبل على النجاة من الطوفان ومأثله من الآيات (التي سبق

(١) سورة الدخان ، آية (٢٤) .

(٢) قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير (٢ / ٨٠) .

(٣) سورة يونس ، آية (٩٠) .

تفصيلها) فنجاته حينئذ بالاقرار بما جاء به موسى عليه السلام أولى فـي نظره لتحصيل النجاة له .

ويحتمل أنه قال ذلك ليكون من الناجين في الآخرة عند ربه بعد ما ذهب عنه ملكه وسلطانه فلا يخسر الآخرة كما خسر الدنيا . والاحتمال الثاني أرجح في نظري لقوله تعالى ﴿ وأنا من المسلمين ﴾ وقد بين الله له أن قوله هذا لا ينفعه في هذه اللحظة في العودة إلى الدنيا لأن أجله قد انقضى * ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها * (١) كما أنه لا ينفعه في الآخرة لأنه قاله بعد ما حضره الموت فلم يقله اختيارا بل اضطرارا ، والایمان الاضطراري لا يقبل من صاحبه قال تعالى ﴿ آآآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ والمعنى آتؤمن الآن وفي وقت لا ينفع فيه الايمان وقد فاتك عقلك وقت أن كنت تأتي المعصية ولا تستحي قبل أن يحل عليك الغرق، وكنت اماما للمفسدين في الأرض بتكذيب آياتي ورسلي وما كان يصدر منك من طغيان بلغ إلى حد ادعائك الربوبية . فوضعك ماضيا وحالا يحول بينك وبين رحمتنا فكيف ترجوها بعد أن فوت على نفسك أسبابها .

ثم بين تعالى صنعه بفرعون من بين سائر المغرقين معه ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾ أي نلقي بك بعدوة من الأرض بدنا لا روح فيه ليعلم من عبدوك ومن أضللتهم حقارتك وضعفك ، أو ببدنك سليما لم يأكل منه السمك ولم تحطمه الأمواج ليعلم من رآك أنك أنت بعينك فلا يشك فيما نزل بك وأنك من الهالكين .

(٢) وقيل ببدنك أي بدرعك وتعليل ذلك هو نفس التعليل السابق .

وقد فعل الله به ذلك ليكون آية لمن خلفه قيل هم بنو اسرائيل فانهم تشكوا في قول نبيهم له أنه غرق . فألقى الله به على الشاطئ الذي يليهم ليعاينوا ذلك بأنفسهم فيزول عنهم الشك . أو ﴿ لمن خلفك ﴾ أي لمن بعدك من القرون الآتية لعلهم يرتدعون بما فعل بك . (٣)

(*) سورة المنافقون ، آية (١١) .

(١) فقد حكى القرآن الكريم قوله ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ سورة القصص ، آية (٢٨) ، هو الذي كان يحشرقومه وينادي بهم بقوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ سورة النازعات ، آية (٢٤) .

(٢)، (٣) انظر تفسير النسفي (٢ / ١٧٥) .

أو * لمن خلفك * أي للمصريين الذين لم يخرجوا معك ، ليعلمنوا
نهايتك ولييستشعروا المنة في تجنيبهم ما نزل بك ، وقلبي يميل إلى هذا
الرأي والذي قبله خصوصا إذا عرفنا براعة المصريين في فن التحنيط الذي
يؤدي إلى بقاء الأجساد آلاف السنين كما نشاهده الآن .

قال تعالى * فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية * أي آية
دالة على عقاب الله للمكذبين وشديد انتقامه منهم ، كما قال تعالى
* ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ
(١)
عزيز مقتدر * .

فكان ولا يزال عبرة على مر الليال ، ليعرف الناس جميعا أن الباطل
ليس له قرار ، وأن الملك والعباد دائما لله الواحد القهار .

وكل ما فصلته في هذه النهاية هو الموجز المجمل في سورة الأعراف موضوع
بحثي في قوله تعالى * فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا
(٢)
وكانوا عنها غفلين * .

(١) سورة القمر ، آية (٤١ - ٤٢) .

(٢) سورة الأعراف ، آية (١٣٦) .

(منة الله تعالى على بني اسرائيل بتمكينهم
من الارض المباركة (بلاد الشام او ارض مصر على ما قيل)

قال تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشرق الأرض
ومغربها التي بلرنا فيها وتمت كلمت ربك الحسن على بني إسرائيل ^(١)
بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾

فقوله تعالى ﴿ وأورثنا القوم ﴾ أي ملكناهم الأرض ومكانهم منها
بقدرتنا ، حيث قهرنا لهم أعداءهم باغراق فرعون وجنوده في اليم ، ونصرناهم
على الجبارين في أرض الشام ، الذين طفوا فيها وطمسوا معالم التوحيد ،
الذي أظهره الله في هذه الأرض على لسان ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم
السلام .

والارث والايراث : هو سيرورة الشيء اليك ملكا بعد أن كان مملوكا
لغيرك اما بموت المورث ، أو بالغلبة على المالك ونزع ما بيده ^(٢)

^(٣)
وعنون لبني اسرائيل بكلمة ﴿ القوم ﴾ التي معناها الجماعة
الزائدة عن النفر والرهط التي تعني القلة والكثرة على السواء لبيان
لطفه تعالى بهم حيث غير حالهم من المذلة والمهانة إلى رفعة المكانة .

ولقد كان بنو اسرائيل بمصر كثيري العدد ، ولكن تأثرهم بالمصريين
وعوائدهم أفقدهم مكانتهم ومكن لعدوهم منهم ، ولو كانوا على الجادة
ما نكبوا على يد فرعون بما نكبوا به ، ولو لزموا دين آبائهم لأثروا في
غيرهم ولكانوا هم السادة ولكن اليهود في كل عصر ينكبون بتركهم التوحيد ،
وخروجهم على شرائع الله تعالى ، فتلزمهم المهانة والخسة ، ويستعبدوهم
غيرهم ، ولقد أمهلهم الله كثيرا فكلما نكبوا رحمهم وتاب عليهم ورد لهم
قوتهم ومكن لهم من أعدائهم ، فلما علم الله أنه لاخير فيهم وأنهم لايعتبرون
بماضيهم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله لأنهم كانوا يكفرون
بآيات الله دائما ، ويقتلون النبيين بغير الحق . ولايمكن أن يكون قتل نبي
بحق .

(١) سورة الاعراف ، آية (١٣٧) .

(٢) انظر لسان العرب (٢ / ١٩٩ - ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٣) انظر لسان العرب (١٢ / ٥٠٥) .

والتاريخ يعيد نفسه فهامم الآن يعيشون في أرض فلسطين فسادا . فبدلا من أن يدخلوا في عداد الموحدين ، ويؤمنون بخاتم النبيين ، استبدلوا ذلك بالافساد في الأرض والاجتهاد في الفسوق ، والكفر بسائر الأنبياء ، وقاصمتهم آتيه لا محالة ان عاجلا وان آجلا ، فقد توعدهم الله جل وعلا بذلك حيث قال مخاطبا حبيبه ونبيه ومسلية قلبه مما سوف يحصل لليهود على يد أمته فقال (١) * وإذ تأذن ربك لبيعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب * فهم أشبه بابليس هيهات أن يتوب الله عليهم كأمة ، وان آمن بالاسلام قليل منهم ، قال تعالى * أفتمتعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلم الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون * (٢)

وكلمة القوم - في نظري - توحى بأنهم ما كانوا ليغلبوا بفرعون لو لموا التوحيد . ومعنى * يستضعفون * أي يستذلون ويهانون على يد فرعون بالعذاب الشديد الذي تكرر ذكره مرارا في القرآن ، والذي ذكر الله به اليهود في عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليعلموا أن سلامتهم في اتباع هذا النبي العظيم ، كما كانت سلامتهم في اتباع الكليم ، من قبل صلوات الله وسلامه عليه وعلى نبينا أفضلهما وأتمهما ، ولكنهم لم يعتبروا بذلك * وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم * (٣)

ومن الطريف أنهم لما رغبوا في عبادة الأصنام في عهد نبيهم موسى عليه السلام ، وعظهم بهذه الموعظة التي ستأتيك عند التعرض لهذا الموضوع . (٤)

وقوله تعالى * مشرق الأرض ومغربها التي باركنا فيها * أي مكناهم منها وقد اختلف المفسرون في الأرض التي ورثوها وسألخص هذا الخلاف مرجحا ما غلب على قلبي أنه العوَاب والله الموفق وهو الفتح العليم .

يرى كثير من المفسرين أن المراد بالأرض التي مكنوا من مشارقها ومغاربها هي أرض الشام أرض آبائهم الأولين ابراهيم واسحق ويعقوب

(١) سورة الأعراف ، آية (١٦٧) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٧٥) .

(٣) سورة البقرة ، آية (٤٩) .

(٤) انظر ص (٣٤٤ - ٣٤٥) من بحثنا هذا .

(١) لماروي ذلك عن الحسن وقتاده. وزيد بن أسلم .

ويرى بعضهم أن المراد بذلك أرض الشام وأرض مصر كما نقل الألويسي ذلك عن محيي السنة البغوي رحمه الله .

وهناك رأي ثالث : وهو أن المراد بتلك الأرض هي أرض مصر وإلى ذلك ذهب الجبائي . ورواه أبو الشيخ عن الليث بن سعد . (٢)

والذين قالوا بهذا الرأي الأخير ومنهم الواحدي كما أسلفت استدلسوا بقوله تعالى ﴿ كم تركوا من جنّات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورشلها قوماً آخرين ﴾ (٤) فالضمير يعود على الجنات والعيون والزروع والمقام الكريم الذي كان لقوم فرعون أورثه الله لبني اسرائيل . (٣)

قال الواحدي في تفسير قوله تعالى ﴿ كذلك وأورشلها بني اسرائيل ﴾ (٥) ان الله تعالى رد بني اسرائيل إلى مصر بعدما أغرق فرعون وقومه فأعطاهم جميع ماكان لقوم فرعون من الأموال والعقار والمساكن ، وعلى هذا القول يكون معنى الآية (أورثنا المستضعفين أرض مستضعفيهم) (٦) (٧)

والذين قالوا بارث أرض مصر مع أرض الشام استشعروا أن بني اسرائيل لم يعرف أنهم دخلوا مصر بعد أن خرجوا منها ، لأنهم استقروا بسيناء ، وحال البحر بينهم وبين الرجوع ، كما أن الرجوع اليها لم يكن مقصودا لموسى عليه السلام ، بل كان قصده كما صرح به القرآن الكريم دخول الأرض المقدسة ، التي كتبها الله لهم مأواً لهم مسلمين موحدين ، فان حادوا فلا بقاء لهم فيها قال تعالى ﴿ يُقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ (٨)

(١) انظر تفسير السورة التي يذكر فيها الأعراف من تفسير القرآن العظيم للامام الحافظ الرازي دراسة تحقيق الزميل الشيخ حمد بن أحمد بن أبي بكر (٤٦١/٢، ٤٦٢)

(٢) انظر الألويسي (٣٧ / ٩) .

(٣) انظر ص ٣٢٥ من بحثنا هذا .

(٤) سورة الدخان ، آية (٢٥ - ٢٨) .

(٥) سورة الشعراء ، آية (٥٩) .

(٦) تفسير الألويسي (١٩ / ٨٣) .

(٧) تفسير الألويسي (٩ / ٣٧) .

(٨) سورة المائدة ، آية (٢١) .

ولذا حاول هذا البعض أن يفسروا إرث بني اسرائيل بتفسير يمكن قبوله فقالوا المراد : أن مصر صارت تبعا لملك بني اسرائيل بعد أن استقروا في الشام في عهد يوشع بن نون .^(١) وأنها كانت تابعة لملك داود و سليمان عليهما السلام وكلا التعليلين ضعيف .

أما الأول : فلأن المصريين كتبوا تاريخهم في هذا الحقب وما بعدهما وما قبلها فلم يوجد فيه تبعتهم لبني اسرائيل لا في عهد يوشع بن نون ولا في عهد سليمان بن داود . وعلى فرض حصول التعليل الثاني فكان ذلك لأحفادهم ونص الآية التي بين أيدينا * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون * وبنو اسرائيل وان استضعفوا قبل داود وسليمان عليهما السلام إلا أن السياق في سورة الأعراف يدل على استضعاف فرعون لهم لا الجباريين بأرض الشام بعد يوشع بن نون عليه السلام .

والذي أرجحه : أن المراد بالأرض التي أورثوا مشارقها ومغاريبها (أرض الشام) لا غير والذي يؤيد ما ذهب إليه ما يلي :

أولا : لقوله تعالى في نفس الآية * التي بئركنا فيها * ولقوله تعالى في سورة الأنبياء في قصة ابراهيم * ونجيناه ووطا إلى الأرض التي بئركنا فيها للعالمين *^(٢) ولقوله تعالى * سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بئركنا حوله *^(٣) فمجموع هذه الآيات يقضي بأن تلك الصفة التي في آية الأعراف هي لأرض الشام لا لأرض مصر ، وإذا شاركت أرض مصر أرض الشام في الخصب والنماء وجريان الأنهار فإنها لم تشاركها في كونها مساكن لكثير من الأنبياء ولم تشاركها في ضم بيت المقدس كما هو الحال بأرض الشام .^(٤)

ثانيا : لقوله تعالى في هذه الآية نفسها * ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون * فما معنى إرث أرض مدمرة ، تعاقب عليها

(١) يوشع بن نون . هو الخليل يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم عليه السلام وهو فتى موسى عليه السلام المذكور في قوله تعالى (وإذ قال موسى لفتهاه) وقوله (فلما جاوزا قال لفتهاه) واختلف في نبوته ، انظر قصص الانبياء لابن كثير ص ١٨٦ تحقيق عبد القادر احمد عطا .

(٢) سورة الأنبياء ، آيه (٧١) .

(٣) سورة الإسراء ، آيه (١) .

(٤) أخرج ابن عساكر عن زهرة بن ربيعة قال : (سمعت أنه لم يبعث نبي إلا من الشام فان لم يكن منها أسرى به ، إليها) كما فعل الله بخاتم النبيين

الزمان العذاب بتكذيبهم لنبيهم موسى عليه السلام . فلا شك أن القول بتفسير الأرض (بمصر) بعيد فعليه فالقول الأول القائل بأن قوله ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشرق الأرض ومغربها ﴾ المراد بها أرض الشام .

وقد ملت إلى ما رجحه الإمام الألوسي وغيره فـ

رحمته الله: (وأقول قد يقال : المراد بالأرض هنا وفيما تقدم من قوله سبحانه : ﴿ عس ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾ الأرض المقدسة التي طلب موسى عليه السلام من فرعون بني إسرائيل ليذهب بهم إليها ، فإنها موطن آبائهم فيكون موسى عليه السلام قد وعدهم هلاك عدوهم المانع لهم من الذهاب إليها ، وجعل الله تعالى إياهم خلفاء فيها بعد آبائهم وأسلافهم ، أو بعد من هي في يده إذ ذاك من العمالقة ، ثم أخبر سبحانه هنا أن الوعد قد نجز ، وقد أهلكنا أعداء أولئك الموعديين ، وأورثناهم الأرض التي منعوهم عنها ، ومكانهم فيها وفي حصول بغية موسى عليه السلام ، وما ألفت توريث الأبناء مساكن الآباء) .^(١)
^(٢)

وقوله ﴿ وأورثنا ﴾ أورث يتعدى إلى مفعولين أولهما : القوم ، وثانيهما (مشارق الأرض) . وعبر بـ ﴿ مشرق الأرض ومغربها ﴾ ليبين تمكينه تعالى لبني إسرائيل في جميع نواحيها ، وذكر الجهات الأصلية يستلزم الجهات الفرعية ، وقد اختلف المفسرون في حدود الشام وذكرها أحاديث في فضل الشام ومن أفضل ما اطلعت عليه كتاب ﴿ ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام ﴾ تأليف الإمام أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام^(٤) .

ومعنى ﴿ التي باركنا فيها ﴾ أي باركنا بكثرة خروج الأنبياء منها وبكثرة الخصب وجريان الأنهار والبركة فيهما مادية ومعنوية .

وقوله ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢٩) .

(٢) تفسير الألوسي (٢٧ / ٩) .

(٣) حدد الجغرافيون حدود الشام بأنها يحدها من الشرق نهر الفرات ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط .

(٤) رسالة صغيرة طبعت حديثاً بتحقيق محمد شكور بن محمود الحاجي المياديني - بيروت

مكتبة المنار . ترجمة : الإمام العلامة شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن

عبد السلام المغربي أصلاً ، الدمشقي مولداً ، المصري داراً ووفاءً المعروف بـ (العز بن

عبد السلام) ولد سنة (٥٧٧هـ) ، برع في الفقه على مذهب الإمام الشافعي وله مؤلفات

عديدة ، وتوفي رحمه الله في العاشر من جمادى الأولى سنة ستين وستمائة من الهجرة

ودفن في مصر ، انظر الأعلام للزركلي (٢١ / ٤)

يعني تَفَضُّله جل وعلا عليهم واكرامه لهم بردهم إلى أرض آبائهم واهلاك عدوهم .

(١) قال الألوسي عند تفسيره لهذه الآية : * وتمت كلمت ربك الحسنى... * أي مضت عليهم واستمرت من قولهم : مضى على الأمر إذا استمر ، والمراد من الكلمة وعده. تعالى لهم بالنصر والتمكين على لسان نبيه عليه السلام وهو قوله * عسى ربكم أن يهلك عدوكم .. * الآية .

وذهب غير واحد إلى أنه الوعد الذي يؤذن به قوله سبحانه * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * قلت : والفرق بين الآيتين هو سبق الوعد لهم بجعلهم أئمة والتمكين لهم في الأرض والانتقام من فرعون بسببهم قبل ولادة موسى عليه السلام وبعثه، وعلى آية الأعراف فالوعد حاصل لهم من حين شكواهم لموسى ما يلقون من فرعون كما سبق تفسيره . ولا مانع من سبق الوعد لهم بذلك قبل ظهور سيدنا موسى عليه السلام ، فيكون قوله تعالى * عسى ربكم أن يهلك عدوكم * هو تكراراً لهذا الوعد .

وقيل المراد بها : علمه تعالى الأزلي ، والمعنى : مضى واستمر عليهم ما كان مقدراً من اهلاك عدوهم وتوريثهم الأرض ، و * الحسنى * تأتي الأحسن صفة للكلمة ووصفت بذلك لما فيها من الوعد بما يحبون ويستحسنون والتفت من التكلم إلى الخطاب في قوله سبحانه * ربك * على ما قال الطيبي لأن ما قبله من القصص كان غير معلوم له صلى الله عليه وآله وسلم ، وأما كونه جل شأنه منجزاً لما وعد . ومجرباً لما قضى وقدر فهو معلوم له عليه الصلاة والسلام (.....) .

وقوله * بما صبروا * أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه وحسب بهذا حاشا على الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله تعالى إليه، ومن قابله بالصبر ضمن الله تعالى له الفرج .

وقوله * ودمرنا * أي خربنا وأهلكنا .

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢٩) .

(٢) سورة القصص ، آية (٥) .

(٣) انظر ص ٤٤٨ - ٤٤٩ من بحثنا هذا .

* ما كان يصنع فرعون وقومه * في أرض مصر من العمـارات
والقصور ، أي : دمرنا الذي كان يصنعه فرعون وقومه .

* وما كانوا يعرشون * من الجنات أو ماكانوا يرفعونه من البنيان
(١)
كصرح هامان .

القسم الثانى

الصراع بين موسى عليه السلام وبنى
اسرائيل (١)

وفيه مباحث

المبحث الاول - جحود بنى اسرائيل لنعم الله وطلبهم من نبيهم أن يجعل لهم صنما يعبدونه من دون

الله .

“ الثانى - تهيفة الله نبيه موسى عليه السلام لتلقى التوراة

“ الثالث - طلب موسى عليه السلام من ربه الرؤية .

“ الرابع - اختلاف أهل السنة والمعتزلة فى وقوع رؤية الله .

“ الخامس - تسلية موسى عليه السلام بعد أن منع من الرؤية وذكر بعض نعم الله عليه .

“ السادس - تحذير بنى اسرائيل بتجنب مسالك الهالكين والضالين .

“ السابع - عبادة بنى اسرائيل للعجل فى غيبة موسى عليه السلام وعدم انتفاعهم بما وعظهم

الله به .

“ الثامن - ندم قوم موسى على عبادتهم العجل .

“ التاسع - توبيخ موسى (عليه السلام) لقومه على عبادتهم العجل .

“ العاشر - لوم موسى (عليه السلام) لاختيه هارون ودفاع هارون عن نفسه .

“ الحادى عشر - اعتذار موسى لربه عما بدر منه لاختيه .

“ الثانى عشر - نعمة الله جل وعلا على من لم يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل وتوبته على المعتذرين

“ الثالث عشر - حرص موسى عليه السلام على الألواح وشدة تعلقه بها .

“ الرابع عشر - منة الله جل وعلا على صلحاء بنى اسرائيل .

“ الخامس عشر - ثناء الله تعالى على صلحاء بنى اسرائيل .

“ السادس عشر - نعم الله على بنى اسرائيل فى التيه وكفرانهم تلك النعم .

“ السابع عشر - مخالفة أخرى شنعاء من مخالقات بنى اسرائيل .

“ الثامن عشر - جناية أخرى من جنایات بنى اسرائيل فى عهد موسى عليه السلام .

(١) يرجع تسميتهم ببنى اسرائيل إلى الأصل الذى ينسبون اليه وهو سيدنا يعقوب عليه السلام الملقب باسرائيل حفيد ابراهيم عليه السلام . واسرائيل : كلمة عبرانية مركبة من (اسرا) بمعنى عبدا وصفوة ، ومن (ايل) وهو الله فىكون معنى الكلمة عبد الله ، أو صفوة الله . انظر كتاب بنو اسرائيل فى القرآن والسنة ، د - محمد سيد طنطاوى (١ - ٦) ط الاولى سنة ١٣٨٨ هـ توزيع دار حراء القاهرة .

(المبحث الاول)

(جحود بني اسرائيل لنعم الله)

قال تعالى * وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون
على أصنام لهم قالوا يلموسى اجعل لنا إلهًا كما لهم إلهة قال إنكم
قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وبطل ما كانوا يعملون . قال أغير
الله أبغيكم إلهًا و هو فضلكم على العالمين. وإذ أنجيناكم من
الفرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي
ذلكم بلاء من ربكم عظيم * (١)

قوله * وجاوزنا * أي قطعنا ببني اسرائيل البحر والنون في قوله
* جاوزنا * نون العظمة * ببني إسرائيل البحر * المراد به بحر
القلزم المعروف حاليا بالبحر الأحمر عند (خليج السويس) .

وفي الآية تذكير لبني اسرائيل بنعم الله تعالى عليهم ، بعد أن أغرق
عدوهم ونجاهم من أعدائهم ، وكيف أنه سيرهم في البحر بعد ما صار يبسا ،
فماذا قابل بنو اسرائيل هذه النعم العظيمة ؟

وقوله تعالى * فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم * الاعتكاف
والعكوف : الاقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له . ومعنى الآية
فبعد أن قطع بنو اسرائيل البحر مع نبيهم في سلامة واطمئنان وأمان مروا على
قوم يلازمون ويواظبون على تعظيم وعبادة أصنام صنعوها بأيديهم ، ونصبوها
إلهة لهم يعبدونها من دون الله ، * قالوا * أي عندما شاهد ذلك
بنو اسرائيل السائرين مع موسى عليه السلام * يلموسى اجعل لنا إلهًا كما
لهم إلهة * هذه الآية الكريمة تصور جحود بني اسرائيل لنعم الله
ونسيانهم لما كانوا فيه من ذل واستعباد وكيف أنهم فضلوا عبادة الأصنام على
عبادة خالقهم جل وعلا .

فقوله * اجعل لنا إلهًا * أي اصنع لنا صنما نتخذه إلهًا
* كما لهم إلهة * الكاف متعلقة بمحذوف وقع صفة لإلهها و (ما)
موصولة و * لهم * صلتها و * إلهة * بدل من الضمير المستتر فيه .

(١) سورة الأعراف ، آيات (١٣٨ الى ١٤١) .

(٢) انظر المفردات للراغب الأصفهاني ص ٣٤٢ - ٣٤٣ .

والتقدير : اجعل لنا إلهًا كما كنا كالذي استقر هو لهم . (١)

وقوله * قال إنكم قوم تجهلون * وللأوسي كلام نفيس في تفسير هذه الآية ، قال رحمه الله : (تعجب عليه السلام من قولهم هذا بعدما شاهدوه من الآية الكبرى ، والبينة العظمى فوصفهم بالجهل على أتم وجه حيث لم يذكر له متعلقًا ومفعولًا لتنزيله منزلة اللازم ، أو لأن حذفه يدل على عمومته أي تجهلون كل شيء فيدخل فيه الجهل بالربوبية بالطريق الأولى ، وأكد ذلك بـ(إن) ، وتوسيط قوم ، وجعل ما هو المقصود بالإخبار وصفًا له) (٢)

ولم يكتف نبيهم (عليه السلام) بوصفهم بالجهل المطلق بل أخذ يبين لهم عاقبة من تمنوا أن تكون لهم آلهة مثل آلهتهم ، فقال لهم عليه السلام - لعل من به رشد منهم أن يثوب إلى رشده * إن هؤلاء متبر ما هم فيـه وباطل ما كانوا يعملون * .

وإنما جهل بني اسرائيل أولاً قبل أن يبين لهم عاقبة الأصنام وعابديها ، ليشعرهم بشديد غفلتهم عن أنعم عليهم بجلائل النعم التي منها :

تجاوزهم البحر وتحويله إلى طريق يبس وتأمينهم من الغرق كما فعل بعدوهم (كما أسلفت) ولو استصحبوا ذكر هذه النعمة لما كفوا عن ذكر الله وشكره ، ولما اشتت أنفسم هذا الانحطاط المخزي أن يعبدوا الأصنام التي لا تشعر بعبادتهم ، ولا تدبر من أمرهم شيئاً ، ويكفرون بالرحمن الذي خلـع عنهم ثوب الذل ، بتخليصهم من يد فرعون واهلاكه ، وباكرامهم بموسى عليه السلام ، وبارجاعهم إلى التوحيد دين آبائهم الكرام يعقوب وأسحاق وإبراهيم . والواقع أن بني اسرائيل قد انسلخوا من دينهم في مصر تماماً فيما أظن . وتعودوا عبادة ما يعبده المصريون من تأليه الهياكل والحيوانات كما عرف في تاريخهم القديم ، وما الذل الذي نزل عليهم من فرعون وقومه إلا نعمة منه جل وعلا لانحرافهم عن دين آبائهم ، وما طلب موسى من فرعون أن يرسل معه بنو اسرائيل إلا ليصلح فساد قلوبهم وليردهم إلى الصواب . فلا عجب إذن أن تراهم يطلبون من نبيهم هذا الطلب . وقد مر بك قوله تعالى

(١) انظر تفسير الأوسى (٩ / ٤٠) .

(٢) تفسير الأوسى (٩ / ٤١) .

* قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا * وهذا القول^(١) منهم يدل على تمللمهم ، وعدم صبرهم مع موسى عليه السلام حتى يأتي موعد هلاك عدوهم ، فانهم يعلمون تحقق نصره الله لأنبيائه ، وقد رأوا منها على يد موسى بانقلاب العصاحية ، وبايمان السحرة ، واستعلائهم على تهديد فرعون ما كان يكفيهم لو كانوا طلاب حق وأهل دين . وسترهم فيما سيأتي من الآيات يقعون في عبادة عجل مصنوع ، صنع لهم السامري من حليهم التي كانوا يلبسونها ، كما سيمر بك تفصيله ، مما يدل على أن هذا الجيل كان غاية في الفساد والاستعصاء والتمرد ، بدليل ما جاء في قصة البقرة من قولهم لنبيهم لما أخبرهم بأن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة * قالوا آتخذنا هزوا * وهذا^(٢) يدل على غاية جهلهم بالنبوة ، إذ الأنبياء يستحيل أن يصدر عنهم الهزء البتة ، لانه نوع من الجهل والسفاهة وهم عن ذلك وغيره معصومون .

وقوله تعالى على لسانهم في آخر القصة * قالوا العن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون * فهذا^(٣) اتهام صريح منهم لنبيهم عليه السلام بأن ما أخبرهم به ليس بحق ، مع أنه قوله عز وجل في كل مرة . إذ هم لما سألوا عن الماهية قال موسى عليه السلام لهم : * إنه يقول إنها بقرة لا فإرض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون * .^(٤)

ولما سألوا عن اللون قال الله لهم * إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * ، ولما تحيروا في ذوات اللون الواحد قال الله لهم * إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لاشية فيها * ولو^(٥) ذبحوا من أول الأمر أي بقرة لأدوا ما أمروا به ، ولكن حياتهم في مصر حولت قلوبهم عن الحق وطباعهم عن الخير .

وبدليل اعتذارهم عن دخول الأرض المقدسة حتى يخرج من فيها من الجبارين ، لأن طباعهم تأبى الجهاد ، وقد ألفوا الخنوع في مصر إلى حد يشبه الاستعباد حتى قال نبيهم موسى عليه السلام لربه * قال رب اني لأأملك^(٦) إلا نفسي وأخي * .^(٧)

- (١) سورة الأعراف ، آية (١٢٩) . (٢) سورة البقرة ، آية (٦٧) .
(٣) سورة البقرة ، آية (٧١) . (٤) سورة البقرة ، آية (٦٨) .
(٥) سورة البقرة ، آية (٦٩) . (٦) سورة البقرة ، آية (٧١) .
(٧) سورة المائدة ، آية (٢٥) .

فقوم هذا حالهم لا يستغرب منهم هذا الطلب لأنهم كما قال نبيهم قوم
يجهلون أي متصفون بالجهل بعامة ، وهم لا ينفكون عن هذا الوصف .

قال تعالى ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم إلهة قال
(١)
إنكم قوم تجهلون ﴾ .

فقوله ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه ﴾ أي مدمر ومهلك ما هم فيه ،
بسبب انحرافهم عن الفطرة ، واتباعهم لعبادة آلهة هي عاجزة عن نفع ذاتها
فكيف يأملون في نفعها ؟ .

(٢)
﴿ وباطل ﴾ أي زاهق ومضمحل بالكلية .

﴿ ماكانوا يعملون ﴾ من الاشراك بالله سبحانه وتعالى ، وعبادتهم
لتلك الأصنام التي طلبوا عبادتها ، ثم لم يكتف موسى عليه السلام بتذكيرهم
بهلاك وبطلان ما فيه هؤلاء القوم بل ذكرهم بنعم الله عليهم مما يستدعي
الانكار عليهم غاية الانكار في طلبهم أن يكون لهم إله كما لهؤلاء القوم
الذين مروا عليهم آلهة .

ولذا ساق موسى عليه السلام القول لهم بأسلوب الانكار الشديد على هذا
الطلب السخيف ﴿ قال أغير الله أبغىكم إلهًا ﴾ أي أطلب لكم إلهًا
سواه ، وكيف يكون ذلك مني وأنا رسوله أرسلني بدينه الحق والجهاد على
توحيده ؟ . وكيف تطلبون أنتم إلهًا غيره وهو فضلكم على عالمي زمانكم
بارسالي اليكم ؟ أو فضلكم على كثير من العالمين بأن جعل آباءكم أبناء
أنبياء .

قال الألوسي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ قال أغير الله أبغىكم إلهًا ﴾
(٣)
(قيل : هذا هو الجواب وما تقدمه مقدمة وتمهيد له ، ولعله لذلك أعيد
لفظ قال .

(٤)
وقال شيخ الاسلام : هو شروع في بيان شؤون الله تعالى الموجبة لتخصيص
العبادة له سبحانه ، بعد بيان أن ما طلبوا عبادته مما لا يمكن طلبه أصلا

(١) سورة الأعراف ، آية (١٢٨) .

(٢) انظر الألوسي (٩ / ٤١) .

(٣) أي الجواب على سؤالهم ﴿ اجعل لنا إلهًا كما لهم إلهة ﴾

(٤) المقصود به الشيخ العلامة محمد بن محمد العمادى (أبو السعود) المتوفى

سنة ٩٥١هـ رحمه الله .

لكونه هالكا باطلا أصلا ، ولذلك وسط بينهما * قال * مع كون كل منهما
(١)
كلام موسى عليه السلام) .

والمعنى : آمن غير المستحق للعبادة أطلب لكم معبودا ؟

وقوله * وهو فضلكم على العالمين * أي وهو فضلكم على جميع العالمين
بتلك الآيات التي ظهرت لكم على يد نبيكم موسى عليه السلام ، فانها ولاشك
من خصائصهم ، ومتعلقة بهم ، فالترفضيل على كافة العالمين بهذا القيد
لا مطلقا ، حتى لا يلزم تفضيلهم على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم
(٢)
فتعارض هذه الآية * كنتم خير أمة أخرجت للناس * .

والمراد بـ * العالمين * عالم الانس ، والجن تبع لهم باعتبار
الفريقين أهل التكليف ، قال الألوسي : (والجملة حالية مقررة لوجه الإنكار
أي والحال أنه تعالى خص التفضيل والاختصاص بأن قصدوا أن يشركوا به أخس
(٣)
مخلوقاته . وهذا الاختصاص مأخوذ من معنى الكلام والافليس فيه ما يفيد ذلك) .

وقوله تعالى * واذا أنجيناكم من آل فرعون * يحتمل أنه من
كلام الله عز وجل وأنه تعالى تتم به حجة موسى عليه السلام . وعلى قراءة
ابن عامر * واذا أنجاكم من آل فرعون * يكون ذلك من كلام موسى
وأنه قال لهم : اذكروا صنع ربكم بكم وهو انجاؤهم اياكم من آل فرعون ، في
هذا الوقت الذي حصل فيه هذا الصنيع ، فيكون الظرف وقتا للمفعول المحذوف
وهو الصنيع . أو اذكروا نفس الوقت الذي أنجاكم فيه ربكم ، وذكر الوقت
يستلزم ذكر ما فيه .

ويرى البعض أن قوله تعالى * واذا أنجيناكم من آل فرعون * من
كلام موسى عليه السلام حتى على هذه القراءة وأن النون في * أنجيناكم * له
ولهارون عليهما السلام . والمعنى حصل الانجاء لكم بسببنا ، وإن كنتم
لا أقوى ذلك .

* من آل فرعون * وعبر بآل فرعون لأنهم كانوا أدواته في سومتهم
سوء العذاب وتقتيل الأبناء ، فالنتيجة منهم نتيجة منه ، ومعنى

(١) تفسير الألوسي (٩ / ٤١) .

(٢) سورة آل عمران ، آية (١١٠) .

(٣) تفسير الألوسي (٩ / ٤٢) .

* يسومونكم سوء العذاب * أي يحلون وينزلون بكم أشده ، والجملـة إما حالية ، وإما استثنائية فعلى كونها حالية : فهي حال من ضمير بنـي إسرائيل . والمعنى : أنجيناكم حال نزول العذاب عليكم فلا يصح أن تعولوا على غيرنا ، ويجوز أن تكون حالا من آل فرعون أي أنجيناكم منهم حال تعذيبهم لكم والمعنيان متقاربان .

وإما على كونها استثنافا : فكأن سائلا سأل ماذا فعل بهم آل فرعون ؟ فجاءت هذه الجملة وما بعدها جوابا لهذا السؤال .

وأرجح كونها حالية لضمير الخطاب في يسومونكم ولو كانت استثنافا لقال (يسومونهم) لتوافق مع السؤال الذي تقديره وماذا فعلوا بهم؟ وقوله تعالى * يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم * تفصيل للاجمال في * يسومونكم سوء العذاب * وان أمر شيء على النفس أن يقتل ولدك أمامك وأنت عاجز عن الدفاع عنه ، وأن تستحيا امرأتك لتخدم غيرك رغما عنك والمعنى ان الله الذي خلصكم من ذلك كله هو الحقيق بالعبادة ، والتأليه لا تلك الأصنام العاجزة . فكيف نسيتم صنعه بكم؟

والاشارة في قوله * وفي ذلكم * راجعة الى العذاب ، والخطاب لبني إسرائيل والمعنى : فذلكم العذاب الذي شهدتم أحداثه امتحان عظيم حل بكم ، فمن خلصكم منه أولى بأن يعبد ويجوز أن ترجع الاشارة إلى الانجاء وهو الأقوى والأقرب لقوله تعالى * بلاء من ربكم * والمعنى وفي إنجائكم من هذا العذاب اختبار عظيم لكم من ربكم ليظهر به شكركم من كفركم ، فهل يليق بكم وأنتم حديثو عهد بهذه النعم أن تطلبوا من نبيكم أن يجيز لكم الكفر بمن هذا شأنه معكم ؟ وهل يجوز أن تعكفوا على عبادة ذلك الإله المقترح منكم؟ إن ذلك لخزي عظيم لكم في الدنيا وهوان شديد لكم في الآخرة ان لم تتوبوا وتستشعروا قبح طلبكم .

(تهيئة الله نبيه موسى عليه السلام لتلقي التوراة)

قال تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتمم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ (١)

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى عليه السلام التي أرسل لها، انتهت مرحلة تخليص بني اسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب من فرعون وملئه، وانقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة، في طريقهم إلى الأرض المقدسة ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى، . . . مهمة الخلافة في الأرض والقيام بدين الله ولقد رأينا في الآيات السابقة كيف اشأبت نفوسهم إلى الوثنية والشرك بمجرد أن رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم، وتخلخت عقيدة التوحيد التي جاءهم بها موسى عليه السلام في قلوبهم، ولم يعض إلا القليل على نجاتهم من ذل فرعون، وتحويل البحر لهم إلى طريق يبس، واغراق عدوهم أمام أعينهم لما أصر على ملاحقتهم، . . . فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم واعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم، ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله تعالى لعبده موسى عليه السلام ليلقاه ويتلقى عنه وكانت هذه المواعدة بمثابة التهيئة لموسى عليه السلام استعدادا لذلك الموقف العظيم. (٢)

فقوله تعالى ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ﴾ بمعنى وعدنا وبذلك قرأ أبو عمرو ويعقوب ويجوز أن تكون الصيغة على بابها بناء على تنزيل قبول موسى عليه السلام منزلة الوعد، ويجوز أن يكون ﴿ وواعدنا ﴾ من باب الموافاة وليس من الوعد . قال الألوسي رحمه الله : (روى أن موسى عليه السلام وعد بني اسرائيل وهم بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب فيه بيان ما يأتون وما يذرون

فلما هلك فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب، فأمره أن يصوم

(١) سورة الأعراف، آية (١٤٢) .

(٢) بتصرف من (في ظلال القرآن) للسيد قطب (٩ / ٦٣١) .

(٣) انظر تفسير الألوسي (١ / ٢٥٧) ، (٩ / ٤٣) .

ثلاثين يوماً وهو شهر ذي القعدة ، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فمه فتسوك فقالت الملائكة كنا نשמ من فيك رائحة المسك فافسدته بالسواك . فأمره الله أن يزيد عشر أيام من ذي الحجة).

(١) ثم قال رحمه الله . (أخرج الديلمي عن ابن عباس يرفعه لما أتى موسى عليه السلام ربه عز وجل ، وأراد أن يكلمه بعد الثلاثين وقد صام ليلتهن ونهارهن ، كره أن يكلم ربه سبحانه وريح فمه ريح فم المائم ، فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه لم أفطرت ؟ - وهو أعلم بالذي كان - قال أي رب كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح ، قال : أوما علمت يا موسى أن ريح فم المائم عندي أطيب من ريح المسك ؟ ارجع فعم عشرة أيام ثم ائتني ففعل - موسى عليه السلام الذي أمره ربه وذلك قوله سبحانه * وأتممنا بها عشر * (٢).

وعبر جل وعلا بالليالي في قوله * ثلاثين ليلة * لأن الليالي غرر الشهور ، أو إشارة إلى مواصلة الصوم ليلاً ونهاراً ، ولو قال ثلاثين يوماً لأمكن أن يعتقد أنه كان يفطر بالليل فلما نص على الليالي فهم من قوة الكلام أنه واصل المدة المشار إليها في الآية أربعين ليلة بأيامها . (٣)

قلت : وإلى ذلك أشارت رواية الديلمي (وقد صام ليلتهن ونهارهن) ولا يستغرب ذلك من موسى عليه السلام ، وليس لقاتل أن يقول ان الامتناع عن الأكل والشرب هذه المدة قد تؤدي الى هلاك الانسان ، أو الى اضعاف قواه ، بحيث لا يكون مستعداً لتلقي شيء أو فهمه ، فان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أعطوا من القوة الروحية ما يمكنهم من ذلك وأكثر منه ، وهذا يدلنا على قوة موسى عليه السلام وعظيم معرفته بربه حيث استحيا أن يلقي ربه بجوف فيه أثر الطعام ، لعلمه أن الطعام وإن كان فيه قوة البدن ، إلا أنه حجاب كثيف ، يعطل الروح عما تريد الوصول إليه لو تخففت من الطعام بتركه بعض الوقت ولذلك كان نبي الله داود عليه السلام يعوم يوماً ويفطر يوماً وقد سماه

-
- (١) انظر الفردوس بمأثور الخطاب لأبي شجاع شيرويه الديلمي تحقيق السعيد بن بسيوني زغلول (٤٢٧/٣) ذكره بنحوه مع اختلاف في بعض الألفاظ ، ط (١) دار الكتب العلمية سنة ١٤٠٦ هـ .
- (٢) تفسير الألوسي (٤٣/٩) - انظر تفسير ابن أبي حاتم لسورة الأعراف تحقيق الطالب الزميل حمد بن أحمد بن أبي بكر (٤٧٠/٢) وقد حقق اسناد الحديث (وقال اسناد حسن) وانظر الدر المنثور (٣/٥٣٥ - ٥٣٦) .
- (٣) تفسير الألوسي (١ / ٢٥٧) .

الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الصيام ، ولا يصح أن نقيس أحوالنا بأحوال الأنبياء فيما هو من خصائصهم لأن ذلك تجاوز واعتداء يهوديان السى
صرف العبد في النهاية عن الطاعة أو الحاق أضرار بالبدن لا يطلبها الشرع ،
ولذا نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الوصال ، فلما قال
أصحابه صلى الله عليه وآله وسلم إنك تواصل قال لهم (وأيكم مثلي؟ إنني
أبيت يطعمني ربي ويسقيني) وأخرج الإمام مسلم أيضا عن ابن عمر أن رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن الوصال قالوا إنك تواصل . قال (إنني
لست كهيتكم . إنني أطعم وأسقى) فاني بهذا الحال مستغن عما لا تستغنون
عنه ولا تقدرتون في الاستمرار عليه ، وقد ضعف الألويسي القول بأن وعد موسى كان
لقيام الليل .

فقال رحمه الله : والقول بأن ذكر الليلة - كان للاشعار بأن وعد موسى
عليه السلام كان بقيام الليل ليس بشيء لأن المروي أن المأمور به الصيام
لا القيام وقوله * وأتممتها بعشر * تفصيل لما أجمل في سورة البقرة
من قوله تعالى * وإذ أعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من
بعده وأنتم ظالمون * . وإنما أمره الله سبحانه أن يتم الثلاثين بعشر
ليتخلص مما تناوله من نبات الأرض ليدفع به خلوف فمه حتى لا يلقي ربه بفم
متغير ، فأخبره الله بأن حاله التي كان عليها
أولاً هي الأحب إلى الله عز وجل ، ولذا أمره أن يتمها بعشر لتعود إليه
الحالة أتم ما كانت عند صيام الثلاثين ، وغني عن الايضاح ما لخلوف فم
الصائم من مزية عند الله عز وجل ففي الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري
عن أبي هريرة رضي الله عنه (والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب
من ريح المسك) . فان قيل : ما معنى * فتم ميقت ربه أربعين ليلة *
مع أن المتبادر للسامع من ضم العشرة إلى الثلاثين هو أن الميقات كان
أربعين ليلة ؟

والجواب على ذلك : لازالة التوهم من أن تلك العشر ليست من الثلاثين

(١)، (٢) صحيح مسلم تحقيق وتصحيح وتعليق محمد فؤاد عبدالباقي (٢/٧٧٤) ،

ط دار احياء التراث العربي . بيروت .

(٣) تفسير الألويسي (١ / ٢٥٧) .

(٤) سورة البقرة ، آية (٥١) .

(٥) صحيح البخاري مع شرح عمدة القارئ للشيخ الإمام العلامة

ابن محمد محمود بن أحمد العيني (١٠ / ٢٧٧) دار احيار التراث العربي

بيروت .

لأنه يحتمل أتمناها بعشر من الثلاثين . كأنه كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الإيهام ، هذا ما نقل عن المفسرين ، والذي أراه والله (١) أعلم أن المقصود من ذكر هذا المعلوم هو الإشادة بموسى عليه السلام وبطاعته إذ من صام ثلاثين يوماً فقد بلغ به الجهد ، فإذا أمر بفعل (عشر) بعد هذا الجهد فامتثل وفعل فذا يدل على شدة يقينه وأن رغبته في مرضاة ربه لا في مطلوب نفسه .

وهذا درس لنا لتعلم منه العزم والقوة على طاعة الله تعالى التي كلفنا بها على قدر طاقتنا ، فلا نتهاون بشيء أمرنا به ، مستنين في الأخذ بالعزائم بسنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقد يتساءل متساءل عن الوقت الذي صامه موسى عليه السلام؟ وقد تكفل المفسرون ببيانه وقد اخترت منه ما قاله الحافظ ابن كثير .

قال رحمه الله : اختلف المفسرون في قوله * وأتمناها بعشر * والأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة ، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر وحصل فيه التكلم لموسى عليه السلام . وفيه أكمل الله الدين لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم كما قال تعالى * اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً * (٢)

ولما تم الميقات وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف موسى (عليه السلام) على بني اسرائيل أخاه هارون ، ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد قال تعالى * وقال موسى لأخيه هارون أخلصني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * (٣)

ولقد خصى موسى أخاه هارون بالخلافة من بين سائر الصالحين من بني اسرائيل لأسباب منها :

١ - لأن هارون نبي ولا تخفى أفضلية النبي على غيره .

-
- (١) انظر تفسير الألوسي (٩ / ٤٣) ،
وانظر فتح القدير للشوكاني (٢ / ٢٤٢) .
(٢) تفسير ابن كثير (٢ / ٢٤٣) ، انظر تفسير الألوسي (٩ / ٤٣) .
(٣) سورة الأعراف ، آية (١٤٢) .

٢ - لأن هرون كان وزيراً لموسى عليه السلام . قال تعالى على لسان موسى * واجعل لي وزيراً من أهلي . هرون أخي * (١)

ولا شك أن الوزير بالنسبة للأمير يكون من أقرب الرعية إليه ، لاسيما وأنه تربطه به صلة قرابة ، فيكون الحرص على القيام بتبعية الخلافة أشد وأقوى .

والمراد بقوله * وأصلح * أي ما يحتاج إلى الإصلاح من أمور دينهم إذا ظهر منهم ما يخالف ما تركهم عليه نبيهم موسى عليه السلام .

(٢) وعن ابن عباس أن المراد : الرفق بهم والاحسان إليهم .
وقوله * ولا تتبع سبيل المفسدين * أي ولا تتبع سبيل من سلك الأفساد وهذا من باب التذكير والتنبيه والتأكيد ، لأن الأنبياء عليهم السلام معصومون من فعل الفساد ، ومعصومون من متابعة فاعليه .

وقد أتى بنو اسرائيل في غيبة موسى بعظيمة هي غاية في القبح لم تعرف الا لهم في الموحدين وهي عبادة العجل ، ولقد حاولوا حمل هرون عليه السلام على أن يعبد معهم ما عبده ، فكانت العصمة ومقالة موسى عليه السلام * ولا تتبع سبيل المفسدين * موججين لاستدامة يقينه ، وعدم تأثره بمخالفة بني اسرائيل بما هو عليه وأخوه موسى عليهما السلام .

(٤) وسيمر بك دفاع هرون عن نفسه لما لقي ما لقي من غضب موسى عليه السلام لعدم اللجوء به لاخباره بما فعل بنو اسرائيل * وأخذ برأس أخيه يجره إليه ^(٦) قال ابن أم ^(٦) إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين * (٧)

-
- (١) سورة طه ، آية (٢٩ - ٣٠) .
 - (٢) تفسير الألوسي (٩ / ٤٤) .
 - (٣) انظر تفسير الألوسي (٩ / ٤٤) .
 - (٤) انظر ص ٣٨٥ من بحثنا هذا .
 - (٥) أي موسى عليه السلام .
 - (٦) أي هرون عليه السلام .
 - (٧) سورة الأعراف ، آية (١٥٠) .

طلب موسى من ربه الرؤية

قال تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴿ (١)﴾

وقوله ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ أي للوقت الذي وقتنا له (أي تمام الأربعين) لتلقي ما سنمليه عليه من الشرائع التي بها يستقيم حال أمته وقوله ﴿ وكلمه ربه ﴾ أي أسمعه كلامه ولم يكن فيما بينه وبين الله عز وجل فيما سمع واسطة ، ولذلك سمي بموسى الكليم ، وذلك بعدما هياه الله تعالى لذلك الموقف العظيم بالصيام والانقطاع عن الناس .

ولقد كلم الله عز وجل نبيه موسى عليه السلام قبل هذا الموقف مراراً كما جاء في سورة طه^(٥) والنمل^(٣) ، والقصص^(٤) ، ولم يسبق هذا الكلام بهذه التهيئة ولا بهذا

(١) سورة الأعراف ، آية (١٤٣)

(٢) قال تعالى ﴿ وهل أتيتكم حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنني آنست ناراً لعلني آتيتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتتها نودي لموسى . إنني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ الآيات ﴿ سورة طه آيات من (٩ - ١٤) .

(٣) قال تعالى ﴿ إذ قال موسى لأهله إنني آنست ناراً سعاتيكم منها بخبر أو آتيتكم بشهاب قبس لعلكم تعطلون . فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحن الله رب العلمين لموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك فلما رءاها تهتز كأنها جان ولت مدبراً ولم يعقب لموسى لا تخف إنني لا يخاف لدي المرسلون ﴿ سورة النمل ، آيات من (٧ - ١٠) .

(٤) قال تعالى ﴿ فلما أتتها نودي من شطي الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن لموسى إنني أنا الله رب العلمين . وأن ألق عصاك فلما رءاها تهتز كأنها جان ولت مدبراً ولم يعقب لموسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين ﴿ سورة القصص ، آيات (٣٠ - ٣١)

الميعاد ، لأن الفرق بين ما مضى من كلام الله له وميقاته تعالى لموسى عليه السلام في سورة الأعراف أنه في هذه المرة سينزل الله عليه كتابه التوراه جملة واحدة كما سيمر بك ولاشك أن للوحي ثقله الذي يحتاج إلى تهيئة خاصة ، قال الله تعالى لحبيبه ونبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ إنسانلقى عليك قولاً ثقيلاً ﴾ (٢) ومعلوم أن القرآن لم ينزل جملة واحدة ، ومع تقطيعه نجوماً وصفه الله بالثقل ، فما بالك بتلقي كتاب بأكمله ، يُسمعه الله جل وعلا بنفسه كليمه موسى عليه السلام ، إن الأمر ولاشك يحتاج إلى اعداد خاص وكون هذا الاعداد قد تم بالصوم لا باستدامة الصلاة والذكر يدل على ما للصوم من منزلة رفيعة عند الله عز وجل ويدل على ماله من أثر عظيم في ترقية الروح الى معارج القدس وترقية البدن الذي هو قالب هذه الروح ، فيحتمل ما لا تحتمله الأبدان الكثيفة التي حجبت أرواحها بالشهوات سيما شهوة الطعام والشراب اللذين للنفس بهما تعلق شديد .

ولما اطمأن موسى عليه السلام على أن خاصيته التي خصه الله بها من بين سائر الأنبياء (إلا نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم) هي كلامه مباشرة ، طمخ قلبه إلى رؤية ربه تبارك وتعالى لفرط شوقه إليه ، فإن من تمام الفضل أن ترى من تكلمه ، ولذا أجيبته ﴿ لما ﴾ بقوله تعالى ﴿ قال رب أرني أنظر إليك ﴾ قال الامام البخاري : قال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ أرني ﴾ أعطني وقد سلك موسى عليه السلام بقوله هذا مسلك الاستعطاف وغاية الأدب حيث قدم لطلبه بقوله ﴿ رب ﴾ أي يا من أنت حفيبي ، وتفضلت علي بتكليمي مباشرة ، ويامن ربيتنني في بيت عدوك ، ويامن رددتني على أمي ، ويامن نصرتنني على فرعون وقومه ، فعهدي بك دوام فضلك علي ورعايتك لي رعاية خاصة ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ أي أرني ذاتك الجليلة أنظر إليك ، ومكني من رؤيتك بأن تتجلى لي حتى أراك .

(١) انظر ص ١٦٠ - ١٦٣ من بحثنا هذا .

(٢) سورة المزمل ، آية (٥) .

(٣) صحيح البخاري موع فتح الباري كتاب التفسير سورة الأعراف (٣٧٢/٩) وقوله ﴿ أرني ﴾ أعطني يعني أعطني قدرة تمكيني من النظر إليك ، وإنما فسرها ابن عباس بذلك لأن الرؤية هي النظر والمطلوب هو القدرة على النظر .

انظر تفسير ابن عباس ، تأليف الدكتور : عبدالعزيز بن عبد الله الحميدي (١ / ٤٣٠) .

وما خطر ببال موسى عليه السلام أن سؤاله هذا فوق طاقته وأن بشريته وروحه مهما كان من قوتهما لا يُمكنانه من ذلك إذ الأمر أجل وأعظم ، ولو خطر على باله أن ذلك محذور ماطلبه ، لكنه عليه الصلاة والسلام قد ظن أن إباحة تكليمه مسوغ لهذا الطلب ، ولذا طلبه بقوله * قال ربّ أرني أنظر إليك * فأجابه بقوله * لن ترني * أي : في دار الدنيا ، إذ المؤمنون جميعا سيرون ربهم في الآخرة كما يرون البدر متكاملا لا يضمامون في ذلك ، أي لا يشق عليهم فيه ، بل يمكنهم ربهم سبحانه وتعالى من ذلك بفضلته فنفى الرؤية منصب على الحالة الدنيوية ، أما في الآخرة فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم في روضات الجنات .

أخرج البخاري في صحيحه (في كتاب الأذان - باب فضل السجود) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن الناس قالوا يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال " هل تمارون ^(١) في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ " قالوا لا يارسول الله . قال " فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا لا ، قال: فانكم ترونه كذلك الحديث " ^(٢)

وأخرج مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال إذا دخل أهل الجنة الجنة قال يقول الله تبارك وتعالى : تريـدون شيئا أزيدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة . وتنجينا من النار؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل فإذا وقع ذلك للمؤمنين فوقه للأنبياء ولاشك أحق ، ووقوعه ^(٣) للكليم الذي برح به الشوق إلى ربه متأكد ، ولكي يبين الله سبحانه وتعالى أن ذلك فوق طاقته وأنه ليس مسموحا له به في الدنيا ، قال تعالى لــــه استدراكا على قوله تعالى * لن ترني * * ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترني * أي لن تطيق رؤيتي ياموسى وأنت في هذه الحياة الدنيا بحالتك التي أنت عليها * ولكن أنظر إلى الجبل * الذي

(١) تمارون : من الممارسة وهي المجادلة .

(٢) صحيح البخاري - فتح الباري (٢ / ٤٣٦) ،

وانظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (١ / ٤٢) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٣ / ١٧) باب اثبات رؤية المؤمنين في

الآخرة لربهم سبحانه وتعالى .

هو أقوى وأشد ملابة منك .

وفي هذا الاستدراك * ولكن أنظر * تسليبه لموس عليه السلام -
وتلطف معه في الخطاب وتكريم له وتعظيم لأمر الرؤية وأنه لا يقوى عليها
إلا من قواه الله بمعونته * فإن استقر مكانه * أي ان ثبت مكانه حين
أتجلى له ، ولم يتفتت ويندك لعظمتي * فسوف تر لي * أي تثبت لرؤيتي
إذا تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برويتي ، وعبر بكلمة * سوف * لبيان أن ذلك
لو وقع فلن يتحقق لك في الدنيا إلا بعد أن تتهيأ تهيئة خاصة لأن * سوف *
إذا دخلت على المضارع تفيد وقوعه في المستقبل البعيد ، فكيف والأمم -
على خلاف ما تظن ؟ فلا بقاء للجبل حال تجلى له فكيف تطلب الرؤية ؟ ولو
زاد التجلي عليك حال الكلام ما كان لك بقاء ، ولذهبت منك كل استطاعة ،
والمراد بالجبل على ما قاله الألوسي هو طور سيناء .
(٢)

قال تعالى * فلما تجلى ربه للجبل * والتجلي هنا : هو الظهور
بالكيفية التي تليق بجناحه تعالى ، فظهر جلا وعلا للجبل ظهورا بلا كيف .
قال الحافظ ابن كثير : (ما تجلى منه إلا قدر الخنصر) ، وساق رحمه
الله آثارا أكتفي منها بما أخرجه الحاكم في مستدركه والترمذي في سننه
عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله
عز وجل * فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا . * قال حماد - هكذا -
ووضع الإبهام على مفصل الخنصر الأيمن قال : فقال حميد لثابت تحدث بمثل
هذا ؟

قال فضرب ثابت مدر حميد ضربة بيده وقال : رسول الله صلى الله عليه
وسلم يحدث به وأنا لا أحدث به . قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط
مسلم .

وفي رواية للترمذي أيضا عن أنس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

-
- (١) انظر تفسير الأعراف للدكتور أحمد السيد الكومي ، الدكتور محمد سيد طنطاوي ص ٢١٥ .
 - (٢) انظر تفسير الألوسي (٩٠ / ٤٥) .
 - (٣) نفس المرجع السابق .
 - (٤) النسفي (٢ / ٧٥) .
 - (٥) تفسير ابن كثير (٢ / ٢٤٤) .
 - (٦) المستدرک للحاكم (٢ / ٢٢٠ - ٢٢١) .

قرأ هذه الآية : * فلما تجلّى ربه للجبل . جعله دكاً * قال حماد :
(١)
هكذا وأمسك سليمان بطرف ايهامه على أنملة اصبعه اليمنى قال : فساخ الجبل
(٢)
* وخر موسى معقاً * وقوله * جعله دكاً * أي تراباً مهشماً مدقوقاً
مفتتاً .

قال الألوسي : * دكاً * أي مدكوكاً متفتتاً والدك والدق أخوان
(٣)
كالشك والشق فنبه سبحانه وتعالى على أن الجبل مع شدته وصلابته مادام لم
يستقر عند هذا التجلي فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر، وفيه تسكين
(٤)
لفؤاد موسى بأن المانع من الانكشاف الاشفاق عليه .

قال الألوسي : وهذا كما لا يخفى من المتشابهات التي يسلك فيها طريق
(٥)
التسليم وهو أسلم وأحكم . وقوله * وخر موسى * أي وقع وقوعاً شديداً
من هول التجلي فارتطم على الأرض ارتطاماً أحدث صوتاً شديداً . إذ الخور هو
الوقوع المصاحب للموت الشديد . كما فرق بعض اللغويين بين السقوط والخور
(٦)
بأن السقوط مطلق . والخور سقوط له صوت كالخير .

* وخر موسى معقاً * أي سقط من هول ما رأى من الأنوار التي بهرته
وأسقطته على الأرض مغشياً عليه كمن أصابته ساعقة ، وهذا رأي ابن عباس
والحسن رضي الله عنهما ، وعن قتاده أنه مات ثم أحياه الله بعد ذلك، وعلى
هذا الرأي يكون موسى قد ذاق الموت في الدنيا مرتين ويكون ذلك استثناءً من
(٧)
قوله تعالى * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقلهم عذاب الجحيم *
وقد ذاق الموت في الدنيا أكثر من مرة جماعات منهم من أحياهم موسى عليه
السلام معجزة له ودليلاً على نبوته عليه السلام ومنهم أيضاً من ذكرهم الله

-
- (١) أي غاص في الأرض وغاب فيها .
 - (٢) سنن الترمذي (٥ / ٢٦٥) .
 - (٣) تفسير الألوسي (٩ / ٤٥) .
 - (٤) انظر تفسير القاسمي - محاسن التأويل (٥ / ٢٤٧) .
 - (٥) تفسير الألوسي (٩ / ٤٥) .
 - (٦) انظر تفسير الألوسي (٩ / ٤٦) .
 - (٧) المفردات للراغب الأصفهاني (ص ١٤٤) .
 - (٧) سورة الدخان ، آية (٥٦) .

تعالى في قوله * ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحييهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * (٢) . ورغم وقوع ذلك فالرأي الأول عندي أرجح لقوله تعالى * فلما أفاق * إذ الافاقة تكون من الغشية والإحياء يكون بعد الإماتة فلو كانت الصاعقة موتا لقال تعالى (فخر ميتا) ولقال (فلما أحييته قال سبحانه) وقوله * فلما أفاق * الإفافة رجوع العقل والفهم إلى الانسان بعد ذهابهما عنه بسبب من الأسباب . (٣)

وقوله * قال سبحانه * أي تنزيها لك من مشابهة خلقك في شيء ، وبدأ بالتسبيح لاستشعاره بأنه طلب ما لا يحق له فيه ، وهو أمر عظيم لا يكفره إلا التسبيح ، كما أنه عليه السلام أراد أن يمهد به لبيان توبته الصادقة عن طلب ما لا قدرة له عليه .

* تبت إليك * من الإقدام على السؤال بغير إذن ، ولم يقل تبت إليك عن هذا الطلب ليبين عليه السلام توبته الشاملة عما بدر منه وعرفه ، وعما قد يظن أنه بدر منه ولم يعرفه ، والغرض من قوله * تبت إليك * اظهار الافتقار والمسكنة لربه والرضا التام بمقدوراته .

* وأنا أول المؤمنين * بعظمتك وجلالك ، أو أنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد من خلقك في حالته الدنيوية فالأولية هناك ليست على إطلاقها بل هي مقيدة بما ذكرت لأنه عليه السلام قد تقدمه مؤمنون كثيرون أنبياء وغير أنبياء .

(١) قيل هي (واسط) وقع فيها الطاعون فخرج أهلها هاربين فأماتهم الله ثم أحياهم بدعاء حزقيل عليه السلام وقيل هم قوم من بني اسرائيل دعاهم ملكهم إلى الجهاد فهربوا حذرا من الموت فأماتهم الله ثمانية أيام ثم أحياهم . انظر تفسير النسفي (١ / ١٢٣) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٢٤٣) .

(٣) انظر تفسير الألوسي ، (٩ / ٤٦) .

(٤) انظر تفسير الألوسي ، (٩ / ٤٦) .

مسألة : اختلاف أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله

اختلف علماء أهل السنة والمعتزلة في وقوع رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة فيرى أهل السنة جواز وقوع رؤية الله تعالى في الدنيا عقلا ، إذ لا مانع منها إلا عدم تحملها ، كما يقطعون بوقوعها في الآخرة للمؤمنين لقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (١) وهي وجوه المؤمنين قطعاً بقريئة ﴿ وجوه يومئذ باسرة ﴾ (٢) ويقوله تعالى في شأن الكفار كما يدل عليه السباق والسياق ﴿ كلاً إنهم ﴾ أي الكفار ﴿ عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ (٣) ولما أسلفته من الحديث الصحيح عن مسلم في تفسير قوله تعالى ﴿ قال لن تراني ﴾ (٤) أما المعتزلة : فيرون استحالة وقوعها في الدنيا والآخرة لأنها علقت في الدنيا على مستحيل والمستحيل لا يتصف بالوقوع ، فما علق عليه فهو مستحيل مثله ، وقد أوجزت شيئاً من رد أهل السنة على المعتزلة بقدر ما يسمح به البحث ، و خلاصة المسألة أن أهل السنة قالوا إن قوله تعالى ﴿ قال رب أنظر إليك ﴾ يدل على إمكان جواز الرؤية وذلك من وجهين :

أولهما : أن نبي الله موسى عليه السلام سألها بقوله ﴿ رب أنظرني أنظر إليك ﴾ ولو كانت مستحيلة ما سألها موسى عليه السلام ، وهو كما هو معلوم من أولي العزم من الرسل ولا يتصور أن يسأل موسى عليه السلام المحال ، فإن قيل إن موسى عليه السلام لم يكن عالماً بالاستحالة؟

فالجواب أنه يلزم من ذلك أن يكون آحاد المعتزلة ومن حصل على طرف من علومهم أعلم بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبي الصفي، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة ، وحيث بطل القول بالاستحالة تعين القول بالجواز ، ولا شك أن اعتقاد ما لا يجوز ولا سيما في الأمور العقائدية كفر ولا يجوز أن يجهل موسى عليه السلام مثل ذلك لأن معرفة الأنبياء ليس فيها نقص ، ومما يقوي ما ذهب إليه أهل السنة من جواز الرؤية أن الله تعالى

(١)، (٢) سورة القيامة ، آيات (٢٢ الى ٢٤) . وقوله (باسرة) أي

كالحة شديدة العبوس أنظر تفسير الجلالين (ص ٤٩٤)

(٣) سورة المطففين ، آية (١٥) .

(٤) انظر ص ٢٥٣ من بحثنا هذا .

(٥) انظر تفسير الألوسي (٩ / ٤٦ ، ٤٧)

لم ينكر عليه المسألة ، وإنما منعه من الرؤية ، ولو استحالت عليه لقال
(لا أرى) . ألا ترى أن نوحا عليه السلام لما قال * ^(١) إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي *
أنكر عليه جل وعلا بقوله * ^(٢) إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ * .

ولقد سبق أن بينت معنى * لن ترني * وقلت : إنها مستأنفة
استثنافا بيانيا . كأنه قيل : فماذا قال الله حين قال موسى ذلك ؟؟ فكان
الجواب * لن ترني * أي لن تطيق رؤيتي وأنت على هذه النشأة والحالة
الدنيوية التي أنت عليها . ^(٣)

ثانيهما : ومما يدل على جواز الرؤية ويقوي ما ذهب إليه أهل السنة أنه
جل وعلا علقها على استقرار الجبل وذلك ممكن في نفسه ، وما علق على الممكن
ممكن ، فدل على أنها جائزة ، ألا ترى أن دخول الكفار إلى الجنة لمَّا
استحال علقه بمستحيل فقال * إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها
لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط
وكذلك نجزي المجرمين * فلما استحال دخول المكذبين والمستكبرين إلى
الجنة ، علق ذلك على المستحيل . ^(٤)
^(٥)

والحق الذي أدين الله به أن رؤيته تعالى في الآخرة متحققة للمؤمنين
لا محاله لما أسلفته من الآيات والأحاديث ، وأن المعتزلة في هذه المسألة
مخفقون محجوجون وأدلتهم واهية ، وتوهمهم أنها علقت في الدنيا على مستحيل
قد رددت عليه في خلاصتي ، وهبها علقت على مستحيل في الدنيا فهل تقاس
أمور الآخرة بالدنيا ؟ وهل يقاس الغائب على الشاهد ؟ اللهم لا .

وقد ذكرت هذه المسألة لأنها تصور الصراع بين الحق والباطل في أجلى
صوره إذ النصوص ثابتة بثبوت الرؤية في الآخرة ، ولا ينفع المعتزلة
قتالهم على العقل مع وجود النص .

(١) سورة هود ، آية (٤٥) .

(٢) سورة هود ، آية (٤٦) .

(٣) انظر ص ٣٥٣ من بحثنا هـ .

(٤) سورة الأعراف ، آية (٤٠) .

(٥) وقد توسع الألوسي في بيان وجهة كل فريق ومن أراد التوسع فليرجع
إلى (٩ / ٤٦ - ٥٣) .

قال شارح العقيدة الطحاوية : (وهذه المسألة من أشرف
مسائل الدين وأجلها وهي الغاية شمر اليها المشمرون ، وتنافس فيها
المتنافسون وحرمها الذين هم عن ربهم محجوبون ، وعن بابہ مردودون)
(١)
والله اعلم .

(١) وقد بسط الشارح الامام على بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي الكلام
في هذه المسألة من اراد التوسع فليراجع كتابه شرح العقيدة الطحاوية
ص (٣٠٣ - ٢١٤) .

(المبحث الخامس)

تسليية موسى عليه السلام بعد أن منع من الرؤية
وذكر بعض نعم الله عليه

قال تعالى ﴿ قال يـمـوسىٰ إني اصطفيتك على الناس برسـالـتي وبكـلامي
فخذ ما آتيتك وكن من الشـكـرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شـئ موعظـة
وتفصيلا لكل شـئ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريك
دار الفـسـقين ﴾ (١)

فقوله تعالى ﴿ قال يـمـوسىٰ ﴾ استغناف مسوق لتسليية موسى عليه
السلام من عدم الإجابة إلى سؤال الرؤية كأنه قيل ، إن منعتك الرؤية
فقد أعطيتك من النعم العظام ما أعطيتك فاغتنمه وثابر عليه . (٢)

وقد ناداه جل وعلا باسمه تكريما له وموانسة ومباسة فان مما يسر
عبدالمك أن يذكره الملك باسمه للدلالة على التقارب والتآلف وقولـه
﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾ أي اخترتك وهو افتعال من الصفوة ، وأكد
الحق جل وعلا ذلك بـ (إن) لبيان شدة اعتناؤه سبحانه وتعالى بموسى
فلقد كان (هارون عليه السلام) نبيا ومع ذلك لم يعمل إلى هذه المرتبة ،
والمعنى : أني اخترتك من بين عالمي زمانك لرسالاتي ولكلامي مع أن في عالمي
زمانك من لو هيأته لهذا الاصطفاء لملح كأخيك هارون عليه السلام ، فليكن
ذلك مني مدعاة لمزيد شكر لي ، ومزيد استشعار منتي عليك ، وقال تعالى
﴿ إني اصطفيتك على الناس ﴾ دون أن يقول على الخلق لأن الملائكة يسمعون
كلام ربهم بلا واسطة فلو قال الحق تعالى اصطفيتك على الخلق لشاركته الملائكة
في هذه المزية .

واختيار الله له واصطفائه بالرسالة وبالكلام - كما سيأتي - هو تفضيله
قومه على عالمي زمانهم بقوله تعالى ﴿ يـحـبـبـىٰ إسرئـيل اذكروا نـعـمـتى التي
أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾ (٣)

وقوله ﴿ برسـالـتي ﴾ أي بأسفار التوراة ، وجاءت بصيغة الجمع

(١) سورة الاعراف ، آية (١٤٤ ، ١٤٥)

(٢) تفسير الالوسى (٩ / ٥٥)

(٣) سورة البقرة ، آية (٤٧) .

نظرا إلى أن التوراة التي أوتيتها عليه السلام كانت أسفاراً متعددة. كل سفر منها رسالة أو لأن الله أوحى إليه مرة بعد مرة وكلمه كثيرا ، وفي كل مرة يفيض عليه ويعطيه ، فهي بمثابة رسالة فصح الجمع بهذا المعنى.

وقرأ نافع وابن كثير * برسائلتي * بالافراد وهذه القراءة لا تعارض قراءة الجمع لأنها صيغة من صيغ العموم ، وصيغ العموم يصح احلالها محل الجمع ، أو لأنها مصدر كما قال الفخر الرازي ، وكثيرا ما يعبر عن المعاني المتعددة بالمصدر مفردا (١) ، وقد يسأل سائل أي مزية لموسى عليه السلام في قوله تعالى * إني اصطفيتك على الناس برسائلتي * وقد سبقه في هذا الاصطفاء رسل كما لحقه آخرون ؟ .

والجواب عن هذا التساؤل : أن مزية موسى عليه السلام حصلت بمجموع الأمرين بالاصطفاء بالرسالة وبالكلام مباشرة بينما غيره اصطفى بالرسالة وجاءه الوحي بالواسطة ، ولشك أن تكليم الحق لموسى مباشرة فيه مزية عظي له .

إذ الفرق عظيم بين أن يخاطبك الملك بنفسه وبين أن يخاطبك بوزيره . * فخذ مآء آتيتك * أي أحرص عليه غاية الحرص ولا يهونه عليك أي منعتك روعيتي لعدم تهيتك لها ، وحاشا لموسى عليه السلام أن يكون هان عليه ما آتاه ربه إياه ، أو أن يكون قد توقف في أخذه ، فليس ذلك هو المقصود من الأمر ، وإنما المقصود تهيجه على مزيد الشكر ، وتخفيف وطأة منع الروية عليه بموءانسة قلبه بالتشبه بما آتاه وخلع عليه ، وقد حذف المفعول في قوله تعالى * مآء آتيتك * إما للعلم به وهو التوراه ، أو لأن الله آتاه أسراراً و عطيات تخصه ، فيكون المعنى فخذ ما آتيتك مما هو بيني وبينك والذي لم أطلع عليه غيرك في زمانك ، والتوراة التي بعثتك بها لاصلاح بني إسرائيل .

ولا غرابة في حذف هذا المفعول لانه عائد على اسم موصول ، والعائد كثيرا ما يحذف ، وإذا حملنا (ما) الموصولة على معناها الخاص وهو التوراه فالتعبير عنه بـ (ما) إشادة به ويعلو شأنه إذ هو لظهوره لايحتاج إلى ذكر اسمه .

* وكن من الشكرين * أي دم على الشكر ، وقم بموجبه

علما وعملا ، فالأمر هنا ليس لطلب ما لم يكن موجودا ، بل هو للثبـات
على ما تخلق به موسى عليه السلام من شكره لربه ، وعبوديته له ثم فصل
جل وعلا بعض النعم التي منحها لنبيه موسى عليه السلام فقال تعالى
﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء ﴾ (١)

والمراد بالألواح ألواح التوراة ، وأختلف في عددها وفي ماهيتها
ولم يرد نص صريح عن النبي صلي الله عليه وسلم في عددها وماهيتها ،
فالأفضل تفويض معرفة ذلك إلى الله تعالى .

وهذه الألواح هي الصحف التي أخبر عنها جل وعلا في قوله تعالى
﴿ أم لم ينبا بما في صحف موسى ﴾ (٢) وهي الكتاب والفرقان التي ذكرتها
آية البقرة في قوله تعالى (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم
تهتدون ﴾ (٣)

والمعنى المراد من قوله ﴿ وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة
وتفصيلا ﴾ أي : كتبنا لموسى عليه السلام في ألواح التوراة من كل شيء
يحتاجون إليه ، من الحلال والحرام والحكم والعبر والمحاسن والقبائح .

﴿ موعظة وتفصيلا لكل شيء ﴾ بدل من الجار والمجرور أي كتبنا له
كل شيء من المواعظ وتفصيل الأحكام . (٤)

﴿ فخذها بقوة ﴾ أي بجد وحزم وعزيمة (٥) وليس معنى هذا أن موسى
عليه السلام سيقصر في القيام بها ، فهذا منتف في حقه بمقتضى العصمة
وإنما المقصود والغرض من ذلك تنبيه بنى اسرائيل على الاستمساك بما في هذه
الألواح والحرص التام على العمل بما فيها ، لأن أمر الله لكليمه أن يأخذها
بقوة والشأن فيه أنه كذلك بمقتضى العصمة . يقتضى أن يوجه هذا الأمر لقومه
لأن التفريط متوقع منهم بل قد حصل كما ستعرفه قريبا . (٦)

- (١) سورة الأعراف : الآية (١٤٥) .
- (٢) سورة النجم : الآية (٣٦) .
- (٣) سورة البقرة : الآية (٥٣) .
- (٤) انظر تفسير ابى السعود (٢٧٠/٣) ، تفسير الألوسي (٥٧/٩) .
- (٥) انظر تفسير الألوسي (٥٨/٩) .
- (٦) انظر ص ٣٦٩ من بحثنا هذا .

﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أي بأحسن مافيهما كالعفو والصبر
فكان فيها القود والعفو فأمرُوا بالعفو .. الخ فأفعل التفضيل اذن على بابهِ
ويجوز أن يكون أفعل التفضيل ليس على بابهِ ، وأنه جيء به لثبوت الوصف
في نفسه ، فيكون المراد من قوله ﴿ يأخذوا بأحسنها ﴾ أي بحسنها إذ كل
مافيهما حسن ، فليس في هذه الألواح شيء إلا وهو حسن ، وجعل أحسن على بابها
أقوى وأظهر .

وقوله تعالى ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ ^(١) المخاطبون هنا هم بنو
إسرائيل ، وقد التفت القرآن من أسلوب الغيبة في قوله تعالى ﴿ وأمر قومك
يأخذوا بأحسنها ﴾ إلى أسلوب الخطاب حملا لبني إسرائيل على الجد في
الامتثال بما أمرُوا به ، والمقصود بقوله تعالى لبني إسرائيل ﴿ سأوريكم
دار الفاسقين ﴾ أما الوعيد والتهديد على أن المراد بدار الفاسقين ، أرض
مصر وديار عاد وشمود وأضرابهم ، أي : أنكم إن نأيتم عما أمرتكم به ،
وكفرتم بما أنزل عليكم ، فعلت بكم مثل ما فعلته بهؤلاء الذين أريتكم
ديارهم ، وقد خلت منهم وحل بهم من العذاب ما لا يخفى عليكم ، وأما على
جهة الوعد ، وأن المقصود بهذا القول الكريم تمكينهم من أرض فلسطين ، التي
كانت ديار العمالقة والجبارين في ذلك الوقت ، مع أنها كانت في السابق
موطن الأنبياء إبراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام كما كانت ديار توحيد
وطاعة لله عز وجل ، والمعنى على هذا الرأي : أنكم إن التزمتم بما أنزل
إليكم وأخذتم بأحسن ما جاءكم هديتكم وسلكت بكم سبيل الرشاد ، ومكنت
لكم من عدوكم ، وليبيان هذين المعنيين بين لهم في الآيتين التاليتين حال
المتكبرين والمكذبين بآيات الله تعالى حمانا الله وحفظنا ، إنه سميع
مجيب . ^(٢)

(١) سورة الأعراف : الآية (١٤٥) .

(٢) بتصرف من تفسير أبي السعود (٢٧١/٣) .

(المبحث السادس)

(تحذير بنى اسرائيل بتجنب مسالك الهالكين والضالين)

قال تعالى ﴿ سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّآءَ آيَةٍ لَّا يَأْتُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَّا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

قوله تعالى ﴿ سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ استئناف مسوق لتحذير بنى إسرائيل عن التكبر الموجب لعدم التفكير فى الآيات التي كتبت فى ألواح التوراة المتضمنة للمواعظ والأحكام . أو مما يعمها وغيرها من الآيات التكوينية ، التي من جملتها ما وعدوا إرأءتاه من دار الفاسقين ، ومعنى صرفهم عنها : منعهم بالطبع على قلوبهم فلا يكادون يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، لاصرارهم على ما هم عليه من التكبر والتجبر كقوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ (٢)

والآية الكريمة تصور لنا بوضوح مسالك الذين أعمى الله بصيرتهم وطمس على قلوبهم . بأسلوب معجز ، فهم عاجزون عن فهم الحجج والأدلة على عظمتها ، والآيات التنزيلية التي فيها هدايتهم ورشدهم ، وذلك بسبب تكبرهم وجحودهم وظلمهم .

ومعنى قوله ﴿ يتكبرون ﴾ أى يرون فى أنفسهم أنهم أفضل الخلق ، وأن لهم من الحق ما ليس لغيرهم ، وصفة التكبر صفة ذم فى جميع العباد وصفة مدح فى الله جل جلاله لأنه يستحق اظهار ذلك على من سواه ، لأن ذلك فى حقه حق وفي حق غيره باطل .

وقوله ﴿ بغير الحق ﴾ اما حال أى يتكبرون غير محقين لان التكبر بالحق لله وحده . ويجوز أن تكون جملة ﴿ بغير الحق ﴾ صلة للتكبر أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل وظلمهم المفرط . (٤)

- (١) سورة الأعراف الآيات (١٤٦-١٤٧) . (٢) سورة الصف ، الآية (٥) .
(٣) انظر تفسير الألوسى (٦٠/٩) .
(٤) تفسير النسفي (٧٧/٢) . (٥) تفسير ابي السعود (٢٧٢/٣) .

وصرف أهل الباطل عن الحق من أعظم المحن ، لأن هؤلاء المتكبريين المصروفين عن الحق ، يرون الحق باطلا والباطل حقا - أسأل الله لي ولك العافية والسلامة - وقد شاهد بنو إسرائيل أمثلة واضحة جلية لأمثال أولئك ، وهم قوم فرعون الذين ابتلاهم الله جل وعلا بالآيات العظيمة المخيفة ، التي لم يبتل بها أحد من الأمم التي سبقتهم بما ابتلاهم الله به ، والتي وصفها الحق سبحانه وتعالى في كتابه بقوله * وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذنهم بالعذاب لعلمهم يرجعون * (١) ومع ذلك كانوا كلما أتتهم آية ينكثون وعدهم ، ويعودون إلى كفرهم وضلالهم ، وقد أشرت إلى ذلك سابقا. (٢)

فهل ذلك يكون رادعا لبني إسرائيل وزاجرا لهم فيتجنبوا الباطل ويكفوا عن كفرهم ؟ وفي أيامنا هذه ما أكثر من يرون الحق واضحا جلييا ، ومع ذلك يصرون على الباطل ، حتى طبع علي قلوبهم ، ونسوا خالقهم ومدبر أمرهم كما قال تعالى * نسوا الله فأنسوا أنفسهم * (٣) وليس ذلك لعلم امتازوا به عن غيرهم ، أو لأن الحق ملتبس عليهم ، بل لنسيانهم قاننون الله الذي لا يتبدل والمذكور في هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى * وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها * هو نتيجة لصرف المتكبرين في الأرض بغير الحق عن آياته تعالى ، لأنهم بالصرف قد حيل بينهم وبين تدبرها ، والمراد بالآيات ما يعم المنزلة والكونية ، فهم لصرفهم لا يصغون للآيات التنزيلية عند سماعها ولا يعتبرون بالآيات الكونية عند روعيتها فهم مصروفون عن الايمان بكل آية على حدة ، ولا يتوقع منهم التأثر بأية آية تنزيلية أو كونية وفي التعبير ب (ان) و (كل آية) إعجاز ظاهر وتصوير دقيق لنفسية أولئك المتكبرين ، فروعيتهم للآيات لاتقنع منهم إلا على قلة وهي وإن وقعت لا يستفيدون منها بحال ، والعجيب في الأمر (في إنسان زماننا الحاضر) أنه مكن له بالعودة إلى القمر ورؤيته هذا الكون العجيب ومافيه من الآيات الباهرة ، التي تدل على الخالق العظيم ، والوقوف عليها من قرب ، ومع ذلك نراه ممعنفاى كفره وباطله ، والسبب في

(١) سورة الزخرف : الآية (٤٨) .

(٢) انظر ص. (٣١١ - ٣١٧) من بحثنا هذا .

(٣) سورة الحشر : الآية (١٩) .

ذلك ما أشارت اليه خاتمة الآية الكريمة * ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غفلين * وقوله تعالى * وإن يروا سبيل الرشـد * أي : الهدى * لا يتخذوه سبيلا * في أي وقت من الأوقات ، ولا يـنـحـازون إليه بحال ، لأن سبيل الهدى لا تعرف إلا من الآيات المنزلة أولاً ، فلا سبيل للاهتداء إلا بذلك ، والتفكير بالآيات الكونية معضد لما جاءت به الآيات التنزيلية ، فكيف يسلكون سبيل الرشاد وقد استولى الشيطان عليهم ، وطبائعهم منجذبة إلى الباطل منصرفة كل الانصراف عن الحق ؟ إن ذلك لا يكون منهم أبداً ، فهم مصروفون حتى عن محاولة ذلك وقوله تعالى * وإن يروا سبيل الغى * أي الضلال وعدم الاهتداء يتخذوه سبيلا يلزمونه ولا ينفكون عنه بحال من الأحوال ، على حد قوله تعالى * إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم * فكيف يتسجيب المصروفون عن الحق وينأون عن الباطل وقد صرفهم الله المالـك لقلوبهم التي لاتميل إلى الاهتداء أو تنصرف إليه ، وقد حجبهـم الله عن الاهتداء ، فلا يكون منهم إلا سلوك سبيل الغواييه ؟ .

وقوله تعالى * يتخذوه سبيلا * يدل على شدة تشبثهم بسبيل الضلالة والدفاع عنه بكل وسيلة ، ولذا نرى أهل الكفر ودعاة الباطل يستعذبون في سبيل باطلهم ازهاق أرواحهم مع ظهور بطلان باطلهم .

وقوله تعالى * ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا * بيان لسبب صرف المتكبرين في الأرض بغير الحق ، وعدم ايمانهم بآيات الله تعالى ، ونأيهم عن سبيل الرشـد ، واستمساكهم بسبيل الغواية .

والإشارة بقوله تعالى (ذلك) راجعة إلى كل ما ذكر من أحوالهم في هذه الآية والمعنى أن ما وصفوا به من تلك الأوصاف راجع إلى تكذيبهم بآيات الله المنزلة على ألسنة رسـله عليهم الصلاة والسلام . إن قلنا ان الآيات هي التنزيلية ، وإن قلنا بما يعم التنزيلية والكونية يكنن المعنى : انهم لفرط كفرهم وتكذيبهم بكل آية ينسبون الآيات الكونية لغيره سبحانه وتعالى أولاً يرون أنه المنفرد بخلقها .

وكلمة (كذبوا) تدل على أنهم أبعدوا في التكذيب بهذه الآيات غاية الأبعاد ، ولم يتركوا للتصديق بها مجالاً في قلوبهم ، فهم عنها في غاية الغفلة ، ولذا ختمت هذه الآية بقوله تعالى : * وكانوا عنها غافلين * أي هم غافلون عنها باستمرار ، وجيء بكان لبيان تحقق هذه الغفلة واستمرارها .

ثم آيس تعالى الذين كذبوا بآيات الله ويلقاء الآخرة من أن يقبل منهم أي عمل صالح جرى على يديهم في الدنيا من صلة رحم ، أو إغاثة ملهوف أو إحسان إلى مسكين ، لأنهم لم يعملوها لله عز وجل وإنما عملوها بدوافع نفسية ، أملت على بيئتهم المحيطة بهم .

فقال تعالى * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم * (١)
أي : الصالحة ، أي : أزيلت وزهبت ، فلا ينتفعون بها أي انتفاع على حد قوله تعالى : * وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً * (٢) والهباء ما يخرج من الكوة مع ضوء الشمس شيهاً بالغبار ، وهو رغم ضآلته التي يستحيل معها تجميعه ، وصف بالمنثور ، أي : المفرّق بقصد تبييض الكفار من الانتفاع بأعمالهم الصالحة .

* هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون * (٤) معناه ما يجوزون إلا بالجزاء الذي يناسب أعمالهم في الدنيا ، من التكبر في الأرض بغير الحق ، والكفر بآيات الله كلها ، وإهمال سبل الرشد ، وسلوك سبل الضلالة ، أي أن عملهم من الصالحات لا ينتفعون به كما ينتفع المؤمنون ، وما عملوا من السيئات لا يغفر لهم ، بل يجازون عليه بالعذاب الأليم ، وقد عبر عن ذلك بأسلوب الاستفهام إمعاناً لتأكيد معاقبتهم على سوء أعمالهم ، وعدم انتفاعهم بصالحها ، ولما له من أثر في نفوس السامعين ، وحتى لا يغتر بأعمالهم المؤمنون ولا يركن إليهم ذو عقل سليم . ورغم تحذير بنى إسرائيل بهاتين الآيتين الكريمتين اللتين بينتا فعل الحق سبحانه بالمتكبرين في الأرض بغير الحق ، فإن بنى إسرائيل من عهد موسى عليه السلام وإلى أن تقوم الساعة ، لم ينتفع منهم بهذا التحذير إلا فريق منهم ، على حد قوله تعالى * ومن قوم موسى

(١) سورة الأعراف : الآية (١٤٧) .

(٢) سورة الفرقان : الآية (٢٣) .

(٣) تفسير النسفي : (١٦٣ / ٣) .

(٤) سورة الأعراف : الآية (١٤٧) .

أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * (١) . ومنهم أمم كثيرة أعرضت عن الحق ، وكفرت بالواحد الأحد ، وناصبت أهل التوحيد العداة ، وحاربتهم بألوان شتى من المحاربة تحدث القرآن الكريم عنها في أكثر من موضع قال تعالى
* وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبآءو بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * (٢)

وسترى في الآيات التالية كفر قوم موسى بربهم ، واتخاذهم العجل معبودا لهم من دون الله تعالى ، وموقف نبيهم منهم ، وتوبيتهم ثم تكرر معصيتهم ، وإذا وقع ذلك منهم في عهد موسى عليه السلام ، فوقوعه منهم بعده أشيع وأكثر ، كما فصله القرآن وبينه في آيات كثيرة لا يتسع لذكرها موضوعي هذا .

(١) سورة الأعراف ، آية (١٥٩) .

(٢) سورة البقرة ، آية (٦١) .

(المبحث السابع)

عبادة بنى اسرائيل للعجل في غيبة موسى عليه السلام
وعدم انتفاعهم بما وعظهم الله به

قال تعالى ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار
(١)
ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين) .

على الرغم من النعم التي حباها المولى الكريم بنى اسرائيل،
وقلدها رقابهم ، وأغدقها عليهم ، وذلك في تخليصهم من الذل الذي عاشوا فيه
قرونا عديدة ، تحت وطأة حكام مصر وملوكها الفراعنة ، وانجائهم من
الغرق في البحر واغراق عدوهم أمام أعينهم ، وغير ذلك من النعم العظيمة،
مع ذلك جحدوا نعم الله عليهم ومالت نفوسهم إلى الشرك بالله بعد
خروجهم من مصر وهم في طريقهم إلى الطور ، فما أن شاهدوا أناسا يعكفون
على أصنام لهم حتى قالوا لنبيهم موسى عليه السلام (اجعل لنا إلهًا كما
لهم إلهة) فقال لهم نبيهم ﴿ إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبرماهم
فيه وبطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغىكم إلهًا وهو فضلكم على
العلمين ﴿ (٢)
ثم ذكرهم في الآية التي تلى الآيات السابقة بنعم الله
عليهم ﴿ وإذ أنجينكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون
(٣)
أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴿ (٤)

ثم انهم انتهزوا انقطاع وغياب موسى عنهم ، عند ذهابه للقاء ربه ، فصنع
لهم السامرى من حليهم عجلا ، عبده من دون الله سبحانه وتعالى ،
وتبجحوا بتلك العبادة غاية التبجح ، حتى انهم كادوا يقتلون هرون عليه
السلام لما نصحهم ببطلان ما هم عليه ﴿ قال ابن أمّ إن القوم استضعفوني
وكادوا يقتلونني ﴿ ثم زعموا ان العجل هو إلههم ، وإله نبيهم موسى
(٦)

(١) سورة الاعراف : الآية (١٤٨) .

(٢) سورة الاعراف : الآية (١٣٨ - ١٤٠) .

(٣) انظر : ص ٣٤٠ من بحثنا هذا في بحث (جحود بنى اسرائيل) .

(٤) سورة الاعراف : الآية (١٤١) .

(٥) السامرى : هو موسى بن ظفر . ينسب إلى قرية من قرى بنى اسرائيل تدعى
سامرة ، وكان منافقا ، وهو الذى أضل بنى اسرائيل ، وقد جوزي على ذلك بأن
منع مخالطة الناس منعاكليا ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ، وإذا تفق

أن مس أحداً حمّ الماس والممسوس ، وكان يهيم في البرية يصيح لامساس ، قال تعالى :
﴿ قال فاذهب فإن لك في الحيوة أن تقول لامساس) الآية (٩٧) سورة طه ، انظر
تفسير القرطبي ٨٤/٧ ، تفسير النسفي ٦٤/٣ .
(٦) سورة الاعراف : آية (١٥٠) .

﴿ فقالوا هذا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾ (١)

وقد بدأت سورة الأعراف بالحديث عن اتخاذ بنى إسرائيل العجل معبودا لهم وتركت الحديث عن صنعه ، وأغراهم بعبادته لسورة طه عليه الصلاة والسلام ولذا أجدنى مضطرا قبل تفسير آية الأعراف ﴿ واتخذ قوم موسى .. ﴾ وما بعدها أن أتعرض لما أحالته سورة الأعراف على سورة طه لسببين: أولا : لأنه يجلي الصراع بين الحق والباطل الذى هو موضوع هذه الرسالة .

ثانيا: لكي تكون القصة مكتملة بين يدي القارىء حتى لايبقى مشغوفاً بالبحث عن مقدماتها .

وسأحاول الايجاز فيه ما استطعت ، وتبدأ قصة هذا الصراع في سورة طه بقوله تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يلموسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى ﴾ (٢) والاستفهام في هذه الآية انكارى ، قصد به معاتبة موسى عليه السلام لتقدمه على قومه ، لأن تقدمه عليهم أوقعهم في اضلال السامرى ، وفتنته اياهم بالعجل الذى صنعه لهم .

والمراد بالقوم في قوله (عن قومك) هنا إما السبعون المختارون لمصاحبه أثناء تكليم الله له كما صرح به آية الأعراف والتي سيأتيك نبوءها (٣) واما بنو إسرائيل بعامه .

وعلى التفسير الأول لكلمة القوم ، يكون المختارون من بنى إسرائيل لمصاحبه موسى ، قد أصابهم اضلال السامرى : كما أصاب عامة بنى إسرائيل وقد اعتذر موسى عليه السلام لربه باعتذارين : أولهما : قوله تعالى (قال هم أولاء على أثرى) أى ليس بينى وبينهم مكان شاسع ، أو زمان متطاول ، أى هم قريبون منى ، وتقدمى عليهم بمثابة تقدم إمام القوم إلى الملك ليهيئ لهم المكانة عنده .

والاعتذار الثاني : هو قوله تعالى ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ أى ليدوم رضاك علي ، وليظهر عظيم شوقى إلى لقاءك ، واقعا كما علمته مستترا في قلبي ،

(١) سورة طه ، الآية (٨٨) .

(٢) سورة طه الآيات (٨٤ ، ٨٣) .

(٣) قال تعالى ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ الآية رقم (١٥٥) من سورة الأعراف .

ولعل سبب هذا العتاب ، هو اجتهاد موسى عليه السلام في العجلة إلى ربه ، دون أن ينتظر الوحي الذي يحدد له ميعاد مفارقتها قومه لمناجاة ربه تعالى فلم يقره الله على هذا الاجتهاد .^(١)

وقد بين الله سر هذه المعاتبة فقال : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾^(٢) أى : أوقعناهم في الفتنة ، وهى عبادة العجل من دوننا ، وهذا يرجح أن المراد بالقوم : هم الذين خلف عليهم موسى أخاه هارون ، وهم عامة بنى إسرائيل لا المختارون ، وقوله تعالى ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ أى باغوائه إياهم بعبادة العجل ، وصرفهم عن عبادة الواحد الأحد ، واستخفافه بعقولهم ، وعلمه بأنهم مهيوون لعبادة غير الله ، بما تعودوه في مصر ، وتأثرهم بعبادة المصريين للأشخاص أو الحيوانات ، على ما تذكره كتب تاريخ مصر القديم .^(٣)

وقد اختلفوا في أن السامري من بنى إسرائيل أو من غيرهم؟ وهذا لا يعني لنا كثيرا ، إنما المهم المقصود ، هو اضلاله بنى إسرائيل ، وكيف راجت عندهم خدعته ، وقد وجدوا من عناية ربهم بهم ، وإفاضته نعمه العظام عليهم ، ما يحول بينهم وبين ما وقعوا فيه ، لو تأملوها وتذكروها ، لكنهم كانوا قليلي التأمل والتذكر .

وقوله تعالى ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ ﴾ أى : المفتونين بما صنعهم السامري ، من حيث كان ينجى ربه ، وقد أعلمه ربه بما أحدث قومه من عبادة العجل ﴿ غَضِبْنَا ﴾ ممتلئا غضبا . ﴿ أَسْفَا ﴾ أى شديد الحزن - كما روي عن ابن عباس - من كفر قومه بالله عز وجل ، وعكوفهم على عبادة العجل في غيبته ، ولذا عاتبهم العتاب الشديد ، ووبخهم أشد التوبيخ على ما وقعوا فيه .

﴿ قَالَ يَلْقَوْمَ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ الواحد الأحد الذى أنجاكم من عدوكم ، وجعل لكم البحر طريقا يبسا ، (والهزمة لانكار عدم الوعد ونفيه

(١) بتصرف من تفسير الفخر الرازى (٩٨/٢٢ ، ٩٩) .

(٢) سورة طه : الآية (٨٥) .

(٣) انظر الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث لميخائيل شاروبيم بك (٩٣/١ - ٩٨) ، والديانات والعقائد فى مختلف العصور لأحمد عبد الغفور عطار (ص ٣٠٧) مكة

المكرمة ١٤٠١ هـ .

(٤) انظر تفسير الألوسى (١٦ / ٢٤٤) .

(١) وتقرير وجوده على أبلغ وجه وأكده ، أى : وعدكم .

* وعدا حسنا * يأتىكم على يدي ، أثناء غيابتي عنكم ، وهو مجسّد التوراة التي فيها صلاح دينكم ودنياكم وآخرتكم ، أو الثواب على طاعاتكم . بينما العجل الذى عبدتم ، لا يعرفكم ولا يشعر بتقربكم له بالعبادة ، ثم زاد في توبيخه وانكاره عليهم . قال تعالى : * أفتال عليكم العهد * والمراد بالعهد هنا : الزمان ، أى لم تطل غيابتي عنكم ، حتى تنسوا عبادة الواحد الأحد ، وتعبدون ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والاستفهام هنا انكارى بمعنى النفي ، أى : لم تطل غيابتي عليكم حتى تعتذروا بها عما وقعتم فيه ، وقد خلفت عليكم ، أخي هرون ، نبى الله تعالى ، فكيف عصيتموه ؟

ثم أضرب عن هذا التوبيخ إلى بيان دخائل نفوسهم ، وما رغبوا فيه ، وهو الوقوع في غضب الله تعالى ، باكتسابهم ما يوءدى بهم إليه : * أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي الذى وعدتمونى ، أثناء غيابتي عنكم ، باستقامتكم وثباتكم على الدين الحق .

وقد استشر بنو اسرائيل قبح ما صنعوا فحاولوا أن يعتذروا لموسى عليه السلام بما لا يصلح اعتذارا .

* قالوا ما آخلفنا موعدا بملكنا * أى برغبتنا وارادتنا .

* ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم * أى حملنا حلى المصريين التى استعرتها منهم لتتجمل بها في يوم عيد لنا ، ثم خرجنا بها من مصر ولم ندر ماذا نفعل فيها ، فأشار عليهم السامرى بالقائها في حفرة ، وقد ألقى مامعه من حلي في تلك الحفرة ليغرينا بالقائها ، لئلا ننتظر توجيهك فيها ، فأوقد عليها النار ، وصنع منها عجلا جسدا له خوار أضلنا به ، وأغرانا بعبادته .

قال تعالى * ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى *^(٢) والآن أعود إلى سورة الأعراف موضوع رسالتى لأتناول آيات هذه القصة بالتفسير وبذل الجهد فيها . والله المستعان وعليه التكال

(١) تفسير الألوسى (٢٤٤/١٦) .

(٢) سورة طه : الآية (٨٧) .

قال تعالى ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً لـ خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ (١)
أى اتخذوه إلهاً معبوداً ، والتضعيف في كلمة ﴿ اتخذ ﴾ يدل على أنهم تكلفوا ذلك وافتعلوه ، ولو فكروا أدنى تفكر لما حامت نفوسهم حول هذا الاتخاذ ولكن شهوة تقليدهم للمصريين ، الذين عاشروهم دهراً طويلاً ، هي التي حملتهم على هذا الاتخاذ، وهي التي جعلتهم يقولون لموسى عليه السلام ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم ، إلهة ﴾ وقوله تعالى ﴿ من حليهم ﴾ بيان لأن ما عبده أصله عندهم معروف ، وهو معدن من معادن الأرض ، فكيف عبده من دون الله تعالى ؟ وهل يليق في العقل أن تحول الحلي والزينة إلى شكل آخر - مهما ظهرت له من صفات مستغربة - يستدعى أن يكون إلهاً ؟

وقوله ﴿ عجلا جسداً ﴾ اختلف المفسرون في معناه ، وسأنقل لك نصوصهم في ذلك مرجحاً ما غلب على قلبي والله أعلم بالصواب .

قال الفخر رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ مانصه : (اختلفوا في أنه هل كان ذلك الجسد حياً أم لا ؟ فالقول الأول : لا - أى ليس ذلك الجسد حياً - لأنه لا يجوز اظهار خرق العادة على يد الضال ، بل السامرى صور صورة على شكل العجل ، وجعل فيها منافذ ومخارق ، بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل .

والقول الثاني : أنه صار حياً ، وخار كما يخور العجل ، واحتجوا عليه بوجوه :

أ - قوله ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ ولو لم يصر حياً لما بقي لهذا الكلام فائدة .

ب - أنه تعالى سماه عجلاً والعجل حقيقة في الحيوان ، وسماه جسداً وهو إنما يتناول الحي .

ج - أثبت له الخوار ، وأجابوا عن حجة الأولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعى الألوهية جائز لأنه لا يحصل الالتباس وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع (٣)

(١) سورة الاعراف ، آية (١٤٨) .

(٢) سورة طه ، آية (٩٦) .

(٣) تفسير الرازى (٢٢ / ١٠٣ ، ١٠٤) .

والراجح عندي (الله أعلم) أنه كان عجلا حقيقيا لقوله تعالى ﴿عجلا﴾ والعجل حقيقة في ولد البقر . ولوصفه له جل وعلا بقوله ﴿جسدا﴾ والجسد إنما يطلق على ما فيه السروح ولا غرابة في ذلك ، فتحويل الحلي إلى عجل حقيقى على يد السامري ليس خلقا من السامري إنما وقع بخلق الله ومراده لا اختيار بنى إسرائيل الذين غفلوا عن نعمه ، واشتهوا عبادة غيره ، كما ذكرته مرارا . فجعل الحلى عجلا حقيقيا أظهر في وقوعهم في تلك الفتنة من القول الأول القائل بأنه صور الحلي بصورة عجل ، وجعل فيه مجارى يمر فيها الريح فيحدث الصوت ، ولو كان هذا الرأي قويا لقال الله عزوجل (عجلا جسدا له صوت) ولكنه قال ﴿له خوار﴾ والخوار حقيقة في صوت البقر ، ومما يزيدنى استمساكا بما رجحته قول الألوسى : (وإلى القول بالحياة ذهب كثير من المفسرين)^(١) ومما يؤيد كون العجل كان قد نفخ فيه الروح ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده قال حدثنا أبي^(٢) ثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعائى^(٣) ، ثنا محمد بن ثور^(٤) عن معمر^(٥) عن قتادة^(٦) فى قوله ﴿ممن حليهم عجلا جسدا له خوار﴾ قال استعاروا حليا من آل فرعون فجمعه السامري فصاغ منه عجلا ، فجعله الله جسدا لحما ودما له خوار.^(٧)

(١) تفسير الألوسى (٩ / ٦٤) .

(٢) وهو أبو حاتم محمد بن ادريس بن المنذر بن داود بن مهران الحنظلى الرازى احد

الأئمة الحفاظ ولد سنة ١٩٥ هـ وهو من الطبقة الحادية عشرة .

انظر الجرح والتعديل (٣٤٩/١) ، سير أعلام النبلاء (١٣ / ٢٤٧) ، تذكرة الحفاظ (٥٦٧/٢) (

تهذيب التهذيب (٣١/٩) تقريب التهذيب (١٤٣/٢) .

(٣) محمد بن عبد الأعلى الصنعائى ، البصرى ثقة من الطبقة العاشرة مات سنة خمس وأربعين

انظر التهذيب (٢٨٩/٩) ، تقريب التهذيب (٢ / ١٨٤) .

(٤) محمد بن ثور الصنعائى أبو عبدالله العابد ، ثقة من التاسعة مات سنة تسعين ومائة

تقريبا انظر : تهذيب التهذيب (٨٧/٩) - تقريب التهذيب (٢ / ١٤٩) .

(٥) معمر بن راشد الازدى مولاهم ، أبو عروة البصرى ، نزيل اليمن ثقة ثبت فاضل من كبار

السابعة . مات سنة أربع وخمسين انظر تهذيب (٢٤٣/١٠) ، ميزان الاعتدال (١٥٤/٤) .

(٦) قتادة : قتادة بن دعامة السدوسى أبو الخطاب البصرى ثقة ثبت وهو رأس الطبقة

الرابعة مات سنة مائة وبضع عشرة .

انظر ابن سعد (٢٢٩:٧) ، الجرح والتعديل (١٣٣/٣/٢) ، الميزان (١٨٥/٣) التهذيب

(٨/٣٥١) ، التقريب (٢ / ١٢٣) .

درجة الأثر (صحيح الاسناد) ورجالة ثقات .

(٧) الدر المنثور للسيوطى (٩ / ٥٦٣) .

انظر تفسير ابن ابى حاتم (سورة الاعراف) تحقيق حمد بن ابى بكر (٢ / ٥٢١) .

وقوله تعالى ﴿ ألم يرو أنه لا يكلمهم ﴾ توبيخ لهم وتقريع ، والمقصود أنه لا يتأتى منه الكلام ، فهو خال من أية صفة تصلح لجعله إلها .

وقد اختار القرآن نفي صفة الكلام عن هذا العجل بالذات دون السمع والبصر وغيرهما ، لأن بني إسرائيل كانوا يعلمون يقينا أن الله تعالى يكلم موسى عليه السلام ، وأنه يتلقى من ربه بلا واسطة ، فكيف يعرضون عن عبادة هذا الاله إلى عبادة عجل لا يتكلم .

ثم نفي اتصاف هذا العجل بأية صفة تستدعي التباس الأمر عليهم فيه فقال ﴿ ولا يهديهم سبيلا ﴾ بوجه من الوجوه ، لأنه عار عن سائر الصفات التي تمكنه من ذلك .

ولذلك ختمت هذه الآية ببيان طبيعة بني إسرائيل ، وهي استمرارهم على الظلم بوضع الشيء في غير موضعه ، وتعاميهم عن الحق مع ظهوره * اتخذوه وكانوا ظلمين ﴾^(١) أي أن المعصية دأبهم ، فليس اتخاذهم العجل بأول منكر فعلوه .

وهكذا تصور لنا الآيات السابقة ضلال وكفر بني إسرائيل ، وعبادتهم العجل الذي يذبحونه بأيديهم ليأكلوه ، وكونه منقلباً عن ذهب كما رجحته سابقا لايخرجه عن كونه عجلا ، يتلذذ الإنسان بأكل لحمه ، وكان عليهم أن يجتهدوا في عبادة ربهم الذي حول ذهبهم إلى عجل جسد له خسوار ، فالسامري لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بقبضة من أثر جبريل عليه^(٢) عليه السلام ، ومكان لأثر جبريل هذا التأثير إلا لكونه عبداً لبارئ السموات والارض .

(١) سورة الأعراف : الآية (١٤٨) .

(٢) قال تعالى في سورة طه الآية (٩٦) ﴿ قال ماخطبك يسمري . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ﴾ فالمراد فقبضت قبضة من التراب الذى مر عليه فرس جبريل . كما صرح بذلك الروايات فى كتب التفسير . انظر تفسير الالوسى (٦٤/٩) .

أخرج ابن أبي حاتم قال (حدثنا أبي ، ثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح (٣)
 عن علي بن أبي طلحة (٤) عن ابن عباس ، قال : وكان السامري قد أبصر جبريل عليه السلام
 على فرس وأخذ من أثر الفرس قبضة من تراب فقال حين مضى ثلاثون ليلة : يا بني إسرائيل إن
 معكم طيبا من حلي آل فرعون وهذا حرام عليكم . فهاتوا ما عندكم نحرقتها فأتوه ما كان
 عندهم فأوقدوا نارا فألقى الحلى في النار فلما ذاب الحلى ألقى تلك القبضة من تراب
 في النار فصار عجلا جسدا له خوار ، فخار خوارة لم يثن) . (٦)

(١) سبقت ترجمته . (ض ٣٧٤) .

(٢) أبو صالح : هو أبو عبدالله بن صالح بن محمد بن مسلم الجهني مولاهم المصري ، قال
 عبدالملك حفيد الليث ثقة مأمون وقال أحمد كان أول أمره متمسكا ثم فسد بآخره .
 وقال أبو زرعة : لم يكن عندي ممن يتعمد الكذب في الحديث ، وقال ابن عدي هو عندي
 مستقيم - وقال ابن حجر صدوق كثير الغلط ثبت في كتابه . وكانت فيه غفلة مس
 الطبقة العاشرة مات سنة اثنين وعشرين وله خمس وثمانون سنة انظر الميزان (٤٤٠ / ٢)
 التهذيب (٥ / ٢٥٦) تقريب (١ / ٤٢٣) .

(٣) معاوية بن صالح بن حدير بن سعيد بن فهد الحضرمي من ابوعمر و قيل أبو عبدالرحمن
 الحمصي وثقه ابن مهدي والعجلي والنسائي وأبو زرعة وابن سعد والبخاري وقال مرة
 ليس به بأس وذكره ابن حبان في الثقات وقال ، ابن عدي وابن خراش صدوق قال ابن حجر : صدوق
 له أوهام من الطبقة السابعة مات سنة ثمان وخمسين وقيل بعد السبعين انظر تهذيب
 التهذيب (١٠ / ٢٠٩) ، تقريب (٢ / ٢٥٩) .

(٤) علي بن أبي طلحة واسمه سالم بن المخارق الهاشمي ، يكنى أبا الحسن وقيل غير ذلك
 أصله من الجزيرة وانتقل إلى حمص أخذ تفسير ابن عباس عن مجاهد فلم يذكر اسم مجاهد
 بل أرسله عن ابن عباس وثقه العجلي وذكره ابن حبان في الثقات ، وقال النسائي ليس به
 بأس وقال له أشياء منكورة ، وقال ابن حجر : صدوق قد يخطئ من الطبقة السادسة
 مات سنة ثلاثة وأربعين انظر ميزان الاعتدال (٣ / ١٢٤) تهذيب (٧ / ٣٣٩) تقريب (٢ / ٢٩٩) .

(٥) ابن عباس حبر الأمة ، وترجمان القرآن وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم
 ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات وتوفي سنة سبع أو ثمان وستون ، انظر سير أعلام
 النبلاء (٣ / ٣٣١) .

درجة الأثر : هذا أصح الأسانيد عن ابن عباس في التفسير وما يرويه ابن أبي حاتم
 بهذا السند هو النسخة المشهورة لعلي بن أبي طلحة .
 قال احمد بن حنبل (بمصر صحيفة في تفسير القرآن رواها علي بن أبي طلحة لورجل
 رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيرا) ولولا صحة هذه النسخة لما قال فيها احمد
 مقال .

قال ابن حجر : (وهذه النسخة كانت عند ابن صالح كاتب الليث وهي عند البخاري عن
 أبي صالح وقد اعتمد عليها في صحيحه كثيرا فيما يعلقه عن ابن عباس .
 انظر الاتقان (٤ / ٢٠٧) في النوع الثمانين طبقات المفسرين .

(المبحث الثامن)

(ندم قوم موسى على عبادتهم العجل)

قال تعالى : ﴿ ولما سُقِطَ فِيْ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا
لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١) .

قوله تعالى ﴿ ولما سُقِطَ فِيْ أَيْدِيهِمْ ﴾ كناية عن شدة الندم الذى
حل بهم بعد عبادتهم للعجل ، وبالغ تأسفهم على مخالفتهم أوامر نبيهم
عليه السلام .

وقد عبر عنه بالسقوط في اليد ، لأن النادم يعض على يده فتصير
يده مسقوطة فيها ، لأن فاه قد وقع فيها . (٢) ونظير ذلك قوله تعالى
﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ (٣) ،
أو يضرب باحدى يديه على الأخرى من الندم كما قال تعالى ﴿ وَأَحْيَيْتْ بِشْمِرِهِ
فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفِيهِ عَلَى مَأْأَنْفِقٍ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي
لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّيَ أَحَدًا ﴾ (٤) .

وقوله ﴿ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ﴾ أى تبينوا ضلالهم باتخاذهم
العجل ، وأيقنوا أنهم جاروا عن قصد السبيل ، وانحرفوا عن دين الله
الحق ، إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر ، وقد تبينوا ذلك كأنهم قد
أبصروه بعيونهم وعيونه .

وفى تقديم الندم على الروئية مع كونه متأخرا عنها ، للمسارة
إلى بيانه ، والإشعار بغاية سرعتة . (٥)

ولفرط ندمهم وتأسفهم على ما وقع منهم قالوا مبتهلين إلى الله
جل وعلا وجلين ﴿ قالوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ الذى وسعت رحمته كل شىء
فيتوب علينا ويكفر عنا سيئاتنا .

﴿ وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ بتجاوزه عن خطيئتنا .

- (١) سورة الأعراف : الآية (١٤٩) .
- (٢) انظر تفسير الرازى (٨-٧/١٥) .
- (٣) سورة الفرقان : الآية (٢٧) .
- (٤) سورة الكهف : الآية (٤٢) .
- (٥) انظر تفسير الألوسى (٦٥ ، ٦٤/٩) .

* لنكونن من الخُسرين * جواب قسم تقديره (والله لئن لم يرحمنا ربنا) ، وتوبتهم هذه كانت بعد رجوع موسى عليه السلام من ميقات ربه ، وانكاره لما وجدهم عليه ، وتأنيبهم وتوبيخهم ، بدليل قوله تعالى حكاية عنهم عندما نهاهم هرون عن عبادة العجل * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى *^(١) وبدليل الوهلة والغضب الذي أصاب موسى عليه السلام عندما رآهم عاكفين على عبادة العجل ، فطرح الألواح على الأرض * ولما رجع موسى إلى قومه غضبن أسفا قال بثسما خلفتموني من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح *^(٢) وسوف يمر عليك بعد هذا المبحث تفصيل ذلك .

لقد قال بنو اسرائيل * لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لتكونن من الخُسرين * أى الهالكين لامحالة ، مقدمين الرحمة على المغفرة لبيان قبح ذنبهم ، وأنه لا يغفر إلا برحمة عظيمة من الله تعالى ، فهل رحمهم وغفر لهم ؟

سأرجىء الجواب عن هذا السوءال إلى تفسير قوله تعالى :

* إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين *^(٣)

-
- (١) سورة طه ، الآية (٩١) .
(٢) سورة الاعراف ، الآية (١٥٠) .
(٣) سورة الاعراف ، الآية (١٥٢) .

(المبحث التاسع)

(توبيخ موسى عليه السلام لقومه على عبادتهم العجل)

قال تعالى ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بشمما خلفتموني من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح ﴾ .^(١)

وقوله ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه ﴾ بعد أن استوفى الميقات الذي ضربه له ربه ، ليكلمه بعده ، ولينزل التوراة التي فيها موعظة وتفصيل لكل شيء مما يحتاج اليه بنو اسرائيل ، وقد أعلمه ربه بما أحدثه قومه من عبادة العجل في غيبته أثناء هذا الميقات كما بينته سابقا ، رجوع عليه السلام إلى قومه وهو غضبان عليهم أشد ما يكون الغضب ، لما أحدثوه في غيبته ، (أسفا) أى : حزينا أشد ما يكون الحزن على فعلة قومه التكرار ، وعلى أنهم لم يذكروا ما أنعم الله تعالى به عليهم مما أشرت إليه أكثر من مرة ، وأنهم لخفة عقولهم ، وقلة يقينهم ، تقبلوا خدعة السامري لهم برغبة وحب ، إلى حد أنهم قطعوا الطريق على هرون عليه السلام لما بين لهم بطلان ما هم عليه من عبادة العجل ، بما حكاه الله عنهم ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾^(٢) بل لقد هموا بقتله كما ستقف عليه في آخر هذه الآية الكريمة ، ولذا عبرت الآية عن غضب موسى وحزنه بصيغتين من صيغ المبالغة (فعلان وفعل) .

فقوله (غضبان) أى ممتلئا غضبا ، وشدة الغضب في الله من خصال الخير ، وشدة الحزن كذلك ، وكان نبينا صلوات الله وسلامه عليه لا يغضب لنفسه ، فاذا انتهكت حرمة الله غضب لذلك غضبا لا يقوم معه شع وأن قرابة بنى اسرائيل لم تغن عنهم شيئا عنده لما حادوا عن الحق ، وقد أشد حزنه عليهم لكفرهم بالله وهو بين أظهرهم ، ولأنهم أبناء أنبياء كرام ، فانحرفهم عن الحق يستتبع انحراف غيرهم عنه غالبا ، ولا تستغرب إذا قلت لك إن اليهود أو بنى اسرائيل - سمهم كما شئت - هم سب نكبة أغلب العالم قديما وحديثا !!!

(١) سورة الأعراف : الآية (١٥٠) .

(٢) أنظر ص ٣٧٤ من بحثنا هذا .

(٣) سورة طه الآية (٩١) .

وقوله (أسفا) قال الإمام الفخر الرازي (في الأسف قولان :

الأول : أن الأسف الشديد الغضب ، وهو قول أبي الدرداء وعطاء ، عن ابن عباس واختيار الزجاج ، واحتجوا بقوله * فلما أسفونا انتقمنا منهم * أي أغضبونا .^(١)

والثاني: وهو أيضا قول ابن عباس والحسن والسدي . ان الأسف هو الحزين ، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (إن أبا بكر رجل أسيف) ، أي : حزين ، .

قال الواحدى : والقولان متقاربان ، لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب ، فاذا جاءك ما تكره ممن هو من دونك غضبت ، وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت ، فتسمى احدى هاتين الحالتين حزنا والأخرى غضبا ، فعلى هذا كان موسى غضبان على قومه لاجل عبادتهم العجل ، أسفا حزينا لأن الله فتنهم وقد كان تعالى قال له : * قال فإننا قد فتنا قومك من بعدك *^(٢) (٣) وجواب (لما) قوله تعالى * قال بئسما خلفتموني من بعدى * .

ف (ما) نكره موصوفة ، تفسر فاعل بئس المستتر والمخصوص بالذم محذوف تقديره : بئس خلافة خلفتموني بها أثناء غيبتى عنكم لأتلقى من ربي ما فيه صلاحكم .

والخطاب في قوله (خلفتموني) إما لعبدة العجل ، وهو الراجح عندي ، وأما لهرون ومن معه ممن ثبت على إيمانه ، والمعنى على هذا التقدير (الأخير) أن موسى عليه السلام لام هرون ومن معه على تقصيرهم في منع عبدة العجل من عبادتهم ، ولم يكن يعلم عليه السلام مقاومة هارون لهؤلاء العبدة ، ولا همهم بقتله ، بل ظن أنه ومن معه قد خافوهم لكثرتهم ، فلم ينصحوهم .

ولكن حمل الخطاب على العبدة أوفق ليتلاوم مع قوله تعالى — * أعجلتم أمر ربكم * لأن العجلة غير متصورة من هرون عليه السلام ،

(١) الزخرف ، الآية (٥٥) .

(٢) سورة طه : الآية (٨٥) .

(٣) تفسير الرازي (١٥/١٠) .

ولأن آخر هذه الآية صريح في لوم هارون ، فلو جعل الخطاب لهارون ومن معه من الموءمنين ، لخلت الآية من لوم عبدة العجل ، مع أنه الأولى بالذكر ، والاستفهام في قوله تعالى ﴿ أعجلتم أمر ربكم ؟ ﴾ انكارى تحقيقى على معنى قد عجلتم أمر ربكم ، وإنما عدل عن التحقيق لابرار إنكار موسى عليهم لتلك العجلة ، وقد قيل في معنى العجلة : هي فعل الشيء قبل وقته بخلاف السرعة . فانها فعل الشيء في أول وقته . ولذا ذم بعضهم العجلة ولم يذم السرعة . (١)

والمراد بأمر ربهم الذى استعجلوه : هو وعده تعالى لموسى عليه السلام أن يأتى ربه بعد مضي ثلاثين ليلة وقد عرفت فيما أسلفت لك ، أن موسى عليه السلام صام كل هذه الأيام بلياليها ، وأنه لما أنكر رائجة فمه تسوك ، فزاده الله عليها عشرة ، فلما لم يرجع إليهم على رأس الثلاثين ، ظنوا أنه قد مات ، فغيروا وبدلوا ، وكفروا بالله ، مع وجود هارون النبى بينهم واستخلاف موسى إياه عليهم ، وهذا أمر عجيب حقا ، يقتضى الانكار عليهم ، ويرى عطاء : أن المراد بأمر ربهم الذى استعجلوه : سخطه عليهم ، وعذابه لهم ، والمعنى على هذا الرأى الأخير : قد عجلتم عذاب ربكم لكم بعبادتكم العجل واستقرار حبه في قلوبكم .

وقد ذكرت الآية لشدة غضب موسى عليه السلام مظاهر :

- (١) قوله لقومه : ﴿ بئسما خلفتموني من بعدى ﴾
- (٢) وقوله تعالى : ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾
- (٣) وقوله تعالى : ﴿ وألقى الألواح ﴾
- (٤) وقوله تعالى : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾

وهذه المظاهر تبين لك تهاوى الباطل وتخاذله أمام الحق وشدته ، فان بنى اسرائيل عبدة العجل لما رأوا شدة غضب موسى عليه السلام - مع كثرتهم - رأوا أنفسهم كعصافير محبوسة في قفص ، لا يعنى صائدها عن أخذها وحاولوا أن يجتهدوا في الاعتذار إليه ، وذكر السبب الذى به ضلوا كما ذكرته سورة طه وهو قوله تعالى ﴿ قالوا ما آخلفنا موعدك بملكننا ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامري ﴾ (٣) وقد

(١) بتصرف من تفسير الرازى (١٠/١٥ - ١١) .

(٢) انظر ص ٣٤٦ - ٣٤٧ من بحثنا هذا .

(٣) سورة طه (٨٧) .

تناولت هذه الآية في المقدمة لعبادة بنى اسرائيل العجل ، فتأمل موقف بنى إسرائيل مع موسى القائم على الاعتذار ، وعلى ما عراهم من خوفهم بطش الكليم بهم ، وموقفهم من هارون حين قالوا له : ﴿ لن نبرح عليه عكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾^(١) فانهم قالوا ذلك لاستضعافهم له ، وعدم خشيتهم من صولته ، وهكذا أهل الباطل يتبجحون بباطلهم مافقدوا الرادع القوي ، فاذا ردعوا ، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وكادت قلوبهم تبلغ حناجرهم ، وقوله تعالى ﴿ وألقى الألواح ﴾ للمفسرين في هذه الجملة كلام طويل وكثير أنفذ إلى أقواه وأرجحه بلا دخول في سرد ما قالوه .

والسبب في كثرة ما قيل حول هذه الجملة الكريمة هو التعبير بكلمة (ألقى) مكان كلمة (وضع) . فان كلمة (ألقى) تعنى : القاء مافي اليد بلا مبالاة ، وكلمه (وضع) تعنى وضع مافي اليد بتريث وتحفظ لما وضع .

والواقع أن (ألقى) هنا بمعنى وضع وقد اختار القرآن التعبير بها ، ليمهد بها لما بعدها ، وهو قوله تعالى ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ فان الأخذ لا يكون الا باليد ، ولا يستطيع ذلك الا اذا فرغت يده مما فيها ، وموسى عليه السلام انما أسرع بالقاء ما في يده ، لما يرى أن ما بعد من الأهمية بمكان ، ولذا وضع ما بيده من الألواح ، ليتفرغ لمسألة أخيه والأخـذ برأسه . لا أن شدة الغضب هي التي حملته على القاء الألواح بدون النظر لما يحدث لها بسبب اللقاء ، ومما يقوى ما ملت اليه ، أن هذه الجملة جاءت لممدح موسى وبيان شدة غيرته في دين الله تعالى .

وأما ما قيل من تكسر معظمها باللقاء ، فرفع المكسر بما فيه ، فلم يثبت في حديث صحيح حتى نعول عليه ، وفي جعل الإلقاء الذى أدى إلى تكسر الألواح ناشئا عن استيلاء الغضب على موسى عليه السلام ، مما جعله ينسى قدسية الألواح التي بيده ، لايساعده ظاهر النص ، لأن هذه الجملة كما قلت لم ترد للعتاب .

والذين قالوا بتكسر الألواح استدلوا بالحديث الذى أورده الألوسى في تفسيره ، (أخرج أحمد وغيره وعبد بن حميد والبخاري وابن أبي حاتم وابن حبان والطبرانى وغيرهم عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى

(١) سورة طه (٩١) .

الله عليه وآله وسلم " يرحم الله تعالى موسى ليس المعايين كالمخبر، أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومه فتنوا بعده ، فلم يلق الألواح فلما رآهم وعايينهم ألقى الألواح ، فتكسر منها ما تكسر (١)

هذا الحديث أثبت تكسر بعض الألواح وقد أخرجه الامام أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب السنة وأثبت أيضا التكسر واليك نص الحديث .

حدثني أبي ناسريج بن النعمان ناهشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ليس الخبر كالمعاينة ان الله عز وجل - اخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت) . (٢)

قلت : (الحديث إسناده ضعيف) لان فيه هشيم وهو بن بشير السلمى أبو معاوية ابن أبي حازم الواسطي - ثقة ثبت كثير التدليس والارسال الخفى . (٣)

والحديث نفسه أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم في المستدرک بدون ذكر التفسير أخرج ابن أبي حاتم بسنده قال (حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، ثنا عفان ثنا أبو عوانه عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : يرحم الله موسى ليس المعايين كالمخبر ، أخبره ربه تبارك وتعالى أن قومه فتنوا ، فلم يلق الألواح فلما رآهم وعايينهم ألقى الألواح) . (٤)

أخرجه الحاكم في المستدرک في كتاب تفسير سورة الاعراف (٢ / ٢٢١) وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وأقره الذهبى

وقد ذكر ابن أبي حاتم بعد هذه الرواية رواية أخرى قال : (حدثنا أبي حدثنا احمد بن ابراهيم الدورقي ثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني يعلي بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : أنه ألقى موسى الألواح

(١) تفسير الألوسى : (٦٧/٩) .

(٢) كتاب السنة للإمام ابن عبد الرحمن عبد الله بن احمد بن حنبل تحقيق

د . محمد بن سعيد القحطاني . جامعة ام القرى ط دار ابن القيم .

(٣) انظر التقريب (٢ / ٣٢٠)

(٤) انظر تفسير سورة الاعراف للشيخ حمد بن ابى بكر . (٢ / ٥٢٥) .

(١)

فتكسرت فرفعت إلا سدسها) .

وأخرج الحديث الذى نحن بصدده دراسة الحاكم فى المستدرک بدون ذكر التفسير (عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس الخبر كالمعاينة ان الله خبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح فلما عين ما صنعوا ألقى الألواح) هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ووافقته الذهبى . (٢)

فقد تبين لك من دراسة متن الحديثين وسندهما أن الحديث الذى لم يتعرض للتفسير حسن أو صحيح بينما الحديث الذى تعرض للتفسير والذى قد يشم منه الطعن على الكليم فى الالتقاء ضعيف لا يعول عليه فى مثل هذا المقام لأن الأنبياء معصومون عن الأحوال العادية التى لاتجوز فى حقهم مع جوازها من غيرهم .

والذى يفهم من الحديث بيان سبب القاء الألواح ، فهو بمشابهة الاعتذار عن أخيه هارون مما قد يظن به ، مما لا يليق بمقامه عليه السلام وهو أيضا مدح له كآلية تماما والله أعلم بالصواب .

قال الفخر الرازى رحمه الله : ليس فى القرآن الا أنه ألقى

الألواح فأما أنه ألقاها بحيث تكسرت . فهذا ليس فى القرآن وانه لجرأة عظيمة على كتاب الله ومثله لا يليق بالأنبياء عليهم السلام . (٣)

(١) الحديث اسناده ضعيف لأن فى سنده (حجاج) وهو بن محمد المصيص الأعور أبو محمد مولى سليمان بن مجالد ترمذى الأصل سكن بغداد ثم تحول إلى المصيصة ثقة ثبت لكنه احتلاط فى آخر عمره لم قدم بغداد وقد مات بها سنة ست ومائتين . أنظر الميزان (١ / ٤٦٤) ، التهذيب (٢ / ٢٠٥) ، التقريب (١ / ١٥٤) ، أنظر تفسير سورة الأعراف للشيخ حمد بن أبى بكر (٢ / ٥٢٦)

(٢) المستدرک للحاكم (٢ / ٣٢١)

(٣) تفسير الرازى (١٥ / ١١)

(المبحث العاشر)

(لوم موسى عليه السلام لأخيه هارون ودفاع هارون

عن نفسه)

قال تعالى ﴿ ٠٠٠ وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أمّ إن القوم
استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم
الظلمين ﴾ (١)

قبل أن أشعر في تفسير هذه الآيات الكريمة ، لايد أن أبين الحوار
الذي حدث بين موسى وأخيه ، والذي فصلته سورة طه ، ليكون القارئ على
علم بالأحداث التي صاحبت هذه الحادثة ، ولأن القرآن وحدة متكاملة ، فما
أجمل في موضع يفصل في موضع آخر ، وهذه إحدى سمات الإعجاز في كتاب الله
العزیز .

قال تعالى ﴿ قال يلهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن
أنفصيت أمرى ﴾ (٢) أى لماذا لم تسارع إلى إخبارى وإعلامى بما أحدثوه من
عبادة العجل ، فمكاني منكم ليس ببعيد عنكم ؟ ويستدل بالآية على حرص
الرسول الشديد عليهم الصلاة والسلام على هداية أقوامهم ، ونجاتهم
وفلاحهم ، واحترازهم البالغ من وقوع أممهم في المهالك .

﴿ أفصيت أمرى ﴾ ؟ استفهام انكارى ، أى : هل عصيت ما أمرتك
به من استخلافك على قومى ؟ ، كما حكاه القرآن ﴿ وقال موسى لأخيه
هارون أخلفني في قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ (٣)

فأخذ هارون يدافع عن نفسه بقوله ﴿ قال يبنؤم لاتأخذ بلحيتى
ولا برأسى إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾ (٤)
يفهم من الآية : ان الغضب قد أخذ مأخذه من موسى ، لمخالفة قومه ما
تركهم عليه ، فقد أخذ موسى بلحية ورأس هارون يجره إليه يعنفه على
الذى حدث .

-
- (١) سورة الاعراف : الآية (١٥٠) .
 - (٢) سورة طه : الآية (٩٣،٩٢) .
 - (٣) سورة الاعراف : الآية (١٤٢) .
 - (٤) سورة طه : الآية (٩٤) .

فقال هارون ﴿إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل﴾.

أى : خشيت أن فارقتهم - ﴿ وأتيت إليك لإخبارك بما أحدثته قومك ﴾
- ولحق بي من هم باقون معى على الإيمان . ولحق الفريق الآخر السامرى
أن تقول حينئذ : فرقت بين بنى اسرائيل .

﴿ ولم ترقب قولى ﴾ أى لم تحافظ وتراجع ماقلت لك ، إشارة إلى
قوله تعالى ﴿ أخلفنى في قومى وأصلح ... ﴾ وفي الآية دليل على جـواز
الاجتهاد ، وأعود إلى سورة الأعراف فقوله ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ أى بشعر
رأس هارون عليه السلام ﴿ يجره إليه ﴾ ظنا منه أنه فرط في نصحهم وكفهم
وقد فعل موسى عليه السلام بأخيه هارون ذلك مع أنه أكبر منه سنا، وذلك
لشدة غضبه وفرط غيظه ، ولم يقصد موسى بهذا إهانته والاستخفاف به بل
للوم والتأنيب على التقصير المظنون ، بحكم الرئاسة وفرط الحمية .
هذا وقد فسر الرازى رحمه الله أخذ موسى رأس أخيه يجره إليه
(١)
ليساره ويستكشف منه كيفية الواقعة .

وهذا يمنعه صريح منطوق الآية ، لأن دفاع هارون عن نفسه بقوله
﴿ ابن أم ﴾ فيه استعطاف واسترحام فهو يستجيش عاطفة الأخوة في قلب
موسى بنداء رقيق يا ﴿ ابن أم ﴾ لا تعجل بلومى وتعنيفى فما آليت جهدا
في الإنكار عليهم ، وما قصرت في نصيحتهم ، لكنهم لم يستمعوا لنصحي،
واستضعفوني وأوشكوا أن يقتلوني ، فلا تفعل بي ما هو محل شماتتهم من
الاستهانة بي والأساءة الي .

﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ أى بغضبك علي وذلك من هارون
عليه السلام تواضع تام وأدب جم مع أخيه موسى، الذى له الرئاسة ، والذى
بطلبته وبرغبته نال هارون عليه السلام النبوة والوزارة لموسى عليه
السلام ، قال تعالى ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا ﴾ وقوله
(٢)
تعالى ﴿ واجعل لي وزيرا من أهلي . هرون أخى أشدد به أزرى . وأشركه
في أمرى . كي نسحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا
قال قد أوثيت سؤلك لموسى ﴾ (٤)

(١) تفسير الرازى (١١/١٥) .

(٢) أى لموسى .

(٣) سورة مريم : الآية (٥٣) .

(٤) سورة طه : من الآية (٢٩ - ٣٦)

(اعتذار موسى لربه عما بدر منه لأخيه)

(١) * قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين *
لما عرف موسى عليه السلام أن أخاه هارون لم يقصر في نصح القوم وأنهم
تمالوا عليه . وأن موسى قال له * أخلفني في قومي * ولم يقل لــــه :
(إن بدرت منهم مخالفة فاتبعني لتخبرني بها) - سأل ربه أن يغفر له ما
بدر منه مع أخيه وأن يغفر لأخيه إن كان قد حصل منه تقصير - ولم يقصر - ،
هذا ما قرر المفسرون ^(٢) وهو كلام حسن ، والذي أراه والله أعلم أن موسى
عليه السلام طلب المغفرة عامة له ولأخيه ولم يحصرها في شيء محدد كما
ذكر المفسرون ، لا لأنه أساء في الحقيقة لهارون فهو معذور فيما فعل معه
وإنما طلب المغفرة له ولأخيه اعتذاراً إلى ربه سبحانه وتعالى ، لا عن شيء
حدث ، وإنما يرى أنه مع شدة غضبه وأسفه وتوبيخه لقومه لم يبلغ في نظر
نفسه غاية ما هو مطلوب ، وإن كان في الواقع قد فعل أقصى ما يمكن فعله
اعتذاراً إلى الله تعالى إن كان قد قصر وهو في الحقيقة لم يقصر .

وصدر هذه الآية يعلمنا أننا مهما حصلنا من التقوى ، ومهما
اجتهدنا من العمل الصالح ، فلا نفتخر بما عملنا ، بل ننحو على أنفسنا
باللائمة والاتهام ، وقوله تعالى : * وأدخلنا في رحمتك * أى : أدخلنا
وأخى في رحمتك التي خصت بها أحبائك ، والتي لاينالهم معها ضيم ، والتي
لاتخرجهم منها بكرمك .

وقوله * وأنت أرحم الراحمين * تذييل أريد به سعة رحمة الله
تعالى والمعنى فأنت يا حى يا قيوم بفرط رحمتك لاخرج عليك إذا أدخلتنا في
رحمتك .

(١) سورة الأعراف : الآية (١٥١) .

(٢) انظر تفسير الألوسي (٦٨/٩) ، الرازى (١٢/١٥) ، النسفى

(٧٩/٢) .

(المبحث الثاني عشر)

(نقمة الله جل وعلا على من لم يعتذر إلى ربه)

عن عبادة العجل ، وتوبته على المعتذرين)

قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلِيلَةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ (١)

في هذه الآية الكريمة بين جل وعلا نقمته في الدنيا والآخرة على من صنع العجل ، أو ساعد في صنعه ، أو حرض السامري على فعله ، كما سأرجعه .

وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الآية الكريمة والذي رجح عندي بعد استعراض ودراسة أقوالهم ، أن هذه الآية في السامري وأضرابه الذين أشربوا حب العجل في قلوبهم ، ولم يعتذروا إلى ربه بما حكاه الله سلفا عن المعتذرين ﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٢)

فالمعنى إذن (إن الذين صنعوا العجل ليكون إلها لبنى إسرائيل بقصد اضلالهم وفتنتهم عن التوحيد ، كالسامري ومشايغيه في هذا الأمر ، لا يتوب الله عليهم في الدنيا وإن تابوا ، فهم مستثنون من آيات التوبة كما أستثنى إبليس لعنه الله) ، والإتيان هنا بمعنى : الصنع ، ولذا لم يصرح القرآن بالمفعول الثاني لـ ﴿ اتخذوا ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ سينالهم ﴾ بالسين هو اخبار لموسى عليه السلام عن حال هؤلاء الصانعين ، وأن ما ذكر من العقاب واقع بهم عن قرب ، وقد كان كما حكته سورة طه .

قال تعالى : ﴿ قال فما خطبك يا سمرئيل . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبدتها وكذلك سولت لي نفسي . قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لامس وإن لك موعدا لن تخلفه وانظر

(١) سورة الأعراف ، الآية (١٥٢) .

(٢) سورة الأعراف ، الآية (١٤٩) .

(١) **الَّذِي ظَلَمَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لِنَارِهِ ثُمَّ لِنَفْسِهِ فِي الْيَمِّ نَسْفًا** *

فهاتان الآيتان صريحتان في أنه لاتوبة للسامري، وأنه إن تساب
لايتوب الله عليه ، وهذا ما أجملته سورة الأعراف في قوله تعالى ﴿ سيئالهم
غضب من ربهم ﴾ أي سيحل عليهم غضب شديد من ربهم ، الذي شأنه رحمتهم
ورعايتهم ، لكنه رفع عنهم الرحمة لكونهم ليسوا بأهل لها ، وأن هذا
الغضب واقع عليهم في الدنيا والآخرة ، ولذا جاء به القرآن منكرا
لتستشعر فظاعته وشدته ووصفه بأنه ﴿ من ربهم ﴾ لتعلم أن الرحمــن
انما حرمهم الرحمة لأنهم لا يستحقونها ، وأنه جعل الذلة والهوان نصيبهم
في الدنيا وأنهم مزدرون ، لا يمسون ولا يخالطون ، وإذا كانت آيتا طه
قد بينتا حالة السامري فأية الأعراف قد بينت مثاله ﴿ وذلة في الحيوة
الدنيا ﴾ الذلة التي اختص بها السامري من الانفراد عن الناس والابتلاء
بلا مساس (٢) مع أشياعه الذين تميزوا عن سائر بنى اسرائيل بشدة الضلال
والاضلال ، ثم ختم تبارك وتعالى هذه الآية بقوله ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾
أي وهكذا العقاب الشديد الدنيوي والأخروي الذي حل على السامري وأضراجه
نجزي ونعاقب به كل مفتر في دين الله وكل مبتدع ، وكل متقول على الله
مالم يقل ، إذ الافتراء ، هو قول الزور والبهتان .

هذا وإن كل يهودى لايوء من بالأنبياء بعد موسى عليه السلام، ويعين
على قتلهم كما حكاه القرآن ، ولا يؤ من بإمام الرسل نبينا محمد صلى
الله عليه وسلم ، داخل في هذه الآية وفي هذا الغضب الشديد، وتلك الذلة
إلي يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبآءوا بغضب من الله
ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق
ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (٣)

هذا ما رجح عندي وللمفسرين محامل أخرى أذكرها فيما يلي

(١) سورة طه الآيتان (٩٦ - ٩٧) .

(٢) يروى أن بقاياهم اليوم يقولون ذلك وإذا مس أحدهم أحد غيرهم

حما جميعا . والله أعلم . انظر تفسير ابي السعود (٢٧٥/٣) .

(٣) البقرة ، الآية (٦١) .

باختصار إكمالا للفائدة :

حمل بعضهم الآية على اليهود المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله
(١) وسلم بتقدير : إن الذين اتخذ آباؤهم العجل سينالهم غضب من ربهم
..... الخ .

كما حمل لبني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وليهود خيبر
(٢) وفدك ووادي القرى واخبارهم في السيرة معروفة ...

وحملها بعضهم على عموم بني اسرائيل وأن شدة الغضب التي حلت
(٣) عليهم قد تمثلت في شكل توبتهم التي لم يعامل بها أحد قبلهم ولا بعدهم ،
وأن الذلة التي أصابتهم في الدنيا ، هي خزيم بعبادة العجل ،
واستحقارهم أنفسهم لما استنارت قلوبهم .

وقوله تعالى ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا ﴾
(٤) إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴿

وقوله تعالى ﴿ والذين عملوا السيئات ﴾ أي : الكفر فما دونه
من الذنوب ، ﴿ ثم تابوا من بعدها ﴾ أي من بعد فعل تلك السيئات
ورجعوا عنها وأقلعوا ﴿ وآمنوا ﴾ بالله حق الايمان وأنه لا يليق أن يعصوه
أو أن يكفروا به ، واستصحبوا ذلك الايمان وتلك التوبة حتى خرجوا من هذه
الدنيا ، فان الله يقبل توبتهم ، ويفرح بها ، بل يحبهم برجوعهم اليه
أشد الحب ، قال تعالى ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾
وقوله ﴿ إن ربك ﴾ أي يامحمد صلى الله عليك وآلك وسلم ، والإضافة
هنا للتشريف فهو رب السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن ، فاختصاص
الإضافة مصرح بعلو شأنه عند ربه ﴿ من بعدها ﴾ أي من بعد تلك التوبة
الصادقة .

﴿ لغفور ﴾ أي ستور وصفوح عن زلاتهم .

- (١) قال أبو السعود رحمه الله : " فان تعبير الأبناء بأفاعيل الآباء
مشهور معروف منه قوله تعالى (وإن قتلتم نفسا الآية)
وقوله تعالى (وإن قتلتم ياموسى الآية)
- (٢) انظر سيرة ابن هشام (٥٢/٣ ، ٢٠٠ ، ٢٤٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧١ ، ٣٧٢) .
- (٣) حديث أمروا بقتل بعضهم بعضا ... كما سوف يمر عليك بيانه .
- (٤) سورة الاعراف : الآية (١٥٣) .

﴿رحيم﴾ بهم أى يقييل عثراتهم ، ولا يبقئهم أسرى لذنوبهم ، وقد أكد ذلك (بان واللام) ليطمع عباده في كرمه ، ولئلا يياسوا من رحمته مهما قبحت ذنوبهم ومهما أتوا من الكفر ، قال تعالى : ﴿ قل للذيــــن كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾^(١)

وهذه الآية بشاراة عامة للمؤمنين من كل أمة ، وهى بأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ألقى ، غير أن توبة الله على بنى اسرائيل كانت أمرا عجبا ، يماثل كفرهم الأعجب والأغرب ، وقد تكفلت سورة البقرة ببيان تلك التوبة .

قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يلقى انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾^(٢)

أخرج ابن جرير الطبرى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال موسى لقومه ﴿ توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ قال : (أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم .

قال : فاقتلوا الذين عكفوا على العجل فجلسوا ، وقام الذين لم يعكفوا على العجل . وأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة ، فجعل يقتل بعضهم بعضا ، فانجلت الظلمة عنهم ، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل ، كل من قتل منهم كانت له توبة ، وكل من بقي كانت له توبة^(٣))

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : قال السدى في قوله ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف ، فكان من قتل من الفريقين شهيدا ، حتى كثر القتل ، حتى كادوا أن يهلكوا ، حتى قتل سبعون ألفا ، وحتى دعا موسى وهارون : ربنا أهلك بنى اسرائيل ، ربنا البقية البقية ، فأمرهم أن يلحقوا السلاح ، وتاب عليهم ، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيدا ومن بقي مكفرا عنه فذلك قوله ﴿ فتاب عليكم

(١) سورة الانفال : الآية (٣٨) .
(٢) سورة البقرة : الآية (٥٤) .
(٣) تفسير الطبرى (١ / ٨٦) .

(١) إنه هو التواب الرحيم *

ولو تمعنا في توبة الله لبني اسرائيل باقترائها بقتل بعضهم بعضا . وكيف يتوب الله جل وعلا على المذنبين من أتباع الأمة المحمدية على نبيها أفضل الصلاة واتم التسليم لرأينا رحمة الله بهذه الأمة ، إذ أن العاصي مهما كانت معصيته ، أو المذنب مهما كان ذنبه ، أو المشرك والمرتد عن دينه يكفى في توبتهم الندم والاستغفار وعدم الرجوع الى ماكانوا عليه ، والمبادرة إلى الأعمال الصالحة ، بشرط أن يتوبوا قبل أن تصل أرواحهم حناجرهم ، قال تعالى * إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما . وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت التائب ولا الذي يموتون وهم كفار . أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما *

وقوله تعالى : * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم * وقال تعالى : * ومن تاب وعمِل صِلحا فإنه يتوب إلى الله متابا *

-
- (١) تفسير ابن كثير (٩٢/١) .
(٢) سورة النساء : الآية (١٧ ، ١٨) .
(٣) سورة المائدة : الآية (٣٩) .
(٤) سورة الفرقان : الآية (٧١) .

(حرص موسى عليه السلام على الألواح وشدة تعلقه بها)

قال تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾^(١)

قوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ السكت والسكوت خلاف النطق ، أى الاقلاع عن الكلام وتركه ، والتعبير القرآني هنا بقوله ﴿ ولما سكت ﴾ ﴿ يجسد الغضب ، كأنما هو كائن حي يدفع ويحث موسى على الغضب ثم تركه بعد ذلك ، والجملة هنا استعارة مكنية ، حيث شبه الغضب بشخص آخر يدفعه ويقويه على مافعل ، ويقول له : قل لقومك بثمنا خلفتمونى من بعدى ، ويأمره بأن يأخذ برأس أخيه ويجره اليه ، فلما زال عنه الغضب صار كأنه سكت . وهذا من بديع الاستعارة .

أو أن قوله : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ جعل سكوت الغضب سكوتا ، ويكون معنى الآية ولما سكن وهدأ الغضب عن موسى ، و (الغضب) هو الانفعال الشديد الذى يصيب الكائن الحي ، نتيجة موهثات خارجية لاتوافق هواه ، وهو اما محمود واما مذموم ، فالمذموم ماكان في غير الحق والمحمود : ماكان في جانب الدين والحق ، ولا بد للانسان اذا غضب أن يتمالك نفسه ويعي مايفعل ومايقول ، لذلك جاء في الحديث عن ابي هريرة رضى الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : (ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب) . وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لايفضب إلا إذا انتهكت محارم الله .

وقوله تعالى : ﴿ أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة ﴾ ظاهر الآية أن الألواح لم تنكسر ، ولم يرفع من التوراة شيء ، وأنه أخذ الألواح التى ألقاها ﴿ وفي نسختها ﴾ أى فيما نسخ فيها وكتب . ﴿ هدى ورحمة ﴾ أى : هدى من الضلالة ورحمة من العذاب .

(١) سورة الاعراف : الآية (١٥٤) .

(٢) لسان العرب : (٤٤/٢) .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان جمعه محمد فواد عبدالباقي

(٧٠٧/٢) ط . وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية بالكويت سنة ١٣٩٧هـ .

(٤) تفسير أبي السعود (٢٧٦/٣) .

وقوله تعالى ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ أى يخافون أشد الخوف منه ، واللام الأولى في قوله ﴿ للذين ﴾ متعلقة بمحذوف ، وقع صفة لرحمته أى بكاءنة لهم أو هي لام العلة ، أى : هدى ورحمة لأجلهم ، واللام الثانية في قوله ﴿ لربهم ﴾ لتقوية عمل الفعل الموءخر ، كما في قوله ﴿ إن كنتم للرءيا تعبرون ﴾^(١) أو هي أيضا لام العلة والمفعول الثاني محذوف ، أى يرهبون المعاصى لأجل ربهم ، لا للرياء والتباهى .^(٢)

(١) سورة يوسف (عليه السلام) الآية : (٤٣) .
(٢) بتصرف من تفسير الألوسى (٧١/٩) ، وتفسير أبي السعود (٢٧٦/٣) .

(منة الله جل وعلا على صلحاء بنى اسرائيل)

قال تعالى : * واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقتنا فلما
أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإني أهلكنا بما فعل
السفهاء منّا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا
فأغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة
وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت
كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآياتنا
يؤمنون * (١)

قوله تعالى * واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقتنا *
اختلف المفسرون في سر هذا الاختيار :

فذكر بعضهم أن سبب هذا الاختيار هو الاعتذار إلى الله سبحانه وتعالى عما
صنع بنو إسرائيل من عبادة العجل ، وأنه كان تمهيدا لطلب توبة الله
عليهم ، والرغبة إليه أن لا يهلكهم بتلك الفعلة ، ويسأله التوبة
على من تركوهم وراءهم من قومهم . (٢)

ويرى بعضهم أن سبب هذا الاختيار موت هارون عليه السلام دون أن
يطلع عليه بنو إسرائيل ، وقد أمر الله موسى أن ينطلق بهارون إلى مكان
موته من طور سيناء ، فذهب بهارون وابنه ، فلما مات هارون رجع موسى
وابن أخيه حزينين إلى بنى إسرائيل ، فاتهموه بقتله ، فاختر هـ ولاء
السبعين ليحيي الله لهم هارون فيعودوا إلى قومهم ، مصدقين موسى في مقالته
لهم بموت هارون ، وانه لم يقتله كما يفترون . (٣)

ولا غرابة في صدور ذلك عنهم ، فكم لاقى الكلیم عنتا وأذى ، مما
أقتضى تحذير المؤمنين من ايذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم تشبها
ببنى إسرائيل ، الذين آذوا موسى عليه السلام . فقال تعالى : * يآئياها
الذين ءامنوا لاتكونوا كالذين ءاذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان
عند الله وجيها * (٤)

(١) سورة الأعراف الآية (١٥٥ - ١٥٦) .

(٢) قاله السدى ، انظر زاد المسير لابن القيم (٢٦٨/٣)
وقاله ابن اسحق: انظر تفسير أبي السعود (٢٧٧/٣)

(٣) ذكره الألوسى نقلًا عن ابن أبى الدنيا وابن جرير وغيرهما عن علي كرم الله
وجهه ، انظر تفسير الألوسى (٧٤/٩) .

(٤) سورة الأحزاب : الآية (٦٩) .

وكذلك اختلف المفسرون في الميقات والراجح عندي انه ميقات مخصوص يغاير الميقات الاول المذكور في قوله تعالى ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ (١) الخ الآية فان هذه الآية صريحة في أن موسى هو الذى أمر وحده بالذهاب الى ميقات ربه ، ولم يكن معه أحد .

ومعنى ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا ﴾ أى انتقى وتخير موسى عليه السلام سبعين رجلا من قومه ، ليطلعوا على بعض أحوال موسى عليه السلام عند تكليم الحق جل وعلا له ، فيستشهد بهم في وصفه لبنى اسرائيل ، وليثبتوهم على الايمان ، فيكونوا بمثابة الوزراء والخصماء لموسى عليه السلام ، وهذا يرجح ما ملت إليه من كون ميقات هو ١٦٠ السبعين غير الميقات الأول .

﴿ فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وأييتي ﴾ المراد بالرجفة هنا : صعقة أصابتهم لهول ما عاينوا ، أو أن الجبل قد رجف بهم فماتوا أو غشى عليهم ، وقد اختلف المفسرون في سبب أخذ الرجفة لهم :

فقال بعضهم : هيبة المقام التى لم يحتملوا .

وقال بعضهم : إنهم لما سمعوا كلام الله لموسى وأمره ونهيهِ قالوا بعد انتهاء المكالمة لن نوع من لك حتى نرى الله جهرة ، فأخذتهم الرجفة لذلك ... وقد أطل المفسرون في ذلك والذى يظهر لي أن الرجفة أخذتهم للهيبة ، لا لتلك المقالة ، وأن تلك المقالة صدرت عن غير هو ١٦٠ السبعين ، ومما يقوى ذلك ما قاله موسى عليه السلام معتذرا إلى ربه بقوله ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ ويقول ﴿ ان هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ وطلبه المغفرة والرحمة بقوله : ﴿ فاغفر لنا وأرحمنا ﴾ فإن كل ذلك يدل على أن هو ١٦٠ السبعين الصلحاء من بنى اسرائيل رجف بهم ، لأن طاقتهم لم تحتل الحالة التى أحيط بها موسى عليه السلام ، فقد روى أنه عليه السلام لما أتى الجبل تغشاه عمود الغمام وأنه أمر السبعين أن يدخلوا فيه فلما دخلوا خروا سجدا ، وسمعوا كلام

(١) انظر تفسير الألوسى (٩ / ٧٣ ، ٧٤) ، أبى السعود ٢٧٧/٣ ، زاد المسير

الله تعالى (١) ولذلك ضعفت قواهم عند هذا السماع وتزلزلوا .

وقوله تعالى ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل ﴾ أى قبل حضورهم معي إلى هذا الميقات ، الذى جعلته لهم بأمرك سبحانه ، فإن هؤلاء السبعين مع صلاحهم لم يفارقوا قومهم حين عبدوا العجل ، ولم يبالفوا في الانكار عليهم ، فهم بذلك يستحقون الاهلاك ، فإذا أمهلتهم وهم بهذه المثابة ، فلا تهلكهم وهم معي ، لئلا يظن بنو اسرائيل أنى قتلتمهم ، فلا يأمنونى بعد على أحد منهم .

وقوله ﴿ وإياى ﴾ عند قتلي للقبطي في مصر ، ومع ذلك لم تهلكنى بما أستحق ، رحمة منك ، بل رحمتنى لما اعتذرت إليك ، بما حكاه الله من اعتذاره : ﴿ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ يؤكد لك أن هؤلاء السبعين لم يرتكبوا ذنبا يستحقون به هذه الرجفة ، والمراد بالسفهاء عبدة العجل ، والاستفهام هنا لانكار الوقوع على معنى : أنه لا يكون منك اهلاك قوم بذنوب آخرين ، فانك لاتفعله تفضلا وعدلا ، أو على معنى النفسى ، أى : لا يكون منك ذلك ، فانك تعاليت وتعاضمت وقد حرمت الظلم على نفسك .

وفي قوله ﴿ أتهلكنا ﴾ يعود الضمير على موسى ومن معه وهذه من أقوى الأدلة على أن الرجفة كانت للهيبة وعدم التحمل ، لا لمقالة قالها السبعون ، فإنه جمع نفسه معهم ، ومحال أن يقرن نفسه بسفهاء متناولين ، وقوله ﴿ إن هى إلا فتنتك ﴾ يقصد به : اما فتنة بنى اسرائيل بعبادة العجل وهو ما أرجحه وهذا أيضا يؤكد ما ملت إليه من أن الرجفة كانت للهيبة وليست لمقالة قالوها ، وكأن موسى يقول لربه عز وجل : إن هى إلا فتنتك التى أخبرتنى عنها عند مناجاتي معك في الميقات الأول ، حيث أخبرتنى بقولك جل جلالك ﴿ قال فإننا قد فتننا قومك من بعدك ﴾ (٣)

(١) انظر تفسير أبي السعود (٢٧٧/٣) نقلا عن السدى .

(٢) سورة القصص الآية : (١٦) .

(٣) انظر (ص ٣٧١) من بحثنا هذا (عند تفسير هذه الآية) .

أو كما قيل : إن المراد بالفتنة (١) هنا : الإبتلاء مطلقاً لعباده
في كل زمان ، إذ الفتنة في كلام العرب هي الإبتلاء والاختبار .

وقوله تعالى ﴿ تفضل بها من تشاء ﴾ لعلمك أنه سيختار الضلال
ويصر عليه . ﴿ وتهدى مـن تشاء ﴾ أي : ممن اختار الهدى وثبت عليه .
ثم دعا موسى ربه ﴿ فأغفر لنا وأرحمنا ﴾ وقدم المغفرة هنا التي
هي محو الذنب بالعفو عنه من باب التخلية قبل التحلية ، فإن بقاء العبد
مذنباً يعرضه لسخط الله عز وجل فإذا خلى بالعفو كان أهلاً للرحمة ، وقد
عمم عليه السلام في طلب المغفرة والرحمة ، لتشمل مغفرته تعالى ما كان من
الذنب وما سيكون ، وليستديم (عليه السلام) رحمته تعالى به ويقومه ، ثم
أثنى على ربه بقوله : ﴿ وأنت خير الغفرين ﴾ أي خير العافين ، لأن عفو
غيرك غايته سلامة الدنيا ، أما عفوك وغفرانك ففيهما سلامة الدنيا والآخرة
كما أن غيرك لا يعفو إلا بتحنينك وتعطيفك ، فأنت العفو والغفار على
الحقيقة ، هذا وإن للمفسرين في هذه الآية كلاماً طويلاً ، وخلافات وردت على
تلك الخلافات ، وروايات منها ما لا يصح ومنها الضعيف الذي لا يعول عليه ، وقد
استخلصت بفضل الله تعالى لباب كلامهم ، وما ذكرته واخترته هو خلاصة
لقرآتي لما وقع في يدي منها . (٢)

ثم سأل موسى عليه السلام ربه أن يكتب له ولقومه الفعلة الحسنة
في الدنيا ، وأن يثبتهم عليها ، والمثوبة الحسنة في الآخرة ، وأن يوفقهم
لتحصيل أسبابها .

﴿ وأكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ والكتابة هنا
ليس معناها تغيير القضاء الأزلي ، بل معناها : أجعل لنا ، وتعطف علينا
وتفضل ومن حق كل مؤمن أن يسأل ربه ما يشاء من أمور الخير ، وأن يدرأ
عنه كل شر ، فإن قضاء الله غيب عنه ، وهو مأمور بالدعاء .

(١) في قوله ﴿ إن هي إلا فتنتك ﴾ .

(٢) انظر تفسير الألوسي (٧١/٩ - ٧٥) ، وتفسير الرازي (١٥ / ١٥ - ٢٠) ،

وتفسير أبي السعود (٢٧٦/٤ - ٢٧٧) ، وتفسير الطبري (٧٧/٩) ،

وتفسير ابن كثير (٢٤٩/٢ - ٢٥٠) ، البحر المحيط (٣٩٨ / ٤ -

٤٠١) ، وزاد المسير لابن القيم (٢٦٧/٣ - ٢٦٩) .

ونكر ﴿ حسنة ﴾ إمعانا منه عليه السلام في إكرام الله لــــه
ولقومه بكل خير الدنيا والآخرة ، ثم أردف طلبه بذكر السبب الذي يستدعى
قبول دعائه : ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي رجعنا وتبنا ، فشأنك وأنت الكريم
أن تعود على من رجع إليك تائبا ، بمسرتة في الدنيا والآخرة .

هذا وان لفظ (يهود) مستعمل الآن في ضد ما كان عليه بنو
اسرائيل وقت هذا الدعاء ، فيهود في الأصل فعل مضارع من هاد يهود بمعنى:
رجع عن الشر إلى الخير ، وتاب إلى الله وأتاب ، أما هو الآن فمعناه
الرجوع عن الخير إلى الشر ، وقد تنوسي كونه فعلا وصار إسما بالنقل لفسدة
بنى اسرائيل ، ولذا نقول : (فعله يهود كذا) بالتنكير ، (وفعله اليهود
كذا) بالتعريف ، وقوله : ﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ﴾ هو جواب
سؤال دل عليه الكلام تقديره فيماذا أجاب الله موسى عليه السلام ؟

ومعنى ﴿ أصيب به من أشاء ﴾ من قومك وغيرهم ، فدعائك مقبول
في الصلحاء منهم وفي هذا الجواب إشارة إلى حال بنى اسرائيل بعده عليه
السلام ، ونظير هذه الآية قوله تعالى لبراهيم عليه السلام : ﴿ وإذ ابتلى
ابراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي
قال لاينال عهدى الظالمين ﴾ (٢)

أي إن الظالمين من ذريتك لاينالهم عهدى ، فكذلك الضالون من بنى
اسرائيل لاتنالهم رحمة الله .

وقوله تعالى ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ أي ليس فى الدنيا والآخرة
ساكن أو متحرك ، عاقل أو غير عاقل إلا ورحمة الله فيه ظاهرة ، ويجوز
أن يكون المعنى إن رحمتى واسعة فى الدنيا والآخرة ، لاتضيق بمخلوق
ولكنى قضيت بها لمن اتصفوا بالأوصاف الموصلة اليها ، ولذا قال بعد
ذلك ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾
وقد عمم وخصص في هذا النص الكريم حيث قال : ﴿ للذين يتقون ﴾ فهو ينتظم

(١) (هود): اليهود :التوبة، هاد يهود هوداً و تهود: تاب ورجع إلى الحق
فهو هائد وفي التنزيل العزيز ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي تبنا إليك
..... انظر لسان العرب (٤٣٩/٣) .

(٢) سورة البقرة : الآية (١٢٤) .

سائر المأمورات وجميع الخيرات ، وخص بذكر الزكاة والايمان بجميــــــــع الآيات ، لعلمه تعالى أن الزكاة كانت وستظل من أشق التكاليف على بنى اسرائيل ، لأنهم عبيد الدينار والدرهم ، ومن كان هذا حاله يبيعــــــــــــد أن يوءى تلك الفريضة ، ولعلمه تعالى بأن اليهود يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويكتبون كتباً ينسبونها إلى الله زورا ، فيها ما لم يأذن به الله تلبيسا على العامة ، وأنهم يوءنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وقد تجلى ذلك واضحا في كفرهم بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم فإن الايمان به جزء من كتابهم التوراة ، فهم مأمورون أن يوءنوا به في كتابهم قبل أن يوءمروا بالإيمان به في القرآن ، ولأجل ذلك قال : ﴿ ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ أي بالتوراة والزبور والانجيل والقرآن ، فلم يفعلوا ، من أجل ذلك جانبتهم الرحمة ، وذهب عنهم التوفيق ، ويجوز كما قال أبو السعود رحمه الله أن المراد بقولــــــــــــه : ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ أن (فيه تعريض بهم وكفرهم بالآيات العظام ، التي جاء بها موسى عليه السلام وبما سيجيء بعد ذلك من الآيات البينات ، كتظليل الغمام ، وإنزال المن والسلوى) .^(١)

وقد تعرضت لقوله تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينههم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾^(٢) عند ذكرى لمبحث الآيات الخاصة بالحض على الإيمان ، فاكتفيت بما ذكرته هناك .^(٣)

(١) تفسير ابي السعود (٢٧٩/٣) .

(٢) سورة الاعراف ، الآية (١٥٧) .

(٣) أنظر : ص ٩ من بحثنا هذا .

(المبحث الخامس عشر)

(ثناء الله تعالى على صلحاء بني اسرائيل)

قال تعالى : ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾
أثنى الله سبحانه وتعالى على فريق قليل من قوم موسى عليه السلام شبتوا
على الحق ، وهدوا غيرهم اليه وجعلوه شعارهم في أحكامهم وسلوكهم .

وقوله ﴿ ومن ﴾ للتبعيض وفيها القلة وذكر هذا البعض القليل ،
تعريضاً بأكثرهم ، الذين كانوا يلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وهم
يعلمون ، وليس المقصود بهذا الفريق الصالحين المعاصرين لموسى عليه
السلام ، بل المقصود صلحاء بني اسرائيل من عهده عليه السلام إلى عهد
نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم غير أنبيائهم ، لأن هداية
الخلق بالحق ولزومه في الأحكام من ضرورات النبوة ، فلا يحمد الثناء عليهم
به ، وإنما المقصود صلحاء بني اسرائيل غير الأنبياء ولا تعارض بين ما
قررتهم من قلتهم . وقوله تعالى (أمة) فالامة تطلق على الجماعة الكثيرة
وتطلق على القليلة اذا كانت ذات شأن ، وقد يسمى الواحد أمة لما تميز به
من خصال الخير كما قال تعالى ﴿ ان ابراهيم كان أمة ﴾ الآية . (٢)

ومعنى قوله ﴿ يهدون بالحق ﴾ أى يهدون الناس إليه ، وهم
متلبسون به ، ثابتون عليه ، لا يقولون ما لا يفعلون ، بل يدعون غيرهم إلى
ما عرف من أحوال هؤلاء الصلحاء والتعبير بالفعل المضارع لاستحضار الصورة
الماضية . لا لأن ذلك حاصل الآن إذ مهمة بني اسرائيل قد انتهت ببغثة
النبي صلى الله عليه وآله وسلم فمن أسلم منهم فهو يهدى بالحق ويعتدل
به لا لأنه من قوم موسى (عليه السلام) بل لأنه مسلم متبع لنبينا محمد
صلى الله عليه وآله وسلم .

ومعنى ﴿ وبه يعدلون ﴾ أى في أحكامهم وسياساتهم ، وهذه الآية
جاءت لبيان أن رحمة الله ليست مكتوبة للذين يتبعون الرسول النبي الأمي
فقط ، بل هي لهم ولمن سلف قبلهم ، ممن هدى بالحق وعدل به من قوم موسى

(١) انظر تفسير الرازي (٣١/١٥) .

(٢) سورة النحل ، آية (١٢٠) .

عليه السلام .

وهذه الآية تريك مدى الصراع بين الحق والباطل في اتباع موسى عليه السلام ، فأغلبهم دعاة باطل ، والقليلون منهم هم الثابتون على الحق ، ولذلك تجد القرآن الكريم يؤكد على وقوع بني اسرائيل فـسـيـ سوءاتين قبيحتين ، هما : الكفر بالله ، وقتل الأنبياء بغير حق ، ذكر ذلك مرة في البقرة ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾^(١) والضمير فـسـي ﴿ بأنهم ﴾ راجع إلى بني إسرائيل والإشارة راجعه إلى ضرب الذلة والمسكنة عليهم .

وفي سورة آل عمران ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعباب اليم ﴾^(٢)

وفي سورة آل عمران أيضا ﴿ ضربت عليهم الذلة أين ما شقفتوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبآء بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾^(٣)

(١) سورة البقرة ، الآية (٦١) .
(٢) سورة آل عمران، الآية (٢١) .
(٣) سورة آل عمران، الآية (١١٢) .

(المبحث السادس عشر)

(نعم الله على بنى اسرائيل في التيه وكفرانهم)

تلك النعم

ان سورة الاعراف قد عدت من تلك النعم خمسة ذكرها الله في قوله
جل من قائل : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسى
إذ استسقاه قومه أن أضرب بعصاك الحجر فانجست منه اثنتا عشرة عينا
قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغم وأنزلنا عليهم المن والسلوى
كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾^(١)

النعمة الأولى :

_____ هي قوله تعالى ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما ﴾
ومعنى ﴿ قطعناهم ﴾ أى : فرقناهم وصيرناهم إلى هذا العدد لأنهم من نسل
أبناء يعقوب عليه السلام الاثنى عشر ، والذين سماهم القرآن الكريم
بالأسباط وكان كل نسل يعتز بأبيه ويرى لنفسه الرئاسة ، فإذا لم يقسموا
بحيث يلى كل سبط منهم رجلا يلى أمرهم ويسوسهم ، فإن التهاجر والتحاسد
والتباغض ينتشر بينهم وهم كما عرفت من خلال ماسلف من أحوالهم أمة
قلقة نافرة كثيرة القلب قليلة الشكر ، مندفعة في الكفر ، فكان هذا
التقطيع بالنسبة لهم نعمة وخيرا .

وتأمل الفرق بيننا وبينهم فالله تعالى يقول في حق أمة الاسلام
﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾^(٢) أى فلا أرض تمزيقها ولا تفريقها فإن
فعلتم فقد ذهبت ربحكم بينما بنو اسرائيل لا يستقيم حالها إلا بالتقطيع
كما أن حال أمة الاسلام لا يستقيم أمرها إلا بالاتحاد والتجمع .

النعمة الثانية :

_____ هي استسقاء موسى لقومه لما قحطوا في التيه وكساد
العطش يقتلهم وهو مقصود قوله تعالى ﴿ وأوحينا إلى موسى ﴿ أى أعلمناه
وأمرناه استسقاء قومه أى : أوحينا إليه في ذلك الوقت الذى طلب منه
قومه الاستسقاء لهم بالسبيل الذى تحصل به السقيا ولم نبطئ عليه
والسبيل هو قوله تعالى ﴿ أن أضرب بعصاك الحجر ﴿ فامتثل موسى أمر ربه

(١) سورة الاعراف : آية (١٦٠) .

(٢) سورة الانبياء : الآية (٩٢) .

فضرب وإنما أمر بضرب الحجر لأن خروج الماء غير معهود منه ، فهو لاكتناز أجزائه وصلابته لاينفذ منه الماء ولايدخل فيه ولايثبت عليه لملاسته، فإذا خرج الماء من الحجر وهو بهذه المثابة كان بذلك معجزة ظاهرة لموسى عليه السلام ولفتا لأنظارهم إلى قدرة الله على اخراج الماء من مكان لايتصور منه عادة خروج الماء وهى تبكيت لهم بالفحوى على عبادة العجل من قبل .

والعصا المذكورة في هذه الآية هى عين العصا التى انقلبت حية فخافها موسى والتى لقت ما يافكه السحرة ، فانتمصر بها الحق ، وهى التى فلق بها البحر وهى التى كان يهش بها موسى على غنمه ، وهى التى كانت تضىء له فى ظلمة الليل وهى التى كانت تنقلب إلى شجرة ذات أغصان وأوراق تظله اذا نام عليه السلام وقيل انها من الجنة نزلت مع آدم وتوارثها الصلحاء حتى وصلت إلى موسى عليه السلام ، وأما الحجر : فقد اختلفوا فيه أهو حجر معهود ؟ أو هو أقرب حجر مر به موسى بعد هذا الأمر ؟ أم هو حجر كان موسى يحمله معه ينبع منه الماء إذا احتاج إليه ؟ أقوال وآراء الله أعلم بحقيقتها ، ولا يترتب على العلم بها حقيقة دينية ، والمهم أن الماء انبجس من الحجر كما ذكرته سورة الأعراف (١) وانفجر) كما ذكرته سورة البقرة .

وفرقوا بين الانبجاس والانفجار . بأن الانبجاس هو أول خروج الماء والانفجار : هو فورانه وتواليه وتكاثره ، وكلا المعنيين جميل دال على قدرة الله (٢) ، وقد أخرج الله لبنى اسرائيل اثنتى عشرة عينا ، لكل سبط منهم عين مخصوصة به ، يجرى فى جدول يتصل به لا يختلط بجدول غيره . حماية لهم من التزاحم على الماء الذى هو أساس الحياة ، والذى قد يـؤدى الازدحام عليه إلى قتل الأنفس والوقوع فيما يغضب الله . ولذا نص الله تعالى على علم كل سبط بمشربه أى بمكان شربه وعينه المخصصة به النابعة من الحجر .

* قد علم كل أناس مشربهم * أى قد علمت كل جماعة من بنسى

اسرائيل مشربها فلا تنازع ولا تزاحم ولا تقاتل .

(١) انظر تفسير الألوسى (٢٧٠/١) .

(٢) انظر تفسير الألوسى (٢٧١/١) ، (٨٨/٩)

والنعمة الثالثة :

_____ تظليلهم بالغمام أثناء تيههم بسيناء . فإنهم لما
أمروا بمقاتلة الجبارين في الأرض المقدسة فلسطين أرض آبائهم اسحق
ويعقوب وابنائهم الأسباط الاثنى عشر ، وقد استولى الجبارون عليها أثناء
اقامتهم في مصر وصيروها دار كفر ، بعد أن كانت دار توحيد امتنعوا عن
ذلك . وسيأتيك خبره قريبا فعاقبهم الله بالتيه في سيناء أربعين سنة .^(١)
وسيناء إلى الآن أرض قليلة الشجر والمطر شديدة الحر ولذلك ظلهم الله
بالغمام أثناء هذا التيه رحمة منه تعالى بهم ولعلمه أن في أصلابهم من
سيسترد الأرض المقدسة من أيدي الجبارين بقيادة يوشع بن نون عليه السلام^(٢)
(والغمام) هو السحاب الأبيض وسمى غماما لأنه يحجب وجه السماء .

والنعمة الرابعة :

_____ إنزال المن عليهم وهو على الراجح طعام طو ينزل
عليهم أول كل يوم كالظل . وقد أمروا أن يأخذوا منه حاجتهم ليومهم فقط
ولا يدخرون ، إلا يوم الجمعة فانهم كانوا يدخرون فيه ليوم السبت لأنه يوم
انقطاع وعباده . وقد حرم الله عليهم العمل فيه .^{(٣) ، (٤)}

والنعمة الخامسة :

_____ والسلوى وهو طائر^(٥) كان يأتيهم متى شاءوا ١٤ ينتقون
منه ما يشاءون ويتركون ما لا يحبون ، وقيل : إنه كان ينزل عليهم مطبوخا
فسبحان من يقول للشئ كن فيكون .^(٦)

ومع ذلك لم يشكروا تلك النعم كعادتهم فكفروا وظلموا وعاشوا
النعم بالآل فلا بالشكر فضلوا ضللا بعيدا . وخالفوا أمر ربهم في الإدخار

(١) انظر ص ٤٠٧ من بحثنا هذا .

(٢) سبق أن ترجمت له انظر ص ٣٣٥ من بحثنا هذا .

(٣) انظر تفسير الألوسي (٢٦٣ / ١) .

(٤) روى ابن ابي حاتم من طريق علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قال كان
المن ينزل على الشجر فيأكلون منه ماشاءوا، وعن قتادة كان المن يسقط
عليهم سقوط الثلج أشد بيضا من اللبن وأحلى من العسل . انظر

فتح الباري (٢٣٠ / ٩) .

(٥) طائر يشبه السماني روى ذلك عن ابن عباس وعن وهب بن منبه قال:
هو السماني ومنه قال طائر سمين مثل الحمام، انظر فتح الباري ٢٣٠ / ٩ .

(٦) انظر تفسير الألوسي (١ / ٢٦٤)

فنكبت بهم البشرية إلى أن تقوم الساعة بتعفن أطعمتها الطرية وسريان السوس إلى الصلبة كالحبوب . مما كلف البشرية معاناة كبيرة وخسارة فادحة وحتى مع التحضر في حفظ الأطعمة فإن ذلك محدود بأمده . أخرج البخارى بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لولا (بنو اسرائيل لم يخنز اللحم . ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها) .^(١)

قال ابن حجر: يخنز بفتح أوله وسكون الخاء وكسر النون وفتحها أيضا بعدها زاي أى ينتن ، والخنز : التغيير والنتن ، قيل أصله أن بنى اسرائيل ادخروا لحم السلوى وكانوا نهوا عن ذلك فعوقبوا بذلك . حكاه القرطبي وذكره غيره عن قتادة وقال بعضهم : معناه لولا أن بنى اسرائيل سوا ادخار اللحم حتى أنتن لما أدخر فلم ينتن .^(٢)

ثم ختم الله هذه الآية بقوله ﴿وما ظلمونا﴾ أى بقله شكرهم نعمنا وبكفرهم بنا لأن أحدا لا يملك من أمرنا شيئا ولا يستطيع أن يصل إلينا حتى يضرنا .

وقوله تعالى ﴿وما ظلمونا﴾ معطوف على مقدر دل عليه سياق الكلام تقديره : فجدوا نعمنا وما شكروها .

وقوله ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أى أن كفرهم ومعاصيهم راجعان إليهم ، وفي ذلك من التنديد والتحقير لهم ما يجلب عن الوصف . لأن كل انسان يحب نفسه ويحرص عليها . وأن وقوع الظلم منه لنفسه أمر مستغرب ومستبعد ، لكنه على الكفار بعامة وبنى اسرائيل بخاصة ليس بمستغرب ولا مستبعد ، وقد حوى هذا النص الكريم الفعل الماضى والمضارع (كانوا ، يظلمون) لفائدة ثباتهم على هذا الحال واستمرارهم عليها في كل الأزمنة رغم مضررتها لأنفسهم لكنهم لفرط بلادتهم لا يشعرون بما يسيئون به لأنفسهم .

(١) انظر صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (١٧٧/٧) .

(٢) انظر فتح البارى (١٧٧/٧) - وقوله (لولا حواء لمن تخن أنثى زوجها) فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم للاكل من الشجرة حتى وقع في ذلك . فمعنى خيانتها أنها قبلت مازين به إبليس حتى زينته لآدم . . . وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفاحشة حاشا وكلا . ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسنت ذلك لآدم عد ذلك خيانة له أما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها . أ . ه . فتح البارى بتصرف (١٧٧/٧) .

مخالفة أخرى شنعاء من مخالفات بنى إسرائيل

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُم اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنُرِيكُمْ
المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل فأرسلنا عليهم
جزا من السماء بما كانوا يظلمون ﴿ (١)

ففى هاتين الآيتين يبين الله تعالى شنيعة قبيحة من شنائع بنى
إسرائيل ، وأنهم كانوا يستفيدون بالمواعظ استفادة وقتية ، ثم لا يلبثون
أن تغلب عليهم طبيعة المخالفة والتباعد عن الحق ، فان المتتبع لأحوالهم
السالفة منذ طلبهم من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من
دون الله كآلهة من مروا عليهم بعد انفلاق البحر لهم ، وتوبيخهم الشديد
على هذا الطلب ، يظن انهم لم يعودوا بعد إلى ما يحط من شأنهم ، ويدل على
سفاهة عقولهم ، لكنه يرى هذا الظن قد تبدد بعبادتهم العجل من دون الله
كما مر ، ثم بتأمل المتتبع لتوبة الله عليهم التى هى غاية فى المشقة
والشدة يعود إليه ظنه بأنهم لن يقدموا بعد على شناعة تسقط مكانتهم
عند ربه ، ثم يتبدد هذا الظن عندما يأمرهم موسى بدخول الارض المقدسة
التى كتبها الله لهم ، ووعدته محقق ، فإذا علموا انه تعالى كتبها لهم ،
سهل عليهم دخولها ، ومع ذلك يتعللون بما حكاه القران الكريم عنهم
﴿ قالوا يُمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يُخْرِجُوا مِنهَا فَإِن
يُخْرِجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ . قال رجلان من الذين يخافون أنعمَ اللهُ عليهما
ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فانكم غلبون وعلى الله فتوكلوا .
إن كنتم مؤمنين . قالوا يُمُوسَىٰ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَب
أنت وربك فقتلاً إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ . قال رب إِنِّي لَأَمْلِكُ الْإِنْفُسَى وَأَخْسَى
فافرق بيننا وبين القومِ الْفٰسِقِينَ ﴿ (٢)

(١) سورة الاعراف الاية (١٦١ ، ١٦٢) .

(٢) سورة المائدة من (٢٢ إلى ٢٥) .

وقد عوقبوا بالتيه فى سيناء هذه المدة لمخالفتهم نبيهم عليه السلام فى دعوتهم إلى دخول الارض المقدسة ، ثم لما سهل الله لهم دخول الارض المقدسة بعد التيه ، وقيل كان ذلك فى حياة موسى عليه السلام ، حيث دخل بهم أريحاء ثم مات ، وأكمل بعده يوشع بن نون فتى موسى وخليفته عليهم دخول بيت المقدس ، وقيل إنهم دخلوا الارض المقدسة بعد موت موسى عليه السلام وفى عهد يوشع ، وأمرهم الله بأوامر يلتزمونها عند دخول قرية بيت المقدس على ما هو الراجح (١) ، وكان المتوقع منهم أن يلتزموا ولا يغيروا ولا يبدلوا فيما أمرهم الله تعالى به ، ولكنهم ومع مامر بهم من المواعظ والعقوبات على المخالفات ، خالفوا أيضا تلك الاوامر فى هاتين الآيتين ،

وبعد هذه المقدمة أعود إلى تفسير ألفاظ هاتين الآيتين ، اللتين نحن بصدد دراستها من سورة الاعراف .

فقله : ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُم اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ القائل هو الله عز وجل بواسطة الوحي ﴿ إِذْ يَنْصُوبُ عَلَى الْمَفْعُولِيَّةِ بِتَقْدِيرِ فَعَلَ مَحْذُوفٍ خُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُوطِبْنَا بِهِ نَحْنُ لِنَعْتَبِرَ وَلِنَتَعَزَّ بِأَحْوَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَلَا نَحْوَا مِنْحَاهُمْ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ كَيْتَ وَكَيْتَ فَبَدَلُوا وَغَيَّرُوا . لَتَتَعَزَّ أُمَّتُكَ وَلِئَلَّا تَطْمَعُوا فِي إِيْمَانِ الْيَهُودِ . وَلِيَعْلَمَ الْمُعَاصِرُونَ لَكَ مِنْهُمْ جَرَائِمَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ هُمْ عَلَيْهَا مُقِيمُونَ ، حَتَّى لَا يَرْفَعُوا رَأْسًا بِمَجَادَلَتِكَ ، وَبَنَى الْفِعْلُ لِمَا لَمْ يَسْمُ فَاعِلُهُ جَرِيًّا عَلَى سَنَنِ الْكِبَرِيَاءِ ، وَلِلْعَلْمِ بِالْفَاعِلِ وَأَنَّهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّنْمِيسِ عَلَيْهِ وَاكْتِفَاءً بِالتَّصْرِيحِ بِهِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي نَفْسِ تِلْكَ الْقِصَّةِ ﴾ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية ﴿ (٢) وذكروهم بقوله ﴿ لَهُمْ ﴾ ليشعرك من أول الامر ، بانهم سيخالفون ، وانهم ليسوا من المطيعين حتى يقال (وإذ قيل لبني اسرائيل) . ولموافقة الضمائر فى آية ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَى عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا ﴾ ﴿ (٣) ، (٤) .

- (١) انظر تفسير الألوسى (٢٦٥ / ١) .
- (٢) سورة البقرة الآية (٥٨) .
- (٣) سورة الاعراف الآية (١٦٠) .
- (٤) انظر تفسير ابى السعود (٢٨٣ / ٣) .

والقرية : هي بيت المقدس وقيل اريحاء . وهذا كان على لسان موسى عليه السلام ، وقيل على لسان يوشع بن نون عليه السلام .

ويقول الالوسي رحمه الله : الأمر بالسكنى فى القرية للإباحة (١) ، على معنى أبحت لكم سكنى هذه القرية ويستأنس لرأيه بعطف * كلوا من طيبات ما رزقناكم * عليه ، ورأى أن الأمر بسكنى تلك القرية للوجوب ، وأنهم أمروا أن لا يبارحوها ، وأن لا يفسدوا فيها ، حتى تكون لهم وطناً ، ولأن غيرها لا تصلح لايوائهم لأنها مهد آباءهم ابراهيم واسحق ويعقوب والأسباط ، فلزومهم لها يقودهم إلى سلوك نهج آباءهم ، فإن أفسدوا فيها سلب الله منهم الأمن ، وسلط عليهم من لا يرحمهم كما قال تعالى فى سورة الاسراء * وقضينا إلى بني إسرائيل فى الكتب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولئهما بعثنا عليكم عبداً لنا أولى بأس شديد فجازوا خليل الديار وكان وعداً مفعولاً . ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الأخرى لئیسئو وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا . عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً . * (٢) .

وقوله تعالى * وكلوا منها حيث شئتم * أى من طعامها وثمارها ولم يذكر كلمة (رغدا) فى الاعراف كما ذكرت فى البقرة اكتفاء بدلالة * حيث شئتم * عليه ، فإنك إذا أكلت من بلدك حيث شئت وكنت فيها حر التصرف دل ذلك على هناك عيشك ورغده .

وعطف * وكلوا * بالواو هنا لأن زمن الأكل واحد ، والمعنى اجمعوا بين الأمرين وعطف بالفاء فى البقرة لأن الأكل مترتب على الدخول ، وان الدخول هو الموصل إليه ، فحسن عطفه هناك بالفاء لهذا المعنى . وهذا سر عظيم من أسرار الاعجاز ، منتشر فى الكتاب العزيز ، جدير بان يلتبس ، وقد كتب فيه مؤلفون فى القديم والحديث . (٣)

(١) انظر تفسير الالوسي (٢٦٥/١) .

(٢) سورة الاسراء الآيات من (٤ الى ٨) .

(٣) انظر اعجاز القران لابي بكر محمد بن الطيب الباقلانى ، الاعجاز فى

دراسات السابقين لعبدالكريم الخطيب ، بينات المعجزة الخالدة د :

حسن عتر .

وقوله تعالى ﴿وقولوا حطة﴾ أى مسألتنا لك ربنا حين دخولنا هذه القرية وبعده أن تحط عنا ذنوبنا ، وأن تغفر لنا ما كان منا ، ورفعنا حطة لأنها خير مبتدأ ٤١. محذوف تقديره مسألتنا حطة ، اخرج البخارى بسنده عن همام بن منبه انه سمع ابا هريرة رضى الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قيل لبنى اسرائيل ﴿ادخلوا الباب سجدا﴾ وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴿ فبدلوا - فدخلوا يزحفون على استاهم وقالوا: حبة فى شعرة) قال ابن حجر كذا . للاكثر وكذا فى رواية الحسن المذكورة بفتحيتين وللكشمهينى فى شعيرة بكسر المهملة وزيادة تحتانية بعدهما . والحاصل أنهم خالفوا ما أمروا به من الفعل والقول فانهم امروا بالسجود عند انتهائهم شكرا لله تعالى - وبقولهم حطة - فبدلوا السجود بالزحف وقالوا حنطة بدل حطة (١).

وقوله ﴿وادخلوا الباب سجدا﴾ ان قلنا فيه ان (ال) للعهد كان المراد به بابا معينا هو (باب الحطة) أو باب التوبة ، كذا روى عن السلف .

وان اريد بها الجنس كان المعنى ادخلوا أبواب هذه القرية بيوت المقدس سجدا لله وشكرا له على ان اعادكم الى موطن آبائكم وخلصكم لكم من أيدي الجبارين .

والمراد بالسجود هنا اما حقيقته اللغوية بمعنى الخضوع والانحناء والتطامن ، واطهار ما يدل على الخشية ، ولذا روى عن ابن عباس فى معنى سجدا أى راكعين (٢) . وأما أن يراد به حقيقته الشرعية وهو وضع الجبهة على الأرض ، وأن يسجدوا سجودا حقيقيا لله عز وجل ، وأنا أميل إلى الرأى الثانى .

وقد وعدهم الله إذا التزموا بهذين الأمرين قولهم (حطة) ودخولهم الباب سجدا أن يغفر لهم خطيئة المخطئين منهم ، وأن يزيد المحسنين منهم ثوابا وكراما ، وقال فى سورة البقرة ﴿ نغفر لكم خطيئكم﴾ وفى سورة

(١) انظر فتح البارى (٣٧٤/٩) .

(٢) تفسير الالوسى (٢٦٥/١) .

الأعراف ﴿نغفر لكم خطيئاتكم﴾ تفننا في القول، ودليلا على الإعجاز، حيث روعة النظم مع اختلاف التعبيرين .

وقال في سورة البقرة ﴿ وسنزيد ﴾ بالواو وفي الاعراف بدونها ، لأن الكلام في الأعراف استئناف وقع جواباً لسؤال مقدر تقديره ومالغير المخطئين؟ فقليل سنزيد المحسنين وهذان الأمران غاية في السهولة واليسر ، فأحدهما قول لا يكلف شيئا والآخر فعل تعشقه قلوب الطائعين ، فهل التزم بنو اسرائيل بهما ؟ .

هذا ما استجيب عنه الآية الثانية ، قال تعالى ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ (١) .

قوله تعالى ﴿ فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم ﴾ أي فعلوا خلافا لما أمروا به ، أي : بدلوا بالقول الذي أمروا به وبالفعل الذي أمروا به قولا غيره وفعلًا غيره ، (وبدل) تتعدى إلى مفعوليــــــــــــن أحدهما مجرور بالباء وهو المتروك . والآخر غير مجرور وهو الذي عمّله بنو اسرائيل من التبديل .

وفي ذكرهم بـ ﴿ الذين ظلموا ﴾ غاية التشنيع عليهم ، لأن المعنى : بدل الذين شأنهم الظلم دائما ما أمروا به وأتوا بخلافه .
وفي قوله ﴿ منهم ﴾ إنصاف وأي إنصاف لأننا عرفنا به المخالفين من بنى إسرائيل وغير المخالفين ولم تذكر (منهم) في البقرة اكتفاءً لأن ﴿ الذين ظلموا ﴾ تشعر بأن منهم ظالمين وغير ظالمين وجعل الله ذلك الاشعار حقيقة في الأعراف بقوله (منهم) وقوله ﴿ قولا غير الذي قيل لهم ﴾ فقالوا مكان ما أمروا به بأن يقولوه (حطة) أي حط عنا ذنوبنا ، واغفر لنا ، فقالوا مكانه (حطة) فدل ذلك على مبلغ حبهم للدين ، وانهم ما هم في تحصيلها ، وانصرفهم عن الآخرة ، مع أن الله قد ضمن لهم رغد العيش في هذه القرية ، وكفاهم هم ذلك بقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ (٢) .

(١) الاعراف الآية (١٦٢) .

(٢) البقرة الآية (٥٨) .

ويقوله (وكلوا منها حيث شئتم) (١) ودخلوا زاحفين على استاهمهم
أى : أدبارهم ، ولم يسجدوا كما امرهم الله تعالى تكبرا منهم واستعظاما
فهذا معنى قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم)
ولذا لم يمهلهم الله تعالى بل أرسل عليهم فور ذلك ﴿ جزا من السماء ﴾
قيل : هو الطاعون وقيل عذاب عام أهلك الظالمين منهم ويدلك على فورية
هذا العذاب العطف بالفاء ﴿ فإرسلنا عليهم ﴾ .

ويدل الجار والمجرور على لزوم هذا العذاب للظالمين ، وأنه لــــم
يتخطهم إلى الصالحين منهم ، والتنصيص على كونه من السماء للدلالة على
شدته وهوله ، ولذا قال بعض المفسرين مات منهم أربعة وعشرون ألفا فى
ساعة واحدة (٢) ، ثم علل الله تعذيبه لهم لاستمرارهم على الظلم واقتبالهم
عليه ، مع وجود الزواجر الشديدة العارفة لهم عنه ، وأتى بـ (كــــان)
ماضيه وبـ (يظلمون) للمضارع ليدل على أن ذلك العذاب لم يكن نتيجة تلك
المخالفة بل لأجلها ، ولاستمرارهم على الظلم والفسق ، واجتهادهم فى ذلك .

وقد ذكر الفخر الرازى أجوبة على تغاير بعض الألفاظ فى آيتى البقرة
والاعراف والقصة واحدة ، وقد ضعفها الألوسى ولم يرتضها ، وفضل عليها ما
ذكره الزمخشري فى الكشاف ، وقد أعجبنى نقد الألوسى لأجوبة الفخــــر
واسترحت إلى ما استراح إليه ، وأحيل القارىء إلى نقد الألوسى لتلك الأجوبة
ولم أذكرها خشية الاطالة (٣) واكتفيت بذكر أجوبة الزمخشري .

قال الزمخشري : فان قلت كيف اختلفت العبارة هنا وفى سورة البقرة؟

قلت : لابس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ، ولاتناقض بيــــن

(١) الأعراف الآية (١٦١) .

(٢) انظر تفسير الألوسى (٢٦٧/١) .

تفسير ابى السعود (٢٨٤/٣) .

تفسير الكشاف (٢٨٣/١) .

(٣) انظر تفسير الرازى (٣٦٠،٣٥،٣٤/١٥) .

انظر تفسير الألوسى (٢٦٧/١، ٢٦٨، ٢٦٩) .

قوله ﴿ اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ﴾ (١) وبين قوله ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ (٢) لانهم إذا سكنوا القرية فتتسبب سكتاهم للأكل منها ، فقد جمعوا فى الوجود بين سكتاهما والأكل منها ، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب او أخروها فهم جامعون فى اليجاد بينهما وترك ذكر الرغد لا يناقض اثباته .

وقوله ﴿ نغفر لكم خطيئكم سنزید المحسنين ﴾ موعده بشيئين ، بالغفران والزيادة ، وطرح الواو لا يخل بذلك ، لأنه استعناف مرتب على تقدير قول القائل : وماذا بعد الغفران ؟ فقليل له ﴿ سنزید المحسنين ﴾ وكذلك زيادة (منهم) زيادة بيان . وأرسلنا ، وأنزلنا ، ويظلمون ، ويفسقون من واد واحد (٣) .

(١) الاعراف الاية (١٦١) .
(٢) البقرة (٥٨) .
(٣) تفسير الكشاف للزمخشري (١٢٥٠١٢٤/٢) .
تفسير النسفى (٨٢/٢) .

(المبحث الثامن عشر)

جناية أخرى من جنایات بنى إسرائيل

فى عهد موسى عليه السلام

قال تعالى ﴿ وَإِذْ نُنْتَقِنَا الْجِبِلَّ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وقبل أن أشرع فى تفسير هذه الآية ينبغى أن أذكر السبب الذى لأجله رفع الجبل على بنى إسرائيل ، وقد بينه الله سبحانه وتعالى فى سورة البقرة ، وهو أنه تعالى أخذ على بنى إسرائيل ميثاقاً مؤكداً بعبادته وحده ، والاحسان إلى الوالدين ، وأن يقولوا للناس حسناً ، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، ثم تولوا عن هذا الميثاق وأعرضوا عنه وذلك فى عهد نبيهم موسى عليه السلام ، فرفع الله الطور عليهم ليحملهم على الاستمسك بهذا الميثاق ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ البقرة الآية ٨٣ .

وقيل : إن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة استثقلوا ما فيها من التكاليف وأبوا قبولها وقد مر بك قوله تعالى ﴿ وَأَمْرٌ قَوْمِكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا ﴾ والمقصود بقوله بأحسنها (٢) .

وأبى بنو إسرائيل أن يأخذوا بشيء منها ، فرفع الله عليهم الجبل ليحملهم على الأخذ بالتوراة ، والرأيان متقاربان لأن مواد الميثاق المأخوذ عليهم هو بعض ما فى التوراة ، فالأخذ بالتوراة أخذ بالميثاق .

(١) سورة الاعراف (١٧١)

ملاحظة : يلاحظ المتتبع للبحث أننى تركت تفسير الآيات من قوله (وسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ... الآية ١٦٣) إلى قوله (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إننا لانضيق أجر المحسنين) ... الآية (١٧٠) وذلك لأننى سوف أتحدث عنها فى بحث الصراع بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبين قومه (الفصل الثامن) لمناسبتها ولأنها خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يسأل اليهود عن القرية التى كانت حاضرة البحرة .. انظر ص (٢٣٦) من بحثنا هذا .

(٢) انظر ص ٣٦٣ من بحثنا هذا .. الأعراف الآية (١٤٥) .

ولذا نجد القرآن الكريم فى غير سورة الأعراف يقرب رفع الطور بأخذ الميثاق ، فيقول فى سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنِكُمْ بَقْوَةً وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٠ ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ (١) ويقول ايضا فى سورة البقرة ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنِكُمْ بَقْوَةً وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ٠٠ الآية ﴾ (٢) .

والخطاب فى آيات سورة البقرة لليهود المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فهم وإن لم يرفع الطور عليهم فقد نقضوا الميثاق ، وكفروا بالله عز وجل ، وأكل الحقد اكبادهم ببعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بحجة ذهاب النبوة من بنى اسرائيل إلى بنى اسماعيل (العرب) وفى سورة النساء يقول تعالى (ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم) (٣) .

والكلام أيضا مع اليهود فى عصر النبى صلى الله عليه وآله وسلم الذين سألوه أن ينزل عليهم كتابا من السماء فى ألواح كما نزل على موسى من قبل ، فسلى الله نبيه عن هذا الشبح ، بذكر ما سأله موسى عليه السلام (من قبل) فهو أكبر بكثير مما سأله نبينا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم فقال تعالى : ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جِهَةً فَأَخَذْتَهُمُ الْعُلَاقَةَ بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتيناهم موسى سلطانا مبينا ﴾ (٤) يحجزهم عما قالوا وعما فعلوا ، ويحملهم على قبول شرائع الله سبحانه وتعالى ، لكنهم ما قبلوا إلا برفع الطور عليهم ، وقد ربط الله رفع الطور بالميثاق فى سورة النساء ، وجعله سببا فى هذا الرفع ، ولم يعطه على الميثاق كما سلف فى سورة البقرة

(١) سورة البقرة الآية (٦٣، ٦٤) .

(٢) سورة البقرة الآية (٩٣) .

(٣) سورة النساء الآية (١٥٤) .

(٤) سورة النساء الآية (١٥٣) .

قال تعالى : ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ (١) أى بسبب نقضه بعد قبوله ، أو بسبب الامتناع عن تحمله أصلا ، وبعد هذه المقدمة أعود إلى آية الأعراف .

وقوله تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾ (٢) الضمير فيه لبنى إسرائيل الذين جرى الحديث معهم فى هذه السورة ، منفردين عن فرعون من قوله تعالى : ﴿ وجوزنا بينى إسريل البحر ﴾ (٣) إلى هذه الآية ، وهو قدر كبير من هذه السورة ، يزيد على خمسها ، وقد فعلته وبينته فيما مضى .

والخطاب فى هذه الآية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم . ﴿ إذ ﴾ فى هذه الآية مفعول به لفعل محذوف تقديره : اذكر يا محمد صلى الله عليك وآلك وسلم الوقت الذى نتقنا فيه الجبل فوق بنى إسرائيل ، وذكر الوقت يستدعى ذكر ما حصل فيه ، والقصد من ذلك تسليته صلى الله عليه وآله وسلم بمالقيه موسى من تغتنب بنى إسرائيل واستكبارهم عن الحق ، وهم من نسل الأنبياء ، وشدة عداوتهم له صلى الله عليه وآله وسلم والتي فاقت عداوة المشركين .

ومعنى (نتقنا) قلعنا الجبل من مكانه قلعا تاما ، وجعلناه فوق رؤوس بنى إسرائيل لنحملهم على قبول التوراة .

قال الامام البخارى : قال ابن عباس رضى الله عنهما (وإذ نتقنا الجبل) رفعنا (٤) ، والمراد بالجبل الطور للتصريح باسمه مرارا كما سلفك .

ومعنى (كأنه ظلة) أى كأنه سقيفة مظلة لهم كسقف البيت (٥) .

وعبر القرآن بـ (كأن) لأن المقعود برفعه فوق رؤوسهم التهديد

(١) سورة النساء الآية (١٥٤) .

(٢) الاعراف الآية (١٧١) .

(٣) الاعراف الآية (١٢٨) .

(٤) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٢٤١/٧) ، انظر تفسير ابن عباس ومروياته فى كتب السنه تاليف الدكتور عبد العزيز الحميدى

(٤٣٢/١) ط مركز البحث العلمى جامعة ام القرى .

(٥) انظر تفسير الالوسى (٩٨/٩) .

بأهلاكمهم بسقوطه فوق رؤوسهم إذا لم يقبلوا شرائع التوراة ، فكان لهذا المعنى مشبها بالظلة ، وليس بظلة حقيقية . لأنه لا يبقى كذلك بقصـ التظليل .

﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾ أى وطن بنو اسرائيل أن الجبل سيسقط عليهم . وعبر بـ (ظنوا) مكان أيقنوا ، مع تيقنهم بوقوعه فوق رؤوسهم إذا لم يقبلوا الشرائع ليبين تعالى انه مع رؤية الخطر الدايم لهم بأعينهم لم يعملوا إلى مرتبة اليقين ، وهذا يدل على قساوة قلوبهم ، فلما عاينوا ذلك قبلوا أحكام التوراة ، ورضوا بما فيها .

وقال الله لهم ﴿ خذوا ماءً اتينكم بقوة ﴾ أى بجذ وعزم ، وقد نقلهم الله بعد الاعراض عن التوراة من الأخذ باحسنها إلى الأخذ بكلها ، فلم يرخص لهم فى ترك شيء منها عقوبة لهم ، والمعنى : خذوا التوراة التى آتيناكموها كلها دون أن نجعل لكم فيها مفروضا ومسنونا (واذكروا ما فيه) أى مافى هذا الكتاب من أحكام وأخلاق ومواعظ ، لتستعينوا بهـذا الذكر على القيام بكل ما فى هذا الكتاب قراءة وتطبيقا .

ولأجل هذا النسيان ابتليت أمة الاسلام فى هذا العصر بمحن ورزايا لم تعهد من قبل ، وما ذلك إلا لأن أغلبهم لم يذكروا مافى القران الكريم فجهلوا المهمة التى انيطت بهم ، وهى كونهم مسؤولين عن دعوة كافة الخلق باسم نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم إلى التوحيد ، والأخذ بمحاسن الأخلاق ، واماتة المنكرات فى مهدها ، أو تضيق الشقة عليها حتى لاتنتشر .

ثم علل هذين الامرين ^(١) لبني اسرائيل بقوله تعالى ﴿ لعلمكم تتقون ﴾ أى لاسبيل لكم إلى تقوى الله عز وجل التى هى وصية الله لأنبيائهم كلهم ولعباده العالحين إلا بالالتزام بهذين الأمرين ، والشبات عليهما ، وقد حاد عنهما بنو اسرائيل بعد ذلك فكانوا أعداء الرسل الذين يأمررون بالقسط من الناس ، وكانوا سبب كل داء أصيبت به البشرية بحيدهم عن هذين الامرين ، قال ابو السعود فى معنى ﴿ لعلمكم تتقون ﴾ بذلك قبائح الأعمال ورذائل الاخلاق أو راجين أن تنتظموا فى سلك المتقين أ . هـ (٢) .

(١) الاخذ بالتوراة بقوة وعزم ، ثم تذكر مافى التوراة من أحكام واخلاق ومواعظ .

(٢) تفسير ابى السعود (٢٨٩/٣) .

الفصل الثامن

الصراع بين

نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وبين قومه

الفصل الثامن

الصراع بين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم
وبين قومه*

- تمهيد -

- المبحث الاول : الصراع بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبين قومه .
- المبحث الثانى : أسباب موقف الكافرين المعاندين وانكارهم لدعوته .
- المبحث الثالث : موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الكافرين المعاندين .

* المقصود بقومه من كان على الشرك ولم يدخل بعد فى دين الاسلام .

مقدمة

لما كان الايمان بالله عز وجل هو الركيزة الأساسية التي قامت عليها دعوات جميع الأنبياء عليهم السلام ، لذلك كان موكب الايمان الذي قياده الرسل عليهم الصلاة والسلام يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق ، ففى صرامة وصراحة ، بقول الأنبياء جميعا لأقوامهم ﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ (١) . كما أشار الى ذلك القرآن الكريم ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحيّ إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٢) .

والمتمعن فى سورة الاعراف المكية يجدها من بدايتها تعرضت للمعجزة الخالدة التي ختم الله بها الرسالات السماوية قال تعالى ﴿ المصّ . كتب أنزل إليك ﴾ (٣) ذلك الكتاب الذى لا يأتىه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى أعجز الثقلين أن يأتوا بآية من مثله ، ذلك الكتاب الذى فيه سعادة الناس أجمعين ، فهو النعمة العظمى من الرحمن للبشرية جمعاء لانقاذهم من دياجير الظلمات وركام الأوهام والخرافات .

وكما هو معروف ان القرآن الكريم عنى بالدرجة الاولى بتشبيها العقيدة ، وترسيخها فى قلوب المسلمين آنذاك ، ولفت أنظارهم الى موجود هذا الكون ، ومافيه من أجرام سماوية ومخلوقات هى فى غاية الإبداع وأن يدعوا عبادة الطواغيت التي يعبدونها من دون الله ، والتي لاتعسى ولاتسمع ولاتبصر ولاتجلب نفعا ولاضرا ، وأن يتجهوا إلى عبادة الواحد القهار ويتبعوا ماشرعه لهم ، فيحلوا ماأحله لهم ، ويحرموا ماحرمه عليهم ، ويمثلوا أوامره ، ويجتنبوا نواهيه ، لأنه جل وعلا خالقهم ومربيهم ومدبر أمرهم ، والعليم بما فيه مصلحتهم ، وحذرهم من أن يتخذوا معه شركاء ، يزينون لهم الباطل ، ويعرفونهم عن دينه القويم قال تعالى ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون ﴾ (٤) .

(١) الاعراف الآية ٥٩ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥ .

(٢) الانبياء الآية ٢٥ .

(٣) الاعراف الآية ٢ ، ١ .

(٤) الاعراف الآية ٣ .

(المبحث الاول)

دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لقومه

لقد بعث الله جل وعلا نبيه محمداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس كافة عرباً وعجماً، وكان أول من واجه من الناس العرب باعتباره صلى الله عليه وآله وسلم من أنفسهم، ومن أنفسهم، فقابلوا دعوته بالعناد والتكذيب شأن سائر الأمم الذين فعل الله علينا خبرهم في سورة الأعراف موضوع بحثنا .

ولم تختلف شبهاتهم وأساليب عنادهم في مواجهة دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عما فعله السابقون مع الرسل الكرام عليهم السلام، ويؤكد ذلك قوله تعالى ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ أَتُوا صَوًّا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴾ (١) والضمير في (من قبلهم) راجع إلى مشركي قريش وسأبين في هذا الفصل الصراع بين المشركين وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والأساليب التي اتبعها عليه الصلاة والسلام في دعوة المشركين من خلال سورة الأعراف، وسيقتضى البحث أن يتعرض لآيات في آخر السورة قبل التعرض لآيات في أوائلها أو في وسطها تبعاً للعناوين .

أولاً : أسلوب الترغيب والترهيب :

وهما منتشران في هذه السورة . تطالعك ثالث آية فيه وهي قوله تعالى ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَاتَذَكُرُونَ . وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ . فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآبِينَ . وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِعَآيِلَتِنَا يَظْلَمُونَ ﴾ (٢) . وقد سبق التعرض لهذه الآيات عند دراستي لآيات الخاصة

(١) الذاريات الآية (٥٢، ٥٣) .

(٢) الأعراف الآيات من (٣ - ٩) .

بالحز على الايمان (١)، والآيات الخاصة باليوم الآخر وأن وقوعه لا يربب فيه (٢)، والقصد من ذكرها هنا توضيح أسلوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دعوة المشركين من خلال هذه السورة، والناظر في هذه الآيات يجدها تركز على أربع نقاط رئيسية :

أولا : ترغيبهم في اتباع القرآن، بوصفه بأنه أحسن ما أنزل، وأنه أنزل لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأنه من ربهم الحفي بهم القاء بمصالحهم والمدبر لشؤونهم، قال تعالى : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتكم العذاب بغتةً وأنتم لاتشعرون ﴾ (٣) والخطاب في هذه الآية (٤) للمشركين بقريظة قوله تعالى (قليلا ماتذكرون) .
ويدخل فيه ضمنا جميع المكلفين باتباع ما أنزل وهو القرآن كما انه تعالى نهاهم عن اتباع أولياء من الجن والإنس من دون الله حتى لا يحملوهم على الكفر بربهم ، الذي أنزل القرآن لاجلهم .

ثانيا : تلخيص معير كثير من المكذبين السابقين ومجيء العذاب لهم فى أى وقت يشاءه الله تبارك وتعالى ، وما كان قولهم حين جاءهم العذاب إلا وصفهم أنفسهم بالظلم ، عل ذلك يخلصهم من هذا العذاب ، لكن تلك المقالة ما أغنت عنهم شيئا ﴿ فما كان دعوتهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ (٥) والضمير فى دعواهم يرجع إلى المكذبين السابقين . والغرض من هذه الآيات وعظ قريش بحال السابقين ، وأنهم ليسوا بأعز منهم ، مما يحملهم على الإقبال على الإيمان ، لكنهم مع ذلك لجوا فى العناد ، فاستحقوا ما وصفوا به .

﴿ قليلا ماتذكرون ﴾ نفى عنهم التذكر البتة أو أنه تذكر قليل لا يودى إلى المطلوب .

(١)، (٢) انظر ص ٧ ، ص ١٦ من بحثنا هذا .

(٣) الزمر الآية (٥٥) .

(٤) قوله تعالى ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه

أولياء قليلا ماتذكرون ﴾ الأعراف الآية (٣) .

(٥) الأعراف الآية (٥) .

ثالثاً: التنبيه على البعث بذكر بعض مافيه وهو سؤال الذين أرسل إليهم عن إيمانهم وعنادهم، وسؤال المرسلين عن تبليغهم واجتهادهم فـصـح نصح قومهم تبكيتاً للمكذبين ومسرة للمؤمنين، قال تعالى ﴿ فلننـسئـلـن الذين أرسل إليهم ولنسئـلـن المرسلين . فلننقمن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ (١).

رابعاً: الحديث عن وزن الأعمال وحقيقة الميزان، وأنه يثقل بالأعمال الصالحة، وأنه يخف بالكفر وسوء الأعمال، وأن المفلحين هم الذين ثقلت موازينهم بإيمانهم ومسالح أعمالهم، وأن الخاسرين هم الذين خفت موازينهم لخلوها من الايمان والعمل الصالح، وأنهم ظلموا أنفسهم بعدم اتباعهم ما أنزل اليهم من ربهم، فكانوا لها ظالمين . ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ (٢) والاسلوب فى هذه الآيات عام وشامل لسائر المكذبين، وليس لوما مباشرا لمشركى العرب على كفرهم وعنادهم، وسبب هذا العموم التفاوت الكبير بين عقلية الأمم المحمدية والعرب منها بخاصة وعقلية الأمم السابقة .

ومن اسلوب الترغيب:

ترغيب المشركين بالايمان بالله عز وجل وتذكيرهم بنعم شاملة لهم

ولمن سبقهم من البشر، ولمن سيأتى بعدهم، كقوله تعالى ﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معيشة قليلا متشكرون ولقد خلقناكم ثم صورناكم . . .) الآية، وقد سبق التعرض لهذه الآية فى الفصل الاول (٣).

ومنها ذكر قصة آدم عليه السلام التى بدأت بسجود الملائكة له، تكريماً لآدم خاصة وللنوع البشرى عامة، وبيان عداوة الشيطان للإنسان، وكيف احتال الشيطان فى إخراج آدم وحواء من الجنة، وتعريض الجنس البشرى للتكاليف والكدر فى هذه الحياة، وسطو الشيطان عليهم لاغواء

(١) الاعراف الآيتان (٦ ، ٧) .

(٢) الاعراف الآيتان (٨ ، ٩) .

(٣) انظر ص ١٦ من بحثنا هذا ،

أكثرهم بالكفر ومرفهم عن طريق الحق .

قال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من المصغرين ﴾ . . . إلى قوله تعالى ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتنع إلى حين ﴾ (١) وقد سبق التعرض لها وتحليل الآيات بالتفصيل (٢) .

ومنه الامتنان على بنى آدم بما أنزله إليهم من اللباس الذى يسترون به عوراتهم والرياش التى يهيئون بها منازلهم أو يجمعون بها حياتهم قال تعالى ﴿ يلبسنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ﴾ (٣) وقد سبق التعرض لها فى الفعل الاول (٤) .

ومنه اسداء النصح العام لبنى آدم بتحذيرهم من فتنة الشيطان والمشركون المخاطبون بهذه الآيات داخلون فى هذا النصح دخولا أوليا قال تعالى : ﴿ يلبسنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما إنه يركم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٥) . وقد سبق التعرض لها أيضا فى الفعل الاول (٦) .

ومنه حضهم على ماتقوى به أرواحهم من طاعته وعبادته ، والتجمل بزينة اللباس عند فعل بعض هذه الطاعات ، وماتتقوى به أبدانهم للقيام بما كلفها الله تعالى به باعطاءها حقها من الأكل والشرب ، ونهيهم عن الاسراف الذى يجز عليهم كل بلاء ، ويعرضهم لسخطه فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ يلبسنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا

-
- (١) الاعراف من الآية (١١ - ٢٤) .
 - (٢) انظر ص (٦٧ - ٩٥) من بحثنا هذا .
 - (٣) الاعراف الآية (٢٦) .
 - (٤) انظر ص (٩٦ - ٩٩) .
 - (٥) الاعراف الآية (٢٧) .
 - (٦) انظر ص (٩٩ - ١٠٣) من بحثنا هذا .

إنه لا يجب المسرفين * (١). قوله * خذوا زينتكم * قال صاحب الكشاف : أى ريشكم ولباس زينتكم . عند كل مسجد ، أى كلما هليتم أو طفتم ، وكانوا يطوفون عراة ، وعمن طاووس : لم يأمرهم بالحرير والديباج . وإنما كان أحدهم يطوف عريانسا ويدع ثيابه وراء المسجد ، وإن طاف وهى عليه ضرب وانتزعت عنه لأنهم قالوا : لانعبد الله فى ثياب أذنبنا فيها ، وقيل تفاوتوا : ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب . آ . هـ (٢).

قال الواحدي فى (أسباب النزول) عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت فى الجاهلية وهى عريانة وعلى فرجها خرقة وهى تقول : اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله فنزلت * خذوا زينتكم عند كل مسجد * ونزلت * قل من حرم زينة الله * الآيتان (٣) رواه مسلم (٤) عن بنى دار عن غندر ، عن شعبة ، مع اختلاف يسير . قال صاحب الكشاف : (والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة وكان بنو عامر فى أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم ، فقال المسلمون : فإننا أحق أن نفعل ، فقل لهم * كلوا واشربوا ولا تسرفوا * وعن ابن عباس رضى الله عنه : (كل ماشئت ، والبس ماشئت ، ما أخطأتك خصلتان سرف ومخيلة) . ويحكى أن الرشيد (٥) كان له

(١) الآية ٣١ الأعراف .

(٢) تفسير الكشاف (٧٦/٢) .

(٣) أسباب النزول للواحدي تحقيق السيد أحمد مقرط (دار القبلة) ٢٢٢٠

(٤) صحيح مسلم (٢٣٢٠/٤) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

(٥) هارون الرشيد (١٤٩ - ١٩٣ هـ) : هو هارون بن محمد بن المنصور

العباس ، أبو جعفر ، خامس خلفاء الدولة العباسية فى العراق واشهرهم ، ولد بالرى ، لما كان أبوه أميرا عليها وعلى خراسان ، ونشأ فى دار الخلافة ببغداد وولاه أبوه غزو الروم فى القسطنطينية ، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه الهادى سنة (١٧٠ هـ) فقام بأعبائها ، وازدهرت الدولة فى أيامه ، وكان عالما بالأدب وأخبار العرب والحديث والفقهاء فصيحاً شجاعاً كثير الغزوات حازماً كريماً متواضعاً يحج سنة ويغزو سنة . انظر الأعلام للزركلى (٦٢/٨) .

طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين بن واقد: (١) ليس فى كتابكم من علم الطب شيء . العلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان ، فقال له : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه . قال : وماهى ؟ قال قوله تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ . فقال النصرانى : ولا يؤثر بمن رسولكم شيء فى الطب فقال : قد جمع رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم الطب فى ألفاظ يسيره قال وماهى : قال قوله (المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء وأعط كل بدن ما عودته) . فقال النصرانى ماترك كتابكم ولانبيكم لجالينوس . (طبيا) .

ذكر هذه القصة الزمخشري فى كشافه (٢) والنسفى فى تفسيره (٣) ونقلها ابن الجوزى فى زاد المسير (٤) . وعلق على الحديث المذكور فيها عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لم يثبت . أ . ه .

قلت : ذكره الحافظ السخاوى فى المقامد الحسنة وقال : لا يصح رفعه إلى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب أو غيره (٥) والله أعلم .

ومن أسلوب الترغيب فى هذه السورة الحديث عن الكون علويه وسفليه :
وأن الله عز وجل هو وحده المنفرد بخلقه والمدبر له ، والمعرف ما فيه بقدرته ، والحديث أيضا عن بعض الظواهر الكونية التى لها علاقة وثيقة بالبيئة العربية ، والتى ينبه بها المشركين على رحمة الله وفضله عليهم ، واستخدام ذلك البعض فى توضيح حقيقة البعث الذى أنكروه وتجليته بما ينتزع الشك من نفوسهم ، فيقول تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق

(١) على بن الحسين بن واقد : مولى الأمير فاتح خراسان عبد الله بن عامر بن كريز القرشى ، الامام المحدث الصدوق أبو الحسن المروزى ولد سنة ثلاثين ومئة . وقال البخارى توفى سنة إحدى عشرة ومئتين . أ . ه . انظر سير أعلام النبلاء للامام شمس الدين محمد بن احمد الذهبى (٢١١/١٠) .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري (٧٦/٢) .

(٣) النسفى (٥١/٢) .

(٤) زاد المسير لابن الجوزى (١٨٨/٣) .

(٥) المقامد الحسنة فى بيان كثير من الاحاديث المشتهرة على الالسننة

للحافظ السخاوى ص ٣٨٩ .

السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار
يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر
تبارك الله رب العلمين ﴿١﴾.

فقوله ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾
قال النسفى رحمه الله : أراد السموات والأرض وما بينهما وقد فعلها فى
حم السجدة أى من الأحد إلى الجمعة لاعتبار الملائكة شيئا فشيئا .
وللإعلام بالتأنى فى الأمور . ولأن لكل عمل يوما ، ولأن إنشاء شئ بعد شئ
أدل على عالم مدبر يصرفه على اختياره ويجريه على مشيئته .
﴿ ثم استوى على العرش ﴾ وتفسير العرش بالسريـر
والاستواء بالاستقرار كما تقوله المشبهة باطل . لأنه كان قبل العرش
ولامكان وهو الآن كما كان لأن التغير من صفات الكوان .

﴿ يغشى الليل النهار ﴾ أى يلحق الليل بالنهار والنهار بالليل .
﴿ يطلبه حثيثاً ﴾ حال من الليل أى سريعا والطالب هو الليل كأنه
لسرعة مضيه يطلب النهار . ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾
أى مذللات . ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ أى هو الذى خلق الأشياء وله الأمر .
﴿ تبارك الله رب العلمين ﴾ أى كثر خيره أو دام بره ﴿٢﴾ .
وقوله جل شأنه ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى
إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل
الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ بشرا :
جمع بشير لأن الرياح تبشر بالمطر .

﴿ حتى إذا أقلت ﴾ أى : حملت ، ورفعت ، واشتقاق الاقلال من القلة ،
لأن الرافع المطيق يرى ما يرفعه قليلا ، ﴿ سحابا ثقالا ﴾ بالماء . ﴿ سقناه
لبلد ميت ﴾ أى : لأجل بلد ليس فيه مطر . ﴿ فأنزلنا به الماء ﴾ فأخرجنا به من
كل الثمرات كذلك ﴿ مثل ذلك الاخراج هو اخراج الثمرات ، ﴿ نخرج الموتى لعلكم

(١) الأعراف الآية (٥٤) .

(٢) (٥٦/٢) .

(٢) انظر تفسير النسفى

تذكرون * فيؤديكم التذکر إلى الإيمان بالبعث، إذ لافرق بين الإخراجين، لأن كل واحد منهما إعادة الشيء بعد إنشائه (١).

وقوله تعالى: * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيت لقوم يشكرون * (٢).

وقوله * والبلد الطيب * الأرض الطيبة التراب * يخرج نباته بإذن ربه * بتيسيره . وهو موضع الحال كأنه يخرج نباته حسناً وافياً، لأنه واقع في مقابلة نكداً . وقوله * والذي خبث * صفة للبلد أي والبلد الخبيث، * لا يخرج * أي نباته فحذف للاكتفاء . * إلا نكداً * هو الذي لاخير فيه، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ وهو المؤمن ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك وهو الكافر . وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر مثل المطر وإنزاله بالبلد الميت وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد . * كذلك * مثل ذلك التصريف . * نصرف الآيت * نردها ونكرها . * لقوم يشكرون * نعمة الله وهم المؤمنون ليتفكروا فيها ويعتبروا بها (٣).

أما أسلوب التهيب للمشركين فقد ساقته سورة الاعراف بأساليب متنوعة أجمل منها مايلي :-

أولاً : مناقشتهم في شبه أثاروها، وافترافات لبيان الحق فيها، وأسوق لذلك أربع آيات : قوله تعالى : * وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها * (٤)

الفاحشة : هي الفعلة القبيحة المتناهية في القبح، والمراد بها هنا عبادة الاصنام، وطوافهم بالبيت عراة، وسائر ما كانوا يأتونه فـ جاهليتهم، وقد تعللوا بصلاح ما فعلوا - مع أنه قبيح - لوجود آباءهم عليه، وهم أقرب إلى ملة ابراهيم عليه السلام ولو كان سوء ما فعلوه . ثم يتعللون بأن الله أمرهم بذلك، إذ لو كان ما يأتونه قبيحاً لحولهم عنه

(١) تفسير النسفي بتهريف واختصار (٥٧/٢) (٢) الاعراف الآية (٥٨) .

(٣) تفسير النسفي بتهريف واختصار (٥٨، ٥٧/٢) .

(٤) الاعراف الآية (٢٨)

أو لعاقبهم عليه . ويرد الله عليهم بقوله ﴿ قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾
لأنه جل وعلا جرت عادته على الأمر بمحاسن الأعمال ، والحث على مكارم
الخصال .

﴿ أتقولون على الله ما لاتعلمون ﴾ (١) الهمزة لانكار الواقع
واستقبحه ، والإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يكون ، ولكي يشير في نفوسهم قبح
ما يقولون ، وليبين لهم كبر جرمه ، والأصل في المأمور به أن لا يكون إلا أمرا
حسنا ، واجبا كان مندوبا أو مباحا ، حتى يستحق أن يؤمر به ، فأما الفواحش
فلا يؤمر بها أصلا بل يیزجر الفاعل عن فعلها ، فإذا رغب فيها رغب فذلك
لبعده عن الإيمان وتحول فطرته من الخير إلى الشر .

ثانيا : ثم امر الله نبيه أن يعرفهم ما يأمر الله تعالى به عباده حتى
لا يبقى لبس في أن فواحشهم التي يأتونها ليست مما أمر الله به :
(قل أمر ربي بالقسط) أي : بالعدل ، وبكل خير شرعه الله على السنة
رسله صلوات الله وسلامه عليهم وآلهم . ثم امر الله عباده كافرين
ومؤمنين ، ان أرادوا الخير لأنفسهم ، أن يقيموا وجوههم عند كل مسجد ،
وأن يدعوه مخلصين له الدين .

قال تعالى : ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ قوله ﴿ أقيموا
وجوهكم ﴾ أي : أقصدوا عبادته مستقيمين اليها ، غير عادلين إلى غيرها ،
في كل وقت سجود أو في كل مكان سجود . ﴿ وادعوه ﴾ وابعدوه ﴿ مخلصين
له الدين ﴾ أي : الطاعة ، مبتغين بها وجهه خالصا . ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾
كما أنشأكم ابتداء يعيدكم (٢) ، والمعنى : أنه يعيدكم فيجازيكم على
أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة ، فكما قدر على البدء بلا كلفة فهو قادر
على الإعادة لامحالة ، فإذا اهتدى مهتد فيتوفيق الله ، وإذا أعرض معرض
فبخذلان الله ﴿ فريقا هدى . وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ بما اختاروه
لأنفسهم من تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والإعراض عن الحق
الذي جاءهم به ، واتخاذهم الشياطين أولياء من دون الله يطيعونهم في

(١) الأعراف الآية (٢٨) .

(٢) تفسير النسفي (٥٠/٢) .

ما يحملونهم عليه من الشر، ويحسبون مع ذلك أنهم على هدى، وهم فى الحقيقة ليسوا بمهتدين . قال تعالى ﴿إنهم﴾ أى الكافرين الذين حق عليهم الضلالة ﴿اتخذوا الشيطان أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون﴾ (١).

ثالثا : قوله تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) الآية . كان المشركون - كما أسلفت (٢) - يطوفون بالبیت عراة ، ويذعّون أن الله حرم الزينة والتجمل باللباس فى هذه المواطن ، كما أنهم كانوا إذا أحرموا يمنعون أنفسهم من أكل لحوم الضأن ودهونها وألبانها ، فخطأهم الله فى ذلك بقوله : ﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ . والاستفهام فى هذه الآية إنكارى ، قصد به تقبيح هذا المدعى من قائله ، لأن التحريم لله وحده ، وهو لم يحرم ذلك على عباده . ثم أخبر تعالى أن الزينة وطيبات الرزق للذين آمنوا فى الحياة الدنيا أصلا ، وللكافرين تبعا ، وأنها خالصة يوم القيامة للمؤمنين ، لأنهم صاروا إلى دار الكرامة ، التى هى مستقر الزينة والطيبات من الرزق ، فأما الكافرون فقد صاروا إلى دار المهانة ، التى ليس فيها إلا الهوان والعذاب الأليم ، وختم هذه الآية ببيان شاف ، يقاس عليه غيره من آياته فى الموضوع وظهور الحجة ، لا يدرك ذلك إلا من رزقه الله العلم النافع ﴿ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفعل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٣).

رابعا : ثم بين جل وعلا فى الآية الرابعة ما حرمه على عباده حقا ، ومالم يأذن لهم فيه ، فقال : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ﴾ أى : القبائح من الذنوب . ﴿ ما ظهر منها ﴾ كالزنا وشرب الخمر ووآد البنات ، وكانسوا يفعلون ذلك فى الجاهلية بلا حياء . ﴿ وما باطن ﴾ كالحقد والكبر والخيانة وسائر الرذائل النفسية ، ﴿ والإثم ﴾ أى شرب الخمر أو كل ذنب . ﴿ والبغى ﴾

(١) الاعراف الآية (٣٠) .

(٢) عند تفسير قوله تعالى (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد)

انظر ص (٤٢٥) من بحثنا هذا .

(٣) الاعراف الآية (٣٢) .

الظلم والكبر ﴿بغير الحق﴾ متعلق بالبغي (١) . ﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا﴾ أى : وحرم عليكم أيها المشركون ما اتخذتموه من الأصنام التى تدعون شركيتها لله عز وجل أو نديتها له تعالى الله عما يشركون . ﴿وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون﴾ (٢) أى : وحرم أن تقولوا على الله ما لاتعلمون أنه أذن فيه أو قاله جلا جلاله . تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

ومن أسلوب الترهيب :

تهديد المشركين بأوخم العواقب : وقد سلكت السورة بذلك أساليب متنوعة :-

- أ () تهديدهم بسوء المصير والخلود فى العذاب كقوله تعالى : ﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (٣)
- ب () تهديدهم بسقوط مكانتهم عند الله ، وأنه تعالى لا يسمع دعاءهم وأنه حرم عليهم الجنة ، وأنهم لا يدخلونها البتة حتى لو وقع ما يستحيل وقوعه فى العقل ، فإنهم لا يدخلونها بحال ، ليقطع عليهم أطعاهم التى نطقوا بها ، كما فى قوله تعالى ﴿ولئن رجعت إلى ربيّ إنّ لى عنده للحسنى﴾ (٤) أى : الجنة أو الحالة الحسنى من الكرامة والنعمة (٥) قال تعالى : ﴿إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين﴾ (٦) .

-
- (١) انظر تفسير النسفى (٥١/٢) .
(٢) الاعراف الآية (٣٣) .
(٣) الاعراف الآية (٣٦) .
(٤) فصلت الآية (٥٠) .
(٥) تفسير النسفى (٩٨/٤) .
(٦) الاعراف الآية (٤٠) .

ج (تصوير واقع أهل الجنة وأهل النار وأنهما متجاوران ، وشتان مابينهما من الحالة التى وصل إليها كل فريق ، فمع ما هم عليه أهل الجنة من فرح وسرور وحبور بما وجدوه من وعد الله الحق لهم . ينادي أهل الجنة أهل النار ويسألونهم : * هل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم * وهذا إقرار من أهل النار بما هم فيه من هوان ، والإستفهام فى الآيـة للتهكم لأن أهل الجنة موقنون بأن ما وجده أهل النار فيها مما وعدهم الله به فى الدنيا حق لا ريب فيه ، فحينئذ يؤذن ملك من ملائكة الحق وينادى بصوت يخلع القلوب عقيب حوار الفريقين بعضهما لبعض . . . قال تعالى : * فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله * أى يصدون أنفسهم وغيرهم بالعناد والتكذيب والشبه الباطلة والتشكيك فى القرآن ونبي القرآن .

* ويبغونها عوجا * أى موافقة لأهوائهم وضلالهم .
(١)
* وهم بالأخرة كفرون * أى بالدار الآخرة . وما وعد الله عباده فيها .
* وبينهما حجاب * فلا يصل أهل الجنة لأهل النار ، ولا أهل النار لأهل الجنة .

د (ومن الأساليب التى سلكتها السورة فى تهديد المشركين وصف حالة أهل النار واستغاثتهم بأهل الجنة ، وطلب أهل النار أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء ، ليطفئوا ما بلغ بهم من العطش والحر الشديد ، حتى إن السنتهم نزلت من أفواههم ، فهم يلهثون كما تلهث الكلاب ، ويتوسلون إلى أهل الجنة أن ينيلوهم شيئا مما رزقهم الله إياه من النعيم ، وكان كل همهم أن يفيضوا عليهم بعضا من الماء ، ليستريحوا به شيئا من الاسترواح من أكل الزقوم (٢) والغسلين ، ومن شرب الحميم (٣)

(١) الاعراف الآية (٤٥) .

(٢) الزقوم : طعام أهل النار قال تعالى فى وصفها * أذ لك خير نزلا ام شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم . طلوعها كأنه رؤوس الشياطين . فإنهم لأكلون منها فمأكون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم * سورة الصافات الايات (٦٢ - ٦٧) .

(٣) الغسلين : قال تعالى * ولاطعام إلا من غسلين * الحاقة آيـة ٣٦ والغسلين : غسالة أهل النار وهو مايسيل من أبدانهم من المديد والدم . انظر النفسى (٢٨٩/٤) .

وهو الماء الحار المتناهى فى الحرارة، فيجيبهم المؤمنون بأن الله حرم ذلك على الكافرين، وإنما سأل أهل النار ذلك مع يأسهم من حصوله، لأن المتحير المكروب ينطق بما يفيد وبما لا يفيد (١)، قال تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٢).

(ع) ومرة أخرى يبين لهم أنهم منسيون فى النار لا يملون إلى رحمة الله بولولتهم ولا بتدميرهم، لأنهم اتخذوا دينهم الذى اعتنقوه وانتسبوا إليه لهواً ولعباً فحرموا ماشاؤوا، وأحلوا ما اشتبهوه، وغرهم طول البقاء فى هذه الدنيا ونسوا لقاء ربهم، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسُوهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٣)

والتقدير: فالיום ننسأهم كما نسأ لقاء هذا اليوم وكما كانوا بآيات الله يحدون. وهذا يصور لك مبلغ عدم اكتراثهم بيوم القيامة وامعأنهم فى التكذيب به، وامعأنهم فى انكار آيات الله تعالى.

(و) وتارة يذكرهم بأنهم سوف يعترفون بأن القرآن الذى جحدوه فى الدنيا حق لا ريب فيه، وأن الرسل الذين كذبوهم قد جاؤوهم بالحق الذى لا معدل عنه، وأن اعترافهم هذا لا يغنى عنهم شيئاً، لأنهم قالوه بعد فوات آوانه، وأنهم سيطلبون لانفسهم شفعاء، يشفعون لهم عند الله فلا يجدون، وأنهم يتمنون أن يردوا إلى الدنيا من جديد ليعمروا ما امتنعوا عن عمله من قبل، وأن ذلك لن يتحقق لهم، وأنهم قد خسروا أنفسهم بوقوعهم فى العذاب الذى كذبوا به، وأن ما كانوا يفترونه من شركهم فى الدنيا قد غاب عنهم، ولم يجدوا له نفعاً، قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ أى: هل ينتظرون إلا عاقبة هذا الكتاب الذى كذبوا به حين يعلمون يوم القيامة، أنه ما جاءهم إلا بالهدى والرحمة، لكنهم اجتهدوا فى الإعراض عنه، ففوجئوا بما لم يتوقعوا.

(١) انظر تفسير النسفى (٥٥/٢) .

(٢) سورة الاعراف الاية (٥٠) .

(٣) الاعراف الاية (٥١) .

﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ * أى : تظهر الحقائق التى أخبر عنها ماثلة للعيان ، فالجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ونبيهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذى كذبوه حق * يقول الذين نسوه من قبلُ قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردُّ فنعمل غير الذى كنا نعملُ قـد خسروا أنفسهم وذل عنهم ماكانوا يفترون * (١) . ثم لم تكتف السورة بما مضى بل قصت عليهم حال نوح عليه السلام مع قومه ، وهود عليه السلام مع عاد وصالح عليه السلام مع ثمود ، وشعيب عليه السلام مع مدين ، وموسى عليه السلام مع فرعون ، ومع بنى اسرائيل بعد انجائهم من فرعون ، ليتعظ المشركون بهذا القمص وليعتبروا بحال الأقرام ومآلهم .

ولعلى أكون قد وفقت ببيان ماسلكته السورة فى حجاج المشركين وتولية الصراع بينهم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وكما سلكت السورة مع المشركين عدة مسالك ألمحت إليها ، كذلك سلكت مع اليهود عدة مسالك ، أقامت بها الحجة على المعاصرين منهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وبينت أخطاء أسلافهم ، وقد تعرضت لها من خلال تناولى لقصة موسى عليه السلام ، وهى تتلخص فى ذكر ما أنعم الله به عليهم ، وبيان ما قابلوا به هذا الانعام من الحجود والنكران ، وارتكاب أشنع المخالفات كما فعلته سابقا (٢) .

ولم تكتف السورة مع اليهود بما بسطته من خلال قصة موسى عليه السلام بل ذكرت لهم ثلاثة أشياء محدودة ، تحملهم على متابعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والايمان به ، حتى لا يحدث لهم ما حدث لأسلافهم :

أولا : بيان شرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأنه رحمة مهداة للعالمين ، وهم جزء من العالمين وأنه صلى الله عليه وآله وسلم رحمة خاصة لهم ، وتجد ذلك واضحا فى قوله : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف

(١) الاعراف الاية (٥٣) .

(٢) انظر ص (٤١٥ - ٤١٧ من بحثنا هذا .

وينهّلهم عن المنكر ويُجِلّ لهم الطيبات ﴿١﴾ آى : التى حرمت عليهم وعلى أسلافهم ، بما ارتكبه أسلافهم من مآثم استوجبت تلك المعاقبة .

﴿ ويحرم عليهم الخبيث ﴾ من الربا والرشوة وشرب الخمر وأكـل الخنزير وغير ذلك مما شاع فى اليهود من محرّمات .

﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ كاشتراط قتل النفس فى قبول التوبة (٢) وأخذهم بالقود فى قتل العمد والخطأ على سـواء ، وقطع ماتنجس من ثيابهم وجلودهم ، وإحراق الغنائم ، وظهور الذنوب على أبواب البيوت وغير ذلك . والإصر هو الثقل الذى يأسر صاحبه أى يحبسه عن الحراك لثقله ، والمراد التكاليف المعبة المشار إليها آنفاً ، والأغلال جمع غُل بضم الغين . وهى فى الأمل الحديدة التى تجمع يد الأسير إلى عنقه ، وشبهت التكاليف بالغل للزومها لزوم الغل (٣) . ثم بين الله تعالى كيفية متابعة هذا النبى الأُمى (صلى الله عليه وآله وسلم) فحصرها فى أربعة أشياء :-

- أ) فى تحقيق الإيمان به ، قال تعالى ﴿ فالذين آمنوا به ﴾
- ب) توقيره وتعظيمه وفدائه بالنفس والمال والولد قال تعالى ﴿ وعزروه ﴾
- ج) نصرته ومساعدته على نشر دينه ، والقيام بعده بنشر هذا الدين والإجتهد فى تبليغه إلى العالمين ﴿ ونصروه ﴾
- د) اتباع النور الذى أنزل معه وهو القرآن الكريم ﴿ واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾ .

قال تعالى : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ . ولم أفض كثيراً فى هذه الآية لأننى ذكرتها فى الفصل الاول (٤) .

-
- (١) سورة الاعراف الآية (١٥٧) .
 - (٢) كما اشار إلى ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ وإذ قال موسى لقومه يلقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) البقرة الآية (٥٤) .
 - (٣) انظر تفسير الالوسى (٨٨/٩) ، ابن السعود (٢٧٩/٣ - ٢٨٠) ، النسفى (٨٠/٢) .
 - (٤) انظر ص ٩ من بحثنا هذا .

ثانياً : أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم عن دقيقة انفردوا بمعرفتها ، ولم يعرفها عنهم غيرهم ، ولم يُعرف أنه صلى الله عليه وآله وسلم جالسهم فأخبروه بها ألا وهي قصة أهل القرية التي كانت قريبة من البحر . والذي اعتدى أهلها بالعمل في يوم السبت ، وكان قد فرض عليهم تعظيمه وتخصيمه بالعبادة لما اختاروه لأنفسهم بأهوائهم ، وتركوا ما اختار الله لهم وهو يوم الجمعة ، فكان اختيارهم سبب نكبتهم ومسخهم قسراً وخنازير ، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يسألهم عن هذه القصة ، ليعلموا أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد عرفها من قبيل الوحي ، لعل ذلك يحملهم على الإيمان به وتصديقه فيما جاءهم به عن الله عز وجل .

وقد انفردت سورة الاعراف بتفصيل هذه القصة بينما أشار القرآن إليها بايجاز في سورة البقرة بقوله : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردةً خلسئين فجعلناها نكلاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتقين ﴾ (١) . وقوله تعالى في سورة النحل ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (٢) أي : إنما جعل البلاء على اليهود المختلفين في يوم السبت الذين آثروه على يوم الجمعة ، قال النسفي رحمه الله : (روى أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الاسوع يوماً للعبادة ، وأن يكون يوم الجمعة ، فأبوا عليه وقالوا نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت ، إلا شذمة منهم قد رضوا بالجمعة فهذا اختلافهم في السبت ، لأن بعضهم اختاروه ، وبعضهم اختاروا عليه يوم الجمعة ، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد ، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة فكانوا لا يصيدون ، وأعقابهم (٣) لم يصبروا عن الصيد فمسخهم الله دون أولئك ، وهو يحكم بينهم يوم القيامة فيجازي كل واحد من الفريقين بما هو أهله (٤) .

(١) الآيات (٦٥ - ٦٦) من سورة البقرة .

(٢) النحل الآية (١٢٤) .

(٣) هكذا في الأصل والصواب (أما أعقابهم لم ...) .

(٤) تفسير النسفي (٣٠٤/٢) .

أخرج البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول(نحن الآخرون السابقون يوم القيامة • بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع • اليهود غدا والنصارى بعسـد غد) (١)

ويوضح الحديث الذى أخرجه البخارى الأثر الذى رواه أبو صالح (٢) عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : أنه قال (أمر موسى عليه السلام اليهود بالجمعة • وقال : تفرغوا لله تعالى فى كل سبعة أيام يوماً واحدا وهو يوم الجمعة ،ولاتعملوا فيه شيئا من أعمالكم ،فأبوا أن يقبلوا ذلك وقالوا : لانريد إلا اليوم الذى فرغ الله تعالى فيه من الخلق، وهو يوم السبت ،فجعل عليهم ،وشدد فيه الأمر ،ثم جاء عيسى عليه السلام بالجمعة فقالت النصارى :- لانريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا فاتخذوا الأحد ،وكانهم إنما اختاروه لأنه مبتدأ الخلق) (٣) . وإليك تفصيل قصة أصحاب السبت من سورة الأعراف : -

قال تعالى : ﴿ و سئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ﴾ (٤) أى أسأل يا محمد صلى الله عليك وآلك وسلم اليهود المعاصرين لك المناوئين لدعوتك ،سؤال توبيخ وتقريع عن أمر يختص بآبائهم ،لا يعلمه أحد غيرهم إلا إياك ،فإننا أعلمناك به ليعلموا أن ماجئتهم به هو الحق ،عن أهل القرية التى كانت قريبة من البحر قيل : (أيله) (٥) وقيل غير ذلك

-
- (١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الجمعة (٤/٣ - ٦) •
 - (٢) انظر زاد المسير لابن الجوزى (٥٠٥/٤) •
 - (٣) تفسير الألوسى (٢٥٢/١٤ - ٢٥٣) •
 - (٤) الأعراف الآية (١٦٣) •
 - (٥) آيلة : مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) مما يلى الشام • كانت مدنية جليلة فى زمن داود عليه السلام وهى القرية التى ذكرها الله تعالى حاضرة البحر ،كان أهلها يهودا حرم الله تعالى عليهم يوم السبت هيد السمك • وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا بيضا سمانا كأنها الماخض حتى لايرى وجه الماء لكثرتها ،ويوم لايسبتون لاتأتيهم • فكانوا على ذلك برهة من الدهر ثم إن الشيطان وسوس لهم وقال : إنما نهيتم عن هيدها يوم السبت فاتخذوا حياضا حول البحر • وسوقوا إليها الحيتان يوم السبت ،فتبقى فيها محصورة واصطادوا يوم الأحد وفى غير يوم السبت لاياتيهم حوت واحد ،ففعلوا ما أمرهم الشيطان خائفين ••• انظر آثار البلاد وأخبار العباد لزكريا القزوينى ص ١٥٣ •

* إذ يعدون فى السبت * بمعنى إذ يعتدون فيه بفعل محرم الله عليهم فعله فى هذا اليوم من العمل الدنيوى ، فإنهم أمروا أن يتفرغوا فيه تفرغا تاما لعبادة ربهم ، وقد ابتلاهم الله بذلك لما أعرض أغلبهم عن يوم الجمعة ، الذى اختاره الله لهم ، مدعين أن يوم السبت هو اليوم الذى فرغ الحق تبارك وتعالى فيه من خلق السموات والأرض .

* إذ * ظرف فى محل جر بدل من القرية . وقوله تعالى * إذ أتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا * أى ظاهرة بادية على وجه الماء ، كثيرة يسهل اصطيادها بلا عناء وكلفة .

وسبت من * سبتهم * مصدر سبتت اليهود تسبت سبتا ، أى : انقطعوا لعبادتهم ، وقد ابتلاهم الله بذلك نعمة منهم ليصطادوا فى هذا اليوم الذى نهوا عن العمل فيه والذى اختاروه لأنفسهم . * ويوم لايسبتون لاتأتيتهم * أى لاتأتيتهم حيتانهم فى سائر أيام الاسوع التى لايسبتون فيها . * ويوم * ظرف منصوب ب * لاتأتيتهم * . مما جرى سفهاهم والذالين منهم على الاصطياد يوم السبت مما أدى إلى هلاكهم ، وقوله تعالى : * كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون * أى كهذا البلاء ، وهذا الافتتان الحاصل لهم بمجسمة حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، وانقطاعها فى سائر أيام الاسوع ، مما سهل عليهم المعصية ، نبتليهم بأنواع أخرى من البلىا الشديدة ، بسبب استمرارهم على الفسق والفهم له .

ولذا استخدم القرآن كلمة (كان) الدالة على الاستمرار فى مثل هذا التعبير وبالفعل المضارع الدال على تجدد الفسق منهم ، ووقوعه حيننا بعد حين دون مبالاة بعواقبه (١) .

وقوله تعالى * وإن قالت أمة منهم * أى أمة سالحة من اليهود كانت قد بيثت من رجعة اولئك السفهاء عن الاصطياد فى يوم السبت ، فتركت وعظهم لقوم آخرين صالحين استمروا على وعظهم ، ولم يكفوا عنه مع استمرار هؤلاء السفهاء على المخالفة * لم تعظون قوما مهلكهم * أى مستأصلهم فى الدنيا بما يشاء لهم من العذاب الخاص بهم ، المناسب لتلك الجريمة النكراء (٢) .

(١) انظر تفسير ابى السعود (٢١٤/٣) ، وتفسير النسفى (٨٢/٢) .

(٢) أعنى اصطيادهم يوم السبت .

﴿ أو معذبهم عذابا شديدا فى الدنيا ﴾ دون الاهلاك ، مع ماينتظرهم من العذاب الشديد فى الآخرة ، وكان هؤلاء القائلون قد سلكوا كل وسيلة فى وعظهم لينزجروا عن جريمتهم ، فلم ينجح فيهم ، وقد أجابهم الصالحون المستمرون على وعظهم ﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ﴾ أى : نعظهم لأنهم سيرجعون بل لنظهر عذرتنا عند ربنا وأنا لم نكف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإن بدا أن المنهيين لا يرجعون و (معذرة) مفعول لأجله وهى قراءة حفص . وقراءة الجمهور (معذرة) بالرفع . والتقدير موعظتنا عذر إلى الله سبحانه وتعالى لثلاث نسب إلى التخصيص فى النهى عن المنكر (١) ، ومعنى القراءةتين متقارب ﴿ ولعلمهم يتقون ﴾ أى : رجاء . لأن يتقوا بعض التقاة واستخدام الواعظين كلمة (لعل) للدلالة على أن الأمل فى تقواهم قليل .

وقد بين تعالى أنهم لما نسوا ماذكروا به ، من نهيمهم عن العمل يوم السبت لما يجره عليهم من الويل ، نجى الصالحين منهم ، وأهلك المفسدين بعذاب خاص بهم ، لم يعذب به أحداً قبلهم ولا بعدهم وقد سماه الله باسم عام (عذاب بئيس) لتذهب النفس فيه كل مذهب ، ثم عينه ليريح القلوب من التفكير فيه ، وليبين لها أنه شئ لم يخطر على البال قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ماذكروا به ﴾ أى : فلما نسى الظالمون من اليهود ماذكروا به الصالحون وماخوفهم به من عذاب الله تعالى . ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء ﴾ أى : أنجينا الصالحين منهم برحمتنا لأنهم تحلوا بما يؤهلهم لها وهى النهى عن السوء ، ولم يقل ينهونهم ليعلم أن هؤلاء الصالحين كانوا ينهون عن السوء الواقع من هؤلاء السفهاء ومن غيرهم ، أى كانت طبيعتهم كراهية السوء ، والنهى عنه مطلقا ، بلا تأثر بقراءة ولاجاه ولا مال . ﴿ وأخذنا الذين ظلموا ﴾ أى : بقدرتنا وقهرنا ، واستخدم القرآن الكريم إسم الموصول مزيدا فى تعيينهم ، وكانهم الظالمون لاغيرهم . ﴿ بعذاب بئيس ﴾ فى الدنيا أى : شديد غريب لم يخطر مثله على البال ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ أى : بسبب فسقهم واستمرارهم عليه ، وقد عمم تعالى فى وصفهم بالفسق ، ليعلم أن المعاصى كلها تجر إلى البلاء ، فهو تعالى لم يقل بما كانوا يفسقون فى يوم السبت ، والذي كان سببا فى هذا العذاب البئيس ، بل قال تعالى ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ . ثم قال تعالى ﴿ فلما عتوا عما نهوا عنه ﴾ أى : اعرضوا

(١) انظر تفسير ابى السعود (٢٨٥/٣) .

عن ترك مانهوا عنه كل الاعراض، وصدوا عن وعظ الواعظين منهم الصدد التام، فاجأهم الله بما لم يكن فى حسابهم . * قلنا لهم كونوا قردة خلسين * أى : جعلناهم قردة حالة كونهم خاسئين خاسرين أدلاء ، لا يستطيعون أن يدفعوا مانزل بهم ، وهذا الكلام حقيقى لادخل للمجاز فيه البتة ، فقد حولهم من صورهم الآدمية الى قردة حقيقية ، وتأمل قوله تعالى * قلنا لهم كونوا * وهنا سؤال مهم وهو (هل مسخ بعضهم قردة وبعضهم خنازير؟ أم مسخ العامون فى يوم السبت كلهم قردة ومسح أناس آخرون من غيرهم خنازير؟) ويرى بعض المفسرين أن شبابهم مسخوا قردة وشيوخهم مسخوا خنازير ، للفتاوت ما بين الشباب والشيوخ . ويرى البعض الآخر أنهم مسخوا كلهم قردة ، وأما الذين مسخوا خنازير فهم الكافرون من بنى إسرائيل ، بعد نزول المائدة التى طلبوا من الله نزولها فى زمن المسيح عليه السلام ، والتى قال الله جل وعلا فى آخر قصتها * قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العلمين * (١) . وكان الممسوخون يعرفون صلحاءهم وأنبياءهم ويبكون ، لكنهم لا ينطقون والجمهور على أنهم ماتوا بعد ثلاثة أيام ، وقيل : إن هذه القردة قد عاشت وتناسلت ، والله اعلم بالصواب (٢) .

قال تعالى : * وسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسوا ماذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون . فلما عتوا عن مانهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خلسين * (٣) .

(١) المائدة الآية (١١٥) ، قال النسفى فى تفسير قوله تعالى * قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة * . المائدة الآية (٦٠) . يعنى أصحاب السبت (والخنازير) أى كفار أهل مائدة عيسى عليه السلام أو كلا المسخين من أصحاب السبت فشبانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير . . . تفسير النسفى (٢٩٠/١) .

(٢) انظر تفسير الرازى (١١٢/٣) ، تفسير ابى السعود (٢٨٧/٣) ، النسفى (٨٣/٢) .

(٣) الأعراف الآيات من (١٦٣ - ١٦٦) .

ثالثا : أخبر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بعقوبات تلازمهم إلى يوم القيامة منها :

(١) أنهم كلما اجتمعوا لاجتماعهم إلا على الشر، سلط الله عليهم من ينزل بهم سوء العذاب إلى يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ وَإِذ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آمَمًا مِنْهُمْ الْمُلْحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

فمعنى قوله ﴿ وَإِذ تَأَذَّنَ ﴾ أى وإذ أعلم وأخبر، وفيه معنى القسم كما يقول النسفى، ولذا أجيب بما يجب به القسم (٢) وهو قوله تعالى : ﴿ لِيُبْعَثَ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ والعقوبة الثانية : أنه فرقهم فى الأرض، ولم يأذن باجتماعهم فى مكان واحد إلى يوم القيامة، وأنه تعالى ابتلاهم بالنعم تارة، والنقم أخرى، لعلهم يرجعون عما هم فيه من غى، فما اتعظ بذلك إلا قليل منهم، وأما أغلبهم فأقاموا على الفساد والضلال، وهذا هو حالهم إلى يوم القيامة، فقل أن تجد فيهم مهتديا إلى الحق، قال تعالى : ﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آمَمًا مِنْهُمْ الْمُلْحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣)

وهم كذلك إلى عصرنا هذا فرغم قيام الدولة اليهودية فى فلسطين إلا أنها لاتضم أكثر من خمسم . وهم يحاولون جاهدين أن يستقبطوا كثيرين ممن يقيمون فى دول أخرى، لكن أغلبهم إلى الآن لا يظيب لهم العيش فى هذه الدولة (أعنى فلسطين) . لأن تقطيعهم وتفريقهم حكم من الله عليهم، وأحكام الله لاتنقض، وحتى القاطنون فى هذه الدولة تحسيهم جميعا وقلوبهم شتى، يدلك على ذلك كتلهم وأحزابهم التى أصون هذه الرسالة عن ذكر أسمائها، وهى لاتخفى على من له أدنى دراسة بأحوالهم .

(١) الأعراف الأيتان (١٦٧، ١٦٨) .

(٢) انظر تفسير النسفى (٨٣/٢) .

(٣) الأعراف الآية (١٦٨) .

وهؤلاء الذين وصف بعضهم بالصلاح، وبعضهم بالفساد، مضوا، أما اليهود المعاصرون لنا فلا خير فيهم، ولم نسمع بأن أحدهم قد اعتنق الاسلام، بل هم كما قال تعالى: ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا . وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ (١).

و (الخلف) بسكون اللام بدل السوء ، بخلاف الخلف بفتح اللام فهو الصالح . والمعنى : فخلف من بعد هؤلاء المذكورين قبل بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم خلف ، وهم الذين كانوا زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوم لا يتورعون عن الحرام ﴿ يأخذون هذا الأدنى ﴾ * أى يأخذون الدنيا الفانية الحقيرة الزائلة بطرق غير مشروعة ، كأخذ الرشاش وأكل الربا وتحريف الكتاب ليشتروا به عرضا قليلا من هذه الدنيا ، ويتذرعون إلى تبرير ما أخذوه بقولهم * سيغفر لنا * أى : ليس هذا الذنب الذى ذكرته الآية بل كل ذنب ، ولاغرابة فى هذا التفكير ، فإنهم يقولون إنهم أبناء الله وأحبائه ، وهم يقولون ذلك ليبرروا أخطأهم ، وليكذبوا القرآن فيما أخبر به من عقوبة الكافرين والظالمين .

والواو فى قوله ﴿ ويقولون سيغفر لنا ﴾ واو الحال ، أى : حالهم الملازمة لهم أنهم لا يشعرون بقبح ما صنعوا بل هم قائمون على تبريرهم وتسويغهم ، وهؤلاء (الخلف) - كما أسلفت - هم اليهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، والكتاب الذى ورثوه هو التوراة وكانوا فى عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعلمون الحق من كتابهم ، ويكتمونه ، ويخلطونه بالباطل ، ليشوشوا على الناس ، وقد نهاهم الله عن ذلك بقوله جل وعلا : ﴿ ولاتلبسوا الحسنى بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ (٢) ، ولذلك وبخهم الله بقوله : ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتب ان لا يقولوا على الله إلا الحق ﴾ أى قد أخذ عليهم هذا الميثاق ولكنهم تنكبوا عنه .

(١) الأعراف الآية (١٦٩) .

(٢) البقرة الآية (٤٢) .

وقوله تعالى ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾ بيان لتمكنهم من علم ما في كتابهم من الحلال والحرام ، فهم لم يفعلوا ما فعلوه من سوء بجهل ، بل فعلوه وهم عالمون ببطلانه ، ولذا وعظهم الله بموعظة عامة فقال ﴿ والدار الآخرة خيرٌ للذين يتقون ﴾ اي : خير من عرض هذا الأدنى الذي حملكم على استحلال ما حرم الله عليكم .

قال الحافظ ابن كثير : (قال السدي : كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى في الحكم وإن خيارهم اجتمعوا ، فاخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا ، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى فيقال له : ما شأنك ترتشى في الحكم فيقول : سيغفر لي . فتطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل فيما صنع ، فاذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه فيرتشى) (١) .

ثم قال ﴿ أفلا تعقلون ﴾ وهذا الاستفهام غاية في التوبيخ والتبكيت ، والفاء عاطفة لما بعدها على جملة محذوفة ، تقديرها (أأصابكم الجهل بعد كل ما أنزل إليكم فلا تعقلون) ؟ .

ثم قال تعالى ﴿ والذين يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَنَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ وقد ناسب بعد ذكر أحوال المكذبين الغاوين ذكر المؤمنين الذين يمسكون بالكتاب ابتغاء وجهه تعالى ، ويحلون ما أحل الله ويحرمون ما حرم ، ويجتهدون في دعوة غيرهم إلى ذلك ، ويقيمون الصلاة التي هي أهم فريضة بعد التوحيد ، والتي هي جزء من الميثاق المأخوذ على بنى إسرائيل في تبين الحق للناس ولا يكتُمونه ، والذي أهملوه بالكلية كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبدوه ورائهم ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترُونَ ﴾ (٢)

كما ناسب أن يطمئن هؤلاء المتمسكين بالكتاب على سلامة فعلهم وحسن

(١) تفسير ابن كثير (٢٦٠/٢) .

(٢) آل عمران آية (١٨٧) .

مسيرهم ، وأن ما فعلوه لن يضيع عند ربهم ، فهو يجازيهم عليه أحسن الجزاء ،
قال تعالى ﴿ إنا لانضيع أجر المصلحين ﴾ .

رابعاً : أمر الله نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتلو على اليهود
نبأ رجل منهم آتاه الله علماً خاصاً ، فلم يهتد به ، بل انسلخ من تلك
الآيات ، وابتعد عنها كل الابتعاد ، حتى صار شيطانا يقتدى به ابليس ،
ويقترب به ، فكان من الغاوين فى الشر ، الراغبين عن الخير ، وقد بعثتكم
يامحمد لهؤلاء وغيرهم وأوحيت إليكم من علم هذا المنسلخ الذى لا يعرف حاله
إلا اليهود ، لعلمهم يرجعون بما تتلوه عليهم ويعتبرون بحال هذا المنسلخ .

قال تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ الذى ءاتيناه وأيتنا فانسلخ منها فاتبعه
الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى
الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك
مثل القوم الذين كذبوا بكآيتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ (١)

قال الواحدى فى بيان سبب نزول هذه الآية : قال ابن مسعود : نزلت
فى بلعم بن أبره (٢) - رجل من بنى اسرائيل ، وقال ابن عباس (٣) وغيره من
المفسرين : هو بلعم بن باعورا ، وقال الوالى : هو رجل من مدينة الجبارين
يقال له : بلعم . وكان يعلم اسم الله الأعظم ، فلما نزل بهم موسى عليه
السلام ، آتاه بنو عمه وقومه وقالوا : إن موسى رجل حديد ، ومعه جنود
كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا ، فادع الله أن يرد عنا موسى وممن
معه . قال : إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنيائى
وأخرتى ، فلم يزالوا به حتى دعا عليهم فسلخه مما كان عليه فذلك قوله
﴿ فانسلخ منها ﴾ (٤)

(١) الأعراف الآية (١٧٥ - ١٧٦)

(٢) وفى طبعة أخرى لكتاب أسباب النزول للواحدى (ابن عابورا) وهى
الطبعة الأولى المطبوعة فى مطبعة أمين هندية بالقاهرة سنة ١٣١٦ هـ ،
كما أشار إلى ذلك المحقق فضيلة الشيخ السيد مقر والذى ذكر أنها
مليئة بالاطعاء ، وذكر لذلك أمثلة كثيرة فى المقدمة .

(٣) الدر المنثور (١٤٥/٣) - تفسير البغوى (٢/٢٥٨) .

(٤) انظر أسباب النزول للواحدى (٢٢٢ - ٢٢٣) تحقيق السيد احمد مقرر

ط ٢ ، دار القبلة ١٤٠٤ هـ .

قال ابن كثير : وأما المشهور فى سبب نزول هذه الآية الكريمة فإنما هو رجل من المتقدمين فى زمن بنى اسرائيل ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف ، وذكر القصة السابقة مروية عن على بن ابي طالب عن ابن عباس (١) .

* فاتبعه الشيطان * فلحقه الشيطان وأدركه وصار قرينا له ، أو ان الشيطان سلب عليه كفار الانس وغواتهم من جنوده ، فجعلهم اتباعا له * فكان من الغاوين * فمار من الضالين الكافرين . * ولو شئنا لرفعناه * إلى منازل الأبرار من العلماء ، وذلك بأن نحول بينه وبين الكفر قهرا وجبرا ، لكننا تركناه مع اختياره . * بها * بتلك الآيات التى آتيناها اياها . * ولكنه أخذ الى الأرض * اى : مال الى الدنيا ورغب فيها * واتبع هواه * فى ايشار الدنيا ولذاتها على الآخرة ونعيمها . * فمثله كمثمل الكلب إن تحمل عليه * أى : إن تزجره وتطرده . (٢) * إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث * قال الرازى رحمه الله : قال الليث : اللهث : هو أن الكلب إذا ناله الإعياء عند شدة العدو وعند شدة العطش ، فإنه يدلغ لسانه من العطش ، وأعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب ، وإنما يقع بالكلب اللاهث ، وأخس الحيوانات هو الكلب ، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث ، وفى تقرير هذا التمثيل وجوه : -

الاول : أن كل شيء يلهث ، فإنما يلهث من إعياء أو عطش ، إلا الكلب اللاهث فإنه يلهث فى حالة الإعياء ، وفى حالة العطش ، وفى حالة الرى ، فكان ذلك عادة منه وطبيعة ، وهو مواظب عليه كعادته الأصلية ، وطبيعته الخسيسة ، لا لأجل حاجة وضرورة ، فكذلك من آتاه الله العلم والدين ، وأغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس ، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا ، ويلقى نفسه فيها ، كانت حاله كحال ذلك اللاهث ، حيث واطب على العمل الخسيس والفعل القبيح لمجرد نفسه الخبيثة وطبيعته الخسيسة . لا لأجل الحاجة والضرورة .

(١) تفسير ابن كثير (٢٥٦/٢) وتفسير الرازى (٥٤٠٥٣/١٥) .

(٢) انظر تفسير النسفى بتصرف (٨٦٠٨٥/٢) .

والوجه الثانى : أن الرجل العالم إذا توسل بعلمه إلى طلب الدنيا .
فذلك إنما يكون لأجل أنه يورد عليهم أنواع علومه ، ويظهر عندهم فضائل نفسه ومناقبها ، ولاشك أنه عند ذكر تلك الكلمات ، وتقرير تلك العبارات ، يدلغ لسانه ، ويخرجه لأجل ماتمكن فى قلبه من حرارة الحرص ، وشدة العطش إلى الفوز بالدنيا ، فكانت حالته شبيهة بحالة ذلك الكلب الذى أخرج لسانه أبدا من غير حاجة ولاضرورة ، بل لمجرد طبيعته الخسيسة .

والوجه الثالث : أن الكلب اللاهث لايزال لهشه البتة ، فكذلك الانسان الحريص لايزال حرصه البتة (١) .

ثم بين جل وعلا الغرض من ذكره لهذا المثل ، فقال تعالى : ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ من اليهود بعد أن قرؤوا نعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى التوراة وذكر القرآن المعجز ومافيه ، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ﴿ فاقصص القصص ﴾ أى : قصص بلعم الذى هو نحو قصصهم . ﴿ لعلمهم يتفكرون ﴾ فيحذرون مثل عاقبته ، إذا ساروا نحو مسيرته . ﴿ ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى : مثل القوم فحذف المضاف ، وفاعل ساء مضمّر ، أى : ساء المثل ، ونصب مثلا على التمييز . ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ معطوف على كذبوا ، فيدخل فى حيز الصلة ، أى : وماظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب (٢) .

ولى على هذه الآيات استنتاجات احب أن انبه عليها للفائدة :-

النتيجة الاولى : أن أحداً لا يغلب الله بمعصيته ، وان شرود الشاردين ليس لعجز الله تعالى عن ردهم إليه (تعالى الله أن يوصف بالعجز أو يخرج عن قدرته شيء) . وإنك لتجد هذا الاستنتاج واضحا فى قوله تعالى ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ أى : ولكننا لم نشأ ذلك ، فتركناه لغوايته وما اختاره لنفسه .

(١) تفسير الرازى (٥٦/١٥ ، ٥٧) .

(٢) انظر تفسير النسفى (٨٦/٢) .

النتيجة الثانية : الثانية :

_____ هي قوله تعالى : ﴿ ولكنه أخذ إلى الأرض ﴾ أي : مال إلى الدنيا فأثرها ، واجتهد في العمل لها ، وترك الآخرة ، وأعرض عما يوصل للسعادة ، ولو كان ذلك الميل إلى الدنيا والإعراض عن السعادة ... عن جهل ، لكان الأمر أهون ، لكنه فعل ذلك وهو على رتبة عالية من العلم والمعرفة .

ولابد لي أن أشير إلى أن الدنيا مهما كثرت في أيدي أصحابها ، فهي ليست بغاية يسعى إليها ، ولكنها لكي تكون صالحة ، مرضيا عنها من ربها ، فلا بد أن تكون وسيلة إلى السعادة في الآخرة ، فإذا خرجت عن ذلك فهي بلاء ونقمة على أصحابها ، نسأل الله العفو والسلامة .

النتيجة الثالثة :

_____ أسوأ ما يتلى به الإنسان أن تتجارى به أهواؤه كما يتجارى الكلب بالجيفة ولذا قال سبحانه وتعالى في شأن هذا الإسرائيلي ﴿ واتبع هواه ﴾ أي : صار من يعقل تبعاً لما لا يعقل . فعلى العاقل أن يلاحظ هواه ، فإن كان تبعاً للكتاب والسنة متنسباً واجتهد في تمتينه ، وإن كان على خلاف ذلك فليعلم أنه مريض بمرض عضال ، يحتاج في علاجه إلى بذل كل نفيس وغال حتى يرد إلى فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها ، حيث يقول سبحانه : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ (١)

النتيجة الرابعة :

_____ ذكر قصص الماضيين من أنجع الدوائ الذي يعالج به اللاحقون ، فتواصل الأجيال لا بد منه ، ووقوف اللاحق على حال السابق لا بد منه ، لينتفع بما فيه المنفعة ، ويحترس عما فيه المضرة ، ولذا أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقص على بني إسرائيل القصص بعامة : قصص

بنى اسرائيل وغيرهم * لعلمهم يتفكرون * فى احوال اسلافهم وغيرهم ممــــن
تنكبوا الحق فهلكوا ، فلعل ذلك يفتح قلوبهم المغلقة ، ويوصلهم إلى
الهداية .

ولذا ينبغى لكل داع ومصلح من المسلمين أن يهتم بدراسة القصص فى
الكتاب والسنة ، ليخرج منه الرحيق الذى يشفى النفوس من عللها ، فان الحق
والباطل يتصارعان إلى يوم القيامة ، ومن أدوات انتصار الحق على الباطل
أن يقص أصحاب الحق ، القصص الحق على أهل الباطل ، لينتشلوهم من باطلهم
او ليصرعوهم بهذا السلاح الشديد المضاعف ، والله من وراء القصد .

(المبحث الثانى)

(اسباب موقف الكافرين المعاندين وانكارهم لدعوة

النبي صلى الله عليه وسلم)

من خلال ماسبق دراسته لمواقف الأمم السابقة مع أنبيائهم ، تتجلى لنا حقيقة واضحة وهى : أنه مامن نبي إلا وواجه أمام دعوته التى بعثه الله لتبليغها ، المشاق المعبة ، والاتهامات الباطلة ، والافتراءات الكاذبة ، من فئة خاصة من أقوامهم ، ممن ألفوا الباطل وعميت بهائرهم عن الحق ، وصمت آذانهم عن سماع ما فيه سعادتهم .

وهذه سنة الله فى الأمم ، فما من رسول أتى قومه إلا كذبوه ، كما قال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترًا (١) كلما ماجء أمة رسوله كذبوه ﴾ (٢) ، وهذا وما يجدر الإشارة إليه (أن الطغيان وقف بجانب الكثرة الكاثرة من دعاة الباطل ، يتحدى الايمان ، ويتحدى التوحيد ، ويتحدى رسالات الله ، ووقف (الهدى) بجانب القلة القليلة من أتباع الحق وأنصاره ، واحتدمت المعركة بين الهدى والضلال ، والكفر والايمن ، وكانت النتيجة انتصار الايمان على الكفر ، والحق على الباطل ، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ، لن يغلب الباطل الحق أبدا . وإن كانت معه قوة جميع أهل الأرض ، فان للحق صولة ، وللباطل جولة ، والمنتصر دائما جند الرحمن ، مصداقا لقول الله العلى الكبير ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ . يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ (٣) (٤)

وأستطيع أن أوجز موقف الكافرين المعاندين لدعوة خاتم الأنبياء

والمرسلين بما يلى : -

-
- (١) قوله (تترًا) : أى متتابعين واحداً بعد واحد .
 - (٢) سورة المؤمنون الآية (٤٤) .
 - (٣) سورة غافر الآيتان (٥٢، ٥١) .
 - (٤) قيس من نور القرآن للشيخ محمد على الصابونى (١٧٢/٤ - ١٧٣) .

أولا : تكذيبه فيما جاء به : -

لقد بعث الله حبيبه ومجتباه بين أقوام العرب الذين كانوا يتخبطون فى دياجير الوثنية ، والمعتقدات الزائفة ، والعصبيات الجاهلية ، فضلا عن الانحطاط الخلقى وانتشار الرذيلة ، ولقد كانت لفترة الطويلة بين بعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أخيه عيسى عليه السلام عامل كبير فى وصول العرب إلى ما وصلوا إليه مما أشرت إليه آتفا .

فقد أخرج البخارى بسنده عن سلمان الفارسى رضى الله عنه موقوفا قال (فترة بين عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ستمائة سنة) (١) .

ولذلك ما أن سمع أهل مكة ببعثة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى كذبوه ، واستبعدوا أن يكون يتيم قريش رسولا من عند الله ، وتعجبوا أن يختار الله رجلا من الناس ، يرسله إليهم مع قدرته على بعثة الملائكة المقربين ، قال ابن عباس رضى الله عنه : (لما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وآله وسلم أنكرت الكفار . وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، أما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبى طالب ؟ فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحيناً إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين ءامنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكفرون إن هذا لسحر مبين ﴾ (٢) (٣) ثم إنهم كذبوا بكل ماجاء به ، فكذبوا بالقران وما جاء فيه من الآيات الباهرات وقالوا إن هو إلا أساطير الأولين ، كما حكى الله مقولتهم تلك بقوله : ﴿ إذا تتلى عليه ءآيتنا قال أساطير الأولين ﴾ (٤)

ولقد توعد الله جل وعلا المكذبين فى هذه السورة التى نحن بصدد دراستها بتخليدهم فى النار . قال تعالى : ﴿ والذين كذبوا بءآيتنا

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٢٨٠/٨) .

(٢) سورة يونس الايه رقم (٢) .

(٣) انظر أسباب النزول للواحدى ص (٢٦٧) ، تفسير القرطبى (٣٠٦/٨) ، تفسير

الطبرى (١٣/١٥) وتفسير ابن كثير (٤٠٦/٢) وتفسير الدر المنثور

(٣٤٠/٤) وتفسير الخازن (١٤١/٣) وتفسير البغوى (١٤١/٣) .

(٤) سورة القلم الآيه (١٥) ، وسورة المطففين الآيه (١٣) .

واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿١﴾.

فهذه الآية الكريمة وإن كانت حكما عاما في كل مكذب، إلا أنها ألصق بمشركى مكة، إذ هم الذين يباشرون تكذيب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما جاء به .

وقد اشتملت هذه الآية على سببين مهمين من أسباب تكذيب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في دعوته : -

أ - إمعان الكفار في تكذيبه صلى الله عليه وآله وسلم مع ظهور أن ما جاء به هو الحق .

ب - استكبارهم عن هذه الآيات وإباؤهم لها، لأنها ضد أهوائهم ومآلفوه في جاهليتهم .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه : أن المراد بهذه الآية أهل مكة (٢) . فهو يريد رضى الله عنه أن أهل مكة داخلون في الوعيد بهذه الآية دخولا أوليا، ولم تقتصر السورة بهذا الوعيد للمكذبين، بل جاء في نهاية السورة وعيد آخر، وهو قوله جل شأنه ﴿والذين كذبوا بعايتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ (٣) . والمعنى : سنقربهم إلى ما يهلكهم، ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجرم، أو أقدموا على ذنب، فتح الله عليهم بابا من أبواب النعمة والخير فى الدنيا، فيزدادون بطرا، وانهماكا فى الفساد، وتماديا فى الغى، ويتدرجون فى المعاصى بسبب ترادف تلك النعم، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرثهم أغفل ما يكونون (٤) .

ثانيا : عدم تفكرهم فى حاله صلى الله عليه وآله وسلم :

عاش عليه الصلاة والسلام بين قومه أغلب عمره وهم يعبدون الأصنام،

-
- (١) سورة الاعراف الآية (٣٦) .
 - (٢) انظر تفسير الرازى (٧٣/١٥) .
 - (٣) الأعراف الآية (١٨٢) .
 - (٤) انظر تفسير الرازى (٧٣:١٥) .

ويأتون ما يأتون من قبائح الجاهلية ، فلم ينكر عليهم ، ولم ينههم عن شيء كانوا يقارفونه ، سوى أنه عليه الصلاة والسلام قد زهد في أحوالهم ، فلم يتلطف بشيء منها ، بما حرسه الله سبحانه وتعالى قبل النبوه وبما هداه إليه من سلوك الصراط القويم ، وبما فطر عليه قلبه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من حب الخير ، وشديد الرغبة فيه ، وكراهيته وبغضه لتلك الشرور ، فكيف يأتيهم بما اتاهم به ، بعد أن أنسلخ من عمره أربعون سنة؟ لو كانت دعوته شهوة نفس ، أو حب رئاسة ، أو سعيًا إلى ملك وسيادة لأعلن عليهم ذلك قبل سنه هذه بوقت طويل ! .. لكنها النبوه ، وتجد ذلك واضحا في قوله تعالى : ﴿ وما كنت ترجوا أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمةً من ربك ﴾ (١) .

ف (إلا) بمعنى : لكن والاستثناء هنا في هذه الآية منقطع (٢) .
وقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ أي : ما كنت تدري تفاصيل ما أوحينا إليك ، وحقائق ما بعثناك به ، قبل أن نوحى إليك ﴿ ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ (٣) .. الآية .

ومما يؤكد ما ذكرته ، استغرابه لنزول الوحي عليه في أول مرة ، لولا أن الله ألهم السيدة خديجة رضی الله عنها ، فذهبت به إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل ، فأخبره أن ما جاءه هو الناموس والوحي الذي أنزل على موسى عليه السلام (٤) .

فلو تفكر الكفار المكذبون له ، والمعاندون لدعوته في حاله تفكيراً هادئاً ، لاتحركه عصبيتهم لباطلهم ، لسهل عليهم من أول الأمر أن يصدقوه ، ولذا جاءت آية الأعراف تنعى عليهم عدم تفكرهم في حاله ، وتنكر عليهم ذلك أشد الإنكار .

-
- (١) سورة القصص الآية (٨٦) .
 - (٢) انظر تفسير الكشاف (١٩٤/٣) .
 - (٣) سورة الشورى آية (٥٢) .
 - (٤) انظر صحيح البخارى . منفتح فتح البارى (٢٤/١ - ٣٠) .

قال تعالى ﴿ أولم يتفكروا ﴾ (١) فالهمزة للاستفهام الانكساري التوبيخي، والنواو عاطفة لما بعدها على جملة محذوفة، دل عليها سابق الكلام ولاحقه، والمعنى: أعموا عن حالكم وهو أبين ما يكون ظهوراً ولستم يتفكروا فيه؟ مع أنهم لو تفكروا فيه حق التفكير، لأسرعوا إلى الإيمان بك والتصديق بما جئتهم به، وهذا السبب يطول ذكره، وقد أكتفيت بما ذكرت طلباً للاختصار. والله الهادي إلى السبيل.

ثالثاً: اتهامه (صلى الله عليه وسلم) بالجنون :-

عندما يلجم الحق السنة أهل الباطل، وتقوم الحجج الواضحة، والأدلة المقنعة بما يدفع أي ريب في دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأنه رسول من عند الله، وأن القرآن الذي جاء به، هو وحى من عند الله، ولم يبق أمام المعاندين المكذبين أي مخرج يواجهون به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليصرهوا الناس عن دعوته، فانهم يلجؤون إلى أسلوب الإحتقار والإستهانة وهو أسلوب مآكر، يقصد من وراءه إبعاد الناس (وبالأخص العامة) عن اتباع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وصرفهم عن دين الله سبحانه وتعالى، وذلك برميهم صلى الله عليه وآله وسلم بالجنون، فان المجنون لا يتبع بحال من الأحوال، ولذا ناقشهم القرآن في هذه القضية في سور كثيرة (٢) لأطيل بذكرها. بل أكتفى بما جاء في سورة الأعراف قال تعالى ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ﴾ (٣) وقد ذكر أبو السعود والألوسي ثلاثة أوجه في تفسير هذه الآية، ألخصها لك من تفسير الألوسي: قال تعالى ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ﴾ :

الوجه الاول:

أن الهمزة للانكار والتوبيخ، والنواو للعطف على مقدر يستدعيه السياق والسباق، و (ما) في قوله ﴿ ما بصاحبهم ﴾ تحتل أن تكون استفهامية انكارية في محل الرفع بالابتداء والخبر (بصاحبهم)، ويحتل أن تكون نافية اسمها

(١) الأعراف الآية (١٨٤).

(٢) مثل سورة الحجر الآية ٦، وسورة الشعراء الآية ٢٧، والصفات الآية ٣٦ والدخان الآية ١٤، والذاريات الآية ٣٩، كذلك الذاريات الآية ٥٣، والطور الآية ٢٩، والقمر الآية ٢ والآية ٥١، والتكوير الآية ٢٢.

(٣) الاعراف الآية (١٨٤).

(جنة) وخبرها (بصاحبهم) و (جَنَّة) معدر كالجلسة . بمعنى الجنون . والتنكير للتقليل والتحقير . والتفكر : التأمل واعمال الخاطر فى الأمر ، وهو من أفعال القلوب فحكمه حكمها فى أمر التعليق ومحل الجملة النصب على نزع الخافض ، ومحل الموهول نصب على ذلك فى الوجه الأخير ، أى : أكذبوا ولم يتفكروا فى أى شىء من جنون ما كائن بصاحبهم الذى هو من أعظم الهاديين للحق ؟

وعليه أنزلت الآيات ، أو فى أنه ليس بصاحبهم من جنة ، حتى يؤديهم التفكير فى ذلك إلى الوقوف على صدقه وحة نبوته ، فيؤمنوا به وبما أنزل عليه من الآيات أو فى الذى بصاحبهم من جنة بزعمهم ، ليعلموا أن ذلك ليس من الجنة فى شىء فيؤمنوا .

الوجه الثانى :

واختار هذا الوجه " الطبرى " وهو أن الكلام قد تم عند قوله ﴿ أولم يتفكروا ﴾ أى : اكذبوا ولم يتفكروا فى أقواله وأفعاله ، أولم يفعلوا التفكير ، ثم ابتدئ فقل : أى شىء بصاحبهم من جنة ما ؟ على طريقه الانكار والتعجيب والتبكيث أو قيل : ليس بصاحبهم شىء منها . والمراد (بصاحبهم) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتعبير عنه عليه الصلاة والسلام بذلك لتأكيد النكير وتشديده ، لأن المحبة تطلعهم على نزاهته صلى الله عليه وآله وسلم عن كل شائبة مما ذكر . وعلى هذا الوجه بنيت تقسيمى لمواقف الكافرين المعاندين لدعوة النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

الوجه الثالث :

أن هذه الآية نزلت للرد على عظيمتهم الشنعاء ، فقد اخرج ابن جرير الطبرى وغيره عن قتادة قال : ذكر لنا ان نبى الله صلى الله عليه وآله وسلم قام على الصفا ، فدعى قريشا فحذا فحذا يابنى فلان يحذرهم بأس الله تعالى ووقائعه إلى الصباح ، حتى قال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يهوت حتى أصبح فأنزل الله تعالى الآية (٢) .

وعليه فالتمريح بنفى الجنون للرد على عظيمتهم الشنعاء (١)

رابعاً :

تأثير القرآن الكريم فيهم ، واخذه بمجامع قلوبهم ، مما جعلهم
يقترحون عليه صلى الله عليه وآله وسلم أن يأتيهم بقرآن غيره ، أو يبدله
بكلام من عند نفسه . قال تعالى : * وإذا تتلى عليهم آياتنا بيننا
قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله * (٢) . الآية .

وقد بدأت سورة الاعراف بقوله تعالى : * ألمص . كتب أنزل إليك
فلا يكن في صدرك حرج منه ليتنذر به وذكرى للمؤمنين * (٣) .
فالمعنى : لا يكن في صدرك شك في أنه حق ، أنزله إليك رب السموات والارض فلا
تبال بمن كذبوا به . أو لا يكن في صدرك ضيق بسبب تكذيبهم له ، وخوف من
اخبارهم بما فيه لئلا يتبعوه ، فما عليك إلا البلاغ . ولأجل هذا التثبيت
الإلهي الناتج عن النهي في سورة الاعراف ، قال الله له في سورة يونس :
* قل ما يكون لى أن أبدله من تلقائى نفسه إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنسى
أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم * (٤) ، أى : إذا قصرت فى تبليغه إليكم ،
أو انقصت منه ما لا يعجبكم .
* قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولآ أدرككم به فقد لبثت فيكم عمراً
من قبله أفلا تعقلون * (٥)

خامساً :

حديث سورة الاعراف عن اليوم الآخر وما فيه من سوء مصير المكذابين
وحسن مصير المؤمنين :

فان المكذابين لدعوته صلى الله عليه وآله وسلم ممن خاطبهم بالآيات
المتحدثة عن اليوم الآخر وما فيه ، عز عليهم أن يكون مصيرهم كما تلاه رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم فى آى القرآن ، التى تكفلت ببيان هذا

(١) تفسير الألوسى بتصريف (٩/١٢٧، ١٢٨) .
(٢) سورة يونس الآية (١٥) .
(٣) سورة الاعراف الآية (١-٢) .
(٤) سورة يونس الآية (١٥) .
(٥) سورة يونس الآية (١٦) .

المعير . كما قال تعالى : ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحيوۃ الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا وماكانوا بكأيتنا يجحدون ﴾ (١) ، وقد أشرت إلى بعض ذلك فى هذا الفصل عند حديثى عن المكذبين ، وعقدت موضوعاً خاصاً بالآيات الخاصة باليوم الآخر فى الفصل الأول من هذه الرسالة (٢) .

سادساً :

حديث هذه السورة عن تحريم الفواحش ماظهر منها كالزنا وقطع الارحام ، وأكل الميتة ، ووآد البنات وتحريم ماكانوا يهدونه لآلهتهم من الذبائح ، إلى غير ذلك من عاداتهم ، وتحريم الفواحش الباطنة كالحقـد والحسد والكبر وسوء الظن والعصبية للباطل وغير ذلك ، مما كان سائداً فى الجاهلية ، قال تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لاتعلمون ﴾ (٣) .

فكان هذا من أقوى الاسباب فى تكذيبه ، والوقوف أمام دعوته ، وانكارهم لها لأنها خالفت ما استحسنته نفوسهم ، مما هو محرم وباطل لا يرضاه الله جل وعلا ويأباه رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

(١) الأعراف الآية (٥١) .

(٢) انظر ص ١٦ - ٣٠ من بحثنا هذا .

(٣) سورة الاعراف الآية (٣٣) .

(المبحث الثالث)

موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الكافرين

المعاندين

لقد واجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من قومه عناء ومشقة واعراضا شديدا ، وقد سبق في المبحث السابق التعرض لبعض ذلك . لكن ذلك لم يفت في عضده ، ولم يمنعه تكذيبهم واعراضهم عن المضي بعزيمة وثبات أمام تلك المحن وذلك العبود . فكان صلى الله عليه وآله وسلم يتفرق بهم ويتحمل صنوف الأذى ومختلف الاساءات والافتراءات الكاذبة ، ولم يمنعه ذلك من أن يداهمهم في مجالسهم وأنديتهم ، داعيا لهم للدخول في دين الله منذرا لهم من حلول بأسه وعقابه ، مسفها أحلامهم ، ومقبحا لأصنامهم ، فلم يأل عليه العلة والسلام جهدا في دعوتهم ليلا ونهارا ، صيفا وشتاء ، ومن عجب أمر هذا النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم أن أمته في المعاندة والتكذيب في أول الأمر ، كانت كالأمم السابقة - قوم نوح وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم السلام وآل فرعون وبنى اسرائيل - لكن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ يجتهد في الدعاء لهم ، ويمصر على بلائهم ، ولم يتعجل لهم العذاب والعقاب ، حتى هداهم الله في آخر الأمر ، ونحى الله عنهم من علم أنه لا يؤمن دون أن يعيب الكفار بعذاب الاستعصال يقضى عليهم عن بكرة أبيهم ، مع أنهم قد أجمعوا أمرهم على أن يخرجوه من مكة ، ليستريحوا من دعوته ، أو يقتلوه ، أو يوثقوه بالحبال في سجن يلقي إليه الطعام والشراب من خلال كوة حتى يموت . مما جعله صلى الله عليه وآله وسلم يبادر إلى الهجرة إلى المدينة باذن الله سبحانه وتعالى هو ومن آمن به ممن قدر على الهجرة ، وقد أصبح المشركون بينهم مستضعفين من الرجال والنساء والولدان ممن آمن به صلى الله عليه وآله وسلم وهم لا يستطيعون حيلة للخروج ، يؤذونهم بأشد أنواع الأذى ، ومع ذلك لم يعاجلهم الله بالعذاب العام كما فعل بالأمم السابقة الذين ذكرتهم أنفا ، وفعلت أحوالهم فيما مضى من فعول .

قال تعالى في سورة الانفال : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ

أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ ﴿١﴾ .

وقال تعالى محرضا هضم المؤمنين على مقاتلة المشركين الذين يستضعفون اخوانهم من المؤمنين ويصدونهم عن دين الله . ﴿ وما لكُم لاتقتلوا في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا وجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾ (١)

ولقد كان لهم إلف شديد بما هم عليه ، ولم يكن من السهل عليهم أن يتركوا ماتعودوه ، بل لقد وصل بهم الأمر إلى تحريم بعض الطيبات .

(كالبحائر) جمع بحيرة وهي الناقة التي انتجت خمسة أبطن آخرها ذكرا ، فان أهل الجاهلية يبحرون أذنبا أي : يشقونها ، ويمتنعوا عن ركوبها وذبحها ، ولا تمتنع عن ماء ولا مرعى .

و (كالسوايب) جمع سائبة وهي أنهم كانوا في الجاهلية يقول الرجل منهم إذا قدمت من سفرى أو برئت من مرض فناقتى سائبة ، وجعلها كالبحيرة في تحريم الانتفاع بها .

و (كالوصيلة) وهي أنهم كانوا إذا ولدت الشاة أنثى فهي لهم وإن ولدت ذكرا فهو لآلهتهم ، وإن ولدت ذكرا وأثنى قالوا وصلت أخاها ، ولم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

و (الحام) وكانوا في الجاهلية إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن ، قالوا قد حمى ظهره ، فلا يركب ، ولا يحمل عليه ، ولا يمتنع من ماء (٢) ولا مرعى قال تعالى ﴿ ما جعل الله ﴾ أي ما شرع الله .

﴿ من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴿ (٣)

والمعنى : ما شرع الله تحريم هذه المباحات التي حرمها على أنفسهم ونسبوا تحريمها وامتناعهم عن الانتفاع بها الى الله جل وعلا كذبا وافتراء ،

(١) سورة النساء : الآية (٧٥) .

(٢) انظر تفسير ابى السعود (٨٦/٣) ، انظر تفسير النسفى (٣٠٥/١)

(٣) سورة المائدة : الآية (١٠٣)

قال تعالى ﴿ ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ فتوارثوا هذه العادات والمعتقدات عن آبائهم ، دون أن يُعْمِلُوا عقولهم ، ويمعنوا في التفكير في حقيقة ما يفعلونه .

وبعد هذه المقدمة أقول وبالله التوفيق ، لقد أجملت سورة الأعراف أحوالهم تلك فقال جل شأنه : ﴿ وإذا فعلوا فحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ (١) ، وقال جل وعلا ﴿ قل إنما حرم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (٢) . وقد سبق تفسير هذه الآيات بما يغنى عن اعادةتها . (٣)

ولقد امتثل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمر ربّه بمجاهدتهم على هذا الدين جهادا كبيرا ، ولم يستجب لأية محاولة قصد بها شنيه عن دعوته بحال من الأحوال ، رغم عظم تلك المحاولات والمغريبات ، حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم قولته المشهورة (يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته) . (٥)

ولقد رسمت سورة الأعراف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم المنهج السوي القويم الذي يتبعه في معاملة الخلق كافة مؤمنهم وكافرهم ، فقال سبحانه ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجهلين ﴾ (٦)

(١) سورة الأعراف الآية (٢٨)

(٢) سورة الأعراف الآية (٣٣)

(٣) انظر ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ . من بحثنا هذا .

(٤) منها قول الوليد بن المغيرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا ابن أخي إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . وإن كان هذا الذي يأتيك رعبا نراه لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرك منه . فإننه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه) .
انظر (السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة) للشيخ محمد أبو شهبه (٣١٧/١) .

(٥) السيرة النبوية لابن هشام ٢٨٥/١ ، وانظر السيرة النبوية تأليف أبي الحسن علي الحسن

الندوي ص ١٠٦ .

(٦) الأعراف : آية : ١٩٩ .

ولقد التزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بهذا المنهج تمام
الالتزام ، فما من كافر معاند أتاه مسلماً إلا رق له ورفق به ، وأظهر
له من الجميل ما يحمل ذلك الكافر أما على نسيان ماضيه مع النبي صلى
الله عليه وآله وسلم ، وأما على الاجتهاد في أمر هذا الدين ببذل غاية
جهده في نصرته ، كما بذل من قبل غاية جهده في محاربتة ، وكم تألّف
صلى الله عليه وآله وسلم قلوباً بكرائم الأموال على الاسلام .

وقد اختلف المفسرون في معنى (العفو) على معانٍ كثيرة يروق
لى منها معنيان :

أولهما : (العفو) ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس .

ثانيهما : أن يراد بالعفو ظاهره أى خذ العفو عن المذنبين ، والمراد
أعف عنهم ، وفيه استعارة مكنية ، إذ شبه العفو بأمر محسوس
يطلب فيؤخذ ، وإلى هذا ذهب جمع من السلف .^(١)

فهذا وحشيقاتل عمه حمزة أحب الناس إليه ، ينيب ويسلم للـه
رب العالمين ، فيعفو عنه ، ولايستبشع ذنبه مع أنه بشع ، ومع أنه صلى الله
عليه وآله وسلم ، ماغضب في موطن كفضبه في هذا الموطن ، لاسيما وقد مثلوا
به فيقروا بطنه ، وقطعوا كبده ، فلما نظر إليه صلى الله عليه وآله وسلم
كذلك ترحم عليه وأثنى ثم قال (وألله لئن أظفرنبي الله بهم لأمثلن
بسبعين منهم مكانك) ، ثم ذكر قول الله تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل
ما عوقبتم به ولن صبرتم لهو خيرٌ للصبرين . واصبر وماصبرك إلا بالله ﴾^(٢)
فاختار الصبر كما أمره الله ، وكان ينهى عن المثلة .^(٣)

وعفوه صلى الله عليه وآله وسلم عن المذنبين وتغاضيه عن أخطاء
عتاة الكافرين أكثر وأشهر من أن يذكر ، وقوله تعالى : ﴿ وأمر بالعرف
أى بكل معروف ، ويكل خلق حسن ، فإن من جفاك وعادى دعوتك لايمكن إلا أن
ينصاع لهذا المعروف الذى تأمر به ، فإن المعروف محبب إلى كل قلب ،

(١) أنظر تفسير الألوسى بتصرف (١٤٦/٩ - ١٤٧) .

(٢) سورة النحل : الآية ١٢٦ - ١٢٧ .

(٣) حدائق الأنوار ومطلع الأسرار لابن الديبع الشيبانى الشافعى (٥٢٧/٢) .

تحقيق الشيخ عبد الله الأنصارى .

أو المعنى : وأمر بكل ما أمرك الله به وعرفته من قبل الوحي ، وقد قام صلى الله عليه وآله وسلم بالأمرين جميعا خير قيام . فهو المتمم لمكارم الأخلاق ، وهو الذى جاهد على هذا الدين جهادا كبيرا كما أمره ربه ولم تضعف عزيمته فى ذلك ولم تهن مع شدة ملاقاه من الأذى كما وصفت آنفا .

وقوله ﴿ وأعرض عن الجهلين ﴾ يعم المشركين وأهل الجهالة من الموءمنين ، والدليل على شمول اللفظ للفريقين هو أن الوصف لازم لهما ، فالكفر ناشئ عن الجهل ، واللجوء إلى السفاهة والمخالفة من عصاة الموءمنين سببه الأول الجهل ، قال الألوسى رحمه الله (ولا يخفى حسن موقع هذا الأمر بعد ما عد من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق حمله ، وإذا قيل بأن الجاهلين موضوع موضع ضمير أولئك المشركين ، حيث إن الكلام فيهم تسجيلا عليهم بعدم الارعواء ، واقناطا كليا منهم ، التأمّت أطراف الكلام غاية الالتئام ، وقد فسر هذه الآية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جبريل عليه السلام بعد أن سأل ربه عن معناها ، فقال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (ان الله تعالى أمرك أن تعفوعين ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك) (١)

ويحسن أن أختم هذا الفصل بموقفه صلى الله عليه وآله وسلم من الطلقاء بعد أن مكن الله له من فتح مكة ، فإنه من أوضح التطبيقات لهذا المنهج الربانى الذى ذكرته سورة الأعراف .

ان الدروس التى لقنها صلى الله عليه وآله وسلم للانسانية عمامة ، ولأهل مكة خاصة تكفى وحدها فى ابراز ما نحن بصدده - (بيان موقف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من الكافرين المعاندين) - لقد دخل صلى الله عليه وآله وسلم مكة فاتحا منتصرا ، وكان المشركون قد أخرجوه منها ، وهى أحب بقاع الأرض إليه ، بعد أن أذاقوه فيها المتاعب ، وبعد أن نكلوا بأصحابه المستضعفين منهم وفعّلوا بهم ما تقشعر له الأبدان ، وتصطك منه الآذان ، فماذا كان جزاؤهم عنده حين وقعوا فى قبضته ؟ وضاعت بهم الأرض بما رحبت ؟ قال لهم قولته المشهورة : (لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء) بل لقد قال صلى الله عليه وآله وسلم وألويّة

(١) انظر تفسير الألوسى (١٤٧/٩) .

النصر تخفق من حوله ، والمشركون باسطو أيديهم يلقون بالسلم بل (اليوم يوم المرحمة) ٠٠٠ ، رد بها على سعد بن عبادة رضى الله عنه وقد استبدبه نشوة الظفر وهو يردد (اليوم يوم الملحمة) وهذا لو حدث ، لما كان فيه أى لائمة ، فجزاء سيئة سيئة مثلها ، والبادئ أظلم ، ولكن نفسه العظيمة ، وأخلاقه الظاهرة التى لا أظهر منها ، لاتعرف الثأر ، إنه لم يجيء لينتقم لنفسه ، ولا ليثأر لأصحابه ، إنما جاء وبعث ليعلى كلمة الله ، والرحمة أنجح دواء لجمع القلوب ، وتوحيد الصفوف ، وهو الرحمة المهداة (وما أرسلنك إلا رحمةً للعلمين) (١) .

وتوالت بعد ذلك الفتوح ودان له العرب قاطبة ، ولم يقبضه الله حتى راسل الملوك والأمراء ممن حوله ، يدعوهم إلى الدخول في الإسلام ، وخرج لمقاتلة الروم في شمال الجزيرة العربية فى غزوة تبوك ، وظل هكذا مجاهدا صابرا محتسبا حتى نزل عليه قوله جل وعلا ينعى له نفسه ويخبره بدنو أجله * إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا * (٢)

=ه=

(١) سورة الانبياء : الآية (١٠٧) .
(٢) سورة النصر .

الفصل التاسع

وَجْهَ الشَّيْبَةِ بَيْنَ مَوَاقِفِ الْكَافِرِينَ

المعاندِينَ وَرَدَّهُمْ وَإِنْكَارِهِمْ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ^{عليهم السلام}

" الفصل التاسع "

(وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين وردهم
وانكارهم لدعوة الرسل عليهم السلام)

=

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين من دعوة

الرسول عليهم السلام

—————

لم يخلق الله عز وجل الانسان عبثا في هذه الحياة (تعالى الله عن ذلك) بل خلقه ليؤدي رسالة انيظت به ، وضحتها الآية الكريمة في سورة الذاريات من قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (١)

ولقد ميز الله جل وعلا الانسان عن سائر مخلوقاته بالعقل ، وهو بمثابة الموعدب يأمره بالعدل فيما يجتنب ويجتلب ، وإلى جانب ذلك ركَّب فيه الهوى والشهوة فكان نتيجة لذلك أن الناس كانوا على فريقين، مهتد وضال ، أو موءمن وكافر ، وبعث جل وعلا الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين دعاة هداة إلى الحق ، فمن استمسك بشرعهم وهداهم وقبل دعوتهم استنار قلبه ، وهو التقى السعيد ، ومن أعرض عن هداية الله ورفض دعوة الرسل فهو الخاسر الشقى وهكذا كان موكب الايمان (موكب الأنبياء) عبر تاريخ الأمم والشعوب ، من لدن نوح عليه السلام إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين يدعون بلسان واحد ، إلى منهج ثابت لا يختلف ، إلى افراد الله بالعبادة ونبذ عبادة كل ما سوى الله ، ويحذرونهم من كيد الشيطان وأتباعه وسلوك سبيله ، ويذكرونهم باليوم الآخر وأنه حق لا ريب فيه ، وفي ذلك اليوم يلاقي كل إنسان نتيجة عمله وسعيه إن خيرا فخير وإن شرا فشر.

قال تعالى ﴿ يٰٓبٰنِيٓٓءَادَمُ اِمَّا يٰٓتٰيْنٰكُم رِسٰلٌ مِّنْكُمْ يٰقِصُوْنَ عَلَيْكُمْ ؕ اٰيٰتِنَا فَمَنْ اتَّقٰٓهَا وَاٰصَلَحْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ • وَالَّذِيْنَ كَذَبُوْا بِءَايٰتِنَا وَاسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ ﴾ (٢)

والمتمعن في دعوة الرسل عليهم السلام ومواقف أقوامهم منهم، يجد أن الشبه بين ذلك واضح ومتميز . ولأننى قد سبق أن فصلت القول فيها عند كل فصل من الفصول السابقة (حسب موضوع الفصل) .

(١) سورة الذاريات : آية (٥٦ - ٥٨) .

(٢) سورة الاعراف : الآيتان (٣٥ ، ٣٦) .

اكتفى الآن بالإشارة باختصار إلى مبادئ دعوة كل نبي موعداً
ذلك بالآية الكريمة التي توعد ما أشرت إليه . ومن ثم الإشارة إلى وجه
الشبه بين دعواتهم جميعاً عليهم السلام .

ثم أشرع في بيان موقف كل أمة من نبيها واستنباط وجه الشبه بين
مواقف الأمم جميعاً حسب ما ورد في سورة الأعراف وغيرها إن لزم الأمر
كل موقف بآية أو آيتين من كتاب الله .

=هـ=

دعوة الرسل عليهم السلام لأقوامهم

أولا : دعوة نبي الله نوح عليه السلام :

أ - دعا قومه إلى توحيد الله عز وجل وترك عبادة الأصنام .

قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (١)

ب - دعا قومه إلى الإيمان باليوم الآخر وحذرهم منه فقال : (إنّ أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) (٢)

وقال تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾ *

ج - دعاهم إلى مكارم الأخلاق وذلك أنه لم يقابل اساءتهم بمثلها عندما اتهموه بالضلال فقالوا له ﴿ قال الملائم قومه إنا لنرئك في ضلال مبين ﴾ (٣)
فقال لهم : ﴿ يقوم ليس بى ضللة ولكنى رسول من رب العلمين ﴾ (٤)
يرمهم بالضلال مع أنهم كانوا متلبسين به .

د - دعاهم إلى تقوى الله واجتناب نواهيهِ قال تعالى : ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ (٥)

(٢:١) الأعراف : الآية (٥٩) .

(٣) الأعراف : الآية (٦٠) .

* نوح : الآية (١٨٠١٧) .

(٤) الأعراف : الآية (٦١) .

(٥) الأعراف : الآية (٦٣) .

ثانيا : دعوة هود عليه السلام لقومه :

أ - دعاهم إلى توحيد الله ونبذ عبادة الأصنام . قال تعالى : * وإلى عاد
آخاهم هودا ، قال يقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره * (١)

ب - دعاهم إلى تقوى الله عز وجل حيث قال لهم بعد دعوتهم إلى توحيد
الله عز وجل : * أفلا تتقون * (٢)

ج - دعاهم إلى مكارم الأخلاق لما تسافهوا عليه ، ولم يقابل تطاولهم
بوصفهم بما هم أهل من سوء الخلق ، بل رد عليهم ردا جميلا ينفض
ما وصفوه به ، ويبين لهم أنه رسول من رب العالمين ، أرسله الله إليهم
ليبلغهم رسالاته ، وينصحهم بما يصلحهم في أولاهم وأخراهم : * قال
الملاّ الذين كفروا من قومه إنا لنرُك في سفاهة وإنا لنظننك
من الكذابين . قال يقوم ليس بي سفاهة ولكنى رسول من رب العلمين
أبلغكم رسالتى ربى وأنا لكم ناصح أمين * (٣)

د - ذكرهم بنعم الله عليهم وآلائه - قال تعالى * واذكروا إذ جعلكم
خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة) أى : آتاكم هيئات
عظيمة في أجسادكم ، وقوى بنيانكم بحيث قدرتم على ما عجز عنه غيركم
وقوله : * فأذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * (٤) أى : اذكروا
نعمه الكثيرة عليكم ، غير تلك النعمتين السابقتين فان تذكركم
يوعدى إلى فلاحكم .

(٢٠١) الأعراف : الآية (٦٥) .

(٣) الأعراف : الآيات من (٦٦ - ٦٨)

(٤) الأعراف الآية (٦٩)

ثالثا : دعوة صالح عليه السلام لقومه :

أ - دعاهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة لله وحده ، قال تعالى : ﴿ وإلى
شمود إخوانهم صلحا قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (١)

ب - ذكرهم بنعم الله عز وجل وآلائه... ، قال تعالى ﴿ واذكروا إذ جعلكم
خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون
الجبال بيوتا فأذكروا آلاء الله ﴾ (٢)

ج - حذرهم من الفساد في الأرض . قال تعالى ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (٣)

د - دعاهم إلى مكارم الاخلاق ، وواجههم بالرد المقنع على إنكارهم نبوته ،
وأنه لم يزد بالنبوة إلا رفعة وكمالا ، فانهم كانوا يجلونه قبل
النبوة ويعظمونه ويكبرونه ، لما تميز به من أخلاقه وسلوكه قال
تعالى في سورة هود : ﴿ قالوا يلصاحُ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا
أتنهنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب
قال يقوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمةً فمن
ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ (٤)

(١) سورة الاعراف : الآية (٧٣) .

(٢) سورة الاعراف : الآية (٧٤) .

(٤) سورة هود: الآيتان (٦٢ ، ٦٣) .

رابعاً : دعوة لوط عليه السلام لقومه :

أ - دعاهم إلى توحيد الله عز وجل ، لكن القرآن الكريم لم يصرح بذلك بل ندد بذكر فاحشتهم التي أنفردوا بها عن سائر العالمين والتي بها من الشناعة والقباحة ما لا يخفى .

ب - دعاهم إلى مكارم الأخلاق ، وإلى ترك فاحشة اللواط ، التي كانوا يأتونها علناً في نواديهم ، وأمرهم أن يأتوا ما أباحه لهم من نساءهم ، وأن يبنتهوا عن كل منكر وخلق قبيح كانوا يفعلونه ، قال تعالى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ﴾ (١)

ج - نهاهم عن قطع السبل والتعرض لأرواح وأموال الناس وأعراضهم ، وقد أشارت إلى ذلك سورة العنكبوت في قوله تعالى : ﴿ آيَّتِكُمْ لَتَأْتُونَ^(٢) الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ﴾

(١) سورة الاعراف : الآية (٨٠ ، ٨١) .

(٢) سورة العنكبوت : الآية (٢٩) .

خامسا : دعوة شعيب عليه السلام لقومه

أ - دعا قومه إلى نبذ عبادة الاصنام وإخلاص العبادة لله الواحد القهار،
قال تعالى : * وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يٰقوم اعبدوا الله
(١)
ما لكم من إله غيره *

ب - أمرهم بايفاء الكيل والميزان : قال تعالى * فأوفوا الكيل والميزان *
(٢)

ج - نهاهم عن بخر الناس حقوقهم : قال تعالى * ولا تبخسوا الناس أشياءهم *
(٣)

د - نهاهم عن الافساد فى الأرض : قال تعالى : * ولا تفسدوا فى الأرض بعد
(٤)
إصلاحها ذالكم خير لكم إن كنتم مؤمنين *

وقال تعالى * وانظروا كيف كان عقبة المفسدين *
(٥)

هـ - نهاهم عن القعود على طريق الدين ومناهج الحق ، لأجل أن يمنعوا الناس
عن قبوله ، قال تعالى : * ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن
(٦)
سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً *

و - ذكروهم بنعم الله عليهم وآلائه ، ولاسيما أنه كثر عددهم فأصبحوا كثرة
يهابهم من حولهم من الأعداء ، قال تعالى : * واذكروا إذ كنتم
(٧)
قليلاً فكشركم *

-
- (١) سورة الاعراف : الآية (٨٥)
 - (٢) سورة الاعراف : الآية (٨٥)
 - (٣) سورة الاعراف : الآية (٨٥)
 - (٤) سورة الاعراف : الآية (٨٥)
 - (٥) سورة الاعراف : الآية (٨٦)
 - (٦) سورة الاعراف : الآية (٨٦)
 - (٧) سورة الاعراف : الآية (٨٦)

سادسا : دعوة موسى عليه السلام :

أولا : دعوة موسى عليه السلام لفرعون وقومه :

أ - دعاهم إلى توحيد الله عز وجل : قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُنْفِرُونَ
إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ • حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (١)

فهاتان الآيتان مصرحتان بأنه لا رب في الوجود جدير بأن يعبد سوى الله
عز وجل خالق الخلق وموجدهم .

ب - دعاهم إلى عدم الظلم الذي كان منتشرا بينهم حيث كانوا يستعبدون
الاسرائيليين ، ويجعلونهم في آردء وأسوء الأعمال وأشقها .. كما أمر
فرعون من تحته من المصريين والاسرائيليين بعبادته من دون الله ،
قائلا لهم ما حكاه الله على لسانه ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (٢)

ج - نهاهم عن الافساد في الأرض فقال تعالى مخاطبا نبيه محمدا صلى الله
عليه وآله وسلم يقص عليه خبرهم ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣)

د - دعاهم إلى الإيمان باليوم الآخر : قال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ
بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (٤)

(١) الأعراف : الآيتان (١٠٤ ، ١٠٥) .

(٢) النازعات : الآية (٢٤) .

(٣) الأعراف : الآية (١٠٣) .

(٤) غافر : الآية (٢٧) .

ثانياً: دعوة موسى عليه السلام لبني اسرائيل :

أ - دعاهم إلى توحيد الله جل وعلا . قال تعالى ﴿ قال أغير الله أبغىكم إليها وهو فضلكم على العلمين ﴾ (١) .

ب - ذكرهم بنعم الله عليهم : قال تعالى ﴿ وإذ أنجينكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستخون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وظلنا عليهم الغم وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾ (٣)

ج - تحذيرهم من اتباع مسالك الهالكين والضالين ، قال تعالى : ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غفلين ﴾ (٤)

د - تحذيرهم من التكذيب بآيات الله عز وجل ولاسيما اليوم الآخر وان ذلك يوءدى إلى احباط أعمالهم . قال تعالى : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ (٥)

هـ - دعاهم إلى تقوى الله عز وجل وايتاء الزكاة ، قال تعالى : ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذاباً أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ (٦) .

كما دعاهم إلى التمسك والمحافظة على الصلاة لأنها عماد الدين ، قال تعالى : ﴿ والذين يُمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لانضج أجر المصلحين ﴾ (٧)

-
- (١) الأعراف : الآية (١٤٠) .
(٢) الأعراف : الآية (١٤١) .
(٣) الأعراف : الآية (١٦٠) .
(٤) الأعراف : الآية (١٤٦) .
(٥) الأعراف : الآية (١٤٧) .
(٦) الأعراف : الآية (١٥٦) .
(٧) الأعراف : الآية (١٧٠) .

سابعاً : دعوة خاتم الأنبياء نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم لقومه :

أ - دعا صلى الله عليه وآله وسلم قومه الى التوحيد وهجر عبادة الأصنام
التي كانت منتشرة بين قبائل العرب ، ودعاهم إلى الإيمان بالقرآن الكريم
الذي أنزله الله بواسطة الوحي على قلب نبيه صلى الله عليه وآله وسلم
ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، قال تعالى : ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم
من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ * (١) وقد عضد دعوته
لهم بلفت أنظارهم إلى بعض الظواهر الكونية التي لها علاقة وثيقة
بحياتهم اليومية . قال تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات
والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه
حشيماً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك
الله رب العلمين ﴾ * (٢)

ب - دعاهم صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكارم الأخلاق : قال تعالى : ﴿ وإذا
فعلوا فحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله
لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربى
بالقسط ﴾ * الآية . (٣)

ج - حذرهم من مكاييد الشيطان وفتنه . قال تعالى : ﴿ يلينى آدم لا يفتنكم
الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما
سوءتهما إنه يريكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين
أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ * (٤)

د - دعوته صلى الله عليه وآله وسلم إلى الإيمان باليوم الآخر ، وأن وقوعه
حق لا ريب فيه ، وفيه يجازى كل إنسان بعمله وضرب القرآن لذلك الأمثال
المشاهدة في بيثة العرب وغيرهم . قال تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل
الريح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقته لبلد
ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى

-
- (١) الأعراف : الآية (٣) .
(٢) الأعراف : الآية (٥٤) .
(٣) الأعراف : الآية (٢٨ ، ٢٩) .
(٤) الأعراف : الآية (٢٧) .

(١)
لعلكم تذكرون *

هـ - تذكيرهم بنعم الله التي لاتعد ولا تحصى : قال تعالى * ولقـد
مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معيشة قليلا ما تشكرون ولقـد
خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس
لم يكن من السجدين * (٢)

وأكتفى بما ذكرته طلبا للاختصار.

(١) سورة الأعراف : الآية (٥٧) •
(٢) سورة الأعراف : الآية (١١٠، ١١٠) •

وجه الشبه بين دعوات الرســــل

—————

والمتمتعن في دعوات الرسل من خلال العرض الموجز الذى ذكرته آنفا
... يجد التشابه واضحا إلى حد كبير ، واستخلص من ذلك مايلى :

أولا : أن الأنبياء جميعا بعثوا من أجل إعلاء كلمة التوحيد ، وجاهدوا
وكابدوا أهل الباطل من أجل اقناعهم وافهامهم حقيقة ذلك .
قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلا نوحنّ إليه أنه
لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (١) ، وقال جل شأنه ﴿ ولقد بعثنا فى كلِّ
أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطغوت ﴾ (٢)

ثانيا : دعوتهم جميعا إلى مكارم الأخلاق ، وزجرهم عن ارتكاب كل ما هو مستقبح .

ثالثا : تذكيرهم بنعم الله وآلائه ، لأن تلك النعم والآلاء من أهم العوامل
التي تؤدى إلى ايمان الأمم .

رابعا : دعوتهم إلى الإيمان باليوم الآخر ، وأن وقوعه لا ريب فيه ، فممن
ثقلت فيه موازينه فأولئك الذين أصابوا الفلاح والسعادة ، ومن خفت
فيه موازينه فأولئك الذين ظلموا أنفسهم وجنوا لها الخسارة
والعذاب والهلاك .

(١) الأنبياء : الآية (٢٥) .

(٢) النحل : الآية (٣٦) .

(مواقف الكافرين المعاندين من دعوة الرسل عليهم السلام)

أولا : موقف الكافرين من دعوة نوح عليه السلام :

أ - تكذيبهم بما جاء به نبيهم عليه السلام ، قال تعالى ﴿ فكذبوه فأنجيته والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين ﴾ * . وقال تعالى في سورة هود عليه السلام ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ * ^(١) ^(٢) والخطاب في الآية لنوح عليه السلام ومن آمن به .

ب - رمى نبيهم بما هو بريء منه وذلك بوصفه بالضلال ، وكبرهم واستعلاؤهم على نبيهم ، وكذلك وصفهم له بالجنون .

أما رميهم له بوصفه بالضلال . قال تعالى ﴿ قال الملأ من قومه إننا لنرُك في ضلل مبين ﴾ * وأما كبرهم واستعلاؤهم على نبيهم فقد أشارت إليه الآية الكريمة في سورة هود ﴿ وما نرُك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴾ * ^(٣) ^(٤)

ولقد رموه بالجنون ، وأشارت سورة المؤمنون إلى ذلك في قوله تعالى ﴿ إن هو إلا رجل به جنة فتريصوا به حتى حين ﴾ * ^(٥)

ج - انكارهم بعث رسول بشرا وتعجبهم من ذلك ، قال تعالى ﴿ أو عجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ * وقال تعالى في سورة هود ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نرُك إلا بشرا مثلنا ﴾ * وكانوا يعتقدون أن الملائكة أولى بالرسالة من نبيهم .

د - كذبهم وافتراءهم على نبيهم بدعواهم أن ماجاءهم به نوح عليه السلام ، لم يسمعوا به في آبائهم ، ولم يخبروهم عن ذلك أي خبر ، وذلك منهم جحود وتكذيب وعناد قال تعالى في سورة المؤمنون ﴿ ماسمعنا بهذا في أبائنا الأولين ﴾ ^(٨)

هـ - طلبهم العذاب من نبيهم قال تعالى : ﴿ قالوا يئسنا نحن جدلتنا فأكثررت جدلنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ * ^(٩)

- (١) الأعراف: الآية (٦٤) . (٢) هود : الآية (٢٧) . (٣) الأعراف : الآية (٦٠) .
(٤) هود : الآية (٢٧) . (٥) المؤمنون: الآية (٢٥) . (٦) الأعراف: الآية (٦٣) .
(٧) هود : الآية (٢٧) . (٨) المؤمنون: الآية (٢٤) . (٩) هود: الآية (٣٢) .

ثانياً:- موقف الكافرين المعاندين من دعوة نبيهم (هود) عليه السلام:-

(أ) تكذبه فيما جاء به : قال تعالى ﴿قال الملاء الذين كفروا

من قومك إننا لنرىك فى سفاهة وإننا لنظنك من الكذابين﴾ (١)

(ب) طلبهم العذاب : وهذا منهم نهاية التكذيب والتحدى لنبيهم

وقصدوا بذلك أنه إن لم يأتهم بذلك العذاب ظهر للقوم كونه

كاذباً (٢) . قال تعالى ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصدقين﴾ (٣)

(ج) طلبهم البينة والمعجزة الدالة على صدقه : ولم تصرح

سورة الأعراف بطلبهم هذا . وقد صرح به سورة هود عند قوله

تعالى ﴿قالوا يهود ما جئتنا ببينة﴾ (٤) أى جئتنا بحجة

وبرهان قاطع على ما تدعيه .

(د) رمى نبيهم بما هو برىء منه : وهو قذفه بالجنون . وهذا

الغريبة أيضاً لم تصرح بها سورة الأعراف . وذكرت سورة هود

فى قوله تعالى : ﴿إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ (٥) أى

أضيلك ومسك بالجنون (٦) .

(هـ) تكذيبهم بيوم البعث والجزاء قال تعالى حكاية عن قوم هود ﴿إيعدكم

أنكم إذا مئتم وكنتم تراباً وعظماً أنكم مخرجون﴾ (٧)

(و) انكارهم لبشريته قال تعالى ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم

إنكم إذا لخسرون﴾ وقصدوا أن البشر لا يصلحون لأن يكونوا أنبياء

بل يجب أن يرسل الله لهم ملكاً من السماء .

(١) سورة الأعراف: الآية (٦٦) (٢) انظر ص ١٨٠ من بحثنا هذا .

(٣) سورة الأعراف: الآية (٧٠) (٤) سورة هود: الآية (٥٣)

(٥) سورة هود الآية : (٥٤) (٦) انظر ص ١٨٣ من بحثنا هذا .

(٧) سورة المؤمنون: الآية (٣٥) (٨) سورة المؤمنون; الآية (٣٤) .

ثالثاً : موقف الكافرين المعاندين من دعوة نبيهم صالح عليه السلام

(أ) كذبوا نبيهم فيما جاءهم به : قال تعالى ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صلحاً مرسل من ربهم ﴾ (١) . . . الآية . وهذا منهم تكذيب بدعوتهم ، وقال تعالى فى سورة القمر حكاية عن قوم صالح ﴿ أولقن الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشسر ﴾ (٢) أى بطر متكبر ، حمله بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعاء ذلك (٣) . وقال تعالى فى سورة هود ﴿ وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ (٤) .

(ب) استنكروا بشريته ، وطلبوا أن يكون المرسل إليهم جنساً أعلى من البشر وهم الملائكة وقد وضحت هذا الاستنكار سورة القمر قال تعالى ﴿ فقالوا أ بشر أمنا واحداً نتبعه إننا إذا لفي ظلل وسُعر ﴾ (٥) أى جنون او عناء : فهو اسم مفرد . وقيل جمع سعيير ، كأنهم عكسوا عليه فرتبوا على اتباعهم إياه مارتبه على عدم اتباعهم له . (٦)

(ج) كذبوا بالبعث : ولم تذكر سورة الأعراف ذلك صراحة لكن سورة الشعراء ذكرت انكار نبيهم عليهم ، جحودهم للنعم العظيمة التى حباهم الله بها ، والتى لم تزدهم إلا بطراً وكفراً وبعداً عن اتباع الحق ونسياناً للبعث واليوم الآخر فقال تعالى يقص علينا إنكار نبيهم صالح عليه السلام لذلك ﴿ أتتركون فى ما ههنا ، آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ (٧) .

(د) رميه بما هو برىء منه وذلك باتهامه بأن السحرة اثروا على عقله بعد أن سحره كثيراً . حتى صار يتكلم بما لا يعقل ولم يسمعوا قنط

-
- (١) الأعراف: الآية (٧٥) .
(٢) القمر: الآية (٢٥) .
(٣) تفسير النفسى (٤: ٢٠٤) .
(٤) هود: الآية (٦٢) .
(٥) القمر: الآية (٢٤) .
(٦) انظر تفسير النفسى (٤ : ٢٠٤) ،
(٧) الشعراء: الآيات (١٤٦ إلى ١٤٨) .
تفسير القاسمى (١٥ / ٢٦٩) .

(اى كلامه) من قبل وقد بينته هذه الفرية سورة الشعراء عند قوله تعالى ﴿ قالوا إنما أنت من المسخرين ﴾ (١) أى الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله (٢)

(هـ) طلبهم المعجزة الحسية التى تؤيد صدقه فيما جاءهم به قال تعالى ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب أليم ﴾ (٣)

وقد كان هذا بطلب منهم كما أشارت إلى ذلك آية الشعراء، قال تعالى (مآ أنت إلابشر مثلنا فات بئاية إن كنت من الصدقين) (٤) أى ائتنا بآية حسية خارجة عن نطاق العاده تؤيد صدقك فيما جئتنا به .

(و) طلبهم العذاب . قال تعالى ﴿ وقالوا يُلحُ ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ (٥) أى بما تعدنا من العذاب .

رابعا : موقف الكافرين المعاندين من دعوة لوط عليه السلام .

(٢) تكذيب نبيهم فى ما جاءهم به : ولم تصرح سورة الاعراف بالتكذيب صراحة إنما يفهم ذلك من المعنى العام لقوله تعالى ﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ (٦) وقال تعالى فى سورة الشعراء ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾ (٧) وقال تعالى فى سورة القمر ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ﴾ (٨) .

(ب) طلبهم العذاب وتهكمهم على نبيهم ، قال تعالى فى سورة العنكبوت - ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصدقين ﴾ (٩)

-
- | | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| (١) الشعراء: الآية (١٥٣). | (٢) تفسير النسخى (٣/١٩٢). |
| (٣) سورة الأعراف: الآية (٧٣). | (٤) سورة الشعراء: الآية (١٥٤). |
| (٥) سورة الأعراف: الآية (٧٧). | (٦) سورة الأعراف: (٨٢). |
| (٧) العنكبوت: الآية (٢٩). | (٨) سورة الشعراء: الآية (١٦٠). |
| (٩) سورة القمر: الآية (٣٣). | |

خامساً : موقف الكافرين المعاندين من دعوة شعيب عليه السلام

(أ) تكذبه فيما جاء به : قال تعالى ﴿ الذين كذبوا شعيبا كأن لم
يغنوا فيها الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخسرين ﴾ (١)

(ب) رميه بما هو بريء منه وذلك باتهامه بأنه مسحور قد افسد السحر
عقله وتفكيره ، فأصبح يتفوه بما لا يعرف ومالم يسمعوا به قط من قبل
قال تعالى حكاية عن قوم شعيب (قالوا إنما أنت من المسحورين) (٢)

(ج) انكروا بشريته واتهموه بالكذب : قال تعالى ﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا
وإن نظنك لمن الكذابين ﴾ (٣) .

(د) استكبروا على نبيهم لأنه جاءهم بما يخالف أهواهم وهددوه بطرده
واخراجه من قريتهم . قال تعالى ﴿ قال الملاء الذين استكبروا
من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أولتعودن
في ملتنا ﴾ (٤) الآية .

(هـ) تهكموا به واستهزؤوا بدعوته .

ولم تتعرض سورة الأعراف لهذا الخلق السوء الصادر منهم ، وقد
ذكرته سورة هود عند قوله تعالى ﴿ قالوا يا شعيب أطلوتك تأمرك
أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت
الحليم الرشيد ﴾ (٥)

(و) إتهامه بالضعف في منطقته فلم يفهموا دعوته . وتهديده برجمه
بالحجارة ، قال تعالى أيضا في (سورة هود) ﴿ قالوا يا شعيب
مانفقه كثيرا مما تقول وإنا لنرىك فينا ضعيفا ولولا رهطك

(١) الأعراف: الآية (٩٢) (٢) الشعراء: الآية (١٨٥)
(٣) الشعراء: الآية (١٨٦) (٤) الأعراف: الآية (٨٨) .

(٥) سورة هود: الآية (٨٧) انظر ص ٢٦٢ - ٢٦٣ من بحثنا هذا .

لرجمتك وما أنت علينا بعزيرين* (١)

(ب) استعجالهم للعذاب قال تعالى* فأسقط علينا كسفاً من السماء
إن كنت من الصدقين* (٢)

سادساً:
أولاً: موقف فرعون وقومه من دعوة نبيهم موسى عليه السلام

(٢) تكذيبه وعدم تصديقه فيما جاءهم به : قال تعالى* قال
إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصدقين* (٣)

(ب) رميه بالسحر :-

قال تعالى* قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لسحر عليم* (٤)

(ج) مخادعتهم لنبيهم ونقضهم لعهدهم :- قال تعالى* ولما
وقع عليهم الرجز قالوا يلموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك
لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بنين إسرائيل
فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بلفوه إذا هم ينكثون* (٥)

(١) هود: الآية (٩١) .

(٢) الشعراء: الآية (١٨٧) .

(٣) الاعراف: الآية (١٠٦) .

(٤) الاعراف: الآية (١٠٩) .

(٥) الاعراف الآية (١٣٤ ، ١٣٥) .

ثانيا : موقف بنى اسرائيل من دعوة نبيهم موسى عليه السلام

(أ) ميل نفوسهم إلى عبادة الآلهة من دون الله رغم عظم النعم

التي حباهم الله بها :-

قال تعالى ﴿ وجئونا ببني إسرائيل يلب البحر فاتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يلموس اجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة قال إنكم قوم تجهلون • إِنَّ هُوَ لَأَكْبَرُ مَا هُمْ فِيهِ وَبَطُل مَآكِنَا يَعْمَلُونَ • قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (١)

(ب) عبادتهم للعجل من دون الله عزوجل أثناء غيبة موسى عليه السلام . عنهم ، لتلقى التوراة من ربه عز وجل قال تعالى ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ (٢)

(ج) كفرهم بنعم الله عليهم وظلمهم لانفسهم ، قال تعالى (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقاتلون أبناءكم ويستحون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) ﴿٣﴾ وقال تعالى ﴿ وقضينا لهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا إلى موسى إذا استسقى قومه أن يضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم وظللنا عليهم الغم وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفستهم يظلمون ﴾ (٤) .

(د) تبديلهم القول والكلم غير الذى امروا به :-

قال تعالى ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئكم ﴾

(١) الاعراف: الآية (١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠) .

(٢) الاعراف: الآية (١٤٨) .

(٣) الاعراف: الآية (١٤١) .

(٤) الاعراف: الآية (١٦٠) .

سنريد المحسنين، فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم
فأرسلنا عليهم رجلا من السماء بما كانوا يظلمون ﴿١﴾

(٥) مخالفتهم لنبيهم عليه السلام فيما يأمرهم به . وقد ذكرت ذلك
سورة المائدة عند قوله تعالى ﴿ يقوم ادخلوا الارض المقدسة
التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خسرين
قالوا يلموسى إن فيها قوما جباريين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا
منها فإن يخرجوا منها فإننا ندخلون ، قال رجلان من الذين يخافون
أنعم الله عليهما ادخولا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم
غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يلموسى
إننا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا
قاعدون ﴿٢﴾

(و) امتناعهم عن الأخذ بتعاليم الله وتهديدهم برفع الطور على رؤسهم
ورميه عليهم ، قال تعالى ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة
وظنوا أنه واقع بهم خذوا ماءً اتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلمكم
تتقون ﴿٣﴾

(١) الأعراف: الآية (١٦١ ، ١٦٢) .

(٢) المائدة: الآيات (٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) .

(٣) سورة: الأعراف الآية (١٧١) .

سابعاً : موقف الكافرين المعاندين من دعوة النبي المصطفى صلى الله عليه
وآله وسلم .

(أ) تكذيبه فيما جاء به صلى الله عليه وآله وسلم ، قال تعالى
* والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم
فيها خالدون * (١) ، وقال تعالى * والذين كذبوا بآياتنا
سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * (٢)

(ب) عدم تفكرهم في حاله مما أذاهم إلى اتهامه صلى الله عليه وآله
وسلم بالجنون والسحر والشعر والكهانة قال تعالى * أولم يتفكروا
ما صاحبهم من جنّةٍ إن هو إلا نذير مبين * (٣) ، وقال تعالى
* وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر
ويقولون إنه لمجنون * (٤) .

أما اتهامهم له صلى الله عليه وآله وسلم بالسحر فالآيات على
ذلك كثيرة ، قال تعالى * أكان للناس عجباً أن أوحيناً إلى رجل
منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدقٍ
عند ربهم قال الكفرون إن هذا لسحرمبين * (٥) ، وجعلوا
كذلك الآيات البينات التي جاء بها نبيهم من عند الله لهدايتهم
بمثابة السحر ، قال تعالى * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات
قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين * (٦) أما اتهامهم
له بالشعر والجنون ، قال تعالى * ويقولون أئنا لتاركوا الهتنا
لشاعر مجنون * (٧) وقد نفى الله عنه كون أن ماجاءهم به من قبيل
الشعر قال تعالى * وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر
وقرآن مبين * (٨) .

-
- | | |
|---------------------------------|---------------------------------|
| (٢) سورة الأعراف: الآية (٣٦) . | (٢) سورة الأعراف: الآية (١٨٢) . |
| (٣) سورة الأعراف: الآية (١٨٣) . | (٤) سورة القلم: الآية (٥١) . |
| (٥) سورة يونس: آية (٢) . | (٦) الاحقاف: الآية (٧) . |
| (٧) سورة الصافات: آية (٣٦) . | (٨) سورة يس (٦٩) . |

وقد نسبوه أيضا صلى الله عليه وآله وسلم إلى أنه كاهن مجنون وحاشاه صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك قال تعالى ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ (١).

(ج) تكذيبهم للبعث : قال تعالى ﴿ الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بئائتنا يجمدون ﴾ (٢)

(د) تعنتهم بطلب الآيات الدالة على صدق رسالته بعد أن تبين لهم إعجاز القران ، وأنهم عاجزون كل العجز أن يأتوا بمثلة .

قال تعالى ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القران من كل مثل فابى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن بك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴾ (٣) أى تفجر لنا من أرض مكة عينا غزيرة من شأنها أنها تنبع بالماء ولاتنقطع ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ (٤) (أى قطعها) يعنون قوله ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ﴾ (٥) ﴿ أو تاتى بالله والملائكة قبيلا ﴾ أى كفيلا بما تقول شاهدا بصحته ﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ أى ذهب ﴿ أو ترقى فى السماء ﴾ أى تمعد إليها ﴿ ولن نؤمن من لرقبك حتى تنزل علينا كتابا ﴾ أى من السماء فيه تصديقك ﴿ نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ (٦)

(هـ) انكارهم بشريته صلى الله عليه وآله وسلم :، قال تعالى ﴿ وما منع الناس ﴾ يعنى أهل مكة ﴿ أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ أى النبى والقران ﴿ إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ﴾ (٧) أى : إلا شبهة

-
- (١) سورة انطون الآية (٢٩) .
(٢) الأعراف الآية (٥١) .
(٣) سورة الاسراء الآية (٩٠، ٨٩) .
(٤) سورة الإسراء الآيات (٩٢، ٩١) .
(٥) سورة سبأ الآية (٩) .
(٦) سورة الإسراء الآيات (٩٣، ٩٢) .
(٧) سورة الإسراء (٩٤) .

تمكنت في صدورهم وهي انكارهم أن يرسل الله البشر (١).

(و) استعجالهم العذاب : قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْتَسِلْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنْ سَمَاءٍ آخَرَ﴾ (٢)

واستعجال المشركين للعذاب بهذه الألفاظ تصور لك منتهى العناد الذي واجهوا به الحق وأبوا كل الإباء أن يذعنوا له ويستسلموا لسلطانه فلم يسعهم أمام هذا الكبر والتأبي عن قبول الحق إلا أن يسألوا الله - وقد سمعوا آياته وحججه على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم - أن يصيبهم بالعذاب العاجل . وهذا شأن الفطرة إذا انعكست عن كونها فطرة سوية . إذ شأن الفطرة السليمة عندما تنزل بهيمة الشبهة ويلتبس عليها الأمر أن تسأل الله تعالى أن يكشف ما بها وأن يهديها إلى الحق الذي عمى عليها معرفته ، لعل الله يدركها برحمته فيقولون : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأهدنا إليه وأرشدنا طريقه . لكنهم أخذتهم العزة بالإثم فأثروا الهلاك العاجل على الخضوع للحق. (٣)

(١) تفسير النسفي (٢٢٧/٢) .

(٢) سورة الأنفال الآية (٣٢) .

(٣) انظر معالم الدعوة لعبد الوهاب الديلمي (٢ / ٦٩٦) .

وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين
لدعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

إن المتمعن فى مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل (والتى استعرضتها لك بايجاز) يجدها تكاد تكون متشابهة إلى حد كبير جداً وإليك أوجه الشبه التى تشابهت فيها موافقهم تجاه رسلهم عليهم السلام .

أولاً : التكذيب فيما جاءتهم به رسلهم من عند الله وهذا ملاحظ فى قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى وخاتمهم نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم وآلهم أجمعين (وغيرهم ممن لم تذكرهم السورة الكريمة) . ويؤيد قولى هذا قوله تعالى ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا ﴾ أى متواترين واحداً بعد واحد من التور وهو الفرد (١) بكل ما جاء أمة رسولها كذبوه ﴿ (٢) ، أى أمعنوا فى تكذيبهم ومعاندتهم وإصرارهم على الكفر مدلين بحجج هى أوهى من بيوت العنكبوت ، وكان يتزعم أولئك المكذبين (الملاء) وهم كما اسلفت أصحاب النفوذ والجاهة والغنى .

ثانياً : انكار الأمم جميعاً لبشرية أنبيائهم : وكانت هذه إحدى شبهات الأمم التى أشاروها لانكار رسالة أنبيائهم وتلاحظ ذلك فى موقف قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى ، ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . اقرأ الآيات من سورة إبراهيم عليه السلام ﴿ ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما آتيناكم به وإننا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم

(١) الكشاف للزمخشري (٣/٣٣)

(٢) سورة المؤمنون: الآية (٤٤)

أَفى اللّهِ شُكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُخَوِّزَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ
تَتَدُونَا عَمَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بَسُلْطَنَ مُّبِينٍ ﴿١﴾

ثالثا : تكذيبهم للبعث وعدم إيمانهم باليوم الآخر : إن من الأصول
العقائدية التي أجمعت عليها الديانات السماوية هي قضية
البعث وإمكانية وقوعه . وهذه القضية كانت راسخة في قلوب
جميع المكذبين للرسول ، وكانوا يستبعدون البعث كل الاستبعاد
وينكرون اليوم الآخر وما فيه من أحداث كل الإنكار ، ولا يؤمنون بذلك
البتة . لذلك كانت دعوة الأنبياء جميعا إلى ترسيخ البعث واليوم
الآخر في قلوب أقوامهم شاغلهم الأول بعد قضية التوحيد واجتهدوا
في ذلك وسعهم ، ولقد مربك قريبا انكار كل أمة من الأمم للبعث
وكفرهم باليوم الآخر بما يغنى عن إعادته هنا .

رابعا : إتهامهم لأنبيائهم بما يشينهم ويقلل من مكانتهم : وهذه
الرديلة لاتكاد تخلو منها أمة من الأمم ، فجميع الرسل
عليهم السلام واجهوا من أممهم شتى أنواع التهم والإفترافات الكاذبة
وهذه التهم لاتكون من المكذبين إلا عند عجزهم عن مواجهة أنبيائهم
الذين أيدهم الله بالحجج والآيات والمعجزات الباهرة ، فيقفوا
مكتوفى الأيدي ، فعندئذ يلجأ أهل الباطل إلى رمى أنبيائهم
بالضلال والسفاهة والكذب والسحر والكهانة والجنون ، وغير ذلك
من التهم التي يلصقونها بأنبيائهم وهم أبعد ما يكونون عنها
بل هم صفوة خلق الله الذين اصطفاهم الله لابلاغ شرعه وهدايته
واختارهم وطهرهم لاداء رسالته ، قال تعالى ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ أتوا صوابه بل هم قوم طاغون ﴿٢﴾

(١) سورة ابراهيم (عليه السلام) : الآية (٩- ١٠)

(٢) سورة الذاريات : الآيتان (٥٢ - ٥٣) .

وقد بينت ذلك فى العرض الموجز لمواقف الامم مع انبيائهم بما يفتنى عن
الإعادة .

خامسا : طلبهم للآيات تعنتا :

جرت سنة الله تعالى أن لا يبعث رسولا إلا ويؤيده بالآيات البينات
الدالة على صدق دعواه لتلزم بذلك الحجة على الناس ، وكان موقف
الأمم من رسلهم إزاء هذه الآيات البينات التكذيب والتعامى عن الحق
والإصرار على الكفر مع وضوح الحجة ، قال تعالى ﴿ تلك القرى نقص
عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا
بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ (١) ، هكذا
كان موقف الأمم مع أنبيائهم عليهم السلام التكذيب بآيات الله
الواضحة لما جاءتهم مع العلم بأن الذى حملهم على التكذيب ليس
هو خفاء الآيات فى ذاتها ، أو ضعف البرهان والحجة فيها ، بل هى
الرغبة فى الإعراض عن الحق إما عنادا واستكبارا وهذا ما يحصل
من أكابر القوم ، وإما تقليدا وتمسكا بما كان عليه الأباء ، وهذا
ما يحدث من عامتهم ممن عميت بصائرهم عن رؤية الحق ، وعلى الرغم
من وضوح الآيات التى يأتى بها الرسل عليهم الصلاة والسلام نجد
أن هؤلاء الكفار لا يكتفون بها فى الاستدلال على صدق الرسل ، لكنهم
يطلبون منهم آيات أخر حتى لكأن الرسل لم يأتوا بشئ من الآيات
ومرادهم من ذلك ليس الإهتداء إلى الحق بل يطلبونها لمجرد التعنت
ولذلك كانوا إذا أُجيبوا إلى طلبهم ثم لم يؤمنوا يُعاجلهم الله
سبحانه بالعقوبة الرادعة يقول تعالى مشيراً إلى تعنت الأمم
بطلب الخوارق والآيات وعدم الإكتفاء بما أيد الله تعالى به رسله
من الحجج (٢) ﴿ ألم يأتكم نبياً الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود
والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردّوا

(١) الأعراف: الآية (١٠١) .

(٢) انظر معالم الدعوة لعبد الوهاب الديلمى (٦٦٨/٢) .

أيديهم فآأفوا هم وقالوا إنكفرنا بما أرسلتم به وإننا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطن مبين ﴿١﴾ قال النفسى رحمه الله [بسلطان مبين أى بحجة بينة وقد جاءتهم رسلهم بالبينات كما ذكرت ذلك أول الآية الكريمة - وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعننا ولجأنا] ﴿٢﴾

سادسا : طلبهم إنزال العذاب :

ومن مواقف الأمم مع أنبيائهم أسلوب التحدى لهم وطلبهم إنزال العذاب العاجل عليهم . وهذا يحمل فى طيه التكذيب للرسول وكأنهم يقولون لرسولهم : لستم صادقين فى دعواكم وبالتالى كيف تكونون صادقين فى وعيدكم؟ قال تعالى حكاية عن قوم نوح ﴿ قالوا ينوح قد جدلنا فأكثرت جدلنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ ﴿٣﴾

وقال تعالى مشيرا إلى طلب قوم هود عليه السلام للعذاب ﴿ فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ ﴿٤﴾ . وقد طلب العذاب أيضا قوم صالح عليه السلام ﴿ وقالوا يصلح اثنتا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ ﴿٥﴾ ، وطلب العذاب كذلك قوم لوط وشعيب وطلبت قريش العذاب أيضا ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿٧﴾

(١) سورة إبراهيم (عليه السلام) الآية (٩-١٠).

(٢) تفسير النفسى (٢/٢٥٦) .

(٣) سورة هود: الآية (٣٢).

(٤) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

(٥) سورة الأعراف: الآية (٧٧).

(٦) سورة الأنفال: الآية (٣٢).

(المبحث الثالث)

(كفر كل امة ومعصيتها ونوع العقاب الذى عوقبت به)

لقد اجتمعت الأمم قاطبة على الكفر بالله عز وجل ، والكفر بالآيات والكتب التى أنزلها الله لهدايتهم ، كما جمعوا إلى الكفر الذى هو اقبح المعاصى معاصى أخرى كثيرة .

ولقد تنوع عقاب الله جل وعلا للكفرة الملحدين المعاندين لدعوة الرسل عليهم السلام كل بما تقتضيه إرادته وحكمته فهو جل وعلا * لا يُسألُ عما يفعلُ وهم يسألون * (١) وله الحكمة البالغة * إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون * (٢)

وسأشرع فى بيان معصية كل امة وعقاب الله الرادع لها .

اولا : قوم نوح عليه السلام

لما أهرق قوم نوح على تكذيب رسولهم وعلى كفرهم وعنادهم وعبادتهم الهتهم من دون الله ، كانت نهايتهم الفرق ، قال تعالى : * فكذبوا وه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بكائتنا إنهم كانوا قوما عمين * (٣)

ثانيا : قوم هود عليه السلام

ولقد أصر قوم هود عليه السلام على كفرهم وعبادتهم لاصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله ، وتبجحوا على نبيهم بطلبهم العذاب كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : * قالوا أجهتنا لنعبد الله وحده ونذّر ماكان يعبد آباؤنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * (٤)

فأنزل الله عليهم عذابه ونجى الله نبيه ومن معه من المؤمنين قال تعالى : * فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بكائتنا وماكانوا مؤمنين * (٥) وقد فصلت ذلك العذاب سورة الحاققة قال تعالى * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر * أى شديدة الصوت ، وأباردة

(٢) يونس: الآية (٤٤).

(١) الانبياء: الآية (٢٣).

(٤) الأعراف: الآية (٧٠).

(٣) الاعراف: الآية (٦٤).

(٥) الأعراف: الآية (٧٢).

فهى تحرق من شدة بردها * عاتية * شديدة العصف ، * سخرها عليهم
سبع ليال وثمانية أيام حسوما (أى متتابعة لاتنقطع أوانها
حسوما بمعنى تتأصل استئصالا ، * فترى القوم فيها صرعى * أى جثا
هامدة صرعى جمع صريع ، * كأنهم أعجازنخل خاوية * أى ساقطة أوبالية
فهل ترى لهم من باقية) (١) أى أن الريح أهلكتهم واستأصلتهم فلم
تبق منهم أثر (٢) .

ثالثا : قوم صالح عليه السلام

أما قوم صالح عليه السلام (أصحاب الحجر) فكانوا أيضا يعبدون الأصنام
والأوثان من دون الله ، فلما استعصوا على نبيهم وأصروا على كفرهم
وعنادهم وجدوا آيات ربهم وعنوا عن أمر ربهم وتحذوا نبيهم بأن يأتهم
ما يعدهم به من العذاب ، عاقبهم الله جل وعلا بالرجفة وهى الزلزلة
الشديدة التى أماتتهم وهم فى أماكنهم لا يستطيعون دفع ذلك عنهم ، قال
تعالى * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جثمين * (٣)

رابعا : قوم لوط عليه السلام

أما قوم لوط عليه السلام فكانوا أيضا كفرة ملحدين عبدة للأصنام
فجاءهم نبيهم لوط عليه السلام من عند الله لهدايتهم ، ودعوتهم إلى
التوحيد ، ونبذعبادة الأصنام ، والتخلّى عما عرفوا به من قبيحتهم
والتي لم تعرف فيمن سبقهم من العاطلين ، لكنهم أصروا وتمادوا فى
طغيانهم وراودوه عن أضيافه يريدون فعل الفاحشة بهم ، فقلب الله
عليهم قريتهم فجعل عاليها سافلها ، بعد أن رفعها إلى السماء ، وألقى
بها على الأرض ثم أكمل عليهم بأن أمطر عليهم مطرا من حجارة مخصصة ومعدة
لتعذيبهم وملائمة لفضاعة فاحشتهم ، فردمتهم وأهلكتهم ودفنتهم هم

(١) الحاقة الايات من (٦ - ٨) . (٢) انظر تفسير النسخى بتصرف (٢٨٦/٤) .

(٣) الاعراف الآية (٧٨) . (٤) الا وهى فاحشة اللواط .

وفجورهم وفسادهم ، قال تعالى * وأمطرنا عليهم مطراً فانظركيف كان عقبية
المجرمين * (١) ، وقال تعالى * فلما جاء أمرنا جعلنا عليها سافلها
وأمطرنا عليها حجارةً من سجيل منضود . مسومةً عند ربك وماهى من الظلمين
ببعيد * (٢) ،

خامسا : قوم شعيب عليه السلام

وأىضا كان الشرك بالله وعبادة الاصنام عبادتهم التى كانوا يالفونها
ويعتنقونها بالاضافة إلى أخلاق شاعت فيهم اتخذوها دستوراً لحياتهم
يرونها مظهرآمن مظاهر طفيانهم ، وسبباً لنماء ثروتهم ، ذلك أنهم كانوا
ينقصون الكيل والميزان ، ويبخسون الناس أشياءهم ويصدون عن سبيل
الله ، ويمنعون الناس عن الاستجابة لمافيه هدايتهم فعاقبهم الله جل
وعلا بالرجفة (الزلزلة الشديدة) التى صاحبها صوت شديد فلم تبق
فى حى حياة * فأصبحوا فى دارهم جثمين * أى خامدين هامدين موتى
ليس فيهم حركة .

سادسا : أ- معصية قوم فرعون وعقاب الله لهم

وفرعون كفر بالله وطفى وتجبر ، وأمر الناس بعبادته من دون الله ،
قائلاً لهم * أناربكم الأعلى * (٣) وظلم من تحته من بنى اسرائيل أشد
الظلم ، فقتل أبناءهم واستحيا نساءهم وأنزل بهم من البلاء ما لا يومسف
فأرسل الله إليه نبيه موسى عليه السلام يدعوه إلى عبادة الله وحده
وترك الظلم وأن يسمح له باخراج بنى اسرائيل من مصر كى يعود بهم
إلى الأرض المقدسة ، أرض آبائهم ليعبدوا الله فيها ، وليستردوها
من أيدي العمالقة الذين طفوا فيها فأبى وكذب وعصى فأراه الآيات الدالة
على صدقه ، لكنه أصر على الكفر والتكذيب ، فكانت نهايته الغرق
فى اليم هو وجنوده . وقد نجى الله بدن فرعون من الغرق ليكون عبرة

(١) الاعراف الآية (٨٤).

(٢) سورة هود الآيتان (٨٢ - ٨٣) .

(٣) النازعات الآية (٢٤).

لمن لم يدركه الغرق من قومه ولمن يأتى بعدهم . قال تعالى ﴿فانتقمنا
(١) منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غفلين﴾

معاصي بني اسرائيل وعقاب الله لهم

اولا : جحدوا نعم الله عليهم ، فبعد أن أنعم الله عليهم بنجاتهم من فرعون وخلصهم من الذل والاستعباد ، وتقتيل الأبناء واستحياء النساء وإهلاك عدوهم - فرعون امام أعينهم طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً يعبدونه من دون الله .

قال تعالى ﴿ وجوزنا ببني اسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يأموس أجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبرماهم فيه وبطل ماكانوا يعملون قال أغير الله أبغىكم إلهاً وهو فضلكم على العلمين ﴿ (١)

ثانياً : إتخاذهم العجل في أثناء غياب موسى عليه السلام لتلقي التوراة وعبادتهم له من دون الله قال جل شأنه ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴿ (٢)

وقد عاقبهم الله جل شأنه على ذلك بعقوبتين هما الغضب والذلة في الحياة الدنيا (٣) قال تعالى ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴿ (٤)

ثالثاً : تبديلهم ما أمرهم به الله من القول والفعل عند دخولهم الأرض المقدسه وذلك أن الله أمرهم أن يقولوا حطه أي: أحطط عنا ذنوبنا فاستهزؤا وقالوا حنطة في شعيره ، وأمروا أن يدخلوا الباب سجداً فدخلوا يزحفون على استاهم رافعى رؤوسهم . قال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئكم سنزيد المحسنين ﴿ (٥)

(١) الأعراف الآية (١٣٨ - ١٤٠)

(٢) الاعراف الآية (١٤٨)

(٣) انصر ص ٣٨٩ من بحثنا هذا

(٤) الأعراف الآية (١٥٢)

(٥) الأعراف الآية (١٦١)

وقد عاقبهم الله عز وجل على ذلك بأن أرسل عليهم رجلاً من السماء لاستعراهم على الظلم والفسق ، وقد اختلف في المراد بالرجس فقليل الطاعون وقيل عذاب عام أهلك الظالمين منهم .

قال تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ (١)

رابعاً : نقضهم للميثاق الذي أخذه الله عليهم قال تعالى ﴿ وإذا أخذنا منكم ميثاقاً بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة ثم توليتهم لإقليلاً منكم وأنتم معرضون ﴾ (٢) .

وقد عاقبهم الله جل وعلا لنقضهم الميثاق بأن رفع عليهم جبال الطور وصار كالمظله على رؤوسهم ليحملهم على الاستمسك بذلك الميثاق .

قال تعالى ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ماءً اتينكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ (٣) .

خامساً : تعديهم على محارم الله وذلك باصطيادهم في اليوم الذي حُرِّمَ عليهم الصيد فيه . وذلك أنهم اختاروا لانفسهم يوم السبت للعبادة فابتلاهم الله جل وعلا بأن تأتيتهم حيتانهم في يوم سبتهم ويوم لا يستون لتأتيتهم قال تعالى ﴿ وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يستون لتأتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ (٤)

ولما أصروا على معصيتهم مسخهم الله قردة قال تعالى ﴿ فلما عتوا عن مآثرتنا قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (٥)

والمتنعم في تاريخ بني إسرائيل على ممر السنين يجدهم أنهم لم يبدعوا أى جناية أو جريمة إلا فعلوها فقد تعدوا على مقام الألوهية الأسنى وتجنوا على أنبيائهم بالقتل و القذف و الإعتداء و حرقوا كتبهم وأكلوا الربا و اثاروا نار العداوة والتفرقة بين الأمم أينما حلوا أو ارتحلوا فحقت عليهم لعنة أنبيائهم وسخط ربهم قال تعالى ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل عيسى إلسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وكانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون . ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴾ (٦) .

(١) الأعراف الآية (١٦٢) . (٢) البقرة الآية (٨٣) .

(٣) الأعراف الآية (١٧١) . (٤) سورة الأعراف الآية (١٦٣) . (٥) الأعراف الآية (١٦٦) . (٦) سورة المائدة الآية (٧٨-٨٠) .

معصية قريش وأعراب ممن حولهم

كان معظم العرب وثنيين يعبدون الاصنام من الحجارة (١)، والاوثنان والانصاب بل كان بعض معبوداتهم الاشجار ، ومن العرب من كان يعبد الملائكة ويسميتها بنات الله ، ومنهم من كان يعبد الجن زاعما أن بينها وبين الله نسيبا وصهرا قال تعالى * فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إنثاؤهم شهدون . ألا إنهم من إفكهم ليقولون . ولـ الله وإنهم لكذوبون . أصطفى البنات على البنين . مالكم كيف تحكمون (٢) * وقال تعالى * وجعلوا بينه وبين الجنة نسابا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * (٣)

وانكروا البعث والآيات على ذلك كثيرة : قال تعالى * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظما أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما تعدون . إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * (٤) ولقد حرموا على أنفسهم الكثير مما أباحه الله ، واحلوا كثيرا مما حرمه الله ، فضلا عما كان منتشرًا بينهم من الفواحش والرذائل . ووآد البنات كما أخبر عنهم جل وعـ لا * وإذا المؤدة سألت بآى ذنب قتلت * (٥) ، فبعث الله إليهم خاتم رسله صلوات الله وسلامه عليه لهدايتهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ورغم أن قريشاً كانت أشد عنادا من سبقتها ، ورغم أنها استعجلت العذاب كما استعجل الأمم السابقون إلا أنه جل وعلا لم يعاجلهم بالعقوبه ، ولم ينزل على هذه الأمة عذاب الاستئصال كما فعل بالأمم السابقه ويرجع ذلك إلى أمرين :-

الأمر الأول : إهتمام هذا النبي الرؤوف الرحيم بأمته ورحمته بها فإنه لم يفتتر لسانه عن مناجاة ربه وتضرعه وتوسله إلى ربه بأن يهدى قومه ، ويجنبهم مزالق الغواية ، والألألة على ذلك كثيرة أسوق منها قصته

(١) يرى فريق من العلماء أن اول من أدخل الاصنام إلى بلاد العرب هو عمرو بن

لحي الخزاعي قدم بها من الشام أيام العماليق فنصبها على الكعبة

ومنها (هبل) انظر السيرة النبوية للشيخ محمد أبو شهبه (١/٧٠).

(٢) الصافات من آية (١٤٩ - ١٥٤) . (٤) المؤمنون الآيات (٣٥-٣٧).

(٣) الصافات آية (١٥٨) . (٥) سورة التكوير الآية (٨ - ٩) .

صلى الله عليه وآله وسلم مع أهل الطائف عندما ذهب إليهم يدعوهم إلى الدخول في الإسلام فإنهم رجموه بالحجارة حتى أدموا عقبه وسال دمه الزكى على أرض الطائف ، ثم غادرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو مهموم النفس مكلوم الفؤاد وهو يدعو صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء المشهور (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل عليّ سخطك لك العتبي (١) حتى ترضى . ولا حول ولا قوة إلا بك (٢) . وتابع سفره صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكة حزينا فلم يستفق إلا وهو يقرب الثعالب (٣) .

وهنا أقف وأذكر لك بقية ما حدث من صحيح مسلم كما حدثت بذلك السيدة عائشة رضي الله عنها حين سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلة هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم (لقد لقيت من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة - إذ عرضت نفسي على ابن عبدالمطلب بن عبدك (٤) . فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم استفق إلا يقرب الثعالب . فرفعت راسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني . فنظرت فإذا جبريل فناداني فقال : إن الله عزوجل قد سمع قول قومك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

قال (صلى الله عليه وآله وسلم) فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال يا محمد: إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت ان أطبق عليهم الأخشبين (٥) ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من

(١) أي الاسترضاء . (٢) انظر سيرة ابن هشام (٢/٦١/٦٢) .

(٣) أي لم يفتن لنفسه وينتبه لحاله وللموضع الذي ذهب إليه إلا وهو

يقرب الثعالب وهو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد .

(٤) وهو من أشرف ثقيف - من أهل الطائف .

(٥) جيلامكة أبو قبيس والذي يقابله قعيقان .

يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً^(١) فهذه القصة توضح مبلغ رحمة الله صلى الله عليه واله وسلم بأمتهم وقد جاء في بعض الروايات : فقال لله ملك الجبال : أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم .^(٢)

الأمر الثاني : ان الله جل وعلا ما كان ليعذب امته صلى الله عليه واله وسلم وهو بين اظهرهم لكرامته على ربه جل وعلا قال تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾^(٣) وهذا هو الأمان الأول لهذه الامة . وقد جعل الله لها أمان ثانيا بعد التحاق نبيها صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ألا وهو الإستغفار قال تعالى ﴿ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ . واختلف في تفسيرها . فقال بعضهم : المعنى ، وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون فاللفظ وإن كان عاما إلا أن المزياد وان بعضهم .

وقال آخرون : المراد ما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفي علم الله انه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه ، فوصفوا بصفه أولادهم وذرائعهم وقال بعض أهل العلم : دلت هذه الآية على ان الإستغفار أمان وسلامة من العذاب ، وقال ابن عباس : كان فيهم أمانات نبى الله والإستغفار ، أما النبى فقد مضى وأما الإستغفار فهو باق إلى يوم القيامة .

(١) صحيح مسلم وعلها مشه شرح النووى (١٥٤/١٢ - ١٥٥) .

(٢) انظر السيرة الحلبيه (٥١/٢ - ٥٨) السيرة النبوية للدكتور محمد ابو شهبه .
• (٤١٧/١)

(٣) سورة الأنفال الآية (٣٣) .

(٤) انظر تفسير الرازى (١٥ / ١٥٨ - ١٥٩) .

الفصل العاشر

الصراع كما تراه وتصوره النظريتان الحديثتان

الفصل العاشر

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

- مقدمة : نشأة النظريات القديمة والحديثة .
- نظرة الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع .
- الصراع عند هيجل .
- الجدلية في منظار الماركسية (كارل ماركس) .
- نظريات التطور :
 - أ - نظرية لامارك .
 - ب - نظرية داروين .
 - ج - نظرية داروين الحديثة . للعالم الهولندي Hugode Veries

الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة

مقدمة

نشأة النظريات القديمة والحديثة :

انصرف العقل البشرى منذ فجر التاريخ إلى التأمل في حقيقة الوجود ومافيه من بدائع المخلوقات فضلا عن التأمل في ذاته وأصله ومآله .

وقد سلك هذا التفكير طرائق ضمن ألوان من التخبط الفكري سرعان ما اتخذ ديانا وملل ومظاهر فلسفية مختلفة انعكست على شكل معتقدات كثيرة اعتنقتها أمم وشعوب شتى .

ولكن الحق جل وعلا لم يدع عباده يهيمون في متاهات الأهواء والتخيلات بل كان يبصرهم بحقيقة الوجود وحقيقة الانسان ومنتهاه .

قال تعالى ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ (١) وهكذا ظهر على صعيد الفكر الإنساني منهجان عن حقيقة الكون والإنسان والحياة : أحدهما : التزم بما هو أصل الفطرة الإنسانية وأيدته الشرائع الإلهية . والثاني : اجتمع على ركان الأوهام والخرافات والعصبية والتخيلات التي نشأت تحت وطأة الحضارة والثقافة التي ترزح تحتها .

فكان لابد لهؤلاء أن يصلوا إلى نتائج فكرية واعتقادية تختلف باختلاف العوامل فيما بينهم . ولكل وجهة هو موليها . ولايسلم ممن الذلل والوقوع في الوحل إلا من تمسك بشرع الله الحنيف وبهداية العقل الصافي عن الأهواء والعصبية .

ولقد تخبط الفلاسفة على مدار التاريخ في رحلة البحث عن حقيقة الكون تخبطا يختلف باختلاف بيئاتهم ومفاهيمهم ومقدرة عقولهم في القرب أو البعد عن جادة الصواب .

وكان من أهم الفلاسفة وأخطرهم وأبعدهم عن جادة الصواب من جعل

الصراع (التناقض) جزءا أساسيا في تكوين الكون .

واعتبر آخرون أن الصراع (التناقض) هو الأصل في نشوء الكون .
وقد بدأ الفيلسوف هير قلط (٠٦ ق . م) في إيجاد أول مصطلح
لهذه المفاهيم إعتد عليه الغربيون والماديون بشكل خاص فيما بعد .

يقول هير قلط (كل شيء يتغير ويجري ويتطور من حال إلى آخرى
فهو في حالة صيرورة مستمرة ضمن ذاته)^(١)

وكان هير قلط وجماعته يردون على من كان يقول في ذلك الوقت أن جميع
الأشياء جامدة الذات والمحتوى فهي لا تتغير ولا تتحرك وأطلق عليها
(الميتافيزيائيين) .

ولقد انتشر رأى هير قلط بين العلماء والفلاسفة ولاقى قبولا كبيرا
منهم وتم تهذيب هذا الرأى على ممر السنين فقالوا في مرحلة تالية : (إن كل
ما في الكون ينقسم إلى قسمين :

- (١) مادة : وهي (كالأخشاب ، والأحجار ، والمعادن) .
- (٢) قوة : وهي (كالكهرباء ، والحرارة ، والحركة) .

وكلا القسمين مختلفان وفي ذات الوقت متلازمان لأن كل شيء يتغير
ويتحرك ضمن ذاته وهذا هو القاسم المشترك .

لكن اختلف الفلاسفة حول هذا التحرك هل هو بقوة ذاته أو قوة كامنة
خارجة عنه؟ لم يقرر الفلاسفة أى شيء في ذلك الوقت .

=ه=

(١) انظر : المواقف للعقد الايجي وشرحه للشريف الجرجاني ١٥١/٢ ، فما
بعد . وشرح مطالع الأنوار للاصفهاني ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(نظرة الفلاسفة في العصر الحديث إلى الصراع)

* تنبيهه :

قبل أن أشرع في عرض لبعض النظريات الحديثة أرى من الضروري أن ألفت نظر القارى الكريم إلى حقيقة هي غاية في الأهمية .

وهي أن البيئة التي نشأت فيها تلك النظريات هي بيئة بعيدة كل البعد عن الدين . وأكثر من ذلك أن أوروبا موطن ولادة تلك النظريات كانت معادية تمام العداوة للكنيسة والقائمين عليها وهي لم تعرف الدين الصحيح المنزل من عند الله وإنما اعتنقت ديناً محرفاً ممزوجاً بالوثنية .^(١)

لذلك كانت آرائهم ونظرياتهم - كما سوف تلمس ذلك من خلال عرض لتلك النظريات - بعيدة كل البعد عن الحق وكانت وبالاً على أصحابها فضلاً على أقوامهم ومن تبعوهم .

ولقد اخترت لك نماذج من أبرزهم :

(٢) هيجل : (١٧٧٠ - ١٨٣١ م) :

فليسوف ألماني استخدم مبدأ النقيض كي يصل إلى هدفه الذي هو مجال الفكرة ، عمق بيان العلاقة الجدلية بين ماسماه " الفكر المطلق " والمادة المصنوعة والمخلوقة ليثبت من خلال ذلك أن المادة كلها إنما هي ثمرة الفكر المطلق وإنما يعنى بالفكر المطلق قدرة الله عز وجل .^(٣)

(١) من أراد التوسع في معرفة الحالة التي كانت عليها أوروبا والكنيسة ورجال الدين فليرجع إلى (مذاهب فكرية معاصرة) للشيخ محمد قطب ص ٩ - ٣٣ ، ص ٥٣ - ٦٦ .

(٢) هو أحد الفلاسفة المشهورين في العصر الحديث - ألماني - كان على درجة واسعة من الثقافة فقد درس الفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات والتاريخ والفنون والاجتماع . عين أستاذاً بجامعة هيدلبرج (سنة ١٨١٦ م) . هناك بفختى وشلنج . ثم عين أستاذاً بجامعة هيدلبرج (سنة ١٨١٦ م) . فأستاذاً بجامعة برلين سنة ١٨١٨ حيث بلغ ذروة الشهرة والمجد والتف حوله التلاميذ النابهون ، شغل منصبه إلى وفاته وكانت وفاته بالكوليرا وله سبعة مؤلفات وأسلوبه غاية في التجريد والتعقيد ، أنظر

بتصرف من (تاريخ الفلسفة الحديثة ليوستف كرم ص ٢٦٤) .
(٣) انظر العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر (د . محمد سعيد البوطى ص ٩٩-١٠٢)

فقد وصل إلى الحق لكنه لم يصرح به فحاول أن يغلف الحق بما سماه
(الفكر الكلي) أو (الوجود المطلق)، يقول الدكتور البوطي في شرح
نظرية هيغل هذه :

(إذن فالفكر الكلي هو مظهر تجلي الموجودات في مرحلتها المثالية
الأولى ثم تتجسد في وجودها الخارجي صورة مطابقة للأصل في مرحلتها الثانية
وهذه الموجودات في مرحلتها الفكرية الأولى تكون متشابكة متألفة بحيث
لا وجود لمعنى التناقض والتناقض فيما بينها حتى إذا برزت إلى ساحة
الوجود الخارجي ظهرت حواجز التناقض والتضاد بين كثير منها، ثم إن الفكر
لا تنقطع علاقته بها عندما تتحول منفصلة عنه إلى عالم المحسوسات الخارجية
بل يظل الفكر يأخذها ويردها في منهاج تطويري لا نهاية له
يأخذها إليه مشروعا للتحسين والتطوير . ويردها إلى الوجود الخارجي
تجربة نافذة ، ثم لا يلبث أن يأخذها إليه ثانية ليضيف إليه تطويــــــــــــرا
جديدا ، ويعيدها إلى ساحة الوجود الخارجي في طور أكمل وهكذا
(١)
• (دو اليك)

وإليك توضيح فلسفة هيغل :

لقد اكتشف هيغل على حسب حدسه الفلسفي أن الجدلية ^(٢) = الحركة
المتغيرة ممتدة من أعماق أعماق الشعور ودنيا المجردات لتنتهي إلى علاقة
ما بين الماهية والجوهر،

فالجدلية عند هيغل قانون لا بد من اعتباره في حركة الفكر والروح
ولا بد من اعتباره في القول . ولا بد من أخذه بعين الاعتبار بصددهم
الطبيعة . وتتمثل في ثلاثة أطوار :

- ١ - أطروحه _____ نظام الشيء في ذاته .
- ٢ - نفي نفي _____ نظام الشيء من أجل ذاته .
- ٣ - نفي النفي _____ نظام الشيء من أجل ذاته وفي ذاته .

إن رحلة الكشف عن أي حقيقة تكمن في ساحة الطبيعة أو تتجلى فسي

(١) نقض أو هام المادية الجدلية ، ص ٢٠ ، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

(٢) الجدلية = التناقض = الصراع .

علياء الروح إنما تبدأ - بنظر هيغل - من أطروحة مجردة تنشأ في أعماق الفكر وهو (الوجود المطلق) (نظام الشيء في ذاته - أي نظام الشعور -) ثم تنعكس إلى الواقع لتتحول إلى (ماهية) إذ تتولد من ذلك الوجود المطلق حقيقة ذو حدود وتعينات خارجية ، وتتشخص وتتبين بواسطة نقائضها التي تلامس بعضها البعض . وهذا هو نظام الشيء من أجل ذاته ثم ترتد هذه الماهية إلى الفكر لتتركب من جديد مع الوجود الذهني فتغدو مفهوماً .

وتلك هي مرحلة نظام الشيء من أجل ذاته وفي ذاته معاً ، وتلك هي أطوار الحركة التناقضية الثلاثية عند هيغل ، وهذه الحركة في حد ذاتها تتكرر وتتقدم في كل مرة بتركيب أفضل من الأول وأغنى منه إذن هيغل يقرر أن الحركة تبدأ في الوجود المطلق متمثلة في الفكر متجهة إلى سائر مظاهر الموجودات الخارجية وإلى سائر الأحاسيس والقيم العلوية ثم عائدة إلى منطلقها الأول .

فهيجل يخبرنا عن النظام الذي يسير الكون وفقه طبقاً لما يراه
(١)
حدسه الفلسفي في ذلك .

ماهو المحور الذي تدور عليه فلسفة هيغل ؟

إن المحور الذي تدور حوله فلسفة هيغل : هو أن وجود الشيء على الصعيد الخارجي إنما هو ثمرة الإبداع الفكري له ، فالفكر يبدع الشيء بصورة ومثالا ثم يدفعه إلى الصعيد الخارجي حقيقة مطابقة لذلك المثال . ونقول على وجه التقريب : كما أن الوجود الأصلي للشجرة كامن في نواتها ، والوجود الأصلي للبناء كامن في خارطته ، والوجود الأصلي للأنغام التي تنبعث من الآلات المشاهدة كامن في مدونة اللحن (النوتة) كذلك الوجود الأصلي لأي شيء من الموجودات التي نراها من حولنا كامن في جذورها التي أشرقت قبل كل شيء مثالا وتصورا في ساحة الفكر .
(٢)

إن رسالة الإنسان الكامل عند هيغل هو الفيلسوف الباحث عن الحكمة الخفية في الكون وتتطلب منه ألا يقف وراء المظاهر فقط بل يجب عليه أن

(١) انظر نقض أوهام المادية الجدلية د. محمد سعيد رمضان البوطي (ص ٢٥ - ٢٨)
(٢) انظر العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ، ص ٩٩ .

يغوص ليعرف الأسباب كالذي يقف في سذاجة أمام فرقة موسيقية يعزف أفرادها إيقاعات وألحان - تبدو أنها متخالفة ومتعارضة ، ولو أراد- أن يتجاوز حدود هذه المظاهر لعرف أن مدونة اللحن (النوتة) تتجلى فيها الوحدة الحقيقية الكاملة ويتبدى فيها معنى الوجود المطلق الذي يُحْيِي في فكر كل عازف على حدة ليقودهم جميعا كل حسب طريقته نحو غاية متسقة متكاملة .

ومن هنا فعلى الإنسان المتأمل لمنشورات العلوم والقوانين لهذا الكون عليه أن يقف أمام مدونة اللحن العلوي الكامل لمعزوفة هذا العالم

(١)

والخلاصة :

أن هيجل كما أسلفت عمق بيان العلاقة الجدلية بين ما سماه " الفكر المطلق " والمادة المصنوعة والمخلوقة ليثبت من خلال ذلك أن المادة كلها ، إنما هي ثمرة الفكر المطلق وإنما يعني بالفكر المطلق قدرة الله عز وجل .

غير أن ماركس - كما سوف أفصل لك - عمد إلى نظرية هيجل هذه عن الجدل بين المادة والفكر المطلق فمسخها وجعلها علاقة محصورة بين أجزاء المادة نفسها وحذف (الفكر المطلق) الذي جعله هيجل مصدر الخلق والتطور فهيجل لم يكن أكثر من سلاح بيد الماركسيين .

(١) يتصرف من كتاب نقض أوهام المادية الجدلية ، ص ٢٨ - ٢٩ .

(*)
(الجدلية في منظار الماركسية)

(***)
كارل ماركسي

يقول الماركسيون : إن هيجل وضع الديالكتيك - أي الجدلية - ولكن
منكسا على رأسه فجاءت الماركسية وأقامته منتصباً على قدمه إن الخط
العريض الهام الذي طرأ على نظرية هيجل من وجهة نظر الماركسيين هو ما يلي:

١ - إذا كانت الأشياء في سيرورتها وتطورها الخارجي انعكاساً لما يجري
في الفكر أو الروح عند هيجل فإنما يجري في الفكر والروح ليس إلا
انعكاساً لصيرورة الأشياء وتطورها في الخارج عند ماركسي ورفاقه أي أن
الفكر والروح أصل عند هيجل والمادة من ثمراته بينما المادة هي
الأصل عند ماركسي والفكر والروح من ثمراتها ؛
أيهما الذي أقام النظرية مستوية على قدميهما؟
وأيهما الذي نكسها؟

٢ - ترى الماركسية أن جدل الأطروحة ونفيها ونفي النفي لا يتم بين الفكر
والمادة كما يقرر هيجل بل يتم بين المادة ذاتها دون أي عمل خارجي
من الفكر أو غيره . وذلك وحده هو سر تطور الكون والموجودات المختلفة التي
لا تعدو أن تكون من جنس المادة أو من ثمراتها والدستور الفلسفي
الجديد (الماركسي) يقرر أن الذرة مثلاً وهي أصغر أجزاء المادة
محشوة بالوحدات المادية المتناقضة المتصارعة بعضها صائر إلى
العناء وبعضها متجدد صاعد نحو البقاء ، ومن صراع ما بينها يتماسك
وجودها ويمتد نموها ويتحقق هذا التناقض في العلوم بأشكال مختلفة .

(*) انظر كتاب تاريخ الفلسفة الحديثة ليوستف كرم ، ص ٢٦٨ ، وموقف الإسلام
من نظرية ماركسي ، ص ٦١١ ، ٦١٢ .

(**) كارل ماركسي هو مؤسس المادية التاريخية وحاخام الشيوعية
وفيلسوفها الأكبر النافخ في نارها حتى أشعلها ثورة عالمية . ولد من
أبوين يهوديين وكان جده حاخاماً يهودياً كبقية آبائه وأجداده . درس
القانون في جامعة برلين ثم هجره إلى الفلسفة وحصل على الدكتوراه
فيها سنة ١٨٤١ م - طرد من الجامعة وضويق فيها بسبب اتهامه بالإلحاد
فاضطر إلى الهجرة إلى باريس . كان عصبي المزاج أناني الطبع لئيماً
حقوداً يتكل على غيره عاصياً لوالديه وأسرته . رجع إلى لندن سنة ١٨٤٨ م
حيث دون كتبه الكبرى وهي نقد الاقتصاد السياسي ، ونداء إلى الطبقات
العاملة في أوروبا ، وكتابه الأشهر (رأس المال) ويتألف من المادية
التاريخية والجدلية على طريقة هيجل ممزوجاً بالشيوعية الإلحادية التي
هي نتيجتها .

فهو مثلا في الرياضيات ضمن الزائد والناقص وفي الميكانيكا ضمن الفعل ورد الفعل • وفي الفيزياء بالتيار الموجب والتيار السالب ، وفي الكيمياء باتحاد وتفكك الذرات وفي علم الاجتماع بصراع الطبقات •

ويتحرك صراع الأضداد هذا ضمن الايقاعات الثلاثة التي قررها هيجل فالأطروحة : هنا كامنة في أحشاء المادة ذاتها. أي خارجة ومستقلة عن الوعي الانساني •

والنفي الأول : يتجلى في الانعكاسات التي تأتي ردا أو نتيجة للانبثاق وتختلف هذه الانعكاسات في أشكالها •

ونفي النفي : يتجلى في بلوغ تلك الانعكاسات ذروتها إنها عندئذ عائدة إلى الأطروحة حيث تتحول الأطروحة إلى حقيقة غنية ثابتة •

ثم إن هذه الحقيقة الجديدة لا تلبث تحت صراع الأضداد أن تنبثق منها أطروحة جديدة أكثر تقدما وغناء من الأولى في حركة لولبية نحو التطوير المستمر الذي لا انقضاء له ، وأبرز مثال يعتر به الماركسيون لبيمان زعمهم هذا هو مايلي :

ان انبثاق حبة الحنطة في الأرض عن عوامل داخلية متجهة نحو الإثبات هو ما نعينه بالأطروحة ، فإذا انعكس عن تلك العوامل النبات الأخضر المتصاعد فهو الطباق ، أي النفي الأول. ثم إذا عاد النبات سنبلًا متراكبا من الحنطة فذلك هو التركيب ، أي نفي النفي •

ثم إن حبات تلك السنبل ما تلبث هي الأخرى أن يتحول كل منها إلى أطروحة من جديد ••••• وهكذا دواليك ، ذلك هو لب الجدلية والباعث لحركتها وتطورها في نظر الفلسفة الماركسية •

الا أنه بالإضافة إلى هذه النظرية الأساسية هناك قوانين أخرى تؤمن بها المادية الجدلية وتعتبرها أيضا سير فاعليتها ومن أسس دعائمها واليك هذه القوانين :

- القانون الأول : قانون تحول الكم إلى كيف :

تقرر المادية الماركسية أن التغيرات التي تطرأ على كمية الشيء تؤثر أخيرا في تغيير كفيته •

مثال ذلك : الحجارة التي تتراكم شيئاً فشيئاً في مجرى النهر تتحول عند حد معين من تطورها الكمي إلى كيفية جديدة لم تكن من قبل ، إذ أنك تنظر فترى ركام الحجارة وقد أصبح سداً .

ومثال آخر : الماء الذي تشدد سخونته تطراً عليه تغيرات تتعلق بالكم إذ ترتفع درجة حرارته من (٥٠ - إلى ٦٠ - إلى ٧٠) وهكذا ما أن تتجاوز المائة حتى يتحول الماء إلى بخار أي إلى كيفية أخرى جديدة . إلا أن التغيير في الكيفية لا يتحقق بتدرج تبعاً لما يتم في التغيير الكمي (عقلاً) وإنما يكون تغيير الكمية في نظر الماركسية بمثابة التهيؤ والإعداد لولادة كيفية جديدة منتظرة على شكل قفزة وهذه القفزة تختلف باختلاف الطبيعة التي هي موضوع التغيير .

فما يحدث في الطبيعة الميته غير العضوية يختلف تماماً عما يتم في الطبيعة الحية على حد تعبيرهم .^(١)

القانون الثاني : (قانون وحدة الأضداد وصراعها)

لقد أثبتت المادية الماركسية حسب فهمها أن كل شيء متغير متطور لكن ما هو العامل الأساسي لهذا التطور؟ تجيب الماركسية عن هذا السؤال بأن مصدر التطور في كل شيء إنما هو أضداد موجودة متزاحمة ضمن الشيء الواحد بل ضمن الذرة الواحدة ، والعامل المباشر للتطور هو الصراع الذي يتم بين هذه الأضداد ضمن وحدات المادة .

القانون الثالث : نفي النفي :

والحقيقة أن هذا القانون هو في الوقت ذاته يعد الركن الثالث من الدائرة الجدلية ذات الايقاعات الثلاثة - (أطروحة - نفي - نفي النفي) هذا القانون يمتاز من وجهة الفلسفة الماركسية بما يلي :

أ - الاستمرار الذي لا توقف له فما من كيفية إلا وتحمل في باطنها بذور نسخها بما هو أتم وأفضل .

ب - والنسخ لا يعني القضاء على كل العناصر بل هو نفي من شأنه أن يحتفظ بأفضل خصائص القديم . ويمتاز عليه بخصائص لم تكن موجودة . فنفي النفي

(١) القضايا الأساسية في الماركسية لبليخانوف ، ص ٣٧ ، ماهي الديالكتيك؟ تأليف ع . كورسانوف ، ص ٤٣ .

(١) الجدلي الماركسي يفترض النفي والمحافظه على حد سواء.

هكذا تتكامل عملية نفي النفي في كل دورة بشكل أفضل وأغنى وتسمى الماركسية في نظرية التطور وانتخاب الأصلاح التي طرحها داروين أكبر شروة في مجال الاستشهاد على صحة هذا القانون .

إن هذه القوانين الثلاثة هي أركان المادية الجدلية الماركسية، ولهذه القوانين مستلزمات لا بد منها :

أولا : أن المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق : وذلك هو حجر الزاوية في الفلسفة المادية بكل مالها من عمق وشمول فالمادة هي أول الموجودات وأقدمها ، والمادة موجودة خارج وعي الانسان ومستقلة عنه وأسبق في وجودها من وجود الوعي .

يقول (لينين) (٢) (إن المادة تثير الإحساس بالدماغ والأعصاب والشبكية ولا يرتبط وجود المادة بالإحساس ، فالمادة هي الشيء الأول والإحساس والفكر والشعور هي المنتجات الأرقى للمادة المنظمة بشكل معين) (٣)

ثانيا : ملازمة المادة للحركة :

تقول الماركسية : (إن الحركة هي نمط وجود المادة في أي زمان وأي مكان . ولم توجد أبدا مادة بلا حركة ولا يمكن أن توجد) (٤)

ثالثا : سمرديية العالم ووحدته :

تقول الماركسية : ان المكان بلا نهاية والزمان سمردي والعالم ينبسط في جميع الجهات بلا نهاية ولم تكن له بداية ولم تكن له نهاية .

-
- (١) موجز المادية الديالكتيكية لبودوستنيك وياخوت ، ص ١٠٦ .
 - (٢) لينين : (١٨٧٠ - ١٩٢٤ م) اسمه الحقيقي فلا فمير ايليتشي لينين اعتنق الماركسية ١٨٩٤ م - شارك في التنظيمات الشوعية - أهم كتبه (تطور الرأسمالية في روسيا) .
 - (٣) المادية والمذهب التجريبي النقدي للينين ، ص ٤٣ .
 - (٤) انظر المادية والمذهب التجريبي للينين ، ص ١٧١ .

فالمادية عند الماركسية قديمة أزلية وهي منذ فجر وجودها الذي لا أول له تتحرك وتتطور . فالجديد من المادة هو أشكالها أما ذاتها فتغوص إلى أغوار سرمدية لا أول لها .^(١)

رابعاً : الوعي هو وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ وهذا يعني لوجود للوعي بدون مادة .
خامساً : تفاعل السبب والمسبب :

يقول انجلز : (يوجد في المجتمع تفاعل عام قوامه أن السبب والنتيجة يتبادلان الأماكن على الدوام إن ما يكون في بعض ظروف المكان والزمان سبباً يصبح في ظروف أخرى نتيجة والعكس بالعكس فبين السبب والنتيجة إذا جدلية مستمرة . وتؤكد المادية الجدلية أن حركة الأسباب والمسببات لا تنشق إلا من قوانين الطبيعة ذاتها ومقتضياتها الكاملة فيها والتي تجمع بين الضرورة والمصادفة في آن واحد فلا يسمى بالعلة الغائية في تفاعل الأسباب والمسببات بعضها لبعض والماديون يهزؤون من كل تفسير لحركة الطبيعة يستهدف القول بالغائية .^(٢)

سادساً : (علاقة المعرفة (الحقيقة النسبية) بالحقيقة المطلقة) :
يقول الماديون الجدليون إن الحقيقة المطلقة القائمة بذاتها إنما تتركب من حقائق نسبية ؛ وإنما تتركب الحقائق النسبية من تراكمها وتكدسها في الذهن ولا يكون ذلك في لحظة خاطفة بل من خلال طريق للمعرفة معقد تاريخي لا نهاية له . والبشرية لم تنهيه ولم تنجزه .^(٣)

إن الفكر البشري لا يمكن أن يحيط بالحقيقة المطلقة التي تدل عليها أجزاؤها كيف يمكن للفكر أن يؤمن بما لم يصل إليه؟ ومن أين يعرف أن من وراء هذه الظواهر النسبية حقيقة مطلقة؟ لا يمكن لنا التوسع في معرفة الاجابة عن هذه الأسئلة ومن

-
- (١) انظر الدفاتر الفلسفية للينين ، ج ١ ، ص ٧٧ .
 - (٢) انظر الدفاتر الفلسفية ، ج ١ ، ص ٥٧ .
 - (٣) المادية والمذهب التجريبي النقدي ، ص ١٢٦ .
والموجز في المادية الديالكتيكية ، ص ١٨٤ .

أراد ذلك فعليه مراجعة كتاب نقض أوهام المادية الجدلية ص ١٩٠

سابعاً : المادية التاريخية :

وهي من أخطر النتائج المترتبة على المادية الجدلية المتعلقة بالطبيعة وأحكامها .

ان الفكر الانساني طبقاً للنظرية المادية الجدلية شكل من أشكال المادة ، وكذلك الروح من بعض ثمار المادة ونتائجها فلا بد أن تكون هذه المرحلة التاريخية التي قطعها الانسان الى اليوم منذ بدء الخليقة هي أيضا من ثمرات المادة وآثارها ، إذاً فلا بد أن تخضع حركة التاريخ الانساني للقانون ذاته الذي خضعت له المادة في أطوارها وتقلباتها انه قانون صراع الأضداد بدءاً من الأطروحة فالنفي فنفي النفي .

وإليك هذا المثال العملي الواقعي حسب الفلسفة المادية الجدلية

الأطروحة :

تبدأ منها حركة المجتمع الانساني ، فقوى الإنتاج التي يملكها الانسان ووسائله التي استفادها من الطبيعة أرغمت الناس على الدخول في علاقات انتاجية متبادلة وذلك من أجل العيش وتطوير أسباب الرفاهية في الحياة .

ومع مضي الزمن تزداد وسائل الإنتاج تقدماً وتعدداً مع بقاء علاقات الإنتاج متخلفة (ملكية جماعية تحت سلطان العشيرة أو القبيلة) . وبذلك تظهر بذور التناقض بين وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج . حيث لا يلبث أن ينفجر أخيراً هذا الصراع بظهور الاقطاع وهو النفي الأول .

الا أن هذا الطور الجديد للملكية يحمل في أحشائه بذور نقيضه وهي طبقة المستعبدين والمستغلين حيث تثور هذه الطبقة (المستعبدين) على سيطرة الاقطاع ويقضي عليها فيكون ذلك إيذاناً بتحقيق نفي النفي وتعود الملكية إلى حالتها السابقة .

إلا أن هذه الأطروحة الثلاثية وحسب النظام المادي الجدلي لا يلبث أن يصبح أطروحة جديدة يتولد عنها نفي جديد ونفي نفي جديد ، يكون أسمى وأغنى أو بتعبير آخر تحل (البرجوازية) - الطبقة الكادحة المستعبدة - مع الزمن محل الاقطاع ويعود التناقض بين البرجوازية والطبقة الكادحة المستعبدة التي كانت في يوم ما درعا لها وفي اللحظة المناسبة يحل عصر الانتقال الى عصر التركيب الجديد إنه عصر الشيوعية المطلقة .

حيث تذوب الفوارق الطبقيّة نهائيا وإلى غير رجعة ويتم إنقاذ البشرية من الظلم الاجتماعي كله وتزول الحاجة الى رقابة الدولة وقيادتها فتنتهي الدولة نفسها وأنذاك تهدأ حالة التاريخ البشري بعد طول صراع ويلقي عماء آمنا مطمئنا في ظل ظليل من الشيوعية الوارفة .^(١)

(١) انظر كتاب نقض أوهام المادية الجدلية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص ٣٠ إلى ٥٠) .

نقد المادية الجدلية

إن أركان النظرية المادية الماركسية كما ذكرنا ثلاثة قوانين :

- أولا : قانون تحول الكم إلى كيف .
- ثانيا : قانون وحدنة الأضداد .
- ثالثا : قانون نفي النفي .

ومن مستلزمات المادية الماركسية ما ذكرته آنفا وهي :

- أولا : أن المادة هي أساس الوجود وينبوع الحقائق .
- ثانيا : ملازمة المادة للحركة .
- ثالثا : سرمدية العالم ووحدته .
- رابعا : الوعي هو وظيفة لمادة عالية التنظيم هي الدماغ .
- خامسا : تفاعل السبب والمسبب .
- سادسا : علاقة المعرفة (الحقيقة النسبية) بالحقيقة المطلقة .
- سابعا : المادية التاريخية .

وسأقتصر على نقد القوانين الثلاثة الرئيسية أما المستلزمات فأحيل القاريء إلى كتاب نقض أوهام المادية الجدلية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي من (ص ٩٧ إلى ص ٢٤٢) .

هذا وبعد أن فرغنا من استعراض النظرية بدءاً من أصولها إلى محطاتها الجدلية الماركسية سأشرع في نقد قوانين الفلسفة المادية الماركسية ولن أتطرق لتطوراتها المختلفة بدءاً من هير قلط مروراً بهيجل لأن آرائهم قد تحولت إلى قاعدة أقيمت على أسسها الفلسفة الماركسية التي ستناقدها باذن الله بدقة وأمانة وليس أمامنا إلا ميزان واحد وضعه الاسلام بأصله الكتاب والسنة هو ميزان المنطق العلمي وبراهينه الراسخة .

أولا : قانون تحول الكم الى كيف :

شرح مفهوم الكم والكيف : من المعلوم أن أي شيء يتكون من جوهـر، وظواهر الجوهر : هو ذات الشيء ، والظواهر : تجلياته وخصائصه الواضحة للعيان هذه الظواهر تخضع لأحد مفهومين :

الكم : وهو ما يحدده العدد أو الحجم أو القياس أو الوزن ، والكم ينقسم إلى قسمين : (كم متصل ، وكم منفصل) .

- الكم المتصل : وهو تعبير عما يحققه الحجم أو القياس من التراكمات والأحجام .

- الكم المنفصل : تعبير عما يحدده العدد مما تؤثر الزيادة عليه أو النقص منه .

أما مقولة الكيف : فهو كالليونة والبرودة والحرارة .

إن المادية الجدلية تقرر أن التغيرات الطارئة على كمية الشيء تؤثر أخيراً في تغيير كميته ، هذا التقرير صحيح إلى حد ما ولكنه يحوي على مغالطات كثيرة أما كونه قانوناً عاماً لكل شيء فهذا غير صحيح البتة وإليك التفصيل : إن الكم كما ذكرنا ، فالكم المنفصل : لا يبدع عن طريق الزيادة أو النقصان أي كيفية ذات قيمة يمكن أن تنشأ من إضافة عشرة أحجار إلى خمسين حجراً .

نعم ، إلا في حالة واحدة إذا تدخل الوعي الإنساني فإنه بإمكانه أن يستغل تزايد الكم المنفصل لاستخراج كيفية جديدة ذات أهمية - فإذا ازداد عدد المستضعفين فلا يمكن أن يتحول كمهم إلى كيفية جديدة إلا إذا حكموا وعيهم فإنهم حينئذ يستفيدون منه . نستنتج من هذا كله ما يلي :

أولاً : إذا لم يظهر عامل خارجي من شأنه أن يحدث خللاً في تفاعل الأسباب مع المسببات لن تحقق القفزة بل تظل الأمور سائرة بتدرج ورتابة ثانياً : ليس حتماً أن تتجه هذه القفزة حيثما وجدت إلى الأعلى بل قد تتجه إلى الأسفل . فالقانون غير صحيح .

مثال ذلك : زيادة عدد السكان بدون موارد إنتاجية إنها زيادة كم ومع ذلك فهي قفزة إلى الأسفل لا إلى الأعلى لأنها تتمخض عنها مجاعات وصراعات (١)

(١) انظر نقض أوهام المادية الجدلية للدكتور محمد سعيد رمضان

القانون الثاني : (مسألة وحدة الأضداد وصراعها)

وهو قانون باطل

فمن أحكام الضدين : أنهما لا يمكن أن يجتمعا تحت ظل من وحدة الموضوع والمحمول والزمان والمكان وقيود الصفة أي فالسواد القاتم والبياض الناصع لا يمكن أن يلتقيا في ذات واحدة أو في حيز مكاني واحد . وكذلك اذا عرفنا أن اجتماع الضدين في حيز واحد أو في زمان واحد كالليل والنهار أو في صفة واحدة كأن يكون الشيء أبيض وهو في نفس الوقت أسود لا يمكن أن يكون ذلك بحال من الأحوال . فحينئذ بطل قانون اجتماع الضدين الذي يقول به الماركسيون .^(١)

القانون الثالث : (قانون نفي النفي)

وهو ما يعبر عنه بالتركيب

ففي مثال الحنطة المذكور أنفا^(٢) لم تحقق عمليات الزرع المتلاحقة خلال آلاف السنين أي تطور للحنطة فالحنطة هي الحنطة فأين الصعود اللولبي الذي ذكره قانون نفي النفي كذلك في صراع الطبقات تقرر النظرية أن نهاية العالم يكون في قيادة الشيوعية المطلقة وتحت ظلها أي بتعبير آخر يتوقف القانون الثالث للتطور (قانون نفي النفي) وينسفونه من جذوره والا حسب ادعاءاتهم يجب أن تسقط الشيوعية المطلقة ببذور أضدادها من الداخل ويظهر تركيب أرقى وأغنى .

ويتبين لنا من ذلك أن تلك القوانين لا تعتمد على أي أصل علمي^(٣)
راسخ .

وسوف أعود مرة أخرى الى نقد الفلسفة الماركسية من الناحية العقائدية في الفصل القادم إن شاء الله عند حديثي عن موقف الاسلام من الصراع^(٤) .

(١) انظر كتاب نقض أوهام المادية الجدلية للدكتور محمد سعيد رمضان

البوطي ، ص ٥٧ - ٦٦ .

(٢) انظر ص ٥٠٩ من هذا الفصل .

(٣) باختصار وتصرف من العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر د/محمد سعيد البوطي

(٤) انظر ص ٥٣١ من بحثنا هذا .

نظرية داروين

(داروين) صاحب نظرية (التطور والارتقاء)

لقد نالت نظرية التطور والارتقاء من الشهرة والانتشار ما لم تنلها نظرية حديثة في هذا العصر.

ولعل السبب يرجع الى أنها تدور حول خلق العالم وتكوين الانسان والروح ، ولكونها كانت بمثابة العون لدعاة الالحاد وسلاحا لهم في مجال الدعوة الى الالحاد والتحليل والقول بانكار الخالق .

- عرض موجز لأهم نظريات التطور :

يجب أن نعلم في البداية أنها ليست نظرية واحدة تلك الفكرة التي تتصور أن الانسان تصاعد من مخلوقات أدنى ولكنها سلسلة نظريات متلاحقة متخالفة كلها يفرض أن الحياة تطورت على وجه هذه الأرض تطورا آليا ثم تتفرق عن بعضها في طرائق مختلفة لتفسير هذا التطور وتحليله وسأعرض باختصار وایجاز لأهم هذه النظريات وهي تتلخص في ثلاث نظريات :

١ - النظرية اللاماركية .

٢ - النظرية الداروانية .

٣ - النظرية الحديثة للعالم الهولندي Hugode Veries

أولا: النظرية اللاماركية :

النظرية اللاماركية نسبة إلى لامارك العالم الفرنسي المولود سنة ١٧٤٨ م ، وهو زعيم الجناح الالحادي في هذه النظرية وهو أول من نادى بنظرية التطور ولكن في غمرة النقاش والجدال الذي دار حامية حول داروين وما سجله من بحوث بشأن نظريته نسي الناس لامارك واضع النظرية وأصبحت تحرف فيما بعد بنظرية داروين .

وتتلخص نظرية لامارك . في أن الأنواع الحيوانية غير ثابتة على جالها ومرد ذلك هو الظروف المناخية المختلفة التي تتقلب على كل منها كالأقليم والغذاء وطرز الحياة وحالة الطقس والطبيعة ذلك لأن اختلاف شيء من هذه العوامل يؤثر في اختلاف العادات ويؤثر بدوره في اختلاف الوظائف والأعمال

٢ - الانتقاد الثانى :-

ان أكثر ملاحظه لامارك من مظاهر التطور التى اعتمدها أساسا لبحثه ودليلا على دعواه انما يجرى ضمن سلسلة الافراد بعامل الوراثة أى من قبل أن يلتقى الحيوان مع الظروف أو البيئه التى تلجئه إلى نوع من التطور أو التشكل للانسجام معها . . .

فجلد الطفل يكون منذ ولادته أشد غلظا على أخصى القدمين منه فى أى جهه أخرى من أجزاء الجسم .

والجمال لها ثفنات فى سويات رسغ اليدين والمرفقين بحيث تطابق السطح التى تتحمل وطأة الوزن عندما يستنيخ البعير . غير أن هذه الثفنات موجودة فى ولد الناقة منذ ولادته ولايمكننا فى مثل هذه الحالة أن نعلل الامر بتكيف سابق تأثر بالظروف والاحوال سيما وقد تبين أن تفاصيل الهيكل الحيوانى منوط باقتران الصبغيات والناسلات بكل نوع على حده ودعوى أن ما شاهدته اليوم من قوائين الصبغيات لم يكن على هذا النحو الوراثى فى غابر الزمن زعم غيبى بحث يتنافى مع الواقع المستمر المشاهد (١) .

٣ - الانتقاد الثالث :-

إن هذه الفرضية التى طرحها لامارك إنما تعالج مسألة أخرى أضيق بكثير من موضوع البحث . وهو مدى احتمال أن يكون سائر أنواع الحيوانات المختلفة قد تطور تطورا نوعيا كاملا لا يحده تبدل أشكال وألوان وأعضاء بل بيأتى على التكوين الحيوانى كله من حيث هو . بدءا من الغريزة والفكر إلى الشكل والشعر والمخالب والاذفار .

أما التحليل الذى تذهب اليه النظرية اللاماركية بالنسبة لظاهرة الاشكال والاعضاء الجزئية تحت سلطات النوع الواحد فهو لا يفسر إلا جزءا يسيرا جدا من موضوع البحث الاساسى الذى لا يزال يتطلب تحليلا وشرحا يجيبان عن أسئلة كثيرة تفرض نفسها فى هذا المجال .

هذه الانتقادات الثلاثة لم تجد أى إجابة عنها وهكذا طوى بساط هذه النظرية عن الالتفات إليه والاهتمام به بعد أن خدع بها الكثير وقامت على أنقاضها نظرية أخرى هى نظرية داروين فما هى خلاصتها؟

داروين (١) (١٨٠٩ - ١٨٨٢)

ثانياً:- نظرية داروين :- فى عام ١٨٧١م أخرج داروين كتابه المشهور المسمى ب (أصل الانواع والانتخاب بالنسبه للجنس) حاول أن يرد التطور إلى تغير آلى بحت ، بحيث يكون مستقلاً قدر الامكان عن الأسباب الغائيه ولكنه اتخذ مع ذلك من مبدأ اختيار الأصلح سبباً للتطور .
خلاصة نظرية داروين :-

يرى داروين أن ثمة صفات قد لا تكون ذات أهمية فى الظاهر ، يتفاوت الافراد فى اتصافهم بها ، ولكنها ذات أثر فعال فى المحافظة على صاحبها وترشيحه لمستوى أفضل . وعندما يدخل هؤلاء الافراد فى صراع مع الطبيعه من أجل الحياه يجرى اصطفاء طبيعى يؤدى إلى بقاء أشد الافراد كفاءةً وصلاحيهً للبقاء بما تمتاز به من تلك الصفات أو بما تمتاز به من الحصول على أعلى الرتب منها .

وهكذا فإن التفوق الذى يتمتع به الحيوان من حيث هو نوع بالنسبة للأنواع الأخرى . أو من حيث هو فرد بالنسبة للأفراد الأخرى .
وبتعبير أوضح ان بقاء بعض الأنواع وانقراض بعضها يرجع إلى ظاهرة الصراع من أجل البقاء . فالبقاء يكون للنوع المكافح الأفضل . أما النوع الخامل الذى لا يكافح من أجل البقاء فإنه يضم ثم يضم ثم ينقرض (٢) .

(١) هو تشارلز داروين صاحب نظرية التطور العضوى المعروفه ولد بويلز فى بريطانيا . وألف كتابه (أصل الانواع) بعد رحله طويله دامت خمس سنوات فى دراسة عالم الاحياء على الطبيعه وقد اطلع خلال هذه الرحله على كثير من أسرار عالم الحيوان والنبات وقد أحدثت نظريته انقلاباً فكرياً فى معظم حقول المعرفة الاوربيهة نظراً للاستغلال العظيم الذى قام به المغرضون والهدامون من الملحدين ولاسيما اليهود . وأخيراً ألف كتابه (أصل الانسان) ١٨٧٤ وقد خصص هذا الكتاب لموضوع التطور الانسانى / بتصرف من موقف الاسلام من نظرية ماركس ص ٦٠٨ .
(٢) كواشف زيوف فى المذاهب الفكرية المعاصرة ص ٣١٨ للشيخ عبد الرحمن حبنكة الميدانى .

وفى غمرة هذا التسابق الذى تم منذ أقدم العصور فى عالم الاحياء ونتيجة لتفاوت الصفات الكامنة فى أنواعها الكثيرة - وهى الطاقة الوحيديه لذلك التسابق - ظهر سلم الدرجات الذى صنف الاحياء الى أنواع مختلفه ومتفاوتة شتى . وليس الإنسان فى سلم هذه الدرجات إلا واحدا من فريق تلك الحيوانات البسيطة التى بدأ السباق فيما بينها . ضمن دائرة نوعيه واحده فكان من حسن حظه أن كان له من الصفات الكامنة ماتقدم به معدا فى حلبة ذلك الصراع والسباق ورشحته لتبوء أسمى درجات الحياه من حيث تخلف زملاؤه عنه فى درجات متفاوتة شتى .

ولكن على أى دليل اعتمد فى الذهاب إلى أن الإنسان كبقية الحيوانات الأخرى تطور من نوع واحد ؟

أدلة داروين على أن الانسان كبقية الحيوان تطور من نوع واحد:-
أولا : استمد داروين دليله على مايقول من علوم التشريح المقارن والاجنة ومن التراكيب الاثرية التى توجد فى الانسان فقد وجد مثلا أن أجزاء الهيكل العظمى للانسان يمكن أن يقارن بمثيله فى بعض الحيوانات الأخرى وكذلك الأمر بالنسبة للجهاز العظلى أو العصبى حتى تركيب المخ وأجزائه يمكن مقارنتها بين الانسان والحيوان وأستخراج كثير من أوجه الشبه بينهما .
ثانيا :- كما أعتمد على الأدلة التى استمدها من علم الأجنة فقد لفت نظره أن عملية تكوين الجنين فى الإنسان ماهى إلا استعادة لاطوار الحياة فى حيوانات أقل مرتبة كما أن المراحل الاولى لتطور الجنين تتشابه تشابها كبيرا فى الإنسان والحيوان .

فقد لاحظ مثلا أن عجز الجنين ينتهى بما يشبه الذيل فى جنين كل من الإنسان وحيوانات أخرى . ويتطور الجنين يختفى الذيل فى جنين الإنسان ويبقى فى الحيوانات الأخرى .

ثالثا :- استدل داروين بمظاهر من الترابط النفسى بين الانسان وبعض الحيوانات مثل ظاهرة الوجدان والشعور والإنفعالات النفسيه (١) .

(١) بتعرف واختصار من (العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر) د / محمد سعيد رمضان البوطى ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

نقد الداروينية

وإليك بعض وجوه النقد العلمى الموجه من العلماء للنظرية الدروانية

١ - إن الواقع الذى نشاهده ونلمسه على صعيد الحياه يتنافى بشكل واضح مع ما أسماه داروين بقانون الإصطفاء والبقاء للأصلح فان الكون لا يزال بعد الذى قطعه من عمره المديد يعج بالأصلح وغير العالغ من شتى صنوف الحيوانات بدءاً بالهلاميات إلى القردة فالانسان .

ولو كان قانونه صحيحا لكان من أبسط مقتضياته الواضحة أن يتجاوز موكب السباق الحيوانى نقطة البدء على أقل تقدير مهما فرضنا البطء فى حركة التطور والإصطفاء ولكن هاهى نقطة البدء لاتزال تفور بحيواناتها الضعيفة المختلفة ولاتزال تتمتع بحياتها وخصائصها المعيشية كما كان يتمتع بها السابقون مثلا بمثل .

٢ - إن كل مارصده الإنسان من معارف عن التاريخ والتاريخ الطبيعى، دل على أن كل نوع من أنواع الحيوانات على اختلافها قوة وضعفا ، تطراً عليه خسائر ضخمة مع الزمن لاتحت سلطان ما يسميه داروين (البقاء للأصلح) ، بل بسبب عواد وعوامل طبيعية مختلفة تتقلب عليها . وهى حقيقة مشاهدة لاتنكر . فالموت والنجاة من الموت كثيرا ما يكون أمرهما إلى المعادفة المجردة (١) . لالى صفات خاصة فى الفرد .

فالمستنقع العظيم الذى يجف مثلا، والموجة الهائلة التى تتدفق على الرمل والفيضانات والسيول الجارفة تبيد الألوف من الحيوانات وتنجو من الموت طائفة أخرى .

ومن المعلوم أنه لاالموت اصطفى لنفسه الضعفاء والالنجاة اختارت لنفسها الأقوياء بل الأمر كله جاء على سبيل المعادفة (٢) . وهذا يتعارض مع فكرة أن البقاء للأصلح ، وأن التطور يسير لمصلحته .

(١) جريا على مفهوم الذين لايعتقدون وجود الخالق عزوجل وأن الطبيعة هى التى يعود عليها أمر هذا الكون وما فيه . ولأشك أنه ليست هناك قيد أنملة تتحرك أو تسكن إلا بتقدير العزيز الحكيم .

(٢) أنظر علم الحياه الحيوانية للدكتور عبد الحليم سويدان ص ١٢٢ .

٣ - إن الموت من حيث هو ظاهرة عامة ، يتناقض مع مايراه داروين — أن الطبيعة تسير مع جماعة الأحياء حسب قانون الإصطفاء والبقاء للأصلح فأى بقاء يتم للأصلح . إذا كان الموت يترتب به ؟ على أن الدراسات الإحصائية التى أثبتها علماء هذا الشأن ، تبين أن الموت يداهم أول ما يداهم الأفسراد الذين قد يرتفعون عن النمط العادى حيث يبقى بعد ذلك نمط المتوسط ومادونه وهى نتيجة تعاكس نظرية داروين وتنبؤاته (١) .

٤ - عملية الإصطفاء هذه عملية غائية ، يتدخل فيها الفكر والتدبير وليست حركة آليه ، سواء اعتبرنا الإصطفاء أمرا صناعيا أو طبيعيا . فكيف يمكن إسناد هذا الإصطفاء إلى الطبيعة أو الحركة الآليه ؟ إن السير الطبيعى والآلى لامناص من أن يفسر (مهما تنوعت التعابير عنه) بالعشوائية المجردة وأنى للعشوائية أن تلتزم بالسير وراء قانون الإصطفاء والابقاء للأصلح ؟

وبتعبير آخر إن انتخاب الأصلح لابد أن يعتمد على قانون يميز الأصلح عن دونه ويعلل ذلك ويوجهه فعلى أى قانون تستند الطبيعة فى انتخابها .

٥ - ان وقاية الحياة من أن يتسلل إليها ضعيف لا تتوفر فيه مجموعة الصفات الصالحة أيسر على الطبيعة - لو كان الأمر بيدها - من أن تذهل عنه ، حتى إذا تسلل إلى الحياة وأخذ قسطه منها وراح يشارك أمثاله فى القيام بكافة الوظائف الحياتية انتهت إليه فجأة ، ثم راحت تلتقطه وأمثاله من بين سائر الحيوانات لتقضي عليه ولتصح فى محوه خطيئتها التى ماكان لها أن ترتكبها أى إذا كان هذا الضعيف محكوما عليه بالتخلف فالزوال لانه ليس من صف الصالح أو الأصلح وقدردنا أمر إيجاده عائداً إلى الطبيعة . فلماذا أوجدت الطبيعة هذا الذى تريد اليوم أن تقضى عليه أو تؤخره عن الركب ؟ أما إن قلنا إن أمر إيجاده لم يكن إليها فأحرى أن لا يكون إليها أيضا أمر تهذيب الكون باعدامه والقضاء على خطيئة وجوده .

(١) انظر علم الحياة الحيوانية للدكتور عبد الحليم سويدان ص ١٣٢ .

٦ - إن في أصناف الحيوانات ما يتمتع بصفات ترشحها لتتبع الصدارة فـسـى
سلسلة أنواع الحيوانات ، لو أن الطبيعة راعت فيها ذلك ولكن هذه الحيوانات
لم تترق فوق مرتبتها التي هي فيها وبقيت دون مستوى حيوانات أخـسـرى
لوصحت نظرية داروين فيها لسبقها وقد عرض داروين لهذا الاعتراض الوارد
على نظريته في كتابه أصل الأنواع . ولم يعلق عليه بأكثر من قولـهـ
(إننا لا ينبغي لنا أن نعثر على جواب محدود معين على هذا السؤال
إذا ما عرفنا أننا لا جرم نعجز عن الإجابة عن سؤال أقل من هذا تعقيدا (١)) .
وهكذا تكاثرت الإنتقادات على نظرية داروين من كل صوب فكان مهيرها
في ميزان النقد العلمى سرا من اللاماركية التي سبقتها (٢)

ثالثا :- الداروينية الحديثة :- غير أن العالم الهولندي Hugode Veries

أقبل فأقام على أنقاض تصورات داروين هذه نظرية ثالثة في تفسير
نظرية التطور المفروضة بشكل إجمالي سلفا . سرعان ما سميت بالداروينية
الحديثة :-

ويتلخص فرق ما بين نظرية داروين وهذا العالم الثانى أن داروين أفحم
نفسه في متاهات محرجة لامفر منها عندما أعطى الطبيعة القدرة على تصعيد
أجناس الحيوانات إلى المستوى الأفضل وهو عمل يدخل في صميم ما يسميه
العلماء بالعللة الغائية . والعللة الغائية من أرقى وظائف الفكر والعقل
أما هذا الثانى فقد قرر أن الانسان كغيره من الكائنات الحية يخضع
للتطور الجزئى والنوعى ، ولكن عن طريق الطفرة لا عن طريق السعى نحو
الاصطفاء وانتخاب الاصالح . فمن خلال طفرات نوعية أدركت الانسان منـذ
أحقاب طويلة مرت ، أتيج له أن يرقى معدا إلى هذه المرتبة التي وصل
إليها .

غير أن مآل هذا التصور الثالث لم يكن خيرا من مآل كل من الفرضيتين
السابقتين فقد وجهت لها هذه الإنتقادات الأتية :-

(١) أصل الانواع لداروين ص ٤١٢

(٢) أنظر العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر للدكتور البوطى

١ - إن التطور المفروض الذى هو أصل البحث ، تطور تقدمى ولاريب إذ هو التصور المقترح لتدرج أصناف الحيوانات . فهل من شأن الطفرة أن تنطوى على هذا التطور التقدمى المبرد ؟

المعروف أن الطفرة دائما تنطوى على صفات الانتقاص والاضراب والموت أكبر مثال على ذلك . فكيف يفسر التطور التصادى المبرد هذا على أساس من هذا العامل الانتقاصى المضرب ؟

أى إن العاقل لابد أن يسأل : لماذا لاتتجه الطفرة يوماً ما فى مسيرها بالركب الحيوانى نحو الإنتكاس إلى الخلف بدلا من المعود الشاق الدائب إلى الأمام . مادام أن المسألة طفرة وليس ثم سائق يتجه به إلى أى هدف ؟

٢ - إذا كانت الطفرة هى التى تتحكم فيما يطرأ على الكائن الحي من تغيير وتطور ، فأى موجب يبقى لافتراض نشأة الكائنات الحية من أصل واحد ؟

إذ من المعلوم أن هذا الافتراض إنما لاقى قبولا من أصحابه، بناء على ملاحظوه من الشبه التصادى بين هذه الكائنات وهى الملاحظة التى جعلتهم يقولون بمبدأ الاصطفاء وانتخاب الأملح فإذا نسب هذا المبدأ بافتراض الطفرة فلا بد من تجاوز ظاهرة التشابه التصادى بين أصناف الأحياء . إذ ليس من علاقة بينها وبين افتراض الطفرة وتصور أنها هى عامل التطور (١).

وأخيرا : الكشف العلمى الذى قضى على فرضيات التطور كلها :-

كانت هذه الانتفادات كلها تتجه إلى هذه النظريات المتناسخة قبيل أن يكتشف العلماء ما فى داخل نواة الخلية الحيوانية ، وهو الذى يسمونه اليوم بالكروموزومات أو الصبغيات .

أما اليوم وقد دخل هذا الكشف طور الحقيقة العلمية التى لامرد لها فقد قام هذا الكشف سداً محكماً فى وجه النظريات الثلاثة التى درسناها بل فى وجه أى نظرية أخرى تفرض تطور الانسان من كائن حيوانى أقل شأناً. ذلك لأن هذه الصبغيات ، تنطوى على شريط حشدت عليه رموز شتى تدل على الطبائع والصفات والأشكال الإنسانية التى ستفتح فى حياة هذا الكائن الانسانى .

(١) أنظر العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر للدكتور البوطى

والدلالة الهامة التي ينطوى عليها هذا الكشف العلمى هي أن سائر مايمتاز به الانسان أو الحيوان من المقومات الانسانية أو الحيوانية سواء فى مظهره أو طبائعه أو أخلاقه . تابعة من أصل تكوينها الذاتى وليست طارئة عليه بفعل التطور المزعوم الذى اعتمد على مجرد التشابه التدريجى فى الانواع .

وبعد فتلك هي أبرز النظريات التي تلتقى تحت مظلة دعوى أن الكائنات الحية بما فيها الانسان قد تطورت من بعضها ومن عجيب الامر حقا أنك فى الوقت الذى تجد علماء هذا الشأن يتسابقون إلى تحطيم هـذـه النظريات والتنبيه إلى دلائل الشغرات ومظاهر الخطأ فيها ، تجدهم يعودون من سياقتهم المتعب هذا ليقولوا: ولكن لابد أن التطور النوعى خلال القرون هو التفسير الوحيد لنشأة الانسان وبلوغه هذا الأوج من الملكات العجيبة التي تميز بها .

يعرفون ويتعبون فى تحطيم كل نظرية تنادى بالتطور ثم ينكفئون على أعقابهم ليقروا فى استكانة وذل أن القول بالتطور هو الملاذ الوحيد . وليس هذا الوصف يقتصر بالذات على العلماء الاجانب لكنه للأسف هناك ممن تأثروا بمناهج أولئك من المسلمين إسما فراحوا يسيرون خلف أولئك كظلال شاحبة فماهو تفسير هذا الموقف المتناقض العجيب(١)؟

تفسير ذلك أن أصحاب هذه النظريات وأتباعهم من الغربيين وأولسى النزعة المادية فى تفسير أصل الوجود ، ينطلقون إلى دراسة هذه الظاهرة من يقين سابق لم يضعوه قط موضع ريبة أو بحث ألا وهو اليقين بأن الطبيعة هي التي نسجت هذا الوجود الكونى .

حتى الذين يستريحون منهم إلى القول بوجود الله ، ضمن حدود اليقين بأن قوة خفية لابد أنها أبدعت هذا الكون ، لايرقى إيمانهم هذا إلى درجة من القوة بحيث يفرض عليهم إزاحة سلطان الطبيعة من طريق الخلق والابداع فهو إيمان تقليدى لأهمية له .

(١) انظر العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر تأليف الدكتور

فكان من جراء ذلك انهم وضعوا انفسهم لدى محاولة البحث عن تفسير علمى صحيح لنشأة الإنسان امام استقراء ناقص - اى انهم فرضوا عــــــدة احتمالات لنشأة الانسان وابتعدوا انفسهم عن واحد منها، ألا وهو احتمال أن يكون أمر نشأته بدء خالق مبدع صورته كما شاء ثم قال له: كن فكان كما أراد، فلقد شطبوا والغوا هذا الاحتمال سلفاً ثم راحوا - وقد حصروا انفسهم فى باقى الاحتمالات - يتلمسون الدليل العلمى فى كل منها الواحد اثر الأخر، ولكن الدليل العلمى شطب على احتمالاتهم كلها . فكان مقتضى هذا الانفلاق الذى حكموا على انفسهم به أن يختاروا التمسك بأحد تصوريين اثنين : إما أن يغمضوا فكرهم وبصائرهم ثم يقرروا أن الطبيعة تمخضت فجأة عن كائن حى يتمتع بأعلى درجات الفهم والإدراك ويطمح إلى السماء بقوته وسلطانه ويهيمن على خير الارض .
واما أن يريحوا انفسهم عناء البحث فى كيفية نشأته ويكتفوا بالقول اجميالا: أن تطور عن كائنات اقل شأنًا خلال أحقاب طويلة من الدهر وإن لم ندركيفية ذلك . لاريب أن المنطق النسبى (أى بالنسبة لمن حصر فكره ضمن احتمالات استقرائية ناقصة وأبى أن ينطلق من الصفر فى فرض كل الاحتمالات) يدفع هؤلاء الناس إلى الميل للقول بالرأى الثانى، فهو على علاته وغموض السبيل العلمى إليه أقرب إلى قبول الذهن من تصور أن الطبيعة أوجدت فجأة هذا الكائن العجيب على سبيل المصادفة وطبقا للعوامل العشوائية (١).

غير أن هذا المنطق النسبى جهل عظيم وانخداع خطير وسأجلــــى لك الرد على هذه النظرية من القرآن الكريم والسنة المطهرة فى الفصل القادم .

(١) انظر العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر للدكتور محمد سعيد رمضان البوطى ص ٣٤٣ - ٢٤٤ .

الفصل الحادى عشر

موقف الإسلام من الصِّراع

ويتضمن

الرد على النظريات الحديثة

الفصل الحادى عشر

موقف الاسلام من الصراع ويتضمن الرد على
النظريات الحديثه

تمهيد : ويشتمل هذا البحث على ثلاثة جوانب :-

- | | | |
|-----|------------------|------------------------------|
| أ - | الجانب العقائدى | وفيه الرد على قضية الإلحاد |
| ب - | الجانب الاجتماعى | وفيه توضيح قضية نظام الطبقات |
| ج - | الجانب الاقتصادى | وفيه توضيح قضية حق التملك |

تمهيد :

كل من يتمعن في الأسس التي احتوت عليها الشريعة الإسلامية يجد أنها تتضمن مجموعة من الأحكام الاعتقادية التي تخاطب في الإنسان عقله ووجدانه ، وترشده إلى معرفة الله والإيمان به وبوحدانيته إيماناً لا يقبل الشك ، كما أنها تتضمن مجموعة من أحكام العبادات التي تدعم صلة الإنسان بربه ، وتزكى نفسه ، وتسمو بروحه ، وإلى جانب ذلك نجد مجموعة أخرى من الأحكام والمبادئ التشريعية كالمبادئ والقيم الأخلاقية التي تنظم أمور المجتمع تنظيمًا عادلاً متوازناً، بما بيؤد إلى تخليصه من كل أسباب الصراع أو الشقاق أو الانحراف ، وهذا يعني أن الإسلام يعتبر نظاماً شاملاً لسلوك الإنسان في جميع شؤون الحياة ، وهذا الشمول لا يقبل الاستثناء أو التخصيص فهو شمول كامل بكل معاني الشمول وسأتناول هذا البحث من ثلاثة جوانب ، سالكا مسلك الاختصار تجنباً للاطالة

أولاً : الجانب العقائدي

وسأقتصر على قضية الإلحاد:

إن الإسلام فوق ما اشتمل عليه من مبادئ خلقية سامية هو في ذاته - كما أسلفت - دين العقل ، فما من أمر جاء به إلا وكان موافقاً للعقل يدركه ويصدقه ، ويذعن له مادام غير معتكر به - و غالب أو شهواته يسيطره ، فعقيدته هي الوحدانية لله تعالى في ذاته وفي صفاته ، وخلقها وابداعها وأمرها هو حكم العقل المستقيم . حام حولها الفلاسفة الأقدمون وليس في إدراك تلك الوحدانية صعوبات تعوق العقل أو تمنعه بل إنها واضحة غير معقدة ، يصل إليها العقل إذا خلا من الأوهام ولم ينزلق في الوثنية أو المادية .

والسورة الكريمة - التي نحن بصدد دراستها - بينت لنا نماذج من الأمم السابقة إلى عهد خاتم الأنبياء نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وكيف أن الله بعث إليها رسلاً مبشرين ومنذرين ودعاة إلى الخير والحق والسلام ، فكان منهم المعارضون المنكرون ومنهم المطيعون المصدقون فهذه سنة الله في خلقه . فعلى عهد كل رسول أرسل

برسالة الله ، كان المؤمن والكافر ، وكان المهتدى والضال ،
وكان المتقى والفاجر ، وكان المتواضع والمستكبر المتبع لغوايئة
الشیطان .

وفي العصر الحديث تختلف وتتعدد أساليب الكفر والضلال - وإن كانت
تختلف في مسمياتها لكنها تتفق جميعها في رفض كل معاني الحق والفضيلة
فتطالعا أشهر النظم وأوسعها أفقا وأبعدها عن منهل الحق وأشدّها
انغماسا في الكفر والالحاد والضلال ، ألا وهي النظرية الشيوعية - التي
اعتمدت في أساسها على إنكار وجود إله لهذا الكون . والقضاء على كل
الأديان الموجودة في الأرض باعتبارها في نظرهم خرافات يتوارثها الأبناء
عن الآباء ، كما اعتمدت النظرية الشيوعية على أن (المادة) هي التي
شكلت نفسها وماتزال تتطور حسب تفاعلات معينة . فالسماوات فسّی
اعتقادهم بما فيها من كواكب متحركة ونظامها الدقيق الذي
لا يتغير منذ مئات الملايين من السنين ، وتعاقب الليل والنهار ليست
في عقيدتهم من خلق الله ، والأرض وما عليها من إنسان وحيوان ونبات وجبال
وهضاب وسهول وبحار وأنهار كل هذا في نظرهم كان نتيجة لتفاعلات مادية

وسأكتفي بنقد الفلسفة الماركسية دون التطرق لنقد فلسفة
هيجل وذلك لأن ماركس (وكما أسلفت لك عند عرض النظريات) قد عمد إلى
نظرية هيجل عن الجد ل بين المادة والفكر المطلق فمسخها وجعلها
علاقة بين أجزاء المادة نفسها ، وحذف (الفكر المطلق) الذي جعله
هيجل مصدر الخلق والتطور . أي بعبارة أوضح أن كل ما في الكون
من موجودات هو من خلق الطبيعة وذلك نتيجة لتفاعلات أجزاء المادة
بعضها ببعض وليس هناك أي اعتبار لخالق الكون جل جلاله - تعالسى
الله عما يقولون علوا كبيرا .

لكن سؤالا واحدا يقوض هذه العقيدة الماركسية من أساسها ،
والسؤال يقول : لو قدر لواحد من هؤلاء ولنفرض أنه (ماركس) مثلا
كان يسير في أرض قاحلة جرداء مترامية الأطراف لاماء فيها ولاسكن
ولا زرع فيها ولاشجر . وأثناء سيره في هذه الأرض الفسيحة رأى من

بعد بناء شامخا فى وسط هذه الأرض التى لأثر للحياة فيها، وحينما بلغه
وجده مصنعا مجهزا بكل ماتطلبه التقنية الحديثة من أجهزة الكترونية
وآلات حاسبة دقيقة ، وتمديدات كهربائية ، وأبراج للمياه ، ومكائن
ومعدات صناعية تعمل فى نظام دقيق وقوة إنتاجيه مدروسة وفوق أدق
الدراسات الاقتصادية الحديثة ، فماذا ياترى يدور فى لحظة هذه المفاجأة
فى فكر ماركس ؟ هل يعتقد والحالة هذه ان هذا المصنع وجد نتيجة
للتفاعلات المادية ، وأنه لم يكن نتيجة عمل قام به مجموعة من
المهندسين والحدادين والكهربائيين والفنيين وغيرهم ؟ •

إذا كان يعتقد أن الطبيعه أوجدته فهو بين أمرين : إما
انه مختل الشعور تماما ، أو أنه معاند لا يعترف بالليل بأنه ليل
ولا بالنهار أنه نهار •

وإذا اعتقد أنه كان نتيجة جهود كبيرة بذلت من مهندسين
وعمال فنيين وأن عامل الصدفة لامجال له هنا ففى هذا هدم للعقيدة
الماركسية القائمة على الاعتقاد بأن التفاعلات المادية هى مصدر الخلق
والتطور وهنا نتساءل مع ماركس لماذا تعتقد أن هذا المصنع الشامخ
لم يكن من فعل الطبيعه وإنما هو من عمل الانسان ؟ ولاتعتقد أن هذا
الكون بكل ما فيه مما نعلمه وما لانعلمه من عمل خالق له وهو الله ؟

سؤال لانكاد نجد له جواباً عند الشيوعيين إلا المكابرة والعناد
والارتقاء فى أحضان الطبيعه وإسناد كل مقومات الحياة إليها •

وما عرفوا أن الطبيعه هى ذاتها مخلوقة عاجزة عن أن تخرج
قيد شعرة عما أراد الله لها أن تكون عليه ، وما عرفوا أن كل ذرة فى
هذا الوجود وماتحويه من أسرار إنما هى دليل على وجود خالق لها •

لقد تعرف ذلك الإعرابى عن إله هذا الكون من محسوسات وآيات
كونية حوله ، وهو أمى لا يعرف القراءة ولا الكتابة ، ولم يكن فيلسوفا
أو استاذا فى إحدى الجامعات ، فعندما سئل كيف عرفت الله ؟ قال ياسبحان
الله إن البعر ليبدل على البعير ، وإن اثرا لقدام ليبدل على المسيير ،

فسماء ذات أبراج وارض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

ويلخص هذا القول النظرية الثابتة لدى جميع الفلاسفة والتي تتضمن قانونا بديهيا من البديهيات وهو أنه (كل عمل منظم له هدف لا يبد له من موجد) فالساعة عمل منظم هدفها ضبط الوقت لايوجد مكابر يقول انها وجدت بالصدفة والطائرة عمل منظم هدفها اجتياز المسافات الطويلة والتي كان يقطعها المسافر في أسابيع بل في شهور ، فتجتازها الطائرة في سويعات ولربما دقائق ولايوجد مكابر يدعى وجودها بالصدفة . وهناك آلاف الأمثلة الحسية بين أيدينا تنطق ببداهة هذا القانون .

فإذا طبقنا هذا القانون على الكرة الأرضية وماحولها من أجرام المجموعة الفلكية لأدركنا أنه لا بد أن يكون لنشأة هذا الكون من خالق يقول عالم الطبيعة فرانك ألن^(١) : لو أزيحت الارض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية ، وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول ، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الارض ، ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال ، وتضاعف سرعتها المدارية حول الشمس ، ولالت الفصول إلى نصف طولها الحالي إذا كانت هناك فصول مطلقاً، ولصارت الحياة على سطح الارض غير ممكنة^(٢)

ويقول عالم الطبيعة فرانك ألن :

(ان ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على

(١) فرانك ألن : ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل : استاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا (١٩٠٤ - ١٩٤٤) اخصائى فى ابصار الالوان والبصريات الفسيولوجية وانتاج الهواء السائل وحائز على وسام تورى الذهبى للجمعية الملكيه بكندا .

(٢) انظر كتاب (الله يتجلى فى عصر العلم) تأليف نخبة من العلماء الامريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعات الأرض مبحث (نشأة العالم هل هو مصادفة أو قمد؟ كتبه فرانك ألن - عالم الطبيعة البيولوجية ص(١١-١٥) .

أساس المصادفة أو العشوائية فالارض ككرة معلقة فى الفضاء — تدور حول نفسها فيكون فى ذلك تتابع الليل والنهار ، وهى تسبح حول الشمس مرة كل عام فيكون فى ذلك تتابع الفصول .. ، ويحيط بالارض غلاف غازى يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير يزيد على (٥٠٠ ميل) ويبلغ هذا الغلاف الغازى من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة اليها .. ، والغلاف الجوى الذى يحيط بالارض يحفظ درجة حرارتها فى الحدود المناسبة للحياة ، ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات ، حيث يمكن أن يتكاثف مطرا يحيى الأرض بعد موتها ، والمطر مصدر الماء العذب ولولاه لاصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة (١) .

ويقول أيضا عالم الطبيعه فرانك ألن:

(أما الشمس المستعرة والنجوم المتوهجة ، والأرض الغنية بأنواع الحياة ، فكلها دليل واضح على أن اصل الكون أو اساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة ، فهو إذا حدث من الأحداث ، ومعنى ذلك انه لابد لاصل الكون من خالق أزلى ليس له بداية ، عليم محيط بكل شئ قوى ليس لقدرته حدود ، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه (٢) .

كل هذه التنظيمات الدقيقة المعجزة لها هدف وهدف هذا العمل المعجز هو وجود الكائن الانسانى عليه ، إذن لابد لهذا العمل من موجد حسب القانون السابق . ألا وهو رب العباد ، الذى استدل عليه الاعرابى بفطرته السليمة وتوصل إليه هذا العالم الأمريكى (فرانك ألن) وغيره بما اتاحت لهم من دراسات عميقة فى الطبيعه وماحتويه من أسرار .

(١) نفس المرجع السابق .

(٢) نفس المرجع السابق .

" القرآن الكريم استدل على وحدانية الله تعالى بالعلم والنظر "

لقد استدل القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى بالعلم والنظر ، لا بالعرض والوهم ، فترى الآيات الكثيرة التي تدعو إلى النظر في المخلوقات وما فيها من أسرار تدل على وجود الله تعالى ، وأنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الخالق لهذا الكون المدبر لشؤنه وله الحكمة البالغة في كل ما يجري على هذا الكون ، قال تعالى ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الأيت لعلم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهرها ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يَغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وُجنت من أعنب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ (١) . وقوله تعالى: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يَغشى الليل النهار يظلمه حشايا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العلمين﴾ (٢)

واقراً قوله تعالى ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أئله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل ظلالها أنهرهاً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أئله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطرب

(١) سورة الرعد الآية (٢-٣-٤) .

(٢) سورة الأعراف الآية (٥٤) .

إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أئله مع الله قليلا
ماتذكرون. أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا
بين يدي رحمته أئله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمن يبدؤا الخلق
ثم يعيده. ومن يرزقكم من السماء والأرض أئله مع الله قل هاتوا
برهنتكم إن كنتم صدقين ﴿١﴾ .

ألا ترى في ذلك الإستدلال على الوجدانية ما يدعو إلى توجيه الأبصار
والعقول وجميع الحواس إلى أسرار الكون وما فيه من بدائع المخلوقات؟
أليس هو بهذا التوجيه المنطقي ينير العقول ويدعو إلى النظر والتأمل
والتفكير؟ ولم يقتصر القرآن الكريم على توجيه العقول لمعرفة
الله تعالى والاستدلال على وحدانيته بل دعاهم إلى النظر المستمر في
الأشياء وفي الأحياء وإلى أصل الكون ودراسته .

اقرأ قوله تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى
السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت
فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴿٢﴾

ودعاهم أيضا إلى النظر والتفكير في حقيقة أنفسهم وكيف خلقهم
... ؟ قال تعالى ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴿٣﴾

وقوله تعالى ﴿ أليس الله أعلم بما كنا نفعل ﴿٤﴾ .
من مني يمئنا ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس
ذلك بقدر على أن يحيى الموتى ﴿٤﴾ .

لكن أنى لهم أن يصلوا إلى معرفة الله عز وجل وإدراك وحدانيته
وهم جاهدون بكل الوسائل المتاحة لهم للقضاء على الأديان - وبخاصة
الاسلام - هذا ولقد شنت الشيوعية حربا لاهوادة فيها ضد الاسلام في كل

(١) سورة النمل: آية (٦٠ - ٦٤) .

(٢) سورة الغاشية: آية (١٧ - ٢٢) .

(٣) سورة الذاريات: آية (٢١)

(٤) سورة القيامة: آية (٣٦ - ٤٠)

بلد تفتح أقدامها فيه ، ومارست كل الوسائل والضغوط لتحقيق أهدافها فأغلقت المساجد والكنائس وأعدمت العلماء المسلمين ورجال الدين من النصارى ، وقتلت الملايين من المسلمين وغيرهم وشتت الملايين من ديارهم واهلهم (١)

وترجع أسباب محاربة الشيوعيه للدين فى نظرى إلى سببين :-

أولهما : أن الشيوعيه نتاج يهودى فمعظم زعمائها وقادتها من اليهود حتى ماركس المؤسس الأول للمذهب الشيوعى أصله يهودى (٢) فمعارضه الشيوعيه للدين وحربها القاسية تعود إلى النفسية اليهودية التى تسعى جاهدة إلى تحقيق استعلاء شعب الله المختار واليهود قوم معروفون بالحق والكراهية للأديان الأخرى ومجبولون على الطمع والجشع وحسب المال والفساد ، فهم ينتهزون كل فرصة لافساد الناس وابعادهم عن الدين القويم ، حتى يتمكنوا من تنفيذ مخططاتهم الرامية إلى هدم عقائد الناس وافساد اخلاقهم وبالتالي يسوسون الناس كما يريدون والشيوعيه من أهم الاسلحة التى استخدمها اليهود فى مخططاتهم .

ثانيا : وجود نصرانية محرفة على يد اباطرة ادموا حق الآله ، ومسخوا الربوبية ، وخلطوا بين الخالق والمخلوق .

فبيعت الجنة صوكا ، وأعطيت القياصرة حق الآلهة بقوانين ممن الكنيسة وكانت الكنيسة تقف وراء ظلم هؤلاء القياصرة وتعطيهم حقوق الآلهة مما حدا بالشورى أن تكفر بهذا الدين وبكل دين ، وكان الأخرى بها أن تدرس بقية الأديان لأن تشملها بحكم واحد .

والشيوعيه بوصفها مذهباً أو عقيدة تحل محل الأديان القديمة وتحترقها وتناهضها بالدعوة إلى الإلحاد والمادية التى تنكر الله تعالى ورسله لذلك شنت حملة فكرية على الأديان ، فوصفوا الدين بأنه مخدر وأنه وهم ، وأن المتدين رجعى متخلف جاهل ، والملحد تقدمى متحرر

(١) انظر الاسلام فى وجه الزحف الأحمر ص. ١٠٧ وما بعدها .

(٢) انظر ترجمة ماركس (٥٠٨) من بحثنا هذا .

يقول ماركس : (الدين زفرة الكائن المثلث بالألم • وروح عالم لم تبسق
فيه روح. وفكر عالم لم يبق فيه فكر. إنه أفيون الشعوب إذن فنقد الدين
هو الخطوة الأولى لنقد هذا الوادى الغارق فى الدموع)^(١)

(١) نقض أوهام المادية الجدلية ص(٣٤) نقلًا عن الدفاتر الفلسفية ص (٥٣ - ٥٧) •

"قطرية التوحيد"

إنه مما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق الكون والانسان بحكمته ، والذى أودع فى فطرة الانسان التدين والتوجه إليه بالعبادة لم يترك خلقه يعتمدون على أنفسهم ، فكان من حكمته إرسال الرسل لتصحيح العبادة للناس ، وقد ذهب كثير من العلماء وبخاصة جمهور أهل السنة من المسلمين ، والعقلاء من علماء أوروبا - إلى أن عقيدة التوحيد فطرية فى النفوس وأن الانسان بفطرته عرف الإله الواحد وتعلق به وعبده . وأن الشرك والوثنية أمور عرضت للعقيدة وانحرافات طرأت عليها .

ومن جملة من يؤيد هذا الرأى من العلماء الغربيين (لانج) الذى أثبت عقيدة الإله الأكبر عند القبائل الهمجية فى استراليا وأفريقيا وأمريكا .

ومنهم (شريدر) الذى اثبتها عند الاجناس الآرية القديمة (وبروكلمان) الذى اثبتها عند الساميين قبل الإسلام (١)

(١) انظر بتصرف (بين الدين والعلم عبدالرزاق نوفل) ص (٢٦) مطابع الشعب .

(مقالات وآراء المجموعة من العلماء الأمريكيين

عن اعتقادهم بوجود الله)

يقول عالم الطبيعه (روبرت بيج) (١) (اذا اراد الانسان ان يتثبت من صحة المعلومات الغيبية التى يخبره بها شخص اخر ، فلا بد ان يشترك فى التجربة ويتهيأ لها حتى يستطيع أن يحكم عليها ، وكذلك الحال فيما يتعلق بالايمان بالله ، فلا بد أن يدرس الانسان أنواع العلاقات التى يمكن أن تكون بينه وبين خالقه ، وما ينبغى أن تكون هذه العلاقات، فـنـاذا درس الانسان الشروط التى يلزم توافرها لقيام هذه العلاقة ، واتجه بقلبه وكرهه نحو تحقيق هذه الشروط ، فانه سوف يشاهد هذا الحقيقة كاملة عندئذ يفهم الايمان قلبه ويؤثر فى حياته ، ولا يدع فى نفسه مجالاً للشك ، وإن ذلك يكون الله أقرب إليه من نفسه ويصير أيمانه بقينا) (٢) .

ويقول عالم الطبيعه والفيلسوف (ميريت ستانلى كونجند) (٣) . فى بحث بعنوان (درس من شجرة الورد) ان جميع مافى الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطرق الاستدلالية فاننا لانفعل أكثر من ملاحظة آثار أيدى الله وعظمته ، ذلك هو الله الذى لانستطيع أن نصل إليه بالوسائل المادية وحدها ، ولكننا نرى آياته فى أنفسنا وفى كـل ذرة من ذرات هذا الوجود ، وليست العلوم الادراسته خلق الله وآثار قدرته .

-
- (١) روبرت بيج : حاصل على دكتوراه فى العلوم من جامعة هاملين - كان أول من اكتشف الرادار فى العالم سنة ١٩٢٧ يعمل فى الوقت الحاضر مديرا مساعدا فى معامل بحوث البحرية الأمريكية سجل نحو سبعة وثلاثين بحثاً معظمها فى الرادار .
- (٢) انظر (الله يتجلى فى عصر) العلم ص ٢١ .
- (٣) دكتوراه من جامعة بورتون - استاذ سابق بكلية تزنى بفلوريدا ، عضو الجمعيه الامريكيه الطبيعيه ، اخصائى فى علم النفس وفلسفة العلوم واليحوث الانجيليه .
- (٤) (الله يتجلى فى عصر العلم) ص ٢٦ .

ويقول المستشار الهندسى كلوردم هاشواى (١) فى مقال لــــه بعنوان : (المبدع الأعظم) : ان هذا الكون ليس الاكتلة تخضع لنظام معين ، ولابدله اذن من سبب أول لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكيه الحراريه ولا بد أن يكون هذا المسبب الأول غير مادي فــــي طبيعته . انه هو الله اللطيف الخبير الذى لاتدركه الأبصار (٢)

(١) كلودم هاشواى مستشار هندسى . حاضل على درجة الماجستير من جامعة كلورادو مستشار هندسى بمعامل شركة جنرال الكتريك : مصمم العقول الالكترونى للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلى فيلد - اخصائى فى آلات الكهربائيه والطبيعة للقياس .
(٢) (الله يتجلى فى عصر العلم) ص ٩٤ - ٩٧ .

(تكريم الله لبنى ادم وإسجاد الملائكة له)

لا شك ان الانسان يمامنحه الله من عقل وتفكير افضل من كل المخلوقات فى هذه الحياة فالانسان هو سيد هذه الارض - فيستطيع بماوهيه الله من العقل والتفكير ان يفجر ينابيعها ويستنبت ارضها ، ويستخرج منها كل خيراتها ..

ونظرة الاسلام الى هذا الانسان نظرة فيها الكثير من معانى التقدير والتكريم والاحترام لسبيين .

اولهما : - ان الانسان خليفة الله فى أرضه قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّىْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً قَالُوْا اَتَجْعَلُ فِيْهَا مَن يَّفْسِدُ فِيْهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ اِنِّىْۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ^(١)﴾
وقد اوجد الله هذه البسيطة وماعليها لعبادته جل جلاله كما قال ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْاِنْسَ اِلَّا لِيَعْبُدُوْنَ ^(٢)﴾

ثانيا : تكريم الله له بأمور لم تحصل لغيره من المخلوقات منها امره تعالى للملائكة أن يسجدوا له قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّاۤ اِبْلٰسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّٰجِدِيْنَ ^(٣)﴾

ومنها قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيۤ اٰدَمَ وَحَمَلْنٰهُمْ فِى الْبُرُوْجِ وَنَزَقْنٰهُمْ مِّنَ الطِّيْبَاتِ وَفَضَلْنٰهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيْلًا ^(٤)﴾ .

ولهذا التكريم مظاهر اذكرها اكمالا للفائدة .

اولا : تحرير عقله من عبادة المخلوق إلى عبادة الله ، كما قال جل شأنه

(١) البقرة آية (٣٠) .

(٢) الذاريات آية (٥٦) .

(٣) الأعراف آية (١١) .

(٤) الاسراء آية (٧٠) .

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوا لدين إحساناً وبذى القربى﴾
واليتامى والمسكين والجار ذى القربى﴾ الآية (١)

ثانياً : ومن مظاهر التكريم لهذا الانسان الغاء كل الفوارق بين
الناس فلا تكبير ولا استعلاء ولا تعاضم ولا فرق بين ابيض واسود ولا فضل لعربى
على عجمى ولا لغنى على فقير ولا لشريف على وضع قال تعالى ﴿إن هذه أمتكم
أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ (٢)

ثالثاً : تكريمه جل وعلا لبني ادم بالعلم دون غيره من المخلوقات.....
قال تعالى ﴿وعلم، ادم، الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة﴾ إلى قوله
تعالى ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ (٣)

رابعاً : تسخير الله له هذا الكون بما عليه من جبال وبحار وأودية وقفار
وفضاء وأفلاك . ولولا هذا التسخير لما استطاع أن يستخرج المعادن من
الصخور واللآلئ من قاع البحار .

وحين ننظر في تعاليم الإسلام نجدها تطبق مبدأ المساواة موضع
التنفيذ فأمام القضاء يقف الحق وحده بجانب صاحب الحق . وفى مجال
التوحيد عدم الخضوع لغير الله فى أمر الناس ان يتجهوا اليه وحده
﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون .
الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به
من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ (٤)

(١) النساء آية (٣٦)

(٢) الأنبياء آية (٩٢)

(٣) البقرة آية (٣١-٣٢-٣٣)

(٤) البقرة آية (٢١-٢٢)

(مدى الفرق الكبير الشائع الذى عليه الاسلام فى أصل خلق الانسان وما عليه)

نظرية التطور) .

مرعليك فى البحث السابق (تكريم الله لبنى ادم واسجاد الملأ شكفة له) ونظرة الإسلام إلى الإنسان ومدى الحفاوة والتقدير والتكريم الذى حظى به الانسان فى ظل الاسلام .

واضيف الى ذلك قوله تعالى * واذا قال ربك للملائكة ائنى خلق بشرا من صلصل من حماء مسنون . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له سجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع السجدين * (١)

واقر اقوله تعالى * لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم * (٢)

واقراً قوله تعالى * يأنها الإنسان ماغرك بريك الكريم . الذى خلقك فسو لك فعدلك فى أى صورة ماشاء * ركبك * . الانتظار (٦-٨)

فلقد تكاثر الانسان من نسل أبية آدم وكان الخالق جل وعلا يحيطه بكل ما يضمن هدايته ورشده فلم يتركه هملا بل كان يبعث إليه بين الحين والآخر رسلا من بنى جنسه يذكرونه بالسبب الاول لايجاده على هذا الكون وانه ما خلق الا ليعبد الله وحده لاشريك له كما قال تعالى * وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم رزق وما أريد أن يطعمون * (٣) وقد تكفل الله له بالرزق كما اشار الى ذلك قوله * وفى السماء رزقكم وما توعدون * (٤) وقوله * إن الله هو الزراق ذو القوة المتين * (٥)

بل تكفل الله بحفظه . . . كما قال تعالى * له معقبات من بين يديه ومن خلفه

يحفظونه من أمر الله * (٦) الآية .

(١) الحجر آية (٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - ٣١) .

(٢) التين آية (٤) .

(٣) الذاريات آية (٥٦ - ٥٧) .

(٤) الذاريات آية (٢٢) .

(٥) الذاريات آية (٥٨) .

(٦) الرعد آية (١١) .

وانظر الى رأى "داروين" صاحب نظرية التطور فى اصل الانسان وكيف وصل الى ماوصل اليه اليوم !

يقول داروين : " لقد سارت الحياة فى سلسلة طويلة من الرقى التدريجى بدأت بالكائن وحيد الخلية وانتهت بالانسان على النحو التالى (باختصار كثير من التفصيلات) • (كائن وحيد الخلية (كالاميبا) - فطريات متعددة الخلايا - نبات - نبات يشبه الحيوان - حيوان يشبه النبات - حيوانات لافقاريه - حيوانات فقاريه دنيا (كالاسماك والطيور) - حيوانات فقارية أرقى (كالثدييات الدنيا) • ، الثدييات العليا - القردة العليا والغوريلا الأورانج أو تانج . انسان الغاب والشمبانزى والجيبون) الحلقة المفقودة (القرد الشبيه بالإنسان أو الإنسان الشبيه بالقردة العليا) - الانسان •

وقال داروين •• وهو يشرح نظريته (إن الطبيعة تخلق كل شىء ولاحد لقدرتها على الخلق) (١) . وأوجز الرد على نظرية داروين وماسبقها وما لحقها من نظريات التطور بمايلى :

أولا : إن نظريات التطور تتعارض مع ماتوصل إليه العلم الحديث (٢) .
ثانيا : إن نظريات التطور تتنافى مع خبر السماء وما جاء به السنة المطهرة • وقد أشرت إلى الآيات الكريمة التى مفادها ان الله كرم بنى ادم وخلقهم فى أحسن تقويم فى صورة كريمة وهى تختلف تماما عن ما عليه الصور الحيوانية ، قال تعالى ﴿الذئُّ أَحْسَنُ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٣) •

(١) مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب ص ٩٤ •

(٢) وقد سبق توضيح ذلك • انظر من بحثنا هذا •

(٣) سورة السجدة اية (٧ - ٨ - ٩) •

(ب) (الجانب الاجتماعي)

(المبادئ التي تقوم عليها العلاقات بين افراد المجتمع)

لقد اهتم الاسلام بالفرد فعمل على تربية نفسه وروحه تربية مثالية ليكون اهلا لوصفه بالانسانية ، واهتم الاسلام بالاسرة ايضا باعتبارها اللبنة الاولى فى المجتمع ، فحاطها بكل الحقوق ووفر لها أجمل مناخ ل جعلها تعيش فى أرغد عيش واهنا بال . ذلك لأنها نواة المجتمع السليم السعيد .

ذلك المجتمع الذى يقوم على اسس متينة من الرحمة والتعاون والمحبة وعلى قاعدة قوية فى أداء الحقوق والواجبات والتوازن بين حقوق الفرد والجماعة فى اطار مارسمته العقيدة الاسلامية الراسخة (١) .

وقبل أن أبين المبادئ التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع الإسلامى فلعله من المفيد أن أذكر القارىء الكريم أن الاجتماع الإنسانى ضرورى للفرد وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان . وطالما أن المجتمع ضرورى للإنسان ، فلا بد أن يكون لهذا المجتمع نظام يتضمن الحدود التي يجب أن يقف عندها كل افراد المجتمع ، والضوابط العامة التي يجب أن يلتزموا بها فى سلوكهم حتى يسلم المجتمع من الصراعات التي تؤدى به إلى تدميره . وحتى يستطيعوا العيش فى ظلاله فى أمان واستقرار ، وقبل أن أشرع فى بيان أهم المبادئ التي تقوم عليها العلاقات بين أفراد المجتمع لابد أن أشير إلى ركيزتين أساسيتين يقوم عليها المجتمع المسلم :-

(١) الأمثلة كثيرة واستعراض بعضها دون البعض لا يؤدى الغرض فالأخلاق وما ينطوى تحتها من مثل، وتشريعات حكيمة فيها سعادة المسلم من صلاة وصوم وزكاة وجح، والعقوبات الزاجرة التي فيها حفاظ على قيم المجتمع واهتمام الإسلام بالأسرة وتنظيمها وحقوق الزوجية وما يضمن استمرار الحياة العائلية والعواصف التي يمكن أن تهز الحياة الزوجية .

الركيزة الاولى :

هى وحدة الأصل : حيث ينتسب البشر جميعا إلى أب واحد وام واحد ه
ولايمكن حجب هذه الحقيقة باختلاف الناس بالأنساب والاجناس (كلكم لآدم وآدم
من تراب ٠٠٠) . الحديث .

قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ
شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ ۗ ﴾ (١) . هكذا يقرر
الاسلام وحدة الأصل لكل الناس بحيث يمكن عن طريق وحدة العقيدة توجيه
طاقاتهم لما يحقق النفع والخير لهم فى الحياة الدنيا والاخرة .

الركيزة الثانية :

وحدة العقيدة : تلك الملة التى تجعل البشر جميعا عبادا لله
عز وجل قال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ فَالِهُمَّ إِلَهُ وَاحِدٌ
فَلَهُ أُسْلِمُوا ﴾ (٣) .

فهذه الايات تقرر وحدة الاله خالق السماوات والارض وما بينهما
وإليه وحده يرد الأمر .

ومن هاتين الركيزتين تنبثق المبادئ الاسلامية والغايات النبيلة
والضوابط الحكيمة التى تصيغ المجتمع المسلم واكتفى هنا بالإشارة
إلى جانبين يتميز بها المجتمع المسلم وهما - الاخاء ، والتكافل .

اولا : رابطة الاخاء

تعتبر رابطة الاخاء بين المسلمين من المبادئ الاساسية التى
يقوم عليها المجتمع المسلم ، فقد حض عليها الشارع الحكيم ودعا
إليها - يقول جل شأنه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٤) وفى الحديث (المسلم

(١) الحجرات آية (١٣)

(٢) الاخلاص آية (١) ،

(٣) الحج آية (٣٤) .

(٤) الحجرات آية (١٠) .

أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره (١). وتنبت من رابطة الأخاء
مظاهر، منها التودد، والتراحم - والتعاطف بين أفراد المجتمع وقـــد
شبه النبي صلى الله عليه وسلم تلك المظاهر بقوله (مثل المؤمنين
في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى
له سائر الجسد بالسهر والحمى) (٢).

ورابطة الأخاء تكاد تنعدم في المجتمعات المادية التي لأهم لها
إلا جمع المادة حيث تنشور الصراعات بين الطبقات، فالغنى لأهم لله
إلا في السبل التي يعنى بها ثروته، والفقير لا يكاد يجد لقمة العيش
والمجتمع بأكمله في غفلة عنه، والأكثر من ذلك أن رابطة التوادد
والتراحم لم تنزع فقط من بين أفراد المجتمع بل من بين الأسرة نفسها إلا في
أو الفتاه إذا ما بلغت الثامنة عشرة أو (أقل من ذلك) فلما كان لها
في منزل اسرتها. والجد أو الجدة متى تقدما في السن وأصبح لأمورد لهما
فان مكانهما الطبيعي هو الملجأ - الذي يجب أن يكون له مقر في كل مدينة
وقرية في أوروبا.

حدثني صديق لي طبيب مسلم وهو يعمل في أحد مستشفيات المانيا
أنه جاءته سيدة طاعة في السن تشكو من كسر في حوضها مما أعجزها
عن المشى وتم تقديم العلاج لها حتى تماثلت للشفاء واصبحت تسير على
قدميها وقرر الطبيب المشرف على علاجها أن بإمكانها أن تذهب إلى
منزلها فاتصلت السيدة (العجوز) بابنتها التي كانت نادرا ما تزورها
تخبرها بالذي قرره الطبيب وأن عليها أن تأتي لكي تاخذها إلى منزلها
فجاءت الابنة لأخذ أمها وهي تزف إليها هذا الخبر - يا أمي لقد هيا لنا
لك غرفة في الملجأ لكي تقيمي فيها - وإذا بالعجوز تسقط من ألم هذا
الخبر وتودع الحياة مفارقة لها دون رجعة.

ثانيا : التكافل الاجتماعي :

من المبادئ الأساسية التي يقوم عليها المجتمع المسلم مبدأ
التكافل والمقصود بالتكافل هو التعاون والتضامن بحيث لا تطغى

(١) جزء من حديث طويل في صحيح مسلم (٤: ١٩٨٦) بترتيب محمد فؤاد عبد الباقي.
(٢) صحيح مسلم بترتيب وتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (٤/ ١٩٩٩ - ٢٠٠٠).

مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة ، ولاتضيع مصلحة الفرد فى دوامة المجتمع بل يبقى للفرد كيانه ومميزاته ، ويكون للجماعة هيمنتها وسيطرتها فاعيش الفرد فى كفالة المجتمع ، كما تكون الجماعة متلاقية فى مصالح الأحاد ودفع الضرر عنهم ، ومن ثم فان المجتمع الإسلامى لايعترف بالنظام الطبقي ولايعترف بصراع الطبقات وتناحرها .

بينما يقيم الماديون تفسيرهم للحياة البشرية على أساس أن الصراع الطبقي هو قوام هذه الحياة منذ خرج الناس من الشيوعية الأولى حتى يعودوا إلى الشيوعية الثانية^(١) ، وان هذا الصراع الطبقي متعلق بالملكية الفردية^(٢) . وبمجرد أن تزول الملكية الفردية يرجع الناس إلى الحياة الملائكية التى كانوا عليها أيام الشيوعية الأولى وتستريح البشرية من الصراع^(٣) .

[صحيح مايقولون .. ولكنها صحة محددة بنطاق معين . وليست صحة مطلقة صحيح بالنسبة للجاهليات .. ففى الجاهليات يصدق القول بأن الذى يملك هو الذى يحكم ، وحين يحكم يشرع . لصالح نفسه وصالح طبقته على حساب بقية الطبقات ، ومن ثم ينشأ صراع الطبقات ، ويدور صراع حول متاع الأرض . ولانه فى غياب القيم العليا لايبقى للناس إلمتاع الأرض يتصارعون حوله ويتقاتلون عليه .

(١) الشيوعيه الأولى - يزعم التفسير المادى للتاريخ أن الشيوعية كانت هى الطور الأول للبشرية ، وأنها كانت شيوعية شاملة وتشمل كل نواحى الحياة البشرية بما فى ذلك الجنس فكانت القبائل البشرية الأولى تعيش فى حالة من المشاعية الجنسية الكاملة . مع مشاعية الأرض ومشاعية الطعام والشراب والسلاح أمامرادهم من الشيوعية الثانية فهى الفتره الزمنية التى أعقبت الطور الأول للبشرية حيث أن البشرية تعلمت الزراعة ، حيث أدى ذلك إلى انتهاء الفترة للشيوعية الأولى ودخول البشرية فى مرحلتى الرق والاقطاع . انظر مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٣٥ ، ٣٦٢ للشيخ محمد قطب

(٢) الملكية الفردية - سأتناول الملكية الفردية فى البحث القادم عند حديثى

الجانب الاقتصادى انظر ص ٥٥٤ من بحثنا هذا .

(٣) انظر مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٧١ .

اما فى النظام الربانى فليست هناك بادئ ذى بدء طبقات ، ومن ثم لا يوجد صراع طبقى. حقيقة انه توجد ملكية فردية ويوجد فى المجتمع أغنياء وفقراء .. لكن لا الأغنياء طبقة ولا الفقراء طبقة ولا هؤلاء ولا هؤلاء يحكمون !

فالثروة فى المجتمع الإسلامى دائمة التنقل من جيل إلى جيل بحيث لا تكون (طبقة) دائمة من أفراد معينين أو أسر معينة تتوارث وضعاً اجتماعياً معيناً . ، فأى فقير يمكن أن يتحول إلى غنى ، وأى غنى يمكن أن يتحول إلى فقير ، فلا يحجزه شيء عن أن يكون هذا أو ذاك ، بحسب تصرفه الشخصى من ناحية ، وبسبب حركة الموارد الدائمة التى تفتت الثروة من مكان تجمعها إلى مكان آخر ، وحيث يشتد الظلم فيثور المسلمون. ولقد حدث هذا أكثر من مرة فى التاريخ الإسلامى فهو ليس صراعاً (طبقياً) بالمعنى الذى يشير إليه التفسير المادى للتاريخ .

لانه لا توجد طبقة تريد الإطاحة بطبقة أخرى لتأخذ مكانها فى السلطة التشريعية إنما يطالب الثائرون بالعدل . أى بتطبيق شريعة الله فى المواضع التى خولفت فيها شريعة الله .

وما أبعد هذا عن الصراع الطبقي كما يفهمه التفسير المادى للتاريخ إنما يوجد الصراع فى النظام الربانى على أسس مختلفة تماماً عن الصراع الطبقي الذى هو محور الحياة فى الجاهلية .

ما هو مفهوم الصراع فى النظام الربانى ؟

الصراع فى المفهوم الربانى صراع لعلاقة له على الاطلاق بالطبقات ولا بالملكية الفردية إنما هو صراع الحق والباطل الذى يقول الله فيه . ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّغُوتِ . فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝ (١) ﴾ (٢)

(١) النساء الآية (٧٦) .

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة للشيخ محمد قطب (ص ٣٧٢ - ٣٧٤) .

(مفهوم الصراع عند اصحاب النظريات الحديثة والفرق الكبيريينه وبيــــــــــــن

النظام الربانى)

يترجم هذا المفهوم أحد الفلاسفة المحدثين (هيجل) .

لقد جعل النصر يبرر الحروب دون نظر إلى قيم إنسانية يراد نشرها أو منع ظلم لحق بمظلوم بل يرى أن الخيرية تكمن فى أن يغلب الإنسان غيره . فالغالب دائما خير من المغلوب وهو بذلك لم ينظر إلى ماعند المغلوب من خير أوحق ولا إلى ماعند الغالب من شر ولم يكتف بذلك بل جعل حكم الله وقضاءه هو ماقاله . . أى خيرية الغالب على المغلوب أياً كان نعتة (إن التاريخ يظهرنا على أنه يوجد فى كل عصر من عصوره دولة مهياة لان تتزعم سائر الدول وتفرض مابلغت إليه من تقدم فى الحضارة، هذه الدولة واجيها الفتح ، وانتصارها يبرر حروبها ، الدوله الغالبــــــــــــة خيرمن المغلوبــــــــــــة بدليل غلبتها نفسها التى يجب أن تعتبر حكم الله) .

ويرى هجيل أن الجرمانية خيرممثل للحضارة المسيحية (١) ، و هذا يذكرنا بماذا اقتتله البشرية على يد النازية من دمار وازهاق لالارواح ونكبات فادحة ، وقد خاب ظنه حين ذهب إلى أن الحضارة المسيحية تعدد الجرمانية خير ممثل لها، وبواسطتها سيتحقق النصرالنهائى فى التاريخ ، فلم تنتصر الألمانية على العالم بل انهزمت شرهزيمة لكن ماهى نظرة الإسلام إلى الحروب ؟ هل هى موافقة لنظرة هيجل حيث يرى أن القوة والنصر مبررودافع لاحداث الحروب ، وإنزال الويلات ومايصاحبها من القتل والسلب والنهب والدمار ؟ .

كلا إن نظرة الاسلام وتشريعاته الحكيمة تختلف اختلافا كليا عن نظرة هيجل واضرابه ، إن القتل والحروب فى الإسلام لم تكن قط لإفــــــــــــى سبيل الله لاعلاء راية الاسلام ، ولنشر دعوته والدفاع عن حربه ، والمحافظة على المسلمين عامة وبلادهم وممتلكاتهم من الطامعين فى اغتصاب خيرات بلادهم ، أو انتهاك مقدساتهم وأعراضهم ، فهو دفاع عن العقيدة والشرف

(١)بتصرف واختصار من (تاريخ الفلسفة الحديثة) ليوسف كرم ص ٢٧٢ .

واحقاق للحق وابطال للباطل ، للمجرد كون المسلمين سينتصرون علي من يقاتلونهم، أو أنهم اقوياء على جاورهم ، والاسلام لم يفرض على الناس أن يعتنقوه بالقوه كما قال تعالى ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (١) الآية . وإنما يكتفى من العالم باتاحة الفرصة له ليختار من يختاره عن بينة، والايمنع دعائه من نشره بين العالمين وتعليمه لمن يشاء ، وقد بين صلى الله عليه وسلم دستور القتال في الإسلام وهو بحق يعتبر منها سديداً على ممر الأزمنة والدهور .

اخرج مسلم في صحيحه عن سليمان بن بريدة عن ابيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال : (اغزوا في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا (٢) ولا تغدروا ولا تمثلوا (٣) ولا تقتلوا وليداً وإذا القيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث (أؤخلل) فأيتها من اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين واخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم مال المهاجرين وعليهم ماعلى المهاجرين فان ابوا ان يتحولوا منها فأخبرهم انهم يكونوا كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الذى يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم فى الغنيمه والفـــــــء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فان هم ابوا فسلمهم الجزية ، فإن اجابوك فاقبل وكف عنهم فان هم ابوا فاستعن بالله وقاتلهم .. الحديث (٤) .

ولقد حرم الاسلام محاربة غير المحاربين ، وهو لايجز قتل المرأة والصبي والشيخ والعجزة او من انقطعوا للعبادة . فعن انس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (انطلقوا بسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ولا تقتلوا شيخا فانيا، ولا طفلا صغيرا ، ولا امرأة، تغلوا وضموا غنائمكم واصلحوا إن الله يحب المحسنين (٥) .

والحرب والجهاد فى الاسلام لايمتد إلى القتل الحيوانى ، أو تخريب البيوت ، أو قطع الاشجار مالم تكن هذه الوسائل لكسب المعركة كالحوانات التى تساعد على القتال ، أو الاشجار والبيوت التى تتخذ حصونا ومعاقل .

(١) سورة البقرة الآية (٢٥٦) . (٢) لاتغلو : أى لاتخونوا فى الغنيمية .

(٣) لاتمثلوا : لاتشوهوا القتلى بقطع الانوف والاذان ونحوهما .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٣٧/١٣ - ٣٨ - ٣٩) .

(٥) رواه ابو داود بسند صالح (٣٦/٢) .

(ج) الجانب الاقتصادي (الملكية الفردية وحقوق التملك)

المبادئ التي يقوم عليها النظام الاقتصادي :

قبل أن اشرع ببيان المبادئ الاقتصادية في النظام الإسلامي لابد أن أشير إلى أن الفرد الذي يعتبر قوام المجتمع الإسلامي مكون من جسم ونفس وقد أودع فيه خالقه جلوعا غرائز طبيعية وخصه بالعقل الذي يتميز به عن الحيوان ، والاسلام كما سبق أن ذكرت يعتبر شاملا لسلوك الانسان في جميع شؤون الحياة ، فلقد وازن بين القيم الروحية التي يجب على الانسان أن يتحلى بها ، وبين غرائزه الطبيعية الأملية ، فلم يأمر بطغيان النواحي الروحية وارهاق الجسم وحرمانه من طيبات الحياة على حساب الروح والعقل ، كما لم يأمر بكبت الغرائز وعدم اروائها بالطريق الحلال الذي لا يؤذي فيه ولا تفریط ، بل نراه يوازن بين المطالب الروحية ومطالب النزعات الانسانية من شهوات الحياة ، فيبيح التمتع بالطيبات مما تشتهيها النفوس والتزين من غير اسراف يخرج عن الاعتدال المشروع يقول تعالى في السورة التي نحن بصدد دراستها سورة الاعراف يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ ؕ اٰدَمُ خَدَا زَيْنَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۗ اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّٰهِ الَّتِي اُخْرِجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ كَذٰلِكَ نَفَصَّلُ الْاٰيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ (١) - وقال تعالى يٰٓاَيُّهَا اٰدَمُ قَدْ اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُّوَارِي سَوْءَاَتِكُمْ وَيُرِيهَا ۗ وَ (٢) الآية واكثر من ذلك اننا نرى الاسلام يمتن على الانسان بما يتمتع به من أسباب النعم قال تعالى وَإِذْ عَلَّمْنَا الْاِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم خلقها لكم فيها دفعةً ومنفعةً ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بليغيه ، الابشقاؤا النفس إن ربكم لرفوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينةً ويخلق ما لا تعلمون (٣) .

(١) الاعراف آية (٣١ - ٢٢) .

(٢) الاعراف آية (٢٦) .

(٣) النحل آية (٦ - ٨) .

والمتمامل في المنهج الذي سلكه الإسلام في صياغة الجانب الإقتصادي داخل المجتمع الإسلامي يجده بلاشك انقلاباً في المفاهيم والأوضاع الاقتصادية التي كانت سائدة في ما قبل .

لقد حث الإسلام على العمل باعتبارها أحد الوسائل لتملك المال واجاز حق التملك جاعلاً الملكية وظيفة في المجتمع ، ثم عمل في ذات الوقت على تحقيق التوازن المالي بين أفراد المجتمع حتى لا تتكدس الثروات في يد فئة دون أخرى ، وفي كل ذلك كانت العدالة سمة بارزة فلم يطغ حق الفرد على الجماعة ، ولم يسطغ حق الجماعة على الفرد .

وسأكتفى بذكر ثلاثة مبادئ تعتبر في نظري هي أهم المبادئ التي يقوم عليها النظام الإقتصادي .

- (١) أولاً : حرية العمل .
- (٢) ثانياً : حق التملك .
- (٣) ثالثاً : التوازن المالي بين أفراد المجتمع .

اولا : حرية العمل :

الإسلام حث على العمل بكافة أنواعه وصوره وأشكاله ، حيث أنه سبب من أسباب الحصول على الأموال وتملكها ، فالزراعة والتجارة والصناعة والصيد كلها مجالات للعمل حث عليها الإسلام . قال تعالى وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور * (١) وقوله تعالى * فإذا قضيت الصلوة فانفضت عن الأرض

وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * (٢) .

والأنبياء وهم أصحاب السلوك الأمثل ، وقد كلفوا بتبليغ شرع الله للناس ، ومع ذلك كانوا يعملون ويأكلون من كسب أيديهم . قال صلى الله عليه وآله وسلم : (ما أكل أحد طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده

-
- (١) سورة الملك آية (١٥) .
 - (٢) الجمعة آية (١٠) .

وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده (١)

وقوله صلى الله عليه وسلم (لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه خير له أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه (٢) .

فالاسلام ليس مجرد اقامة شعائر، وانما هو عبادة وعمل فى نفس الوقت
الاسلام لم يميز بين عمل وآخر لان قيمة الانسان فى نظر الإسلام بمقدار ما يتقن عمله وفى الحديث (إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه (٣) .

وحرية العمل فى النظام الاقتصادى مكفولة ، فكل فرد له الحق فى اختيار العمل المناسب له ، وله أن يباشر كافة أوجه النشاط الاقتصادى دون اكراه أو إجبار أو منع بشرط أن يكون هذا النشاط ماذوناً به شرعاً فلا يجوز للمسلم أن يتخذ الربا عملاً لتنمية أمواله ، ولا أن يتجرى الخمر ولا فى الخنزير ولا الميسر وسائر ما حرمه الله تعالى وغير ذلك مما هو مبسوط فى كتب الفقه وكتب السنة من البيوع المحرمة، وسلوك الوسائل غير الشرعية للاستزاق (كالاحتكار)، وفى القرآن الكريم آيات كثيرة حددت ذلك وبينته قال تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَأْكُلِ الْغَيْرِ اللَّهُبِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ وَمَا يَجْحَدُ عَلَى النَّصَبِ (٤) ﴾ فهذه الأشياء حرم أكلها وحرم الاتجار فيها . وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلْالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٥) .

فقوله تعالى ﴿ مِمَّا فِى الْأَرْضِ ﴾ صريح فى أن بعض ما فيها ماذون وأن بعضه غير مآذون فيه ، وأن المآذون فيه هو الحلال الطيب الذى أذن الله فيه ورسوله وإذا وازنت بين العمل فى النظام الإسلامى سترى أن العمل عند من لم يتخذ النظام الإسلامى منهاجاً له فى بعض المجتمعات مباح فى كل شأن ولو ترتب عليه إضرار الفرد والجماعة (٦) وأن المحرمات قنن جوازها بقوانين تجعلها كالحلال سوا

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب البيوع ٥ : ٢٠٩ .

(٢) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى كتاب الزكاة (٤ : ٧٨) .

(٣) رواه البيهقى فى شعب الايمان .

(٤) المائدة (٣) .

(٥) البقرة ١٦٨ .

(٦) كالاتجار بالبيعاء وعمل مراكز رسمية تشرف عليها الدولة كما هو الحال فى معظم الدول الغربية .

بسوا٦ بل لا يرى من اجاز ذلك فرقا بين ماهو حلال وماهو حرام - وفي
مجتمعات أخرى كالمجتمعات الإشتراكية يفرض على الناس الالتزام بعمل معين
لا يتجاوزنه إلى غيره ، فإن هم تجاوزوه كانوا تحت طائلة العقاب حتى
ولو كان هذا العمل في نفسه طيبا كريما وأراد به الفرد تنمية نفسه وزيادة
دخله ونفع مجتمعه وكلا الفريقين يشتركان في تجويز العمل في المحرمات
ولا يرون في ذلك بأسا .

"ثانيا - حق التملك "

مفهوم الملكية :

الملكية : تفيد معنى الاحتواء والقدرة على الاستبداد بالشئ (١)
ويراد بها حق الفرد فى احتواء شئ ما ، وتمكينه من الانتفاع به بكل
الطرق الجائزة شرعا بحيث لايجوز للغير الانتفاع بهذا الشئ ، الا بموافقة
المالك الاصلى. (٢)

ولقد اقر الاسلام حق الملكية للفرد والجماعة على السواء ، وتقريره
حق الفرد فى التملك اظهر من تقريره لحق الجماعة باعتبار أن ملك
كل فرد من أفراد الأمة الاسلامية هو فى النهاية كأنه ملك لكل الأمة
وقد قرر الله هذا الحق لما أودعه فى فطرة الانسان من غريزة التملك
والسعى إلى ذلك بفطرته ، ومقاومة كل من ومايحول بينه وبين ذاك وانك
لترى ذلك واضحا فى سلوك الاطفال أول مايدركهم شئ من الوعى فتسرى
الطفل يمسك بالأشياء النافعة والضارة وان قاومته احتج على ذلك
بشدة صراخه ، وكثرة عويله ، وهذا منه توضيح لماجعله الله فى فطرته
وتكوينه ، لانه يفعل ذلك قبل أن يدرك أن البيئة التى تحيط به تجيزه
أو تمنعه ، تحله أو تحرمه وهكذا تنموهذه الغريزة ، إلا أن الإسلام
وإن أباح التملك فإنه قننه بقوانين حتى لا يطفى الفرد على المجتمع
أو العكس ، فهو لايعترف لك بملك شئ إلا إذ وصلك عن طريق مشروع . كالذى
تكتسبه بجهودك وعملك ، أو بما ورثته عن مورثيك الشرعيين إلى غير
ذلك من أسباب التملك المختلفة فى الإسلام كالهبة والهدية والوقف ونحو
ذلك .

وقد صان الإسلام الملكية الفردية والجماعية أتم صيانه ، فحرم
التعدى على أموال الفرد والجماعة بأى شكل من أشكال التعدى قال تعالى

(١) انظر ترتيب القاموس المحيط ٢٥١/٤.

(٢) أثر تطبيق النظام الاقتصادى الاسلامى فى المجتمع . (القسم الثانى) -
اعداد / محمد فاروق النبهان الأستاذ بكلية الشريعة والحقوق بالكويت
ص ٢٩٧ .

﴿ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها﴾ إلى الحكام لتأكلوا فريقتا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴿(١)﴾ . وقال تعالى ﴿يأبىها الذين ءامنوا لتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجرةً عن تراضٍ منكم ولاتقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا﴾ (٢) . والمراد بالباطل في الآيه الأخيرة المكاسب غير الشرعية كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر أصناف الحيل ، وقد أحل الله التجارة وأذن للبائع أن يبيع بأكثر مما اشترى به لما في ذلك من منافع عظيمة للبائع والمشتري معا ليس هنا مكان سردها .

وإذا عرفت أن المحرمات التي لها في الإسلام عقوبات دنيوية محصورة تبين لك عناية الاسلام بالملكية الفردية والجماعية لذلك شرع قطع يدي السارق والسارقة فيما سرقاه إذا بلغ المسروق النصاب الشرعي إلى آخر الشروط التي يجب توفرها في السرقة لاقامة الحد ، قال تعالى ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكلاً من اللّهِ واللّهِ عزيز حكيم﴾ (٣) وشرع أيضا العقوبات الزاجرة لمن يقطع الطريق قال تعالى ﴿انما جزاء الذين يحاربون اللّهُ ورسولَهُ ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلف أو يُنقوا من الأرض ذلك لهم جزئ في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ (٤)

روى الشافعي في مسنده عن ابن عباس في شأن قطاع الطريق ، وهو تفسير للآية الكريمة السابقة انه قال رض الله عنهما (إذا قتلوا واخذوا المال قتلوا و صلبوا ، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلف وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا مالا نفوا من الأرض) (٥) .

(١) سورة البقرة آية (١٨٨) .

(٢) سورة النساء آية (٢٩) .

(٣) المائدة آية (٣٨) .

(٤) المائدة آية (٣٣) .

(٥) انظر الجريمة والعقوبة في الفقه الاسلامي للشيخ محمد أبوزهرة قسم العقوبة ص ١٥١ ط دار الفكر العربي .

وجهة نظر النظام الاشتراكي للملكية الفردية .

أولا : القضاء على كافة مظاهر الملكية الفردية .

يرى النظام الشيوعي أن الملكية الفردية هي سبب كل الشرور التي حلت بالبشرية منذ خروجها من مرحلة الشيوعية الأولى إلى أن تعود الشيوعية الثانية . (١) فتلغيتها وتلغى معها الشرور الناشئة عنها .

وينشأ الشر (من وجهة نظرهم) من أن الذي يملك هو الذي يحكم وحين يحكم فإنه يفتح التشريعات التي تخدم مصالحه ومصالح طبقاته على حساب بقية الطبقات . (٢)

وللرد على وجهتهم هذه : يحدث هذا الظلم في نظام الجاهليات التي تحكم بشرائع البشر ولاتحكم بشرائع الله .

ثانيا : ويرى النظام الشيوعي أن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية . بدليل فترة الشيوعية الأولى التي لم تكن فيها ملكية فردية . إنما هي أمر مكتسب اكتسبته البشرية بعد أن تعلمت الزراعة حيث أدى ذلك إلى انتهاء فترة الشيوعية الأولى ودخول البشرية في مرحلتها الرق والاقطاع . ثم لما تحولت الملكية من ملكية زراعية إلى ملكية صناعية رأسمالية دخلت البشرية مرحلة الرأسمالية ، ويرون أن الصراع لايزول من الأرض إلا بإزالة البشرية للملكية الفردية في جميع صورها وللرد على وجهتهم هذه نقول : أما رأيهم بأن الملكية الفردية ليست نزعة فطرية في النفس البشرية ، وأن الزراعة هي التي كانت السبب في نشأة الملكية الفردية فقول ساذج عار عن الصحة لا يقره البحث العلمي إنما الذي يناسب البحث العلمي أن نقول أن الأرض كانت موجودة من قبل ولكنها لم تستثر حاسة الملك عند الناس لأنه لم تكن هناك فائدة تتحقق من امتلاكها ، وبمجرد ظهور الفائدة تحركت الحاسة التي كانت موجودة من قبل في حالة كمون ، فنشطت وتحركت .

(١) انظر ص (٥٥٠) . من بحثنا هذا

(٢) انظر مذاهب فكرية معاصرة (ص ٣٧٢) .

والخلاصة : ان الشيوعية الأولى - على فرض وجودها - ليست دليلا على عدم وجود نزعة فطرية للتملك . إنما هي دليل فقط على عدم وجود نشاط ظاهر لهذه النزعة في تلك الفترة ، لأنها نشطت بالفعل بمجرد وجود حوافز تستثيرها ، ويمكن لهذه النزعة أن تهذب إلى درجة عالية جدا توشك أن تحولها إلى نزعة جماعية كما صنع التهذيب الإسلامي بالانصراف حتى جعلهم يوثرون المهاجرين على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ويقتسمون معهم كل ما يملكون من متاع الحياة الدنيا حتى قال الله فيهم :-
* والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون* (١)

ولكن هذا التهذيب لا يلغى النزعة الفطرية من أساسها إنما يرفعها إلى أنبل صورها مع الإبقاء على أصلها ، ولو كان الله جل وعلا منزل هذا الدين . . الذي هذب النفوس إلى هذا الحد الرفيع يعلم - سبحانه وتعالى إن الغاءها بدلا من ابقائها وتهذيبها أنفع للانسان أو أنسب لطبيعته لشرع سبحانه الغائها ، ولكننا نجد التشريعات والنصوص كلها تؤكد وجودها في فطرة الانسان (٢) قال تعالى * جزين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقنطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعم والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن الحساب* (٣)

أما زعمهم أن الصراع سيتوقف حين تزول الملكية الفردية ، فنقول لهم : إن الشيوعية قد ألغت الملكية الفردية فلماذا تقوم المؤامرات الدائمة التي يعلن عن تصفيتها والتغلب عليها بين الحين والآخر ؟ أوتكون نتيجتها الاتيان بزعيم آخر بدل من الزعيم الهالك أو المدحور ؟

(١) الحشر آية (٩)

(٢) انظر مذاهب فطرية معاصرة للشيخ محمد قطب ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٣) سورة (آل عمران) آية (١٤)

وفيم الصراع بين شقى المعسكر الشيوعى روسيا والصين ؟
أولم تلغ الملكية الفردية ؟ فلماذا إذن بقى الصراع ؟ (١)

(١) انظر مذاهب فكرية للشيخ محمد قطب ص ٣٧٥ •

ثالثا: "التوازن المالى بين افراد المجتمع"

من المبادئ الاقتصادية التى يقوم عليها النظام الاقتصادى الاسلامى التوازن المالى بين افراد المجتمع ، وهذا التوازن لايعنى انتفاء التفاوت فى الثراء بين افراد المجتمع -- فهذا مستحيل - لقوله تعالى ﴿أهـم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون﴾ (١) وإنما يعنى التوازن فى الاسلام أن يؤدى كل فرد من افراد المجتمع العمل الذى يحسنه والذى يتلاءم مع جهوده ، فى حين أوجب الإسلام على الأغنياء حقوقا رتبها فى أموالهم وجعل بعضها أمرا إلزاميا لايسطيع الغنى الفكك منه بحال من الأحوال ، فان راودته نفسه على التهاون فى ذلك الواجب بانقاصه أو التخلّى عن أدائه قام الإمام بمحاربته والضرب على يده حتى يتصاع لأمر الله ، ومن هذه الواجبات التى رتبها الله جل وعلا فى المال مايلى :-

(٢) أداء الزكاة المستحقة فى كل مال بلغ النصاب الشرعى وحال عليه الحول بالشروط المنصوص عليها فى كتب الفقه فى كل نوع من الأنواع التى فرض الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم الزكاة فيها وهذا الموضوع ليس من صميم البحث . وإنما سقتة كمثال على التوازن المالى بين افراد المجتمع الاسلامى . وقد امر الله سبحانه بأداء الزكاة فى آيات كثيرة من كتاب الله العزيز .

قال تعالى ﴿وأقيموا الصلوة واتوا الزكوة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله على كل شئ قدير﴾ (٣) . كما بين مصارفها فلم يترك تبينها لأحد فقال جل شأنه ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغرمين وفى سبيل الله

(١) الزخرف آية (٣٢)

(٢) البقرة اية (١١٠)

وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴿١﴾

فهؤلاء لهم حقوقهم في أموال الزكاة وإذا كُفِيَ هؤلاء الأُصناف فلن يبقوا في المجتمع مضطرب ولا محتاج .

(ب) ومن وسائل الإسلام في التوازن المالي بين أفراد المجتمع ذمه للبخل والبخلاء ، وحضه على التصديق والإنفاق في سبيل الله ، واغراؤه على ذلك بوسائل مختلفة لا يسمح الموضوع باستيعابها وحسبى أن اذكر بعض الآيات التي تذبذب البخل وأهله ، والتي يفهم منها أن هلاك المال وذهابه إنما هو بسبب بخلهم وشحهم وأن أموالهم ستكون عليهم حسرة وندامة قال تعالى ﴿ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيمة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿... والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . يوم يُحْمَى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنزتم﴾ (٣)

وقال تعالى ﴿... هاتئذ هم هؤلاء يُدْعَوْنَ لَتَنْفَقُوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ (٤)

(ج) ومن وسائل الإسلام في التوازن المالي بين أفراد المجتمع ذمه للإسراف: وكما ذم الإسلام البخل ذم الإسراف الذي يؤدي إلى ضياع المال في غير وجهه النفع ، وكلاهما يؤدي إلى سوء العاقبة وتتولد عنهما في نفوس الفقراء الضيق والضرر والكراهية . قال تعالى يحذر من التبذير والإسراف ﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشيطانية وكان الشيطان لربه كفوراً﴾ (٥)

(١) التوبة آية (٦٠)

(٢) آل عمران آية (١٨٠) .

(٣) التوبة آية (٣٤-٣٥)

(٤) محمد (صلى الله عليه وسلم) آية (٣٨) .

(٥) الإسراء آية (٢٧)

(د) ومن وسائل التوازن المالى فى الاقتصاد الاسلامى حضه على الصناعة وترغيبه فيها وجعلها مفخرة وذكرنا عظيمًا لبعض انبياء الله (كداود) عليه السلام حيث يقول جل وعلا :-

﴿ولقد آتينا داود منا فضلًا يا جليل أوبى معه والطير وألنا له الحديد أن اعمل سبغت وقدر فى السرد واعملوا صلحا إن بما تعملون بصير﴾ (١) .

والمراد بقوله تعالى ﴿ان اعمل سبغت﴾ أى دروعا واسعة تامة من السبوغ ، وهو أول من اتخذها ، وقد علمه الله هذه الصنعة ليستغنى وليأكل من عمل يده .

وقوله ﴿ وقدر فى السرد﴾ أى لاتجعل المسامير دقاقا فتعلق ولاغلاظا فتفصم الحلق (والسرد) نسج الدرغ (٢) وقوله تعالى فى حقة أيضا عليه السلام ﴿وعلمننه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شكرون﴾ (٣)

وأىضا كانت الصناعة مفخرة لابنه سليمان عليه السلام يقول جل شأنه ﴿ولسليمن الريح غدوها شهرٌ ورواحها شهرٌ وأسلنا له عين القطر) أى معدن النحاس فالقطر هو النحاس وهو الصفر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من محريب﴾ أى مساجد أو مساكن ﴿وتمثيل﴾ أى صور السباع والطيور وكان التصوير حينئذ مباحا ﴿جفان﴾ جمع جفنة ﴿كالجواب﴾ جمع جابيه وهى الحياض الكبار قيل كان يقعد على الجفنة ألف رجل ﴿وقدور راسيات﴾ ثابتات على الاثافى لاتنزل عنها لعظمتها وقيل انها باقيه باليمن (٤) ﴿اعملوا﴾ وال داود شكراً وقليل من عبادى الشكور﴾ (٥)

(١) سورة سبأ آية (١٠ - ١١) .

(٢) انظر تفسير النسفى (٣ : ٣١٩) .

(٣) الأنبياء الآية (٨٠) .

(٤) انظر تفسير النسفى (٣/٣٢٠) .

(٥) سورة سبأ (١٢-١٣) .

(هـ) ومنها حظه على الزراعة والتجارة وتسخير الأموال فى اكتشاف المعالم فى البر والبحر وصنع كل ما يعود على الإنسان بالنفع مع تجنب الاجحاف على أصحاب الاموال من مصادرتها أو النيل منها بأخذ بعضها . ماداموا يستخدمونها محكومين بمبادئ الاسلام وشريعة بأصله العظيمة (الكتاب والسنة) وكذلك تجنب الاجحاف على العمال بانقاصهم بعض أجورهم أو التسوية فى أدائها إليهم أو استغلال حاجاتهم وضعفهم فيعطون الأجر الزهيد فى العمل الكثير المضى. هذه مبادئ الاسلام وهذه شرائعه فى التوازن المالى بين المسلمين . ولوطبقت تطبيقا صحيحا لعاش أفراد المجتمع فى حُب ووثام ، إذ لكل إنسان متطلباته ومقتدراته ، وإنما دخل الخلل على المجتمعات الإسلامية باستغلال القوى للضعيف وحرص أصحاب الأعمال على انجاز أكبر قدر منها بأزهد الأجر وحرص العاملين على النيل من القادرين متى وجدوا السبيل إليه .

ومن هذا الباب دخلت علينا نظريات خدعنا بها ووقعنا فى شراكها كالتأمين وتحديد الملكية والاشتراكية وغير ذلك مما ولد صراعا بين طبقات المجتمع أدى إلى تخلخل كبير ، وغرس الأحقاد والأقضان بين الناس حطم قدرات من لهم قدرة على العمل والانتاج ، واضطرت المجتمعات الإسلامية إلى التعامل بالربا والوقوع فريسة فى أيدي المحتكرين العالميين من الكفرة الذين يأخذون أموالنا ويردوننا إلينا أسوأ ردمم لا يخفى على متأمل ، ولوطبقنا الإسلام تطبيقا صحيحا وأخذنا الزكاة من الأغنياء ورددناها على الفقراء وأنصفنا العامل من صاحب العمل وبالعكس ، وأمننا كل مسلم قادر على ماله ، وأعطيناه حريته فى استثماره كما يشاء محكوماً بالشرع لما وجدنا بيننا صراع ، ولما كان لهذه المبادئ الهدامة بيننا رواج ، فالعيب فىنا وفى تهالكنا على ما عند غيرنا مع أنه ظاهر الفساد وترك ما عندنا مع أنه صواب محض .

الفصل الثاني عشر

عَاقِبَةُ الصِّرَاحِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ

الفصل الثانى عشر

(عاقبة الصراع بين الحق والباطل)

فى ضوء دراستى لدعوة الأنبياء مع أقوامهم ممن ذكرتهم سورة الأعراف بصفة خاصة ومن خلال تأملى وتفكرى فى سير الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأتباعهم رضى الله عنهم ، وجهادهم الطويل من أجل نصره الحق ، واعلاء كلمة الله ، وعاقبة جهادهم مع أقوامهم ، ولأجل تجلية عاقبة الصراع بين الحق والباطل رأيت أن أقسم هذا الفصل إلى مبحثين .

- المبحث الاول : أن النصر محتم من عند الله للمؤمنين .
- المبحث الثانى : أن هذا النصر له وجوه متعددة .

"المبحث الاول"

ان النصر محتم من عند الله للفة المؤمنة ويوضح ذلك مايلي

- أولا : ثبوت الحق وانمحاق الباطل .
ثانيا : انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله وجعل ذلك النصر حقا عليه أوجبته على نفسه وكتبه عليه .
ثالثا : حسرة أهل الباطل على ما أنفقوه في دنياهم على نصرة باطلهم
رابعا : استخلاف الله للمؤمنين به وبرسله الثابتين على الحقيق النابذين للباطل العاملين للصالحات وتمكينهم في الارض .
واليك تفصيل ذلك :

اولا : ثبوت الحق وانمحاق الباطل :

قال تعالى ﴿انزل من السماء ماءً فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ (١).

يخبر جل وعلا في هذه الآية الكريمة بأن الحق هو الثابت الباقي وأن الباطل هو الذاهب الممحوق، وقد ضرب الله جلاوعلا مثالين في هذه الآية بين فيهما ثبات الحق وزوال الباطل .

أولهما: قوله تعالى ﴿انزل من السماء ماءً﴾ أي من السحاب ونكر ﴿ماءً﴾ لكثرة وانتشاره في جهات مختلفه ﴿فسالت اودية﴾ والوادى الطريق بين جبلين وهذه الأودية تحفظ الماء لينتفع منها كل من هو في حاجة إليه من الإنسان والحيوان والنبات، كما قال تعالى ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حيّ أفلا يؤمنون﴾ (٢) ولذا قال ﴿بقدرها﴾ أي بالمقدور من الماء الذي يفي بحاجات من يرد هذه الأودية ليشرب منها ويسقى مواشيه، ويزرع حولها (فاحتمل السيل) أثناء اندفاعه من أوديته زبداً رابياً، ظاهراً معتلياً وجه الماء. والزبد

(٢) الانبياء اية (٣٠).

(١) سورة الرعد اية (١٧)

هو الغشاء الذى يحمله السيل على وجه الماء ثم مايلبث أن يزول
ويتمحى فى وقت قليل ، وذلك بدفع الماء له على الشاطئ فيتلاشى
ويضمحل و (الماء) كناية عن الحق الثابت الذى يسعف من يتمسك
به ويحفظه من الزيغ والشبه ، (و الزبد الرابى) كناية
عن الباطل الذى هو سريع الزوال والذى لا يتنفع منه المتمسك بشىء
ماء، وهذا المثل يتلاءم مع الناس بعامه وأهل الزراعة خاصة .

ثانيهما : (المثل الثانى فى الآية الكريمة) قوله تعالى ﴿ وما يوقدون
عليه فى النار ابتغاء حلية أو متع زبد مثله ﴾ وهذا المثل يتلاءم
مع أهل الصناعات وسكان المدن ، الذى قلما تقع أبصارهم على الزبد
الرابى فوق الماء .

ومعنى الآية الكريمة : وما يوقد الناس عليه نيرانهم من الذهب
والفضة تطويعا لهما ليشكلوا منها ما يشاءون من الحلى التى يتحلون
بها أو غيرهما من الحديد والنحاس والفلزات المختلفة ، ابتغاء المتاع
والانتفاع بأشكال مختلفه لاتدخل تحت الحصر . كصنع الاسلحة والمععدات
الصناعية المختلفة وصنع الأواني المنزلية التى هى وسيلتنا لانضاج
الأطعمة وحفظها . الخ . لذلك كله زبد كزبد الماء يطفو ويظهر
على وجه تلك المعادن عندما يحمى عليها وتحمل الدرجه الغليان فيظهر
على وجه تلك المعادن زبد هو عبارة عن خبث وشوائب عالقة فى تلك
المعادن فيزيلها الصانع لتلك الحلى والمعادن لان فى بقائها تأثيراً فى
جودتها وتبقى المادة صافية خالصة يشكل منها الصانع ما يشاء من الحلى
والمتاع ، فالباطل مهما علا وظهر فهو مثل الزبد الذى يعلو ويطفو على
سطح تلك المعادن أثناء غليانها ، وسرعان ما يقذف به الصانع خارج الوعاء
دون الانتفاع به .

ولذا عقب الله على هذين المثلين بنتيجة حتمية قال تعالى

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاءً ﴾ أى متلاشياً وهو ما يقذفه القدر عند الغليان

والبحر عند الطغيان . والجفاء الرمى وجفأت الرجل صرعه .

﴿ وأما ما ينفع الناس ﴾ من الماء والحلى والأواني ﴿ فيمكث فى الأرض ﴾ فيثبت

الماء فى العيون والآبار لينتفع بها فى سقى الحبوب والثمار . . . وتصفو الحلى والمعادن لينتفع بها فى الزينة والتجارة وغيرها . . . وكذلك يضرب الله الأمثال ﴿ ليظهر الحق من الباطل (١) . ذلك مثل الحق والباطل فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيا طافيا ولكنه بعد زيد أو خبت ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحا لاحقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئا ساكنا وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أوضاع أومات ولكنه هو الباقي فى الأرض كالماء المحيى ، والمعدن الخالص ينتفع الناس به (٢) وكذلك الشبهات والتمويهات الزائفة قد تقوى وتعظم إلا انها فى الآخر تبطئ وتضمحل وتزول ويبقى الحق راسخا لا يشوبه شيء من الشبهات ، لأنه لا يبقا إلا للنافع وماتصارع الحق والباطل إلا وفاز الحق بقرنه .

ثانيا : (انتصار الحق على الباطل وذلك بتأييد الله له وجعل ذلك النصر حقا وأوجبه على نفسه وكتبه عليه) .

قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتمقنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ (٣) .

لقد تكفل الله سبحانه فى كتابه العزيز بنصر عباده المؤمنين الصادقين . وذلك من خلال تسخير أسباب النصر لهم وتيسيرها عليهم .

وهذه الآية الكريمة صريحة فى أن أهل الباطل لما كذبوا ما جاءهم من البينات على السنة الرسل تولى الله الانتقام منهم بذاته جلوعلا مع بيان سبب ذلك التشديد عليهم وهو اجرامهم ومعاشدتهم لأهل الحق ﴿ فانتمقنا من الذين أجرموا ﴾ .

كما بينت هذه الآية أن نصر المؤمنين هو حزب الله وخاصته حقا عليه أوجبه جل وعلا على نفسه تفضلا وتكرما ، فكلمة ﴿ حقا ﴾ معناها هنا : واجبا وفرضا والله لا يجب عليه شيء ، والنصر ربما تأخر لكنه لا بد أن يأتي لأنه وعد مقطوع به مؤكدا لا يقبل الخلف والتاريخ أكبر شاهد على

(١) بتصرف من تفسير النسفى (٢٤٧/٢)

(٢) انظر فى ظلال القرآن لسيد قطب (٨٥/٥)

(٣) الروم اية (٤٧)

ذلك ، لقد حقق الله وعده فنصر عبده وأعز جنده. وملك المسلمين ما لم يكن يخطر لهم على بال ، ملكهم ملك كسرى وقيصر ، وفتح لهم البلاد ، ودانت لهم رقاب العباد ، وصاروا في عزميين ، وجاه عظيم بعد أن كانوا في الذل والهوان مصداقاً لقوله تقدست أسماؤه ﴿واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون﴾. (١)

وما كان هذا العز والتمكين إلا تحقيقاً لوعده الله القاطع ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمن﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (٣) هذه الآية الكريمة تعنى أن الله إذا تكرم بنصره للمؤمن فلن يغلبهم أحد مهما جمع (الغالب) لهم ، وأنه تعالى إن خذلهم فلن ينصرهم أحدهما جمعوا من أسباب النصر ، فليوالوه وليتوكلوا عليه ، وليعملوا بما أمروا به ولينتهوا عما نهوا عنه والخطاب في هذه الآية للمؤمنين ، سيما من ذاق منهم مرارة الهزيمة في غزوة أحد ، والعبرة بعموم اللفظ فهي درس قويم للمؤمنين إلى يوم القيامة .

وقال جل شأنه ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ إن الله قوى عزيز ﴿٤﴾ هذه الآية تشير إلى أنه جل وعلا قد كتب نصرته الحق وأهله منذ الأزل في اللوح المحفوظ فلا يغير ولا يبدل فالغلبة وإن تأخرت ستكون في النهاية لأهل الحق يظهرهم الله وينصرهم على أهل الباطل مهما علوا في أمرهم ، وقد أكد جل وعلا ذلك بنون التوكيد ، وختم الآية الكريمة بقوله ﴿إن الله قوى﴾ أي على نصرته رسله وأوليائه لا يعجزه شيء ﴿عزيز﴾ أي لا يقهر ولا يغلب ولا يدفعه أحد عن مراده .

(١) الأنفال آية (٢٦)

(٢) الروم آية (٤٧) .

(٣) ال عمران آية (١٦٠) .

(٤) المجادلة آية (٢١) .

ثالثا (حسرة اهل الباطل على ما انفقوه فى دنياهم على نصره باطلهم)

يجتهد أهل الباطل فى نصره باطلهم بكل الوسائل المتاحة لهم فمما من طريق لبث باطلهم إلى غيرهم إلا وسلكوه ، ومن تلك السبل انفاقهم الأموال الطائلة لنشر رذائلهم ومبادئهم وسمومهم ليصدوا عن سبيل الله . قال تعالى — * إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يُغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون * (١)

هذه الآية الكريمة نزلت فى المطعمين يوم بدر من أهل مكة عندما خرجوا لمقاتلة المسلمين فى بدر وكانوا اثنى عشر رجلا من كبار قريش وقيل نزلت فى أبى سفيان وانفاقه المال على حرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد وكان قد استأجر ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية (٢) والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وقد بينت الآية الكريمة مقصدهم وهدفهم من ذلك الإنفاق ألا وهو صداهم عن سبيل الله ، سيما صداهم عن اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والإيمان برسالته ، وأخبر جلوعلا أن ذلك الإنفاق سيكون عليهم فى النهاية حسرة وندامة وسبب تلك الحسرة لانه يذهب المال ولا يتحقق مقصودهم بل يصيرون مغلوبين فى آخر الأمر .

رابعا : (استخلاف الله للمؤمنين به ويرسله الثابتين على الحق ، الناذيين

للباطل ، العاملين للمصالحات وتمكينهم فى الأرض) .

ومن عواقب الصراع بين الحق والباطل استخلاف الله تعالى للمؤمنين وذلك بعد حصول النصر كما وعد به جل وعلا بقوله * واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فشاوكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون * (٣)

(١) الأنفال آية (٣٦) .

(٢) أسباب النزول للواحدى تحقيق السيد صقر (٢٣٣ - ٢٣٤) .

(٣) الأنفال آية (٢٦) .

وقد وعد الله سبحانه عباده المؤمنين بالنصر والاستخلاف والتمكين
إذا أخلصوا في عبادتهم لله وحده فقال جل شأنه ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم
وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن
لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني
لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ (١)

قوله ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾ هذا وعد من الله لا يتخلف والوعد
إذا كان من المعهود منه الصدق والوفاء تستريح له القلوب، فما بالك
إذا كان الوعد من الله جل وعلا .

وقوله ﴿ليستخلفنهم في الأرض﴾ والاستخلاف ليس مجرد الملك والقهر
والغلبة والحكم إنما هو ذلك كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير
والبناء ، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه ، وتصل
عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض اللائق بخليفة أكرمها
الله .

ان الاستخلاف في الأرض قدرة على العماراة والإصلاح لاعلى الهدم والافساد
وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لاعلى الظلم والقهر ، وقدرة على
الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشرى لاعلى الإنحدار بالفرد والجماعة
إلى مدارج الحيوان (٢) .

(١) النور آية (٥٥).

(٢) يتصرف من (في ظلال القرآن) لسيد قطب (١٨ / ١١٨ - ١١٩) .

المبحث الثانى

(تعدد وجوه النصر الالهى للمؤمنين)

إن المتمعن لسير الانبياء والمرسلين عبر تاريخهم الطويل، يتبين له ان النصر الذى وعده الله به الفئة المؤمنة كان يتجلى فى عدة صور، وليس كما يتبادر لأول وهلة للذهن أن النصر دائماً حافل بالنصر العسكرى المادى، إن النصر فى الفكر الإسلامى معناه الغلبة والظهور للدعوة الإسلامية لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فكل إعلاء لكلمة الله هونصر لدين الله . وكل احتياط من كلمة الكفر هو هزيمة للكفر وأهله، سواء تحقق ذلك بالصراع الفكرى والعقودى بالحجة والبرهان، أو بإفشال مخططات العدو وكيدهم للنيل من الإسلام وأهله أو بانزال العقوبات الربانية لاهلاك طائفة من أهل الكفر أو بالمواجهة العسكرية بين معسكر الإيمان والكفر، كل هذه وجوه للنصر لان فيها إعلاء لكلمة الله وإبطالاً لكلمة الكفر، واعتزازاً للحق وأهله إذلالاً للباطل وأهله. (١)

ويمكن أن نقسم وجوه النصر الالهى للمؤمنين إلى أربعة وجوه:-

الوجه الاول:

النصر الفكرى العقدى بالحجة والبرهان: لقد أرسل الله رسوله للناس مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وأيدهم بالهجج الدامغة والبراهين الساطعة والحكمة والموعظة الحسنة، وأيدهم جل وعلا أيضاً بالمعجزات الباهرة، وقوة الصبر والتحمل والترفق ولين الجانب

(١) انظر اساليب النصر والهزيمة فى الكتاب والسنة رسالة ماجستير للزمييل طالب أبو شعر جامعة ام القرى ١٤٠٨ .

والأمثلة على النصر الفكري بالحجج والبراهين كثيرة ففى القرآن الكريم واذكر على سبيل المثال محاجة نبي الله ابراهيم عليه السلام للنمرود (١) قال تعالى ﴿ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن أتته الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين﴾ (٢)

ثانياً : النصر بانجاء المؤمنين من كيد الاعداء

ما من نبي إلا ولاقى من قومه صدوداً وعناداً وكيداً . والله جل وعلا يؤيد أنبياءه بالنصر والحفظ والتمكين وإليك بعض الأمثلة توضح ذلك .

قال تعالى حكاية عن قوم نبيه إبراهيم عليه السلام الذين ألقوه فى النار ظانمين أنها تحرقه بعد أن قيده وأحكموا وشاقه فنصره الله ورد كيدهم فى نحورهم .
﴿ قالوا حرّقوه وانصروا آلهم إن كنتم فاعلين . قلنا ينار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين﴾ (٣)

وقال تعالى حكاية عن قوم لوط: ﴿ ولوطاً أتيناه حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبيث إنهم كانوا قوم سوء فسقين وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين﴾ (٤)
وقال تعالى ﴿ ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم . ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأعمرقناهم أجمعين﴾ (٥)

(١) ملك بابل (نمرود بن كنعان) وقد أنكر أن يكون ثم إله غيره وقد ذكر المفسرون والمؤرخون أنه استمر فى ملكه أربعمائة سنة وقد تمادى فى كفره وطفيانته وتجبره وقد دعاه ابراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لاشريك له لكن جهله وطول أماله دفعه على إنكار الخالق . انظر البداية والنهاية ، لابن كثير (١ / ١٤٨) .

(٢) سورة البقرة: آية (٢٥٨)

(٣) سورة الأنبياء: آية (٦٨ - ٧٠) .

(٤) سورة الأنبياء: آية (٧٤ ، ٧٥) .

(٥) الأنبياء آية: (٧٦ ، ٧٧) .

وكم لاقى نبينا صلوات الله وسلامه عليه من الكيد والاذى وقصة هجرته صلى الله عليه وسلم واستخلافه علياً رض الله عنه على فراشه وخروجه من بيته وأعداؤه محاصروه مشهورة (١) ومما نزل من القران فى تريبص المشركين به ومكرهم قوله تعالى ﴿وإذ يمكرك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير المكرين﴾ (٢) ولم ينته الأمر بكيد المشركين فقط بل انضم إليهم بعد الهجرة المنافقون واليهود لكن الله قنط أعداءه منه، وقرر أنه كتب عليهم الذلة والهزيمة وكتب لنفسه ولرسله الغلبة والتمكين . قال تعالى ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسولنا إن الله قوى عزيز﴾ (٣)

ثالثاً : نصر المؤمنين باهلاك اعدائهم بالمهلكات الكونية:-

ويعتبر هذا النصر من أشد أنواع النصر وضوحاً لسحقه للباطل والقضاء عليه وهوسنة الله فى الأمم السابقة التى طغت وتجبرت وحادت الله ورسله وأمعنت فى ضلالها وفسقها ولم تستجب لنصح رسلها بل قابلوا ذلك بالعناد والتحدى والسخرية والاستهزاء ، قال تعالى ﴿وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مسكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين . وقرون وفرعون وهم نزولاً جاءهم موسى بالبينت فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين .

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (١٢٣/٢-١٢٧) .

(٢) الانفال آية (٣٠) .

(٣) المجادلة آية (٢٠ ، ٢١) .

فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿١﴾ وكانت الرياح الشديدة الباردة سببا في نصر المؤمنين يوم الأحزاب أرسلها الله على أعدائهم فهدمت خيامهم وكفأت قدورهم وأطفأت نيرانهم . قال تعالى ﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ﴿٢﴾

رابعاً : النصر العسكرى ويمكن أن نقسمه إلى قسمين:-

أ - نصر مباشر :

وقد سطر التاريخ أمثلة رائعة للنصر العسكرى المباشر للمسلمين وذلك يتجلى واضحا فى غزوه بدر وفتح مكة ... الخ

ب - نصر غير مباشر:

وهى الغزوات التى كان ظاهر أمرها أن الباطل قد انتصر على الحق لكن ذلك انتصار للمسلمين بوجه غير مباشر ومن الأمثلة على ذلك :-

١- غزوة احد : التى انهزم المسلمون فيها على أرض المعركة وكان ذلك انتصارا لهم بوجه غير مباشر لما يلى .

أولا: لانهم انتصروا على أنفسهم بأن تعرى لهم الباطل وتبينوا أنهم إذا لم يطيعوا أوامر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أصابتهم الهزيمة وانقلب النصر الذى حصل لهم أولا إلى أعدائهم فقد خالف المسلمون توجيهات نبيهم فى بداية وأثناء المعركة

٢ - مخالفة بعض المسلمين لنبيهم فى بداية المعركة . وذلك ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان من رأيهم

(١) العنكبوت: آية (٢٨ - ٤٠) .

(٢) الأحزاب: آية (٩) .

ان لا يخرج المسلمون لمقاتلة المشركين خارج المدينة بل يتحصن المسلمون في داخل المدينة لارغام قريش على مهاجمتها ، وكان يهدف من وراء هذه الخطة إلى استخدام تكتيك حرب المدن والشوارع في مكان يعرفه المسلمون ويجهله المشركون ، ويمكن للنساء المسلمات من المساهمة في المجاهد الحربي مساهمة فعالة في حدود طاقتهن إضافة إلى إمكان المشاركة الفعلية في القتال برشق الحجارة من سطوح المنزل وإقامة المتاريس وسدادات الطرق في الشوارع (١)

وقد عبر صلى الله عليه وسلم عن رأيه بقوله (فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشرمقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها) (٢)

ولكن بعضا من الصحابة كانوا متحمسين للخروج ومقاتلة المشركين خارج المدينة وكان على رأسهم حمزة بن عبدالمطلب الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (والذى أنزل عليك الكتاب لأطعم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة) أيد هذا الرأي عدد كبير من الصحابة الذين لم يكن لهم شرف الجهاد في معركة بدر (٣) ، وقد قال أحد الصحابة (يارسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أئاجبنا عنهم وضعفنا) فمخالفتهم لرأى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان درساتلقنه المسلمون وعرفوا أن ذلك سبب انهزامهم ولكن كيف يملون إلى ذلك لولم يحدث ما حدث ؟

ب - مخالفة المسلمين لنبيهم في أثناء المعركة : وهى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر خمسين من الصحابة

(١) انظر الرسول العربي وفن الحرب اللواء الركن مصطفى طلاس ص (١٥٤) .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (٦٩/٣) .

(٣) انظر الرسول العربي وفن الحرب اللواء الركن مصطفى طلاس، ص (١٥٤، ١٥٥) .

على رأسهم عبد الله بن جبير بن لا يبرحوا الجبل الذي يعلو
المعركة (جبل الرماة) وقال لهم: (إن رايتمونا تخطفنا الطير
فلاتبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رايتمونا
هزمتنا القوم وأوطأناهم فلاتبرحوا حتى أرسل إليكم) (١)
وحصل ما حصل من مخالفتهم لرسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم عندما رأوا انهزام المشركين وإقبال اخوانهم الصحابة
على جمع الغنائم فتركوا ذلك الموضع . (٢)
فهذه المخالفات هي في الواقع كانت دروسا عظيمة كشفت
عن الباطل وعرته ولولا الهزيمة لما استطاعوا أن يفهموا
حقيقة هذه الأمور .

٢- وفي غزوة حنين : وقد كان عدد المسلمين عشرة الاف مقاتل
وهذا العدد الكبير لم تبلغه غزوة قبل ذلك . حتى قال
اناس من المسلمين (لن نغلب اليوم من قلة ، وأعجبتهم
كثرتهم) (٣) لكن كثرتهم لم تغنهم عنهم من الله شيئا فهزموا
في أول المعركة وفر الكثير منهم وكانت الهزيمة هنا نصراً
للمؤمنين على نفوسهم فحين شاهدوا رسولهم صلى الله عليه وآله
وسلم يتقدم في الصفوف لايبالي بالسهام الموجهة إليه
ويقول :-

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب (٤)

واجتمع الناس بعد أن ناداهم عمه العباس بإمعشرا الأنصار يامعشر
أصحاب السمرة (٥) فأجابوا لبيك لبيك والتف المسلمون حول
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمدهم الله بجنود من عنده
وحصل النصر وتمت هزيمة هوازن .

(١) صحيح البخارى وعلى هامشه فتح البارى (٥٠٢/٦) كتاب الجهاد .

(٢) انظر المواهب اللدنية (٩٢/١) للامام أحمد بن محمد القسطلانى ط دار الكتب
العلمية بيروت .

(٣) انظر تفسير الطبرى (٦٣/٦٢/١٠) ، فتح البارى (٨٨/٩)

(٤) رواه البخارى في صحيحه باب قوله تعالى ﴿ إذ أعجبتكم كثرتكم ﴾ (٩١:٨٩/٩)

(٥) (أصحاب السمرة) هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان وأراد الرسول

صلى الله عليه واله وسلم أن يذكرهم ما بايعوا عليه يومئذ لأنهم بايعوا

يومئذ أن لا يفروا . انظر بهجة المحافل (٤٢٠/١) .

ونزل قوله تعالى ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين
إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما
رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله
وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا
وذلك جزاء الكافرين﴾ (١)

وقد تعلم المسلمون درساً لا ينسونه أبداً (أنه لاملجأ لهم
من الله إلا إليه، وأن النصر من عند الله) . وهذا هو النصر الحقيقي .
وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى إخوانه
من الأنبياء والمرسلين وآلهم وصحبهم أجمعين وآخر دعوانا أنى الحممد
لله رب العالمين .

.....

(١) التوبة آية (٢٥، ٢٦)

الكتاب
الشمس
١٤٢٩ هـ

((الخاتمة))

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء
وامام المرسلين سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد أن أكرمنى الله عز وجل بدراسة سورة الأعراف والتعرف على ماجاء
فيها من صراع بين الحق والباطل يطيب لى أن أبين أهم النتائج التى توصلت
اليها :

(١) أن مفهوم الصراع بين الحق والباطل هو : غلبة الحق على الباطل
بالبراهين والحجج التى لاتدع مجالا لذى لب فى ظهور الحق على الباطل،
ومدافعتة له بالشرائع الالهية التى أنزلها الحق جل وعلا فى كتبه على
أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(٢) الحق ماجاءت به الشرائع الالهية ورضيه الله سبحانه وتعالى ديننا لعباده
وهو شامل للعقائد والأحكام على سوا ، وان نفر منه أكثر الخلق، والباطل
ماذمه الله تعالى على لسان رسله وأنزل ذمه فى كتبه ولم يرضه ديننا
لخلقه وان جنح إليه أغلب الخلق وحرصوا على اعلائه على الحق.

(٣) ان الصراع الذى أمر المؤمنون بخوضه لنصرة الحق يتمثل فى أمرين
أولا : مجاهدتهم أنفسهم على الثبات على الحق وأن يظل الانتصار لله
قويا فى نفوسهم لا يضعف .
ثانيا: فى مجاهدة أعدائهم بالحجة والبرهان ، فان عجزت الوسائل الاقناعية
وظل طغاة الباطل يمنعون المسلمين من دعوة الحق أمكن حينئذ
اللجوء إلى القوة لازاحة الطغاة ، وتأمين دعوة الله للناس
واقامة العدل والأمن والسلام ، وذلك لا يكون إلا بالجهاد فى سبيل
الله لاعلاء كلمة الله .

(٤) أن أهل الباطل لهم وسائل خاصة بهم لنشر باطلهم ، وهم يبذلون كل وسيلة
متاحة لهم لنشر باطلهم مهما كلفهم الأمر ، وان الفواحش والمحرمات هما
فى مقدمة وسائلهم التى يتصيدوا بها من أرادوا اضلاله .

- (٥) ان غاية الصراع فى الاسلام هى هداية البشرية واسعادها وترغيبها فى الخضوع لخالقها عز وجل ، وأن تعبدته بما شرعه لها، وأن تنبذ العداوات ويسيطر الحب والاخاء على قلوب الناس .
- (٦) ان غااية الصراع عند أعداء الحق هو تحطيم البشرية واضلالها عن الحق وتجهيلها بربها عزوجل وتجهيلها بآخرتها دار القرار التى هى صائرة إليها لامحالة ، وإفشاء العداوات والأحقاد والفتن .
- (٧) ان سورة الاعراف كغيرها من السور المكية دعت إلى تشييت الايمان فى النفوس ، وحضت على التمسك به لأنه طريق السعادة لذلك أمرنا الله عز وجل فى الآية الثالثة (١) من هذه السورة أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا مجانبين أن نتبع من دونه أولياءهم وسيلة الشيطان إلى الاغواء ثم بين تعالى فى ختام هذه الآية أن تلك الحقيقة بشقيها تغيب عن كثير من الناس .
- وأن أغلب البشر فى ذهول عنها وأنهم لايتذكرونها إلا تذكرها لايوصلهم إلى المطلوب .
- (٨) ان الانسان بطبعه حريص على الاستكثار من عرض الدنيا غير مبال بما يضره منه وبما ينفعه ، وأن صدق الايمان ولزوم التقوى يحققان للانسان ما يبتغيه من كثرة الاشياء لديه ، وأن الله سمى ما يوءتبه الموءمنين (بركات) (٢) فلا حدود لهذا الجمع ، وغير خاف أن البركة هى النمء والزيادة . فما بالها إذا كانت بركات فتحها الله على أهل القرى لو آمنوا واتقوا ؟ ولكن أهل القرى أمعنوا فى الكفر والتكذيب .
- (٩) عداوة ابليس لبنى آدم وتوعده باضلالهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا فهو لايدع ولايقصر فى وجه من الوجوه الممكنة البتة إلا سلكها لذلك كله جاء
-
- (١) قال تعالى ﴿ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ الاعراف الآية (٣) .
- (٢) قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ الاعراف : الآية ٩٦ .

التحذير لبنى آدم من الشيطان ووسائله الخادعة وأنه لاسبيل لدحره
إلا بذكر الله والاكثار من الاستعاذة منه والتحصن بالمأثورات النبوية
الواردة فى هذا الشأن .

(١٠) التحذير من التساهل فى كشف العورات لما يجر ذلك إلى الفواحش
فان كشف العورات أساس كل فتنة .

(١١) بينت خطورة المعاصى على بنى آدم وأنها تجلب عليهم الشؤم وخسران
الدنيا والآخرة .

(١٢) التحذير من سوء الاخلاق كالكيد والحسد والكذب والغرور.....

(١٣) طول الفترة التى ظل نوح عليه السلام يدعو فيها قومه والتى أخبرنا
القرآن الكريم عنها عند قوله ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ (١)

(١٤) اتهام الأقوام لأنبيائهم بالضللال أو السفاهة أو الكذب فيه درس عظيم
للدعاة بأن يتحملوا كل اساءة أو اهانة وحسبهم فى ذلك ما لاقاه الرسل
من أممهم وما لاقاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين فى
مكة حيث وضعوا سلا الجزور على رأسه وهو يصلى حول الكعبة ... وقذفه
بالحجارة حين ذهب إلى ثقيف لدعوتهم حتى سال دمه الزكى . واتهامه
بالسحر والجنون

(١٥) إن الباطل وإن طال أمده زاهق ، والحق مهما عورض وحجبت أنواره فهو
مزهر ثابت ولا يضر الحق قلة أهله ولا ينفع الباطل كثرة أعوانه .

(١٦) ان الله عز وجل وعد بنصر رسله والذين آمنوا ، ووعد الله هو الحق ،
ولاستطيع أية قوة مهما كانت أن تنقض هذا الوعد .

(١٧) أن من سنن الله تعالى فى الأمم المكذبة أنهم إذا اقترحوا أية فوعطوها
ثم لم يوءمنوا حل بهم عذاب الله تعالى ولذلك لم تجب قریش فى ما

(١) المائدة : الآية (٥١) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صلحاقال يقوم اعبدوا الله مالكم من
إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها
تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فإياخذكم عذاب أليم ﴾

اقترحت على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم لأن الله جل وعلا لم يرد
اهلاك هذه الأمة ومعاملتها بما عومل به الأولون .

(١٨) بعض الناس قد يحدثون شرا لاعهد للبشرية به من قبل فيبقى داء وببلا
مهلكا لكل من يتعاطاه من بعدهم فيدمره تدميرا ، يتضح ذلك من قبح
فاحشة اللواط وخطورته على البشرية وما تمخض عنه فى عصرنا من مرض
الأيذ الذى أعجز العلماء فى معاملهم وصير الأطباء حيارى أمام هذا
الخطر الفتاك قال تعالى ﴿ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفحشة
(١)
ماسبقكم بها من أحد من العلمين﴾ .

(١٩) إن كثرة الأموال لدى أية أمة إذا لم تضبط بقواعد الشرع قاداتها إلى
المهلكة ، وان أولى الأموال الذين لا يخضعون سلوكهم للشرع يستخدمون
أموالهم فى جلب الشرور والصد عن سبيل الله ، وإعجاز المصلحين
عن إصلاح نفوسهم التى أفسدها الشره فأصبحت حريصة على جمع المال
دون مبالاة بسلامة الوسائل إلى ذلك . قال تعالى على لسان شعيب
﴿ فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد
إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط توعدون
(٢)
وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾ .

(٢٠) ان الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقة الزائف لفترة من الزمن ويستولى
على أفئدتهم ومضة من الوقت حتى ليخيل لضعاف القلوب أنه غالب وحق .
وهذا ما حدث لقوم فرعون عندما شاهدوا السحرة يلقون حبالهم وعصيهم
وقد تحولت إلى حيات تسعى .
ولكن ما أن يواجه ذلك الباطل الزائف الحق الثابت الذى لا يتزعزع حتى
يضمحل ويزول . واذا بأتباع الباطل يصيبهم الذعر والذل وهم يــــرون
صروحهم تتهاوى وآمالهم تتداعى أمام نور الحق المبين . وإذا بتحديهم
الصريح وتناولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين وذل مشين .

(١) سورة الأعراف : آية (٨٠) .

(٢) سورة الأعراف : آية (٨٥ - ٨٦) .

- (٢١) . ان رسوخ الايمان فى نفوس أتباع الحق يجعل من أتباع الحق القدرة على تحمل جميع المشاق مهما كانت ولو أودت بحياتهم . وفى هذا الاستنتاج درس قويوم للدعاة الى الله . قال تعالى حكاية عن سحرة فرعون وهم يخاطبون فرعون الذى هدهم بتعذيبهم وصلبهم : ﴿ فأقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحيوۃ الدنيا ﴾ الآية (١) .
- (٢٢) تخاذل الباطل واضمحلاله أمام الحق ، فأهل الباطل يتبجحون بباطلهم ما فقدوا الرادع القوى ، فاذا ردعوا ، ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وكادت قلوبهم تبلغ الجناحـر
- (٢٣) اسوء ما يبتلى به الانسان أن تتجارى به أهواءه كما يتجارى الكلب بالجيفة ولذا قال سبحانه فى شأن ذلك الاسرائيلى (بلعم بن باعورا) ﴿ واتل عليهم نبأ الذى ءاتيناه ايلتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شعنا لرفعناه بها ولكنه اخلد إلى الأرض واتبع هواه ﴾ الآية ، فعلى العاقل أن يلاحظ هواه . فان كان تبعا للكتاب والسنة متنه واجتهد فى تمتينه ، وإن كان على خلاف ذلك فليعلم أنه مريض بمرض عضال يحتاج إلى علاجه إلى بذل كل نفيس وغال حتى يرد إلى فطرته الصحيحة التى فطره الله عليها .
- (٢٤) ان الله جل وعلا كتب نصرۃ الحق وأهله منذ الأزل فى اللوح المحفوظ فلا يغير ولا يبدل ، فالغلبة وان تأخرت ستكون لأهل الحق يظهرهم الله وينصرهم على أهل الباطل مهما علو فى أمرهم .
- (٢٥) ان النصر فى الفكر الاسلامى ليس محصورا بالنصر العسكرى المادى فحسب بل أن مفهوم النصر فى الفكر الاسلامى معناه الغلبة والظهور للدعوة الاسلاميۃ لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى . فكل اعلاء لكلمة الله هو نصر لدين الله ، ،
- اللهم أنصر الاسلام والمسلمين وأهلك الكفرة أعداء الدين سبحانه ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة طه : الآية (٧٢ - ٧٣) .

(٢) سورة الأعراف : آية (١٧٦) .

الفصل الثاني
الأسس
١٤٠٩ هـ

فهرس المراجع والمصادر

(أ)

- ١- آثار البلاد واخبار العباد زكريا بن محمد بن محمود القزديني، بيروت : دار بيروت ١٣٩٩ هـ .
- ٢- اثر تطبيق النظام الاقتصادي الاسلامي في المجتمع ، من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الاسلامي الذي عقدته جامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميه بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ ، الرياض - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميه ، ١٤٥١ هـ .
- ٣- احياء علوم الدين ، محمد بن محمد الغزالي (٥٠٥ هـ) ، القاهرة عيسى البابي الحلبي .
- ٤- اخبار الدول واثار الاول ، في التاريخ (٩٣٩ - ١٠١٩) هـ ابن العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي الشهير بالقرماني بيروت - علم الكتب
- ٥- اخبار مكة المشرفة لابي الوليد محمد بن عبدالله الازرقى ، تحقيق رشدي الصالح ملحس مكة المكرمة : مطابع دار الثقافة .
- ٦- ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول ، محمد بن علي الشوكاني (ب ١) الطبعة الاولى ، القاهرة : مطبى الحلبي ١٣٥٦ هـ
- ٧- اسباب نزول القران لابي الحسن علي بن الواحدي تحقيق / السيد احمد صقر الطبعة الثانية ، جدة ، دار القبلة (١٤٠٤ هـ) .
- ٨- الاسلام في وجه الزحف الاحمر ، الشيخ محمد الغزلي ، المختار الاسلامي للطباعة والنشر ، القاهرة الطبعة السادسة ١٣٩٦ هـ
- ٩- اصل الانواع (داروين) .
- ١٠- أضواء البيان ، لمحمد الامين الشنقيطي ، بيروت : مطبعة عالم الكتب
- ١١- اعلام النبوة ، للشيخ الامام ابوالحسن علي بن محمد الماوردي الشافعي المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، دار الكتب العلميه - بيروت الطبعة الاولى سنة ١٣٩٣ هـ .
- ١٢- الله يتجلى في عصر العلم ، تأليف نخبة من العلماء الامريكيين ترجمة الدكتور، الدمرداش عبدالمجيد سرحان بيروت : دار القلم .
- ١٣- الامراض الجنسية ، اسبابها وعلاجها ، د ، محمد علي البار ، جنده دار المنارة .

(ب)

- ١٤- البداية والنهاية ، لابي الفداة اسماعيل بن كثيرالدمشقي ، الطبعة الثالثة ، بيروت ، مكتبة المعارف ١٩٨٠ م .
- ١٥- كتاب البدء والتاريخ ، لابي زيد احمد بن سهيل البلخي (٢٣٥ - ٣٠٢)
بياع عند الخواجه ارنست كروالصحاف في مدينة بايــــــــــــــــــــــرز . سنة ١٨٩٩ ميلادية . اعادت طبعه بالوفست مكتبة المثني ببغداد لصاحبها قاسم محمدالرجب .
- ١٦- البرهان لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي تحقيق ، محمد ابوسو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثانية - القاهرة ، البالى الحلبي (١٣٩١ هـ) .
- ١٧- بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لابي طاهر محمد بن يعقوب (٨١٧ هـ) ، تحقيق ، عبدالعليم الطحاوي ، القاهره ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .
- ١٨- بنواسرائيل في القرآن والسنة ، د/ محمد سيد طنطاوي ، ط/ الاولى سنة ١٣٨٨ ، توزيع دار حراء بالقاهرة .
- ١٩- بهجة المخافل بغية الاماثل لعماد الدين يحيى بن ابي بكر العامري المدينه المنوره ، المكتبة العلميه .
- ٢٠- بين الدين والعلم ، عبدالرازق نوفل ، القاهرة .

(ت)

- ٢١- تاج العروس من جوهر القاموس للامام اللغوي محسب الدين ابي الفيض السيد محمد مرتضى الحسينى (١١٤٥ - ١٢٠٥) الوسطي الزبيدي الحنفي تزيل مصر المعزيبه ، الطبعة الاولى بالمطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر المحميه سنة ١٣٠٦ هـ .
- ٢٢- تاريخ الانبياء في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية د/ محمد الطيب النجار ، الرياض ، مكتبة المعارف (١٤٠٣) هـ .
- ٢٣- تاريخ الطبرى ، (تاريخ الامم والملوك) لابي جعفر محمد بن جريرالطبرى (٣١٠) تحقيق ، محمد ابوالفضل . بيروت ادرويدان .
- ٢٤- تاريخ الفلسفة الحديثه ، يوسف كرم ، دار المعارف بمصر .

- ٢٥ - ترغيب ب اهل الاسلام فى سكنى الشام لابي محمد عبدالعزيز بن عبد السلام
تحقيق محمد شكور بن محمود الحاجى بيروت : مكتبة المنار .
- ٢٦- التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن احمد بن جزى الكلبى ، بيروت دار
الكتاب العربى (١٣٩٣) هـ .
- ٢٧- التطور والانسان حسن زينو .
- ٢٨- تفسير ابن ابى حاتم تحقيق ، حمد بن ابى بكر الملا رسالة ماجستير
(١٤٠٥) هـ جامعة ام القرى .
- ٢٩- تفسير ابن عباس ومروياته فى التفسير من كتب السنة ، د/ عبدالعزيز
الحميدى ، مركز البحث العلمى ، جامعة أم القرى . () .
- ٣٠- تفسير ابن كثير ، (تفسير القران العظيم) (٧٧٤) هـ ، لابي الفداء
اسماعيل بن كثير ، مصورة بيروت دار الفكر .
- ٣١- تفسير ابى السعود ، (ارشاد العقل السليم الى مزايا القران الكريم)
(٩٥١) هـ لابي السعود محمد بن محمد العمادى ، بيروت : دار احياء التراث
العربى .
- ٣٢- تفسير الالوسى (روح المعانى فى تفسير القران العظيم والسبع المثانى)
(١٢٧٠) هـ لابي الفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسى ، بيروت ، دار احيا
التراث العربى .
- ٣٣- تفسير البحر المحيط ، لابي حيان محمد بن يوسف الاندلسى (٧٤٩) ، مصورة -
بيروت ، دار الفكر .
- ٣٤- تفسير البقاعى (لسمى) (نظم الدرر فى تناسب الايات والسور) (٨٨٥) هـ
لبرهان الدين ابى الحسن ابراهيم البقاعى .
- ٣٥- تفسير البيضاوى (انوار التنزيل واسرار التأويل) لابي سعيد عبد الله
بن عمر الشافعى (٦٨٥) بيروت مؤسسه شعبان .
- ٣٦- تفسير الجلالين ، (القران وبهامشه ، تفسير الامامين الجليليين
للعلامة جلال الدين محمد بن احمد المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ والشيخ
المتبحر جلال الدين عبدالرحمن بن ابى بكر السيوطى المتوفى ٩١١ هـ -
طبعة المكتبة الشعبيه .
- ٣٧- تفسير الجمل ، (الفتوحات الالهيه) سليمان بن عمر العجيليين
(الجمل) (١٢٠٤ هـ) القاهرة ، عيسى البناى الطبلى .

- ٣٨- تفسير الخازن المسمي الباب التأويل في معاني التنزيل - لعلاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادي الشهير بالخازن ت (٧٢٥هـ) ،
ويهامشه تفسير البغوي المعروف بمعالم التذيل لابي محمد الحسيني بن مسعود الفراء البغوي ت ٥١٦هـ ، الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م مطبعة مصطفى الباب الحلبي واولاده بمصر .
- ٣٩- تفسير الدر المنثور في التفسير المأثور ، لجلال الدين عبدالرحمن السيوطي (٩١١هـ) ، الطبعة الثانية ، بيروت ، دار الفكر ١٤٠٣ هـ
- ٤٠- تفسير الطبري ، (جامع البيان عن تأويل اى القران لابي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠) ١٣ هـ ، الطبعة الثانية ، القاهرة مطبعة مصطفى الباب الحلبي ٣٨٨ هـ .
- ٤١- تفسير القاسمي ، (محاسن التأويل) محمد جمال الدين القاسمي (١٣٣٢هـ) ، تعليق وترقيم محمد فؤاد عبدالباقي بيروت ، دار الفكر
- ٤٢- تفسير القرطبي (الجامع لاحكام القران) لابي عبدالله محمد بن احمد القرطبي ٦٧١ هـ ، مصدره بيروت ، دار احياء التراث العربي .
- ٤٣ - التفسير الكبير ، لابي عبدالله محمد بن عمر بن حسين ، المعروف بفخر الدين الرازي ، طهران ، دار الكتب العلمية .
- ٤٤- تفسير الكشاف ، (حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل) (٥٢٨ هـ) لابي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، الطبعة الاولى بيروت ، دار الفكر ١٣٩٧ .
- ٤٥- تفسير المنار ، تفسير القران الحكيم ، المشتهر باسم تفسير المنار الاستاذ الامام (١٢٥٨ - ١٣٢٣) الشيخ محمد عبده (تأليف السيد محمد عبده ، تأليف السيد محمود رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤) الطبعة الاولى ١٣٤٦ هـ ، مطبعة المنار بمصر .
- ٤٦- تفسير الموضوعي للقران الكريم (تفسير سورة الاعراف) د/ محمد البهي الطبعة الثانية ، القاهرة ، مكتبة وهبة (١٤٠٠هـ) .
- ٤٧- تفسير النسفي ، لابي البركات عبدالله بن احمد النسفي بيروت ، دار الكتاب العربي .
- ٤٨- تفسير النيسابوري (غرائب القران وרגائب الفرقان) تحقيق ، ابراهيم عطوه عوض الطبعة الاولى ، القاهرة ، الباب الحلبي (١٣٨١) .

- ٤٩- تفسير سورة الاعراف ، د/ احمد الكومى ، د/ محمد سيدظناوى ، القاهرة
دار الجيل ١٣٩٢ هـ .
- ٥٠- تقريب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف
المدينه المنوره ، المكتبة العلمية ١٩٧٥ م .
- ٥١- تقويم البلدان ، عماد الدين اسماعيل (صاحبماه) (٧٣٢ هـ) ، باريس
الطباعة السلطانية (١٨٣٠ م) .
- ٥٢- تهذيب التهذيب ، لابن حجر العسقلانى الطبعة الاولى ، الهند (١٣٢٧ هـ)
تصوير ، بيروت دار صياد (١٩٦٨ م) .
- ٥٣- تهذيب اللغة ، لابي منصور محمد بن احمد الازهرى ، القاهرة الدارالمصريه
للتأليف والترجمة .
- ٥٤- تيسير التحرير على كتاب التحرير ، محمد امين بن محمود البخرى (٩٨٧)
مصر ، مصطفى الحلبي (١٣٥٠ هـ) .

- ج -

- ٥٥- الجريمة والعقوبة في الفقه الاسلامى (العقوبة) ، محمد ابوزهرة
القاهرة - دار الفكر العربى .

- ح -

- ٥٦- حادى الارواح الى بلاد الافراح ، شمس الدين ابى عبدالله محمد بن ابى
بكر ابن قيم الجوزيه (٧٥١ هـ) بيروت ، دار الندوة الجديدة .
- ٥٧- حدائق الانوار ومطلع الاسرار لابن الديبع الشيبانى تحقيق عبداللـه
الانصارى .

(خ)

- ٥٨- خصائص السورالمدنيه ومقاصدها لعادل محمد صالح ابوالعلا رسالـة
ماجستير ١٤٠٤ ، جامعة ام القرى .

(د)

- ٥٩- دائرة معارف القرن العشرين ، لمحمد فريد وجدى ، بيروت ، دارالفكر
(١٣٩٩ هـ) .

(ر)

- ٦٠- الرسول العربى وفن الحرب مصطفى طلاس ، دمشق ، مطابع الادارة السياسية

(ن)

٦١- زاد المسير في علم التفسير لابي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي الجوزي (٥٩٧) هـ الطبعة الثالثة . بيروت ، المكتب الاسلامي (١٤٠٤هـ)

(س)

- ٦٢- سراج القلوب وعلاج الذنوب لابي علي زين الدين ، علي المغيري (علي هامش قوت القلوب لابي طالب الملكي .
- ٦٣- سنن ابن ماجة ، لابي عبدالله محمد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ) تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، القاهرة ، عيسى البابي الميلى .
- ٦٤- سنن ابي داود ، سليمان بن الاشعث بن اسحاق الازدي السجستاني. طبع فى القاهرة مصطفى البناى الطبى (١٣٧١) .
- ٦٥- سنن الترمذي ، لابي عيسى محمد بن عيسى بن سوره: تحقيق احمد محمد شاكر واخرون مصدرة بيروت ، المكتبة الاسلامية .
- ٦٦- سيرة ابن هشام ، لابي محمد عبدالملك بن هشام (٢١٨) تحقيق مصطفى السقاواخرون بيروت ، احياء التراث العربى .
- ٦٧- السيرة الحلبيه ، (انسان العيون في سيرة الامين المأمون، مكية دار الباز ١٤٠٠ هـ .
- ٦٨- السيرة النبوية فى ضوء القران والسنة ، د / محمد ابو شهبة ، القاهرة دار الطباعه المحمدية ١٣٩٠ هـ .
- ٦٩- السيرة النبوية ، لابي الحسن علي الحسينى الندوى ط : الاولى ١٣٩٩ هـ جدة / دار الشروق .

(ش)

- ٧٠- شرح العقيدة الطحاوية ابن ابي العز ، حققها جماعه العلماء الطبعة الرابعة ، بيروت ، المكتب الاسلامي ١٣٩١ هـ .
- ٧١- شرح المحلى على جمع الجوامع (بماشيه البناني) ط مصر/ مصطفى الحلبى .
- ٧٢- شعب الايمان ، ابو بكر احمد بن الحسينى على البهيقى (٣٨٤ - ٤٥٨) هـ

(ص)

- ٧٢- الصاوى على الجلالين على تفسير الجلالين ، (١١٧٥ - ١٢٤١) دار احياء

- ٧٢- الكتب العربية لاصحابها البابی الحلبي وشركاه .
٧٣- صحيح البخارى ، (مع شرح عمدة القارى) لبدر الدين بن محمد العيني
بيروت ادار احياء التراث العربى .
٧٤- صحيح البخارى، (مع شرح فتح البارى) لابی الفضل شهاب الدين العسقلانى
(ابن حجر) القاهرة مصطفى البابی الحلبي (١٣٧٨ هـ)
٧٥- صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي الطبعة الثانية القاهرة
دار احياء التراث .
٧٦- صحيح مسلم ، مع شرح الندوى (الطبعة الثانية) بيروت ، دار الفكر
١٣٩٢ هـ .

(ظ)

- ٧٧- ظلال القرآن لسيدقطب ، الطبعة السابعة ، بيروت ، دار احياء التراث
العربى ١٣٩١ هـ .

(ع)

- ٧٨- علم الحياة الحيوانية د / عبدالحليم سويدان .
٧٩- العقيدة الاسلامية والفكر المعاصر د / محمد سعيد البوطى ، جامعة دمشق

(ف)

- ٨٠- الفتح الربانى ، لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى ، احمد
عبدالرحمن البنا (الساعاتى) ، القاهرة ، دار الحديث .
٨١- فتح القدير ، محمد بن على بن محمد الشوكانى (١٢٥٠) هـ القاهرة
مصطفى البابی الحلبي ١٣٨٣ هـ .
٨٢- الفردوس بمأثور الخطاب لابی شجاع شيرويه الديلمى تحقيق السعيد بن
بسيونى الطبعة الاولى . بيروت ، دار الكتب العلمية ١٤٠٦ هـ .
٨٣- الفصل في الملل والنحل ، لابن حزم الظاهرى الاندلسى ، (دبهاشمه الملل
والنحل للشهرستانى)

(ق)

- ٨٤- قيس من نور القرآن الكريم ، محمد على الصابونى ، الطبع الادل، دمشق
دار القلم ١٤٠٧ هـ .

٨٥- قصص الانبياء ، لابن الفداء اسماعيل بن كثير (٧٧٤) هـ تحقيق/ عبيد الغفور عطار .

٨٦- قصص الانبياء ، لابن الفداء اسماعيل بن كثير (٧٧٤هـ) تحقيق /عبد القادر احمد عطا . الطبعة الثانية بيروت ، المكتبة الاسلامية ١٤٠٢ هـ .

٨٧- القضايا الاساسية فى الماركسية ، بليخانوف .

(ك)

٨٧- كتاب السنه ، للامام احمد بن حنبل ، تحقيق ، د/ محمد بن سعيد القحطاني الدمام ، دار ابن القيم .

٨٨- كواشف زيوف فى المذاهب الفكرية المعاصرة . عبد الرحمن حبنكه الميداني الطبعة الاولى ، دمشق دار القلم ١٤٠٥ ،

(ل)

٨٩- لسان العرب ، لابي الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم بن منظور الافريقي بيروت ، دار صادر .

٩٠- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، جمع محمد فؤاد عبد الباقي الكويت ، وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية (١٣٩٧) هـ .

٩١- لوط عليه السلام على ضوء الكتاب والسنة رسالة ماجستير (١٤٠٦) جامعة ام القرى .

(م)

٩٢- مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ، لابن العباس تقي الدين احمد بن عبد الحليم الحراني (٧٢٨) هـ جمع وترتيب / عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي ، تصوير الطبعة الاولى ١٣٩٨ هـ) .

٩٣- مذاهب فكرية معاصرة ، محمد قطب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار الشروق ١٤٠٧ هـ .

٩٤- مرآة الاطلاع على اسماء الامكنه والبقاع ، لصفى الدين عبد المؤمن البغدادي (٧٣٩) هـ تحقيق / على محمد الجاوي ، الطبعة الاولى القاهرة ، عيسى البابي الحلبي (١٣٧٣) هـ

٩٥- المستدرک على النصيحين ، لابي عبدالله الحاكم النسيابوي (٤٠٥) هـ بيروت دار الكتاب العربي .

- ٩٦- مسند الامام احمد بن حنبل للامام احمد بن حنبل الشيباني (٥٢٩٠) .
بيروت دار صادر .
- ٩٧- معالم الدعوة لعبد الوهاب الديلمي ، جدة ، دار المجتمع .
- ٩٨- المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية ، تحت اشراف مجموعه من
الباحثين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، دار المعارف ١٣٩٣ هـ .
- ٩٩- المفردات في غريب القرآن لابن القاسم الحسين بن محمد الراءب
الاصفهانى (٥٠٢) هـ ، تحقيق / محمد سيد كيلانى ، بيروت ، دارالمعرفة
- ١٠٠- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الاحاديث المشتهرة على الانسنة
لابى الخير محمد بن عبدالرحمن السخاوى تصحيح عبدالله محمد الصديق
بيروت دار الكتب العلمية .
- ١٠١- مناهل العرفان لمحمد عبدالعظيم الزرقانى الطبعة الثالثة القاهرة
الباب الحلبى .
- ١٠٢- موارد الظمان على زوائد ابن حبان . لنور الدين الهيثمى تحقيق
محمد عبدالرزاق حمزه بيروت ، دار الكتب العلمية .
- ١٠٣- المواقف لعرض الدين الايجى معينى الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد
بن عبدالله الحسنى الحسينى الايجى الشافعى ، وشرح للشريف
الجرجاني (٨٣٢ - ٩٠٥) .
- ١٠٤- المواهب اللدنية ، احمد بن محمد القسطلانى بيروت ، دار الكتب
العلمية .
- ١٠٥- الموجز في المادية الديالكتيكية ، لبود ستنيك وياخوت .
- ١٠٦- موقف الاسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ احمد الطويشه
مكة المكرمة ، دارمكة (١٤٠٢) هـ .
- (ن)
- ١٠٧- نبى الله شعيب على الكتاب والسنة الصادق المنامحمد ، رسالـة
ماحستير (١٤٠٤) . جامعة ام القرى .
- ١٠٨- نقض اوهام المادية الحدلية د / محمد سعيد رمضان البوطى الطبعة
الثانية ، دمشق / دار الفكر (١٣٩٩ هـ) .
- ١٠٩- نهاية الارب في فنون الادب ، شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب النويرى ٦٧٧-
٧٣٣ هـ ، نسخه مصوره عن طبعة دارالكتب وزارة الثقافة والارشاد القومى
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة .

فهرس الاعلام المسلمین المترجم لهم

- ١- ابو الحسن بن بطلال ، على بن خلف البكرى (ص) (٦٢) .
- ٢- الحسين بن محمد بن المفضل ابى القاسم الاصفهانى (ب) .
- ٣- صالح بن عبید بن اسيف عليه السلام (ص) (١٩٥) .
- ٤- عبد الجبار بن احمد بن عبد الجبار بن خليل القاضى ، أبو الحسن (ص) (٤١)
- ٥- عز الدين ابو محمد عبد العزيز عبدالسلام . ص ٢٣٦ .
- ٦- على بن الحسين بن واقد (ص) (٤٠٧) .
- ٧- كعب بن مالك السلمى . (٣٧٤) .
- ٨- لاحق بن حميد سعيد السدوسى البهرى (أبو مجلز) (ص) (٢١) .
- ٩- موسى بن عمران عليه السلام . (ص) (٢٧٧) .
- ١٠- (نوح بن لامك) (عليه السلام) (ص) (١٣٩) .
- ١١- هارون الرشيد (ص) (٤٠٦) .
- ١٢- هود بن صالح بن فخشذ (ص) (١٦٦) .
- (١٢) يوشع بن نون (ص) (٢٣٥) .

فهرس الاعلام غيرالعربالمترجم لهم

- ١- تشالز داروين (ص) (٥٢١)٠
- ٢- روبرت بيچ (٥٤١)٠
- ٣- فرانك الن (٥٣٤)٠
- ٤- كارل ماركس (٥٠٨)٠
- ٥- كلودم ماشواى (٥٤٢)٠
- ٦- لينين (٥١١)٠
- ٧- ميربت ستانلى كونجدين (٥٤١)٠
- ٨- موسى بن ظفر السامرى (٣٦٩)٠
- ٩- نمروء بن كنعان (٥٦٦)٠
- ١٠- هيچل (٥٠٤)٠

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

تمهيد:-

- أ - مفهوم الحق والباطل والصراع بينهما ١
ب - غاية الصراع في الاسلام ٥
ب - بيان أن سورة الاعراف من السبع الطوال وهى مكية ٦
- المقاصد العامة لسورة الاعراف ٦
أولا : الآيات الخاصة بالحض على الايمان بالله جلاوعلا ٧
ثانيا: الآيات الزاجرة عن الشرك ١١
ثالثا: الآيات الخاصة باليوم الاخر وأن وقوعه لا ريب فيه ١٦
رابعا: الآيات الواردة في صدق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ٢١

٣٤ الفصل الاول : صراع ابليس مع آدم عليه السلام
٣٥ مقدمة

- المبحث الاول : مسائل مهمة لابد من توضيحها
المسألة الاولى: أطوار خلق آدم عليه السلام ٣٨
المسألة الثانية: خلق حواء عليها السلام ٤٠
المسألة الثالثة: من هم الملائكة؟ ٤٢
المسألة الرابعة: السجود لآدم وبيان حقيقة ذلك . ٤٦
المسألة الخامسة: حقيقة ابليس أعادنا الله منه . ٤٨
المسألة السادسة: الكلام عن الجنة . ٥٤
المسألة السابعة: الكلام عن الشجرة . ٦٣

المبحث الثانى: الآيات التى يدور الصراع عليها فى قصة
آدم عليه السلام ٦٥

٦٦ مقدمة

- اولا : تكريم الله لأدام وبنيه باسجاد الملائكة له ٦٧
ثانيا: امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام ٧٠
ثالثا: توعده إبليس لبنى آدم بالاغواء . ٧٥

رقم الصفحة

- ٧٥ رابعا: عجز ابليس عن اغواء عباد الله المخلصين
- ٧٩ خامسا: كيد الشيطان للانسان وفيه يتجلى الصراع بينهما
- سادسا: تكريم الله لآدم وزوجه باسكانهما الجنة ونهيهما عن
- ٨٣ عن الأكل من الشجرة
- ٨٦ سابعاً: بداية كيد الشيطان لادم وزوجه عليهما السلام
- ٩١ ثامناً: عتاب الله جل وعلا لادم وزوجه بعد أن أكلا من الشجرة
- ٩٤ تاسعاً: استقرار آدم وزوجه في الارض بعد أن تاب الله عليه
- عاشراً: دعوة القران بني آدم للاعتبار بما حدث بين أبيهم
- ٩٦ وابليس أعادنا الله منه .
- ١٠٧ الحادى عشر: التعرى ومفاسده ووسائل الشيطان إليه .
- ١١٠ الثانى عشر: في التحذير من فتن ابليس ومكايده
- ١١١ أ - الكبر والاعتزاز والاعجاب بالنفس
- ١١٤ ب - الحسد
- ١١٦ ج - الكذب والخداع
- ١١٨ د - الاغراء بالشهوات
- ١٢٠ هـ - الغرور
- ١٢١ و - الجرأة على المعصية
- ١٢٣ ز - طول الامل
- ١٢٥ ح - الايمان والكفر
- ١٢٧ الثالث عشر: براءة آدم عليه السلام من الشرك
- ١٣٥ الفصل الثانى: الصراع بين نوح عليه السلام وبين قومه
- ١٣٧ مقدمة :
- ١٣٩ المبحث الأول : دعوة نوح عليه السلام لقومه .
- ١٤٤ المبحث الثانى: أسباب الصراع بين نوح عليه السلام وقومه
- ١٥٠ المبحث الثالث: موقف نوح عليه السلام من الكافرين المعاندين
- ١٥٠ أولا : دفاع نوح عليه السلام عن نفسه
- ١٥٨ ثانياً: مثير الكافرين المعاندين من قوم نوح

رقم الصفحة

- ١٦٤ الفصل الثالث: الصراع بين هود عليه السلام وبين قومه
- ١٦٦ مقدمه
- ١٦٦ المبحث الاول : دعوة هود عليه السلام لقومه
- المبحث الثانى:
- ١٧٣ أولا : موقف الكافرين المعاندين من دعوة هود عليه السلام
- ١٧٦ ثانيا: دفاع هود عليه السلام عن نفسه
- ١٧٩ المبحث الثالث: موقف هود عليه السلام من الكافرين والمعاندين
- ١٧٩ أولا : مجاهدة هود عليه السلام لقومه وردة لشبهاتهم
- ١٨٦ ثانيا : مصير الكافرين المعاندين من قوم عاد .
- ١٩٢ الفصل الرابع : الصراع بين صالح عليه السلام وبين قومه .
- ١٩٤ مقدمة
- ١٩٦ المبحث الاول : دعوة صالح (عليه السلام) لقومه .
- المبحث الثانى: موقف الكافرين المعاندين من دعوة صالح عليه
- ٢٠١ السلام .
- ٢١٤ المبحث الثالث: مصير الكافرين المعاندين من قوم صالح عليه السلام
- الفصل الخامس: الصراع بين لوط عليه السلام وبني زوجته خاصة
- ٢١٩ و قومه عامة
- ٢٢١ التعريف بلوط عليه السلام
- ٢٢٢ مقدمة :
- ٢٢٥ صلة لوط عليه السلام بقومه .
- ٢٢٦ المبحث الاول : دعوة لوط عليه السلام لقومه .
- ٢٣١ المبحث الثانى: موقف قوم لوط من دعوته .
- ٢٣٦ المبحث الثالث: نجات لوط واهله ومصير الكافرين المعاندين
- ٢٤٥ الابحاث الطبية الحديثة كشفت عن اضرار فاحشة اللواط .
- ٢٤٨ الفصل السادس : الصراع بين شعيب عليه السلام وقومه
- ٢٤٩ مقدمة : نبذة عن نبي الله شعيب عليه السلام .
- ٢٥١ المبحث الاول : دعوة شعيب عليه السلام لقومه .

رقم الصفحة

- ٢٦١ المبحث الثانى : موقف الكافرين من دعوة شعيب عليه السلام
٢٦٤ موقف شعيب عليه السلام من قومه *
٢٦٧ موقف شعيب من اتهامه بالضعف *
٢٧١ المبحث الثالث : عاقبة قوم شعيب *
الفصل السابع : القسم الاول :

- ٢٧٥ الصراع بين موسى عليه السلام وبين فرعون وفيه مباحث
٢٧٧ مقدمة موجزة :
٢٧٨ المبحث الاول : دعوة موسى عليه السلام لفرعون وملكه
٢٨٣ المبحث الثانى : ظهور بينة موسى عليه السلام لفرعون وقومه
٢٨٤ المبحث الثالث : موقف فرعون وملكه من دعوة موسى عليه السلام
٢٨٦ المبحث الرابع : شعور السحرة بأهميتهم لدى فرعون *
٢٨٧ المبحث الخامس : موقف السحرة من موسى عليه السلام *
٢٩٣ المبحث السادس : موقف موسى عليه السلام من السحرة *
المبحث السابع : موقف السحرة بعد بطلان سحرهم من معجزة موسى
٢٩٦ عليه السلام *
٢٩٨ المبحث الثامن : تهديد فرعون للسحرة وتوعده لبيهم
٣٠٣ المبحث التاسع : موقف الملاء من موسى عليه السلام وقومه
٣٠٧ المبحث العاشر : وصية موسى عليه السلام لقومه بالاستعانة بالله
٣١٠ المبحث الحادى عشر : تضجر بنى اسرائيل من وصية موسى عليه السلام لهم
٣١١ المبحث الثانى عشر : معاقبة الله لفرعون وقومه قبل اغراقهم
٣١٨ المبحث الثالث عشر : نبذهم العهد الذى عاهدوا به نبيهم *
٣٢٢ المبحث الرابع عشر : عاقبة الصراع ونهاية فرعون وقومه
المبحث الخامس عشر : منة الله تعالى على بنى اسرائيل بتمكينهم
٣٢٢ من الارض المباركة (بلاد الشام) أو أرض مصر على ما قيل

القسم الثانى الصراع بين موسى عليه السلام وبنى اسرائيل

- ٣٢٩ وفيه مباحث :-
٣٤٠ المبحث الاول : وجود بنى اسرائيل لنعم الله *
المبحث الثانى : تهيفة الله نبيه موسى عليه السلام لتلقى
٣٤٦ التوراة

رقم الصفحة

- ٣٥١ المبحث الثالث: طلب موسى عليه السلام من ربه الرؤية
المبحث الرابع: مسألة اختلاف اهل السنة والمعتزلة
٣٥٧ فى وقوع رؤية الله .
المبحث الخامس: تسلية موسى عليه السلام بعد أن منع
٣٦٠ من الرؤية
المبحث السادس: تحذير بنى اسرائيل بتجنب مسالك
٣٦٤ الهالكين والضالين
المبحث السابع: عبادة بنى اسرائيل للعجل فى غيبة
٣٦٩ موسى عليه السلام
٣٧٧ المبحث الثامن: ندم قوم موسى على عبادتهم العجل
المبحث التاسع: توبيخ موسى عليه السلام لقومه على
٣٧٩ عبادتهم العجل .
المبحث العاشر: لوم موسى عليه السلام لأخيه هارون
٣٨٥ ودفاع هارون عن نفسه
المبحث الحادى عشر: اعتذار موسى عليه السلام لربه
٣٨٧ عما بدر منه لأخيه
المبحث الثانى عشر: نقيمة الله جل وعلا على من لم
يعتذر إلى ربه عن عبادة العجل
٣٨٨ وتوبته على المعتذرين
المبحث الثالث عشر: حرص موسى عليه السلام على الألواح
٣٩٣ وشدة تعلقه بها .
المبحث الرابع عشر: منة الله جل وعلا على صلحاء بنى
٣٩٥ اسرائيل
المبحث الخامس عشر: ثناء الله تعالى على صلحاء بنى
٤٠١ اسرائيل
المبحث السادس عشر: نعم الله على بنى اسرائيل فى
٤٠٣ التيه وكفرانهم تملك النعم
المبحث السابع عشر: مخالفة أخرى شنعاء فى مخالفات
٤٠٧ بنى اسرائيل .

رقم الصفحة

- ٤١٤ المبحث الثامن عشر: جناية أخرى من جنایات بنو اسرائيل
- الفصل الثامن : الصراع بين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبين قومه .
- ٤١٨
- ٤٢٠ مقدمة :
- ٤٢١ المبحث الاول : دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لقومه
- المبحث الثانى: أسباب موقف الكافرين المعاندين
- ٤٤٩ وانكارهم لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم
- المبحث الثالث: موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الكافرين المعاندين .
- ٤٥٧
- الفصل التاسع : وجه الشبه بين مواقف الكافرين والمعاندين
- ٤٦٣ وردهم وانكارهم لدعوة الرسل عليهم السلام
- ٤٦٧ المبحث الاول: دعوة الرسل عليهم السلام لاقوامهم
- ٤٧٦ وجه الشبه بين دعوة الرسل
- المبحث الثانى: مواقف الكافرين المعاندين في دعوة الرسل عليهم السلام
- ٤٧٧ وجه الشبه بين مواقف الكافرين المعاندين لدعوة الرسل .
- ٤٨٨ المبحث الثالث: كفر كل امة ومعصيتها ونوع العقاب الذى عوقبت به .
- ٤٩٢
- ٥٠٠ الفصل العاشر : الصراع كما تراه وتصوره النظريات الحديثة
- ٥٠٢ مقدمة : نشأة النظريات القديمة والحديثة
- ٥٠٤ نظرة الفلاسفة في العصر الحديث الى الصراع .
- ٥٠٤ هيجل .
- ٥٠٨ كارل ماركس .
- ٥١٥ نقد المادية الجدلية
- ٥١٨ نظرية داروين .
- ٥١٨ النظرية اللاماركية
- ٥١٩ نقد نظرية لامارك

رقم الصفحة

- ٥٢١ خلاصة نظرية داروين *
- ٥٢٣ نقد الداروينيه
- ٥٢٥ الداروينية الحديثة (Hugode Veries)
- الفصل الحادى عشر : موقف الاسلام من الصراع ويتضمن الرد على
- ٥٢٩ النظريات الحديثة
- ٥٣١ الجانب العقائدى
- ٥٤٧ الجانب الاجتماعى
- ٥٥٤ الجانب الاقتصادى
- ٥٦٧ الفصل الثانى عشر : عاقبة الصراع بينى الحق والباطل
- ٥٦٩ المبحث الاول : النصر محتم من عند الله للمؤمنين
- ٥٧٥ المبحث الثانى: تعدد وجوه النصر الالهى للمؤمنين
- ٥٨٢ الخاتمة
- ٥٨٩ فهرس المصادر والمراجع
- ٥٩٨ فهرس الاعلام
- ٦٠٠ فهرس الموضوعات *